المملكة العربية السعودية
الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
كلية الدعوة
قسم الدعوة

منهج ابن القيم

في الدعوة إلى الله تعالى

رسالة مقدمة من

الطالب

أحمد بن عبد العزيز الخلف

لنيل درجة العالية العالمية " الدكتوراة

إشراف

الدكتور / فتح الرحمن عمر

١٤١٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتدي ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله الداعي إلى دار السلام وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله الله شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار الذين دعوا بدعوته واقتفوا أثره ونهاجه فحازوا معالي الامور جميعاً .

وبعد :-

فقد عاش المجتمع المسلم في الصدر الأول على ضوء نور الرسالة المحمديه أمة واحدة يربطها إيمان واحد برب واحد وانتماء واحد لم تطفئه عواصف الأهواء ، ولم تلتبس به ظلم الآراء وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقهم فسادت هذه الأمة وارتفع علمها على أهل الأرض فكانت خير أمة عرفها التاريخ اشتهرت بالعدل والحق والايمان ومحاسن الأخلاق ، والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فكانت بحق أمه أن تسود أهل الأرض بما تحمله من مبادىء عجز أهل العقول عن الإتيان بمثلها ، فكان أهل الارض جماعتين " جماعة المسلمين " وجماعة الكافرين على اختلاف مللهم ونحلهم .

ولكن مالبث هذا الأمر الا وانشقت جماعة المسلمين عن وحدتها في العقيدة والسلوك والسياسة فخرج عن منهجها وطريقها الذي ورثته عن نبيها بعض هذه الجماعة فمنهم من خرج عن وحدتها الإعتقاديه ومنهم من خرج عن وحدتها السياسية ومنهم من خرج عن وحدتها في السلوك وهم في خروجهم هذا على نوعين : أحدهم يظهر الايمان ويبطن الكفر فحصل للأسلام وأهله من هؤلاء البلاء العظيم الذي يطول شرحه ، والآخرون أُتوا من سوء الفهم في معاني النصوص والاستبداد بما ظهر لهم منها ، وتحكيم بعضهم ، ما تهواه أنفسهم من دونها ، وكلاهما في الخروج عن الحق سواء وسبب في تقطيع أوصال هذه الجماعه ، وتشتت شملها قال تعالى : ((ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)) (١) لقد صاح بهذه الفرق جماعة المسلمين من عهد الصحابة والتابعين ومن تبعهم على منهجهم من كل قطر ورموهم بالعضائم وتبرؤوا منهم ، وحذروا من سبيلهم أشد التحذير ، رجوعاً الى سنة نبيهم

(١) سورة الانفال الآية : ٤٦

وأمره بالتمسك بالجماعة وأن الله مع الجماعة فكان من أعلام النبوّة أن تحصل هذه الفرق وأنها ستعادى هذه الجماعة وأن هذه الجماعة هي المنصورة والظاهرة مهما كانت الأحوال فتحقق جميع ما أخبر به المصطفى صلى الله عليه وسلم فإن الناظر في تاريخ الفرق الإسلاميه يدرك ذلك جيداً ويَعْرِفُ مدى صمود جماعة المسلمين أمام جميع هذه الفرق وذلك لأنهم اعتقدوا الحق الثابت عن الله ورسوله فذلك يقوي إدراكهم وحجتهم فلا تجد أحداً من هذه الفرق الا وسقط أمام حجتهم ولا تجد أحداً من أفراد هذه الجماعة الا ووافق الآخر على اختلاف بلادهم وبعدها عن بعض ولا تجد أحداً منهم رجع إلى أحد من هذه الفرق بل أهل الفرق يرجعون اليهم ويقرونهم ويعتصمون بأقوالهم اذا ما خولفوا من قبل الفرق الأخرى ، فصمدت أمام جميع الفرق سواء كانت من الفرق المعادية للاسلام أصلاً وفرضت على المسلمين ، أم من الفرق التي انحرفت عن المنهج الصحيح الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وهي في هذه المعركه قد يدال عليها عندما تجتمع قوى الشر عليها ويطغى أهل الفسق ويكثر عددهم ولكن سرعان ما تنقشع هذه الغمة وتظهر هذه الجماعة بما تمتلكه من قوة الإدراك والبصيرة التي تغمر قلوب أعلامها من اعتقاد الحق وهكذا كانت هذه الجماعة حصناً حصيناً ، ونوراً يستضيء به جميع من حار أو ضلّ .

وفي عصرنا الحاضر ظهرت جماعات تدعو إلى الاسلام اختلفت مسمياتها وأهدافها ، ومناهجها ، حسب ما أراده مؤسسها ، وما يهدف إليه فمنها ما ظهر كرد فعل من بعض من شحذت همته وكان في قلبه غيرة على الاسلام فوضع الأسس والمناهج مصيباً أحياناً ومخطئاً حيناً آخر فقلده من قلده تقليداً بلا بصيرة ولا تعديل لما أخطأ فيه وخرج به عن منهج جماعة المسلمين حتى لو كان الخطأ يخالف شرائع الدين .

بينما يظهر في الجانب الآخر جماعة على النقيض من الجماعة الأولى نصبت نفسها للدعوة لهذا الدين قاصده هدمه وتفتيت قوته وتقطيع أوصاله يظهرون الكفر والنفاق ويتسمون بالمسلمين والاسلام منهم براء وأكثر ما تظهر هذه الجماعات في البلاد الكافره التي يوجد فيها أقليات مسلمه حيث يمكنهم التعمية عليهم ، وتعليمهم اسلاماً يخالف ما عرفه المسلمون .

ويظهر على الساحة أيضاً قسم آخر قد خفيت أهدافه وكثر فيهم اللغط فمن الناس من انجرف معهم ولم يعدل بهم ومنهم من حاربهم وذكر عنهم

الانحـــراف وما زال يسعـــى فـي كشـف سرائـرهـم ، أمـا الطـائفـة الثالثـة فـوقفـت متحـــيرة لا تصـوبهـم ، ولا تحـاربهـم قـد أرجأ وا أمرهـم ولـم يتّـبين لهـم أمرهـم وهـذه الجماعـات قـد اخطـأت بخروجهـا عـن منهـج جماعـة المسلميـن الـذي يقـربـون منـه تـارة ويبعـدون عنـه أخـــرى مما أدى الـى اختـلاف المنتسبين الى هذه الجماعـات وعـدائهـم لبعـض ومحاولـة كـل جمـاعـة النيـل مـن الآخـرى والحـط مـن قيمتهـا بـل ومحاربتهـا ،والتي تعـود خسـارتهـا بالتالـي علـى جمـاعـة المسلميـن مـن تقطيـع أوصـالهـا وعـزل بعضهـا عـن بعـض وإضعـاف شـوكتهـا (١) وفـي الجانـب الآخـر تحالـف اعـداء الاسـلام علـى اختـلاف مللهـم ونحلهـم علـى هـدم الاسـلام ومحـاربتـه بشـتـى الـوسـائـل .

فـي وقـت نـرى فيـه بـزوغ نـور مـن الصحـوة الاسـلاميـة فـي كثـير مـن البـلاد مما يـوجـب رعـايتهـا والعنـايـة بهـا مـن تـوجيههـا الـى المسار السليـم لاسيمـا وأن أكـثر المنتسبيـن الـى هـذه الصحـوة هـم مـن الشبـاب الذيـن يملكـون مقـومـات النصـر إن أحسـن إعـدادهـم وتـوجيههـم وحسنـت قيـادتهـم .

و كثـير مـن هـؤلاء الشبـاب أصابـه نـوع مـن الإحبـاط أمـام هـذه العواصف الهـوجـاء مـن الصـراع والخـلاف لا يـدري أيـن مـركـب النجـاة ، وغامـر البعـض بمتابعـة مـن دعـاه أولا مـع قلـت تمكنـه مـن العلـم الـذي يحميـه مـن الانجـراف وراء كـل نـاعـق ، وجميـع هـذه الأمـور تعتـبر معـوقـات للصحـوة الاسـلاميـه وتصديـع وتفتيـت للأمـة بـأسـرهـا ، ولا يمكـن أن تنتصـر الأمـة وهـي بهـذا التفـرق والتعصـب والعـداء لأن ريحهـم قـد ذهبـت كمـا أخـبر الـرّب سبحانـه بذلـك ولـم ينتصـر العـرب المسلمـون فـي صـدرهـم الاول الا بنبـذ هـذا التفرق والتعصـب والاجتمـاع علـى كلمـة واحـده يحكـم فيهـم كتـاب اللـه وسنـة رسولـه .

انتمـاء واحـد ، وامـام واحـد وجمـاعـة واحـدة ، ولا يصلـح آخـر هـذه الأمـة الا بما صلـح بـه أولهـا ، والمخـرج مـن هـذه الكـارثـة التـي ألمـت بالمسلميـن ، هـو رجـوع هـذه الجماعـات الـى الجمـاعـة الأولـى جمـاعـة المسلميـن التي لـم تتغـير ولـم تتبـدل بـل سـاروا علـى منهـاج النبـوة ولـم ينفصلـوا عنـه ولا لحظـة واحـدة والتي أمـر النبي صلـى اللـه عليـه وسلـم بلـزومهـا وعـدم الخـروج عنهـا والعـض عليهـا بالنواجـذ وأن كـل ما خـرج فهـو رد ، وهـذه الجماعـة ما زالـت قائمـة بالدعـوة الى اللـه ولهـا فـي كـل زمـان رجـال يقـومـون بهـا وينشـرونهـا ، ومن اعـلام هـذه الجماعـة الذي نـذر

---

(١) انظـر فـي كتـاب حكـم الانتمـاء للشيـخ بكـر بـن عبدالعـزيز ابـو زيـد .

نفسه للدعوة اليها وتوضيح منهجها والدفاع عنها ورد المطاعن حولها ونشرها بأسلوب مقنع ومنهج قويم معتمداً فيه على الكتاب والسنة هو ابن قيم الجوزية رحمه الله وقدس روحه الذي وقع عليه الإختيار ليمثل هذه الجماعة .

أسباب اختيار الموضوع :

أولاً : إن ابن القيم من الشخصيات الإسلامية البارزة في تاريخ الدعوة الاسلامية ، فقد كان داعية بالمعنى الخاص المتعارف عليه لدى أصحاب هذا الشأن من ناحية الإصلاح والوعظ والإرشاد والتربية والأخلاق وفنون النشر والبلاغ كما سنرى إن شاء الله ، و كان داعية بالمعنى العام من ناحية الآراء الاعتقادية والفقهية والسلوكية والتربوية .

ثانياً : أن ابن القيم رحمه الله كان محط الاعجاب البالغ من أهل العلم في كل عصر ومصر والاستشهاد بآرائه وأقواله في مقام المعارضة والترجيح لما يتميز به من الاعتماد على الكتاب والسنة ، واقتفاء أثار السلف الصالح .

ثالثاً : إن منهجه وأسلوبه موافق لروح العصر الذي نعيش فيه ، حيث أن كثيراً من الموضوعات التي تطرق لها ، توافق هذا العصر الذي ازدهر علمياً وثقافياً .

رابعاً : إن هذا العصر قد انفتحت فيه أبواب الشرور والشهوات والاضطرابات النفسية ودعوة ابن القيم رحمه الله علاوة على ما تمتعت به من مميزات فإنها دعوة روحية شفافة تزيل تلك الاكدار والامراض التي تراكمت على أهل هذا العصر .

خامساً: كثرة مصنفات هذا الداعية ، وشمولها جميع متطلبات الدعوة من دعوة إلى المعتقد الصحيح ورد الشاردين الى منهج الكتاب والسنه والانتساب إلى سلف هذه الامة ، والدعوة الى التحرر من ربقة التقليد ، والدعوة إلى تفهم روح الشريعة ، وتربية الأمة تربية اسلامية ، وغير ذلك من مستلزمات الدعوة .

بل كان التراث الفكري العظيم الذي تركه ابن القيم رحمه الله مرتعاً خصباً لكثير من الباحثين ، قديماً وحديثاً وهذا يدل على أصالة الفكر وثراء المعرفة لذلك اتسعت دراسة تراث ابن القيم واستوعبت العديد من الدراسات والبحوث فمثلاً كتب عنه في جهوده في الدفاع عن عقيدة السلف (١) والبعض في تقريب

---

(١) د. عبدالله محمد جار النبي . منهج ابن القيم في الدفاع عن عقيدة السلف

فقه ابن القيم (١) والبعض عن منهجه في التفسير (٢) والبعض عن عصره وآرائه ومنهجه (٣) والبعض عن لغته وبلاغته (٤) والبعض عن موقفه من التفكير الإسلامي (٥) والبعض كتب عنه كمفكر تربوي (٦) وغيرها كثير كما أن اكثر هذه البحوث رسائل علمية نالت درجاتها ، وهؤلاء الأفاضل كتبوا كتابات لا أدعي أني أجاريهم فيما كتبوا ، ولكن الرغبة تأكدت عندما لم أجد من بحث فيه كداعية ملهم ، وخصص وجمع شتات ما كتبه في فن نشر الدعوة ومستلزماتها ، مما جعلني أخوض لجة هذا البحر من العلم ، وانتقي من لؤلؤه حتى يخرج هذا البحث في منهجه في الدعوة إلى الله تعالى .

منهجي في هذا البحث

لقد قمت بجمع آراء ابن القيم فيما يخص مسائل الرساله ثم قسمتها على الابواب والفصول ممهداً لها ثم أنقل كلام ابن القيم بعد مقول القول فأقول مثلاً قال ابن القيم : أو كما يقول : ثم أبدأ من أول السطر فاذا انتهى كلامه أضع علامة النقل ، وقد أدرج عدة نقول من كلام ابن القيم يتلوا بعضها بعضاً ولا يفصلها الا علامة الترقيم ، ولا أضع كلام ابن القيم بين قوسين الا اذا خشيت الالتباس . وقد أكرر نفس النص في أكثر من موضع للحاجه.

وقد الجأ إلى كتب شيخه شيخ الاسلام ابن تيمية وغيره عند عدم عثوري على نص احدى مسائل الكتاب ، وقد حاولت وأنا أبرز منهج ابن القيم أن انقل ما ينفع الداعية علماً وروحاً مع التركيز والتقيد بما يخص البحث لاسيما وأنني أجول في رياض ابن القيم ومن النادر أن أجد زهرة لا أتمنى أن أزين بها باقة بحثي ، لجمال ما كتبه ومحاكاته للفكر والقلب والروح ، وقد قمت بعزو الآيات ، وتخريج الأحاديث والترجمة لغالب الأعلام .

خطة البحث

وقد جاء البحث مشتملاً على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمه وفهارس الكتاب .

---

(١) د. بكر بن عبدالله ابو زيد ، وقد استفدت من كتاباته كثيراً لكثرة ما كتب عنه وجمع

(٢) الاستاذ محمد أحمد السنباطي .

(٣) د. عبدالعظيم عبدالسلام شرف الدين .

(٤) د. أحمد ماهر البقرى في كتابه ابن القيم اللغوي ، والدكتور عبدالفتاح الاشتين في كتابه حسه البلاغي في تفسير القرآن الكريم .

(٥) د. عوض الله حجازى وقد حاول التقليل من قيمة الداعيه ابن القيم واتهامه بالتلفيق وعدم الانتخاب .

(٦) د. حسن بن علي بن حسن الحجاجي .

اما المقدمه : فذكرت فيها أهم الدوافع التي حملتني على الكتابة في هذا الموضوع وبينت فيها أيضاً ملخصاً للمنهج الذي سرت عليه .

أما التمهيد : فقد ذكرت فيه التعريف بالداعية ابن القيم .

اما الباب الأول : فتحدثت فيه عن أصول الدعوة عند ابن القيم وقسمته إلى أربعة فصول .

الفصل الأول : موضوع الدعوة وقسمته إلى مباحث تحدثت فيها عن تعريف الدعوة وحكمها وفضل الدعوة والداعية والحاجة اليها وموضوع الدعوة وتحدثت فيه عن تعريف الاسلام وأركانه مبتدئاً بالشهادتين وإثبات وجود الله ووحدانيته وإثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأنها أشرف المعارف وهي أعظم ما يواجه الداعية .

ثم تحدثت عن بقية الاركان مبيناً الحكمة من مشروعيتها وفق ما يراه ابن القيم .

الفصل الثاني : أهداف الدعوة عند ابن القيم وقد قسمت هذا الفصل إلى تمهيد وثلاثة مباحث ، لكل هدف مبحثٌ خاصٌ ، المبحث الأول : سيادة شرع الله ، المبحث الثاني : تقرير مذهب السلف الصالح ، المبحث الثالث : تربية الأمة المسلمة .

الفصل الثالث : صفات الداعية

وأولها العلم وبينت فضله وحاجة الداعية إليه والواجب منه وآدابه وغير ذلك مما يراه ابن القيم وأدخلت في هذه الصفة البصيره ثم الاخلاص ، والصبر ، والتواضع ، والزهد ، والصدق ، وأخلاق الداعية عموماً .

الفصل الرابع : اساليب الدعوة ووسائلها وتحدثت عن أساليب الدعوة وهي أسلوب الحكمة ، والموعظة ، والجدل ، والجهاد .

ثم تحدثت عن وسائل الدعوة أولاً التعليم ثانياً الخطابة ثالثاً القلم .

أما الباب الثاني : فذكرت فيه منهجه في الاسس العلمية في مجال الدعوة وقد قسمته إلى ثلاثة فصول .

الفصل الأول : تحدثت عن الأصول الاعتقادية واهميتها وموقفه من الفرق ونشأتها وأسباب الإفتراق ، والمنهج الذي ارتضاه ابن القيم وأصوله في الدعوة إلى الاعتقاد وهي الإعتماد على الكتاب والسنة ، وإبراز مذهب السلف وفضح سرائر المبتدعة والرد عليهم .

الفصل الثاني : منهجه في مجال الفروع الشرعيه وتحدثت فيه عن مسيرة الفقه الاسلامي وتاريخ حركته واسباب الاختلاف ، وكسر ابن القيم لسلطان التقليد وفتح باب الاجتهاد ومذهبه واصوله التي اعتمد عليها في الفتوى .

الفصل الثالث : منهجه في إصلاح المجتمع وتحدثت فيه عن مفهوم التربية وعن القلوب وتقسيمها وأمراضها وعلاجها وانواع النفوس وأمراضها وعلاجها ,وهذا هو الأساس الاول في التربيه"

وتحدثت عن الاساس الثاني في اصلاح المجتمع وهي السياسة .

الباب الثالث : منهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد جعلته فصلين

الفصل الأول : التعريف بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحدثت فيه عن مكانته في الاسلام وحكمه وأدلة مشروعيته وعلاقته بالدعوة وتعريف الحسبة ونشأة ولاية الحسبة .

الفصل الثاني : أركان الحسبة وتحدثت فيه عن المحتسب ، والمحتسب عليه والمحتسب فيه والاحتساب ، واختصاصات المحتسب وسلطاته عند ابن القيم .

ثم الخاتمه وقد ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت اليها من خلال البحث .

ثم الفهارس وهي فهرس الآيات الواردة مرتبة على حسب سور القرآن الكريم وفهرس الأحاديث والآثار ثم فهرس الاعلام المترجم لهم في البحث ، ثم فهرس المصادر والمراجع مرتبة ترتيبا هجائيا ثم فهرس الموضوعات .

وفي الختام

أتقدم بواجب الشكر والتقدير لكل القائمين على هذه الجامعة المباركة التي تربيت فيها وترعرعت في أكنافها مذ كنت طفلا الى الآن ، ومنحتني الكثير الكثير أسأله سبحانه أن يديمها ذخرا للاسلام والمسلمين .

كما أشكر فضيلة الدكتور فتح الرحمن عمر الذي تفضّل بالاشراف على الرساله فلقد منحني من وقته وعطفه وكرمه الكثير ، وبذل لي من دماثة الخلق ولين الجانب وعطف الأبوه ما كان عونا لي على إنجاز الرسالة أسأل الله أن يمدّ في أجله ويبارك له وينفع به وبعلمه .

كما أشكر فضيلة شيخنا الشيخ عبدالمحسن بن حمد العباد على توجيهه

لي باختيار هذا الموضوع ، مما كان له أعظم الأثر في نفسي .

كما أشكر كل من اتحفني برأى أو توجيه أو مرجع من مشايخي واخوتي وزملائي سائلاً الله عز وجل أن يجزل لهم جميعاً عني عطاءً غير مجذوذ إنه أكرم مسؤول .

التمهيد

التعريف بالداعية ابن قيمّ الجوزيه (١)

هو محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعي ثم الدمشقي شمس الدين ، ابو عبدالله الشهير بابن قيم الجوزيه (٢) .

وتتفق كتب التراجم على أن ولادة هذا الإمام كانت في عام ٦٩١ هـ ، نشأ هذا العالم في جو علميوحاضرة علمية ، فدمشق التي نشأ فيها ، منارة من منارات العلم في ذلك العصر خاصة بعد سقوط حاضرة العلم بغداد في أيدى الغزاة من التتار ، واقفال مدارس العلم وابادة كثير من كتب العلم والعلماء في عاصفة هوجاء همجية لم يعرف التاريخ مثلها (٣) فاتجه طلبة العلم والعلماء الى الشام ، ومصر ، فكانتا من أعظم حواضر العلم ، فكانت في الشام عدة مدارس وجوامع أتاحت لهذا الامام فرص العلم والتعلم .

---

(١) لقد اعتنى المترجمون والباحثون في ذكر حياة ابن القيم ومنهم من ألف في حياته وأثاره استقلالاً وفي ابواب خاصة بحياته تغني عن دراستي لحياته دراسة موسعه ولكنّ سأتحدث عن جانب من جوانب حياته وسوف أذكر بعض كتب التراجم والكتب التي يمكن الرجوع اليها وأولها كتب تلاميذه رحمه الله وغيرهم مثل ذيل طبقات الحنابلة : ٤٤٧/٢ للأمام زين الدين ابى الفرج عبدالرحمن البغدادي الشهير بابن رجب الحنبلي تحقيق محمد الفقي مطبعة السنه المحمديه بالقاهره الطبعة الأولى عام ١٣٧٢هـ ، البداية والنهاية ٢٣٤/١٤ لابن كثير الوافي بالوفيات للصفدى : ٢٧٠/٢ ط : الثانيه سنة ١٣٨١هـ ، وذيل العبر للذهبي : ٢٨٢/٥ ، وشذرات الذهب في اخبار من ذهب : ١٦٨/٦ لعبدالحي بن العماد ط المكتب التجاري بيروت ، والدرر الكامنه في أعيان المائه الثامنه : ٤١/٤ للحافظ ابن حجرالمدني بمصر عام ١٣٨٧هـ ، وانظر البدر الطالع في محاسن من بعد القرن السابع : ١٤٢/٢ لمحمد بن علي الشوكاني ط مطبعة السعادة بمصر الطبعة الأولى عام ١٣٤٨هـ وانظر الفتح المبين في طبقات الاصوليين: لعبدالرحمن بن مصطفى المراغى ط الثانيه بيروت ، وانظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة : ٦٢/١ لجلال الدين السيوطي ط الأولى عام ١٣٨٤هـ مطبعة الحلبي بمصر ، والاعلام للزركلي ٥٦/٦ ط دار العلم للملايين بيروت الطبعة السادسه عام ١٩٨٤م يضاف الى كتب التراجم هذه اكثر الكتاب الذين قاموا بتحقيق كتبه رحمه الله أو الباحثين في جانب من جوانب علمه الواسع أو ألفوا في حياته استقلالاً مثل محمد مسلم الغنمي في كتابه ابن قيم الجوزيه وأحمد ماهر البقرى في كتابه ابن القيم من آثاره العلميه ، ود. عبدالعظيم شرف الدين في كتابه ابن قيم الجوزيه عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف ، وبكر بن عبدالله أبو زيد في كتابه ابن قيم الجوزيه حياته وآثاره . وغيرها كثير .

(٢) انظر كتاب ابن قيم الجوزيه حياته وآثاره : ص ٧ فقد اعتنى بضبط اسمه وكنيته والمشاركين له في هذا اللقب وغير ذلك .

(٣) انظر البداية والنهاية : ٢٠٠/١٤

فهو في الأصل من أسرة علمية كريمة ، فأبوه قيم المدرسة الجوزية وناظرها ومدير شئونها ولابدّ أن يكون لذلك أثر في تعلق الابن بالدرس والمدارس .

وقد ترجم لوالده ابن كثير في حوادث ٧٢٣ هـ فقال : " الشيخ العابد الناسك أبو بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الحنبلي قيم الجوزيه كان رجلاً صالحاً متعبداً قليل التكلف ، وكان فاضلاً وقد سمع شيئاً من دلائل النبوة عن الرشيد العامري ، توفي فجأة ليلة الاحد تاسع عشر ذي الحجه بالمدرسه الجوزيه وصلى عليه بعد الظهر بالجامع ودفن بباب الصغير ، وكانت جنازته حافلة واثنى عليه الناس خيراً رحمه الله (١) وله في الفرائض اليد الطولى وعنه أخذها ابنه شمس الدين رحمهما الله (٢) ولذلك نرى أثر العلم في أولاده

شمس الدين المترجم له ، وأخيه زين الدين ابى الفرج عبدالرحمن بن ابى بكر ولد بعد أخيه الشمس بنحو سنتين فكانت ولادته سنة ٦٩٣هـ وشارك أخاه في أكثر شيوخه ، ومن تلاميذه الحافظ بن رجب (٣) وكذا ، سَرَتْ هذه البركة في الأولاد مثل ابن أخيه زين الدين : وهو عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن زين الدين عبدالرحمن كان من الأفاضل وقد اقتنى أكثر مكتبة عمه شمس الدين توفي يوم السبت الخامس عشر من شهر رجب سنة ٧٩٩هـ (٤) .

وكذا ابنه عبدالله : جمال الدين بن عبدالله بن الامام شمس الدين محمد توفي سنة ٧٥٦هـ وهو شاب فاضل محصل كانت لديه علوم جيده ، وذهن حاضر خارق أفتى ودرس وأعاد وناضر وحجّ مرات عديده تولى التدريس بالصدرية بعد وفاة أبيه شمس الدين فأفاد ، وأجاد رحمه الله وبلّ بالرحمة ثراه (٥).

وكذا ابنه إبراهيم : قال ابن كثير في حوادث ٧٦٧هـ : توفي الشيخ برهان الدين ابراهيم بن الشيخ شمس الدين بن قيم الجوزيه ، ببستانه بالمزه ونقل إلى عند والده بمقابر باب الصغير فصلى عليه بعد صلاة العصر بجامع جراح وحضر جنازته ، القضاة والأعيان ، وخلق من التجار والعامة ، وكانت جنازته حافلة ، وقد بلغ من العمر ٤٨ سنه ، وكان بارعاً فاضلاً في النحو والفقه وفنون أخرى على طريقة والده رحمهما الله تعالى ، وكان مدرساً بالصدرية

---

(١) البداية والنهاية : ١١٠/١٤

(٢) التقريب لفقه ابن القيم : ٣٥/١ نقلاً عن المنهل الصافي لابن تغرى بردى .

(٣) الدرر الكامنه لابن حجر : ٤٣٤/٢

(٤) الدارس في تاريخ المدارس للقصيمي : ٦١/٢

(٥) البداية والنهاية : ٢٣٥/١٤ ، ٢٥٣/١٤

والتدمرية ، وله تصدير بالجامع وخطابة بجامع صلحان ، وترك مالا جزيلا يقارب المائة ألف درهم " (١) .

وبعد فهذا هو الجو الذي نشأ فيه ابن القيم رحمه الله ، مدينة علم ومدارس وجوامع تعجّ بطلبة العلم ،وأسرة علم وبركة ، تدل على كرم الاتجاه، وحسن الخلق ، فكان لذلك أعظم الأثر في تكوين شخصية ابن القيم ، لاسيما وأنه صاحب همة عالية وذكاء وألمعية فحاز علوم الدين وغيرها رحمه الله يقول عنه تلميذه ابن رجب : تفقه في المذاهب ، وبرع وافتى ، وتفنن في علوم الاسلام ، وكان عارفاً بالتفسير لا يجارى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيها المنتهى ، وعنى بالحديث ومتونه وبعض رجاله ، وكان يشتغل في الفقه ويجيد تقريره وتدريسه ، وفي الاصلين ، ولا رأيت أوسع منه علماً ، ولا أعرف بمعاني القرآن والسنة وحقائق الإيمان منه ، وليس هو المعصوم ولكن لم أر في معناه مثله وقال القاضي برهان الدين الزرعي عنه : ما تحت أديم السماء أوسع علماً منه ودرس بالصدرية وأم بالجوزية مدة طويلة وكتب بخطه ما لا يوصف كثرة " (٢) .

ويقول ابن كثير : " سمع الحديث ، واشتغل بالعلم ، وبرع في علوم متعددة لاسيما علم التفسير والحديث والاصلين ، ولما عاد الشيخ تقي الدين بن تيمية من الديار المصرية في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة لازمه إلى أن مات الشيخ فأخذ عنه علماً جما ، مع ما سلف له من الاشتغال فصار فريداً في بابه في فنون كثيرة ، مع كثرة الطلب ليلاً ونهاراً (٣) .

لقد استكمل ابن القيم بحيازة هذا العلم والبراعة فيه ، المقومات الأساسيه والشروط الواجب توفرها في الداعية المسلم من علم وعمل ، وتعليم ، وصبر مما جعله نبراساً يقتدى به ، وداعية يجمل اقتفاء أثره واتباع منهجه ، فقد برع وتفنن رحمه الله في علوم الإسلام وتعليمها والدعوة اليها وتميز على أقرانه بسعة العلم وتأسيسه على ما جاء عن الله ورسوله مقتفيا في ذلك أثر السلف الصالح كما سنعرف ذلك من خلال دراستنا لمنهجه رحمه الله لاحقاً ان شاء الله تعالى .

---

(١) البداية والنهاية : ٣١٤/١٤

(٢) ذيل طبقات الحنابلة : ٤٤٧/٢ الى ٤٤٩ مع بعض الحذف .

(٣) البداية والنهاية : ٢٣٤:١٤

الا أن مواطن البروز والجمال في دعوة هذا الإمام هي تلك الشفافية والإيمان العميق الصادق ، وتلك المحبة النادره ، والغربة الدائمة والسفر إلى الله التي جعلت لدعوته نوراً يستضيء به السالكون ، وحصناً يتحصن به الداعون ، وسهاماً ترسل إلى المعاندين والجاحدين .

إن الروحانيه الإيمانيه التي كست دعوة هذا الإمام هي السرّ في نجاح دعوته وقبولها حتى من الخصوم لأنه يدعو بنور الله ومن أجله طالباً رضاه عازفاً عمّن سواه ، شعاره محبته والشوق إليه وتنفيذ أمره في كل ما أمر، لقد سدّ ، بذلك المنافذ على الحاقدين ، وفتح أبواب الهدى للطالبين ، وما ذلك إلا بصدق اللهجه،ونقاء السريرة،وتحرى مواطن رضى الرب تبارك وتعالى فخالج هذا الإحساس نفس المدعو كما خالج نفس الداعية من قبل ، وهذا ما يدركه كل عاقل متجرّد عن الأهواء .

ولو أردنا أن نتعرف على هذه الروحانية في هذا الإمام لطال بنا المقام ولكن نريد أن نتعرف على بعض صورها في حياة هذا الداعية الملهم .

كعبادته وزهده وأخلاقه واشواقه وغربته وسفره الدائم ، الدالة بمجملها على حقيقة معرفته رحمه الله تعالى،لبارئه ، ومحبته التي فاقت جميع المحبوبات ،

فكانت عبادته لربه وزهده فيما دونه والإفتقار إليه والإنابه ، والرجاء والخوف ، والتوكل عليه كل ذلك يظهر جلياً من خلال ما كتبه رحمه الله أما ما ذكره مشاهدوه عيانا فإنه زيادة في تأكيد صدقه مع ربه سبحانه يقول عنه الحافظ بن رجب (١) : " وكان رحمه الله تعالى ذا عبادة وتهجد وطول صلاة إلى الغاية القصوى ، وتأله ولهج بالذكر ، وشغف بالمحبة ، والإنابة والإستغفار ، والإفتقار إلى الله ، والإنكسار له ، والإطراح بين يديه وعلى عتبة عبوديته ، لم أشاهد مثله في ذلك وكان في مدة حبسه مشتغلاً بتلاوة القرآن بالتدّبر والتفكر ففتح عليه من ذلك خيراً كثيراً وحصل له جانب عظيم من الأذواق والمواجيد الصحيحه ، وتسلط بسبب ذلك على الكلام في علوم أهل المعارف والدخول في غوامضهم وتصانيفه مملوّه بذلك .

وحجّ مرات كثيرة ، وجاور بمكة ، وكان أهل مكة يذكرون عنه من شدّة العبادة وكثرة الطواف أمراً يتعجب منه ، وقال ابن كثير : وكان حسن القرآءة والخلق

---

(١) انظر ذيل طبقات الحنابله : ٤٤٧/٢، ٤٤٨

كثير التودد ، لا يحسد أحداً ولا يؤذيه ولا يستعيبه ، ولا يحقد على أحد ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه ، وكانت له طريقة في الصلاة يطيلها جداً ، ويمدّ ركوعها وسجودها ، ويلومه كثير من أصحابه في بعض الأحيان فلا يرجع ولا ينزع عن ذلك رحمه الله وبالجملة كان قليل النظير في مجموعه وأموره وأحواله والغالب عليه الخير والأخلاق الصالحه (١).

لقد سيطرت الروح الإيمانيه على حياة هذا الداعية سيطرة تامة بحيث أصبحت الغربة والإغتراب ، والسفر من هذه الأوطان الفانية إلى الوطن الخالد والشوق إلى المحبوب ولقائه تظهر في أغلب ما سطره رحمه الله في كتاباته الشعرية والنثرية " وتلك جوله نتتبع فيها دلائل هذه الغربة معه ، ولنستمع إليه في البداية يعبر عن هذه الغربة (٢) التي يعيشها حادياً للنفس،والناس إلى السفر،والجد فيه،إلى الوطن الأصيل،الحقيقي،والحياة الأبدية فيقول رحمه الله:

إن الناس كلهم في هذه الدار غُرباء ، فإنها ليست،لهم بدار مقام ، ولا هي الدار التي خلقوا لها وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبدالله بن عمر رضي الله عنهما : (كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل) وهكذا هو في نفس الأمر ، لأنه أمر أن يطالع ذلك بقلبه ويعرفه حق المعرفه ولي من أبيات في هذا المعنى :

وحيّ على جنات عدن ، فإنها * * منازلك الأولى وفيها المخيّمُ
ولكننا سبى العدو ، فهل ترى * * نعود إلى أوطاننا ونُسلّم؟
وأى اغتراب فوق غربتنا التي * * لها أضحت الأعداء فينا تحكّم؟
وقد زعموا أن الغريب إذا نأى * * وشطّت به أوطانه ليس ينعم
فمن أجل ذا لا ينعم العبد ساعة * * من العمر ، إلا بعد ما يتألم

وكيف لا يكون العبد في هذه الدار غريباً ، وهو على جناح سفر لا يحل عن راحلته إلا بين أهل القبور ؟ فهو مسافر في صورة قاعد (٣) .

ثم بين رحمه الله حكمة الرب تبارك وتعالى في زرع هذه الغربة في كيان الإنسان ، وأن الهجرة إلى الوطن فطرة في الإنسان السوي فقال :

ان النفس مولعة بحب العاجلة وإيثارها على الآخرة ، وهذا من لوازم كونه خلق من عجل ، وكونه خلق عجولا ، فعلم سبحانه ما في طبيعته

---

(١) انظر البداية والنهاية : ٢٣٤/١٤ ، ٢٣٥

(٢) انظر هذا الموضوع في كتاب شرح القصيده الميميه لابن القيم ص ٣٤ عرض وتحليل مصطفى عراقي نشر مكتبة ابن تيمية القاهره مطبعة التقدم ، وانظر مدارج السالكين ٢٠٣/٣ ط دار الكتب العلميه بيروت الطبعة الاولى .

(٣) مدارج السالكين : ٢٠٩/٣

من الضعف والخسور ، فاقتضت حكمته أن أدخله الجنة ، ليعرف النعيم الذي أعدّ له عيانا ، فيكون إليه أشوق ، وعليه أحرص ، وله أشدّ طلبا ، فإن محبة الشيء والشوق إليه من لوازم تصوره ، فمن باشر طيب شيء ولذته وتذوق به ، لم يصبر عنه ، وهذا لأن النفس ذواقة توّاقة ، فإذا ذاقت تاقت، ولهذا إذا ذاق العبد طعم حلاوة الإيمان ، وخالطت بشاشة قلبه رسخ فيه حبه ولم يؤثر عليه شيئا أبدا .

فاقتضت حكمته أن أراها أباهم وأسكنه أياها ، ثم قص على بنيه قصته ، فصاروا كأنهم مشاهدون لها ، حاضرون مع أبيهم ، فاستجاب من خلق لها ، وخلقت له ، وسارع إليها فلم يثنه عنها العاجلة بل يعد نفسه كأنه فيها ثم سباه العدو .

فيراها وطنه الأول ، فهو دائم الحنين إلى وطنه ، ولا يقرّ له قرار حتى يرى نفسه فيه ، كما قيل :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى * * ما الحب إلا للحبيب الأول
كم منزل في الأرض يألفه الفتى * * وحنينه أبدا لأول منزل (١)

هكذا دائما تجد نفس ابن القيم رحمه الله مولعه بمنزلها الأول لم يفارقه الشوق ولم يغادره الحنين إليها ، وهذا دليل على شدة ما يعانيه من الغربة.

فاذ كان رحمه الله يرى أن جميع الناس غرباء فهم عنده لا يتساوون في الغربة ، بل هم طبقات ومنازل أكرمها أشدها غربة ووحشة ثم جعل الدعاة في قمة الغرباء فقال :

فأهل الاسلام في الناس غرباء ، والمؤمنون في أهل الاسلام غرباء وأهل العلم في المؤمنين غرباء ، وأهل السنة - الذين يميزونها من الأهواء والبدع - فهم غرباء .

والداعون إليها الصابرون على أذى المخالفين : هم أشدّ هؤلاء غربة ولكن هؤلاء هم أهل الله حقا وهي الغربة التي مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهلها ، وأخبر عن الدين الذي جاء به : أنه بدأ غريبا ، وأنه سيعود غريبا كما بدأ ، وأن أهله يصيرون غرباء .

وهذه الغربة قد تكون في مكان دون مكان ، ووقت دون وقت ، وبين قوم دون قوم .

ولكن أهل هذه الغربة هم أهل الله حقا، فإنهم لم يأووا إلى غير الله

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والارادة لابن القيم: ١٤/١ دار نجد للنشر والتوزيع طبع دار الفكر بدمشق عام ١٤٠٢هـ

ولم ينتسبوا إلى غير رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولم يدعوا إلى غير ما جاء به ، وهم الذين فارقوا الناس أحوج ما كانوا إليهم ، فإذا انطلق الناس يوم القيامة مع آلهتهم بقوا في مكانهم فيقال لهم " ألا تنطلقون حيث انطلق الناس ؟ فيقولون : فارقنا الناس ، ونحن أحوج إليهم منا اليوم ، وإنا ننتظر ربنا الذي كنّا نعبده .

فهذه الغربة لا وحشة على صاحبها ، بل هو آنس ما يكون إذا استوحش الناس وأشدّ ما تكون وحشة إذا استأنسوا ، فوليه الله ورسوله والذين آمنوا وان عاداه أكثر الناس وجفوه (١) .

ثم بعد هذا الإيضاح يوجه الدعاة إلى أن هذه الغربة ستزيد إذا ما قام بالدعوة على الوجه الأكمل فليوطنوا أنفسهم على الغربة والوحشة فيقول رحمه الله :

فإذا أراد المؤمن ، الذي قد رزقه الله بصيرة في دينه ، وفقها في سنة رسوله ، وفهما في كتابه ، وأراه ما الناس فيه : من الأهواء والبدع ، والضلالات وتنكبهم عن الصراط المستقيم الذي كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فإذا أراد أن يسلك هذا الصراط : فليوطن نفسه على قدح الجهال وأهل البدع فيه ، وطعنهم عليه ، وازدرائهم به ، وتنفير الناس عنه، وتحذيرهم منه كما كان سلفهم من الكفار يفعلون مع متبوعه وإمامه صلى الله عليه وسلم فأما إن دعاهم إلى ذلك وقدح فيما هم عليه : فهنالك تقوم قيامتهم ، ويبغون له الغوائل وينصبون له الحبائل ، ويجلبون عليه بخيل كبيرهم ورجله ، فهو غريب في أمور دنياه وآخرته لا يجد من العامة مساعداً أو معيناً ، فهم عالم بين جهال ، صاحب سنة بين أهل بدعة ، داع إلى الله ورسوله ، بين دعاة إلى الأهواء والبدع ، آمر بالمعروف ناه عن المنكر بين قوم المعروف لديهم منكر والمنكر معروف (٢) .

هكذا الداعية في غربة وخروجٌ من هذه الغربة هو استمرار لئ في الدعوة والسفر يحتاج إلى صبر، وتحمل ،وركوب أخطار،والإ فلن تصل إلى برّ السلام يقول ابن القيم :

العاقل يعلم أن السفر مبنى على المشقة وركوب الأخطار ، ومن المحال عادة أن يُطلب فيه نعيم ولذة،وراحة،إنما ذلك بعد انتهاء السفر .

---

(١) انظر مدارج السالكين : ٢٠٥/٣ ، ٢٠٦

(٢) انظر مدارج السالكين : ٢٠٨/٣

ومن المعلوم أن كل وطأة قدم أو كل آن من آنات السفر غير واقفة ولا المكلف واقف وقد ثبت أنه مسافر على الحال التي يجب أن يكون المسافر عليها من تهيئة الزاد الموصل فإذا نزل،أو نام،أو استراح فعلى قدم الإستعداد للسير (١) .

فلابدّ من السير وتخطي الصعاب ولابدّ من الاستعداد إنه الجد في السفر إذاً يلبّ على الداعية بعد أن سيطر عليه الشعور بالغربة وبعد أن هزه الشوق إلى بلاد الأفراح .

ومما يؤكد مدى استغراق ابن القيم في الشعور بالغربة ، وتعلق أشواقه ببلاد الأفراح وجده في السير أن تنظر في اختياره لأسماء كتبه فترى معظمها يدور حول هذا المحور : محور الرحلة والتشوق والسفر .

فكتاب " حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح " يعرض لك في عنوانه القافلة يحدوها الحادي وهي تواصل المسير في شوق الوصول ويحثها على الإسراع .

وكتاب " زاد المعاد " وثيق الصلة بالرحلة حيث الحاجة الى الزاد في الطريق والسفر .

وكتاب " طريق الهجرتين " ألفه لبيان وجوب الهجرة إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بما توحي الهجرة من مفارقه الأوطان ومعاناة الأخطار في سبيل الوصول .

وكتاب " مدارج السالكين " يوحي اسمه بالرحلة والسير الذي تقطع فيه المراحل حتى يصل السالك الى أعظم الدرجات إذاً فالرحلة عند ابن القيم أمر جوهري نشأت عن شعوره الحاد بغربته في الدنيا وأثارها شدة شوقه إلى بلاد الأفراح والأشواق (٢) كما أنه رحمه الله قد بين للناس مراحل هذا السفر والزاد وانواع المسافرين وغير ذلك ناصحاً ومذكراً فقال :

العبد من حين استقرّ قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه ومدة سفره هي عمره الذي كتب له ثم قد جعلت الأيام والليالي مراحل لسفره ، فالكيّس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نصب عينه ، فيهتم بقطعها سالماً غانماً ، فإذا قطعها جعل الأخرى نصب عينيه ، ولا يطول عليه الأمد فيقسو قلبه ويمتدّ أمله ويحصر بالتسويف والوعد والتأخير ، بل يعدّ عمره

---

(١) الفوائد لابن القيم : ٢١١ دار الكتب العلميه بيروت الطبعة الاولى عام ١٤٠٣هـ .

(٢) شرح القصيده المبميه:٤١ بتصرف قليل .

تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته ، فإنه إذا تيقن قصرها ، وسرعة انقضائها هان عليه العمل فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك فلا يزال هذا دأبه حتى تنقضي مراحل عمره فيحمد سعيه ويبتهج بما أعده ليوم فاقته وحاجته ، فاذا طلع صبح الآخرة وانقشع ظلام الدنيا فحينئذ يحمد سراه ويذجاب عنه كراه .

ثم الناس في قطع هذه المراحل قسمان : فقسم قطعوها مسافرين إلى دار الشقاء فكلما قطعوا منها مرحله قربوا من تلك الدار وبعدوا عن ربهم وعن دار كرامته ، قطعوا تلك المراحل بمساخط ربهم ومعاداته ومعاداة رسله وأوليائه ودينه والسعي في إطفاء نوره وإبطال دعوته واقامة دعوة غيرها فهم محبوبون فيها بالشياطين الموكلة بهم يسوقونهم الى منازلهم سوقاً كما قال تعالى : ((الم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزاً))(١) .

القسم الثاني : قطعوا تلك المراحل سائرين فيها إلى الله وإلى دار السلام وهم ثلاثة أقسام : ظالم لنفسه ، ومقتصد ، وسابق بالخيرات بإذن الله فهؤلاء متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره ، وفي نفس السير وسرعته وبطئه .

فالظالم لنفسه مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته بل مفرّط في زاده ومع ذلك فهو متزود ما يتأذى به في طريقه ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود من ذلك المؤذي الضار .

والمقتصد اقتصر من الزاد على الذي يبلّغه ولم يشدّ مع ذلك أحمال التجارة الرابحه ، ولم يتزود ما يضره فهو سالم غانم لكن فاتته المتاجر الرابحه وأنواع المكاسب الفاخره .

والسابق بالخيرات : همه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات لعلمه بمقدار الربح الحاصل فيرى من الخسران أن يدخر شيئاً مما بيده ولا يتجر به فيجد ربحه يوم يغتبط التجار بأرباح تجاراتهم فهو كرجل قد علم أن أمامه بلدة الدرهم يكسب فيها عشرة إلى سبعمائة وأكثر وعنده حاصل وله خبرة بالتجارة فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئى به تجارة إلى ذلك البلد لفعل (٢) .

---

(١) الآية من سورة مريم : ٨٣

(٢) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم : ١٨٥-١٨٦ طبع دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ .

وكذلك كان الشوق والحب حادياً لقريحته الشعريه رحمه الله مما جعله يبوح بما يخالج نفسه من حب وشوق لمحبوبته واصفاً للناس جمالها وطيبها موضحاً سبب هيامه بها وبمنازلها وهي جنّة الخلد في مقطوعة أدبية رائعة فيقول :

وان حجبت عنّا بكل كريهة * * وحُفّت بما يُؤذى النفوس ويؤلم
فلله ما في حشوها من مَسَرّة * * وأصناف لذّة بها يتنعم
بذياك الوادى يهيم صبابة * * محب يرى أن الصبابة مغنم
ولله أبصار ترى الله جهرة * * فلا الضيم يغشاها ولا هي تسأم
فيا نظرة أهدت إلى الوجه نضرة * * أمن بعدها يسلو المحب المتيم
فإن كنت ذا قلب عليل بحبها * * فلم يبق الا وصالها لك مرهم
تراه إذا أبدت له حسن وجهها * * يلذّ به قبل الوصال وينعم
وللورد ما قد البسته خدودها * * وللخمر ما قد ضمه الريق والفم
تذكر بالرحمن من هو ناظر * * فينطق بالتسبيح لا يتلعثم
اذا أقبلت جيش الهموم بوجهها * * تولى على أعقابه الجيش يهزم
فياخاطب الحسناء إن كنت راغبا * * فهذا زمان المهر فهو المقدم
فاقدم ولا تقنع بعيش منغص * * فما فاز باللذات من ليس يقدم (١)

وبعد فهذه نبذه من تعلق هذا الداعية بربه وحبه له و صدق أشواقه وهجرته إليه وتألهه ولهجه بذكره ، فهل يا ترى

بعد هذا تجد في قلب هذا العبد ، مكاناً لغيره أو تعلقاً بغيره أو أن يحاول مثله عصيان أمر ربه ومخالفته أن الله سبحانه وتعالىأكرم من أن يخذله بل رأينا من كرمه سبحانه له واعانته وتبصيره وحفظه وحفظ علمه وتنوير بصيرته ، وحب الناس له ما يدل على منّة الله سبحانه وتعالى عليه .

وهذا ما يريح الدعاة في تقبل آرائه في الدعوة ، لاطمئنانهم إلى سلامة قصده ومعتقده .

مؤلفات ابن القيم رحمه الله (٢)

١ - إجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهميه
٢ - أحكام أهل الذمه
٣ - تحفة المودود في أحكام المولود
٤ - أسماء مؤلفات ابن تيميه

---

(١) انظر كتاب حادى الأرواح الى بلاد الافراح لابن القيم : ص ١٨

(٢) قام الدكتور بكر بن عبدالله ابو زيد مشكوراً بثبت تفصيلي لأسماء مؤلفات ابن القيم وحذف المكرر وما نسب لابن القيم عن طريق الخطأ فتحصل أن عددها الذي أمكنه الوقوف عليه ٩٦ كتاباً ، وسوف أسرد هنا الكتب المطبوعة فقط ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتابه " ابن قيم الجوزيه حياته واثاره " ص ١١٩ طبع مطابع الهلال الرياض ط الأولى عام ١٤٠٠هـ .

٥ - إعلام الموقعين عن رب العالمين ، بكسر همزة اعلام وفتحها .

٦ - إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان .

٧ - اغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان .

٨ - بدائع الفوائد .

٩ - تهذيب سنن أبي داود .

١٠ - جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام .

١١ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ويأتي بأسم " الداء والدواء " .

١٢ - حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح .

١٣ - حكم تارك الصلاة .

١٤ - رسالة إلى كل مسلم .

١٥ - الرسالة التبوكية .

١٦ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين .

١٧ - الروح .

١٨ - زاد المعاد في هدي خير العباد .

١٩ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

٢٠ - الصواعق المنزله على الجهمية والمعطله وذكر باسم الصواعق المرسله .

٢١ - الطب النبوي وقد أودعه ابن القيم في كتابه زاد المعاد .

٢٢ - طريق الهجرتين وباب السعادتين .

٢٣ - الطرق الحكمية في السياسة الشرعيه .

٢٤ - عِدّة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، بكسر العين وفتح الدال من الوعد .

٢٥ - الفروسيه .

٢٦ - الفوائد .

٢٧ - الفوائد المشوقة إلى علوم القرآن ، ونسبته إلى ابن القيم خطأ (١)

٢٨ - الكلام على مسالة السماع .

٢٩ - الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية ، وهي المشهورة بالقصيدة النونيه .

٣٠ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين .

٣١ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة .

٣٢ - المنار المنيف في الصحيح والضعيف .

---

(١) أنظر ابن قيم الجوزيه حياته وآثاره : ١٨٤

٣٣ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى .

٣٤ - الوابل الصيب من الكلم الطيب .

٣٥ - التبيان في أقسام القرآن .

هذه بعض آثار هذا الداعية ، الذي نذر نفسه للدعوة إلى الله وتصحيح مسار الأمه وتوجيهها إلى منهج الله ورسوله ومحاربة البدع ، حتى توفاه الله سبحانه وتعالى ليلة الخميس ثالث عشر من رجب سنة أحدى وخمسين وسبعمائة (١) رحمه الله وقدس روحه وأسكنه فسيح جناته .

وقد كانت جنازته حافلة رحمه الله ، شهدها القضاة والأعيان ، والصالحون من الخاصة والعامة وتزاحم الناس على حمل نعشه وكمل له من العمر ستون سنة (٢)

---

(١) ذيل طبقات الحنابله : ٤٤٨/٢ والبدايه والنهايه : ٢٣٤/١٤

(٢) البدايه والنهايه : ٢٣٥:١٤

الباب الأول : أصول الدعوة عند ابن القيم

الفصل الأول : موضوع الدعوة

الفصل الثاني : أهداف الدعوة

الفصل الثالث : صفات الداعية وأخلاقه

الفصل الرابع : وسائل الدعوة وأساليبها

الفصل الأول : موضوع الدعوة

المبحث الأول : تعريف الدعوة وحكمها

المبحث الثاني : الحاجة اليها وفضلها

المبحث الثالث : موضوع الدعوة وهو الاسلام

المبحث الأول

تعريف الدعوة وحكمها

أولا : تعريف الدعوة في اللغة :

الدعوة في اللغة لها معان متعددة وهي مأخوذة من قوله تعالى :((والله يدعو إلى دار السلام))(١) يقول في اللسان : " والدّعوةُ والدِعْوة والمدعاة " والمدعاة ما دعوت إليه من طعام وشراب ، وقولالله عز وجل : ((والله يدعو إلى دار السلام))(٢) ودعاء الله خلقه إليها كما يدعو الرجل الناس إلى مدعاة أي الى مأدبة يتخذها وطعام يدعو الناس إليه " (٣) .

وقال في المصباح المنير : " دعوت الله أدعوه دعاءً : ابتهلت إليه بالسؤال ورغبت فيما عنده من الخير ، ودعوت زيدا ناديته وطلبت إقباله ، ودعا المؤذن الناس إلى الصلاة فهو داعي الله . والجمع دعاة وداعون ، والنبي داعى الخلق الى التوحيد " (٤) .

" والدعاة قوم يدعون إلى بيعة هدى أو ضلال ، واحدهم داع ، ورجل داعية اذ كان يدعو الناس إلى بدعة أو دين ، أدخلت الهاء للمبالغة " (٥) .

ويصدّق هذا قوله صلى الله عليه وسلم : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا ، ومن دعا إلى ضلالة ، كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا)(٦).

والذي يميز كلاً من دعوة الهدى والضلالة هو الإضافة إلى من يدعو إليه ، يقول الإمام ابن القيم في تعريفه للدعاة :

والدعاة جمع داع ، كقضاة وقاضي ورام ورماة ، واضافتهم إلى الله للإختصاص أي : الدعاة المخصصون به الذين يدعون إلى دينه ، وعبادته ومعرفته ومحبته ، وهؤلاء هم خواص خلق الله ، وأفضلهم عند الله منزلة واعلاهم قدرا (٧) .

فيتضح أن كل معاني الدعوة تدور حول الطلب والسؤال والنداء .

اذاً الدعوة هي : النداء والطلب إلى شيء ما سواءأكان حقا أو باطلا والدعوة إلى الله هي النداء إلى دين الله سبحانه وتعالى وتوحيده .

---

(١) سورة يونس : ٢٥ (٢) الآية من سورة يونس : ٢٥

(٣) لسان العرب لابن منظور : ٢٦٠/١٤

(٤) المصباح المنير مادة دعا : ١٩٤

(٥) لسان العرب : ٢٥٨/١٤

(٦) رواه مسلم في كتاب العلم : ٢٠٦٠/٤ باب من سن سنة حسنة أو سيئة .

(٧) مفتاح دار السعادة : ١٩٤/١

الـدعـــوة فـي الاصطـــلاح :

بعـد أن عرفنـــا معنـى الدعـوة فـي اللغـة ، لابـد أن نحـدد مفهـوم هـذه الدعـوة فـي الإصطـلاح حيـث أن الدعـوة الإسـلاميـة ليسـت كغـيرهـا مـن الدعوات ، فليسـت مـن المبـادىء المتعـارف عليهـا . ، وليسـت ظـاهـرة إجتماعيـة خـاصـــة .

بـل هـي أمـانـــة يتحملهـا خلفـاء رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسلـم من هـــذه الأمـة ، وهـي واجـب يفـرض نفسـه علـى تلـك النفـوس الزكيـة كـي تنقـذ البشـريـة من هاوية الهـلاك وقـد اختلـف العلماء فـي تعريـف الدعـوة إلـى اللـه في الإصطـلاح من جهـة التصـور والشمـول والقصـور حسـب نظـر المعـرّف ، وليـس من اليسـير حصرهـا ونختـار بعضهـا مما يقرّب المعنـــى :

فقـد عرفهـا البعـض بقـولـــه

" انهـا برنامـج كامـل يضـم فـي أطوائـه جميـع المعارف التي يحتـاج إليهـا النـــاس ليبصـروا الغايـة من محياهـم ، وليستكشفـوا معالـم الطريـق التي تجمعهـم راشـديـن " (١).

وقـال آخـــر هـي : " حـث النـاس علـى الخـير والهدى ، والأمـر بالمعروف والنهـــي عن المنكـر ليفـوزوا بسعـادة العاجـل والآجـل " (٢) .

وعرفهـا بعضهـم بأنها : " حركـة إحيـاء للنظـام الإلهـي الـذي أنـزل اللـه عز وجـل علـى نبيـــه الخـاتـم " (٣) .

ويرى بعضهـم : " أن الدعـوة إذا أطلقـت فـإن لهـا معانـي إمـا بمعنـى النشر والبلاغ أو بمعنـى الديـن وعلـى ذلـك فـإن التعريـف الاصطـلاحـي للدعـوة بمعناهـا الأول يغـايـــر تعـريـف الدعـوة بمعناهـا الثانـي واليـك التعـاريـف .

تعريـف الدعوة بمعنى النشـر : هـي " العلـم الـذي بـه تعـرف كافة المحاولات الفنيـــه المتعـددة الراميـة الـى تبليـغ النـاس الاسـلام بمـا حـوى مـن عقيـدة وشريعـة وأخـلاق " وأمـا عـن تعريـف الدعـوة كديـن فـإنـه أورد عـدة تعـاريـف ويقول أنهـا ليسـت متعارضـــة وسـوف ننقـل التعريـف الأول منهـــا .

يقـول : " الدعـوة الإسـلاميـة هـي الديـن الـذي إرتضـاه اللـه للعالميـن ، وأنـــزل تعالميـــه وحيـا علـى رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسلـم وحفظهـا فـي القـرآن الكريـــم ، وبينهـا فـي السنـة النبـويـــة " (٤) .

---

(١) مـع اللـه دراسـة في الدعوة والدعـاة للشيـخ محمـد الغـزالي ص: ١٧
(٢) هـدايـة المرشـديـن ص: ١٧ (المؤلف) الشيـخ علـى محفـــوظ
(٣) الدعـوة الاسـلاميـة في عهـدهـا المكـي ، رؤوف شلبـــي ص: ٣٢
(٤) الدعوة الاسـلاميـة ص: ١٠ - ١٣ ، المؤلـف أحمـــد غلـــوش

التعريـــف المختـــار :

وعرفهـا شيـخ الاسـلام ابـن تيميـة (١) بقولـه : " الدعـوة إلى اللـه هي الدعوة إلى الإيمـان بـه ، وبما جـاءت بـه رسلـه بتصـديقهـم فيما أخـبروا بـه ، وطاعتهـم فيما أمرو "(٢) وقـال : " وقـد تبيـن بذلـك أن الدعـوة نفسهـا أمـر بمعـروف ونهـى عـن المنكـر ، فـإن الداعـي طالـب مستـدع مقتضـ لمـا دعـى إليـه ، وذلـك هـو الأمـر إذ الأمـر هـو طلـب الفعـل المـأمور بـه ، واستـدعـاء لـه ودعـاء إليـه ، فالدعاء إلـى اللـه دعـاء إلى سبيله فهـو أمـر بسبيلـه ، وسبيلـه تصديقـه فيما أخـبر وطاعتـه فيما أمـر " (٣) .

واخـترت هـذا التعريـف لعـدة أسبـاب **أولهـا** : أن شيـخ الإسـلام لـم يقيد التعريف بالضـابـط المنطقـي أو الحـد الإصطـلاحـي كمـا فعـل غـيره من المتأخريـن وهـذا هو الصحيح حيـث أنـه بيـن المـوضـوع والمنهـج .

ثـانيـا : أنـه جمـع بيـن مفهـوم الدعـوة كحركـة بنـاء ونشـر وبيـن دعـوة الإسـلام النظـام الكامـل الـذي أنـزلـه اللـه ، والمتمثـل فـي الإيمـان بـه وتصديـق رسولـه وطاعتـه فيمـا أمـر بـه .

ثـالثـا : جمعـه رحمـه اللـه بيـن الدعـوة والأمـر بالمعروف والنهي عن المنكـر وهـذا هـو الصـواب كمـا سـنرى ذلـك إن شـاء اللـه فـي الباب الثـالـث .

ثـانيـا : حكـم الدعـوة :

لمـا كـانـت رسـالـة الإسـلام خاتمـة الرسالات وهي عامـة للبشـريـة جمعـاء إلى أن تقوم السـاعـة ولا يقبـل اللـه دينـا سـوى الإسـلام لقولـه تعالـى : ((ومن يبتـغ غـير الاسـلام دينـا فلـن يقبـل منـه))(٤) .من هنـا لزمـم التبليـغ كـي تصـل تعاليمهـا وشـرائعهـا الـى النـاس جميعـا .

ومن أمعـن النظـر علـم أن الدعـوة إلى اللـه حيـاة الأديـان وأنـه ما قـام ديـن مـن الاديـان ولا انتشـر مذهـب مـن المذاهـب إلا بالدعـوة ، وما تـداعـت أركـان ملـة بعـد قيـامهـا وتـلاشـت إلا بتـرك الدعـوة .

ولقـد علّمنـا التـاريـخ ، أنـه ما قـام أحـد يدعـو إلـى شـيء إلا وجـد لـه أنصـارا

---

(١) هـو أحمـد بـن عبدالحليـم بـن عبدالسـلام الحراني الدمشقـي الحنبلـي أبو العبـاس تقـي الديـن بن تيميـة ، ولد عام ٦٦١ وتوفى ٧٢٨هـ ، شيـخ الإسـلام وعلم الأعلام وهو من أعظـم شيـوخ ابن القيـم الذيـن تأثـر بهـم وسوف يكثـر ورود أسمـه فـي هذا البحـث لترابط الافكار بينهمـاواتفاقهمـا في المنهج والمصدر، أنظر ترجمته فيالأعلام للزركلي:١٤٤/١

(٢) مجمـوع فتـاوى شيـخ الاسـلام ابـن تيميـة : ١٥٧/١٥

(٣) نفـس المرجـع : ١٦٦/١٥ - ١٦٧

(٤) سـورة آل عمـران آيـة : ٨٥

واتباعا كما نرى المذاهب الباطلة تنمو بالدعوة والمذاهب الحقه بإهمال الدعوة تتضائل ،ولو كان الحق ينتشر بذاته لأنه الحق لما فرضت علينا الدعوة إليه ولما كان ثم حاجة للأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء العاملين (١) .

فاقتضت حكمة البارى عزّ وجل أن تكون هذه الرساله واجبة التبليغ .

وقد اتفق علماء الإسلام على وجوبها (٢) للأدلة القاطعة على الوجوب كقوله تعالى : ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) (٣) .

وقوله تعالى : ((كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))(٤) .

وقوله تعالى : ((وادع إلى ربك ولا تكونن من المشركين)) (٥) .

وقوله تعالى : ((ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة)) (٦) .

وقوله تعالى : ((قل هذه سبيلي أدعوإلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) (٧). إلى غير ذلك من الآيات الكريمة الدالة على الوجوب .

ومن الأدلة في السنة قوله صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (٨) وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (بلغوا عني ولو آية) (٩) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل) (١٠) .

---

(١) هداية المرشدين بتصرف : ١٤

(٢) أنظر تفسير روح المعاني للألوسي ج ٣ ص : ٢١

(٣) سورة آل عمران آيه : ١٠٤

(٤) سورة آل عمران آيه : ١١٠

(٥) سورة القصص آيه : ٨٧

(٦) سورة النحل آيه : ١٢٥

(٧) سورة يوسف آيه : ١٠٨

(٨) رواه مسلم كتاب الايمان برقم ٧٨ : ج ١ ص : ٦٩

(٩) رواه البخاري في كتاب الأنبياء : ٥٠ ج ٤ ص ٤٥٠ عن عبدالله بن عمرو ، وأحمد في المسند ١٥٩/٢

(١٠) رواه مسلم في كتاب الايمان برقم ٨٠ ج ١ ص : ٧٠

والأحاديث الدالة على الوجوب كثيرة .

ولكن العلماء اختلفوا في تعيين الوجوب ، هل هو واجب عيني أي أنه يلزم كل مسلم بعينه أم أنه واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الباقين وإليك بيان كل قول وأدلته التي استدل بها على تعيين قوله :

أولاً : الوجوب الكفائي :

والذين قالوا بهذا القول استدلوا بقوله تعالى : ((وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم))(١).

فالآية الكريمة تدل على أن الدعوة لا تلزم كل مسلم بعينه بل تلزم طائفة من المؤمنين واستدلوا بقوله تعالى : ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) (٢) .

قالوا إن " من " في قوله تعالى منكم تفيد التبعيض (٣) وعليه فإن الذين يتولون مهمة الدعوة إلى الله تعالى بعض الأمه " وهذا واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقين " (٤) .

الوجوب العيني :

واستدل القائلون بهذا القول بقوله تعالى : ((قل هذه سبيلي أدعوإلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) (٥) فالآية تدل على أن الدعوة إلى الله واجبه على من اتبعه وهم أمته يدعون إلى الله ، كما دعا إلى الله .

وبقوله تعالى : ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) (٦) ومعنى هذه الآية الكريمة " ولتكونوا كلكم أمة تدعون إلى الخير وتأمرون بالمعروف ولكن(من)هاهنا تدخل لتخص المخاطبين من سائر الأجناس وهي مؤكدة أن الأمر للمخاطبين ومثله قوله تعالى : ((فاجتنبوا الرجس من الأوثان))(٧) ومعناه اجتنبوا الأوثان فإنها رجس " (٨) .

---

(١) سورة التوبة آية : ١٢٢

(٢) سورة آل عمران آيه : ١٠٤

(٣) تفسير القرطبي : ١٦٥/٤

(٤) فتاوي شيخ الاسلام ابن تيمية ١٥ ص : ١٦٥

(٥) سورة يوسف آية : ١٠٨

(٦) سورة آل عمران آية : ١٠٤

(٧) سورة الحج آيه : ٣٠

(٨) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي : ٤٣٤/١ المكتب الإسلامي للطباعة الطبعة الاولى عام ١٣٨٠هـ

فالأمر في هذه الآية عام " ويدل على العموم قوله تعالى : ((والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)) فان التواصي هو الأمر والنهي " (١) .

واستدلوا كذلك بذم الله تعالى بني إسرائيل ولعنهم على لسان أنبيائه لتركهم الواجب في قوله تعالى : ((لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانو لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون)) (٢) .

وبقوله صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فان لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) (٣) وهذا الحديث صريح في لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لزوما عينيا .

رأى ابن القيم :

يرى ابن القيم أن كل من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم يجب عليه أن يدعو إلى ما دعا إليه لقوله تعالى : ((قل : هذه سبيلي أدعوآ إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) (٤) قال ابن القيم :

" لأن قوله تعالى : - ومن اتبعني - معطوف على الضمير في " أدعو " يعني أنا ومن اتبعني يدعو إلى الله كما أدعو - ثم يقول - وهذا قول الكلبي (٥) قال : حق على كل من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه ويذكر بالقرآن والموعظة. ثم يقول : ويقوى هذا القول من وجوه كثيرة (٦) .

إلا أنه يخص الوجوب بالقدرة على الدعوة حيث أن مدار الوجوب عنده القدرة حيث يقول : فإن مناط الوجوب هو القدرة فيجب على القادر مالا يجب على العاجز قال تعالى : ((فاتقوا اللهماستطعتم))(٧) وقال النبي صلى الله عليه وسلم :

---

(١) تفسير المنار : ٢٧/٤ محمد رشيد رضا .
(٢) سورة المائدة الآيه : ٧٨ و ٧٩
(٣) سبق تخريجه ص:٤
(٤) سورة يوسف الآيه : ١٠٨
(٥) هو ابراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي أبو ثور : الفقيه صاحب الامام الشافعي ، قال ابن حبان كان أحد أئمة الدنيا فقها وعلما وورعا صنف الكتب وفرّع على السنن وذب عنها له كتاب ذكر فيه اختلاف مالك والشافعي ، مات ببغداد شيخا كبيرا سنة ٢٤٠هـ رحمه الله . انظر تذكرة الحفاظ:٢/٧٧ وميزان الاعتدال : ١/١٥ ، وتاريخ بغداد ٦/٦٥ ، والاعلام ١/٢٧
(٦) التفسير القيم ص : ٣١٨
(٧) سورة التغابن ١٦

(إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) (١) .

فالعالم عِنْدَهُ آثم بترك التعليم لأن التعليم دعوة ولأن المعلم يمكن أن يقوم بالدعوة من وجوه كثيرة كالتعليم ، والوعظ والإرشاد ، والتأليف وغير ذلك فيقول عن العالم وهو يتحدث عن جهاد النفس : وأن يجاهدها على الدعوة إليه وهو تعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله (٢) .

أما أصحاب الولاية والسلطان فإنهم ليس كغيرهم فيرى أنه : يصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولاية والسلطان فعليهم من الوجوب ماليس على غيرهم (٣) .

ويقول رحمه الله تعالى وهو يتحدث عن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالنسبة لسائر الأمة ويبين أخص أوصاف هذه الأمة : " والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسوله ، وأنزل به كتبه ووصف به هذه الأمة وفضلها لأجله على سائر الأمم التي أخرجت للناس . وهذا واجب على كل مسلم قادر، وهو فرض كفاية " (٤) .

ومما تقدم ذكره يتبين أن ابن القيم يرى الدعوة إلى الله تعالى بصفة عامة فرض كفاية إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين إلا أنها تتعين على بعض الأشخاص دون البعض وذلك مقيد بالقدرة والاستطاعة .

الجمع بين الأقوال :

يجب أن نعلم أن الدعوة إلى الله تعالى أعمّ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإن كانت نفسها أمر بمعروف ونهي عن منكر ، ولكن هناك أمور لا نستطيع أن نسميها أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، وإن كانت دعوة إلى الاسلام .

فالجهاد في سبيل الله تعالى مثلا رأس الدعوة الى الاسلام وهي نشر للاسلام وتعريف من لم تصله دعوة الإسلام بالإسلام ، والدعوة الى الله تكون باللسان والسنان ومع ذلك لا نطلق على الجهاد بأنه أمر بمعروف أو نهي عن منكر وإنما هو مقصود الجهاد وكذلك من يدع إلى الاسلام بطريق غير مباشر كمن ينشر الإسلام بحسن خلقه وعدله وصدقه وبمعاملته المستقيمة الشريفة التي تدل غير المسلم أن

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : ص ٣١٥ الحديث متفق عليه

(٢) زاد المعاد : ج ٣ ص : ١٠

(٣) الطرق الحكمية ص : ٣١٥

(٤) الطرق الحكميه , : ٣١٥

الإسلام دين الكمال ودين البشرية وأنه الحق الذي يجب أن يتبع مما يكون سببا للدخول في الإسلام ، كما حصل من تجار المسلمين قديما وحديثا .

فاننا لا نقول لمن كان هذا أسلوبه في الدعوة أنه أمر بالمعروف أو نهي عن منكر مع أنها دعوة إلى الله تعالى .

وعلى هذا يمكن أن نقول أن الدعوة إلى الله تعالى تنقسم إلى قسمين دعوة خاصة ، ودعوة عامة .

فنحمل قول من قال بأنها فرض كفاية على العامة وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأن (العلماء اتفقوا على أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية ولم يخالف في ذلك الا النزر ..) (١) لأن المصلحة لا تتكرر بفعله مرتين فلو أبصرنا منكرا من المنكرات كآلة لهو أو إناء خمر ونحن قادرون على إزالته فقام أحدنا بكسرها فإن القصد بالفعل المأمور وقع بفعل الأول فاذا وقع الفعل على الوجه الصحيح إرتفع عن الباقين سواء قام به فرد أو جماعة .

وفي وقتنا الحاضر يجب على من يتولى أمر المسلمين أن يخصص جماعة من علماء الأمة ممن لهم أهلية الدعوة وأن ينشروا على جميع الأقطار كي يقيموا الحجة وينفذوا أمر الله فاذا وجدت هذه الجماعة وقاموا بتبليغ رسالة الله وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر سقطت الدعوة عن البقية وأصبح التبليغ في حق غيرهم سنه .

وأما الذين قالوا بأنها فرض عين فنحمل قولهم على الدعوة الخاصة حيث أن الدعوة تختلف باختلاف الأشخاص والأحوال .

فالرجل في بيته وبين أهله وجيرانه تكون الدعوة بالنسبة له فرض عين لأنه رب البيت وعنده القدرة والاستطاعة بأن يأمر وينهى ويوجه ويربي والله سبحانه وتعالى يقول : ((يا أيها الذين آمنوا قو انفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة)) (٢) ويقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : (كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته الإمام راع ومسئول عن رعيته والرجل راع في أهل بيته وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها وكلكم راع ومسئول عن رعيته) (٣) ، فهو يأمر أهله بالصلاة والصيام والعبادات وينهاهم عن ارتكاب المحرمات ويؤدب إلى غير ذلك .

---

(١) تفسير روح المعاني للألوسي : ج ٣ ص : ٢١

(٢) الآية من سورة التحريم : ٦

(٣) رواه البخاري في كتاب الجمعة رقم الباب ١١ : ج ١ ص : ٢١٥

وكذلك عند كثرة المنكرات وغلبة الجهل فإنها تكون فرض عين على كل واحد ،حسب طاقته . أما ولاة الأمور من حكام المسلمين ، ومن ولي أمر الدعوة والعلماء ممن لهم القدرة ، بالنسبة لأرض الله تعالى الواسعة فانها في حقهم فرض عين فيجب عليهم مالا يجب على غيرهم من تبليغ الدعوة في جميع الأقطار حسب القدرة والإستطاعة لاسيما في وقتنا الحاضر حيث أن وسائل تبليغ الدعوة قد تيسرت والمتمثلة في وسائل الإعلام الحديثة كالاذاعة والتلفاز ، والصحف إلى غير ذلك .

وبعد ذلك كله يتبين لنا أن حكم الدعوة إلى الله تعالى بالنسبة لكونها فرض عين أو فرض كفاية أمر نسبي يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال (١) .

---

(١) انظر بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوة واعداد الدعاة بتاريخ ١٣٩٧/٢/٢٤هـ من بحث فضل الدعوة الى الله وحكمها لسماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز المجلد الأول .

المبحث الثاني : الحاجة إليها وفضلها

حاجة البشرية إلى الدعوة :

إن الحاجة للدعوة إلى الله تعالى ، كامنة في سر وجود البشر في هذه الدنيا ، وحاجة البشرية إليها لا تقاس بحاجة ، لأن السعادة والرخاء ، والاطمئنان والإتزان لا يكون إلا بنشر ذلك النظام الإلهي وهو وحده يستطيع أن يدبر شئون العالم جميعها سواء أكانت اعتقادية أو إجتماعية ، أو إقتصادية أو سلوكية ، لأنه منهج رباني يدرك ولا يدرك ، فهو خالق العالم وصانعه والعالم بجميع أسراره إن من البد بهذا منه التي لا تخفى على عاقل أن صانع الشيء أعرف بأسراره والانسان منا اذا حصل على سلعة من السلع وكان فيها كتاب للتعليمات فإنه يسير على حسب تلك التعليمات لأنه متيقن أن هذه التعليمات صادرة من صانع تلك السلعة أو الآلة وهو أعلم بما يصلحها فما بالك بصانع ، الصناع وصناعا تنهم فإننا أحوج ما نكون إلى الأخذ بتعليماته وشريعته . ولنرى ماذا يقول ابن القيم عن حاجة البشرية إلى هذه التعليمات الربانية الممثلة في تشريعاته وما هي النتيجة عند فقدانها

يقول : وحاجة الناس إلى الشريعة ضرورة فوق حاجتهم إلى أي شيء ، ولا نسبة لحاجتهم إلى علم الطب إليها ، ألا ترى أن أكثر العالم يعيشون بغير طبيب ولا يكون الطبيب إلا في المدن الجامعة ... وما يقدر عند عدم الشريعة فساد الروح والقلب جملة ، وهلاك الأبد . وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت : فليس الناس قط إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والقيام به ، والدعوة إليه ، والصبر عليه ، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه (١) .

لماذا دعوة الرسل :

ولسائل أن يسأل ولماذا نتبع الرسل وهناك من العقول البشرية من فلاسفة وغيرهم قد جاؤا بالشيء الكثير ؟

نقول إن العقول البشرية وحدها لا يمكن أن تصل أو تدرك الحقيقة بل هي عاجزة عن ادراك نفسها وحقيقة ذاتها ، والعقل أقل من أن يدرك الخير لنفسه أو يحذرها من الشر " وكثيراً ما يبدو لها الشر في لباس الخير فتقع فيه وكثيرا ما ظهر لها الخير في صورة الشر فأعرضت عنه (٢) ((وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون))(٣) .

---

(١) مفتاح السعادة : ٣٨٣/٢

(٢) هداية المرشدين : ١٨

(٣) سورة البقره : ٢١٦

فعين الإنسان لا تدرك إلا ما رأته أمامها أو بوسيلة من وسائل العلم فتعرفه لأنها رأته وميزها العقل .

ولعلم الله سبحانه وتعالى بحقيقة هذا العبد وقصور مداركه أرسل إليه الرسل ليبصروه بما خفي عليه ويميزوا له الخبيث من الطيب يقول ابن القيم :

ولا سبيل الى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل (١) إلا من جهتهم ولا ينال رضى الله البته إلا على أيديهم ... فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال (٢) .

وتتابعت رسالات الله تعالى إلى البشرية تترى من لدن نوح عليه السلام ، فكلما زاد الكفر والإلحاد والفجور في قوم بعث الله تعالى إليهم رسولا يدعوهم إلى الخير وينذرهم مغبة البعد عن الله تعالى وتعاليمه . ويخرجهم من ظلمات الشرك والطغيان إلى نور الله بتوحيده وطاعته ويبشرهم بالنعيم في الدنيا والآخرة إنهم أطاعوه وآمنوا به كما قال تعالى : ((إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم ، قال ياقوم اني لكم نذير مبين أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى ..)) إلى قوله تعالى ((فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا ، يرسل السماء عليكم مدرارا ، ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهارا)) (٣) .

وهكذا جميع أنبياء الله تعالى قاموا بأعباء الدعوة ، ونصحوا أقوامهم وانذروهم وبشروهم فمنهم من آمن بهم وكتب له النعيم ، ومنهم من كفر واستحق الجحيم والعياذ بالله .

حاجة الناس الى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم :

حتى أظل زمان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، والناس في غاية الانحلال والضلال فقدوا الأخلاق وعبدوا الأشجار والأحجار ، يقتلون أولادهم ويعيشون على النهب والسلب ، لا يردع أحدهم عن ادراك نزوات نفسه وهواه رادع دين أو خلق ، قبائل متباغضة ، وشعوب متناحرة ، يظلم بعضهم بعضا لا يحكمون بالقسط ولا يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن منكر حتى (كان القرن السادس والسابع الميلادي من أحط أدوار التاريخ بلا خلاف ، فكانت الإنسانية متدلية منحدرة منذ قرون ، وما على وجه الأرض قوة

---

(١) قوله على التفصيل يريد أن العقل البشري قد يميز بين الخير والشر والحق والباطل ولكن العقول البشرية لا تستقل بادراك جميع مصالحها الدنيوية والأخروية .

(٢) زاد المعاد : ٦٩/١

(٣) سورة نوح الآيات من أول السورة الى آية ١٢

تمسك بيدها وتمنعها من التردي) (١) إنهم مختلفون حتى من أنزل الله إليهم الكتاب كاليهود والنصارى كما قال تعالى : ((وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون)) (٢) . فالاختلاف في الدين حاصل ، بين من أنزل الله تعالى إليهم الكتب المقدسة التي كانت تدعوا إلى معرفة الله وعبادته وحده لا شريك له .

والحاصل أن حالة العالم قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلم سواء كانت دينية أو إجتماعية أو سياسية مملوءة بالاضطرابات والفتن والقلاقل في جزيرة العرب وفي مملكة فارس والروم وغيرها من بلاد الأرض ، وأصبحت النفوس متعطشة لهداية السماء وانقاذها من هاوية الهلاك وهاك ابن القيم وهو يصف حال الناس في ذاك الزمان وحاجتهم إلى مبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكيف أنه كان رحمة للعالمين حيث يقول :

فإن رسالته وافت أهل الأرض أحوج ما كانوا إليها فانهم كانوا بين عباد أوثان وعباد صلبان وعباد نيران وعباد الكواكب ومغضوب عليهم وضالين وحيران لا يعرف ربا يعبده ولا بماذا يعبده والناس يأكل بعضهم بعضا من استحسن شيئا دعا إليه، وليس في الأرض موضع قدم مشرق بنور الرسالة وقد نظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا على أثر دين صحيح .

فأغاث الله به العباد والبلاد وكشف به تلك الظلمة واحيا به الخليقة بعد الموت فعرف الناس ربهم ومعبودهم غاية ما يمكن .

ولم يكن فضله ورحمته صلى الله عليه وسلم على المسلمين خاصة بل أنه لعموم العالمين حصل لهم النفع برسالته أما أتباعه فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة وأما اعداؤه المحاربون له فالذين عجل قتلهم خير لهم من حياتهم لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة وهم قد كتب عليهم الشقاء فتعجيل موتهم خير لهم ، وأما المعاهدين له فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته ، واما المنافقون فحصل لهم باظهار الإيمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهلهم .

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤ تأليف الشيخ أبو الحسن الندوى دار الكتاب العربي بيروت .

(٢) سورة البقرة الآيه : ١١٣

وأما الأمم النائية عنه فإن الله سبحانه وتعالى رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض فأصاب كل العالمين النفع برسالته (١) .

لقد بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم لتشرق الأرض بنور ربها وانتصر رسول الله صلى الله عليه وسلم و (ليس الانتصار في غزوة ، ولا انتصار في معركة أنه ليس فتح مكة ولا ضم جزيرة العرب ، ولا اخضاع مملكتي كسرى وقيصر إنما هو النصر الكوني الذي يدخل في بنية الحياة ويغير مجرى التاريخ) (٢) .

لقد جاء محمد صلى الله عليه وسلم يبين للناس ما اختلفوا فيه كما قال تعالى : ((وما أنزلنا عليك الكتاب الا لتبين لهم الذي أختلفوا فيه))(٣) ولبرفع الظلم عن المظلوم ويهز الجبابرة والمتكبرين ويزهق الباطل والمبطلين لقد انتصر حين " جعل لشريعة الاسلام نظاما يحكم الحياة ، ويصرف المجتمع ، وينظم علاقات الناس " (٤) .

لقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعباء الدعوة فبلغ الرساله وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده ودعا الى الله سرا وجهرا وأوذي في الله وصبر على ذلك كما صبر أولو العزم من الرسل حتى أكمل للناس دينهم وأتم عليهم نعمته كما قال تعالى : ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام دينا)) (٥) .

ثم انتقل بعد ذلك الى ربه راضيا مرضيا عليه أفضل الصلاة والتسليم ثم قام أصحابه رضوان الله عليهم بالدعوة وتحملوا الأمانة وساروا على طريقه الذي رسمه لهم وانتشروا في أرجاء المعمورة دعاة للحق ومجاهدين في سبيل الله لا يخشون في الله لومة لائم ولا يطلبون رضى أحد إلا الله، فكانوا دعاة مهتدين، صالحين مصلحين ينشرون شريعة الله ويوضحون العقيدة ، وصبروا على الدعوة صبرا عظيما وجاهدوا في الله جهادا كبيرا ، وتبعهم على ذلك التابعون وتابعوهم من أئمة الهدى والصلاح ممن دخلوا في هذا الدين من عرب وعجم فكانوا دعاة مصلحين مخلصين رفعوا راية الاسلام في شتى بقاع الأرض وعلت كلمة الله على أيديهم ولم يحصل لهم ذلك إلا بسبب صبرهم ويقينهم بالله عز وجل .

---

(١) جلاء الافهام في الصلاة والسلام على خير الأنام لابن القيم بتصرف قليل ١١٣-١١٦ ، وانظر كذلك مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم : ١٤٧/١

(٢) دراسات اسلامية : ٢٤ تأليف سيد قطب الشروق ص : ٢٤

(٣) النحل : ٦٤

(٤) دراسات اسلامية ص : ٢٨

(٥) سورة المائدة الآية : ٣

الإنحـــلال وأسبـــابـــه :

وتعاقبت الأجيال تلو الأجيال وبعدت المسافة وقدم العهد بصاحب الرسالة وكلّت الهمم وركن الناس إلى متاع الدنيا وزخرفها وغلبت عليهم الشهوات ، واستزلهم الشيطان وتخلى المسلمون عن تعاليم دينهم وأصبحوا في ذلة ومهانة وصدق الله العظيم حيث يقول : ((فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا)) (١) .

فوعد الله سبحانه وتعالى للمؤمنين بالنصر والعزة والاستخلاف في الأرض إنما هو مشروط بشروط يجب أن تتحقق وتخلص النية فيها يقول تعالى : ((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا)) (٢) .

وتحقق هذا الشرط فيمن سبق من المؤمنين وصدقهم الله وعده واستخلفهم وجعلهم سادة أهل الأرض زمنا طويلا ، ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . لقد غير المسلمون ما بأنفسهم من الإيمان بالله واليقين به تعالى والإخلاص في الدعوة إليه ، واستبدلوها بالمعاصي واتباع الشهوات فغير الله ما هم فيه من استخلاف وتمكين ونصر . وابدلهم بعد ذلا وتخلفا ومهانة ولذا نرى ابن القيم وهو يتحدث عن آثار المعاصي في العبد وعقوبات الذنوب يقول :

إنها تزيل النعم وتحل النقم ، فما زالت عن العبد نعمة الا بذنب ولا حلت به نقمة الا بذنب ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " ما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة " وقد قال تعالى : ((وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير)) (٣) .

وقال تعالى : ((ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)) (٤) .

فأخبر تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه ، فيغير طاعة الله بمعصيته ، وشكره بكفره ، وأسباب رضاه بأسباب سخطه ، فاذا غَيَّرَ غُيِّر عليه ، جزاءً وفاقا ، وما ربك بظلام للعبيد (٥) .

---

(١) سورة مريم الآية : ٥٩

(٢) سورة النور الآيه : ٥٥

(٣) الآية من سورة الشورى : ٣٠

(٤) الآية من سورة الانفال : ٥٣

(٥) الجواب الكافي بتصرف : ٨٥

وقال تعالى : ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال)) (١) .

فكثرة المعاصي في هذه الأمة وبعدها عن الله كان سببا لتغيير الله تعالى العز بالذل والنصر بالهزيمة والتقدم بالتخلف ، وليصدق قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها قلنا : يارسول الله أمن قلة بنا يومئذ ؟ قال : أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل تنزع المهابة من قلوب عدوكم ، ويجعل في قلوبكم الوهن قالوا : وما الوهن ؟ قال : حب الحياة وكراهة الموت) (٢) .

لقد نزع الله المهابة من قلوب أعداء الإسلام وانقلبت الآية وأصبح المسلمون يهابون أعداء الله واعداؤهم ، وزرع الله في قلوبهم الوهن فتركوا الجهاد ، وتشبثوا بالدنيا الفانية ونسوا الدعوة إلى الله فأبدلهم الله بالعز ذلا ، وبالرفعة هوانا وسلط عليهم أعدائهم ، وطمع فيهم الغرب الحاقد مستغلا غفلة المسلمين وضعفهم وقام بحملات صليبيه واسعة إستمرت قرنين من الزمان من عام ٤٩٠هـ الى عام ٦٩٠هـ خاض المسلمون فيها معارك طاحنة مع الصليبيين الحاقدين يقودهم البابوات فقد استعملوا (جميع وسائل الإغراء لاثارة الحمية في الصدور زيادة على أعلانه غفران الذنوب والتكفير عن المعاصي لكل مشارك في الحملة الصليبية زيادة على إعفاء حماة الصليب من جميع التكاليف المدنية) (٣) .

فالحروب الصليبية لم تكن حملات استعمارية باحثة عن المصالح الاقتصادية فقط بل كان الهدف الأول منها والرئيسي هو هدف ديني صليبي حاقد ، ولكن الله سبحانه وتعالى قيض لهذه الأمة رجالا مخلصين دافعوا عن حمى هذه البلاد الاسلامية فردوا أولئك الغزاة يجرون ثوب الخزي من أفعالهم التي تنم عن الحقد والكراهية لهذا العالم الاسلامي .

فأيقنوا بعد ذلك أنه لا يمكن مجابهة العالم الإسلامي بقوة السلاح أبدا لما تحمله عقيدتهم من جهاد وحماس وإخلاص وبذلهم النفس والنفيس من أجل الذود عن هذا الدين وعقيدته وأنه لابد من سبيل آخر غير السلاح لأن قوة الإيمان لا تقهر ، وأنهم لابد أن يطفئوا جذوة هذا الإيمان في نفوس المسلمين

---

(١) الآية من سورة الرعد : ١١

(٢) رواه الامام أحمد في المسند ٢٧٨/٥ رقم ٢٢٤٥٠ ، وابو داود في الملاحم : ٥

(٣) الحروب الصليبية في المشرق والمغرب : ٣٤ مؤلفه محمد العروسي المطوي طبع دار المغرب الاسلامي ١٩٨٢م

ويقتلوا هذه العقيدة كي يسهل عليهم التغلب واستلاب بلادهم فتحولت المعركة من معركة السلاح الى معركة الفكر والطريق إلى ذلك هو تزييف العقيدة الإسلاميه الراسخة التي تحمل طابع الجهاد وتدفع المؤمنين إليه وتأمرهم باجتناب المحرمات ولعادات الفاسدة وعدم التخلق باخلاق الكفار .

فجمعوا العدة لهذه الحرب وتفننوا فيها واخترعوا المناهج والأساليب والوسائل الكفيلة لتحقيق غرضهم ، وهو ما يعرف بـ ـ الغزو الفكري للعالم الاسلامي ـ وكانت وسائلهم في هذا الغزو الإستشراق والتبشير يساندهما الغزو العسكري للبلاد الاسلامية فالاستشراق أخذ على كاهله تشويه الشريعة الإسلامية والتقليل من أهميتها والطعن في نبيها وكتابها ومصادرها والدعوة إلى نشر المذاهب الفاسدة (١) وتشجيع الخرافة والقومية والالحاد وزرع ذلك في قلوب ابناء الإسلام .

وكذلك التنصير أو ـ التبشير ـ الذي تكفل باخراج المسلم عن دينه وايقاف الزحف الاسلامي عن أوروبا وغيرها .

وقد أصابوا أهدافا كثيرة في المنطقة الإسلامية وأفسدوا على الكثير ممن لا يعرف دينه واستطاعوا أن يلقنوا أبناء الإسلام أن كل قديم من الأخلاق والتقاليد والعادات أصبح غير ذى جدوى في الحياة العصرية ـ وهم يقصدون في ذلك الاسلام ـ وتعاليمه وصارت هذه التقاليد في زعمهم من المعوقات عن أي تقدم حضاري مما تقتضيه الحياة المعاصرة ، ويتطلبه النهوض العلمي وتقنية الحياة المادية العصرية .

وتطور العلم التجريبي في الغرب الّذي أدى إلى النهضة الصناعية الهائلة عندهم ساعدهم على أن يصوروا لأبناء الإسلام أن سبب هذا التطور هو تخليهم عن هذه التقاليد ، وأن سبب تخلف المسلمين هو تشبثهم بالتقاليد البالية والتعاليم التي مضى على وجودها أكثر من عشرة قرون وذلك أخذا من قول إمامهم في الالحاد كارل ماركس (٢) " الدين أفيون الشعوب " وهي كلمة تصدق على المذاهب الوضعية"

---

(١) لقد شجعوا ونشروا المذاهب الباطنيه كالقاديانية والبهائية وغلاة الصوفية وغيرهم من المذاهب الفاسدة التي كان ولاؤها للانجليز وقد اتفقوا على عدم جهاد الإنجليز والفرنسيين . انظر : دمروا الإسلام أبيدوا أهله .

(٢) هو مؤسس المادية التاريخية الشيوعية وحاخام الشيوعية ، وفيلسوفها الأكبر ، ينتمي الى أسره يهودية حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٤١م من جامعة برلين ثم طرد منها بسبب اتهامه بالإلحاد فهاجر إلى فرنسا حيث وجد المناخ الذي يبث فيه أفكاره في دول أوربا حتى هلك سنة ١٨٨٣م ، ١٣٠١هـ . أنظر أحمد العوايشه : موقف الاسلام من نظرية ماركس للتفسير المادى للتاريخ ص: ٦١١ ، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ المكتبة الإسلامية عمان الأردن .

والديانات المحرّفة الباطلة ولكنها لا تصدق على الدين الإسلامي الذي حمل الإنسانية كل خير وحررها من عبودية غير الله وأطلق الفكر حراً يقارن ويستدل ويختار .

فضلا على أنه لا يوجد دين من الأديان دعا إلى العلم والتعلم كما دعا إليه الإسلام قال تعالى :((هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)) (١). وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : (طلب العلم فريضة على كل مسلم)(٢) .

وغير ذلك كثير لا يسع المقام إلى ذكره ، وكذلك أول من بدأ بالعلم التجريبي هم علماء المسلمين .

ومن المؤسف حقا أن بعض أبناء المسلمين صدقه هذه الفرية واعتبرها واقعا مسلما مما جعل طائفة منهم اعتبروا أنفسهم من المثقفين تتحول إلى عميل لهم عن قصد أو بدون قصد يدافع عن أفكارهم ويبشرها في عالمنا الاسلامي وهو أخطر علينا من أعدائنا ويصدق عليهم قوله تعالى : ((يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)) (٣) .

إن الدين الإسلامي يعاني من هجمات خطيرة يخطط لها أعداء الإسلام ولا يعنى أن العالم الإسلامي الذي تخلص أخيرا أو الذي تخلص بعضه من الغزو العسكري والسياسي والاقتصادي قد استعاد قوته بل أنه لا يزال يرزح تحت أثقال الغزو الفكري الذي أضاع الشخصية الإسلامية وأصبح كثير من أبناء المسلمين لا يحملون من الإسلام إلا اسمه ، فقد ابتعدت المجتمعات الإسلامية عن الاسلام شيئا فشيئا ولا يتوقف البعد على المظاهر والأخلاق فقط بل تعداه إلى العقائد والعبادات وهذا مكمن الخطر ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: (لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرا شبرا ، وذراعا بذارع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم قلنا يارسول الله اليهود والنصارى قال فمن) (٤) .

مجالات الدعوة :

إن الناظر إلى واقع العالم اليوم بشقيه سواء العالم الاسلامي الذي تخلى عن كثير من مبادئه ودينه أو العالم الخارجي المادى يدرك مدى الحاجة إلى الدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) الآية من سورة الزمر : ٩

(٢) رواه ابن ماجه في المقدمة : ٨

(٣) سورة الروم الآية : ٧

(٤) رواه البخاري في كتاب الاعتصام الباب ١٤ جـ ٨ ص : ١٥١

أنأ مجـــالات الدعـوة تتجـــه الـى

المجال الداخلـي ونقصـــد بـه المجتمعـات المسلمـة فـي مختلـف الأقاليـم والبلـدان حيـث أن الواجـب علـى الدعـاة أن ينطلقـوا مـن داخـل البـلاد الإسلامية أسـوة برســول اللــه صلـى اللـه عليـه وسلـم فـإذا تمكنـت العقيـدة والعمـل الصالـــح والآداب الإسـلاميـة فـي مهـدهـا أى البـلاد الاسـلاميـة إنتقلنـا بها إلـى المجـال الآخـر فالرسـول صلـى اللـه عليـه وسلـم عنـدمـا بـدأ بالدعـوة إلـى اللـه وحسـب أمـر ربـه عـز وجـــل تدرج فـي الدعـوة وتنقـل مـن مرحلـة إلـى مرحلـة كمـا بينهـا الترتيـب فـي سـور القـــرآن الكريـم فقـد ركـز جهـوده أولا فـي بلـده الـذي أوحـي إليـه فيهـا كمـا قـال تعالـــــى ((يا أيهـا المدثـر قـم فـأنـذر وربـك فكـبر)) (١) ثـم أمـره بإنـذار عشـيرتـه الأقربيـــن كمـا قال تعالى : ((وأنـذر عشـيرتـك الأقـربيـن)) (٢) ثـم انتقـل إلـى مكـة وما حولهـا مـن القرى كما قـال تعالـى : ((لتنـذر أم القـرى ومن حولهـا)) (٣) ثم انتقـل إلى جميع الأمـم علـى المستـوى العالمـي كما قـال تعالى : ((لتخـرج الناس من الظلمـــات إلـــى النـور)) (٤) وقـد ذكـر الإمـام ابـن القيم مراتـب الدعـوة فقـــال :

المرتبـة الأولـى : النبـــوّة ، والثانيـة : إنذار عشـيرتـه الأقربيـن ، والثالثـه : إنـذار قـومـه ، والرابعـة : إنذ ار قـوم ما آتـاهـم مـن نذ ير مـن قبلـــه وهـم العرب قـاطبـــة ، والخامســة : إنـذار جميـع من بلغتـه الدعـوة من الجـن والانس إلى آخـر الدهـر (٥)

وهـذه المراتب حسـب تسلسلهـا فـي دعـوة المصطفـى صلـى اللـه عليـه وسلـم وهـــو الداعيـة الأول والقـدوة لنا فـي جميـع أمـورنـا لـذا يجـب أن تنطلـق الدعـوة من الداعيـة نفسـه ثـم بيتـه وأقـربـائـه وبلـده ثـم البـلاد الاسـلاميـة ثـم بـلاد الكفر لاسيمـا في هـــذا العصـر والمسلمـون فـي أشـدّ الحاجـة إلى الدعـوة بسبـب إنحـرافهـم عـن طريـق الاســـلام للأسبـاب التي ذكرنـاهـا سابقـا مـن تظـافـر قـوى أعـداء الاسـلام على المسلميـن فغالـــب المسلميـن لا يعـرفـون مـن الاســلام إلا اسمـــه ، ولا يفهمـون منـه الا بعـض صـوره فهـــم بيـن عبـدة أضـرحـة ، وعبـدة أشخـاص مـوزعيـن بيـن طـوائـف شتـى ، وبيـن عبدة أصنـام آدميـة ينحنـــون لهـا ويركعـون ، وبيـن أتبـاع ومقلـديـن لمشـايـخ وعلمـاء لا يتبعـون مـا صـــح فـي الديـن ولا ما ثبـت عـن سيـد المرسليـن صلـوات اللـه وسلامـــه عليـــــه ،

---

(١) سـورة المدثـر الآيـات : ١ ، ٢ ، ٣

(٢) سـورة الشعـراء الآيـه : ٢١٤

(٣) الآيـة من سـورة الانعام : ٩٢

(٤) سـورة ابراهيم الآيـــه : ١

(٥) زاد المعـاد جـ ١ ص : ٨٦

أما مثقفوهم فإذا علموا شيئا فعن غير الإسلام واذا اتبعوا شيئا فهو ما يأتي به أعداء الاسلام .

وكثير منهم اجتاحته الشيوعية الماركسية أو الحضارة الغربية المادية ، وصار يحسب على الإسلام والمسلمين وهو يهزأ ويسخر من المسلمين المتمسكين بالدين الحنيف ويعدهم رجعيين - بل إن بعضهم يقول لا مانع من أن أكون مسلما في الدين ماركسيا أو شيوعيا في الاقتصاد - وقد اغترّ بهذا كثير من العامة ، وأما البقية المتمسكة بدينها وبمبادئه القيمة وأخلاقه السامية يخاف عليها وهي محاطة بهذه الأجواء الداكنة ، فتحتاج هي وغيرها إلى الدعوة إلى الله ليبقى هؤلاء على دينهم ويرجع الباقي إلى دينه الحنيف ويفهموا حقائقه ، ويعلمو أنه دين حق (١) فإذا ما انتعشت الدعوة في الداخل وتمسك أكثر المسلمين بدينهم ومبادئه وأخلاقه استطعنا أن ننتقل بالدعوة إلى الخارج لأنه من الضرورى أن يكون الداعية أسوة حسنة وقدوة لغيره وأن يكونوا على علم بظروف القوم وأحوالهم الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، لأن ذلك مما يسهل مهمته ويستطيع أن يخالط القوم ويجذبهم إليه .

فضل الدعوة والداعية :

لكل إنسان يعمل في هذه الحياة هدف من وراء عمله ومصلحة يبتغيها ويتلذذ بها ، وتختلف مطامع البشر في التحصيل والكسب كل له ميوله ورغباته والموجه لذلك كله النفس وما تميل إليه . والنفوس تختلف وتتباين فمنها المطمئنة ، ومنها اللوامة ، ومنها الأمارة كما بين ذلك سبحانه وتعالى فهي مختلفة حسب ما حباها الله تعالى من سداد وتوفيق أو بعد وفجور قال تعالى : ((ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها)) (٢) .

واعلم إيها الأخ المسلم أن فعل الداعية وحركته من أجل الدعوة دليل على إرادة الخير ومحبته لله تعالى ، فإن أفعال العباد وحركاتهم تابعة للإرادة والمحبة كما يقول ابن القيم :

المحبة والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة ، حتى دفعه للأمور التي يبغضها ويكرهها فإنما يدفعها بمحبته لأضدادها واللذة التي يجدها بالدفع ... (٣) ثم يمثل لذلك بمثال فيقول : شرب الدواء الذي يدفع

---

(١) راجع كتاب الدعوة الى الله في سورة ابراهيم : ص ٥٨ تأليف محمد ابن سيدي بن الحبيب طبع دار الوفاء جده .

(٢) سورة الشمس الآيد : ٧ ، ٨

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ٧٦

به ألم المرض ، فإنه وإن كان مكروها من وجه فهو محبوب لما فيه من زوال مكروه وحصول محبوب (١) .

وكمال المحبة - العبودية والذلّ لله تعالى - لكمال الجزاء الأوفى الذي يمن به سبحانه وتعالى على عباده المؤمنين الصالحين . فنعيم الجنة وما فيها لا يعادله شيء البته وكذلك كراهة النار والعذاب ، لذلك كانت العبودية كمال المحبة للانسان لأنه لن يحصل على شيء أحب إليه من هذا الجزاء وهو الجنة والبعد عن النار فالعبد حسب المحبة والإرادة يتحرك فمنهم من أُطلق جميع طاقاته وعقله لتلبية رغباته وشهواته التي يحبها ويميل إليها غير مكترث بمشروعيتها وهل هي حلال أم حرام كما وصفهم الله تعالى : ((إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ سبيلاً))(٢) ويصفهم ابن القيم رحمه الله بقوله :

فهم الذين يضيقون الديار ، ويغلون الأسعار إن هم أحدهم الا بطنه وفرجه فإن ترقت همته كان همه - مع ذلك - لباسه وزينته - فإن ترقت همته فوق ذلك كانت في الرياسة والانتصار للنفس الغضبية ، فإن ارتفعت همته عن نصرة النفس الغضبية ، كان همة في نصرة النفس الكلبيه (٣)(٤) .

أما الدعاة والعبّاد من المسلمين فإنهم قد ارتفعوا عن هذه الهيئة ونفوسهم تختلف عن نفوس هؤلاء ، فنفوسهم ملكية ملكت نفسها وأذلتها لمحبة الله وطاعته وابتغاء رضوانه ، وشتان ما بين محبة هؤلاء وهؤلاء وجزاء هؤلاء وهؤلاء حيث يقول الرب جل وعلا : ((أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم وبئس المصير هم درجات عند الله والله بصير بما يعملون)) (٥) .

فما أعظم درجات من اتبع رضوان الله ودعا الى سبيله وجاهد فيه فإن المؤمنين متفاوتون في الدرجات يوم القيامة كل حسب إيمانه وتقواه يقول تبارك وتعالى : ((لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما)) (٦)

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين : ٧٦

(٢) الآية من سورة الفرقان : ٤٤

(٣) الوابل الصيب من الكلم الطيب ص : ٧٥

(٤) راجع نفس المرجع ص : ٧٦ يوضح لك انواع النفوس .

(٥) سورة آل عمران الايات : ١٦٢ - ١٦٣

(٦) سورة النساء الآيه : ٩٥

والدعـــاة مـن أعظـم المجاهـديـن كما سـنرى .

وفـي الصحيحيـن عـن أبـي سعيـد الخـدري رضـي اللـه عنـه أن رسول اللـه صلـى اللـه عليـه وسلـم قـال : (إن أهـل الجنـة ليتـراءون أهـل الغـرف مـن فوقهـم كمـا تتـراءون الكوكـب الـدرى الغـابـر مـن الأفـق مـن المشـرق أو المغـرب لتفـاضـل ما بينهـم ، قـالـوا يارسـول اللـه : تلـك منـازل الانبيـاء لا يبلغهـا غـيرهـم ؟ قـال : بلى ، والـذي نفسـي بيـده رجـال أمنـوا باللـه وصـدقـوا المرسليـن) (١) .

وبعـد أن بينـا انـواع النفـوس والأسبـاب المحركـة لها ودرجـات الناس في الخـير والشر نريـد أن نعـرف درجـة الداعيـة وجـزاءه ومن أي الأصنـاف هـو وسـوف أضـع بيـن يـدي الداعيـة ما يسعنـي ممـا جـاء فـي كتـاب اللـه العظيـم ، وحـديـث نبيـه الكريـم صلـى اللـه عليـه وسلـم فـي فضـل الدعـوة والداعيـة مما ذكـره ابـن القيـم رحمـه اللـه فـي كتبـه عـن ذلـك ليعـرف المنزلـة العظيمـة التي كـرمـه اللـه بهـا ، والجزاء الاوفى الذي مـن اللـه بـه عليـه كـي يكـون دافعـا لـه علـى الجهـاد فـي الدعـوة إليـه وطاقـة توقـد فـي نفسـه حـب الدعـوة حتـى ينطلـق إلـى الدعـوة مخلصـا عـازمـا علـى تبليـغ رسـالـة اللـه لا تـأخـذه فـي اللـه لـومـة لائـم .

أفضـل الدعـاة الأنبيـاء :

يوجهنـا ابـن القيـم رحمـه اللـه إلـى أن اللـه سبحانـه وتعالـى فضـل الانبيـاء والمرسليـن وجعلهـم أزكـى العالميـن نفـوسا وأخـلاقـا وأكملهـم علمـا وعمـلا مـن أجـل الدعـوة وكـي يكـونـوا قـدوة للمـدعـوبيـن .

يقـول ابـن القيـم فـي ذلـك :

إن أفضـل منـازل الخلـق عنـد اللـه منزلـة الرسالـة والنبـوه فاللـه يصطفـي مـن الملائكـة رسـلا ومـن النـاس ، وكيـف لا يكـون أفضـل الخلـق عنـد اللـه مـن جعلهـم وسـائـط بينـه وبيـن عبـاده فـي تبليـغ رسالاتـه ، وتعريـف اسمائـه وصفاتـه ، وأفعالـه ، وأحكـامـه ، ومراضيـه ، ومساخطـه ، وثـوابـه وعقـابـه وخصهـم بوحيـه وخصهـم بتفضيلـه ، وارتضـاهـم لرسالتـه إلـى عبـاده ، وجعلهـم أزكـى العالميـن نفـوسـا وأشرفهـم أخـلاقـا وأكملهـم علـومـا وأعمـالا ، وأحسنهـم خلقـا ، وأعظمهـم محبـة وقبـولا فـي قلـوب النـاس وبـرّأهـم مـن كـل وصـم وعيـب وكـل خلـق دنـيء (٢) .

---

(١) رواه مسلـم في كتـاب الجنـة ونعيمهـا برقـم ٢٨٣٠ : جـ ٤ ص : ٢١٧٧ ، والترمـذي فـي الجنـة بـاب ١٩ واللفـظ لـه .

(٢) مفتـاح دار السعـادة : ١٠١/١

الدعـــاة ورثـــة الأنبيـــاء :

وجعل الله أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم ونيابتهم في أممهم ، بأنهم يخلفونهم على منهاجهم وطريقهم من نصيحتهم للأمة وإرشادهم الضال ، وتعليمهم الجاهل ، ونصرهم المظلوم ، وأخذهم على يد الظالم ، وأمرهم بالمعروف وفعله ونهيهم عن المنكر وتركه ، والدعوة إلى الله بالحكمة للمستجيبين والموعظة الحسنة للمعرضين الغافلين ، والجدال بالتي هي أحسن للمعاندين المعارضين (١) .

ثانيها : أن الداعية يقوم بأفضل الأعمال ويقول أحسن الأقوال :

بشهادة الله سبحانه وتعالى حيث يقول : ((ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إنني من المسلمين)) (٢) .

ويرى ابن القيم رحمه الله أن الدعوة إلى الله أفضل الأعمال على الإطلاق حتى من الجهاد فيقول :

وتبليغ سننه إلى الأمة ، أفضل من تبليغ السهام الى نحورالعدو ، لأن تبليغ السهام يفعله كثير من الناس ، وأما تبليغ السنن فلا يقوم بها الا ورثة الأنبياء وخلفاؤهم في أممهم (٣) .

ويقول في موضع آخر : وإنما جعل طلب العلم من سبيل الله لأن به قوام الإسلام كما أن قوامه بالجهاد ، فقوام الدين بالعلم والجهاد ، ولهذا كان الجهاد نوعين جهاد باليد والسنان وهذا المشارك فيه كثير .

والثاني الجهاد بالحجة والبيان وهذا جهاد الخاصة من اتباع الرسل ، وهو جهاد الأئمة وهو أفضل الجهادين لعظم منفعته وشدة مؤنته وكثرة اعدائه (٤) .

ثم يدلل على أن الدعوة إلى الله جهاد بآيات من القرآن الكريم حيث أمر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالجهاد من حين بعثه وقال: ((ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا فلا تطع الكافرين ، وجاهدهم به جهادا كبيرا)) (٥) .

فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفّار ، بالحجة ، والبيان ، وتبليغ القرآن (٦) فهذا جهادهم بالقرآن وهو أكبر الجهادين وهو جهاد المنافقين ايضا

---

(١) مفتاح دار السعادة : ج ١ ص : ١٠١

(٢) سورة فصلت آية : ٣٣

(٣) التفسير القيم ص : ٤٣١ ، وانظر القصيدة النونية لابن القيم : ٨/١

(٤) مفتاح دار السعادة : ج ١ ص : ٩١

(٥) الآية من سورة الفرقان : ٥١ ، ٥٢

(٦) زاد المعاد : ج ٣ ص : ٥

فلأن المنافقين لم يكونوا يقاتلون المسلمين بل كانوا معهم في الظاهر وربما كانوا يقاتلون عدوهم معهم ومع هذا فقد قال تعالى : ((يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم)) (١) ومعلوم أن جهاد المنافقين بالحجة والقرآن (٢) .

وجهاد الكلمة والدعوة لا يقل خطرا عن جهاد السيف كما يرى ذلك ابن القيم ومثال ذلك كلمة الحق عند سلطان جائر حيث يقول ابن القيم :

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض ، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه (٣) .

ويتضح لنا مما ذكرنا أن ابن القيم يفضل الدعوة على الجهاد لأسباب جوهرية تدعو إلى ذلك مع أنه يرى أن الجهاد (ذروة سنام الإسلام وقبته ومنازل أهله أعلى المنازل في الجنة كما لهم الرفعة في الدنيا ، فهم الأعلون في الدنيا والآخرة (٤) .

ولكن الجهاد يستطيع أن يقوم به عامة الناس بينما الدعوة لا يقوم بها إلا الخاصة من خلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولشدة مؤنة الدعوة وعظيم المنفعة التي تعود على الأمة والناس من دعوته ، وكثرة أعداء الدعاة وهذه سنة الله فيهم وكذلك فإن الدعوة إلى الله جهاد بنص القرآن الكريم كما بيناه سابقا ، وكذلك لو جاهد العالم الداعية لكانت خسارة الأمة فادحة حيث أن تعوض مثل هذا الرجل من الصعوبة بمكان فلذلك وغيره كانت الدعوة الى الله تعالى أفضل من الجهاد وكذلك عند اجتماع الجهاد والدعوة ووجود من يقوم بالجهاد كانت الدعوة هنا أفضل من الجهاد ، لأنها هي المحرك للمجاهد .

ثالثها : أن الداعية ناج من الخسارة في الدنيا والآخرة :

قال تعالى : ((والعصر إن الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)) (٥) .

يقول ابن القيم في توجيه هذه الآيات الكريمات أن :

هذا القسم من الله سبحانه وتعالى بالعصر وهو - الدهر - أن جميع جنس الانسان في خسارة وهلاك إلا من استثنى من المؤمنين العاملين للصالحات المتواصين

---

(١) سورة التوبة آية : ٧٣

(٢) مفتاح دار السعادة : ج ١ ص : ٩٢

(٣) زاد المعاد : ج ٣ ص : ٦

(٤) زاد المعاد : ج ٣ ص : ٥

(٥) سورة العصر .

بالحق والصبر فإن المراتب أربع باستكمالها يحصل للشخص غاية كماله ، أحدها معرفة الحق . الثانية عمله به . الثالثة تعليمه من لا يحسنه . الرابعة صبره على تعلمه ، والعمل به ، وتعليمه .

ثم يبين أن تحقق هذه المراتب نهاية الكمال فيقول :

فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه ، مكملا لغيره ، وكماله باصلاح قوتيه العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالايمان ، وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات ، وتكميله غيره بتعليمه اياه وصبره عليه ، وتوصيته بالصبر على العلم والعمل (١) .

ولا أحد من الناس يتحقق فيه هذا الكمال غير الداعية حتى لو كان عابدا طوال الليل والنهار مؤمنا بالله صابرا فانه لا يبلغ درجة الداعية بل يخشى عليه من عقاب الله تعالى من تركه للدعوة وهو قادر .

ومنها أن الدعاة هم خير الناس بعد الرسل .

لقوله تعالى : ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)) (٢) .

فوصفهم بالخيرية مشروط بوجود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكان الدعاة خير الناس لانهم أنفع الناس للناس فهم يخرجونهم من الظلمات إلى النور ويرشدونهم إلى الخير ويحذرونهم من الشر ، إضافة إلى ما يلقاه الداعية من المشاق في سبيل الدعوة .

ومن فضل الدعاة أنهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة .

لقوله تعالى : ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) (٣) .

فهم مفلحون في الدنيا لما ينالونه من العزّ والنصر والطمأنينة هم وأمتهم وهم المفلحون في الآخرة لما يتمتعون به من نعيم مقيم .

ومن فضائل الدعاة استشهاد الله سبحانه وتعالى بهم في عدة مواضع :

منها قولة سبحانه وتعالى : ((شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة واولو العلم قائما بالقسط)) (٤) فعندما يستشهد الله بأحد من خلقه فانما يدل على عظيم فضل هذا المخلوق وشأنه العظيم عند الله سبحانه فأهل العلم وهم الدعاة

---

(١) مفتاح دار السعادة بتصرف : ج ١ ص : ٧٤ - ٧٥

(٢) سورة آل عمران آيه : ١١٠

(٣) سورة آل عمران آيه : ١٠٤

(٤) " " " : ١٨

الذين عَلِموا ، وعَمِلوا ، وعلّموا ، من المخلوقات العظيمة عند الله لمكانتهم بين الناس وتأثيرهم في صلاح الدنيا والآخرة بعد الله سبحانه وتعالى ويذكر ابن القيم عند حديثه على هذه الآية عن فضل العلم وأهله فيقول :

استشهد الله سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيده وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه أحدها : استشهادهم دون غيرهم من البشر.

ومنها اقتران شهادتهم بشهادته ، ومنها اقترانها بشهادة ملائكته ، ومنها أن في ضمن هذا تزكيتهم وتعديلهم فإن الله سبحانه لا يُشْهِد من خلقه إلا العدول . ومنها : أنه سبحانه جعل شهادتهم حجة على المنكرين فهم بمنزلة أدلته وآياته وبراهينه الدالة على توحيده .

ومنها : أنه سبحانه جعلهم مؤدين لحقه عند عباده بهذه الشهادة فإذا أدوها فقد أدوا الحق المشهود به ... وكل من شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجر مثل أجره أيضا وهذه الوجوه كلها مستفادة من هذه الآية الكريمة.(١)

وكذلك فان الله سبحانه وتعالى جعلهم شهداء على الناس يوم يقوم الاشهاد، ويشهدون أنهم بلغوا الرسالة ، وأقاموا موازين العدل والقسط ونوّروا لهم الطريق قال تعالى : ((وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونو شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا)) (٢) .

عظيم أجر الداعية :

ثم نقل ابن القيم رحمه الله بعض الأحاديث الدالة على فضل الداعية وعظيم أجره نذكر شيئا منها .. مثل ما ورد في الصحيحين من حديث ابى موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها طائفة أجادب أمسكت الماء ، فسقى الناس وزرعوا ، وأصاب طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله تعالى ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به (٣) .

يقول ابن القيم رحمه الله :

شبه النبي صلى الله عليه وسلم العلم والهدى الذي جاء به بالغيث لما

---

(١) انظر مفتاح دار السعادة جـ ١ ص : ٦٤ - ٦٥

(٢) سورة البقرة الآية : ١٤٣

(٣) رواه مسلم كتاب الفضائل رقم الحديث ١٥ جـ ٤ ص : ١٧٨٧

يحصل بكل واحد منهما من الحياة والنفع والاغذية والأدوية وسائر مصالح العباد فانها بالعلم والمطر . وشبه القلوب بالآراضي التي يقع عليها المطر لأنها المحل الذي يمسك الماء فينبت سائر أنواع النبات النافع ، كما أن القلوب تعي العلم فيثمر فيها ويزكوا وتظهر بركته وثمرته (١) .

ثم يقول : فجعل النبي صلى الله عليه وسلم الناس بالنسبة الى الهدى والعلم ثلاث طبقات :

الطبقة الأولى : ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم الذين قاموا بالدين علما وعملا ودعوة إلى الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم . فهؤلاء أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم حقا ، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت ، فقبلت الماء ، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، فزكت في نفسها ، وزكا الناس بها ، وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله فيهم : ((واذكر عبادنا إبراهيم واسحاق ويعقوب أولى الأيدى والأبصار)) (٢) . البصائر في دين الله عز وجل فبالبصائر يدرك الحق ويعرف ، وبالقوى يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه .

الطبقة الثانية : حفاظ معتنون بالضبط ، والحفظ ، والأداء ، كما سمعوا ولا يستنبطون ولا يستخرجون كنوز ما حفظوه .

الطبقة الثالثه : وهم اشقى الخلق الذين لم يقبلوا هدى الله ولم يرفعوا به رأسا فلا حفظ،ولا فهم ، ولا رواية ، ولا دراية ، ولا رعاية (٣) .

ومنها ما روى في الصحيحين : قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي : (لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم) (٤) .

ما أعظم فضل الدعوة والداعية فلو اهتدى رجل واحد بالداعية كان ذلك خيراً له من حمر النعم - وهي خيار الإبل - فما الظن بمن يهتدى به كل يوم طائفة من الناس .

ومنها ما رواه مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا

---

(١) مفتاح دار السعادة : ج ١ ص : ٧٩

(٢) الآية من سورة ص : ٤٥

(٣) انظر الوابل الصيب : ص ٧٤ - ٧٥

(٤) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ٩ ، ج ٤ ص : ١٨٨ ر مسلم

ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئا) (١) .

يقول ابن القيم عند كلامه على هذا الحديث :

أن المتسبب إلى الهدى بدعوته له أجر من اهتدى به . والمتسبب إلى الضلالة بدعوته عليه مثل إثم من ضَلّ به ، لأن هذا بذل قدرته في ضلالتهم ، فنزل كل واحد منهما بمنزلة الفاعل التام وهذه قاعدة الشريعة كما هو مذكور في غير موضع (٢) .

قال تعالى : ((ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم ألا ساء ما يزرون)) (٣) .

ومنها دعوة النبي صلى الله عليه وسلم للداعية بالنضرة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (نضّر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم إخلاص العمل لله ، ومناصحة أئمة المسلمين ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم) (٤) .

يقول ابن القيم في تعليقه على هذا الحديث :

أنه جمع مراتب العلم من سَمِعَ ثم عَقَلَ ثم حَفِظَ ثم بلّغ وأن من قام بهذه المراتب دخل تحت هذه الدعوة النبوية المتضمنة لجمال الظاهر والباطن فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الايمان ، وابتهاج الباطن به ، وفرح القلب وسروره ،والتذاذه به ، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على وجهه ولهذا يجمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة كما قال تعالى : ((فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا)) (٥) فالنضرة في وجوههم والسرور في قلوبهم (٦) .

أما عن قوله صلى الله عليه وسلم ثلاثة لا يغل عليهن قلب مسلم الخ .

قال : لا يحمل الغل ولا يبقى فيه مع هذه الثلاثة ، فإنها تنفي الغل والغش وهو فساد القلب وسخائمه فالمخلص لله إخلاصه يمنع غل قلبه

---

(١) رواه الترمذي برقم ٢٦٧٦ كتاب العلم : ٣١٧/٧

(٢) مفتاح دار السعادة : ٨٢/١

(٣) الآية من سورة النحل : ٢٥

(٤) رواه ابن ماجه برقم ٢٣٠ باب من بلغ علما : ٨٤/١

(٥) الآية من سورة الانسان : ١١

(٦) مفتاح دار السعادة : ٩٤

ويخرجه ويزيله جملة لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة الله فلم يبق فيه موضع للغل والغش كما قال تعالى : ((كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين)) (١) .

وقوله ان دعوتهم تحيط من ورائهم .

يقول : هذا من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى ، شبه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم المانع من دخول عدوهم عليهم ، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام ، وهم داخلونها لما كانت سورا وسياجا عليهم أخبر أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الاسلام ، كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلم شعثها وتحيط بها فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته (٢) .

---

(١) الآية من سورة يوسف : ٢٤

(٢) مفتاح دار السعادة : ٩٥

المبحث الثالث : موضوع الدعوة

لقد عرفنا حكم الدعوة وفضلها ، فإن ارتقت بك الهمة وانشرح صدرك للدعوة ، وجب عليك معرفة أي شيء تدعو إليه حتى تكون على بصيرة من أمر الله وليتضح لك الطريق الذي تسير فيه من أجل الدعوة ، ولتقتدى برسول الله صلى الله عليه وسلم في دعوته ، فاذا عرفت ذلك بقي أن تعرف الكيفية التي دعو بها إلى هذا الموضوع الذي عزمت على القيام به .

وهذا ما سنعرفه إن شاء الله موضحين ذلك حسب المنهج الذي سار عليه ابن القيم في دعوته .

فموضوع الدعوة

هو الإسلام : الذي نزل به الروح الأمين ، من عند الله على أفضل الخلق محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وأمره بتبليغه ، وتعبد جميع الخلق به ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم سبل السلام .

قال تعالى : ((ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)) (١) .

وقال : ((إن الدين عند الله الإسلام)) (٢) .

وقال : ((قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور باذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم))(٣).

وهو دين جميع الأنبياء وقد حدد العلماء هذا الإسلام وعرفوه (٤) بتعاريف تدل

---

(١) الآية من سورة آل عمران : ٨٥

(٢) الآية من سورة آل عمران : ١٩

(٣) الآيات من سورة المائدة : ١٥ - ١٦

(٤) عرفه ابن القيم بقوله : هو طريق الله الذي نصبه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلا لعباده إليه ولا طريق لهم اليه سواه بل الطرق كلها مسدودة الا هذا وهو افراده بالعبودية وافراد رسوله بالطاعة - مدارج السالكين : ٩١

وعرفة شيخ الاسلام بقوله : " ان الاسلام دين ، والدين مصدر دان يدين دينا اذا خضع وذل ، ودين الاسلام هو الذي ارتضاه الله وبعث به رسله ، وهو الاستسلام لله وحده فأصله في القلب وهو الخضوع لله وحده دون ما سواه فمن عبده وعبد معه الها آخر لم يكن مسلما ، ومن لم يعبده بل استكبر عن عبادته لم يكن مسلما ، والاسلام هو الاستسلام لله وهو الخضوع له والعبودية له ، فالاسلام في الأصل من باب العمل عمل القلب والجوارح ؛ كتاب الايمان لشيخ الاسلام ابن تيمية : ص ٢٢٦

ويقول : (ان الاسلام الذي هو اخلاص الدين لله مع الاحسان وهو العمل ==

على مضمون الاسلام ، وان اختلفت في اللفظ فهي تدل على معنى الإسلام صراحة أو بالضمن .

وأصدق تحديد للإسلام هو تحديد من أرسله الله بالإسلام ودعا إليه محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فإنه أجاب عندما سئل عن الاسلام بقوله :(الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا) (١) .

وهذه هي أركان الإسلام ومبانيه ، وهي حقيقة الإسلام وجوهره ، وليست هذه الخمس هي الواجبات في الإسلام فقط ، فإن ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من ذلك ، ولكنها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها ، وبقيام العبد بها يتم استسلامه ومن أتى بهذه الخمس لزم أن يأتي بجميع الواجبات ، قال شيخ الإسلام : والتحقيق أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الدين الذي هو إستسلام العبد لربه مطلقا ، الذي يجب لله عبادة محضة على الأعيان ، فيجب على كل من كان قادرا عليه أن يعبد الله بها مخلصا له الدين وهذه هي الخمس وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب المصالح ، فلا يعم وجوبها كل الناس بل إنما يكون فرضا على الكفاية كالجهاد ، وإما أن يجب بسبب حق الآدميين يختص من وجب له وعليه ، وقد يسقط باسقاطه من قضاء الديون ونحوها من الإنصاف من المظالم والحدود والأموال وغيرها ، واذا أبرئوا منها سقطت وتجب على شخص دون شخص . في حال دون حال ، ولم تجب عبادة محضة لله على كل عبد قادر ، وهذه يشترك فيها المسلم واليهودي والنصراني بخلاف تلك المباني الخمس فإنها من خصائص المسلمين (٢) .

مع أنه مطالب بالشرائع الأخرى كما قال تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة)) (٣) .

== الصالح الذي أمر الله به هو والإيمان المقرون بالعمل الصالح متلازمان) الايمان:٢٢٤ وعرّف بأنه : الاستسلام لله تعالى بالتوحيد والإنقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك : فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبدالوهاب ص ٨٩ ، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ تحقيق محمد الفقى، الطبعه الرابعه ١٣٦٢هـ .

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان الباب الأول : ٢٨/١ ، ومسلم في كتاب الإيمان برقم ١ باب الإيمان : ٣٧/١

(٢) كتاب الإيمان بتصرف قليل : ٢٦٩

(٣) الآية من سورة البقرة : ٢٠٨

قال مجاهد (١) : نزلت في المسلمين يأمرهم بالدخول في شرائع الإسلام كلها (٢)وقال شيخ الاسلام : " أن الله أمر بالدخول في جميع الإسلام كما دل عليه هذا الحديث فكل ما كان من الإسلام وجب الدخول فيه ، فإن كان واجبا على الأعيان لزمه فعله ، وان كان واجبا على الكفاية اعتقد وجوبه وعزم عليه اذا تعين أو أخذ بالفضل ففعله ، وان كان مستحبا إعتقد حسنه وأحب فعله "(٣) فيتضح أن الإسلام كل شرائعه جزءٌ لا يتجزأ ، وإنما خصّ هذه بالذكر لأنها أركانه التي تجب على جميع المسلمين المكلفين القادرين .

فيتضح للداعية أنه مطالب بالدعوة إلى جميع شرائع الإسلام وعلى رأسها هذه الأركان كما سترى ذلك إن شاء الله .

الفرق بين الإسلام والإيمان (٤)

ومما ينبغي أن ننبه إليه في هذا المقام أن نرفع الإشكال الذي قد يرد على البعض عند مطالعة النصوص فلا يعرف الإرتباط بين الإيمان والإسلام ، فيجد مثلا في بعض الأحاديث أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الإيمان بالأركان الخمس للإسلام ، كما في حديث وفد عبدالقيس (٥) وفي حديث آخر فسر الإسلام بالإيمان (٦)

---

(١) أبو الحجاج مجاهد بن جبر شيخ القراء والمفسرين ، أخذ التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما ، تنقل في الأسفار ، واستقر في الكوفة له كتاب في التفسير ، توفى رحمه الله سنه ١٠٤هـ . انظر طبقات خليفة : ص ٢٨٠ ، حلية الأولياء : ٢٧٩/٣ ، وتذكرة الحفاظ : ٩٢/١

(٢) كتاب الايمان : ٢٨

(٣) نفس المرجع : ٢٩

(٤) اختلف أهل السنة والحديث في ذلك هل هما شيء واحد أم بينهما فرق وصنفوا في ذلك تصانيف متعددة فمنهم من يدعي أن جمهور أهل السنة انهما شيء واحد منهم محمد بن نصر المروزى وابن عبدالبر ، ومنهم من يحكى عن أهل السنة التفريق بينهما كأبي بكر السمعاني ، وقد نقل التفريق بينهما عن كثير من السلف منهم قتادة وداود بن أبى هند والزهري وحماد بن زيد وشريك وابن أبى ذئب وأحمد بن حنبل وأبو خيثمة ويحيى بن معين وغيرهم كثير على إختلاف بينهما في صفة التفريق . انظر جامع العلوم والحكم: ٢٤-٢٥

(٥) قال النبي صلى الله عليه وسلم لوفد عبدالقيس آمركم بأربع ثم قال : " الايمان بالله " ثم فسرها لهم فقال : (شهادة أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله واقام الصلاة وإيتاء الزكاة وأن تؤتوا خمس ما غنمتم " مسلم كتاب الايمان رقم : ٢٣ باب الأمر بالايمان ٤٦/١

(٦) في مسند الامام أحمد (أن رجلا قال يارسول الله ما الاسلام قال:(أن يسلم قلبك لله عز وجل ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك) قال : فأي الإسلام أفضل ؟ قال : " الإيمان ") رقم الحديث : ١٧٠٦٨ مسند الإمام أحمد:١١٤/٤

كما أنه فرق بينهما في حديث جبريل (١) .

فاعلم رحمك الله أن ديننا يجمع ثلاث مراتب : الإسلام ، والإيمان ، والإحسان وهذا مستفاد من قول النبي صلى الله عليه وسلم في آخر حديث جبريل : (فإنه جبريل أتاكم ليعلمكم دينكم) وهي درجات للدين ، أعلاها الاحسان وأوسطها الايمان ، ويليه الإسلام ، وترتيبها مسلم ثم مؤمن ثم محسن (٢) .

فإذا عرف هذا فإن الجمع بين الأحاديث ، يتضح بتقرير أصل وهو أن من الأسماء ما يكون شاملا لمسميات متعددة عند إفراده وإطلاقه ، فإذا قرن ذلك الاسم بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات ، والاسم المقرون به دال على باقيه وهذا كاسم الفقير والمسكين ، فإذا أفرد أحدهما دخل فيه كل من هو محتاج فإذا قرن أحدهما بالآخر دل أحد الاسمين على بعض أنواع ذوى الحاجات والآخر على باقيها .

وهكذا اسم الإسلام والإيمان اذا أفرد أحدهما دخل الآخر فيه ودل بانفراده على ما يدل عليه الآخر بانفراده ، فاذا قرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي .

فيقال : إذا أفرد كل من الإسلام والإيمان بالذكر فلا فرق بينهما حينئذ ، وان قرن بين الاسمين كان بينهما فرق ، والتحقيق في الفرق أن الإيمان هو تصديق القلب واقراره ومعرفته ، والإسلام هو استسلام العبد لله وخضوعه وانقياده له ، فالإيمان جنس تصديق القلب ، والاسلام جنس العمل كما ورد في الحديث : الاسلام علانية ، والإيمان في القلب " (٣).

شرح هذه الأركان ومنهجه في الدعوة إليها

بعد أن عرفنا أن الإسلام مبني على هذه الخمس ، وهي الأركان والدعائم لبنيانه ، فلا يثبت البنيان بدونها ، وعرفت أن بقية الواجبات تتمة لهذا البنيان فاذا فقد منها شيء نقص البنيان وهو قائم بخلاف هذه الأركان الخمس فان الاسلام يزول بزوالها بغير اشكال ، وكذلك يزول بفقد أحد أركانها كالشهادتين أو إنكار شيء منها .

---

(١) حديث جبريل الطويل الذي سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان ، رواه مسلم والبخاري سبق تخريجه ص ٣٠

(٢) انظر كتاب الايمان : ١١

(٣) جامع العلوم والحكم بتصرف قليل : ٢٤-٢٥ لمؤلفه ابن رجب الحنبلي مكتبة الرياض الحديثة بالرياض ، وهذا نفس قول ابن القيم رحمه الله في الرسالة التبوكية ، نقلنا هذا لوضوحه ، راجع الرسالة التبوكية ص : ١٠ - ١٤

لذلك فان على الداعية معرفة هذه الاركان والتي تمثل صلب موضوع الدعوة وما تشتمل عليه من معاني وقيم ، كي يمكنه من تحقيقها في نفسه ثم الدعوة إليها ومواجهة المعاند وإلزامه الحجة .

وسوف أنقل شرح هذه الأركان وما يتعلق بها مما يهم الداعية حسب المنهج الذي سار عليه ابن القيم رحمه الله سائلا الله سبحانه وتعالى التوفيق والسداد

مفتاح الدعوة الى هذه الاركان :

على كل داعية أراد أن يدعو إلى الإسلام أن يبدأ دعوته بالدعوة الى هذه الأركان وأولها التعريف بالله عز وجل بذكر شهادة أن لا إله إلا الله وما يترتب عليها من عبادة ، ولنا في رسل الله أسوة حسنة فجميع الرسل عليهم أفضل الصلاة والتسليم بدأوا بها فالله سبحانه أرسلهم من أجل تحقيقها والأمر بها قال تعالى : ((وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)) (١) .

فهي مفتاح دعوتهم بها يتحقق الفلاح وبعدمها يحبط جميع عمل ابن آدم .

قال ابن القيم :

إقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين ، ولمن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، اذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعا ، فإن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعة لمعرفة المرجو والمخوف ، المحبوب ، المطاع ، المعبود ، ولما كان مفتاح الدعوة الالهية معرفة الرب تعالى قال أفضل الداعين إليه سبحانه وخيرهم لمعاذ وقد أرسله إلى اليمن (إنك ستأتي قوما من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة) (٢) .

فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان .

احداهما : تعريف الطريق الموصل إليه ، وهي شريعته المتضمنة لأمره ونهيه .

الثاني : تعريف السالكين مالهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد وقرة العين التي لا تنقطع (٣) .

---

(١) سورة الأنبياء آية : ٢٥

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين : ١/٥٠

(٣) الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة : ص ٦١ - ٦٢

معنى شهادة أن لا اله الا الله

بعد أن عرفنا أن هذه الشهادة هي مفتاح الدعوة فما هو معناها وما هي حقيقتها وما هي الأمور التي تتعلق بها وذلك على حسب ما يراه ابن القيم :

" **اشهد** " (١) يقول ابن القيم رحمه الله :

وعبارة السلف في " أشهد " تدور على الحكم والقضاء والإعلام والبيان والإخبار قال مجاهد : حكم وقضى . وقال الزجاج (٢) : بين وقالت طائفة أعلم وأخبر . وهذه الأقوال كلها حق لا تنافي بينها فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد ، وخبره وقوله . وتتضمن إعلامه وإخباره وبيانه (٣) .

وبعد أن بين تعريفها أخذ يبين مراتبها فقال :

فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علم ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك ونطقه به وان لم يُعْلِم به غيره ، بل يتكلم هو به مع نفسه ويذكرها ، وينطق بها ، أو يكتبها .

وثالثها : أن يعلم غيره بما شهد به ، ويخبره به ، ويبينه له .

رابعها : أن يلزمه بمضمونها ويأمره به (٤) .

وقال تعالى : ((وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون)) (٥) .

فجعل ذلك منهم شهادة وان لم يتلفظوا بلفظ الشهادة (٦) .

فدل ذلك على أن ابن القيم رحمه الله لا يشترط لفظ أشهد ، لمن أراد الدخول في الاسلام فقال :

واجمع المسلمون على أن الكافر اذا قال :لا اله الا الله محمد رسول الله فقد دخل في الاسلام وشهد شهادة الحق ولم يتوقف اسلامه على لفظ الشهادة(٧).

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور ج ٣ ص : ٢٣٩ ومختار الصحاح مادة شهد والمصباح المنير مادة شهد .

(٢) هو ابراهيم بن سرى بن سهل ابو إسحاق الزجاج ، عالم بالنحو واللغة ، ولد ومات ببغداد علمه المبرد وصنف التصانيف المفيدة في الأدب واللغة منها : خلق الانسان والامالى ، واعراب القرآن ، وفعلت وأفعلت والمثلث وغيره ، توفى سنة ٣١٠هـ رحمه الله انظر تاريخ بغداد : ٨٩/٦ وابن خلكان ١١/١ ، والاعلام : ٤٠/١

(٣) التفسير القيم ص : ١٧٤

(٤) نفس المرجع ص : ١٧٥

(٥) سورة الزخرف آيه : ١٩

(٦) التفسير القيم ص : ١٧٥

(٧) نفس المرجع : ١٧٦

اللـــــــه : وهـو الإلـه وهـو علـم علـى الرب تبـارك وتعالـى وهـو أعـرف المعـارف

قـال ابـن القيـــم :

فاسـم اللـه دال علـى جميـع الأسمـاء الحسـنى والصفـات العليـا بالدلالات الثـلاث فانـه دال علـى الهيتـه المتضمنـة لثبـوت صفـات الالهيـة لـه مـع نفـي اضدادها عنه (١). واللـه سبحانـه وتعالـى يجـري جميـع اسمائـه الواردة صفـات لـه أي (اللـه) .

يقـول تعالـى : ((وللـه الاسمـاء الحسنـى)) (٢) .

ويقـول تعالـى: ((هـو اللـه الذي لا إلـه إلا هـو عالـم الغيـب والشهادة هـو الرحمـن الرحيـم هـو اللـه الذي لا إلـه إلا هـو الملـك القـدوس السـلام المـؤمن المهيمـن العزيـز الجبـار المتكـبر سبحان اللـه عمـا يشركـون . هـو اللـه الخالـق البـارىء المصـور لـه الاسمـاء الحسنـى يسبـح لـه مافـي السموات والأرض وهو العـزيـز الحكيـم)) (٣) .

يقـول ابـن القيـم :

يقـال الرحمـن والرحيـم ، والقـدوس ، والسـلام ، والعـزيز ، والحكيـم مـن اسمـاء اللـه ، ولا يقـال : " اللـه " مـن اسمـاء الرحمـن ولا مـن اسمـاء العـزيـز ونحو ذلـك فعلـم أن اسـم اللـه مستلـزم لجميـع معانـي الاسمـاء الحسنـى دال عليهـا بالإجمـال والاسمـاء الحسنـى تفصيـل وتبييـن لصفـات الإلهيـه التي اشتـق منهـا اسـم اللـه (٤) .

واسـم اللـه دال علـى كونـه مألـوهـا معبـودا ، فـألـه الخـلائـق محبـة وتعظيمـا وخضـوعـا وفـزعـا إليـه فـي الحوائـج والنـوائـب (٥) .

لا إلـه إلا اللـه :

مـاذا تعنـي كلمـة التوحيـد جملـة واحـدة (٦) .

يقـول ابـن القيـم عـن حقيقـة لا إلـه إلا اللـه وطريـق القـرآن فـي مثـل ذلـك :

وطريـق القـرآن فـي مثـل ذلـك أن يقـرن النفـي بالإثبـات فينفـي عبـادة ما سـوى اللـه ، ويثبـت عبـادتـه وهـذا هـو حقيقـة التوحيـد ، والنفـي المحـض ليس بتوحيـد وكذلـك الاثبـات بـدون النفـي ، فـلا يكـون التوحيـد إلا متضمنـا للنفـي

---

(١) مـدارج السـالكيـن : ٤١/١

(٢) سـورة الاعـراف الآيـة : ١٨٠

(٣) سـورة الحشـر الآيـة : ٢٢-٢٥

(٤) اختلفـوا فـي اسـم اللـه هـل هـو مشتق أم لا ويرى ابـن القيـم أنـه مشتق من الإلـه ورد علـى السهيلـي وشيخـه أبى بكـر بن العربـي فـي قولهـم أن اسـم اللـه غير مشتق انظـر إغاثـة اللهفـان جـ ١ ص : ٢٢

(٥) مدارج السالكيـن : ٤١/١

(٦) انظـر فتـح المجيـد فـي شـرح كتـاب التوحيـد لعبدالرحمن بن حسـن آل الشيـخ ص : ٣٥ وما بعـدهـا فـي شـرح هـذه الشهـادة .

والاثبات (١) مثل قوله تعالى : ((فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى)) (٢) وقوله تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوة)) (٣) فيكون معناها : لا معبود بحق الا الله .

قال ابن القيم في رده على من قال أن المستثنى مخرج من المستثنى منه :

صح مذهب الجمهور أن الاخراج من الاسم والحكم معا ولو كان مخرج من المستثنى لم يدخل الرجل في الاسلام لقوله (لا اله الا الله) لأنه على هذا التقدير الباطل لم يثبت الالهية لله وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الالهية عما سوى الله ، واثباتها له بوصف الاختصاص فدلالتها على اثبات الالهية أعظم من دلالة قولنا الله (اله) ولا يستريب في هذا أحد البته (٤) .

خلقه سبحانه وتعالى السموات والأرض وما بينهما كان بها ولاجلها

ثم يبين رحمه الله تعالى عظيم أمر هذه الشهادة وروح وسر هذه الشهادة فيقول : هذه الشهادة التي هي أعدل شهادة على الاطلاق ، وانكارها وجحودها أظلم الظلم على الاطلاق فلا أعدل من توحيد الرسل ولا اظلم من الشرك (٥).

وهي كلمة لا اله الا الله التي ورّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسماوات ، وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة ، وجردت سيوف الجهاد ، وهي محض حق الله على جميع العباد ، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال والذرية في هذه الدار ، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار ، وهي المنشور الذي لا يدخل أحد الجنة الا به والحبل الذي لا يصل الى الله من لم يتعلق بسببه ، وهي كلمة الاسلام ومفتاح دار السلام وبها أنقسم الناس الى شقي وسعيد ومقبول وطريد ، وبها انفصلت دار الكفر من دار الايمان ، وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهي العامود الحامل للفرض والسنة (٦) .

وبعد أن بين رحمه الله تعالى موجب هذه الشهادة أخذ يبين روح وسر هذه الكلمة وهي " كلمة التوحيد " .

---

(١) انظر التفسير القيم ص : ١٧٨ نقلا عن جلاء الافهام .
(٢) سورة البقرة الآية : ٢٥٦
(٣) سورة النحل الآية : ٣٦
(٤) بدائع الفوائد بتصرف قليل : ٥٨/٣
(٥) التفسير القيم ص : ١٨٠
(٦) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص : ٢٣٣ وانظر زاد المعاد : ٣٤/١

فقال : " روح هذه الكلمة وسرها :

أفراد الرب جل ثناؤه ، وتقدست أسماؤه ، وتبارك اسمه ، وتعالى جده ولا اله غيره : بالمحبة والإجلال والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والإنابة والرغبة والرهبة ، فلا يحب سواه ، ولا يخاف سواه ، ولا يرجي سواه ، ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا إليه ، ولا يطاع إلا أمره ، ولا يتحسب إلا به ولا يستغاث في الشدائد إلا به ، ولا يلتجأ إلا إليه ، ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه (١) .

وبعد أن ذكر روح هذه الكلمة تفصيلا قال : ويمكن أن يجتمع ذلك في حرف واحد ، وهو : أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله الا الله ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة (٢) فحقيقتها معرفة الله ومحبته وعبادته وحده لا شريك له .

إثبات وجود الله وهو على منهج ابن القيم في دعوة الملحدين

لا شك أن الداعية سيواجه أصنافا كثيرة من المدعوين منهم الغافل والملحد والمشرك وغيرهم ولابد أن يتسلح بسلاح العلم حتى لا يقف أحدهم عثرة في طريق دعوته ، وأن يبين لكل من عنده شبهة الحق الذي يزيل عنه تلك الشبهة ويرده الى دين الله .

فالملحد المنكر لوجود الله تعالى من ـ الماديين والطبيعيين ـ الذين حكى الله تعالى مقولتهم في القرآن :((وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر)) (٣) .

كثيرون في هذا العصر أكثر من أي زمان مضى وممّا يزيد الأمر سوءا أن الإلحاد أخذ يمد ألسنة لهبه في صفوف المسلمين ، ممن خدعوا بمقالاتهم وفلسفتهم ما يوجب أن نضع بين يدي الداعية بعض الأدلة التي تثبت وجود الله سبحانه وتعالى حتى تكون عونا له على رد شبهة من زاغ عن الحق ، وان كان الأمر في حقيقته لا يحتاج إلى ذلك ، فوجود الرب سبحانه لا يحتاج إلى دليل لأن كل ما في الكون دليل على وجوده ، كما يقول ابن القيم :

قال بعض العارفين : كيف أطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء ؟ فأي دليل طلبته عليه فوجوده أظهر منه ولهذا قال الرسل لقومهم : ((أفي الله شك)) (٤) .

---

(١)،(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص : ٢٢٣ وانظر زاد المعاد : ٢٤/١

(٣) سورة الجاثية الآية : ٢٤

(٤) سورة ابراهيم : ١٠

فهو أعرف من كل معروف وأبين من كل دليل فالأشياء عرفت به في الحقيقة وان كان عرف بها في النظر والإستدلال بأفعاله واحكامه عليه (١) .

وصدق القائل :

وللـه في كل تحريكه * * * وفي كل تسكينه شاهد

وفي كل شيء له آيه * * * تدل على أنه الواحد (٢)

ولكن الواقع فرض علينا ذلك بحيث أصبح الحال كما قال المتنبي :

وليس يصح في الاذهان شيء * * * إذا احتاج النهار الى دليل (٣)

الدليل الأول : الفطرة :

قال تعالى : ((وإذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين)) (٤) قال تعالى لنبيه : (واذكر يا محمد ربك اذ استخرج ولد آدم من اصلاب آبائهم فقررهم بتوحيده وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك واقرارهم به) (٥) .

وروى ابن جرير أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان) يعني عرفه (فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها ، فنثرهم بين يديه كالذر ، ثم كلمهم قبلا فقال : ألست بربكم ؟ قالوا بلى شهدنا أن تقولوا ... الآية - الى ((ما فعل المبطلون)) (٦) .

* إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة أودعها الله جلة قدرته في كيان البشر فهي غريزة في الانسان يستشعرها في أعماقه . ولهذا نرى العنصر البشري عامة سواء كان مؤمنا بالله أو جاحدا اذا ألم به خطب عظيم واجتمعت عليه الاحداث وشعر بالعجز عن المقاومة فإنه سرعان ما يتجه إلى الله تعالى ويدعوه وحده ويستجير به وان كان يجحده ظاهرا ولكنه يستشعره في أعماقه .

قال تعالى : ((واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الانسان كفورا)) (٧) .

---

(١) الفوائد لابن القيم : ٢٩

(٢) الابيات لأبي العتاهية في الديوان ص : ٧٠ دار التراث بيروت ١٣٨٩هـ .

(٣) البيت للمتنبي في ديوانه ص : ٢٦١

(٤) سورة الاعراف الآية : ١٧٢

(٥) تفسير الطبري : ج ٦ ص : ١١٠

(٦) تفسير الطبري : ج ٦ ص : ١١١

(٧) سورة الاسراء الآية : ٦٧

ابن القيم والفطرة :

كثيرا ما يقرر ابن القيم رحمه الله أن معرفة الله تعالى مسطورة مثبتة في الفطرة وأن الله سبحانه وتعالى لم ييسر للناس شيئا اكثر من تيسيره معرفة خالقهم جل وعلا فيقول : ثم يسر عليه طرق ما هو محتاج إليه من العلم أتم تيسير وكلما كانت حاجته إلى العلم أعظم كان تيسيره إياه عليه أتم فأعطاه معرفة خالقه ، وبارئه ، ومبدعه سبحانه والاقرار به ، ويسر عليه طرق هذه المعرفة ، فليس في العلوم ما هو أجل منها ولا أظهر عند العقل والفطرة ، وليس في طرق العلوم التي تنال بها أكثر من طرقها ولا أدل ولا أبين ولا أوضح فكلما تراه بعينك ، أو تسمعه بأذنك ، أو تعقله بقلبك ، وكل ما يخطر ببالك وكلما نالته حاسة من حواسك فهو دليل على الرب تبارك وتعالى فطرق العلم بالصانع فطرية ضرورية ليس في العلوم أجلى منها ... ولهذا قالت الرسل لأممهم : أفي الله شك ؟ فخاطبوهم مخاطبة من لا ينبغي أن يخطر له شك (١). ويقول : ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول السليمة والفطر من وجود النهار ومن لم ير ذلك في عقله وفطرته فليتهمهما (٢) .

ويرى رحمه الله أن الفطرة اذ كانت صحيحة سليمة تكاد تنطق بالحق وتعرفه لما جبلت عليه من حب الخير ومعرفة الله وهذا مجرب في حياة المؤمن ذو الفطرة السليمة يقول رحمه الله عن ذلك :

المؤمن قلبه يضيء يكاد يعرف الحق بفطرته وعقله ، ولكن لا مادة له من نفسه ، فجاءت مادة الوحي ، فباشرت قلبه ، وخالطت بشاشته ، فازداد نورا بالوحي على نوره الذي فطره الله عليه ، فيكاد ينطق بالحق وان لم يسمع فيه أثرا ، ثم يسمع الأثر مطابقا لما شهدت به فطرته فينشأ إيمانه عن شهادة الوحي والفطرة (٣) .

إلا أن هذه الفطرة قد يطرأ عليها ما يفسدها ويعكر عليها ويميل بها عن الحق وهي مؤثرات خارجية تجعلها لا تميز بين الحق والباطل وهذه المؤثرات كثيرة نذكر بعضا منها على سبيل المثال : التقليد الأعمى باتباع الآباء والأجداد على غير هدى وبصيرة قال تعالى : ((إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون)) (٤) .

---

(١) مفتاح دار السعادة ص : ٣٤٨

(٢) مدارج السالكين : ج ١ ص : ٧١

(٣) الوابل الصيب لابن القيم : ٦٧

(٤) سورة الزخرف آية : ٢٢

ومنها الاستكبار من أجل الجاة والسلطان كقوله تعالى : ((أنؤمن لك واتبعك الأرذلون)) (١) وغير ذلك من معوقات الفطرة .

والذي يراه ابن القيم رحمه الله أن لو انتفت المعوقات عن العبد وخلى على فطرته التي خلق عليها لعرف ربه وأقر بواحدانيته فيقول :

فلو خليت على ما خلقت عليه لم يعرض لها ما يفسدها ويحولها ويغيرها عما فطرت عليه لأقرت بوحدانيته ووجوب شكره وطاعته ... ولكنها لما فسدت وانحرفت عن المنهج الذي خلقت عليه أنكرت ما أنكرت (٢) .

ولذلك بعث الله الرسل لتذكير أممهم وإيقاظ الفطرة وإعادتها إلى ما كانت عليه يقول ابن القيم :

ثم بعث الرسل مذكرين به ولهذا يقول تعالى : ((وذكر فإن الذكري تنفع المؤمنين)) (٣) وقوله : ((فذكر إن نفعت الذكرى)) (٤) وقوله : ((إنما أنت مذكر)) (٥) .

ويقول رحمه الله مفصلا ذلك : وجاءت الرسل ، وأنزلت الكتب لتقرير ما استودع الله سبحانه في الفطر والعقول من ذلك وتكميله وتفصيله ، وزيادته حسنا إلى حسنه (٦) فالقلوب مفطورة على حب الهها وتأليهه ، فصرف ذلك التأله والمحبة إلى غيره تغيير للفطرة ولما تغيرت فطر الناس بعث الله الرسل بصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لهم رجع إلى أصل الفطرة ومن لم يستجب لهم إستمر على تغيير الفطرة وفسادها (٧) .

الدليل الثاني : التفكر في آيات الله وتدبرها :

يبين ابن القيم رحمه الله أن منهج الرب تبارك وتعالى في دعوة عباده الى معرفته من طريقين :

احدهما التفكر في آياته وتدبرها ، والثاني النظر في مفعولاته .

وقبل أن نبدأ الحديث عنها بالتفصيل نود أن نوضح منهج الناس في طرق الاستدلال على وجود الصانع كتمهيد للموضوع .

---

(١) سورة الشعراء الآية : ١١١
(٢) مفتاح دار السعادة : ج ١ ص : ٣٤٩
(٣) سورة الذاريات الآية : ٥٥
(٤) سورة الأعلى الآية : ٩
(٥) سورة الغاشيه الآية : ٢١
(٦) مفتاح دار السعادة : ج ٢ ص : ٤٨٩
(٧) إغاثة اللهفان : ج ٢ ص : ١٥٨

طريق الاستدلال على وجود الله :

إختلفت الطرق في الاستدلال على وجود الله ، فهناك طريقة المتكلمين ، وطريقة الفلاسفة وطريقة السلف رضي الله عنهم . المستمدة من منهج القرآن الكريم في الاستدلال على وجود الصانع تبارك وتعالى ، وهو المنهج الذي سلكه ابن القيم رحمه الله في الاستدلال على وجود الله كما سنبينه إن شاء الله تعالى .

ولكن ابن القيم تعقب الطرق الأخرى ورد عليها ونقد مسلكهم ووصفه بالعقم وأنه لا يؤدي إلى إثبات الصانع تبارك وتعالى بقدر ما يؤدي الى نفيه ونفي صفاته اضافة الى تعقيده بشكل لا يستطيع فهمه الا المختصون (١) .

فيقول رضي الله عنه بعد أن ذكر طريقة الفلاسفة في الاستدلال على وجود الله وفند قولهم ورده :

والمقصود أن الطريق التي سلكها هؤلاء في اثبات الصانع هي أعظم الطرق في نفيه وانكار وجوده ، ولذلك كان سالكوها لا يؤمنون بالله ولا ملائكته ولا كتبه ولا رسله ولا باليوم الآخر (٢) .

وقال عن المتكلمين بعد أن ذكر طريقتهم (٣) في الاستدلال على الصانع وما بنوا عليه طريقتهم من أمور يترتب بعضها على بعض قال :

---

(١) نقل ابن القيم طريقة الفلاسفة في اثبات الصانع فقال : أما الفلاسفة فأثبتوا الصانع بطريق التركيب وهو أن الاجسام مركبة ، والمركب يفتقر الى أجزائه وكل مفتقر ممكن ، والممكن لابد له من وجود واجب ويستحيل الكثرة في ذات الواجب بوجه من الوجوه اذ يلزم تركيبه وافتقاره وذلك ينافي وجوبه ، وهذا هو غاية توحيدهم وبه أثبتوا الخالق على زعمهم : مختصر الصواعق المرسلة : ١٢٦/١

(٢) مختصر الصواعق المرسلة : ١٢٨/١

(٣) ذكر ابن القيم رحمه الله طريقة المتكلمين في اثبات الصانع فقال : وأما المتكلمون فلما رأوا بطلان طريقة الفلاسفة ، عدلوا عنها الى طريقة الحركة والسكون والاجتماع والافتراق وتماثل الاجسام وتركيبها من الجواهر الفردة وأنها قابلة للحوادث، وما يقبل الحوادث فهو حادث فالاجسام كلها حادثة فاذن يجب أن يكون لها محدث ليس بجسم فبنوا العلم باثبات الصانع على حدوث الاجسام واستدلوا على حدوثها بأنها مستلزمة للحركة والسكون والاجتماع والافتراق ، ثم قالوا ان تلك أعراض ، والأعراض حادثة ، وما لا يخلوا عن الحوادث فهو حادث واحتاجوا في هذه الطريق الى اثبات الاعراض أولا ، ثم اثبات لزومها للجسم ثانيا ثم ابطال حوادث لا أول لها ثالثا ، ثم الزام بطلان حوادث لا نهاية لها رابعا عند فريق منهم ، ثم اثبات الجوهر الفرد خامسا ثم الزام كون العرض لا يبقى زمانين سادسا فيلزم حدوثه والجسم لا يخلوا منه وما لا يخلو من الحوادث فهو حادث ثم تماثل الأجسام سابعا فعلمهم باثبات الخالق مبني على هذه الأمور السبعة : مختصر الصواعق المرسلة : ١٢٨/١

فلزم من سلوك هذا الطريق إنكار كون الرب فاعلا في الحقيقة وان سموه فاعلا بألسنتهم فإنه لا يقوم به عندهم فعل .

وفاعل بلا فعل كقائم بلا قيام وضارب بلا ضرب ، وعالم بلا علم (١).

منهج ابن القيم في الاستدلال على وجود الله

نهج ابن القيم رحمه الله في اثبات وجود الله منهج القرآن الكريم والأدلة التي جاء بها الشرع لايقاظ الفطرة في نفس الإنسان لأنها أسلم الطرق وأقربها الى فهم السامع فحججه وبراهينه قاطعة الدلالة وأسلوبها سلس سهل ميسور تقمع شبه المنحرفين بكل يسر وهي بعيدة عن التعقيد والتخبطات التي تفسد أكثر مما تصلح ولا شك أن هذا هو المنهج القويم المعتمد على كتاب الله تعالى ولذلك يقول : وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية : من التوحيد ، واثبات الصفات ، وإثبات المعاد والنبوات ، ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة ، مثل القرآن : فانه كفيل بذلك كله ، متضمن له على أتم الوجوه وأحسنها ، وأقربها الى العقول وأفصحها بيانا (٢) .

ان ذلك توجيه من ابن القيم رحمه الله للدعاة على أن لا ينهجوا نهج أولئك الفلاسفة والمتكلمين التي أثبت أن طريقتهم لا تفي بالغرض بل إنها إنكار وإبطال لوجود الله وأن المسلك الصحيح الذي يوافق الفطرة والعقل هو منهج القرآن الكريم ، الذي صنع أعظم الرجال وأقواهم إيمانا وصلاحا بفضل ما يتمتع به من تأثير وقرب من الفطرة التي فطر الناس عليها .

التفكر والتدبر قائد إلى العلم بوجود الله

يقرر أن قراءة القرآن الكريم لا تفي بالغرض وحدها بل لابدّ من التفكر والتدبر فيقول : ولهذا أنزل القرآن ليتدبر ويتفكر فيه ويعمل به لا لمجرد تلاوته مع الإعراض عنه (٣) .

فإن الله سبحانه وتعالى قيد الإنتفاع بالقرآن في قوله : ((إن هو إلا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا)) (٤) .

يقول ابن القيم تعليقا على هذه الآية :

فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب ، وهو فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عيانا بقلبه

---

(١) مختصر الصواعق المرسله : ١٢٨/١

(٢) اغاثة اللهفان : ٤٤/١

(٣) مفتاح دار السعادة : ٢٣٦/١

(٤) الآيات من سورة يس : ٦٩ - ٧٠

كما يرى الليل والنهار (١) .

ولذلك فان ابن القيم يرى أن التفكر في القرآن والنظر في آياته نوعان هي: تفكر فيه ليقع على مراد الرب تعالى منه ، وتفكر في معاني ما دعا عباده إلى التفكر فيه . فالأول تفكر في الدليل القرآني . والثاني تفكر في الدليل العياني. فالأول تفكر في آياته المسموعة ، والثاني تفكر في آياته المشهودة (٢) .

فالتفكر يوقع صاحبه من الإيمان على مالا يوقعه العمل المجرد فان التفكر يوجب له من انكشاف حقائق الامور وظهورها له وتمييز مراتبها في الخير والشر (٣). ويزيد الأمر وضوحا فيقول : فأصل كل طاعة إنما هي الفكر وكذلك أصل كل معصية إنما يحدث من جانب الفكرة . فإن الشيطان يصادف أرض القلب خالية فارغة فيبذر فيها الأفكار الرديئة فيتولد منه الإرادات والعزوم فيتولد منها العمل فإذا صادف أرض القلب مشغولة ببذر الافكار النافعة فيما خلق له ، وفيما أمر به ، وفيما هيء له ، وأعد له من النعيم المقيم أو العذاب الأليم لم يجد لبذره موضعا (٤) .

فالتفكر عنده رضى الله عنه هو الموصل إلى المطالب العليا من معرفة وجود الله تعالى وتوحيده ومعرفة صفاته فيقول :

وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه في كتابه عباده إلى التفكر فيه أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى ، وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله من عموم قدرته وعلمه ، وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه ، وعدله ورضاه ، وغضبه وثوابه وعقابه . فبهذا تعرّف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته (٥). كقوله تعالى : ((أفلا يتدبرون القرآن)) (٦) وقوله : ((أفلم يدبروا القول)) (٧) وقوله : ((كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته)) (٨) وغير ذلك من الحث على تدبر القرآن من أجل الوصول إلى معرفة الخالق .

الدليل الثالث : النظر في مفعولاته :

مفعولات الرب سبحانه وتعالى من أعظم الأدلة على وجود الرب تبارك وتعالى ولذلك نجد أن ابن القيم رحمه الله قد ركز عليها ودعا الناس إلى النظر فيها

---

(١) اغاثة اللهفان : ٤٥/١
(٢) مفتاح دار السعادة : ٢٣٦/١
(٣) نفس المرجع : ٢٢٨/١
(٤) مفتاح دار السعادة : ٢٣٢/١
(٥) المرجع السابق : ٢٣٧/١
(٦) الآية من سورة النساء : ٨٢
(٧) الآية من سورة المؤمنون : ٦٨
(٨) الآية من سورة ص : ٢٩

لدلالتها على وجود الصانع فيقول :

فاما المفعولات فانها دالة على الأفعال ، والأفعال دالة على الصفات ، فان المفعول يدل على فاعل فعله ، وذلك يستلزم وجوده وقدرته ومشيئته وعلمه لاستحالة صدور الفعل الاختياري من معدوم أو موجود لا قدرة له ولا حياة ولا علم ولا ارادة ثم مافي المفعولات من التخصيصات المتنوعة دال على ارادة الفاعل وأن فعله ليس بالطبع بحيث يكون واحدا غير متكرر وما فيها من الحكم والغايات المحمودة دال على حكمته تعالى وما فيها من النفع والاحسان والخير دال على رحمته وما فيها من البطش والعقوبة دال على غضبه وما فيها من الاكرام والتقريب والعناية دال على محبته ... وغير ذلك مما ذكره ابن القيم في مفعولات الرب تبارك وتعالى التي تدل على صفاته وصدق ما أخبر به رسله عليه فالمصنوعات شاهدة تصدق الآيات المسموعات منبهة على الاستدلال بالآيات المصنوعات (١) كما ينبه الرب تبارك وتعالى العباد الى ذلك في كثير من آياته كقوله تعالى : ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)) (٢) .

فاذا رأيت الانسان ينظر في ملكوت الله تعالى ولا يهتدي الى الحق فادعه الى أن ينظر بعين البصيرة وليست العين المجردة فقط ، قال ابن القيم عن أنواع النظر في ملكوت الله نوعان :

الأول : نظر اليها بالبصر الظاهر فيرى مثلا زرقة السماء ونجومها وعلوها وسعتها وهذا نظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوانات وليس هو المقصود بالأمر.

الثاني : أن يتجاوز ذلك الى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له أبواب السماء فيجول فيها وفي أقطارها وملكوتها وبين ملائكتها ثم يفتح له بابا بعد باب حتى ينتهي به سير القلب الى عرش الرحمن (٣) .

والنظر في مفعولاته سبحانه له طريقان هما :

أولا : ما يظهر من اختراع الموجودات مثل اختراع الحياة فيما لم يكن حيا ، فتحدث اشياء وتنعدم أشياء .

ثانيا : طريق الوقوف على العناية بالانسان وأنه خلق جميع ما في الوجود من أجله

---

(١) انظر كتاب الفوائد لابن القيم : ٢٨

(٢) الآية من سورة البقرة : ١٦٤

(٣) مفتاح دار السعادة : ٢٥١/١

هـذا ما يسمـى بدليـل العنايـة .

فقـد يتحـدث القـرآن الكريـم عنـهـا مجتمعـة أو متفرقـة . ولذلـك نـرى ابن القيـم رحمـه اللـه لا يخـرج فـي الاستدلال علـى وجـود اللـه عـن هـذه الطـريقـة .

دليـل الخلـق :

إن طـرق الاختـراع والإبـداع التي يذكرهـا القـرآن الكريـم بالأسـاليـب المختلفـة شاملـة لجميـع مخلـوقـاتـه ، عظيمهـا وحقـيرهـا مما يـدل علـى عظمتـه سبحانـه وقـدرتـه علـى الابـداع ، وسعـة علمـه ، وحكمتـه ، كمـا أنهـا تبيـن أن القـادر على هـذا الخلـق العظيـم هـو الـرب الـذي يستحـق العبـادة وحـده .

ويستـدل ابـن القيـم بدليـل الخلـق بقولـه تعالـى : ((ان فـي خلـق السمـوات والأرض واختـلاف الليـل والنهار لآيـات لأولـي الألبـاب)) (١) وبقـولـه تعالى : ((ان فـي السمـوات والأرض لآيـات للمـؤمنيـن وفـي خلقكـم وما يبـث مـن دآبـة آيـات لقـوم يوقنـون واختـلاف الليـل والنهار وما أنـزل اللـه مـن السمـاء مـن رزق فأحيـا بـه الأرض بعـد موتهـا وتصريـف الريـاح آيـات لقـوم يعقلـون)) (٢) .

وقـولـه تعالـى : ((ومن آيـاتـه أن خلقكـم مـن تراب ثـم اذا أنتـم بشـر تنتشـرون . ومـن آيـاتـه أن خلـق لكـم مـن أنفسكـم أزواجـا لتسكنـوا اليهـا وجعـل بينكـم مـودة ورحمـة ان فـي ذلـك لآيـات لقـوم يتفكـرون ، ومن آيـاتـه خلـق السموات والأرض واختلاف السنتكـم وألوانكـم إن فـي ذلـك لآيـات للعالميـن)) (٣) .

يقـول ابـن القيـم :

نـوع سبحانـه الآيـات فـي هـذه السـور فجعـل خلـق السموات والأرض واختـلاف لغـات الأمـم وألوانهـم آيـات للعالميـن كلهـم لاشـتراكهـم فـي العلـم بذلـك وظهـوره وجعل خلـق الأزواج التي تسكـن اليهـا الرجـال والقـاء المودة والرحمـة بينهـم آيـات لقـوم يتفكرون . فإن سكـون الرجـل إلـى امـرأتـه وما يكـون بينهمـا مـن المـودة والتعاطـف والتراحـم أمر باطـن مشهـود بعيـن الفكـرة والبصـيرة .

فمتـى نظـر بهـذه العيـن إلـى الحكمـة والرحمـة والقـدرة التي صـدر عنهـا ذلـك دلـه فكـره علـى أنـه الإلـه الحـق المبيـن الـذي أقـرت الفطـرة بـربـوبيتـه وحكمتـه ورحمتـه (٤) .

---

(١) سـورة آل عمـران الآيـة : ١٩٠

(٢) سـورة الجاثيـة الآيـات : ٣ - ٥

(٣) سـورة الـروم الآيـات : ١٩ - ٢٢

(٤) مفتـاح دار السـعـادة : ٢٣٥/١

ثم يقول : فإن هذه أمور مرتبة بالأبصار مشاهدة بالحس ، فاذا نظر فيها ببصر قلبه وهو عقله استدل على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته (١).

خلق السماء

بعد أن تحدث رحمه الله عن خلق الانسان من نطفة وإظهار عجائب خلقه سبحانه للإنسان قال :

فكيف صنعه في ملكوت السموات ، وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها ، وقمرها ، وكواكبها ومقاديرها وأشكالها ، وتفاوت مشارقها ومغاربها ؟

فلا ذرة فيها تنفك عن حكمه ، بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع والعجائب من بدن الانسان ، بل لا نسبة لجميع ما في الأرض الى عجائب السموات ، قال الله تعالى : ((أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها)) (٢).

وقال تعالى : ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس)) الى قوله تعالى : ((لآيات لقوم يعقلون))(٣) فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى : ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الالباب)) (٤) .

فالأرض والبحار ، والهواء وكل ما تحت السماوات ، بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر . ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكرها ، اما اخبارا عن عظمها وسعتها واما اقساما بها ، واما دعاء الى النظر فيها .

واما ارشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها ، واما استدلالا منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة ، واما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله الا هو ، وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته (٥) .

وكذلك ما فيها من الكواكب والشمس والقمر والعجائب التي تتقاصر عقول البشر عن تحليلها فكم من قسم في القرآن بها كقوله : ((والسماء ذات البروج)) (٦) ((والسماء وما بناها)) (٧) ((والسماء ذات الرجع)) (٨) ((والشمس وضحاها))(٩)

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢٣٥/١ - ٢٣٦
(٢) سورة النازعات الآية : ٢٧
(٣) سورة البقرة الآية : ١٦٤
(٤) سورة آل عمران الآية : ١٩٠
(٥) مفتاح دار السعادة : ٢٤٨/١
(٦) سورة البروج الآية : ١
(٧) سورة الشمس الآية : ٥
(٨) سورة الطارق آية : ١١
(٩) سورة الشمس الآية : ١

((والنجم إذا هوى)) (١) فلم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجم والشمس والقمر .

وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنها الآيات والعجائب الدالة عليه وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره ولهذا يعظّم هذا القسم كقوله : ((فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم))(٢).

والمقصود أنه سبحانه انما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته ووحدانيته فانظر الى هذا البناء العظيم الشديد الواسع الذي رفع سمكه أعظم ارتفاع وزينة بأحسن زينة وأودعه العجائب والآيات ، وكيف ابتدأ خلقه من بخار ارتفع من الماء وهو الدخان ، لقد تعرف الى خلقه بأنواع التعرفات ونصب لهم الدلالات ، وأوضح لهم الآيات البينات ، ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة ، وان الله لسميع عليم فارجع البصر الى السماء وانظر فيها وفي كواكبها ودورانها وطلوعها وغروبها ، وشمسها وقمرها ، واختلاف مشارقها ومغاربها ودؤبها في الحركة على الدوام ، من غير فتور في حركتها ، ولا تغير في سيرها .

بل تجري في منازل قد رتبت لها بحساب مقدّر لا يزيد ولا ينقص الى أن يطويها فاطرها وبديعها (٣) .

خلق الأرض

يقول ابن القيم رحمه الله : وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خلقت ، رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها . خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده ، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم ، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم ، وأرساها بالجبال فجعلها أوتادا تحفظها لئلا تميد بهم ، ووسع أكنافها ودحاها فمدها وبسطها ، وطحاها فوسعها من جوانبها ، وجعلها كفاتا للاحياء تضمهم على ظهرها ما داموا أحياء وكفاتا للأموات تضمهم في بطنها اذا ماتوا .

فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات ، وقد أكثر سبحانه وتعالى من ذكر الارض في كتابه ودعا عباده الى النظر إليها والتفكر في خلقها (٤)

قال تعالى : ((والأرض فرشناها فنعم الماهدون)) (٥) ((الله الذي جعل لكم الأرض قرارا)) (٦) ((الذي جعل لكم الارض فراشا)) (٧) .

---

(١) سورة النجم آيه : ١
(٢) سورة الواقعة آيه : ٧٥
(٣) انظر مفتاح دار السعادة : ٢٤٨/١و٢٤٩
(٤) مفتاح دار السعادة : ٢٥٢/١
(٥) سورة الذاريات الآية : ٤٨
(٦) سورة غافر الآية : ٦٤
(٧) سورة البقرة آيه : ٢٢

قـــال ابـــن القيـــــم :

فانظـــر اليهـا وهـي ميتـــة هـامـدة خاشعـــة ، فإذا أنزلنـــا عليـهـا المـــــاء اهـتـزت فتحركـــت وربـــت فارتفعـــت واخضـــرت وأنبتـــت مـن كـل زوج بهيـج ، فأخرجت عجـــائـــب النبـــات فـي المنظـر والمخـبر بهيـــج للناظـريـن كـريـم للمتناوليـن (١) .

---

(١) مفتـاح دار السعـادة : ٢٥٢/١

خلـــق الانســـان

يقـــول ابـــن القيـــم : وقـد نـدب سبحانـه إلـى التفكـر فيـه والنظـر في غـير موضـع مـن كتـابـه ، كقـولـه تعالـى : ((فلينظـر الانسـان ممـم خلـق))(١) وقـولـه ((وفـي أنفسكـم أفـلا تبصـرون))(٢) وقـال تعالـى ((يأيهـا النـاس إن كنتـم في ريـب مـن البعـث فإنـا خلقنـاكـم مـن تراب ثـم من نطفـة ثـم مـن علقـة ثـم مـن مضغة مخلقـه وغـير مخلقـه لنبيـن لكـم ونقـرّ فـي الأرحـام ما نشـاء إلـى أجـل مسمـى ثـم نخرجكـم طفـلا ثـم لتبلغـوا أشـدكـم ومنكـم من يتوفـى ومنكـم مـن يـرد إلـى أرذل العمـر لكيـلا يعلـم مـن بعـد علـم شيئـاً)) (٣) .

وغـير ذلـك مـن الأيـات التي استـدل بهـا رحمـه اللـه على خلـق الانسان حيث يقول :

وهـذا كثـير فـي القـرآن يدعـو العبـد إلـى النظـر والفكـر فـي مبـدأ خلقـه ووسطـه وآخـره ، إذ نفسـه وخلقـه مـن أعظـم الـدلائـل علـى خالقـه وفـاطـره ، وأقـرب شـيء إلـى الانسـان نفسـه وفيـه مـن العجـائـب الدالـة علـى عظمـة اللـه ما تنقضـي الاعمـار فـي الوقـوف علـى بعضـه .

ثـم يقـول : فانظـر الآن إلـى النطفـة : بعيـن البصيرة وهـي قطـرة من مـاء مهيـن ضعيـف مستقـذر لـو مـرت بهـا سـاعـة مـن الزمـان فسـدت وأنتنـت ، كيـف استخرجها رب الارباب مـذللـة الانقيـاد علـى ضيـق طرقهـا واختـلاف مجاريهـا إلـى أن سـاقهـا إلـى مستقـرهـا ومجمعهـا وكيـف قـدّر اجتمـاع ذينـك المـاءيـن مـع بعـد كـل منهـا عـن صاحبـه ، وسـاقهـا مـن أعمـاق العروق والاعضـاء وجمعهما فـي موضـع واحـد ؟ جعـل لهـا قـراراً مكينـا لا ينالـه هـواء يفسـده ، ولا بـرد يجمـده ، ولا عـارض يصـل إليـه ولا آفـة تتسلـط عليـه ، ثـم قلـب تلـك النطفـة البيضـاء المشربـة عليقـة حمـراء تضـرب الـى السـواد ، ثـم جعلهـا مضغـة لحـم مخالفـه للعلقـه فـي لونهـا وحقيقتهـا وشكلهـا وهيـأتهـا وقـدرهـا وملمسهـا ولـونهـا .

وكيـف كسـاهـا لحمـا ركّبـه وجعلـه وعـاء لهـا وغشـاء وحافظـاً وجعلهـا حاملـة لـه مقيمـة لـه فاللحـم قـائـم بهـا وهـي محفوظـة بـه وكيـف صورها فأحسـن صورها (٤).

ثـم أخـذ يفصـل رحمـه اللـه أعضـاء الانسـان عضـواً عضـواً والحكمـة من خلقـه بتلـك الصـورة الباهرة التي إن دلـت علـى شيء فإنمـا تـدل علـى عظمـة خالقهـا سبحانـه وتعالـى وحكمتـه التـي تبهـر العقـول .

---

(١) سـورة الطـارق الايـة : ٥

(٢) سـورة الذاريـات الايـة : ٢١

(٣) سـورة الحـج الايـة : ٥

(٤) مفتـاح دار السعـادة : ١/٢٣٧-٢٣٨ بتصـرف .

خلق الحيوان

يقول ابن القيم رحمه الله : ومن آياته سبحانه خلق الحيوان على اختلاف صفاته وأجناسه وأشكاله ومنافعه والوانه وعجائبه المودعة فيه فمنه الماشي على بطنه ومنه الماشي على رجليه ومنه الماشي على أربع (١) .

قال تعالى : ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت)) (٢) .

يقول : ثم تأمل الحكمة البالغة في اعطائه سبحانه بهيمة الأنعام الاسماع والابصار ليتم تناولها لمصالحها ويكمل إنتفاع الإنسان بها .

ثم سلبها العقول على كبر خلقها التي للإنسان ليتم تسخيره اياها فيقودها ويصرفها حيث يشاء ، قال تعالى : ((أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً فهم لها مالكون وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون)) (٣) .

وقد ذكر رحمه الله من الحكم الكثيرة في خلق الحيوان على الصور التي خلقها الله عليها لنفع أنفسها ونفع الانسان (٤) .

دليل العنايه

المتأمل لهذا العالم المترابط الأجزاء يجده قائما على نظام دقيق لا خلل فيه فهو يحوى مخلوقات متنوعة الصّفات والاحجام لا يخل شيء بشيء ولا يطغى بعضه على بعض يجد فيه الدلالة على قدرة خالقه وحكمته وأن وجود هذه الموجودات بهذه الاشكال لم يكن وليد الصدفه بل يجد فيه العناية التامة مما يدل على أن وراء ذلك خالقاً عالماً حكيماً لطيفاً ، يستحق العبادة وحده .

يقول ابن القيم رحمه الله : فإنك إذا تأملت العالم وجدته كالبيت المبنى المعد فيه جميع آلاته ومصالحه وكل ما يحتاج إليه ، فالسماء سقفه المرفوع عليه والارض مهاداً وبساطاً وفراشاً ومستقراً للساكن ، والشمس والقمر سراجان يزهران فيه والنجوم مصابيح له وزينه وأدلة للمتنقل في هذه الدار ، والجواهر والمعادن مخزونه فيه كالذخائر والحواصل المعدة المهيأة كل شيء منها لشأنه الذي يصلح له، وضروب النبات مهيأ لمآربه ، وصنوف الحيوان مصروفة لمصالحه ، فمنها الركوب ومنها الحلوب ، ومنها الغذاء ، ومنها اللباس والأمتعة والآلات ، ومنها الحرس الذي وكل بحرس الإنسان يحرسه وهو نائم وقاعد مما هو مستعد لأهلاكه وأذاه ، فلولا

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢٥٨/١

(٢) سورة الغاشيه الايه : ١٧

(٣) سورة يس الايه : ٧١

(٤) انظر مفتاح دار السعادة : ج ١ ص ٢٩٣ ، وشفاء العليل فإنه قد ذكر فيها من عجائب خلق الحيوان وكيف أن الله هداها لمصالحها وتسخيرها للانسان مايدل على عظمة خالقها سبحانه.

ما سلط عليه من ضده لم يقرّ للانسان قرار بينهم .

وجعل الإنسان كالملك المخوّل في ذلك المُحكّم فيه المتصرف بفعله وأمره ففي هذا أعظم دلالة وأوضحها على أن العالم مخلوق لخالق حكيم قدير عليم قدره أحسن تقدير (١) .

ثم يطرح رحمه الله سؤالاً للجاحد بوجود الله فيقول :

فسل المعطل الجاحد ما تقول في دولاب دائر على نهر قد أحكمت الآته وأحكم تركيبه وقدرت أدواته أحسن تقدير وأبلغه بحيث لا يرى الناظر فيه خللاً في مادته ولا في صورته ، وقد جُعل على حديقه عظيمة فيها من كل أنواع الثمار والزروع يسقيها حاجتها ، وفي تلك الحديقه من يلم شعثها ويحسن مراعاتها وتعهدها والقيام بجميع مصالحها ، فلا يختل منها شيء ولا يتلف ثمارها ، ثم يقسم قيمتها عند الجذاذ على سائر المخارج بحسب حاجاتهم وضروراتهم ، فيقسم لكل صنف منهم ما يليق به ويقسمه هكذا على الدوام .

أترى هذا أتفاقاً بلا صانع ولا مختار ولا مدبر بل اتفق وجود ذلك الدولاب والحديقه ، وكل ذلك اتفاقاً من غير فاعل ولا قيّم ولا مدبّر .

أفترى ما يقول لك عقلك في ذلك لو كان ؟ ومالذي يفتيك به ؟ ومالذي يرشدك إليه ؟ ولكن من حكمة العزيز الحكيم أن خلق قلوباً عمياء لا بصائر لها فلا ترى هذه الايات الباهره الا رؤية الحيوانات البهيمة ، كما خلق أعين لا أبصار لها ، والشمس والقمر مسخرات بأمره وهي لا تراها فما ذنبها إن أنكرتها وجحدتها ؟ فهي تقول في ضوء النهار هذا ليل ، ولكن أصحاب الاعين لا يعرفون شيئاً ولقد أحسن القائل :

وهبني قلت هذا الصبحُ ليل * * * أيعمى العالمون عن الضياء (٢)

ومن عنايته سبحانه بعباده أن جعل لهم الليل والنهار يقول ابن القيم رحمه الله:

وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته ، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن ويبديه ، كقوله تعالى : ((ومن آياته الليل والنهار)) (٣) .

وقوله : ((وهو الذي جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً))(٤)

وقوله عز وجل :((الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً))(٥).

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٢٥٩/١

(٢) نفس المرجع : ٢٦٩/١

(٣) سورة فصلت الايه : ٣٧

(٤) سورة الفرقان الايه : ٤٧

(٥) سورة غافر الايه : ٦١

وهذا كثير في القرآن فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم فتسكن فيه الحركات (١) .

ثم تأمل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم ، وكيف كان الناس يسعون في معائشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم ؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور ثم تأمل الحكمة من غروبهما فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة الى السبات وجموم الحواس وانبعاث القوى الباطنه، وظهور سلطانها في النوم المعين على هضم الطعام وتنفيذ الغذاء إلى الأعضاء .

ثم لولا كان الغروب لكانت الأرض تحمى بد وام شروق الشمس واتصال طلوعها حتى يحترق كل ما عليها من حيوان ونبات (٢) .

قال تعالى : ((ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم)) (٣) ، يقول ابن القيم :

فالدنيا قرية ، والمؤمن رئيسها ، والكل مشغول به ، ساع في مصالحه والكل قد أقيم في خدمة حوائجه (٤) .

وقد أطال رحمه الله تعالى بذكر أدلة الخلق والعنايه وبين الحكم من خلق كثير من المخلوقات بما يدل على وجود الرب تعالى وعظمته وحكمته ومن اراد المزيد فليرجع الى كتابه القيم ، مفتاح دار السعاده والتبيان في اقسام القرآن وشفاء العليل ، فانها زاد للداعية في دعوته إذا أراد إثبات وجود الله عز وجل للملحد الكافر بوجوده .

اثبات وحدانية الله وهو يمثل منهجه في دعوة المشركين

قال الله تعالى : ((قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد))(٥) .

هذا المبحث له علاقة بالذي قبله ، حيث أن الإعتراف بوجود الله تعالى وأنه الخالق حجة على تفرده بالوحدانية في كل شيء في ربوبيته والوهيته وصفاته وأفعاله سبحانه لتفرده بالخلق .

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٢٥٦/١

(٢) نفس المرجع : ٢٦٠/١

(٣) سورة الاسراء الايه : ٧٠

(٤) مفتاح دار السعاده : ٣٢٨/١

(٥) سورة الاخلاص .

فاعتراف من اعترف بوجود الله وإقراره به لا يدخله في التوحيد الذي بعث الله من أجله رسله وهو توحيد الألوهية .

يقول ابن القيم : وتوحيد الالٰهيه رأس الأمر ، وأما توحيد الربوبية الذي أقرّ به المسلم والكافر وقرره أهل الكلام في كتبهم فلا يكفي وحده بل هو حجة عليهم كما بين ذلك سبحانه في كتابه الكريم في عدة مواضع (١) .

فهو حجة عليهم لأنهم مقرون بوجود الصانع فإذا ثبت أن صانع هذا الكون موجود ثبت أنه واحد ، بالاضافة إلى الأدلة القاهرة التي استدل بها سبحانه في كتابه الكريم التي تثبت وحدانيته في الخلق والالوهيه .

وقد سلك ابن القيم رحمه الله تعالى في الاستدلال على وحدانية الله مسلك القرآن الكريم في ذلك :

أولاً : الإستدلال على وحدانيته بنظام الكون وسلامته من الاختلال والتصادم . فهذا الكون العظيم الذي لا تدركه الأبصار ولا العقول ، وما أوجد الله فيه من مخلوقات منها السيارة والثابته وسيرها كل في فلكه الذي أعدّ له وسيرها بهذا النظام المتقن وعدم احتكاكها واختلالها لدليل على أن خالقها واحد سبحانه .

أ : قال تعالى : ((لو كان فيهما آلهه إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش))(٢) ، يقول ابن القيم رحمه الله :

أي لو كان في السموات والارض آلهة إلا الله لفسدتا وبطلتا ، ولم يقل أربابا بل قال آلهة والإله هو المعبود المألوه ، وهذا يدل على أنه من الممتنع المستحيل أن يشرعَ اللهُ عَبَادة غيره أبداً وأنه لو كان معه معبود سواه لفسدة السموات والأرض (٣) .

ب : وكذلك قوله سبحانه مقرراً برهان التوحيد أحسن التقرير وأبلغه وأوجزه . ((قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا))(٤) فإن الآلهة التي كانوا يثبتونها معه كانوا يعترفون بأنها عبيده ومماليكه ومحتاجة إليه فلو كانوا آلهة كما يقولون لعبدوه وتقربوا إليه وحده دون غيره فكيف يعبدونهم دونه ؟ (٥) .

---

(١) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان : ٣٠/١

(٢) سورة الانبياء الاية : ٢٢

(٣) مفتاح دار السعادة : ج ٢ ص ٣٩٤

(٤) سورة الاسراء الايه : ٤٢

(٥) الصواعق المنزله على الطائفة الجهمية والمعطلة: ٢٨٥/١، وانظر المختصر للصواعق المرسله٦٢

ج : قوله تعالى :((ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون))(١).

يقول ابن القيم : فتأمل هذا البرهان الباهر بهذا اللفظ الوجيز البين فإن الالٰه الحق لابدّ أن يكون خالقاً فاعلاً يوصل إلى عابده النفع ويدفع عنه الضر فلو كان معه سبحانه اله لكان له خلق وفعل وحينئذ فلا يرضى بشركة الاله الآخر معه ، بل إن قدر على قهره وتفرده بالالهية دونه فعل ، وإن لم يقدر على ذلك انفرد بخلقه وذهب به كما ينفرد ملوك الدنيا عن بعضهم بعضاً بمماليكهم وإذا لم يقدر المنفرد على قهر الآخر والعلو عليه ، فلابدّ من أحد أمور ثلاثه :

إما أن يذهب كل إلٰه بخلقه وسلطانه .

وإما أن يعلو بعضهم على بعض .

وإما أن يكون كلهم تحت قهر اله واحد ، وملك واحد يتصرف فيهم ولا يتصرفون فيه ، ويمتنع من حُكْمِهم عليه ولا يمتنعون من حُكْمِهِ عليهم فيكون وحده هو الإلٰه الحق وهم العبيد المربوبون المقهورون ، وانتظام أمر العالم العلوى والسفلى وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسد من أدل دليل على أن مدبّره واحد لا إلٰه غيره كما دل دليل التمانع على أن خالقه واحد لا رب له غيره فذاك تمانع في الفعل والايجاد وهذا تمانع في الغاية والالهية .

فكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان يستحيل أن يكون له إلهان معبودان (٢) .

د : قال تعالى : ((إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لايات لأولى الألباب))(٣) يقول ابن القيم :

فالارض والبحار ، والهواء وكل ما تحت السموات كقطرة في بحر ، ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخباراً عن عظمتها وسعتها وإما إقساماً بها ، وإما دعاء إلى النظر فيها ، وإما إرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة ما فيها ورافعها وإما استدلالاً منه سبحانه بخالقها على ما أخبر به من المعاد والقيامه

---

(١) سورة المؤمنون الايه : ٩١

(٢) الصواعق المنزله على الطائفة الجهمية والمعتزله : ٢٨٦/١

(٣) سورة آل عمران الايه : ١٩٠

وإما استدلالاً منه بربوبيته لها على واحدانيته وأنه الله الذي لا اله الا هو وإما استدلالاً منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته (١) .

ثانياً : التركيز على إبطال معبودات المشركين وبيان عجز الإلهة المدعوة من دون الله وتفاهتها وانها لا تحمد على شيء حتى تستحق العبادة لذلك يقول ابن القيم : كلما كان صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لا يحصيه سواه ، ولهذا ذم الله تعالى آلهة الكفار ، وعابها بسلب أوصاف الكمال عنها ، فعابها بأنها لا تسمع ولا تبصر ولا تتكلم ولا تهدى، ولا تنفع ولا تضر ، قال تعالى في محاجة إبراهيم لابيه ((يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً))(٢) وقال تعالى :((واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ، ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين)) (٣)،(٤) .

أ : قال تعالى : ((يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز))(٥) .

يقول ابن القيم : فضرب لهم سبحانه مثلاً من عقولهم يدلهم على قبح عبادتهم لغيره فتأمل هذا المثل الذي أمر الناس كلهم باستماعه فمن لم يستمعه فقد عصى أمره وسجل على جميع آلهة المشركين أنهم لو أجتمعوا كلهم في صعيد واحد وساعد بعضهم بعضاً وعاونوه بأبلغ المعاونه لعجزوا عن خلق ذباب واحد ثم بين ضعفهم وعجزهم عن استنقاذ ما يسلبهم الذباب إياه حين يسقط عليهم فأي إله أضعف من هذا الإله المطلوب ، ومن عابده الطالب نفعه وخيره فهل قدر القوي العزيز حق قدره من أشرك معه آلهةً هذا شأنها .

فإن هذا المثل يقطع مواد الشرك من قلب الإنسان ، وذلك أن المعبود

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٢٤٨/١

(٢) الايه من سورة مريم : ٤٢

(٣) الايه من سورة الاعراف: ١٤٨

(٤) انظر مدارج السالكين : ٣٢/١

(٥) سورة الحج الايات : ٧٣ - ٧٤

أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع عابده واعدام ما يضره والآلهة التي يعبدها المشركون من دون الله لن تقدر على خلق الذباب ولو اجتمعوا كلهم لخلقه ، فكيف ما هو أكبر منه ؟

ثم سوى سبحانه بين العابد والمعبود في الضعف والعجز بقوله : ((ضعف الطالب والمطلوب)) قيل الطالب العابد والمطلوب المعبود ، فهو عاجز متعلق بعاجز وقيل هي تسوية بين السالب والمسلوب وهو تسويه بين الآلهة والذباب في الضعف والعجز (١) .

ب : قال تعالى : ((مثل الذين اتخذو من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانو يعلمون)) (٢) .

يقول ابن القيم : فذكر سبحانه أنهم ضعفاء ، وأن الذين اتخذوهم أولياء هم أضعف منهم فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كالعنكبوت اتخذت بيتا وهو أوهن البيوت وأضعفها وتحت هذا المثل أن المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا من دون الله أولياء فلم يستفيدوا بمن اتخذوهم أولياء إلا ضعفا كما قال تعالى : ((واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا))(٣)

فإن قيل : فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت ، فكيف ينفى عنهم ذلك بقوله : ((لو كانوا يعلمون)) ؟

فالجواب أنه سبحانه لم ينفه عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذ أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتا ، فلو علموا ذلك لما فعلوه (٤) .

ج : قال تعالى : ((مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون)) (٥) .

تضمن هذا المثل ناعقا اي مصوتا بالغنم وغيرها ، ومنعوق به وهو الدواب فقيل : الناعق العابد وهو الداعي للصنم ، والصنم هو المنعوق به المدعو ، وأن حال الكافر في دعائه كحال من ينعق بما لا يسمعه

---

(١) انظر مفتاح دار السعاده : ٣٩١/٢ واعلام الموقعين : ١٨١/١ والصواعق المنزله : ٢٨٧/١

(٢) سورة العنكبوت الايه : ٤١

(٣) سورة مريم الايه : ٨١-٨٢

(٤) اعلام الموقعين : ١٥٤/١ ، والتفسير القيم : ٤٠٣

(٥) سورة البقره الايه : ١٧١

هذا قول طائفة منهم عبدالرحمن بن زيد (١) وغيره واستشكل صاحب الكشاف وجماعة معه هذا القول ، وقالوا : قوله ((دعاء ونداء)) لا يساعد عليه ، لأن الأصنام لا تسمع دعا ولا نداء .

وقد أجيب عن هذا الاستشكال باجوبة نذكر منها :

١ - أن التشبيه وقع في مطلق الدعاء لا في خصوصيات المدعو .

٢ - أن مثل هؤلاء في دعائهم آلهتهم التي لا تفقه دعاءهم كمثل الناعق بغنمه ، فلا ينتفع من نعيقه بشيء ، غير أنه هو في دعاء ونداء ، وكذلك المشرك ليس له من دعائه وعبادته إلا العناء (٢) .

د : قال تعالى : ((وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه إينما يوجهه لا يأتي بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟))(٣) .

يقول ابن القيم : فهو مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لنفسه ولما يعبد من دونه ايضاً ، فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلبواللسان ، قد عدم النطق القلبي واللساني ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة ، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه حي قادر متكلم ، يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به معلم له راضى به آمر لعباده به محباً لأهله لا يأمر بسواه بل تنزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل (٤) .

الشطر الثاني من الركن الأول : شهادة أن محمداً رسول الله :

وهذه الكلمة تعني : العلم والتصديق والاعتقاد الجازم بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله أرسله إلى الخلق كافة بشيراً ونذيراً وطاعته فيما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

---

(١) عبدالرحمن بن زيد بن أسلم العمريّ المدني ، صاحب قرآن وتفسير جمع تفسيراً في مجلد وكتاباً في الناسخ والمنسوخ توفى سنة ١٨٢هـ ، انظر الذهبي: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتاب والسنه تحقيق وتعليق عزت عطيه وموسى محمد: ١٦٤/٢ ط ١٩٧٢م دار الكتب الحديثه القاهره .

(٢) انظر اعلام الموقعين : ١٨٣/١

(٣) سورة النحل الايه : ٧٦

(٤) اعلام الموقعين : ١٦١/١ والتفسير القيم ١٨و٣٣٨و١٤٠

وشهادة أن محمداً رسول الله فرض لمن أراد الدخول في الاسلام وأنه لا يدخل الإسلام إلا بها مقرونة بكلمة الإخلاص شهادة أن لا إله إلا الله .

فإذا انفرد الإقرار بالنبي صلى الله عليه وسلم وشهد الكافر أن محمداً رسول الله فإن ذلك لا يدخله وحده في الإسلام حتى يلتزم طاعته ومتابعته قال ابن القيم رحمه الله في فقه وفد نجران :

إن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه نبي لا يدخله في الإسلام مالم يلتزم طاعته ومتابعته ومن ذلك قول الحبرين له وقد سألاه عن ثلاث مسائل ، فلما أجابهما قالا : نشهد أنك نبي ، قال (فما يمنعكما من اتباعي ؟) قالا" نخاف أن تقتلنا يهود" ، ونظير ذلك شهادة عمه ابي طالب له بأنه صادق ولم تدخله هذه الشهادة في الإسلام فيعلم أن الاسلام أمر وراء ذلك وأنه ليس المعرفة فقط ولا المعرفة والإقرار فقط ، بل المعرفة والإقرار ، والانقياد ،والتزام طاعته ودينه ظاهراً وباطناً (١) .

وقال : وأجمع المسلمون على أن الكافر إذ قال لا إله إلا الله محمداً رسول الله فقد دخل الاسلام وشهد شهادة الحق ولم يتوقف إسلامه على لفظ الشهادة (٢) .

ويرىابن القيم أن هذا الاقتران والشهادة بهما ، هي المرادة بقوله تعالى : ((ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك))(٣) .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : رفع الله ذكره فلا يذكر إلا ذكر معه . لأن ذكره صلى الله عليه وسلم مع ذكر ربه هو الشهادة له بالرسالة اذا شهد لمرسله بالوحدانية .

وقد روى يونس عن شيبان عن قتادة ((ورفعنا لك ذكرك)) فقال رفع الله ذكره في الدنيا والآخره فليس خطيب ولا مستشهد ولا صاحب صلاة الا ابتدأها : أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله (٤) .

فقد قرن الله سبحانه : اسمه باسمه فلا يذكر الا ذكر معه كما في التشهد والخطب والتأذين (٥) .

---

(١) زاد المعاد : ٦٣٨/٣

(٢) مدارج السالكين : ٤٧١/٣

(٣) سورة الشرح الايات : ١ الى ٤

(٤) جلاء الافهام بتصرف

(٥) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان : ٤/١

لوازم النطق بهذه الشهادة

أن يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فيعقد قلبه معه عقداً محكماً على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والاعمال من أقوال القلب ، وهي العقائد وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب .

واعمال القلب : وهي الارادة والمحبة والكراهة وتوابعها ، واعمال الجوارح فيكون الحاكم عليه في ذلك كله دقه وجلّه ، هو ما جاء به الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم فلا يتقدم بين يديه بعقيدة ولا قول ولا عمل كما قال تعالى :

((يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله)) (١) اى لا تقولوا حتى يقول ولا تفعلوا حتى يأمر (٢) ،ويقول ابن القيم :

ومن هنا نعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدى الرسل .

ولا سبيل الى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل الا من جهتهم ولا ينال رضى الله البته إلا على أيديهم (٣) .

واذا كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهدى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيجب على كل من نصح نفسه وأحبّ نجاتها وسعادتها أن يعرف من هديه وسيرته وشأنه ما يخرج به عن الجاهلين به ويدخل به في عداد أتباعه وشيعته وحزبه (٤) .

وهذه المعاني لشهادة أن محمداً رسول الله يجب أن يشرحها الداعية للمدعو لأن شهادة أن لا اله الا الله هي الإخلاص وهذه هي المتابعة والإخلاص والمتابعة هي أساس قبول العمل .

إثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهو يمثل منهجه في دعوة أهل الكتاب

تمهيد

إن إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم محمد بن عبدالله : يتوقف عليها قبول الإسلام بكامله من تشريعات وعقائد فقد يؤمن من تدعوه إلى الإسلام بوجود

---

(١) سورة الحجرات الايه : ١

(٢) اغاثة اللهفان : ٨/١

(٣) زاد المعاد في هدى خير العباد : ٨٩/١

(٤) نفس المرجع : ٧٠/١

الله وواحدانيته ولكنه لا يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، مثل بعض اليهود والنصارى وغيرهم من الفلاسفة والوثنيين فلابدّ للداعية أن يوضح لهم أن ذلك إنكار لله تعالى .

فان من أنكر النبوة فقد جحد الخالق تبارك وتعالى وجهل بالحقائق كما يقرره ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول :

ولذلك كان جحد نبوة خاتم أنبيائه ورسله وانزال كتبه وتكذيبه إنكاراً للرب تعالى في الحقيقة وجحوداً له ، فلا يمكن الاقرار بربوبيته والهيته وملكه بل ولا بوجوده مع تكذيب محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم ، وقد أشرنا إلى ذلك في المناظرة التي ستأتي (١) فلا يجامع الكفر برسول الله صلى الله عليه وسلم الاقرار بالرب تعالى وصفاته اصلاً ، فالرسول صلوات الله وسلامه عليه إنما جاء بتعريف الرب تعالى باسمائه وصفاته وأفعاله والتعريف بحقوقه على عباده ، فمن أنكر رسالته فقد أنكر الرب الذي دعا إليه وحقوقه التي أمر بها ، بل نقول لا يمكن الاعتراف بالحقائق على ما هي عليه مع تكذيب رسوله وهذا ظاهر جداً لمن تأمل مقالات أهل الارض وأديانهم (٢) .

وهم الذين أنكروا النبوات أو خالفوا أمرها وقد قام ابن القيم رحمه الله بذكر مقالاتهم ودياناتهم التي ذكروها مع انكارهم للنبوّة وكيف أنهم زاغوا عن الحق والحقائق فقال :

فإن " الفلاسفة " لا يمكنهم الاعتراف بالملائكة والجن والمبدأ والمعاد وتفاصيل صفات الرب تعالى وأفعاله مع إنكار النبوات ، بل والحقائق المشاهدة التي لا يمكن انكارها لم يثبتوها على ما هي عليه ولا اثبتوا حقيقه واحده على ما هي عليه البته وهذا ثمرة إنكار النبوات فسلبهم الله إدراك الحقائق التي زعموا أن عقولهم كافية في إدراكها ، وان عرفوا من ذلك بعض ما خفي على غيرهم .

وأما " المجوس " فأضل وأضل .

وأما عباد " الأصنام " فلا عرفوا الخالق ولا عرفوا حقيقة المخلوقات ولا ميزوا بين الشيطان والملائكة .

---

(١) المناظرة هي التي جرت بين ابن القيم رحمه الله وأحد كبار اليهود في مصر من أجل إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وسوف أنقلها بكاملها عند حديثي عن أسلوب الجدل فيما بعد إن شاء الله ، انظر المناظره في كتابه التبيان في اقسام القرآن : ١١٢ وهداية الحيارى ٨٩ وزاد المعاد ٦٣٩/٣ والمناظرة ستأتي ص ٢١٢

(٢) هداية الحيارى في اجوبة اليهود والنصارى : ١٩٠

وأما " النصارى " فقد عرفت ماالذي أدركوه من معبودهم (١) وما وصفوه به وماالذي قالوا في نبيهم وكيف لم يدركوا حقيقته البته ووصفوا الله بما هو من أعظم العيوب والنقائص ، ووصفوا عبده ورسوله بما ليس له بوجه من الوجوه .

وأما اليهود فقد حكى الله لك عن جهل اسلافهم وعبادتهم وضلالهم ما يدل على ما وراءه من ظلمات الجهل التي بعضها فوق بعض ويكفي في ذلك عبادتهم العجل الذي صنعته أيديهم وجعلوه على صورة أبلد الحيوان وأقله فطانة الذي يضرب به المثل في قلة فهمه وقد شاهدوا من أدلة التوحيد وعظمة الرب مالم يشاهده غيرهم .

ولو عرف هؤلاء معبودهم ورسولهم ما قالوا لنبيهم ((لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة)) (٢)،(٣) .

هذه عواقب إنكار النبوة ومخالفة أمرها ومنهجها فإذا ثبت ذلك إتضح لك أن إشراق الأرض بالنبوة وظلمتها بفقدها كما يقرر ذلك ابن القيم بقوله :

فأهل الأرض كلهم بظلمات الجهل والغي الا من أشرق عليه نورالنبوة كما في المسند وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله خلق خلقه في ظلمة والقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور اهتدى ومن اخطأه ضل فلذلك أقول جف القلم على علم الله) (٤) ، ولذلك بعث الله رسله ليخرجوا الناس من الظلمات الى النور فمن أجابهم خرج إلى الفضاء والنور والضياء ومن لم يجبهم بقي في الضيق والظلمه التي خلق فيها وهي ظلمة الطبع ، وظلمة الجهل ، وظلمة الهوى وظلمة الغفلة عن النفس وكمالها وما تسعد به في معاشها ومعادها ، فهذه جملتها ظلمات خلق فيها العبد ، فبعث الله رسله لاخراجه منها (٥) .

---

(١) يقول فهم : يعتقدون أن الله رب السماوات والارض تبارك وتعالى نزل عن كرسي عظمته وعرشه ودخل في فرج أمرأة تأكل وتشرب وتبول وتتغوط وتحيض فالتحم ببطنها وأقام هناك تسعة أشهر يتلبط بين نجو وبول وطمث ثم خرج الى القماط والسرير كلما بكى القمته أمه ثديها الى غير ذلك ، فمريم لا أم لابن الله إلا هي ولا أب لابنها الا الله وأن الله اختارها لنفسه ولولادة ولده ، وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها وابنها عن يمينه ويعتقدون أن الله زوجها ويعظمونها ويرفعونها على الملائكه ، انظر هداية الحيارى ص : ١٤١وما بعدها .

(٢) سورة البقرة : ٥٥

(٣) انظر هداية الحيارى ص : ١٩٠

(٤) مسند الامام أحمد : ١٧٦/٢ والترمذي في كتاب الايمان باب ١٨

(٥) انظر هداية الحيارى : ص ١٩٤

دلائـــل نبـوة نبينـــا محمـد صلـى اللـه عليـه وسلـم

فـإذا كانـت هـذه حـال النبـوة فإنـه مـن أوجـب الواجـب علينـا إثبـات نبـوة نبينـــا محمـد صلـى اللـه عليـه وسلـم لاسيمـا أنهـا أشـق ما يصـادف رسـل اللـه عليهم السـلام وعليهـا يتـوقـف قبـول دعـواه وما جاء بـه مـن عقـائـد وتشريعـات .

وقـد بيـن ابـن القيـم رحمـه اللـه لطـف اللـه سبحانـه وتعالـى بعبـاده أن جعـــل طـرق الهـدايـة بالانبيـاء ومعرفـة صـدق نبوتهـم متنـوعـه رحمـة ولطفـاً ، وذلـك لتفـاوت عقـولهـم وأذهـانهـم وبصـائرهـــم :

فمنهـم مـن يهتـدى بنفـس ما جاء بـه النبـي وما دعـا إليـه مـن غـير أن يطلـب منـه بـرهـانـاً خـارجـاً عـن ذلـك وهـذا كحـال الكمّـل مـن الصحابـة كالصـديـق ، وهـذا ما سنعرفـه إن شـاء اللـه بالمسلـك النوعـي (١) وهي نوعية التعاليم التي أتى بها النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم .

ومنهـم مـن يعرفـه بحالـه صلـى اللـه عليـه وسلـم وما فطـر عليـه من كمـالات الأخلاق والأوصـاف والأفعـال وهـذا ما سنعـرفـه بالمسلـك الشخصـي .

ومنهـم من عجـز عـن معرفتـه بهـذه المقامات في الإيمـان فاحتـاجـوا إلى الآيـــات والخوارق والايـات المشهـودة بالحـس وهـذا ما سنعرفـه بالمعجزات الحسيـه (٢) .

وهنـاك مسلـك رابـع وهـو المسلـك النقلـي ، وهـذه المسالـك الأربعـة هـي التي نهجهـا ابـن القيـم رحمـه اللـه فـي اثبـات نبـوة نبينـا محمـد صلى اللـه عليـه وسلـم .

* أولاً : **المسلـــك النـوعـي** .

وهـو أعظـم هـذه المسالـك لأنـه خـاص بـأولـي الألبـاب والحجـا أصحاب العقـــول النيـره فهـو يحاكـى العقـول التي تمـيّز بهـا هـذا المدعـو عـن غـيره من الحيـوان وهـــو منـاط التكليـف ومحـل المعرفـة ، لذلـك فـإن دعـوة الإسـلام دائمـاً ما تخـاطـب هذا العقـل وتـدعـوهُ الـى التفكـر والتدبـر ، لأن الانسـان إذا أعمـل عقلـه فـي الحقـائـق عرف صحتها وسـلامتهـــا .

وهـذا ما حصـل مـن أفـاضـل النـاس وهـم الكمـلّ مـن أصحاب العقـول النـــيره ، عندمـا عرضـت عليهـم الدعـوة المحمـديـة وعرفـوا ، نـوع تشريعـاتهـا وأفكـارهـا ، فلـــم يتـرددوا فـي تصـديـق النبي صلى الله عليـه وسلـم في جميع ما أخبر بـه وآمنـــوا .

هـذا كحـال صـديـق هـذه الأمـة أبـو بكـر رضـي اللـه عنـه ، وملـك الحبشـــــة

---

(١) استفـدنـا هـذه المسالـك : نـوعـي وشخصـي من كـلام شيـخ الاسـلام فـي كتابـه شرح العقيـدة الاصفهـانيـه ، ص ٩٣ بعناية محمد خلوف دار الكتب الاسلامية

(٢) انظـر ذلـك فـي مفتـاح دار السعادة : ٣٩٦/٢

النجاشي رضي الله عنه فإنه لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأ عليه جعفر بن ابي طالب صدراً من سورة مريم بكى النجاشي حتى اخضلت لحيته وقال : ان هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحده (١) .

وكذلك ما حصل من ورقة بن نوفل لما أخبره النبي صلى الله عليه وسلم بما رأه وكان ورقة قد تنصر وكان يكتب الإنجيل بالعبرانية فقال : هذا هو الناموس الذي كان يأتي موسى وأن قومك سيخرجونك فقال النبي صلى الله عليه وسلم أومخرجيّ هم ؟ فقال نعم لم يأت أحد بمثل ما جئت به الا عودى وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً ثم لم ينشب ورقة أن توفى (٢) .

فنوع ما جاء به النبي من الادلة العقلية التي يستدل بها أرباب العقول السليمة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا ما يقرره ابن القيم رحمه الله تعالى عن هذا المسلك بقوله :

ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به صلى الله عليه وسلم ، والملة التي دعا اليها من أعظم براهين صدقه وشواهد نبوته .

فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم ، ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث اذا عرض على العقول السليمة أنكرته أشد الانكار ، كما أن ما أمر به اذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول وشهد بحسنه كما قال بعض الاعراب وقد سئل " بم عرفت أنه رسول الله ، فقال : ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه ، ولا نهى عن شيء فقال العقل ليته أمر به " ، فهذا الاعرابي قد أقرّ عقله وفطرته بحسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه حتى كان في حقه من أعلام نبوته وشواهد رسالته (٣) .

وأعظم ما يمثل هذه النوعية التي هي أقوى الأدلة على إثبات نبوّة النبي صلى الله عليه وسلم هي القرآن الكريم الذي خاطب أهل العقول واخضعهم لسلطانه وهو أعظم المعجزات العقليه الذي بهر العقول .

والله سبحانه وتعالى قد ارسل رسله عليهم السلام وآتاهم الأيات التي تدل علىَ صدقهم وهي من فعل الله عز وجل يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها وقد سماها القرآن الكريم آية ، وبينة ، وبرهاناً .

---

(١) رواه ابن اسحاق في السيرة النبويه ٣٦٠/١ ومجمع الزوائد ٣١/٦ والبداية والنهايه ٦٩/٢
انظر دلائل النبوة للبيهقي تحقيق عبدالمعطى قلعجى : ٣١٠ دار الكتب ، بيروت .

(٢) انظر شرح العقيدة الاصفهانيه لشيخ الاسلام ص ٩٣ ، وانظر هداية الحيارى ص ٢٦
والحديث رواه البخاري في كتاب بدأ الوحى ٣/١ الباب الأول رقم الحديث ٣

(٣) مفتاح دار السعاده : ٣٨٨/٢

قال تعالى : ((ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون)) (١) .

والمعجزة وإن كانت دليلاً صحيحاً لإثبات نبوّة النبي إلا أنها ليست الطريق الوحيد لإثبات النبوّة .

يقول شيخ الإسلام : ولا ريب أن المعجزة دليل صحيح لتقرير النبوة بل معرفتها بغير المعجزات ممكنة فإن المقصود إنما هو معرفة صدق مدعى النبوة أو كذبه فإنه إذا قال إني رسول الله فهذا الكلام إما أن يكون صدقاً وإما أن يكون كذباً .

فإذا كان مدعى الرسالة لم يكن صادقاً فلابدّ أن يكون كاذباً عمداً أو ضلالاً فالتمييز بين الصادق والكاذب له طرق فيما هو دون دعوى النبوة فكيف بالنبوة.

ومعلوم أن مدعى النبوة إما أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم ، وما من أحد إدعى النبوّة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الكذب والجهل والفجور ما يظهر لمن له أدنى تمييز .

وما من أحد ادعى النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما يظهر لمن له أدنى تمييز (٢) .

وعرّف ابن القيم المعجزة بقوله :

آية خارقة للعادة يظهرها الله على يد مدعى النبوة على وفق مراده تصديقاً له في دعواه مع عجز سائر المخلوقات عن معارضتها والاتيان بمثلها (٣).

وقد أمد الله رسله بآيات واضحات لا يستطيع جميع الخلق الاتيان بمثلها وهذا هو الاعجاز فيها لأنها مقرونه بالتحدى ومن ثم الالزام بالاعتراف بنبوة النبي.

ومعجزات الانبياء كثيرة مثل فلق البحر بضربة عصا ، واخراج الناقة من الحجر واحياء الموتى وانشقاق القمر وغير ذلك .

والمقصود أن كل معجزة نبي كانت تناسب أهل زمانه ليكون عجزهم عنها حجة عليهم وتكون مؤيدة لصدق النبي .

وكذلك معجزة خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، فلما كان العرب في عهد بعثته كانوا قد برعوا في البلاغة والفصاحة وتفوقوا في صناعة الكلام وضروب البيان كانت معجزته الخالده الباقية ما بقيت شريعته (القرآن الكريم) قائمة

---

(١) سورة المائدة : ٣٢

(٢) انظر شرح العقيده الاصفهانيه ، ص : ٨٨ - ٨٩

(٣) التبيان في اقسام القرآن فإنه جميعه استدلال على وجود الله وإثبات وحدانيته واثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم .

يتحدى الإنس والجن على أن يأتوا بمثله إلى قيام الساعة ، وذلك لأنه خاتم الرسل وآخرهم فدينه خالد فكانت معجزته خالدة .

وقد أتخذ ابن القيم رحمه الله من آيات القرآن الكريم البراهين الدالة على تحدى جميع الخلق عن الإتيان بمثله أو سورة منه وهذا التحدى القوى مستمر الى قيام الساعة وهذا دليل على خلود الرسالة وخلود المعجزة مما يثبت نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيقول :

ومن ذلك احتجاجه سبحانه على نبوة رسوله وصحة ما جاء به من الكتاب وأنه من عنده ، وكلامه بقوله : ((وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)) (١).

فأمر من ارتاب في هذا القرآن الذي نزّله على عبده وأنه كلامه أن يأتى بسورة واحدة مثله وهذا يتناول أقصر سورة من سوره ، ثم فسح له أن عجز من ذلك أن يستعين بمن أمكنه الاستعانة به من المخلوقين فقال تعالى: ((أم يقولون أفتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)) (٢) ، وقال تعالى : ((أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)) (٣) .

وقال : ((أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)) (٤) .

ثم سجل عليهم سبحانه تسجيلاً عاماً في كل زمان ومكان بعجزهم عن ذلك ولو تظاهر عليه الثقلان ، فقال : ((قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) (٥).

فانظر أي موقع يقع من الاسماع والقلوب هذا الحجاج القاطع الجليل الواضح الذي لا يجد طالب الحق ومؤثره ومريده عنه محيداً ولا فوقه مزيداً ولا وراءه غاية (٦) ، وقال رحمه الله تعالى في موضع آخر عند قوله تعالى: ((وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين)) (٧) :

---

(١) سورة البقره الايه : ٢٣

(٢) سورة يونس : ٣٨

(٣) سورة هود : ١٣

(٤) سورة الطور : ٣٣-٣٤

(٥) سورة الاسراء : ٨٨

(٦) الصواعق المنزله على الطائفة الجهمية والمعطله : ٢٨٩/١

(٧) الايه من سورة البقره : ٢٣

إن حصل لكم ريب في القرآن وصدق من جاء به وقلتم أنه مفتعل فأتوا ولو بسورة واحدة تشبهه وهذا خطاب لأهل الأرض أجمعهم ومن المحال أن يأتي واحد" منهم بكلام يفتعله ويختلقه من تلقاء نفسه ثم يطالب أهل الأرض باجمعهم أن يعارضوه في أيسر جزء منه يكون مقداره ثلاث آيات من عدة ألوف ثم تعجز الخلائق عن ذلك حتى أن الذين راموا معارضته كان ما عارضوه من أقوى الأدلة على صدقه فإنهم أتوا بشيء يستحي العقلاء من سماعه ويحكمون بسماجته وقبح ركاكته وخسته ، فهو كمن أظهر طيباً لم يشم أحد مثل ريحه قط وتحدى الخلائق ملوكهم وسوقتهم بأن يأتوا بذرة طيب مثله فاستحى العقلاء وعرفوا عجزهم ، وجاء الحمقاء بعذرة منتنه خبيثه وقالوا قد جئنا بمثل ما جئت به فهل يزيد هذا ما جاء به إلا قوة وبرهانا وعظمة واجلالاً .

وأكد سبحانه هذا التقريع والتعجيز بقوله : ((وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)) ، كمن يقول المُعجّز لمن يدعي مقاومته أجْهِد عليّ بكل من تقدر عليه من أصحابك وأعوانك ولا تبق منهم أحداً حتى تستعين به فهذا لا يقدم عليه الا أجهل العالم وأحمقه عقلاً إن كان غير واثق بصحة ما يدعيه .

وتقرير النبوة بهذه الآية له وجوه متعددة هذا ، أحدها

وثانيها : إقدامه صلى الله عليه وسلم على هذه الأمور وإسجالها على الخلائق إلى يوم القيامة وهذا لا يقدم عليه ويخبر به إلا عن علم لا يخالجه شك مستند إلى وحي من الله .

وثالثها : النظر الى نفس ما تحدى به وما اشتمل عليه من الأمور التي تعجز قوى البشر على الإتيان بمثله الذي فصاحته ونظمه وبلاغته فرد من أفراد إعجازه وهذا الوجه يكون معجزة لمن سمعه وتأمله وفهمه ، وبالوجهين الأولين يكون معجز لكل من بلغه خبره ولو لم يفهمه (١) .

ثانياً : المسلك الشخصي .

ونقصد به معرفة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم بحاله وما فطر عليه من كمالات الاخلاق والأوصاف والأفعال وأحواله قبل البعثة وبعدها .

ويمثل ابن القيم رحمه الله لهذا المسلك بمسلك خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها في الإهتداء إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم وأن من قامت به تلك الأوصاف أن الله لا يخزيه من كان بهذه المثابة فقالت : " أبشر فوالله لن يخزيك

---

(١) انظر بدائع الفوائد ١٣٤/٤ وما بعدها .

اللـه أبـــدا ، إنـك لتصـل الرحـم وتصـدق الحديـث ، وتحمـل الكل ، وتقـري الضيـــف وتعيـن علـى نـوائـب الحـق " فاستدلـت بذلـك علـى أن اللـه لا يخـزيـه ولا يفضحـــه وهـو محـل كرامتـه واصطفـائـه (١)(٢) .

ومن ذلـك ما استدل بـه هرقـل ملـك الـروم علـى نبـوة النبـي صلـى اللـه عليـــه وسلـم لمـا كتـب إليـه كتـابـا يدعـوه فيـه إلـى الإسـلام طلـب هرقـل مـن كـان هنـــاك مـن العـرب وكـان ابـو سفيـان قـد قـدم فـي طائفـة مـن قريـش فـي تجاره فطلبهم وسألهـم عـن أحـوال النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم فسـأل أبـا سفيـان وأمـر الباقيـن أن يكذبـوه إن كـذب ، فصـار يجـدهـم موافقيـن لـه فـي الأخبـار .

فسـألهـم هـل كـان من آبـائـه ملـك ؟ فقـالوا : لا .. وهـل قـال هـذا القـــول أحـد قبلـه ؟ قـالوا : لا،وسـألهـم أهـو ذو نسـب فيكـم ؟ قالـوا : نعـم ، وسـألهم هـل كنتـم تتهمـونـه بالكـذب قبـل أن يقـول ما قـال ؟ فقـالوا : لا ما جربنـا عليـه كـذبـا ... حتـى سـألهـم عـن أكثر مـن عشـر مسـائـل وكـان يجيـب عـن كـل مسـألـه باجابـــة تـدل علـى أنـه حـق نبـي حتـى انتهـى ، فقـال :

إن يكـن ما تقـول حقـا،إنـه لنبـي ، وقـد كنـت أعلـم أنـه خـارج ولكـن لم أظـــن أنـه منكـم ولـو أعلـم أنـي أخلـص إليـه لاحببـت لقـاءه ولـو كنـت عنـده لغسلـت عنـــي قـدميـه وليبلغـن ملكـه ما تحـت قـدمـي (٣) .

فانظـر إلـى هـؤلاء العقـلاء العلماء كيـف استدلـوا علـى نبوتـه صلـى اللـه عليـــه وسلـم من سـيرتـه وخلقـه وشخصيتـه العظيمـة الشريفـة .

ومـن براهيـن ابـن القيـم رحمـه اللـه التي استقـاهـا مـن القرآن الكريـم لإثبـــات نبوة سيـدنـا محمـد عليـه أفضـل الصـلاة والتسليـم جمـع فيهـا المسلـك النوعـي والشخصـي للنبـي باعتبـار المتـأمـل لاحـوالـه ودعـوتـه وما جـاء بـه ، فيقـــول :

قـال تعالـى :((أفلـم يدبروا القـول أم جـاءهـم مالـم يـأت آبـاءهـم الأوليـــن أم لـم يعـرفـوا رسـولهـم فهـم لـه منكـرون ، أم يقـولـون بـه جنـة بـل جـاءهم بالحـق وأكـثرهـم للحـق كـارهـون)) (٤)، فدعـاهـم سبحانـه إلـى تدبـر القـول وحال القـائـل فـإن كـون القـول كـذبـا وزورا يعلـم مـن نفـس القـول تـاره ، وتارة من تناقضـه ، واضطرابه وظهـــور شـواهـــد الكـذب عليـــه .

---

(١) رواه البخاري في كتاب بـدء الوحي : ٣/١ الباب الاول رقـم الحديث ٣

(٢) مفتـاح دار السعادة بتصـرف قليـل : ٣٩٦/٢

(٣) رواه البخاري في كتـاب بـدء الـوحـي : ٤/١-٥ رقـم الحديـث ٦

(٤) سـورة المؤمنـون : ٦٨ - ٧٠

ويعرف من حال القائل تارة فإن المعروف بالكذب والفجور والمكر لا تكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله ، ولا يتأتى منه من القول والفعل ما يتأتى من البار الصادق المبرأ من كل فاحشة وغدر وكذب فدعاهم سبحانه إلى تدبر القول وتأمل سيرة القائل وأحواله وحينئذ يتبين أن ما جاء به من أعلى مراتب الصدق، وقال تعالى : ((قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون)) (١) .

فتأمل هاتين الحجتين القاطعتين تحت هذا اللفظ الوجيز :

أحداهما : أن هذا من الله لا من قبلي ولا هو مقدور لي ، ولا من جنس مقدور البشر ، فإن الله سبحانه وتعالى لو شاء لامسك عنه قلبي ولساني واسماعكم .

الحجه الثانيه : أني قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به وأنتم تشاهدونني وتعرفون حالي وتصحبونني حضراً أو سفراً وتعرفون دقيق أمري وجليله وتتحققون سيرتي هل كانت سيرة من هو أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابا ولا أخطه بيميني ولا صاحبت من أتعلم منه ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم الذي فيه علم الاولين والآخرين وعلم ما كان وما سيكون على التفصيل فأى برهان أوضح من هذا .

وقال تعالى : ((قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد)) (٢) .

يقول : ولما كان للإنسان الذي يطلب معرفة الحق والصواب حالتان :

احداهما : أن يكون مناظراً مع نفسه .

والثانيه : أن يكون مناظراً لغيره .

أمرهم بخصلة واحدة وهي : أن يقوموا لله أثنين أثنين فيتناظران ويتسألان بينهما واحداً واحداً ، يقوم كل واحد مع نفسه فيتفكر في أمر هذا الداعي وما يدعو إليه ويستدعي أدلة الصدق والكذب ويعرض ما جاء به عليها ليتبين له حقيقة الحال فهذا هو الحجاج الجليل والإنصاف البين والنصح التام (٣) .

ثالثاً : المعجزات الحسية .

بعد أن ذكرنا المعجزات العقليه المعنوية لإثبات نبوّة نبينا محمد صلى الله

---

(١) سورة يونس : ١٦

(٢) سورة سبأ : ٤٦

(٣) انظر الصواعق المنزله : ٢٩١/١

عليه وسلم فإن ذلك لا يعني أنه لم يعط معجزات حسية كما أعطى الأنبياء قبله. فانشقاق القمر المشار إليه بقوله تعالى : ((أقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر)) (١) .

وهذه آية حسية للنبي صلى الله عليه وسلم وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال : سأل أهل مكة أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر (٢) وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : " انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اشهدوا "(٣).

وثانيها : نبع الماء من بين أصابعه كما في الصحيحين عن أنس رضي الله عنه قال : " أتى النبي صلى الله عليه وسلم بإناء وهو بالزوراء فوضع يده في الإناء فجعل الماء ينبع من بين أصابعه فتوضأ القوم ، قال قتاده : قلت لأنس : كم كنتم ؟ قال : ثلاثمائة أو زهاء ثلاثمائة (٤) ؟ .

وقد قرر ابن القيم رحمه الله ذلك في كتابه زاد المعاد وذكر الأحاديث الواردة في ذلك مما يدل على إثبات نبوّة النبي صلى الله عليه وسلم في أثناء سياقه في صلح الحديبية (٥) .

وثالثها : (رده صلى الله عليه وسلم عين قتادة بن النعمان في غزوة أحد فأتى بها النبي صلى الله عليه وسلم ، فردها عليه بيده ، وكانت أصح عينيه وأحسنهما) (٦)، (٧) .

وعلامات النبوه الحسية كثيرة قد ذكرها أهل الحديث في كتبهم (٨) وقد أسلم بسببها الكثير من الناس إلا أنها لم تصل إلى درجة دلائل النبوة السابقة التي كانت تفوق هذه المعجزات الحسية في قوة سلطانها ، وكثرة المهتدين بها وهي لأصحاب العقول الناضجه السليمه .

---

(١) الايات من سورة القمر : ١ - ٢

(٢) صحيح البخاري باب المناقب جـ ٤ ص ١٨٦ رقم الباب ٢٧ ، رواه مسلم .

(٣) نفس المرجع والصفحه

(٤) متفق عليه البخاري باب علامات النبوة في الإسلام جـ ٤ ص ١٦٨ ومسلم باب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم جـ ٤ ص ١٧٨٢

(٥) انظر زاد المعاد ٢٩٧/٣ وما بعدها .

(٦) زاد المعاد : ١٩٨/٣

(٧) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة فيما ذكره ابن كثير ٤٤٧/٢ من حديث يحي الحماني.

(٨) انظر صحيح البخاري جـ ٤ ص ١٦٨ ومسلم باب معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ١٧٨٢/٤

رابعـــاً : المسلك النقلـي .

معظـم هـذا المسلك يـدور حـول البشـارات الـواردة فـي الكتـب المقـدسـة السابقـة وقـد حكـى القـرآن الكريـم أن البشـارات ببعثـة النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم قـد وردت فـي التوراة والإنجيـل ، يقـول تعالـى : ((الـذيـن يتبعـون الرسـول النبـي الأمي الـذي يجـدونـه مكتـوبـاً عندهـم فـي التوراة والإنجيـل يأمرهـم بالمعروف وينهاهم عن المنكر))(١)

ولقـد أبـدع ابـن القيـم رحمـه اللـه تعالـى بذكـر البشارات الواردة فـي الكتب المقدسه فـي كتابـه المعروف بـ (هـدايـة الحيـارى فـي أجـوبـة اليهـود والنصـارى) وقـال في مسائل الكتـاب :

وقسمتـه قسميـن ، القسـم الأول فـي أجوبـة المسـائـل (وهـي المسـائـل التـي وردت عليـه) ، والقسـم الثانـي فـي تقـريـر نبـوّة محمـد صلـى اللـه عليـه وسلـم بجميـع أنـواع الدلائـــل (٢) .

ثـم بـدأ بـأجـوبـة المسـائـل والـرد عليهـا وإثبـات النبـوّة ونحـن ننقـل بعض مـاورد في إثبات نبـــوة نبينـا محمـد صلـى اللـه عليـه وسلـم .

أولاً : يقـرر ابـن القيـم رحمـه اللـه قولـه تعالـى : ((الذيـن يتبعـون الرسـول النبـي الأمـي الـذي يجـدونـه مكتـوبـاً عندهـم فـي التوراة والإنجيـل يـأمرهـم بالمعـروف وينهاهـم عـن المنكـــــر)) .

إن ذلـك لا يـدل علـى الإسـم الخاص بالعربيـة وهو (محمـد) وإنمـا ذلك يـدل علـى نعتـه وهـو أبلـغ من ذكـر اسمـه فقـال :

فالـرب سبحانـه إنمـا أخـبر عـن كـون رسـولـه مكتوبـاً عندهـم أى الإخبـار عنـه وصفتـه ومخرجـه ونعتـه ، ولـم يخـبر بأن صريـح اسمـه العربـى مذكور عندهم وهـذا أبلـغ مـن ذكـره بمجـرد اسمـه ، فإن الإشـتراك قـد يقـع فـي الاسـم فلا يحصـل التعريـف والتمييـز ، ولا يشـاء أحـد يسمـى بهـذا الاسـم أن يدعـى أنـه هـــو إلا فعـــل ، إذ الحوالـة إنمـا وقعـت علـى مجـرد الاسـم ، وهـذا لا يحصل بـه بيـان ولا تعريـف ولا هـدى ، بخـلاف ذكـره بنعتـه،وصفتـه،وعلامـاتـه ودعـوتـــه، وصفـة أمتـه،ووقـت مخرجـه ونحـو ذلـك فـإن هـذا يعينـه ويميـزه ويحصـر نـوعـه فـي شخصـــه (٣) لـذلـك عرفـه قيصـــر وسلمان وكثـير من أهـل الكتاب واليهـــود الذيـن يعرفـونـه كمـا يعرفـون ابنـاءهـم مـن صفـاتـه ونعتـه الموجودةعنـدهـــــم .

---

(١) سـورة الاعـراف : ١٥٧

(٢) هـدايـة الحيـارى : ١٣

(٣) نفـس المـرجـــع : ٤٤

ثم ذكر رحمه الله تعالى اثنا عشر وجهاً تدل على أنه مذكور في الكتب المنزلة :

احداها : اخبار من قد ثبتت نبوته قطعاً بأنه مذكور عندهم في كتبهم .

الوجه الثاني : أنه جعل الاخبار به من أعظم أدلة صدقه وصحة نبوّته وهذا يستحيل ان يصدر الا من واثق كل الوثوق بذلك .

الثالث : أن المؤمنين به من الاحبار والرهبان الذين آثروا الحق على الباطل صدقوه في ذلك وشهدوا له بما قال .

الرابع : أن المكذبين له لم يمكنهم إنكار البشارات والإخبار بنبوة نبي عظيم الشأن صفته كذا وكذا وصفة أمته ومخرجه لكن جحدوا أن يكون هو الذي وقعت عليه البشاره وأنه نبي آخر غيره .

الخامس : أن كثيراً منهم صرح لخاصته وبطانته بأنه هو هو بعينه وأنه عازم على عداوته .

السادس : أن اخبار النبي صلى الله عليه وسلم بأنه مذكور في كتبهم هو فرد من أفراد إخاراته بما عندهم في كتبهم من شأن أنبيائهم وقومهم وما جرى لهم وقصص الأنبياء والمتقدمين وشأن العبدأ والمعاد وغير ذلك وكل ذلك مما يعلمون صدقه فيه ومطابقته لما عندهم .

السابع: أنه استشهد على صحة نبوته بعلماء أهل الكتاب وقد شهد له عدولهم (١) الى غير ذلك من الوجوه التي ذكرها رحمه الله مما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم مذكور في الكتب التي بين أيديهم .

البشارات في التوراة والإنجيل

ثم بدأ رحمه الله بذكر نصوص الكتب المتقدمة في البشارة به وصفته ونعت أمته وايضاح دلالتها ومطابقتها للشريعة والواقع .

الوجه الأول :

وفي التوراة : ((سأقيم لبني اسرائيل نبياً من اخوتهم مثلك أجعل كلامي في فيه ويقول لهم ما آمره والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم بأسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه)) (٢) .

---

(١) انظر هداية الحيارى : ٤٩ وما بعدها .

(٢) كلامي في فيه أى أنه لا يكتب يعني أمي : وهذا ما نقله ابن القيم رحمه الله من الكتاب المقدس واما الذي وجدته ففيه قليل اختلاف قد يكون نتيجة تحريف منهم ونصه: (أقيم لهم نبياً من وسط أخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به ==

يقول فهذا النص مما لا يمكن أحد منهم جحده وإنكاره ، ولكن لاهل الكتاب فيه أربعة طرق :

احدها : حمله على المسيح وهذه طريقة النصارى .

وأما اليهود فلهم فيه ثلاث طرق :

أحدها : أنه على حذف أداة الاستفهام ، والتقدير أ قيم لبني اسرائيل نبياً من اخوتهم أى لا أفعل هذا .

الثاني : أنه خبر ووعد ولكن المراد به شمويل ، والبشارة إنما وقعت بنبي من اخوتهم ، وأخوة القوم هم بنو ابيهم .

الثالث : أنه نبي يبعثه الله في آخر الزمان يقيم به ملك اليهود ويعلو به شأنهم .

قال المسلمون :ال للاستغراق ودعوة الاسلام عامه في قوله الانسان والمثليه في موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم .

وكذلك : البشارة صريحة في النبي صلى الله عليه وسلم العربي الأمي محمد بن عبدالله لا يحتمل غيره ، فإنها وقعت بنبي من إخوة بني إسرائيل لا من بني إسرائيل نفسهم والمسيح من بني إسرائيل ، ولو كان المراد المسيح لقال أقيم لهم نبياً من أنفسهم كما قال تعالى : ((لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم)) (١) وإخوة بني اسرائيل هم بنوا إسماعيل .

وايضاً فإنه قال : ((نبياً مثلك)) وهذا يدل على أنه صاحب شريعه جديده مثل موسى وهذا يبطل حمله على شمويل من هذا الوجه أيضاً ويبطل حمله على يوشع من ثلاث أوجه ، **أحداها** : أنه من بني اسرائيل لا من اخوتهم . **والثاني** : أنه لم يكن مثل موسى ، وفي التوراة لا يقوم في بني اسرائيل مثل موسى . **الثالث** : أن يوشع نبي في بني اسرائيل في زمن موسى وهذا الوعد إنما هو بنبي يقيمه الله بعد موسى وبهذه الوجوه الثلاثه يبطل حمله على هرون . **الرابع** : وهو أن في هذه البشاره أنه ينزل عليه كتاباً يظهر للناس من فيه وهذا لم يكن لأحد بعد موسى غير النبي صلى الله عليه وسلم (٢).

== ويكون أن الانسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه)
الاصحاح الثامن عشر من سفر التثنيه فقرات : ١٨ - ١٩

(١) سورة آل عمران : ١٦٤

(٢) انظر هداية الحيارى : ٥٣

الوجه الثاني : قال في التوراة في السفر الخامس : ((أقبل الله من سيناء وتجلى من ساعير ، وظهر من جبال فاران ومعه ربوات الاظهار عن يمينه))(١).

وهذه متظمنه للنبوات الثلاثه : نبوة موسى ، ونبوة عيسى ، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فمجيئه من سيناء وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ونبأه عليه ، وتجلى من ساعير هو مظهر المسيح من بيت المقدس وساعير قرية معروفه هناك إلى اليوم وهذه بشارة بنبوة المسيح ، وفاران هي مكه وشبه الله سبحانه نبوة موسى بمجيء الصبح ، ونبوة المسيح بعدها بأشراقه وضيائه ، ونبوة خاتم الانبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الافق .

وهذه النبوات الثلاث نظير ذكرها في أول سورة((التين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين)) ، فذكر امكنة هؤلاء الانبياء وأرضهم التي خرجوا منها فالتين والزيتون المرادبهما منبتهما وهي الارض المقدسه وهي مظهر المسيح وطور سنين الجبل الذي كلم الله عليه موسى فهو مظهر نبوته (وهذا البلد الأمين) مظهر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وفاران هي أرض الحجاز وعندهم في التوراة أن إسماعيل لما فارق أباه سكن برية فاران ولفظها ، وأقام إسماعيل في برية فاران ، وانكحته أمه أمرأة (من جرهم) (٢) وذكر غير ذلك من نصوص التوراة الدالة على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم .

الوجه الثالث : مافي الإنجيل : " أن المسيح قال للحواريين إني ذاهب وسيأتيكم الفار قليط روح الحق ، لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما هو كما يقال له وهو يشهد عليّ وأنتم تشهدون لأنكم معي من قبل الناس ، وكل شيء أعده الله لكم يخبركم به " .

وفي إنجيل يوحنّا " الفار قليط لا يجيئكم ما لم أذهب ، واذا جاء وبخ العالم على الخطيئة ، ولا يقول من تلقاء نفسه ولكنه مما يسمع به ، ويكلمكم ويسوسكم بالحق ويخبركم بالحوادث والغيوب " (٣) .

وفي موضع آخر " إني سائل له أن يبعث إليكم فار قليطا آخر يكون معكم إلى الأبد وهو يعلمكم كل شيء " .

---

(١) هذا ماذكره ابن القيم نقلا عن التوراة والذي وجدته في الكتاب المطبوع هو (جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم) سفر التثنيه الإصحاح ٣٣ فقرات ٢

(٢) انظر هداية الحيارى ص : ٥٥

(٣) وهذا معناه ولم أجد هذا النص في كتابهم وإنما وجدت ما يشابه ذلك في إنجيل يوحنا إصحاح ١٦ الفقرات ٥ - ١٦

وفي موضع آخر :" ابن البشر ذاهب والفار قليط من بعده يجي لكم بالإسراء ويفسر لكم كل شيء ، وهو يشهد لي كما شهدت له ، فإني أجيئكم بالامثال وهو يأتيكم بالتأويل " .

وقد اختلف في الفار قليط بلغتهم فذكروا فيه أقوال

أحداها : أنه الحامد والحماد أو الحمد ورجحت طائفة هذا القول ، وقال الذي يقوم عليه البرهان في لغتهم أنه الحمد ، والدليل عليه قول يوشع " من عمل حسنة يكون له فار قليط جيد " أى حمد جيد .

القول الثاني : وعليه أكثر النصارى : أنه المخلص والمسيح نفسه يسمونه المخلص .

ثم يقول : ولما لم يمكن النصارى إنكار هذه النصوص حرفوها أنواعا من التحريف فمنهم من قال : هو روح نزلت على الحواريين ، ومنهم من قال : هو ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ ففعلوا بها الايات والعجائب ، ومنهم من زعم أنه المسيح نفسه لكونه جاء بعد الصلب بأربعين يوما ، ومنهم من قال لا يعرف المراد بهذا الفار قليط .

ومن تأمل ألفاظ الإنجيل وسياقها علم أن تفسيره بالروح باطل ، وأبطل منه تفسيره بالألسن النارية ، وأبطل منهما تفسيره بالمسيح . (١)

فإن روح القدس ما زالت تنزل على الأنبياء والصالحين قبل المسيح وبعده وليست موصوفة بهذه الصفات وقد قال تعالى : ((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه)) (٢) .

وإذا كان كذلك ولم يسم أحد هذه الروح فار قليط علم أنه أمر غير هذا . وايضا فمثل هذه الروح لازالت يؤيد بها الأنبياء والصالحون وما بشر به المسيح ووعد به أمر عظيم غير هذا .

---

(١) ومن الأدلة في الإنجيل التي لم يذكرها ابن القيم سنذكرها هي ما قاله المسيح عند ليلة القبض عليه ! " واذا واحد من الذين مع يسوع مدّ يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنه فقطع اذنه فقال له يسوع رد سيفك إلى مكانه لأن كل الذين يأخذون بالسيف يهلكون أتظن أني لا أستطيع الآن أن أطلب إلى أبى فيقدم لي أكثر من اثنا عشر جيشا من الملائكة فكيف تكمل الكتب أنه هكذا ينبغي أن يكون " .
ومما يرد عليهم " في تلك الساعه قال يسوع للجموع كأنه على لص خرجتم بسيوف وعصى لتأخذوني كل يوم كنت أجلس معكم أعلم في الهيكل ولم تمسكوني وأما هذا كله فقد كان لكي تكمل كتب الانبياء حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا " إنجيل متى إصحاح ٢٦ الفقرات ٥٥ - ٥٦ . نكسر العبارة وهو موجود كي تكمل كتب الانبياء وانظر إظهار الحق الجزء ٢ ص ٥٧

(٢) سورة المجادلة : ٢٢

وايضـــاً فإنـه وصـف الغار قليـط بصفـات لا تنـاسـب هـذه الـروح وإنمـا تناسـب رجـــلاً يـأتـي بعـده نظـيراً لـه فقـولـه : " فـار قليـط أخـر " دل علـى أنـه ثـان لأول كان قبله.

وأيضـاً فإنـه قـال : " يثبـت معكـم إلـى الأبـد " وهـذا انما يكـون لما يدوم ويبقـى معهـم إلى آخـر الدهـر ومعلـوم أنـه لـم يـرد بقـاء ذاتـه فعلـم أنـه بقـاء شـرعـــــه وأمـره والغار قليـط الأول لـم يثبـت معهـم شـرعـه ودينـه إلـى الأبـد وهـذا يبيـن أن الثاني صاحـب شـــرع لا ينسـخ بـل يبقـى إلى الأبـد .

وأيضـاً : فإنـه أخـبر أن هـذا الغار قليـط الـذي أخـبر بـه يشهـد لـه ويعلمهم كـل شـيء وأنـه يذكـر لهـم كـل ما قـال المسيـح وأنـه يـذبـح العالـم علـى خطيئتـه ، فهـذه الصفـات والنعـوت التي تلقـوهـا عـن المسيـح لا تنطبـق علـى أمـر معنـوى فـي قلـب بعـض النـاس لا يـراه أحـد ولا يسمـع كـلامـه وإنمـا تنطبـق علـى مـن يـراه الناس ويسمعون كلامـه فيشهـد للمسيـح ويعلمهـم كـل شـي) (١) .

الـى غـير ذلـك مـن الايـات والبراهيـن الـواردة فـي الكتـب المنـزلة التي ذكرهـا رحمـه اللـه فـي كتـابـه ممـا يـدل علـى نبـوة محمـد صلـى اللـه عليـه وسلـم .

من لوا زم الشهـادتيـن محبـة اللـه ورسولـه

اذا وقـع تصـديـق العبـد بـأن اللـه ربـاً واحـدا وأن محمـداً عبـده ورسولـــــه لزمـــه محبتهمـا ، فبذلـك يثبـــت فيـه أصـل الاعمـال الدينيـــة والاقـــوال .

لأن المحبـة أصـل كـل فعـل ومبـدأه ، وقـوام أمـر الاسـلام عليهـا ، وهـي الدافـع والمحـرك للعبـد تجـاه أي عمـل فكلمـا قـويـت المحبـة قـوى الاندفـاع ، ولماكانـت المحبـــة فيالاسلام وأنها أصل الاعمـال الدينيـــه والاقـوال وجـب علـيّ أن أعـرّف الداعيـة هـــــذه المحبـة التي تدفعه وتدفع من يدعوه الى العمـل اذا أحسـن غرسهـا فـي قلبـه وقلـب المدعـــو وهـذا مـاعنـاه ابـن القيـم رحمـه اللـه مـن التركيز علـى ذكـر هـذه المحبـة وتوضيـــح اشتقـاقهـا و اسمـائهـا ، وحدهـا ، وأنواعهـا ، وعلاماتهـا ، فـي كثـير من كتبـه وقـــد أفـردهـا فـي مصنـف سمـاه (روضـة المحبيـن ونـزهـة المشتـاقيـن) وسـوف اتطـرق فـــي هـذه العجالـة إلـى بعـض ما ذكـره ابـن القيـم رحمـه اللـه ممـا لـه عـلاقـة بموضـوعنـــا توضـح لنـا منهجـــه فـي تعريفنـا بهـذه المحبـة وعلاماتهـا واشتقـاقهـا وغـير ذلـك .

فنتعـرف أولاً علـى اشتقـاق هـذا الاسـم والـذي ذكـر فيـه ابـن القيـم كثـيراً من كـلام النـاس فـي أصـل اشتقـاقهـا نذكـر بعضـاً منهـا فقـال :

أصلهـا الصفـاء : لأن العـرب تقـول لصفـاء بيـاض الأسنـان ونضـارتهـا حبب الأسنان.

---

(١) انظـر هـدايـة الحيـارى مـن ٥٧ - ٥٩

وقيل مشتقة من اللزوم والثبات ومنه أحب البعير اذا برك ولم يقم : فكأن المحب لزم قلبه محبوبه فلم يبرح عنه انتقالا .

فيكون تعريفها اصطلاحا وتحديدها كما يرى ذلك ابن القيم :

ميلك للمحبوب بكليتك ، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك ، ثم موافقتك له سرا وجهرا ثم علمك بتقصيرك في حبه (١) .

أنواع المحبة

ومحبة الله ورسوله أنواع يجب التمييز بينها كما يقول ابن القيم :

أربعة أنواع يجب التمييز بينهما وإنما ضل من ضل بعدم التفريق بينهما :

أحدهما : محبة الله ، ولا تكفي وحدها في النجاة من عذاب الله ، والفوز بثوابه فإن المشركين وعباد الصليب واليهود وغيرهم يحبون الله .

الثاني : محبة ما يحبه الله ، وهذه هي التي تدخله في الإسلام وتخرجه من الكفر وأحب الناس الى الله أقواهم بهذه المحبة وأشدهم فيها .

الثالث : الحب لله وفيه ، وهي من لوازم محبة ما يحب ، ولا تستقيم محبة ما يحب الا فيه ولله .

الرابع : المحبة مع الله ، وهي المحبة الشركية ، وكل من أحب شيئا مع الله ، لا لله ، ولا من أجله ، ولا فيه ، فقد اتخذه ندا من دون الله وهذه محبة المشركين .

وبقي قسم خامس ليس مما نحن فيه وهو المحبة الطبيعية وهي ميل الانسان إلى ما يلائم طبعه كمحبة العطشان للماء ، والجائع للطعام ، ومحبة النوم ، والزوجة والولد (٢) .

حركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب

يقول رحمه الله تعالى : فالمحبة والإرادة أصل كل فعل ومبدؤه ، فلا يكون الفعل الا عن محبة وارادة حتى دفعه للامور التي يبغضها ويكرهها فإنما يدفعها بارادته ومحبته لأضدادها واللذة التي يجدها بالدفع (٣) .

فإذا عرف ذلك فالمحبة هي التي تحرك المحب في طلب محبوبه الذي يكمل بحصوله له فتحرك محب الرحمن ومحب القرآن ، ومحب العلم والايمان ، ومحب المتاع والأثمان ، ومحب الاوثان والصلبان ، ومحب النسوان والمردان ، ومحب الاوطان

---

(١) انظر روضة المحبين : ٣٣ وما بعدها

(٢) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ص : ٢٢٦

(٣) روضة المحبين : ٧٦

ومحـــــب الأخـــــوان .

فتثير من كل قلب حركة الى محبوبه من هذه الاشياء فيتحرك عند ذكر محبوبه منها دون غـــيره (١) .

أصـــل الأعمال الدينية حب اللـه ورسولـه

واذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل فأصل الاعمال الدينيـــه حب اللـه ورسولـه ، كما أن أصل الأقوال الدينية تصديق اللـه ورسولـه ، وكل إرادة تمنع كمال الحب للـه ورسولـه وتزاحم هذه المحبه ، أو شبهة تمنع كمال التصديق فهي معارضة لأصل الإيمان أو مضعفة له ، فإن قويت حتى عارضت أصل الحب والتصديق كانت كفراً أو شركاً أكبر ، وإن لم تعارضه قدحت في كماله ، وأثرت فيه ضعفاً وفتوراً في العزيمة والطلب وهي تحجب الواصل ، وتقطع الطالب وتنكس الراغب فلا تصلح الموالاة الا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبيـــن أنه قال لقومه : ((أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون ؟ فإنهـــم عدو لي الا رب العالميـــن)) (٢)(٣) .

ثم بين رحمه اللـه أن المحبة تحتها أنواع متفاوته وبين أعظم أنواع المحبة المحمـــودة فيقـــول :

ولما كانت المحبة جنساً تحته أنواع متفاوته في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر فيها في حق اللـه تعالى ما يختص به ويليق به من أنواعهـــا ، ومالا تصح الا لـه وحده ، مثل العبادة والإنابه ونحوها (٤) .

وأعظم أنواعها المحموده : محبة اللـه وحده ومحبة ما أحب وهذه المحبـــة هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها .

ومدار القرآن على الأمر بهذه المحبة ولوازمها ، والنهي عن المحبة الاخـــرى ولوازمهـــا (٥) وأصل دعوة جميع الرسل عليهم السلام من أولهم إلى آخرهم : إنما هي عبادة اللـه وحده لا شريك له ، والمتضمنة لكمال حبه ، وكمال الخضـــوع والذل له ، والاجلال والتعظيم ولوازم ذلك من الطاعة والتقوى .

---

(١) اغاثة اللهفان من مصائد الشيطان : ١٣٢/٢

(٢) سورة الشعراء الايات : ٧٥ - ٧٧

(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي لأبن القيم : ٢٣٦

(٤) الجواب الكافي : ٢٣٧

(٥) يقصد المحبة المذمومه التي يقول عنها أنها المحبة مع اللـه التي يسوى فيهـــا بين محبة اللـه ومحبته للند الذي اتخذه من دون الله ، الجواب الكافي ص: ٢٣٩

وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس اجمعين) (١) .

وفي المسند أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (يارسول الله ، والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي ، فقال : لا ياعمر حتى أكون أحب اليك من نفسك قال :والذي بعثك بالحق لأنت أحب إلي من نفسي قال : الآن ياعمر) (٢) .

فاذا كان هذا شأن محبة عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ووجب تقديمها على محبة نفس الإنسان وولده ووالده والناس أجمعين فما الظن بمحبة مرسله سبحانه وتعالى ووجوب تقديمه على ما سواه .

فمحبة الرب سبحانه تختص عن محبة غيره في قدرها وصفتها وأفراده سبحانه بها فإن الواجب له من ذلك كله أن يكون أحب الى العبد من ولده ووالده بل من سمعه وبصره ونفسه التي بين جنبيه .

وليس شيء يحب لذاته من كل وجه الا الله وحده (٣) .

علامات هذه المحبة وشواهدها .

وقد ذكر رحمه الله علامات وشواهد كثيرة تدل على محبة الله ورسوله فمن وجد شيئاً من هذه العلامات في نفسه فليعلم أن محبة الله ورسوله قد تمكنت من نفسه فكل ما زادت هذه الشواهد عنده كانت المحبة أقوى وأمكن ، وقد اطنب رحمه الله في ذكر هذه الشواهد والعلامات أذكر شيئاً منها، مما يوفي بغرضنا إن شاء الله ، فقال :

منها : كثرة ذكر المحبوب واللهج بذكره وحديثه فمن أحب شيئاً أكثر من ذكره بقلبه ولسانه ولهذا أمر الله بذكره على جميع الاحوال ، وأمرهم بذكره أخوف ما يكونون فقال تعالى : ((يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)) (٤) .

والمحبون يفتخرون بذكر أحبابهم وقت المخاوف وملاقاة الاعداء كما قال قائلهم :

ولقد ذكرتك والرماح كأنها * * * أشطان بئر في لبان الأدهم (٥)

---

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان رقم الباب ٨ ج ١ ص ٩ .

(٢) رواه الامام أحمد في المسند : ١١/٤

(٣) انظر الجواب الكافي : ٢٣٧

(٤) سورة الانفال : ٤٥

(٥) البيت لعنترة بن شداد في معلقته بلفظ : يدعون عنتر والرماح كأنها . جمهرة اشعار العرب لابي زيد محمد بن ابي الخطاب ص ٦٩ ط الاولى ١٣٠٨ والمراد بقوله : ولقد ذكرتك والرماح تراقني : يعني وبيض الهند تقطر من دمي

ومن علاماتها الانقياد لأمر المحبوب وايثاره على مراد المحب بل يتّحِدُ مراد المحب والمحبوب وهذا الإتحاد علامة المحبة الصادقة بحيث يكون مراد الحبيب والمحب واحداً فليس بمحب صادق من له إرادة تخالف مراد محبوبه منه وهذا إنما يحصل بكمال المتابعة لرّسُولِ الحبيب قال تعالى : ((قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)) (١) فجعل سبحانه متابعة رسوله سبباً لمحبتهم له .

ومن علاماتها : قلة صَبرِ المحِبّ عن المحبوب بل ينصرف صبره إلى الصبر على طاعته والصبر عن معصيته ، والصبر على أحكامه فهذا صبر المحب .

ومنها : الإقبال على حديثه وإلقاء سمعه كله إليه بحيث يفرّغُ لحديثهِ سمعه وقلبه ، وإن ظهر منه إقبال على غيره فهو إقبال مستعار يستبين فيه التكلف .

ولهذا لم يكن شيء ألذّ لأهل المحبة من سماع القرآن وقد ثبت في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اقرأ عليّ ، قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إني أحب أن أسمعه من غيري ، فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى بلغت قوله تعالى : ((فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً)) (٢) قال حسبك الآن ، فرفعت رأسي فإذا عيناه تذرفان) (٣) .

ومنها الإسراع إليه في السير وحث الرّكاب نحوه وطي المنازل في الوصول إليه والاجتهاد في القرب والدنوّ منهُ ، وقطع كل قاطع يقطع عنه .

ومنها غيرته لمحبوبه وعلى محبوبه ، فالغيرة له أن يكره ما يكره ، ويغار إذا عُصِى محبوبه وانتهك حقه وضيع أمره ، فهذه غيرة المحب حقاً والدين كله تحت هذه الغيرة فأقوى الناس ديناً أعظمهم غيرة ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :(أتعجبون من غيرة سعد لأنا أغير منه والله أغير مني) (٤) .

فمحب الله ورسوله يغار لله ورسوله على قدر محبته وإجلاله ، وإذا خلا قلبه من الغيرة لله ورسوله فهو من المحبة أخلى وإن زعم أنه من المحبين .

---

(١) سورة آل عمران : ٣١

(٢) سورة النساء : ٤١

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير تفسير سورة النساء : ١٨٠/٥ ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب فضل استماع القرآن : ٥٥٠/١

(٤) رواه واحمد في المسند : ٢٤٨/٤

فكذب من ادعى محبة محبوب من الناس وهو يرى غيره ينتهك حرمة محبوبه ويسعى في أذاه ومساخطه ويستهين بحقه ويستخف بأمره وهو لا يغار لذلك بل قلبه بارد .

فكيف يصح لعبد أن يدعى محبة الله وهولا يغار لمحارمه إذا انتهكت ، ولا لحقوقه إذا ضيعت واذا ترحلت هذه الغيره من القلب ترحلت منه المحبة بل ترحل منه الدين وإن بقيت فيه آثاره وهذه الغيرة هي :

اصل الجهاد والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وهي الحامل على ذلك .

ومنها : بذل المحب في رضا محبوبه ما يقدر عليه مما كان يتمتع به بدون المحبه ، وللمحب في هذه ثلاثة أحوال :

أحداها : بذل ذلك تكلفاً ومشقة وهذه في أول الأمر .

فإذا قويت المحبة بذله رضاً وطوعاً ، فإذا تمكنت من القلب غاية التمكن بذله سؤلاً وتضرعاً كأنه يأخذه من المحبوب حتى أنه ليبذل نفسه دون محبوبه كما كان الصحابة رضي الله عنهم يقون رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحرب بنفوسهم حتى يصرّعوا حوله ومن آثر محبوبه بنفسه فهو له بماله أشد إيثاراً .

قال تعالى :((النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم)) (١) .

ومنها : هجره كل سبب يقصيه من محبوبه ويُبْغِضَه المحبوب ، وارتياحه لكل سبب يدنيه منه،ويستحمد به عنده إذا بلغه عنه (٢) .

وهذه هي شواهد محبة الله ورسوله المتمثله في الطاعة العمياء والتزام أمرهما واجتناب نهيهما وعدم مخالفتهما أو احداث شيء في الدين لم يشرّع منهما وابتداعه كما يفعل بعض المتصوفه من عبادات لم يأذن بها الله ورسوله ويدعون أنها محبة لله ورسوله ، فالمحبة الحقيقية في طاعتهما فقط .

ولله ما أحلى كلام ابن القيم وحسن تربيته وأسلوبه الدعوي المبارك وما أحسن تصويره للعباد،حق الله من المحبة وكيف بين أن مدار الدين كله يرجع إلى هذه المحبة حقاً إنها شواهد تدل على المحبة يلزم كل عبد مؤمن بالله الانقياد لهذه الشواهد وجعلها شواهد تنطبق على حاله مع محبوبه فإنها كما قال ابن القيم رحمه الله:تكون تكلفاً ومشقة في بداية الأمر فإذا حبس نفسه وصبر ورأى الله سبحانه منه العزم فإنه يسهلها عليه فيبذلها رضا وطوعاً بلا تكلف ومشقه فإذا صبر عليها وجدّ في المسير فإنها تصبح

---

(١) سورة الاحزاب : ٦

(٢) انظر روضة المحبين : ٢٦٧ وما بعدها .

سعادته ولذة روحه وقلبه ومحبوبه الذي أصبحت أوامره ونواهيه متحدة مع هواه ورغبته فتكون قد اكتملت فيه علامات المحبة فيكون هو المحب على الحقيقة الذي كمل أنواع المحبة السالفه الذكر جعلنا الله منهم .

القسم الثاني : من أركان الاسلام (١)

بعد أن تحدثنا عن القسم الأول من أركان الاسلام وهي الشهادتين أعظم الأركان والعبادات على الاطلاق وهي مفتاح الجنه .

الا أن هذا المفتاح يحتاج الى أسنان فإن لكل مفتاح أسنانا لا يكمل الفتح الا بها ، والشهادتا ن تحتاج إلى أسنانها وهي بقية الأركان من العبادات الواردةفي الحديث ، من صلاة وصوم وزكاة وحج ، وسوف أعرض هذه الاركان على الداعيه لا ليعرفها ويعرف مكانتها في الاسلام فقط ، بل ليتزود بنور يكشف له سر هذه العبادات والحكمة من تشريعها وحاجة البشر إليها وعدم استغنائهم عنها .

كل ذلك مستفاد من نظرة هذا العالم الرباني ابن القيم رحمه الله ، الذي لا أشك في أنه عرف ربه معرفة لم يصل اليها الكثير من الدعاة ، فلذلك تجد في كلامه ، ما يجلوا الصدر ، ويزيد في إيمان المؤمن عندما يتحدث عن حقوق الرب وواجبات العبد ، فتعرف الرب والعبد على حقيقتهما .

والعبادة ثمرة الإيمان بالله وبرسوله وبها يظهر معنى الشهادتين بالعمل والسلوك وقد صرح القرآن الكريم في كثير من الآيات بذ كر الايمان مقرونا بالعمل الصالح كما قال تعالى : ((وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى))(٢) وقال : ((إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف))(٣) .

وقال : ((فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين)) (٤)

وغير ذلك من الآيات الدالة على ارتباط العمل بالإيمان وأنهما جزء لا يتجزأ فلا إيمان بلا عمل ، ولا يقبل عمل بلا إيمان ، لأن الإيمان قول وعمل وتصديق .

حاجة العباد إلى العباده :

يرى ابن القيم رحمه الله أن العبادة هي روح العباد في هذه الحياة وأنها نورهم وسرورهم كما أنها نورهم وسرورهم في الآخرة وقد كرر ذلك في أكثر من موضع محاولاً تركيز هذا في أذهان المسلمين مثل قوله :

إن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتأليههم له ، كحاجتهم إليه في خلقه لهم ، ورزقه إياهم ، ومعافات أبدانهم ، وستر عوراتهم ، وتأمين روعاتهم

---

(١) في منهج ابن القيم في اصلاح الامة في الباب الثاني تحدثت عن العبادة وهي تكمل عناصر الموضوع انظر : ص: ٢٧٨ ، ٣٥١ ، ٤٣٦.

(٢) سورة الكهف : ٨٨

(٣) سورة سبأ : ٣٧

(٤) سورة القصص : ٦٧

بل حاجتهم إلى تأليهه ومحبته وعبوديته أعظم فإن ذلك هو الغاية المقصوده لهم ولا صلاح لهم، ولا نعيم ولا فلاح ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال (١) .

ويقول رحمه الله : إن فقر العبد الى أن يعبد الله سبحانه وحده لا يشرك به شيئاً ليس له نظير فيقاس به لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الغذاء والشراب والنفس ، فيقاس بها ولكن بينهما فروق كثيرة .

فإن حقيقة العبد قلبه وروحه ، ولا صلاح له الا بالهه الحق الذي لا اله الا هو ، فلا يطمئن الا بذكره ولا يسكن الا بمعرفته وحبه ، وهو كادح إليه كدحاً فملاقيه ولا بدّ له من لقائه،ولا صلاح له الا بتوحيد محبته،وعبادته،وخوفه، ورجائه .

فإلٰهه الحق لابدّ له منه في كل وقت وفى كل حال وإنما كان فنفس الايمان به ومحبته وعبادته وإجلاله وذكره هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه كما عليه أهل الإيمان (٢) .

وهو في نفس الوقت يبين أن أكثر الخلق يعجز عن إدراك هذا ، وإنما يدركه من كان مراده حب الله وحده ونذر حياته لمعرفته ومحبته الذي صار نعيمه في التوجه إليه وذكره ، فهذا هو الذي يعرفه ويقرّ به،وهو الذي يشعر بالنعيم، واللذ ة ،والسرور، في عبادته أياً كانت هذه العبادة .

فمن لم يصدق ذلك فليتأمل حال أهل الايمان وما وقع منهم في بذل النفس والنفيس من أجل رضا الرب تبارك وتعالى الذي أحبه فنسى الوجود من دونه وأصبح لا يتحرك الا به ومن أجله فكم من القوم أقدم على قتل آبائهم وأبنائهم وأحبابهم ، ومفارقة أوطانهم وبذل نحورهم لاعدائهم ومحبتهم للقتل وايثارهم له على البقاء ، وايثار لوم اللائمين وذم المخالفين على مدحهم وتعظيمهم موقوع هذا من البشر بدون أمر يذوقه قلبه من حلاوته ولذته وسروره ونعيمه ممتنع .والواقع شاهد بذلك .

فيامنكراً هذا تأخر فإنه *** حرام على الخفاش أن يبصر الشمس (٣)

وبعد أن بين رحمه الله حاجة العباد الى عبادة الله وحده أخذ يرد على من قل نصيبه من التحقيق والعرفان وبخس حظه من الإحسان وقل نصيبه من ذوق حقائق الايمان ، بقولهم : إن عبادته وذكره وشكره تكليف ومشقه لمجرد الابتلاء والإمتحان أو لمجرد التعويض المنفصل كالمعاوضة بالاثمان أو لمجرد رياضة النفس

---

(١) انظر اغاثة اللهفان : ١/٣٠ - ٣٣

(٢) انظر ذلك في طريق الهجرتين : ٥٩

(٣) انظر ذلك في طريق الهجرتين ص : ٥٩

وتهذيبها ليرتفع عن درجة البهيمية والحيوانيه .

فيقول : بل عبادته ومعرفته وتوحيده وشكره ، قرة عين الانسان وأفضل لذة للروح والقلب والجنان ، وأطيب نعيم ناله من كان أهلا لهذا الشأن .

إذ ليس المقصود بالعبادات والأوامر المشقة والكلفة بالقصد الأول ، وإن وقع ذلك ضمناً وتبعاً في بعضها ، لاسباب إقتضته لابدّ منها وهي من لزوم هذه النشأة .

فأوامره سبحانه وحقه الذي أوجبه على عباده ، وشرائعه التي شرعها لهم هي قرة العيون ولذة القلوب ونعيم الارواح وسرورها ، وبها شفاؤها وفلاحها وكمالها في معاشها ومعادها بل لا فرح ولا نعيم الا بذلك كما قال تعالى :((يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون))(١) .

قال أبو سعيد الخدرى (٢) : " فضل الله،القرآن ، ورحمته : أن جعلكم من أهله " ، وقال هلال بن يساف (٣) : " بالاسلام الذي هداكم إليه وبالقرآن الذي علّمكم إياه هو خير مما تجمعون من الذهب والفضه وكذلك قال ابن عباس (٤) رضي الله عنه

---

(١) سورة يونس : ٥٧ ، ٥٨

(٢) سعيد بن مالك رضي الله عنه صحابى جليل من ملازمى النبي صلى الله عليه وسلم وروى عنه أحاديث كثيرة غزى اثنتى عشر غزوه وتوفى في المدينه سنة ٧٤هـ انظر: خليفه بن خياط " الطبقات " تحقيق د. أكرم ضياء العمرى ص ٩٦ ط الثانيه ١٤٠٢هـ دار طيبه الرياض ، والذهبى سير اعلام النبلاء ١٦٨/٣ ط الثانيه ١٤٠٥هـ مؤسسة الرساله بيروت .

(٣) هلال لم استطع الوقوف عليه ولعله هلال الرأى ، هلال بن يحى بن مسلم البصرى فقيه من اعيان الحنفيه لقب بالرأى لسعة علمه وكثرة أخذه بالقياس توفى سنة ٢٤٥هـ رحمه الله ، انظر مفتاح السعاده ١٢٤/٢٥ والاعلام ٩٢/٨

(٤) عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم،ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم وأمه لبابة بنت الحارث وكان يسمى البحر لسعة علمه ويسمى حبر الامة ولد في شعب ابى طالب اثناء محاصرة الرسول وحنكه بريقه وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين قال عبيدالله بن عتبه كان ابن عباس قد فات الناس بخصال : بعلم ماسبقه وفقه فيما احتيج إليه وتأويل وما رايت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله وقضاء ابى بكر وعمر وعثمان منه ولا أفقه في رأى منه ولا أعلم بشعر ولا عربيه ولا تفسير القرآن منه توفى سنة ٦٨ بالطائف وهو ابن سبعين رحمه الله ورضى عنه ، انظر اسد الغابه في معرفة الصحابه ١٩٢/٣ دار احياء التراث العربي بيروت مؤلفه الشيخ العلامه عز الدين ابى الحسن على بن ابى الكرم المعروف بابن الأثير .

والحسن (١) وقتاده (٢) وهما الامران اللذان امتن الله بهما على رسوله صلى الله عليه وسلم فقال : ((وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري مالكتاب ولا الايمان)) (٣) .

والله سبحانه رفع من رفع بالكتاب والايمان ووضع من وضع بعدمهما .

فان قيل : فقد وقع تسمية ذلك تكليفاً في القرآن الكريم كقوله :

((لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)) (٤) .

وقوله : ((لا نكلف نفساً الا وسعها)) (٥) .

قيل نعم : إنما جاء ذلك في جانب النفى ولم يسمّ سبحانه أوامره ووصاياه وشرائعه تكليفا قط ، بل سماها : روحاً ونوراً ، وشفاء ، وهدى ، ورحمة ، وحياة أو عهداً ووصية ونحو ذلك (٦) .

ولا يشعر بذلك الا من امتلاء قلبه ايماناً وحباً لله تعالى .

الادلة على أن العبادة مصلحة العبد وسعادته :

وقد بين رحمه الله تعالى أن هذه العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده انما شرعت لمصلحة العباد أولا وآخراً وليتم بها سعادتهم ولذتهم في الدنيا والآخره والادلة على ذلك هي :

أولاً : أنه لم يخلق خلقه لحاجة منه إليهم ولا ليتكثر بهم من قله ولا ليتعزز بهم كما قال :((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، ما أريد منهم من رزقٍ وما أُريد أن يطعمون))(٧) فأخبر أنه لم يخلق الجن والانس لحاجة

---

(١) الحسن بن يسار البصرى ابو سعيد تابعي إمام أهل البصره وحبر الامة في زمانه وهو أحد العلماء والفقهاء الفصحاء الشجعان ولد بالمدينه وشبّ في كنف على بن ابى طالب وسكن البصره وعظمة هيبته في القلوب لا يخاف في الحق لومة لائم وله مع الحجاج مواقف وسلمه الله من أذاه توفى بالبصره سنة ١١٠هـ رضي الله عنه ، انظر : ميزان الاعتدال ٢٥٤/١ وحلية الأولياء ١٣١/٢ والاعلام ٢٢٦/٢ .

(٢) قتادة بن دعامة بن قتاده بن عزيز ابو الخطاب السدوسى البصرى مفسر حافظ ضرير قال عنه الامام أحمد قتاده أحفظ أهل البصره وكان معه علم بالحديث رأساً في العربيه ومفردات اللغه وايام العرب والنسب مات بواسط في الطاعون سنة ١١٨هـ رحمه الله انظر ابن خلكان ٤٢٧/١ والاعلام ١٨٩/٥

(٣) سورة الشورى : ٥٢

(٤) سورة البقره : ٢٨٦

(٥) سورة الانعام : ١٥٢

(٦) انظر اغاثة اللهفان ٣٢/١ ، وطريق الهجرتين : ٥٨

(٧) سورة الذاريات الايات : ٥٦ - ٥٧

منه إليهم، ولا ليربح عليهم ولكن خلقهم جوداً واحساناً ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الارباح كقوله : ((إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم))(١) ولما امرهم بالوضوء وبالغسل من الجنابة الذي يحط عنهم أوزارهم ويدخلون به عليه ويرفع به درجاتهم قال تعالى : ((ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون))(٢) وقال في الأضاحي والهدايا : ((لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم))(٣) ، وقال عقيب أمرهم بالصدقه ونهيهم عن إخراج الردى من المال :((ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غني حميد)) (٤) ، يقول سبحانه : إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء ، حميد مستحق المحامد كلها ، فانفاقكم لا يسد منه حاجة ولا يوجد له حمداً ، بل هو الغني بنفسه الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته وانفاقكم إنما نفعه لكم وعائده عليكم (٥) .

إذاً هذه العبادة هي علاج للعبد إذا ما تلقاها وقام بها على الوجه الأكمل فتطهر نفسه وتزكو مما هو سبب في سعادة العبد ولذته .

ثانياً : أن هذه العبادات والشرائع هي سعادة للفرد والمجتمع ، لأنها تربي المؤمن مما يؤثر بدوره على سعادة المجتمع ونفسه يقول ابن القيم :

تضمن التكليف لإيصاف العبد بكل خلق جميل واثباته بكل فعل جميل وقول سديد واجتنابه لكل خلق سيء وترك كل فعل قبيح وقول زور فتكليفه متضمن لمكارم الاخلاق ومحاسن الافعال وصدق القول والاحسان الى الخليقة وتكميل نفسه بأنواع الكمالات وهجر اضداد ذلك (٦) .

اذ كان ذلك فالسعادة والخير يعود على العبد نفسه وعلى الأخرين فجمع بين الحسنيين والسعادتين والاجرين .

ثالثاً : أن من لم تكن العبادة قرة عينه وسروره ونعيمه ، فاعلم أنه معذب ، لتعلقه بسوى الله ، وهذا مضرة عليه اذا أخذ منه فوق قدر حاجته ولم يقصد بها التزود على الطاعة ، وهذا قد صرف شيئاً من المحبة لغير الله .

---

(١) سورة الروم : ٤٤

(٢) سورة المائده : ٦

(٣) سورة الحج : ٣٧

(٤) سورة البقره : ٢٦٧

(٥) طريق الهجرتين : ٢٣٥

(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل لابن القيم : ٢٦٧

وكل من أحب شيئاً سوى الله ، فليعلم العبد أن هذا الشيء المحبوب مسلوب منه وسيفارقه ولابدّ باى حال من الاحوال ، وهذا من أعظم مصادر القلق والتعاسة والشقاء على هذا المحب .

فان كان أصل المحبة لغير الله فلابدّ أن تضره محبته هذه في الدنيا أو في الآخره وغالباً ما يجتمع له العذاب في الدنيا والآخرة ، قال تعالى: ((الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ....)) (١) ، وقال تعالى : ((فلا تعجبك أموالهم ولاأولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون))(٢)، فعذاب الآخرة معلوم وقوعه وصفته عن الله ورسوله ، أعاذنا الله منه .

ولكن كيف يعذب في الدنيا بهذه الملذات والشهوات والمحبوبات التي حصل عليها وأحبها وبذل جهده في الحصول عليها ؟

والجواب أن عذاب أهل الدنيا مشاهد من تعذيب أهل الدنيا وطلابها ومحبيها وموثريها على حب الله والآخره ، وذلك بالحرص على تحصيلها والتعب العظيم في جمعها ، ومقاسات أنواع المشاق في ذلك فلا تجد أتعب ولا اشقى ممن الدنيا أكبر همه وذلك واضح في قول النبي صلى الله عليه وسلم :(من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه ، وجمع له شمله وأتته الدنيا وهي راغمة ، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه ، وفرّق عليه شمله ولم يأته من الدنيا الا ما قدر له) (٣) ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيت الشمل ، وتفريق القلب وكون الفقر بين عينيى العبد لا يفارقه .

ولولا سكرة عشاق الدنيا بحبها ،لاستغاثوا من هذا العذاب ، على أن أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه ، وذلك باشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد الدنيا ومحاربة أهلها إياه ، ومقاسات معاداتهم من أعظم المصائب ، ومحب الدنيا لا ينفك من ثلاث ، هم لازم ، وتعب دائم ، وحسرة لا تنقضى ، وذلك أن محب أي شيء من الدنيا من دون الله لا ينال منه شيء الا طمحت نفسه الى ما فوقه (٤) وهذا بعكس العبادة ومحبة الله وحده ، فكل مازدت منها

---

(١) الاية من سورة التوبه : ٣٤

(٢) الاية من سورة التوبه : ٥٥

(٣) رواه الامام أحمد في المسند : ١٨٢/٥

(٤) انظر هذا الموضوع في اغاثة اللهفان: ٣٧/١ وفيه كلام جميل في تربية المؤمن مع ربه عز وجل

زاد احساسك بقرب محبوبك وشوقك إليه وإلى لقائه حتى تنصرف عن كل عذاب فتضل في سعادة وشوق في الدنيا وكمال هذه السعادة في الآخره إن شاء الله .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله غير ذلك من الادلة لا يسع المقام ذكرها وإنما المراد توضيح أن العبادة هي سعادة الانسان وروحه ونعيمه ولا يمكن أن يحصل له ذلك بدون عبادة الله وحده .

ومع ذلك فإن الله سبحانه لم يكلفنا ما لا طاقة لنا به ، بل أمرنا بما نستطيع ونقدر عليه وما لا نقدر عليه لعلة من العلل فإنه سبحانه خفف عنا وأمرنا بما دونه وما نستطيعه ، قال تعالى : ((لا يكلف الله نفسا الا وسعها)) (١) .

وقال المصطفى صلى الله عليه وسلم : (اذا أمرتكم بأمر فاتوا منه ماستطعتم) (٢) ، وهناك قاعدة العبادات التي يعمل بها فقهاء الأمه التي يقول عنها ابن القيم رحمه الله :

أن ما أوجبه الله تعالى ورسوله أو جعله شرطا للعبادة ، أو ركنا فيها أو وقف صحتها عليه : هو مقيد بحال القدرة لأنها الحال التي يؤمر فيها به وأما في حال العجز فغير مقدور ولا مأمور فلا تتوقف صحة العبادة عليه .

وهذا كوجوب القيام والقراءة والركوع والسجود عند القدرة وسقوط ذلك بالعجز وكاشتراط ستر العورة واستقبال القبلة عند القدرة ، ويسقط بالعجز (٣) .

وكذلك من قواعد الشرع الكلية كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

أنه لا واجب مع عجز ، ولا حرام مع ضرورة (٤) .

وهكذا الامر في جميع العبادات وهذا من رحمة الله تعالى بهذه الأمه وتيسيره عليها جميع مصالحها وأنه سبحانه ما أمر بشيء الا لحكمة ومصلحة تقتضي شرع تلك الاحكام ولاجلها خلقت تلك الاعيان يقول ابن القيم :

واذا تأملت الشريعة التي بعث الله بها رسوله حق التأمل وجدتها من أولها الى آخرها شاهدة بذلك (٥) ناطقة به ، ووجدت الحكمة ، والمصلحة ، والعدل والرحمة باديا على صفحاتها مناديا عليها ، يدعو العقول والألباب إليها ، وأنه

---

(١) سورة البقره : ٢٨٦

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام : ١٤٢/٨ ومسلم في كتاب الفضائل الحديث ١٣٠، ج ٤ ١٨٣٠ رقم الحديث ١٣٣٧

(٣) تهذيب سنن ابي داود لابن القيم : ٤٧/١

(٤) اعلام الموقعين : ٤١/٢

(٥) يقصد انها ما شرعت إلا لحكمة .

لا يجوز على أحكم الحاكمين ولا يليق به أن يشرع لعباده ما يضادها ، وذلك لأن الذي شرعها علم ما في خلافها من المفاسد والقبائح والظلم والسفد الذي يتعالى عن إرادته وشرعه ، وأنه لا يصلح العباد الا عليها ولا سعادة لهم بدونها البتة (١) .

وبعد ذلك كله يتضح أن الله جلة قدرته لم يشرع العبادة تكليفا وتعجيزا وانما شرعها لمصلحة العباد وسعادتهم في الدنيا والأخره وهي قرة عيونهم وراحة نفوسهم كما كان حال المصطفى صلى الله عليه وسلم واصحابه .

الركن الثاني : الصلاة (٢)

الصلاة عمود الدين وهي أعظم ركن من أركان الاسلام بعد الشهادتين وهي العهد الذي بين المسلم والكافر كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) (٣) وقوله :(بين الرجل وبين الكفر ترك الصلاة) (٤) .

يقول ابن القيم رحمه الله : ولا يختلف المسلمون أن ترك الصلاة المفروضة عمدا من أعظم الذنوب وأكبر الكبائر ، وأن إثمه عند الله أعظم من إثم قتل النفس وأخذ الأموال ومن إثم الزنا وشرب الخمر وأنه متعرض لعقوبة الله وسخطه وخزيه في الدنيا والآخره (٥) .

كما أنه يرى أن تارك الصلاة بالكلية حابط جميع عمله لا يقبل منه شيء كما يقول : اما تاركها بالكلية ، فانه لا يقبل معه عمل كما لا يقبل مع الشرك عمل فإن الصلاة عمود الاسلام كما صح (٦) عن النبي صلى الله عليه وسلم

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٤٠٩/٢

(٢) عرّف ابن القيم رحمه الله الصلاة في اللغه والاصطلاح فقال : أصل هذه اللفظه في اللغه يرجع الى معنيين : احدهما :الدعاء والتبريك ، والثاني : العبادة فمن الاول قوله تعالى ((خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم)) التوبه :١٠٣ ، ويقول عن تعريفها في الاصطلاح : فعلى هذا تكون الصلاة باقيه على مسماها في اللغه وهو الدعاء ، والدعاء : دعاء عبادة ودعاء مسأله ، فهو في صلاة حقيقيه لا مجاز ، ولا منقوله لكن خص اسم الصلاة بهذه العبادة المخصوصه كسائر الالفاظ التي يخصها أهل اللغه ، أنظر جلاء الافهام ٩٤-٩٥ وانظر بدائع الفوائد :٦/٣

(٣) الترمذي (٢٦٢٣) في الايمان باب ما جاء في ترك الصلاة .

(٤) مسلم (٨٢) في الايمان باب بيان اسم الكفر على من ترك الصلاة ج ٨٨/١ ،والترمذي(٢٦٢٢)

(٥) كتاب الصلاة وحكم تاركها : ١٦ بتصرف

(٦) يشير الى قوله صلى الله عليه وسلم (رأس الأمر الاسلام وعموده الصلاة) الترمذي برقم ٢٦١٩ في الايمان .

وسائر الشرائع كالاطناب والاوتاد ونحوها ، واذا لم يكن للفسطاط عمود لم ينتفع بشيء من اجزائه ، فقبول سائر الأعمال موقوف على قبول الصلاة فإذا رُدّت ، رُدّتْ عليه سائر الأعمال (١)،(٢) .

من أجل ذلك نرى أن ابن القيم رحمه الله قد اهتم بأمر الصلاة اهتماماً عظيماً وقلما تجد كتاباً من كتبه لا يوجد فيه ذكر الصلاة بل جميع كتبه ذكر فيها أمر الصلاة وألف كتاباً خاصاً عن الصلاة وأحكامها أسماه (كتاب الصلاة وحكم تاركها) ولقد أولى أمر الدعوة إلى الصلاة أهتماماً بالغاً نظراً لاهميتها ومكانتها فتحدث عن شأنها وفضلها ومكانتها ومحاسنها وآدابها واسرارها وغير ذلك من الأمور التي تجعل العاقل يدرك عظم شأنها وفضلها وتجعله اذا وقف بين يدى الله وقف موقف المحسن وانصح كل مسلم بالرجوع الى كتبه كي يتبين ذلك بنفسه لأن الصلاة مفتاح الجنه كما يقول ابن القيم :

أن الشهادة أصل المفتاح والصلاة وبقية الاركان أسنانه التي لا يصلح الفتح الا بها اذ دخول الجنه موقوف على المفتاح وأسنانه (٣) .

منافع الصلاة في الدنيا والآخره

قال تعالى : ((إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر))(٤) وقال:((واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين))(٥) ، وفي السنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم (اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة) (٦) .

لما رأى ابنْ القيم رحمه الله أن طبيعة الانسان جبلت على حب العاجل الحاضر في الحال غير المؤجل أخذ يبين للناس منافع الصلاة وبركاتها التي تعود عليهم في العاجل والآجل ، فقال :

والصلاة مجلبة للرزق ، حافظة للصحة ، دافعة للأذى ، مطردة للأدواء ، مقوية للقلب ، مبيضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشطة للجوارح ، مسددة للقوى ، شارحة للصدر ، مغذية للروح ، منورة للقلب ، حافظة للنعمه ، دافعة

---

(١) يشير الى قولة صلى الله عليه وسلم (ان أول مايسأل عنه العبد يوم القيامه من عمله الصلاة فإن تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله) عزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ٢٩١/١ الى الطبراني في الأوسط وأورده المنذري في الترغيب والترهيب ١٤٥/١ وله شواهد من حديث ابى هريرة فيكون الحديث بها صحيحاً .

(٢) كتاب الصلاة : ٦٤

(٣) نفس المرجع : ٤٩

(٤) الاية من سورة العنكبوت : ٤٥

(٥) سورة البقره : ٤٥

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند : ٣٠٦/١

للتقمة ، جالبة للبركه ، مبعدة من الشيطان ، مقربة من الرحمن .

وبالجملة : فلها تأثير عجيب في حفظ صحة البدن والقلب ، ودفع المواد الرديئة عنهما وما ابتلى رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية الا كان حظ المصلي منها أقل وعاقبته أسلم .

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا ، ولاسيما إذا أُعطيت حقها من التكميل ظاهراً وباطناً ، فما استدفعت شرور الدنيا والآخرة ولا استجلبت مصالحهما بمثل الصلاة .

وسر ذلك : أن الصلاة : صلة بالله عز وجل ، وعلى قدر صلة العبد بربه عز وجل تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتقطع عنه من الشرور أسبابها وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه والعافية والصحة والغنى والراحة والنعيم كلها محضرة إليه مسارعة إليه (١) .

تحذير الساجد أن يكون ساه غافل

ويجدر بنا أن نبين أن هذه المنافع والبركات لا تكون لكل مصلي فإن الناس في الصلاة على خمس مراتب كما ذكرها ابن القيم وسنبينها إن شاء الله تعالى ، وإنما تكون لمن وقف بين يدي الله بقلبه وقالبه واستشعر وجوده سبحانه .

والالتفات المنهى عنه في الصلاة قسمان ، **أحَدُهُما** : التفات القلب عن الله عز وجل الى غيره ، **والثاني** : التفات البصر .

وكلاهما منهي عنه ولا يزال الله مقبلاً على عبده ما دام العبد مقبلاً على صلاته وقد سئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن الالتفات في الصلاة فقال :

(اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد) (٢) .

وفي الأثر القدسي يقول الله تعالى : ((إلى خير مني ، إلى خير مني)) ؟ . ومثل من يلتفت في صلاته ببصره أو بقلبه مثل رجل استدعاه السلطان فأوقفه بين يديه وأقبل يناديه ويخاطبه وهو يلتفت يميناً وشمالاً وقد انصرف قلبه عن السلطان فما ظن هذا الرجل أن يفعل به السلطان أليس أقرب المراتب أن ينصرف مقوتاً مبعداً قد سقط من عينيه ؟ فهذا المصلي لا يستوي والحاضر القلب المقبل على الله تعالى في صلاته الذي قد أشعر قلبه عظمة من هو واقف بين يديه فامتلأ قلبه من هيبته وذلت عنقه له ، واستحيا من ربه أن يقبل على غيره وبين صلاتيهما كما قال حسان بن عطية (٣) :

---

(١) زاد المعاد : ٣٣٢/٤

(٢) رواه البخاري في الاذان باب الالتفات في الصلاة : ١٩٤/٢ والترمذي رقم ٥٩٠ وغيرهم .

(٣) أبو بكر حسان بن عطية المحاربي مولاهم الدمشقي ، إمام حجة نال ثناء اعلام الأمة ==

ان الرجلين ليكونان في الصلاة الواحدة وان ما بينهما في الفضل كما بين السماء والأرض .

والعبد اذا قام في الصلاة غار الشيطان منه ، فإنه قد قام في أعظم مقام ، وأقربه واغيظه للشيطان وأشده عليه فهو يحرص ويجتهد كل الاجتهاد أن لا يقيمه فيه بل لا يزال به يَعِدُهُ ويمنيه وينسيه ويجلب عليه بخيله ورجله حتى يهون عليه بشأن الصلاة ، فيتهاون بها فيتركها فإن عجز عن ذلك منه وعصاه العبد وقام في ذلك المقام ، أقبل عدو الله تعالى حتى يخطر بينه وبين نفسه ويحول بينه وبين قلبه ، فيذكره في الصلاة ما لم يكن يذكر قبل دخوله فيها حتى ربما كان قد نسي الشيء والحاجة ، فيذّكره إياه في الصلاة حتى يشغل قلبه بها ، ويأخذه عن الله عز وجل فيقوم بها بلا قلب ، فلا يناله من إقبال الله تعالى وكرامته وقربه ما ينال المقبل على ربه عز وجل الحاضر بقلبه في صلاته فينصرف من صلاته مثل ما دخل فيها بخطاياه وذنوبه وأثقاله لم تخف عنه بالصلاة فإن الصلاة إنما تكفر سيئات من أدى حقها وأكمل خشوعها ووقف بين يدى الله تعالى بقلبه وقالبه فهذا إذا انصرف منها وجد خفة في نفسه وأُحس بأثقال قد وضعت عنه فوجد نشاطا وراحه وروحا' حتى يتمنى أنه لم يكن خرج منها لأنها قرة عينه ونعيم روحه ، وجنة قلبه فالصلاة المقبولة والعمل المقبول أن يصلي العبد صلاة تليق بربه عز وجل (١) .

ثم بين رحمه الله أحوال الناس في الصلاة ودرجاتهم فقال : .

والناس في الصلاة على مراتب خمسه :

احدها : مرتبة الظالم لنفسه المفرّط ، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها .

الثاني : من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها ، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسه ، فذهب مع الوسواس والافكار .

الثالث : من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والافكار فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته فهو في صلاة وجهاد .

الرابع : من إذ قام إلى الصلاة أكمل حقوقها واركانها وحدودها واستغرق قلبه بمراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيع شيئا' منها بل همه كله مصروف إلى

== وتقديرهم توفى سنة ١٣٠هـ ، انظر : أبو نعيم أحمد بن عبدالله الاصفهاني : حلية الأولياء وطبقات الاصفياء ٧٠/٦ ط الأولى ١٣٥٤هـ مكتبة الخانجي بمصر ، وانظر سير اعلام النبلاء ٤٦٦/٥

(١) انظر كتاب الوابل الصيب : ٢٥ - ٢٧

إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها .

الخامس : من إذا قام إلى الصلاة قام اليها كذلك ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل ، ناظراً بقلبه إليه ، مراقباً له ، ممتلئاً من محبته وعظمته كأنه يراه ويشاهده وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض .

فالقسم الأول : معاقب ، والثاني محاسب ، والثالث مكفر عنه ، والرابع مثاب والخامس مقرب من ربه لأن له نصيب ممن جعلت قرة عينه في الصلاة فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا ، قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة وقرت عينه به في الدنيا .

وقد روى أن العبد إذا قام يصلي قال الله عز وجل : ارفعوا الحُجُبَ ، فإذا التفت قال : ارخوها ، وقد فُسر هذا الالتفات بالتفات القلب عن الله عز وجل الى غيره فإذا التفت إلى غيره أرخى الحجاب بينه وبين العبد ، فدخل الشيطان وعرض عليه أمور الدنيا ، وأراه إياها في صورة المرآه ، واذا أقبل بقلبه على الله ولم يلتفت ، لم يقدر الشيطان على أن يتوسط بين الله تعالى وبين ذلك القلب وإنما يدخل الشيطان إذا وقع الحجاب ، فإن فرّ إلى الله فرّ الشيطان فإن التفت حضر الشيطان فهو هكذا شأنه وشأن عدوه في الصلاة (١) .

وقال : قال الامام أحمد : إنما حظهم من الاسلام على قدر حظهم في الصلاة ورغبتهم في الاسلام على قدر رغبتهم في الصلاة ، فاعرف نفسك ياعبدالله أحذر أن تلقى الله عز وجل ولا قدر للاسلام عندك فإن قدر الاسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك (٢) .

وصف ابن القيم لاحد السابقين اذا قام الى صلاته

ان منهج ابن القيم رحمه الله تعالى في الدعوة الى الصلاة منهج القريب من ربه العالم بعظمته وكبريائه المحب له العارف لحقه وما يليق به وليس ذلك مقتصراً على فرض الصلاة بل سنرى ذلك في جميع الاركان إن شاء الله .

وتراه دائماً يوضح حكمة التشريع في الشروط والاركان والواجبات سواء كانت قولية أو فعليه كي تساعد المسلم على معرفة دقائق الأمور في التشريعات مما يزيده يقيناً بكمال شرع الله تعالى وأن هذه التشريعات الالهيه ليست تكليفاً بل هي شفاء

---

(١) الوابل الصيب : ٢٩

(٢) كتاب الصلاة لابن القيم : ١٧١

ورحمة للمؤمنين ، فالعبد اذا أدرك الحكمة من التشريع وعرف الجزاء الجزيل من العلىّ العظيم فإن ذلك داعيا له على إتمام العبادة في أحسن صورة وعلى أتم وجه حتى تؤتى ثمارها المرجوة في الدنيا والآخرة .

واليك وصف ابن القيم رحمه الله لاحد السابقين كيف يؤدى الصلاة مبتدئا بالطهارة لأنها مفتاح الصلاة فيقول معلقا على قوله صلى الله عليه وسلم : (مفتاح الصلاة الطهور) (١) :

إن مفتاح الصلاة الطهور ، والمفتاح ما يفتح به الشيء المغلق فيكون فاتحا له والحديث يفيد الحصر وأنه لا مفتاح لها سواه وذلك من طريقين :

أحداهما : حصر المبتدأ في الخبر اذ كانا معرفين وأنه لا فرد من أفراد ما يفتح به الصلاة الا الطهور .

والثاني : أن المبتدأ مضاف الى الصلاة والاضافة تعم فكأنه قيل جميع مفتاح الصلاة الطهور .

واذا عرف هذا ثبت أن الصلاة لا يمكن الدخول فيها الا بالطهور وهذا دليل على الاشتراط - أي اشتراط الطهارة في الصلاة - وان عدم الطهارة يقضى أنه مصدود عنها كالبيت المقفل على من أراد دخوله بغير مفتاح .

وفي الحديث دليل على اعتبار النية في الطهارة بوجه بديع وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم جعل الطهور مفتاح الصلاة التي لا تفتح ويدخل فيها إلا به ، ومن المعلوم أن ما شرع للشيء ووضع لأجله لابدّ أن يكون الآتى به قاصدا ما جعل مفتاحا له ومدخلا إليه ، ومن المعلوم أن من سقط في ماء وهو لا يريد التطهر لم يأتي بما هو مفتاح الصلاة (٢) .

بل جعل رحمه الله تعالى الطهارة من الأدب مع الله سبحانه وتعالى فقال :

فإن ستر العورة من الأدب والوضوء وغسل الجنابة من الأدب والتطهر من الخبيث من الأدب حتى يقف بين يدى الله طاهرا (٣) .

ويقول رحمه الله موضحا الحكمة من الوضوء : فتأمل محاسن الوضوء بين يدى الصلاة وما تضمنه من النظافة والنزاهة ومجانبة الاوساخ والمستقذرات، وتأمل كيف وضع على الاعضاء الاربعة التي هي آلة البطش والمشى ومجمع الحواس التي

---

(١) رواه ابو داود مختصر السنن ٤٥/١ تهذيب ابن القيم ، قال المنذري اخرجه الترمذي وقال هذا الحديث أصح شيء في الباب وأحسنه وأخرجه ابن ماجه .

(٢) أنظر تهذيب مختصر سنن ابى داود : ٤٥/١، ٤٨

(٣) مدارج السالكين : ٤٠٠/٢

تعلق أكثر الذنوب والخطايا بها ، فلما كانت هذه الاعضاء مباشرة للمعاصي كان وسخ الذنوب ألصق بها وأعلق من غيرها فشرع أحكم الحاكمين الوضوء عليها يتضمن نظافتها وطهارتها من الأوساخ الحسية ، وأوساخ الذنوب والمعاصي وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا المعنى بقوله : (اذا توضأ العبد المسلم خرجت خطاياه مع الماء أو مع آخر قطرة من الماء حتى يخرج من تحت أظفاره)(١) الى أن يقول رحمه الله : وجميع مسائل الشريعة كذلك آيات بينات وشواهد ناطقات بأن الذي شرعها له الحكمة البالغه والعلم المحيط والرحمة والعناية بعباده وإرادة الصّلاح لهم وقد نبه سبحانه عباده على هذا فقال : ((يا ايها الذين آمنوا اذا قمتم الى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين)) الى قوله ((ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون))(٢) ، فأخبر سبحانه بأنه لم يأمرهم بذلك حرجاً وتضيقاً عليهم ولكن إرادة لتطهيرهم وإتمام نعمته عليهم ليشكروه على ذلك فله الحمد كما هو أهله (٣) .

ويقول رحمه الله :ويستحبون أن يتجمل الرجل في صلاته للوقوف بين يدى ربه ، وسمعت شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله يقول :" أمر الله بقدر زائد على ستر العوره في الصلاة وهو أخذ الزينه فقال تعالى : ((خذوا زينتكم عند كل مسجد)) (٤) .

فعلق الأمرّ بأخذ الزينه ، لا ستر العورة ، ايذاناً بأن العبد ينبغي له : أن يلبس أزين ثيابه وأجلها في الصلاة وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال ، وكان يلبسها وقت الصلاة (٥) .

ثم يصف رحمه الله تعالى وقوف هذا العبد بين يدى ربه بعد إتمام شروط الصلاة فيقول :

ويقف بقلب مخبت خاشع لله قريب منه سليم من معارضات السوء قد امتلأت أرجاؤه بالهيبة وسطع فيه نور الايمان ، وكشف عنه حجاب النفس ودخان الشهوات فيرتع في رياض معاني القرآن ، فاجتمع همه على الله ، وقرت عينه به ، وأحس

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهار برقم ٣٣ ، جـ ١ /٢١٦

(٢) سورة المائده الايه : ٦

(٣) انظر مفتاح دار السعادة : ٤٠٩ - ٤١٠

(٤) سورة الاعراف الايه : ٣١

(٥) مدارج السالكين : ٤٠٠/٢

بقربه من الله قربا لا نظير له ، ففرغ قلبه له وأقبل عليه بكليته ، وهذا الإقبال منه بين اقبالين من ربه فإنه سبحانه أقبل عليه أولا ، فانجذب قلبه إليه باقباله فلما أقبل ربه خص منه باقبال آخر أتم من الأول (١) .

ثم يصف رحمه الله هذا العبد وهو يتفكر في معاني القرآن وعجائب الاسماء والصفات وكيف خضعت جوارحه لعظمتهما فيقول :

إذ قال : الله أكبر ، شاهد كبرياءه ، واذ قال : " سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إلٰه غيرك " (٢) .

شاهد بقلبه ربا منزها عن كل عيب ، سالما من كل نقص ، محمودا بكل حمد فكم في هذه الكلمات من تجلّ لحقائق الأسماء والصفات على قلب العارف بها وغير المعطل لحقائقها .

واذاقال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فقد أوى إلى ركنه الشديد واعتصم بحوله وقوته عن عدوه الذي يريد أن يقطعه عن ربه .

فإذا قال : ((الحمدلله رب العالمين)) وقف هنيهة يسيرة ، ينتظر جواب ربه بقوله " حمدني عبدي " (٣) .

فإذا قال : ((الرحمن الرحيم)) انتظر الجواب بقوله " اثنى عليّ عبدي " فاذا قال : ((مالك يوم الدين)) انتظر جوابه بقوله " يمجدني عبدي " فيالذة قلبه وقرة عينه وسرور نفسه بقول ربه عبدي ثلاث مرات فوالله لولا ما على القلوب من دخان الشهوات وغيم النفوس لاستطيرت فرحا وسرورا بقول ربها ثم يكون لقلبه شهود هذه الاسماء الثلاثة التي هي أصول الاسماء الحسنى وهي : الله والرب والرحمن ، فشاهد من ذكر اسم الله تبارك وتعالى الها معبودا موجودا مخوفا لا يستحق العبادة غيره ولا تنبغي الا له قد عنت له الوجوه وخضعت له الموجودات وخشعت له الأصوات وشاهد من اسمه : (رب العالمين) قيوما قام بنفسه وقام به كلُ شيء قد استوى على عرشه وتفرد بتدبير ملكه ، فالتدبير كله بيده ومصير الأمور كلها .

ثم يشهد عند ذكر اسم (الرحمن) جل جلاله ربا محسنا الى خلقه بأنواع الاحسان ، متحببا اليهم بصنوف النعم ، وسع كل شيء رحمة وعلما ،

---

(١) انظر كتاب الصلاة وحكم تاركها : ١٧١

(٢) رواه مسلم باب حجة من قال لا يجهر بالبسمله رقم الحديث ٣٩٩ ج ١ ص : ٢٩٩

(٣) هذا وما يليه من حديث رواه مسلم في كتاب الصلاة رقم الحديث ٣٩٥ وفي الباب (٣٨) ج ١ ص : ٢٩٦

وأوسع كل مخلوق نعمة وفضلاً فوسعت رحمته كل شيء ومن أخص مشاهد هذا الاسم شهود المصلي نصيبه من الرحمة الذي أقام بها بين يدي ربه .

فاذا قال : ((مالك يوم الدين)) فهنا شهد المجد الذي لا يليق لسوى الملك الحق المبين فيشهد ملكاً قاهراً ، قد دانت له الخليقه ، وعنت له الوجوه وذلت لعظمته الجبابرة وخضع لعزته كل عزيز .

فاذا قال : ((إياك نعبد وإياك نستعين)) ففيها سرّ الخلق والأمر والدنيا والآخرة وهي متضمنه لأجلّ الغايات وأفضل الوسائل فأجل الغايات عبوديته، فعبادته أعلى الغايات واعانته أجل الوسائل .

ثم يشهد الداعي بقوله : ((اهدنا الصراط المستقيم)) شدة فاقته وضرورته الى هذه المسأله التي ليس هو إلى شيء أشدّ فاقة وحاجة منه اليها البته وهي هداية التفصيل وخلق القدرة على الفعل وإرادته وتكوينه وتوفيقه لايقاعه على الوجه المرضى المحبوب للرب تعالى .

ثم يبين أن أهل هذه الهداية هم المختصون بنعمته دون (المغضوب عليهم) وهم الذين عرفوا الحق ولم يتبعوه ، ودون (الضالين) وهم الذين عبدوا الله بغير علم.

فلما فرغ من هذا الثناء والدعاء والتوحيد ، شرع له أن يطبع على ذلك بطابع من التأمين يكون كالختم له ، وافق فيه ملائكة السماء .

ثم يأخذ في مناجات ربه بذكر كلامه واستماعه من الامام بالانصات وحضور القلب وأفضل اذكار الصلاة ذكر القيام ، واحسن هيئة المصلي هيئة القيام .

ثم شرع للراكع أن يذكر عظمة ربه في حال انخفاضه وهو تطامنه وخضوعه وأنه يوصف بوصف عظمته عما يضاد كبرياءه وجلاله وعظمته فأفضل ما يقول الراكع على الاطلاق " سبحان ربي العظيم " فإن الله سبحانه أمر العباد بذلك وعين المبلّغ عنه السفير بينه وبين عباده هذا المحل لهذا الذكر وأبطل كثير من أهل العلم صلاة من تركها عمداً واوجب سجود السهو على من سها عنها وهذا مذهب الامام أحمد ومن وافقه من أئمة الحديث فَسِرّ الركوع تعظيم الرب - جلّ جلاله - بالقلب والقالب والقول ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (اما الركوع فعظموا فيه الرب)(١) ثم يرفع رأسه عائداً وجعل شعار هذا الركن حمداً لله والثناء عليه وتحميده فافتتح هذا الشعار بقول العلي " سمع الله لمن حمدهُ " أي سَمِعَ سَمْعَ قبول وإجابة ، ثم شفع بقوله : " ربنا ولك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما

---

(١) رواه مسلم باب النهي عن قراءة القران في الركوع والسجود رقم الحديث ٤٧٩ (٢٠٧ جـ ٣٤٨/١

وملء ما شئت من شيء " ، ولا يهمل أمر هذه الواو في قوله " ربنا ولك الحمد " وهي تجعل الكلام في تقرير جملتين قائمتين بأنفسهما فإن قوله : ربنا متضمن في المعنى أنت الرب والملك والقيوم الذي بيده أزمة الأمور واليه مرجعها ، قوله: ولك الحمد متضمن ذلك معنى قول الموحد له والملك وله الحمد ثم أخبر عن شأن هذا الحمد وعظمته قدراً وصفة وهو قدر ملء العالم العلوي والسفلي والفضاء الذي بينهما فهذا الحمد قد ملأ الخلق الموجود ويملأ ما يخلقه الرب - تبارك وتعالى - فاشتمل هذا الركن على أفضل الأذكار وأنفع الدعاء من حمده وتمجيده والثناء عليه والاعتراف له بالعبودية والتوحيد .

ثم يكبر ويخر ساجداً غير رافعاً يديه لأن اليدين ينحطان للسجود كما ينحط الوجه وشرع السجود على أكمل هيئه وأبلغها في العبودية ، والسجود سر الصلاة وركنها الأعظم وخاتمة الركعة ، وما قبله من الاركان كالمقدمة له ، ولهذا أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وأفضل الأحوال له حال يكون فيها أقرب الى الله ، ولهذا كان الدعاء في هذا المحل أقرب ، وأمر بالسجود خضوعاً لعظمة ربه وفاطره ، وخشوعاً له وتذللاً بين يديه وانكساراً له ، فيكون هذا الخشوع والتذلل رداً له إلى حكم العبودية ويتدارك ما حصل له من الهفوات والغفله والاعراض الذي خرج به عن أصله ، فتمثل له حقيقة التراب الذي خلق منه وهو يضع أشرف شيء منه وأعلاه ، وهو الوجه وقد صار أعلاه أسفله خضوعاً بين يدى ربه الأعلى وهذا غاية خشوع الظاهر فيعفر وجهه في التراب استكانة وتواضعاً وخضوعاً والقاء باليدين ولذلك إذا رأى الشيطان ابن آدم ساجداً لله اعتزل ناحية يبكي ويقول : ياويله ، أمر ابن آدم بالسجود ، فسجد ، فله الجنه ، وأمرت بالسجود ، فعصيت ، فلي النار (١) .

وشرع للسجود من الثناء على الله ما يناسبه وهو قول العبد " سبحان ربي الأعلى " وكان وصف الرب سبحانه في هذه الحاله في غاية المناسبة لحال الساجد الذي قد انحط الى أسفل على وجهه فذكر علو ربه في حال سقوطه ولما شرع السجود بوصف التكرار ، لم يكن بدّ من الفصل بين السجدتين، ففصل بينهما بركن مقصود، وشرع فيه من الدعاء ما يليق به، ويناسبه، وهو سؤال العبد المغفره ، والرحمة، والهداية، والعافية، والرزق ، فيقعد فعل العبد الذليل جاثياً على ركبتيه كهيئة الملقى نفسه بين يدى سيده راغباً راهباً معتذراً اليه مستعدياً

---

(١) رواه مسلم في كتاب الايمان باب بيان اطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة : ١٣٣ (٨١) جـ ١/٨٧

إليه على نفسه الأمارة بالسوء ، ثم شرع له إتمام هذه العبودية مرة بعد مره إلى إتمام الاربع كما شرع له تكرار الذكر مرة بعد مره لأنه أبلغ في حصول المقصود.

ثم شرع له أن يجلس في آخر صلاته جلسة المتذلل المستكين جاثيا على ركبتيه ويأتي في هذه الجلسة بأكمل التحيات وافضلها عوضا عن تحية المخلوق للمخلوق اذا واجهه أو دخل عليه فالناس يحيون ملوكهم وأكابرهم بأنواع التحيات التي يحيون بها قلوبهم .

وأمر المسلم أن يجعل أطيب التحيات وأزكاها وأفضلها لله ، فالتحية من العبد للحي الذي لا يموت ، وهو سبحانه أولى بتلك التحيات ، فإنها تتضمن الحياة والبقاء والدوام .

والصلوات فإنه لا يستحق أحد الصلاة الا الله عز وجل والطيبات من الكلمات والأفعال والصفات ، والاسماء ، و (إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا) (١) .

ولما كان السلام من أنواع التحية ، وكان المسلم داعيا لمن يجيبه ، وكان الله سبحانه هو الذي يطلب منه السلام لعباده الذين اختصهم لعبوديته ، شرع بأن يبدأ بأكرمهم عليه وأحبهم اليه في هذه التحية بالشهادتين اللتين هما مفتاح الإسلام فشرع أن يكون خاتمة الصلاة .

فد خل فيها بالتكبير والحمد والثناء والتمجيد والتوحيد وختمها بشهادة أن لا إله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وشرعت هذه التحية في وسط الصلاة اذا زادت على ركعتين تشبيها لها "بجلسة الفصل بين السجدتين ، وجعلت كلمات التحيات في آخر الصلاة بمنزلة خطبة الحاجة أمامها فإن المصلي إذا فرغ من الصلاة جلس جلسة الراغب الراهب يستعطي من ربه ما لا غنى به عنه فشرع له امام استعطائه كلمات التحيات مقدمه بين يدي سؤاله فكأن المصلي توسل الى الله سبحانه بعبوديته ثم الثناء عليه والشهادة له بالوحدانية ولرسوله بالرسالة ثم الصلاة على رسوله ثم قيل له تخير من الدعاء أحبه إليك فذاك الحق الذي عليك وهذا الحق الذي لك ، فشرع له من الدعاء ما يختاره من مصالح دنياه وآخرته وهو قبل السلام أفضل وأنفع للداعي وهكذا كانت عامة أدعية النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن أي الدعاء أسمع ؟ فقال :(جوف الليل وأدبار الصلوات المكتوبه) (٢) ، وقد يراد بدبرها ما بعد انقضائها .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة رقم الحديث (١٦٥) الرقم العام ١٠١٥ باب الترغيب في الصدقه قبل أن لا يوجد من لا يقبلها جـ ٧٠٣/٢

(٢) رواه الترمذي باب استحباب الدعاء في الثلث الأخير من الليل رقم٣٤٩٤ جـ ١٦٧/٩

ثم ختمت بالتسليم وجعل تحليلاً لها يخرج المصلي منها كما يخرج بتحليل الحج منه ، وجعل هذا التحليل دعاء الامام لمن وراءه بالسلامة التي هي أصل الخير وأساسه ، فيشرع لمن وراءه أن يتحلل بمثل ما تحلل به الامام (١) .

فإذا صلى ما كتب الله جلس مطرقاً بين يدي ربه هيبة له واجلالاً واستغفره استغفار من تيقن أنه هالك إن لم يغفر له ويرحمه (٢) ثم يذكر الله بما شرع من اذكار بعد الصلاة ونوافل من أجل تكميل ما نقص من صلاته ان كان ذلك أو يزيد بها حب الله تعالى له .

وهذا المنهج الذي سلكه ابن القيم من أحسن المناهج في الدعوة الى الله تعالى حيث بين أسرار هذه العبادة والحكمة من التشريع في أركانها وواجباتها ومستحباتها ، فقد استخدم في هذا المنهج اسلوب الحكمة واسلوب الموعظة الحسنه التي ترقق قلب المؤمن وتزيده شغفاً وحبا في الله تعالى ، وفي ذلك تظهر مقدرة ابن القيم رحمه الله في أنه مربى من الدرجة الأولى وداعية الى الله على بصيرة من ربه ونور .

الركن الثالث : الزكاة

بعد أن تحدثنا عن الركن الأول والثاني من اركان الاسلام بقي أن نتحدث عن الركن الثالث من أركان الاسلام الا وهو الزكاة والتي شرعها الله طهراً ونماء للمال والنفس وسداً لخلة المساكين وقد بين رحمه الله تعالى الحكمة من شرع الزكاة فقال :

وما أحسن الزكاة وما تضمنته من مواساة ذوى الحاجات والمسكنة والخلّة من عباد الله الذين يعجزون عن إقامة نفوسهم ويخاف عليهم التلف اذ خلاهم الاغنياء وأنفسهم ، وما فيها من الرحمة ، والإحسان ، والبر ، والطهرة ، وايثار أهل الايثار والاتصاف بصفة الكرم والجود والفضل والخروج من سمات أهل الشح والبخل ، والدناءة فأمرها لا يسترِيب عاقل في حسنه ومصلحته وأن الآمر به أحكم الحاكمين (٣) .

وهذا من تمام الحكمة التي بها قيام مصلحة العالم فإن الله سبحانه وتعالى قسم خلقه الى غنى وفقير ولا تتم مصالحهم الا بسد خلّة الفقير ، فأوجب سبحانه في فضول أموال الاغنياء ما يسد به خلّة الفقراء (٤) .

---

(١) انظر كتاب الصلاة : ١٧١-١٨٥ وانظر مثله في كتابه شفاء العليل ٢٢٨

(٢) طريق الهجرتين : ٢١١

(٣) مفتاح دار السعادة : ٣٨٤

(٤) اعلام الموقعين : ٣٧/٢

ويقول في موضع آخر : والمقصود من الزكاة أمور عديدة :

منها سد خلة الفقير ، ومنها اقامة عبودية الله بفعل نفس ما أمر به ، ومنها شكر نعمته عليه في المال ، ومنها أحراز المال وحفظه باخراج هذا المقدار منه ومنها المواساة بهذا المقدار لما علم الله فيه من مصلحة رب المال ومصلحة الآخذ ومنها التعبد عند حدود الله وأن لا ينقص منها ولا يغير (١) .

فيتضح لنا مما تقدم أن الحكمة من شرع الزكاة لا تعود على سدّ خلة الفقير ومصلحته فقط بل هي في حق المخرج للزكاة أعظم وأفضل ومصلحته أكمل وأتم كما يقول رحمه الله :

وجعلها الله سبحانه وتعالى طهرة للمال وصاحبه وقيد النعمة به على الاغنياء فما زالت النعمة بالمال على من أدى زكاته ، بل يحفظه عليه وينميه له ويدفع عنه بها الآفات ويجعلها سوراً عليه وحصناً له وحارساً له (٢) .

وقال رحمه الله في معرض تعليقه على الحديث الذي رواه أحمد والترمذي وهو: (وأمركم بالصدقه ، فإن مثل ذلك مثلُ رجل أسره العدو فأوثقوا يده الى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال : أنا افتدي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم)(٣)

قال : هذا من الكلام الذي برهانه وجوده ، ودليله وقوعه ، فإن للصدقة تأثيراً عجيباً في دفع أنواع البلاء ، ولو كانت من فاجر أو ظالم ، بل من كافر ، فإن الله تعالى يدفع بها عنه أنواعاً من البلاء وهذا أمر معلوم عند الناس خاصّتهم وعامتهم وأهل الأرض كلهم مقرون به لأنهم جربوه .

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الصدقة تطفىء غضب الرب ، وتدفع ميتة السوء) (٤) ، وكما انها تطفىء غضب الرب تبارك وتعالى فهي تطفىء الذنوب والخطايا كما يطفىء الماء النار .

وفي تمثيل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بمن قدم ليضرب عنقه فافتدى نفسه منهم بماله كفاية فإن الصدقه تفدي العبد من عذاب الله تعالى فإن ذنوبه وخطاياه تقضي هلاكه فتجيء الصدقه تفديه من العذاب وتفكه منه .

ولما كان البخيل محبوساً عن الاحسان ممنوعاً من البر والخير ، كان جزاؤه من جنس عمله فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح ، ضيق العطن ، صغير النفس

---

(١) اعلام الموقعين : ٣٧/٢

(٢) زاد المعاد : ١٤٧/١

(٣) الوابل الصيب : ٢٢ ، الحديث رواه أحمد : ٢٠٢/٤ والترمذي برقم ٢٨٦ جـ ٨ ص : ٧٩

(٤) رواه الترمذي برقم ٦٦٤ جـ ٢٦/٣ كتاب الزكاة .

قليل الفرح ، كثير الهم والغم والحزن ، لا يكاد تقضى له حاجة ولا يعان على مطلوب .

والمتصدق كلما تصدق بصدقة انشرح لها قلبه ، وانفسح بها صدره ، فهو كلما تصدق اتسع وانفسح وانشرح ، وقوى فرحه ، وعظم سروره ولو لم يكن في الصدقه الا هذه الفائدة وحدها كان العبد حقيقاً بالاستكثار منها والمبادرة إليها (١)

ويظهر من هذه النصوص التي قدمناها استخدام ابن القيم لاسلوب الترغيب والترهيب وهو ما عرفناه باسلوب الموعظة الحسنة .

الحكمة في مقادير الزكاة

ثم بين رحمه الله كمال الشريعة الاسلامية ، التي بهرت العقول بحسنها وشهدة فطر العالم بحكمتها وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل ولا أكمل منها وأنه لو اجتمع عقلاء العالم جميعاً على أن يقترحوا شيئاً في هذا الباب لم يستطيعوا أن يقترحوا خيراً ممّا جاءت به هذه الشريعة وذلك لكمال هدية صلى الله عليه وسلم في الزكاة من حيث وقتها وقدرها ونصابها ومن تجب عليه ومصرفها التي تصرف فيه فيقول رحمه الله تعالى :

إن الشارع أوجب الزكاة مواساة للفقراء وطهرة للمال ، وعبودية للربّ ، وتقرباً إليه باخراج محبوب العبد له،وايثار مرضاته ، ثم فرضها،على أكمل الوجوه ، وانفعها للمساكين ، وأرفقها بأرباب الأموال ، ولم يفرضها في كل مال ، بل فرضها في الأموال التي تحتمل المواساة ويكثر فيها الربح والدرّ والنسل ولم يفرضها فيما يحتاج اليه العبد من ماله ولا غنى له عنه كعبيده وامائه ومركوبه وداره وثيابه وسلاحه بل فرضها في أربعة أجناس من المال : المواشي ، والزروع والثمار ، والذهب والفضة ، وعروض التجارة فإن هذه أكثر أموال الناس الدائرة بينهم وهي التي تحتمل المواساة دون غيرها .

ثم قسم كل جنس من هذه الاجناس بحسب حاله وإعداده للنماء إلى ما فيه زكاة،وما لا زكاة فيه،فقسم المواشي إلى قسمين سائمة ترعى بغير كلفة ولا مشقة ولا خسارة،فالنعمة فيها كاملة،والمنّة بها وافرة والنماء فيها كثير فخص هذا النوع بالزكاة ، والى معلوفة بالثمن أو عاملة في مصالح أربابها في دواليبهم وحروثهم وحمل أمتعتهم فلم يجعل في ذلك زكاة فهي كثيابهم وعبيدهم .

ثم قسم الزروع والثمار الى قسمين : قسم يجرى مجر السائمة من بهيمة الانعام في سقيه من ماء السماء بغير كلفة ولا مشقة فأوجب فيه العشر ، وقسم يسقى

---

(١) انظر الوابل الصيب : ٣٩ - ٤١

بكلفة ومشقة ولكن كلفته دون كلفة المعلوفة بكثير إذ تلك تحتاج إلى العلف كل يوم فأوجب فيه نصف العشر .

ثم قسم الذهب والفضة الى قسمين : أحدهما ما هو معد للثمنيه والتجارة به والتكسب ففيه الزكاة كالنقدين والسبائك ونحوها ، والى ما هو معد للانتفاع دون الربح والتجارة كحلية المرأه وآلات السلاح التي يجوز استعمال مثلها فلا زكاة فيها .

ثم قسم العروض إلى قسمين : قسم أعد للتجارة ففيه الزكاة وقسم أعد للقنيه والاستعمال فهو مصروف عن جهة النماء فلا زكاة فيه .

ثم لما كان حصول النماء والربح بالتجارة من أشق الاشياء جعل فيها ربع العشر ولما كان الربح والنماء بالزروع والثمار التي تسقى بالكلفة أقل كلفه وأيسر جعله ضعفه وهو نصف العشر ولما كان الركاز مالاً مجموعاً محصلاً وكلفة تحصيله أقل ولم يحتج إلى أكثر من استخراجه كان الواجب فيه ضعف ذلك وهو الخمس .

ولما لم يكن كل مال يحتمل المواساة قدّر الشارع لما يحتمل المواساة نصبا مقدرة لا تجب الزكاة في أقل منها ، ثم لما كانت النصب تنقسم إلى مالا يجحف المواساة ببعضه أوجب الزكاة منها ، وما يجحف المواساة ببعض جعل الواجب من غيره كما دون الخمس والعشرين من الإبل .

ثم لما كانت المواساة لا تحتمل كل يوم ولا كل شهر إذ فيه إجحاف بأرباب الأموال جعلها كل عام مرة .

واذا تأمل العاقل مقدار الزكاة وجده مما لا يضر المخرج فقده وينفع الفقير أخذه .

فانظر إلى تناسب الشريعة الكاملة التي بهر العقول حسنها وكمالها وشهدت الفطر بحكمتها وأنه لم يطرق العالم شريعة أفضل منها ، ولو اجتمعت عقول العقلاء وفطر الألبّاء واقترحت شيئا يكون أحسن مقترح لم يصل اقتراحها إلى ما جاءت به(١).

ودائماً ما نلاحظ منهج ابن القيم رحمه الله في الدعوة أن يوضح مقاصد الشريعة وتناسبها مما يوضح للعبد حسنها وكمالها ، الدال على حكمة وكمال من أنزلها ورأفة ورحمة بعباده وأنه لم يكلفهم ما لا يطيقون وأن مصلحة الخلق في اتباعها والالتزام بتشريعاتها وأنهم لن يجدوا في الدنيا مما أنتجته عقول العقلاء شيئاً يقاربها أو يوازيها في حسن سياستها للمجتمعات البشريه وتناسبها مع مصالحهم .

---

(١) انظر اعلام الموقعين : ١٠٩/٢ - ١١١ وانظر زاد المعاد : ٥/٢ - ٦

الركن الرابع الصيام

ثم تحدث رحمه الله عن الصوم وتأثيره والمقصود منه وحقيقته فقال :

اما الصوم فناهيك به من عبادة تكف النفس عن شهواتها ، وتخرجها من شبه البهائم إلى شبه الملائكة المقربين ، فإن النفس إذا خليت ودواعي شهوتها التحقت بعالم البهائم فإذا كفت شهوتها لله ضيقت مجاري الشيطان ، وصارت قريبة من الله تترك عاداتها وشهواتها محبة له وايثاراً لمرضاته وتقرباً إليه ، فيدع الصائم أحب الاشياء إليه ، وأعظمها لصوقاً بنفسه من الطعام والشراب ، والجماع من أجل ربه (١) .

ويقول رحمه الله تعالى : ولما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات وفطامها عن المألوفات وتعديل قوتها الشهوانية لتستعد لطلب ما فيه غاية سعادتها ونعيمها وقبول ما تزكو به مما فيه حياتها الابدية ويكسر الجوع والظمأ من حدتها وسورتها ويذكّرها بحال الأكباد الجائعة من المساكين وتحبس قوى الاعضاء من استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها .

فهو لجام المتقين وجنة المحاربين ورياضة الابرار والمقربين وهو لرب العالمين من بين سائر الاعمال فإن الصائم لا يفعل شيئاً وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثاراً لمحبة الله ومرضاته وهو سر بين العبد وربه،والعباد قد يطّلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة وأما كونه ترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده فهو أمر لا يطلع عليه بشر، (٢)

حقيقة الصوم

ثم يفسر رحمه الله تعالى حقيقة الصوم وأنه ليس كل من أمسك عن الطعام والشراب يعتبر صائماً فيقول :

والصائم هو الذي صامت جوارحه عن الآثام ، ولسانه عن الكذب والفحش وقول الزور ، وبطنه عن الطعام والشراب ، وفرجه عن الرفث .

فإن تكلم لم يتكلم بما يجرح صومه ، وإن فعل لم يفعل ما يفسد صومه فيخرج كلامه نافعاً صالحاً ، وكذلك أعماله ، وهذا هو الصوم المشروع لا مجرد الامساك عن الطعام والشراب .

ففي الحديث الصحيح : (من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل ، فليس

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٣٨٤/٢

(٢) انظر زاد المعاد : ٢٨/٢ - ٢٩

لله حاجة ، أن يدع طعامه وشرابه) (١) وفي الحديث : (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش) (٢) .

فالصوم هو صوم الجوارح عن الآثام ، وصوم البطن عن الشراب والطعام فكما أن الشراب والطعام يقطعه ويفسده ، فهكذا الأثام تقطع ثوابه وتفسد ثمرته فتصيره بمنزلة من لم يصم (٣) .

تأثير الصوم على العبد في الدنيا والآخره

ثم بين رحمه الله تعالى ما للصوم من تأثير على الصائم وما يعود به عليه من الخير في الدنيا والآخرة فيقول :

وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنه وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها واستفراغ المواد الرديئة المانعة له من الصحة ، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها ويعيد اليها ما استلبته منها أيدى الشهوات فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى : ((يا ايها الذين آمنو ا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون)) (٤) ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم :(الصوم جنه)(٥)

وأمر من اشتدت عليه شهوة النكاح ولا قدرة له عليه بالصوم وجعله وجاء هذه الشهوة (٦) .

وذكر رحمه الله تعالى تأثير الصوم وهو يتحدث عن الاغذية والادوية وذكر بعضاً من فوائده فقال :

منافعه تفوت الاحصاء وله تأثير عجيب في حفظ الصحة واذابت الفضلات وحبس النفس عن تناول مؤذياتها ، ولاسيما اذ كان باعتدال وقصد في أفضل أوقاته شرعاً وحاجة البدن اليه طبعاً ، ثم إن فيه من إراحة القوى والاعضاء ما يحفظ عليها قواها ، وفيه خاصية تقتضى إيثاره وهي تفريحه للقلب عاجلا وآجلا .

وهو يدخل في الادوية الروحانية والطبيعية واذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاته طبعاً وشرعاً عظم انتفاع قلبه وبدنه به (٧) .

---

(١) البخاري باب واجتنبوا قول الزور كتاب الادب رقم الباب ٥١، ج ٨٦/٧ والصيام ج ٢٢٨/٢

(٢) مسند الامام أحمد : ٣٧٣/٢

(٣) الوابل الصيب : ٣٣

(٤) سورة البقره : ١٨٣

(٥) مسلم كتاب الصيام باب فضل الصيام رقم ١٦٢ الرقم العام ١١٥١

(٦) زاد المعاد : ٢٨/٢

(٧) زاد المعاد : ٣٣٤/٤

وقال في تعليقه على قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (وأمركم بالصيام فان مثلَ ذلك مثلُ رجل في عصابة معه صرة فيها مسك ، فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ، وان ريح الصيام أطيب عند الله من ريح المسك) (١) .

قال بعد أن ذكر الخلاف في وجود هذه الرائحة من الصائم هل هي في الدنيا أو في الآخره :

وفصل النزاع في المسأله أن يقال : حيث أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن ذلك الطيب يكون في يوم القيامة (٢) فلأنه الوقت الذي يظهر فيه ثواب الأعمال وموجباتها من الخير والشر ، فيظهر للخلق طيب ذلك الخلوف على المسك كما يظهر فيه رائحة دم المكلوم في سبيله كرائحة المسك ، وكما تظهر فيه السرائر وتبدو على الوجوه وتصير علانية ويظهر فيه قبح رائحة الكفار وسواد وجوههم وحيث أخبر بأن ذلك حين يخلف وحين يمسون (٣) فلأنه وقت ظهور العبادة، ويكون حينئذ طيبها على ريح المسك عند الله تعالى وعند ملائكته ، وإن كانت تلك الرائحة كريهة للعباد ، فربّ مكروه عند الناس محبوب عند الله تعالى ، وبالعكس فإن الناس يكرهونه لمنافرته طباعهم ، والله تعالى يستطيبه ويحبه لموافقته أمره ورضاه ومحبته فيكون عنده أطيب من ريح المسك عندنا ، فإذا كان يوم القيامة ظهر هذا الطيب للعباد ، وصار علانيةً وهكذا سائر الاعمال من الخير والشر (٤)

ومن خلال هذا العرض يتضح منهج ابن القيم التربوي الذي ينص على أن العبادة هي المقوّم الحقيقي لسلوك الانسان وهي التي تميزه في هذا السلوك عن شبه البهائم وتنقله إلى أن يكون شبيها بالكمّل من خلق الله ، وهذا ما يمثله الصوم : فترك عادات النفس ولذتها ومحابها ايثاراً لمرضات الله من أعظم ما يربى النفس ويزكيها ويسعدها وذلك بما يحصل لها من الترك والحبس الذي يكسر سورتها وشهوتها وحدتها ويذكرها بالضعفاء والمساكين ، وحبس النفس عن الاسترسال لحكم الطبيعة الذي يجرها في الغالب إلى الهلاك ، فالصوم كالمروض للنفس .

ناهيك عن الفوائد الصحية والتي شهد بها كل العقلاء من اطباء العالم .

---

(١) رواه الترمذي برقم : ٢٨٦ جـ ٧٩/٨ ، وأحمد في المسند : ٢٠٢/٤

(٢) يشير الى قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي روى في الصحيحين (قال الله تبارك وتعالى ، كل عمل ابن آدم له ، إلا الصيام فإنه لي وانا أجزى به والذي نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله يوم القيامة من ريح المسك) اللفظ لمسلم رقم ١١٥١ باب فضل الصيام جـ ٨٠٦/٢ كتاب الصيام .

(٣) يشير الى قول النبي صلى الله عليه وسلم : (ولخلوف فم الصائم حين يخلف من الطعام اطيب عند الله من ريح المسك) وهو صحيح وهو بنحوه عند مسلم رقم ١١٥١

(٤) الوابل الصيب : ٣٧ - ٣٨

الركن الخامس : الحج

بعد أن تحدثنا عن أركان الإسلام الاربعة السابقة وبيّنا ما فيها من حِكم تشريع وغير ذلك ، بقي أن نتحدث عن الركن الخامس من أركان الاسلام وهو الحج ونبين وجوبه والحكمة من تشريعه وفضائل البيت وبركته على ضوء ما قدمه لنا ابن القيم رحمه الله تعالى فيقول عن قوله تعالى :

((ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا)) (١) :

حج البيت مبتدأ وخبره في احد المجرورين قبله والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله على الناس لأنه وجوب والوجوب يقتضي على ويجوز أن يكون في قوله ولله لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق وعلى هذا قضى تقديم المجرور الأول فائدتان أحداهما أنه اسم للموجب للحج فكان أحق بالتقديم من ذكر الواجب فتضمنت الآية ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع احداهما الموجب لهذا الغرض فبدىء بذكره والثاني مؤدى الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس ، والثالث النسبة والحق المتعلق به ايجاباً وبهم وجوباً وأداءً وهو الحج ، الفائدة الثانيه : أن الاسم المجرور من حيث كان اسماً لله سبحانه وجب الاهتمام بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه وتخويفاً من تضييعه اذ ليس ما أوجبه الله سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره (٢)

ثم أتى رحمه الله بعشرة أوجه من هذه الاية تدل على وجوب الحج فقال :

وفي الحج أُتِيَ بهذا النظم الدّال على تأكيد الوجوب من عشرة أوجه :

وهي : أنه قدم اسمه تعالى وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجبه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف على ثم أبدل منه أهل الاستطاعة ثم نكّر السبيل في سياق الشرط ايذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسر ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال ((ومن كفر)) اى بعد التزام هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكّد الوعيد بأخباره باستغنائه عنه ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عموماً ثم أكّد هذا باداة إن الدالة على التوكيد فهذه عشرة أوجه تدل على تأكيد هذا الفرض العظيم (٣) .

ويقول رحمه الله في معرض حديثه عن هذه الأية :

ثم تأمل كيف افتتح هذا الايجاب بذكر محاسن البيت وعظّم شأنه بما يدعو النفوس الى قصده وحجه وإن لم يطلب ذلك منها فقال : ((إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين ، فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمناً)) (٤)

---

(١) سورة آل عمران : ٩٧ (٢)، (٣) انظر بدائع الفوائد : ٤٥/٢

(٤) الايات من سورة آل عمران : ٩٦ - ٩٧

فوصفه بخمس صفات ، أحداها بأنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض ، الثاني أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا أدوم ولا أنفع للخلائق ، الثالث أنه هدى ووصفه بالمصدر مبالغة حتى كأنه نفس الهدى ، الرابع ما تضمنه من الايات البينات ، الخامس الأمن لداخله وفي وصفه بهذه الصفات دون ايجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطّت بالزائرين الديار وتنائت بهم الاقطار ، وهذا يدلك على الاعتناء منه سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه والرفعة من قدره ، ولو لم يكن له شرف الا إضافته اياه الى نفسه بقوله : ((وطهر بيتي للطائفين)) (١) لكفى بهذه الاضافة فضلاً وشرفاً ، وهذه الاضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه وسلبت نفوسهم حباً له وشوقاً الى رؤيته فهو المثابه للمحبين يثوبون إليه ولا يقضون منه وطراً أبداً كلما ازدادوا له زيارة ازدادوا إليه حباً وإليه اشتياقاً، فلا الوصال يشفيهم ولا البِعَادَ يسليهم (٢) . .

الحكمة من تشريع الحج

ثم بين رحمه الله شأن الحج ومكانته واسراره فيقول :

وأما الحج فشأن آخر لا يدركه الا الحنفاء الذين ضربوا في المحبه بسهم وشأنه أجلّ من أن تحيط به العبارة ، وهو خاصة هذا الدين الحنيف حتى قيل في قوله تعالى :((حنفاء لله غير مشركين به)) (٣) أي حجاجاً ، وجعل الله بيته الحرام قياماً للناس ، فهو عمود العالم الذي عليه بناؤه فلو ترك الناس كلهم الحج سنة لخرت السماء على الأرض ، هكذا قال ترجمان القرآن ابن عباس ، فالبيت الحرام قيام العالم فلا يزال قياماً ما زال هذا البيت محجوجاً ، فالحج هو خاصة الحنفية ومعونة الصلاة ، وهو استزارة المحبوب لأحبابه ، ولهذا اذا دخلوا في هذه العبادة فشعارهم " لبيك اللهم لبيك " إجابة مُحِب لدعوة حبيبه ، وأما أسرار ما في العبادة من الاحرام ، واجتناب العوائد ، وكشف الرأس ونزع الثياب المعتادة ، والطواف والوقوف بعرفه ، ورمي الجمار ، وسائر شعائر الحج فمما شهدت بحسنه العقول السليمه والفطر المستقيمة وعلمت بأن الذي شرع هذه لا حكمة فوق حكمته (٤) ،(٥) .

---

(١) الاية من سورة الحج : ٢٦

(٢) بدائع الفوائد : ٤٥/٢ - ٤٦

(٣) الاية من سورة الحج : ٣١

(٤) انظر مفتاح دار السعاده : ٣٨٥ - ٣٨٦

(٥) انظر القصيدة المسماه ص : ٥٣ وما بعدها فقد ذكر اسرارا في البيت ونكد والحج .

الفصل الثاني : أهداف الدعوة عند ابن القيم

تمهيد

المبحث الأول : سيادة شرع الله

المبحث الثاني : تقرير مذهب السلف الصالح

المبحث الثالث : تربية الأمة المسلمة

تمهيد :

لاشك أن لكل دعوة من الدعوات بصرف النظر عن شرعيتها وعدم شرعيتها أهدافا تسعى إلى تحقيقها ، وتحقيق هذه الاهداف هو الطريق الموصل إلى الغاية المنشودة من وراء هذه الدعوة ، وكل عمل بلا أهداف يحكم عليه بالفشل مسبقا ، لأنك تسعى إلى لا شيء والى غير غاية .

أما إذا وضعت الأهداف أمامك استطعت أن ترسم لها الخطة المناسبة التي توصلك إلى غايتك بأقرب الطرق وأسرعها إلى تحقيق الغاية متصورا جميع العقبات التي تقف أمام تحقيق الغاية وواضعا لها الحلول المناسبة التي تمهد لك الطريق وتقربك من الغاية .

وهي كالخطة التي يضعها القائد في المعركة قبل أن يخوضها ، بمعرفة خصمه وقوته وعدد جنده والسلاح الذي بحوزته وحصونه ، حتى يتمكن من الوصول الى غايته بأسرع وقت وبأقل خسائر في الجند والمعدات .

وهكذا فكل دعوة لا بدّ لها من أهداف ترمي الوصول إلى تحقيقها من أجل الوصول إلى الغاية المنشودة .

والمتتبع لابن القيم رحمه الله في دعوته الى الله من خلال كتبه التي بين أيدينا ومن خلال ما كتب عنه يستطيع أن يصل الى أنه يسعى لتحقيق أهداف رئيسية ودعائم قوية **وأولها** : سيادة شرع الله تعالى وهو المطلب الاساسي لدعوته ، **وثانيها** : أن تكون هذه السيادة قائمة على ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح ، **وثالثها** : تربية هذه الامة المسلمة على هذا الاساس - أعني الهدف الاول والثاني - ونبذ كل ما يخالف ما جاء عنهم مما لا يتفق معه .

وجميع هذه الأهداف ترمي الى الغاية المنشوده وهي الله : رضاه والجنة وابن القيم رحمه الله تعالى كغيره من الدعاة المخلصين لهذا الدين والذين جعلوا نصب أعينهم تحقيق الهدف النبيل وهو سيادة شرع الله وهو اساس الدعوة والدين كله ، وهو الهدف الذي من أجله ارسلت الرسل وأنزلت الكتب وخلق الانس والجن والجنه والنار وهو الهدف الذي قامت به دول وارتفعت وهلكت به أمم وذلت ، لذلك نرى ابن القيم يركز على تحقيق هذا الهدف بكل ما أعطاه الله من قوة بصيرة وحكمة كي يبصر الناس بجمال هذا الشرع وما يتمتع به من مصالح للعباد ، حتى ينتشر في أرض الله كما أراد الله .

المبحث الأول : سيادة شرع الله

سيادة شرع الله في الأرض هدف عظيم سعى ابن القيم رحمه الله اليه والى تحقيقه ونشره بين العباد ، وقدم الى ما قدّم رحمه الله وترك لنا آثاره فيما كتبه من كتب تبين لنا المنهج الذي سار عليه من أجل الوصول إلى هذا الهدف.

فمن يقرأ بعضاً من مؤلفاته في مباحث العقائد ، والفقه يلمس منه نفساً شفافة لها بصر وعناية بتفهم مقاصد الشريعه ومحاسنها ، وحكمة الاحكام وأسرارها بما يكفي ويشفي ويجعل النفس في راحة وانشراح لما يبينه ويقرره من ذلك وأن هذا هو ما تقتضيه أصول الشريعة المحمدية ، ويوافق روح التشريع .

وهذا من أعظم الأسرار في تفوقه في الدعوة على غيره ومن أبرز خصائصه في التأليف بين معاصريه فمن بعدهم وله من المباحث العميقة المستقلة في بيان مقاصد التشريع ما يبعث الدهشة ويشد أصرة الإيمان ويدل على موهبة نادرة وتذوق علمي دقيق .

ولولعه رحمه الله بهذا المنهج أطنب في ذكره في أربعة كتب من مؤلفاته[1] وتمنى من الله المان بفضله أن يفرد كتاباً في محاسن الشريعة الاسلاميه (٢) .

وهذا منهج عظيم في الهداية والاقناع ، فإن الدين الإسلامي يقوم على الاقناع العقلي وحرية الاختيار لذلك يقول الرب تبارك وتعالى : ((لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي))[3] فلا يجوز للداعية أن يكره أحداً على الدخول في الاسلام فلعلمه سبحانه بكمال دينه الذي نزل به الروح الأمين على النبي صلى الله عليه وسلم ، وأنه من الكمال ما يحمل أصحاب العقول السليمة على تقبله والخضوع له ولسلطانه رضا ومحبة .

فلما رأى ابن القيم أن الناس قد تخبطوا في معرفة مقاصد الشرع والحكمة من هذا الشرع وأن بعضهم أنكر الحكمة من شرع الله وعرف ما في ذلك من تنقيص ومذمة لله تعالى ولشريعته السمحة ، وأنهم لم يدركوا مراد الرب سبحانه وأنه لم ينفتح لهم باب الايمان بالله لعدم معرفتهم ذلك .

---

(١) ذكر ذلك ابن القيم في جزء كبير من كتاب مفتاح دار السعادة ، وكتاب شفاء العليل ، وكتاب اقسام القرآن ، واعلام الموقعين ، يقول ابن القيم :
عسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيساعد على تعليق كتاب يتضمن ذكر بعض محاسن الشريعه وما فيها من الحكم البالغه والاسرار الباهرة التي هي من أكبر الشواهد على كمال علم الرب وحكمته ورحمته - بدائع الفوائد : ١٧٩/٢

(٢) ابن قيم الجوزيه حياته وآثاره بتصرف قليل : ٦٥ - ٦٦

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٥٦

شمر عن ساعديه وأخذ في بيان مقاصد الشريعة والحكمة من التشريعات الألهيه التي تفند أقوال هؤلاء الضالين ، وتبعث روح الايمان واليقين بالله وشرعه القويم .

وهذا منهج في الدعوة كبير الأثر في الناس فمن كان كافراً رده إلى الإسلام إن كان ذا بصيرة وعقل أما اذ كان مسلماً أدخله في درجة الإيمان ومن كان مؤمناً زاده إيماناً إلى إيمانه ونقله إلى درجة الإحسان .

وهذا هدف ابن القيم رحمه الله من ناحية شرع الله وتحقيقه في الناس فاما كافر يسلم واما مسلم ينتقل الى درجة الايمان ، وأما مؤمن ينتقل الى درجة الاحسان وهي أعلى الدرجات في الدين .

وذلك لا يكون الا بمعرفة هذا الشرع وأسراره ومبانيهومقاصده .

مقاصد شرع الله

أولاً : عبادة الله وحده :

سر هذه الشريعة وركيزتها التي بنيت عليها ،عبادة الله وحده لا شريك له قال تعالى : ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) (١) ، يقول ابن القيم رحمه الله عند تفسير قوله تعالى : ((إياك نعبد وإياك نستعين)) :

وسر الأمر والخلق والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب : انتهى الى هاتين الكلمتين ، وعليهما مدار العبودية والتوحيد حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب : جميع معانيها في التوراة والانجيل والقرآن ، وجميع معانى هذه الكتب الثلاثة في القرآن ، وجميع معانى القرآن في المفصل ، وجميع معانى المفصل في الفاتحه ومعانى الفاتحه في ((إياك نعبد ، وإياك نستعين)) (٢) .

ثم بين رحمه الله تعالى أن جميع الرسل عليهم السلام كانت دعوتهم إلى ((إياك نعبد وإياك نستعين)) فقال :

فإنهم كلهم دعوا الى توحيد الله وعبادته من أولهم الى آخرهم فقال نوح لقومه : ((أعبدوا الله ما لكم من إلٰه غيره)) (٣) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وابراهيم (٤) قال الله تعالى : ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت)) (٥) وقال : ((وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه

---

(١) الاية من سورة الذاريات : ٥٦

(٢) تفسير سورة الفاتحه : ٦١

(٣) سورة الاعراف : ٥٩

(٤) الاعراف : ٦٥ - وهود : ٦١ - وهود : ٨٤

(٥) سورة النحل : ٣٦

أنه لا إله إلا أنا فاعبدون)) (١) ، ثم بين رحمه الله أن وصف العبودية هو أكمل وصف وصف الله به خلقه وهو وصف أكرم خلقه وأقربهم إليه وهم أنبياؤه ورسله وملائكته وعباده المصطفين ، قال تعالى :((لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون))(٢) وقال :((واذكر عبدنا داود))(٣) وقال :((واذكر عبدنا أيوب))(٤) وقال :((واذكر عبادنا ابراهيم واسحاق ويعقوب))(٥) وقال عن سليمان :((نعم العبد إنه أواب))(٦) وقال :((وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا))(٧) وقال :((تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده))(٨)، الى غير ذلك من الايات والشواهد الدالة على عظم العبودية وأنها روح هذا الشرع وسره الذي لا يمكن أن تتحقق هذه الشريعة الا به .

ثم يعرف رحمه الله تعالى معنى العبادة والاستعانة فيقول :

العبادة تجمع أصلين : غاية الحب (٩) بغاية الذل والخضوع .

والعرب تقول طريق معبد أي مذلل ، والتعبد : التذلل والخضوع ، فمن احببته ولم تكن خاضعاً له لم تكن عابداً له ، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً (١٠) .

والاستعانة : تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه (١١) .

وقد سبق الحديث عن العبادات وانها ثمرة الايمان ، وبينا الحاجة إليها والحكمة منها ويجدر بنا هنا أن نذكر أعظم هذه العبادات وهي ما جمعت في الحديث الذي يرويه عمر بن الخطاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم ، اذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ، وقال: يامحمد أخبرني عن الاسلام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة،

---

(١) سورة الانبياء : ٢٥
(٢) سورة النساء : ١٧٢
(٣) سورة ص : ١٧
(٤) سورة ص : ٤١
(٥) سورة ص : ٤٥
(٦) سورة ص : ٣٠
(٧) سورة البقره : ٢٣
(٨) سورة الفرقان : ١
(٩) سبق أن تحدثنا في الفصل الأول عن المحبة واشتقاقها وعلاماتها وغير ذلك ص ٧٥
(١٠) تفسير سورة الفاتحه : ٦١
(١١) نفس المرجع : ٦٢

وتصوم رمضان ، وتحج البيت ، إن استطعت إليه سبيلا) قال : صدقت فعجبنا له يسأله ويصدقه ، قال : فأخبرني عن الايمان ؟ قال : (أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره) قال صدقت ، قال : فأخبرني عن الاحسان ؟ قال :(أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) قال : فأخبرني عن الساعه ؟ قال : (ما المسئول عنها بأعلم من السائل) قال فأخبرني عن إماراتها ؟ قال :(أن تلد الامة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان) قال: ثم انطلق ، فلبثت مليا ، ثم قال لي :(ياعمر ! أتدرى من السائل ؟) قلت: الله ورسوله أعلم قال : (إنه جبريل ، أتاكم يعلمكم دينكم) (١) .

قال القاضي عياض رحمه الله (٢) هذا الحديث قد اشتمل على شرح جميع وظائف العبادات الظاهره والباطنة ، من عقود الإيمان وأعمال الجوارح وإخلاص السرائر والتحفظ من آفات الأعمال ، حتى أن علوم الشريعة كلها راجعة إليه ومتشعبة منه (٣).

والمقصود أن مبنى الشريعة موقوف على (تعريف مواقع رضي الله وسخطه في حركات العباد الاختيارية فمبناها على الوحى المحض)(٤) لذلك لا يكون العبد محققا للعبادة الا بأصلين عظيمين :

أحداهما : متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثاني : الاخلاص للمعبود .

وأهل الاخلاص والمتابعة هم أهل ((اياك نعبد)) حقيقة فأعمالهم كلها لله وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله فمعاملتهم ظاهرا وباطنا لوجه الله وحده ، لا يبتغون بذلك من الناس جزاء ولا شكورا ، فإذا عرف

---

(١) رواه مسلم كتاب الايمان رقم الحديث ٨ ج ١/٣٧

(٢) ابو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى البستى عالم المغرب وامام أهل الحديث في وقته كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم ولى قضاء سبته ثم قضاء غرناطه وتوفى بمراكش مسموما سنة ٥٤٤هـ رحمه الله تعالى له عدة مصنفات أشهرها الشفا بتعريف حقوق المصطفى ، وترتيب المدارك ، وشرح صحيح مسلم ، انظر : ابن خلكان : وفيات الاعيان ١/٣٩٢ ط ١٢٩٩هـ بولاق القاهره .
وانظر عنه بتوسع : شهاب الدين أحمد بن محمد المقرىء التلمسانى ، في أزهار الرياض في اخبار عياض ، تحقيق مصطفى السقا وغيره : ١/٢٣ منشورات المعهد الخليفى للأبحاث المغربيه ط ١٣٥٨هـ لجنة التأليف والنشر والترجمه القاهره .

(٣) من حاشية صحيح الامام مسلم ج ١/٣٧ للنووى

(٤) مفتاح دار السعاده : ٣٨٣

الله وعرف الناس آثار معاملة الله على معاملتهم وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ، ولما يحبه ويرضاه ، وهذا هو العمل الذي لا يقبل الله من عامل سواه ، وهو الذي بلى عباده بالموت والحياة لأجله ، قال تعالى :((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)) (١) .

قال الفضيل بن عياض (٢): هو أخلصه وأصوبه ، قالوا : يا أبا علي: ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل ، وإذ كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً ، والخالص: ما كان لله ، والصواب : ماكان على السنة وهذا هو المذكور في قوله تعالى : ((فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً)) (٣)(٤) ، والعبودية كما يقول ابن القيم مبنية على أربعة قواعد هي:

التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح فالعبودية اسم جامع لهذه المراتب الأربع فأصحاب((إياك نعبد)) حقاً هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وقول اللسان : الاخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره .

وعمل القلب : كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه ، والرجاء له ، واخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه ، وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه والمعادات فيه ، والذل له والخضوع والاخبات إليه ، والطمأنينه به وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح .

وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات

---

(١) سورة الملك : ٢

(٢) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي شيخ الحرم المكي من أكابر العباد الصلحاء كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه خلق كثير منهم الامام الشافعي رحمه الله توفى في مكه سنة ١٨٧هـ رحمه الله ، انظر : الكاشف:٣٨٦/٢ الذهبي : تذكرة الحفاظ ٢٤٥/١ دار الباز مكه بدون تاريخ وحلية الأولياء ٨٤/٨ سراج الدين عمر بن علي بن الملقن طبقات الأولياء تحقيق نور الدين شربيه ص : ٢٦٦ ط الأولى ١٣٩٣هـ مكتبة الخانجي القاهره ، وفيات الأعيان : ٤١٥/١

(٣) سورة الكهف : ١١٠

(٤) انظر تفسير سورة الفاتحه ص : ٦٩ - ٧٠

ومساعدة العاجز ، والاحسان الى الخلق ونحو ذلك (١) .

ومما سبق يتضح أن مقصد الشريعة الأول هو عبادة الله وحده ، وأن هذه العبادة منقسمة على القلب ، والجوارح ، وعمل القلب أفرض من أعمال الجوارح لتوقفها على عمل القلب فإنه هو الدافع إليها وهو الذي يتوقف قبول عمل الجوارح على صلاحه وفساده فإن كان صالحا قبل عمل الجوارح والا ردّ عليه وحبط عمله .

المقصد الثاني : تحقيق مصالح العباد :

إن المستقرئ لنصوص الشريعة السمحة يجد أنها تدل على تحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد والأضرار عنهم في العاجل والآجل ، فتكون بذلك من النعم التي أنعم الله بها على عباده كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى حيث يقول :

إن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد (٢).

وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه ولو نظرنا الى نصوص الشريعة لوجدناها تدل على ذلك ونكتفي بقوله تعالى :((وما ارسلناك إلا رحمة للعالمين)) (٣) .

وهذه الرحمة تلاحظ في أن شريعة الله : عدل كلّها ، ورحمة كلّها ، ومصالح كلّها ، وحكمة كلّها ، فكل مسألة خرجت عن العدل الى الجور ، وعن الرحمة الى ضدها ، وعن المصلحة الى المفسده وعن الحكمة الى العبث ، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل .

فالشريعة عدل الله بين عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه وحكمته الدالة عليه وعلى صدق رسوله صلى الله عليه وسلم أتم دلالة وأصدقها (٤) .

فإن ابن القيم رحمه الله يوجه المدعو الى تأمل الشريعة والنظر في مقاصدها ومحاسنها والحكم من تشريعاتها ، فإنه سيجد أنها بلغت الكمال الذي لن تقترح عقول العقلاء مثله ولا يمكن أن يأتوا بشريعة تحقق مصلحة العباد وسعادتهم في الدارين مثلها ، ولا الشرائع السماوية السابقة فيقول :

إذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية ، والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كمالها ولا يدرك الوصف حسنها ، ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت ، وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها ، وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له ، والحجة

---

(١) تفسير سورة الفاتحه : ص ٨٧

(٢) اعلام الموقعين : ١/٣

(٣) سورة الانبياء : ١٠٧

(٤) اعلام الموقعين : ١/٣

والمحتج لـه ، والدعوى والبرهان ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية وشاهداً على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكمال العلم والحكمة ، وسعة الرحمة والبر والاحسان .

وأنها من أعظم النعم التي أنعم الله بها على عباده فلهذا امتن الله على عباده بأن هداهم لها بقوله : ((لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)) (١) ، وقال تعالى : ((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا))(٢) .

وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام ايذاناً في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجاً عن الحكمة بوجه (٣) .

وقد بين رحمه الله أن سبب الانحراف في المجتمعات الانسانيه وتدهورها ، وانحلالها من اضاعة هذه الشريعة ، وأن ما يوجد في هذه المجتمعات من لذة وسعادة فمنها وبسببها ، ولولا هذه الرسوم الباقية ، من هذه الشريعة ، وقيام البعض من البشر بها لله وحده لأصاب العالم كارثة تنهيه عن الوجود ، ولكن هذه الرسوم هي التي تحمي العالم بفضل الله ومنته كما يقول رحمه الله :

بها الحياة والغذاء والدواء والنور والشفاء والعصمة ، وكل خير في الوجود فانما هو مستفاد منها ، وحاصل بها ، وكل نقص في الوجود فسببه من إضاعتها ولولا رسوم قد بقيت لخربت الدنيا وطوى العالم وهي العصمة للناس وقوام العالم وبها يمسك الله السموات والارض أن تزولا ، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى خراب الدنيا وطي العالم رفع إليه ما بقي من رسومها .

فالشريعة التي بعث الله بها رسوله هي عمود العالم ، وقطب الفلاح والسعادة في الدنيا والأخرة (٤) ، ويقول :

فليس الناس قط الى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والقيام به ، والدعوة إليه والصبر عليه وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه وليس للعالم صلاح بدون ذلك ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز

---

(١) سورة آل عمران : ١٦٤

(٢) سورة المائده : ٣

(٣) انظر مفتاح دار السعاده : ٣٧٤ - ٣٧٥

(٤) اعلام الموقعين : ١/٣

الأكبر الا بالعبور على هذا الجسم (١) .

وفي هذا توجيه للدعاة أن يسيروا على هذا المنهج وهو توضيح ما حوته الشريعة من مصالح للعباد ، وأنها هي المنقذ للبشرية من هاوية البؤس والشقاء ويوضح لهم ذلك بالأمثله من هذه الشريعة .

اهباط آدم عليه السلام لتحقيق هذين المقصدين :

إن لابن القيم رحمه الله أسلوبه المميز في الدعوة إلى الله تعالى وذلك عندما نراه يتحدث عن الحكم الالهية في الخلق والتدبير والأمر والنهي .

وابن القيم رحمه الله في إسلوبه هذا وهو يبين لنا الحكمة في تدبير الله عز وجل في إهباط آدم عليه السلام من الجنة وذلك لتحقيق أمور وحكم عديدة أرادها الله سبحانه وتعالى .

من هذه الأمور تكليف آدم وذريته بشرائعه السمحة التي يأمر بها على السنة رسله عليهم السلام التي تتضح فيها المقاصد الكريمة في مصلحة العباد وكيف أنه سبحانه وتعالى أعطى آدم وذريته خيراً مما منعهم منه الى غير ذلك من الحكم الباهرة التي تعجز عقول البشر عن إدراكها كما سنسوق بعضاً منها إن شاء الله تعالى ، توضح لنا الحكمة من إنزال آدم عليه السلام وهي الحكم بالشريعة وعبادة الله وحده وهذه هي مناسبة ذكر هذا المطلب في هذا الفصل .

فيقول رحمه الله تعالى : إن الله سبحانه لما أهبط آدم أبا البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها ، فكان اهباطه منها عين كماله ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وأوصابها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخره .

فإن الضد يظهر حسنه الضد ، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها ، وايضاً فانه سبحانه أراد أمرهم ونهيهم وابتلاءهم واختبارهم ، وليست الجنة دار تكليف ، فأهبطهم إلى الأرض وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي (٢) .

وأيضاً فإنه سبحانه أراد أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يحبهم ويحبونه فخلاً بينهم وبين اعدائه وامتحنهم بهم ، فدرجة الرسالة والنبوة والشهادة

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٣٨٣

(٢) نفس المرجع : ٦

والحب فيه والبغض فيه عنده من أفضل الدرجات ، ولم يكن ينال هذا إلا على الوجه الذي قدره وقضاه ، ثم بين رحمه الله تعالى أن لله الاسماء الحسنى مثل الغفور الرحيم ، الخافض ، المعز ، المذل ، المحي ، المميت ، ولابدّ من ظهور آثار هذه الاسماء فاقتضت حكمته أن ينزل آدم وذريته داراً يظهر فيها أثر هذه الاسماء الحسنى فيغفر فيها لمن يشاء ويرحم من يشاء ويعزّ من يشاء إلى غير ذلك من ظهور أثر أسمائه وصفاته .

ويذكر منها كذلك أن الله سبحانه أنزلهم الى دار يكون الإيمان فيها بالغيب هو الإيمان النافع وأما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامه ، وأيضاً فإن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فيها الطيب والخبيث ، فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره فأنزله إلى دار يستخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه وجعل لكلٍ داره إما دار الشقاء وإما دار النعيم كما قال تعالى : ((ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون))(١).

وأيضا فإنه سبحانه اقتضت حكمته خلق آدم وذريته من تركيب مستلزم لداعي الشهوة والفتنة وداعي العقل والعلم فاقتضت حكمته أن أذاق أباهم وبيل مخالفته وعرّفه ما يجني إجابة الشهوة والهوى ليكون أعظم حذراً وأشد هروباً ، فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم ، فاستعدوا له وأخذوا أهبته.(٢)

وهكذا يستطرد ابن القيم رحمه الله تعالى في ذكر الحكم واحدة تلو الأخرى وسنزيد في ذكر بعض الحكم التي ذكرها ابن القيم والتي تدل على أنه سبحانه أراد من هذا الأمر تكليف آدم وذريته بشرائعه التي تعبدهم بها وإن كان ما سبق من الحكم تدل على ذلك صراحة أو ضمناً .

فيقول رحمه الله تعالى : فإنه سبحانه الملك الحق المبين ، والملك هو الذي يأمر وينهى ويثيب ويعاقب ويعز ويذل فاقتضى ملكه سبحانه ذلك (٣) .

وايضاً فإنه سبحانه خلق الخلق لعبادته ، وهي الغاية منهم قال تعالى:((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) (٤) ومعلوم أن كمال العبودية المطلوب من الخلق لا يحصل في دار النعيم (٥) .

---

(١) سورة الانفال : ٣٧

(٢) انظر مفتاح دار السعادة : ٦ - ١٠

(٣) نفس المرجع : ٧

(٤) الآية من سورة الذاريات : ٥٦

(٥) مفتاح دار السعادة : ٩

وأيضا فإنه سبحانه لا شيء أحب إليه من العبد من تذلله بين يديه وخضوعه وافتقاره وانكساره ومعلوم أن هذا المطلوب من العبد إنما يتم بأسبابه التي تتوقف عليها وحصول هذه الاسباب في دار النعيم المطلق والعافية الكاملة يمتنع إذ هو مستلزم للجمع بين الضدين .

وأيضا فإنه سبحانه له الخلق والأمر ، والأمر هو شرعه وأمره ودينه الذي بعث به رسله وأنزل به كتبه وليست الجنه دار تكليف تجرى عليهم فيها أحكام التكليف(١)

وايضا فإن الله سبحانه جعل عبوديته أفضل درجاتهم - أعني العبودية الاختيارية التي يأتون بها طوعا واختيارا لا كرها واضطرارا - .

والنبي صلى الله عليه وسلم عبدا نبيا فذكره سبحانه باسم عبوديته في أشرف مقاماته : في مقام الاسراء ، ومقام الدعوة ، ومقام التحدى ، فقال تعالى: ((سبحان الذي أسرى بعبده ليلا))(٢) ، وقال : ((وأنه لما قام عبدالله يدعوه))(٣) ، وقال : ((وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا))(٤) .

فلم يقل برسوله ولا نبيه اشارة إلى أنه قام هذا المقام الأعظم بكمال عبوديته لربه واذ كانت العبودية عند الله بهذه المنزله اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته دارا ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله (٥) .

ومن تعداد هذه الحكم يتبين لنا أن الله سبحانه وتعالى أهبط آدم وذريته لتجرى عليهم أحكامه وشرائعه التي أرسل بها رسله عليهم السلام وأمرهم باقامتها والعمل بها وهي - اعني هذه الشرائع - نِعَمٌ أنعم الله بها على عباده وهي تقصد أولا وآخرا مصالح العباد في العاجل والآجل .

يقول ابن القيم رحمه الله : ولما أهبطه سبحانه من الجنه وعرّضه وذريته لأنواع المحن والبلاء أعطاهم أفضل مما منعهم ، وهو عهده الذي عهده إليه والى بنيه ، وأخبر أنه من تمسك به منهم صار إلى رضوانه ودار كرامته قال تعالى عقب أخراجه منها : ((قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)) (٦) .

---

(١) مفتاح دار السعاده : ١١ - ١٢

(٢) سورة الاسراء : ١

(٣) سورة الجن : ١٩

(٤) البقره : ٢٣

(٥) مفتاح دار السعادة بتصرف : ٨ - ٩

(٦) سورة البقره : ٣٨

وفي الأية الاخرى قال :((اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ، قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا ، قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى)) ((١)،(٢) .

والمقصود أنه سبحانه أعاضهم أفضل منها وهو ما أعطاهم من العهد الذي جعله سببا موصلا إليه سبحانه ولا يمكن أن تتم مقاصد الشريعه الا باتباع هذا الهدى الذي أنزله سبحانه وتعالى .

المطلب الثاني : ما هو شرع الله :

شرع الله هو دينه ودينه هو شرعه الذي ارتضاه لعباده وأمرهم باتباعه وعدم الميل عنه وهو الاسلام يقول ابن القيم عن دين الله :

واما دينه فهو شرعه المتضمن لأمره ونهيه ومحابه (٣)، وقال عند تفسير قوله تعالى : ((إن الدين عند الله الاسلام)) (٤) :

الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو دين الانبياء من أولهم الى آخرهم ليس لله دين سواه ، قال تعالى : ((ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)) (٥) وقد دل قوله تعالى: ((إن الدين عند الله الإسلام)) على أنه دين أنبيائه ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم ، وأنه لم يكن لله قط ولا يكون له دين سواه ، قال أول الرسل نوح : ((فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجري إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين)) (٦) ، وقال ابراهيم واسماعيل :((ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك)) (٧) وقال يعقوب لبنيه عند الموت : ((ما تعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك .. الى قوله تعالى - ونحن له مسلمون))(٨) وقال موسى لقومه : ((إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين)) (٩) الى آخر الايات التي

---

(١) سورة طه : ١٢٣ - ١٢٦
(٢) مفتاح دار السعاده : ٤٤
(٣) التفسير القيم : ٢٣١
(٤) سورة آل عمران : ١٩
(٥) سورة آل عمران : ٨٠
(٦) سورة يونس : ٧٢
(٧) سورة البقره : ١٢٨
(٨) سورة البقره : ١٣٣
(٩) سورة يونس : ٨٤

ذكرها من أقوال الانبياء وغيرهم حتى قال : فالإسلام دين أهل السموات ودين أهل التوحيد من أهل الأرض لا يقبل الله من أحد ديناً سواه (١) .

كيف تعرف محاسن الشرع :

إن الداعية يعرف محاسن الشرع من أوامر الله ونواهية التي تمثل شرع الله إرتضاها سبحانه لعباده وأرسل بها رسله ، والتي استقر حسنها وكمالها في الفطر والعقول لمصلحة العباد والرحمة بهم في العاجل والآجل .

والتي لم تشرع لمجرد الأمر والنهى فقط بل إن جميع ما أحله الله فانما أحله لطيبه وما نهى عنه فلخبثه وسوءه .

وما أمرهم به فلما فيه من المعروف وما نهى عنه فلما فيه من المنكر والشريعه كلها كذلك فالأوامر يراها العقل السليم خيراً والنواهي يراها العقل السليم منكراً وابن القيم رحمه الله يقرر ذلك بعد أن ذكر جملة من محاسن الشريعة في العبادات كالصلاة والصيام والزكاة والمطاعم والمشارب وتحريم نكاح المحارم وغير ذلك ويرد على من يرى أن الأوامر والنواهي أنما صارت معروفاً ومنكراً بالأمر والنهى من الله سبحانه وأنه لا فرق بينهما الا بذلك ، وهو يرى أن أوامر الشرع كلها مقبولة ومعقوله ونواهيه كلها مذمومة مرذولة عند العقلاء فجاءت الشريعة تبين الخير للناس وتنهاهم عن الشر ، فجاءت موافقه للعقل فأقر بحسنها .

فيقول رحمه الله : وهل ركب الله في فطرة عاقل قط أن الاحسان والاساءة والصدق والكذب والفجور والعفة ، والعدل والظلم بل السجود لله وللصنم سواء في نفس الأمر ولا فرق بينهما ، وإنما الفرق بينهما الأمر المجرد ؟ وأى جحد للضروريات أعظم من هذا ؟ وهل هذا الا بمنزلة من يقول أنه لا فرق بين الرجيع والبول والدم والقيء ، وبين الخبز واللحم والماء والفاكهة ، والكل سواء في نفس الأمر وانما الفرق بالعوائد ، ثم يزيد رحمه الله الأمر وضوحاً فيقول : واذاكان لا معنى للمعروف إلا ما أمر به فصار معروفاً ، ولا للمنكر إلا مانهى عنه فصار منكراً بنهيه فأى معنى لقوله تعالى ((يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر))(٢) ، وهل حاصل ذلك زائد على أن يقال يأمرهم بما يأمرهم به وينهاهم عما ينهاهم عنه ، وهذا كلام ينزه عنه آحاد العقلاء فضلاً عن رب العالمين .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى :((يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث))(٣)

---

(١) التفسير القيم : ٢٠١ - ٢٠٢

(٢) سورة الاعراف : ١٥٧

(٣) سورة الاعراف : ١٥٧

فهذا صريح في أن الحلال كان طيبا قبل حله ، وأن الخبيث كان خبيثا قبل تحريمه ولم يستفد ذلك من نفس الحل والتحريم لوجهين :

احداهما : أن هذا من أعلام نبوته صلى الله عليه وسلم التي احتج الله بها على أهل الكتاب ، فقال : ((الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث)) (١) .

الوجه الثاني : ثبت أنه أحل ما هو طيب في نفسه قبل الحل ، فكساه باحلاله طيبا آخر فصار منشأ طيبه من الوجهين معا ، فتأمل هذا الموضع حق التأمل يطلعك على أسرار الشريعة ويشرفك على محاسنها وكمالها وبهجتها وجلالها وأنه من الممتنع في حكمة أحكم الحاكمين أن ترد بخلاف ما وردت به ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ((قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)) (٢) .

وهذا دليل على أنها فواحش في نفسها لا تستحسنها العقول فتعلق التحريم بها لفحشها فإن ترتيب الحكم على الوصف المناسب المشتق يدل على أنه هو العلة المقتضية له وهذا دليل في جميع الآيات التي ذكرناها ، فدل على أنه حرمها لكونها فواحش ، وحرم الخبيث لكونه خبيثا ، وأمر بالمعروف لكونه معروفا ، والعلة يجب أن تغاير المعلول فلو كان كونه فاحشة هو معنى كونه منهيا عنه وكونه خبيثا هو معنى كونه محرما كانت العلة عين المعلول وهذا محال فتأمله (٣) .

ومن هذا قوله تعالى : ((واذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها ، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون)) (٤) فقوله : ((إن الله لا يأمر بالفحشاء)) دليل على أنها بنفسها فحشاء وأن الله لا يأمر بما يكون كذلك ثم أكد سبحانه هذا الإنكار بقوله : ((قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين))(٥) فأخبر

---

(١) سورة الاعراف : ١٥٧

(٢) سورة الاعراف : ٣٣

(٣) انظر مفتاح دار السعاده : ٣٨٧ - ٣٨٩ وما بعدها .

(٤) سورة الاعراف : ٢٨

(٥) سورة الاعراف : ٢٩

أنه يتعالى عن الفحشاء بل أوامره كلها حسنه في العقول ، مقبولة في الفطر فإنه أمر بالقسط لا بالجور ، أفلا تراه كيف يخبر بحسن ما يأمر به ويحسنه وينزه نفسه عن الأمر بضده وأنه لا يليق به ، قال تعالى : ((ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا))(١) فاحتج سبحانه على حسن دين الاسلام وأنه لا شيء أحسن منه بأنه يتضمن إسلام الوجه لله وهو إخلاص القصد والتوجه والعمل له سبحانه والعبد مع ذلك محسن آت بكل حسن ، لا مرتكب للقبيح ، وهذا احتجاج منه على أن دين الاسلام أحسن الاديان بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر وأنه بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال وهذا استدلال بغير الأمر المجرد بل هو دليل على أن ما كان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده ولا يرضى منهم سواه (٢)

وهكذا يستطرد ابن القيم رحمه الله بذكر الادلة الدالة على أن هذه الشريعة مركوز حسنها في العقول وأن كل ما أمر به الشارع أو نهى عنه إنما هو حسن لذاته أو قبيح لذاته .

مما يدل على حسن شريعتنا وأن الخير كل الخير في اتباعها والشر كل الشر في الابتعاد عنها ولا يمكن أن تحل أزمة هذا العالم الذي نعيش فيه وفي هذا العصر خاصة اعني جميع الازمات في عصرنا سواء كانت دينية أو نفسية أو اجتماعيه أو عرقية وغير ذلك من الازمات الا بهذا الدين الذي لا يمكن لعاقل قادر على ضبط نفسه وهواه أن ينكر ذلك لأنه قد حوى كل المحاسن ونبذ كل قبيح ومذموم ، فلم يحرم علينا سبحانه طيبا كما فعل مع اليهود وأنه حرم عليهم طيبات بسبب ظلمهم فلله الحمد من قبل ومن بعد .

---

(١) سورة النساء : ١٢٥

(٢) انظر مفتاح دار السعاده : ٣٩٢ - ٣٩٣

المبحث الثاني : من أهداف دعوته : تقرير مذهب السلف

تقرير مذهب السلف الصالح ،ونشره بين الأمة ، وإيضاح أسسه ، والدفاع عنه من أهم أهداف دعوة ابن القيم رحمه الله تعالى ، ولا يخفى ذلك على من له أدنى اطلاع على كتبه رحمه الله بل ذلك من أعظم ما كانت تهدف إليه دعوته .

فلقد تجرد رحمه الله للدعوة باسم مذهب السلف ، وأخذ ينافح عنهم ويوضح أصولهم ويرد على كل من خالفهم هو وسلفه ، شيخ الاسلام ابن تيمية رحمهما الله تعالى .

ولم يكونا أول من قام بتلك الدعوة بل كانا خلفاً لسلف من الدعاة الصالحين الذين ساروا على هذا الطريق أمثال الائمة الاربعة وبعدهم أكثر الحنابلة وغيرهم كثير.

ولكن قد يسأل سائل ما هو المقصود بمذهب السلف الذي يدعيه كثير من أهل المذاهب :

وكل يدعي وصلا بليلى * * * وليلى لا تقر لهم بذاك

قال ابن القيم رحمه الله عن أبي المظفر السمعاني : (١)

كل فريق من المبتدعة يعتقد أن ما يقوله هو الحق الذي كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لأن كلهم يدعون شريعة الاسلام ، ملتزمون في الظاهر شعارها ! يرون أن ما جاء به محمد هو الحق غير أن الطرق تفرقت بهم بعد ذلك وأحدثوا في الدين ما لم يأذن به الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

فزعم كل فريق أنه هو المتمسك بشريعة الاسلام ، وأن الحق الذي قام به رسوله صلى الله عليه وسلم هو الذي يعتقده وينتحله (٢) .

فلابدّ من التحقيق في المسألة ليتضح لنا من هو الواصل حقاً فلو رجعنا الى معاجم اللغه لوجدنا أن الكلمة ما أخوذه من سَلَفَ ، يَسْلُفُ أى مضى ، والقوم السّلاّفُ : المتقدمون وسلف الرجل : آباؤه المتقدمون ، والجمع أسلاف وسُلاّف .

والسلف أيضاً من تقدمك من آبائك وذوى قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل واحدهم سالف ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه :

مضوا سلفاً قصد السبيل عليهم * * * وصرف المنايا بالرجال تقلّبُ

---

(١) ابو المظفر منصور بن عبدالجبار بن أحمد التميمي السمعاني مفسر من العلماء بالحديث من أهل مرو مولداً ووفاة كان مفتى خرسان ، توفى رحمه الله سنة ٤٨٩هـ من مصنفاته : تفسير السمعاني ، والانتصار لاصحاب الحديث والمنهاج لأهل السنه وغيرها ، أنظر : ابو سعد عبدالكريم بن محمد السمعاني: الانتصاب ص:٣٠٧-٣٠٨ طبعة مرغليوت سنة ١٩١٢ ليدن سير اعلام النبلاء ١١٤/١٩، وفيات الأعيان٣٠١/١ . (٢) مختصر الصواعق المرسلة:٥١٧

أراد أنهم تقدمونا وقصد سبيلنا عليهم أي نمون كما ماتوا فنكون سلفاً لمن بعدنا كما كانوا سلفاً لنا (١) .

اذاً فالسلف المتقدمون الذين حازوا قصب السبق في الفضل والعلم فيكون سلف هذه الأمة من تقدم من أهل الفضل والعلم وهم الركيزة الأولى التي ننتمي اليهم وهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين تلقوا العلم عنه بلا واسطه وتربوا على يديه كما يصفهم ابن القيم بقوله :

أنهم حازوا قصبات السّباق ، واستولوا على الأمور ، فلا طمع لاحد من الأمة بعدهم باللحاق ، ولكن المبرز من أتبع صراطهم المستقيم واقتفى منهاجهم القويم والمتخلّف من عدل عن طريقهم ذات اليمين وذات الشمال ، فذلك المنقطع التائه في بيداء المهالك والضلال ، فأي خصلة خير لم يسبقوا إليها ؟ وأي خطة رشد لم يستولوا عليها ؟! تالله لقد وردوا رأس الماء من عين الحياة عذباً صافياً زلالاً وأيدوا قواعد الاسلام فلم يدعوا لأحد بعدهم مقالاً ، فتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان ، والقرى بالجهاد بالسيف والسنان .

وألقوا الى التابعين ما تلقوه من مشكات النبوة خالصاً صافياً ، وكان سندهم فيه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن رب العالمين سنداً صحيحاً عالياً .

وقالوا : هذا عهد نبينا الينا وقد عهدنا إليكم ، وهذه وصية ربنا وفرضه علينا وهي وصيته وفرضه عليكم فجرى التابعون لهم باحسان على منهاجهم القويم واقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم ثم سلك تابعوا التابعين هذا المسلك الرشيد (٢).

وعلى ذلك فأهل الحديث المتتبعين لآثار النبي صلى الله عليه وسلم هم الذين يمثلون السلف على الحقيقه لأنهم هم الذين اقتفوا أثرهم وسلكوا سبيلهم وهذا هو رأي ابن القيم رحمه الله تعالى وهو يدلل على ذلك ويستشهد لصحة قوله ، وأنه لايمكن أن يكون غيرهم هم المقتفون لآثار السلف ، ويذكر الاسباب ونحن سوف نذكر المستفاد من أقواله رحمه الله ، فيقول :

ولما كانت الدعوة الى الله والتبليغ عن رسوله شعار حزبه المصلحين وأتباعه من العالمين ، كما قال تعالى : ((قل هذه سبيلي أدعوا الى الله على بصيرة أنا من اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين)) (٣) ، وكان التبليغ عنه من عين تبليغ الفاظه وما جاء به وتبليغ معانيه كان العلماء من أمته منحصرين في قسمين :

---

(١) انظر لسان العرب : ١٥٩/٩

(٢) اعلام الموقعين : ٨/١

(٣) الاية من سورة يوسف : ١٠٨

أحداهما : حفاظ الحديث وجهابذته والقادة الذين هم أئمة الأنام وزوامل الاسلام الذين حفظوا على الأمة معاقد الدين ومعاقله وحموا من التغيير والتكدير موارده ومناهله حتى ورد من سبقت له من الله الحسنى تلك المناهل صافيه من الادناس لم تشبها الآراء تغييراً ووردوا فيها عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً (١) .

وقال رحمه الله بعد أن ذكر قول السمعاني السابق في أن كلا يدعي أنه على الحق وغيره على الباطل قال :

غير أن الله تعالى أبى أن يكون الحق والعقيدة الصحيحه الا مع أهل الحديث والآثار لأنهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفاً عن سلف وقرناً عن قرن إلى أن انتهوا إلى التابعين وأخذه التابعون عن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وأخذه الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا طريق إلى معرفة ما دعا إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس من الدين المستقيم والصراط القويم الا هذا الطريق الذي سلكه اصحاب الحديث .

وأما سائر الفرق فطلبوا الدين بغير طريق لأنهم رجعوا الى معقولهم وخواطرهم وآرائهم فإذا سمعوا شيئاً من الكتاب والسنة عرضوه على معيار عقولهم فإن استقام لهم قبلوه ، وإن لم يستقم في ميزان عقولهم ردوه ، فإن اضطروا إلى قبوله حرفوه بالتاويلات البعيده والمعانى المستكرهة فحادوا عن الحق وزاغوا عنه ونبذوا الدين وراء ظهورهم وجعلوا السنة تحت أقدامهم .

أما أهل السنه فجعلوا الكتاب والسنة أمامهم وطلبوا الدين من قبلهما ، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم وآرائهم عرضوه على الكتاب والسنه فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم له ، وإن وجدوه مخالفاً لهما تركوا ما وقع لهم وأقبلوا على الكتاب والسنة (٢) .

ثم بين رحمه الله تعالى ما هو السبب الذي جعله يرى أن أهل الحديث هم أهل السنه وهم المقتفون لأثر السلف وإن تباعدت المدة بينهم فيقول :

ومما يدل على أن أهل الحديث على الحق أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفه من أولها إلى آخرها ، قديماً وحديثاً وجدتها مع اختلاف بلدانهم وزمانهم وتباعد ما بينهم في الديار ، في باب الاعتقاد على وتيرة واحده ونمط واحد يجرون فيه على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون قلوبهم في ذلك على قلب واحد ونقلهم لا ترى فيه اختلافاً ولا تفرقاً في شيء ما ، وإن قلّ ، بل لو جمعت جميع ما جرى

---

(١) اعلام الموقعين : ٨/١

(٢) مختصر الصواعق المرسله : ٥١٧

على السنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء عن قلب واحد وجرى على لسان واحد وهل على الحق دليل أبين من هذا قال تعالى : ((أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)) (١) .

وكان السبب في اتفاق أهل الحديث أنهم أخذوا الدين من الكتاب والسنه وطريق النقل ، فأورثهم الإتفاق والائتلاف وأهل البدع أخذوا الدين من عقولهم فأورثهم التفرق والاختلاف (٢) .

فيكون المراد بالسلفيه " هو اتباع طريق السلف الصالح من هذه الأمة المسلمه الذين هم أهل السنه والجماعه والاجتماع على سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره ظاهرا وباطنا واتباع سبيل السابقين الاولين من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان وتنفيذ وصية المصطفى صلى الله عليه وسلم في قوله : (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعه ضلاله)(٣) " فهم الذين يعتقدون أن أصدق الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم ولا يقدمون شيئا عليها البته " (٤) ، وهم الذين أتبعوا ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم ولم يتعدوه ، ولقد سمى الله سبحانه ما أنزله على رسوله روحا لتوقف الحياة الحقيقيه عليه ، ونورا لتوقف الهداية عليه قال الله تبارك وتعالى : ((يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده)) (٥)، وقال عز وجل : ((وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدري مالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا)) (٦) .

فلا روح الا فيما جاء به ولا نور الا في الاستضاءة به فهو الحياة والنور والعصمة والشفاء (٧) .

ويقول رحمه الله وهو يتحدث عن منهج الرعيل الأول وتابعيهم ومن تبعهم بإحسان أنهم في ذلك بنبيهم مقتدون وعلى منهاجه سالكون قال تعالى : ((قل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني)) (٨) .

---

(١) الايه من سورة النساء : ٨٢

(٢) مختصر الصواعق المرسله : ٥١٨

(٣) رواه الترمذي وقال حديث صحيح وأخرجه أحمد وابو داود وابن ماجه تحفة الاحوزى جـ ٧ص٤٤٢

(٤) انظر عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفيه وأثرها في العالم الاسلامي د. صالح بن عبدالله العبود ص: ١٦٠ ط الاولى الجامعة الإسلاميه : ١٤٠٨

(٥) سورة غافر : ١٥ (٦) سورة الشورى : ٥٢

(٧) الصواعق المنزله على طائفة الجهمية والمعطله ٦٢/١ . (٨) سورة يوسف :١٠٨

فمن اتبعني أن كان عطفاً على الضمير في ((أدعوا إلى الله)) فهو دليل أن أتباعه هم الدعاة الى الله وإن كان عطفاً على الضمير المنفصل فهو صريح في أن أتباعه هم أهل البصيرة فيما جاء به دون من عداهم ، والتحقيق أن العطف يتضمن المعنيين ، فأتباعه هم أهل البصيرة الذين يدعون إلى الله وقد شهد سبحانه لمن يرى أن ما جاء به من عند الله هو الحق لا آراء الرجال ، بالعلم فقال تعالى : ((ويرى الذين أتوا العلم الذين أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدي إلى صراط العزيز الحميد)) (١) ، وقال تعالى : ((أفمن يعلم أن ما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى)) (٢) فمن تعارض عنده حقائق ما جاء به وآراء الرجال فقدمها عليه أو توقف فيه ، أو قد حت في كمال معرفته وإيمانه به لم يكن من الذين شهد الله لهم بالعلم فكيف يكون الداعي إلى الله على بصيره الذي وصفه الله بأنه سراج منير وبأنه هاد الى صراط مستقيم وأن من اتبع النور الذي أنزل معه فهو المفلح لا غيره ولا يكون عنده حرج منه فليس بمؤمن (٣) .

ويزيد الأمر وضوحاً بوجوب التمسك بالكتاب والسنه فيقول :

ولا يستقر للعبد قدم في الاسلام حتى يعقد قلبه وسره على أن الدين كله لله لا رب سواه ولا متبوع غيره ، وأن كلام غيره معروض على كلامه ، فإن وافقه قبلناه لا لأنه قاله بل لأنه أخبر به عن الله ورسوله وإن خالفه رددناه وأطرحناه ، ولا يعرض كلامه صلوات الله وسلامه عليه ، على آراء القياسيين ولا عقول الفلاسفه والمتكلمين ولا على سياسة الولاة الحاكمين والسلاطين ، ولا أذواق المتزهدين المتعبدين بل تعرض هذه كلها على ما جاء به عرض الدراهم المجهوله على أخبر الناقدين فما حكم بصحته منها فهو المقبول وما حكم برده فهو المردود والله الموفق للصواب (٤) .

وبعد هذا العرض يتبين أن السلف هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعوهم ومن تبعهم باحسان وأنهم متعلقون بالكتاب والسنه لا يرون الحق في غيرهما أبداً ولا يخالفونها إلى رأى أحد مهما كان حاله كما بين لنا ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى .

وبعد هذا نستطيع أن نحكم على كل من ادعى أنه من السلف بوزن قوله وفعله

---

(١) سورة سبأ : ٦

(٢) سورة الرعد : ١٩

(٣) الصواعق المنزلة على الطائفة الجهمية والمعطله ١/٦٣-٦٤

(٤) نفس المرجع ١/١٦٥

بالقرآن والسنه فان وافقهما ولم يخالفهما فإنه صادق الدعوى .

ويقول ابن القيم رحمه الله في قصيدته النونيه ناصحاً الأمة بمنهج السلف وكتبهم وما يجب نحوهم فيقول :

يأمن يريد نجاته يوم الحساب *** من الجحيم وموقد النيران
اتبع رسول الله في الاقوال والاعما *** ل لا تخرج عن القرآن
وخذ الصحيحين اللذين هما *** ما لقصد الدين والإيمان واسطتان
واقرأهما بعد التجرد من هوى *** وتعصب وحمية الشيطان
واجعلهما حكماً ولا تحكم على *** ما فيهما أصلا بقول فلان
واجعل مقالته كبعض مقالة الأ *** شياخ تنصرها بكل أوان
وانصر مقالته كنصرك للذى *** قلدته من غير ما برهان
قدر رسول الله عندك وحده *** والقول منه اليك ذو تبيان
ماذا ترى فرضاً عليك معيناً *** إن كنت ذا عقل وذا إيمان
عرض الذي قالوا على أقواله *** أو عكس ذا كذانك الأمران
هي مفرق الطرقات بين طريقنا *** وطريق أهل الزيغ والعدوان (١)

ويترجح مذهب السلف على غيره من عدة وجوه :

أولاً : لأنهم أخذوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم مباشره وهم الصحابة وأخذ عنهم التابعون .

ثانياً : لتمسكهم بما أمر الله به ورسوله من كتاب وسنه وعدم الخروج عليهما أو تحكيم غيرهما ما وجدوا اليهما سبيلا .

ثالثاً : لتمكنهم من الرد على أى معطل والجامه بالحجه .

رابعاً : عدم الاضطراب في اقوالهم مما يؤدى الى الراحة النفسية للمؤمنين والثقة بالله تعالى.

خامساً: لأنهم أرجح عقولاً فكلما تقدم الزمان نقص في أهل الخير كما قال المصطفى خير القرون قرنى ثم الذين يلونهم ... الحديث .

سادساً: موافقة اقوالهم للعقل والفطره بلا تعقيد .

سابعاً: اشتهارهم بالورع والجدّ وقوة الصدع بالحق وهذا لا يصدر الا عن صاحب حق .

---

(١) القصيده النونيه : ٢٢١/٢

المبحث الثالث

الهدف الثالث من أهداف الدعوة عند ابن القيم

تربية الأمة المسلمة (١)

تمهيد :

تربية الأمة المسلمة من الأهداف الجلية في دعوة ابن القيم رحمه الله يستطيع الوقوف عليها كل من أجال بصره فيما حوته كتبه التي بين أيدينا فقد امتلأت بقواعد التربيه الاسلاميه،وسيجد أنه يقف بين يدى أحد فضلاء،وكبار المفكرين المسلمين ، الذين أولوا التربيه عنايتهم وجل اهتمامهم .

وذلك ليس غريباً على داعية مثل ابن القيم لأنه يدرك أن التربية جزء لا يتجزأ من الاسلام فالتربية هي " تنمية فكر الإنسان ، وتنظيم سلوكه ، وعواطفه على أساس الدين الاسلامي ، وبقصد تحقيق أهداف الاسلام في حياة الفرد والجماعه " (٢) .

اذا الإرتباط بين التربية والاسلام وثيقة حتى أن التربية لا تكون صحيحة النتائج إلا إذا بنيت قواعدها على الاسس والتشريعات الالهيه ، لأن التربيد تطبيق للشرع الذي أمر الله به على الإنسان من أجل تنظيم سلوكه ، والارتقاء بد عن درجة البهيميه ، ورفع مستوى الجماعه بحيث يكون المجتمع مثالياً كما أراد الله سبحانه ، إضافة إلى أنه سبحانه إنما أرسل رسوله صلى الله عليه وسلم لتزكية النفوس وكمالها كما بين ذلك في كتابه الكريم فقال : ((هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين)) (٣) ، وقوله تعالى :((قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها)) (٤) .

من أجل ذلك نجد ابن القيم رحمه الله قد جعل تربية الأمة من أهداف دعوته وركز عليها أيما تركيز فقلما تجد كتاباً من كتبه يخلو من فائدة تربوية اذا لم يكن بمجموعه كتاب تربية،لقد أجلى للابصار السليمة طريق الحق، وحذر الأمة من الشيطان ومكائده وبين لهم دسائسه وكيفية التخلص منه ، وقسم القلوب وبين أمراضها وكيفية علاجها وتزكيتها ، وقسم النفوس وبين تأثيرها حتى أنه يخيل

---

(١) راجع الحديث عن منهجه في إصلاح الأمه : ص ٣٣٠

(٢) أصول التربيه الإسلاميه وأساليبها :٢٦ لعبدالرحمن النحلاوى طبع دار الفكر الطبعد الاولى ١٣٩٩ .

(٣) الايه من سورة الجمعه : ٢

(٤) سورة الشمس الآيات : ٩ - ١٠

للقارئ أن ابن القيم طبيب قلوب استطاع أن يكشف عليها ويشخص ما بها من أمراض ويصف العلاج الناجح لها .

ومن ثم فان كل مطلع على آثار ابن القيم يستطيع أن يصنف نفسه من أى طبقات المكلفين هو ، واى الامراض يحمل ، أم أنه صحيح معافافيزداد يقيناً وعافيه بما يقرأه من كتب هذا المفكر العظيم .

وكل ذلك باسلوب سلس ، وترتيب بارع ، وأدلة قاطعة ، يستسيغها الكبير والصغير تؤدى بمن يطلب الحق إلى سبيل السلامة .

مصادره في التربية :

لكل مفكر ومربى مصادره الخاصة التي يثق بها ويطمئن إليها ، وله من الرجال من يتخذه استاذاً له يستأنس بقوله ويستشيره فيما خفى عليه .

وهكذا فإنه يوجد من مفكري المسلمين الذين برزوا في الجانب التربوى والاخلاقي قد اعتمدوا في مصادرهم على الافكار الفلسفيه من يونانيه وغيرها من تلك الفلسفات العقلية البحته التي نقدها ابن القيم نقداً حاداً وبين نقاط الضعف فيها .

أما ابن القيم رحمه الله فمصادره الخاصة التي يطمئن اليها ويثق بها فهي كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل ، وسنة رسوله المصطفى صلى الله عليه وسلم .

اما اساتذته وقدوته فهم محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ومن سار على أثرهم من سلف هذه الأمه ، لذا نرى أن مصادره في التربية لم تخرج عن ذلك بل هذا من أبرز خصائص منهجه في الدعوة الى الله تعالى ، وهى من خصائص المدرسة السلفية التي تولى نشرها بين الأمه .

بل يرى رحمه الله أن كمال السعادة في الحياة الطبيعيه الصحيحه لا يمكن أن تتم إلا باتباع ما جاء عن الله ورسوله ، ويعتبر من جاوزهما أن حياته غير نافعة بل هي إلى حياة الحيوان أقرب فيقول :

إن الحياة النافعه إنما تحصل بالإستجابة لله ورسوله ، فمن لم يحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيميه مشتركة بينه وبين أرذل الحيونات فالحياة الحقيقية الطيبة حياة من استجاب لله وللرسول ظاهراً وباطناً ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول فإن كل مادعا إليه فيه الحياة (١) .

وقد نعى رحمه الله تعالى على كل من أعرض عن الكتاب والسنه ، وطلب

---

(١) كتاب الفوائد لابن القيم : ١٠٠

الهدى والرشد في غيرهما من أقوال الرجال الذين نظروا العلوم والامور بعقولهم القاصره التي كثيراً ما تستند في نتائجها على العواطف ، والاهواء والشهوات .

فقال وهو يصف تلك القلوب الضاله : لكن عضت على القلوب هذه الاهواء فأطفأت مصابيحها وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها .

واعجباً لها ! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التي لا تسمن ولا تغني من جوع،ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ونصوص حديث نبيه المعصوم ، أم كيف اهتدت في ظلم الآراء إلى التمييز بين الخطأ والصواب ، وخفي عليها ذلك في مطالع الانوار من الكتاب والسنه ؟ (١) .

وهكذا نرى ابن القيم دائم الالتزام بالكتاب والسنه في جميع مصادره سواء كانت تربوية أو عقدية أو فقهية وغيرها لذلك يقول رحمه الله في قصيدته الميميه :

وبالسنة الغراء كن متمسكاً ** هي العروة الوثقى التي ليس تفصم
تمسك بها مسك البخيل بماله ** وعض عليها بالنواجذ تسلم
ودع عنك ما قد أُحدث الناس بعدها ** فمرتع هاتيك الحوادث أوخم
وهي جواباً عندما تسمع الندا ** من الله يوم العرض : ماذا أجبتم
به رُسُلي لما أتوكم فمن يكن ** أجاب سواهم سوف يخزى وينـدم (٢)

نظرة ابن القيم لتربية الأمه :

عرفنا أن التربية جزء لا يتجزأ من الإسلام لأن التربية هي محاولة تطبيق الشرع الذي أمر الله به من أجل تنظيم سلوك الانسان والارتقاء به فيكون بذلك قد حقق عبادة الله وحده في اتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه وهذا هو الهدف الاسمى الذي يسعى لتحقيقه من وراء تربيته ، اضافة الى أن التربية تجعل من الأمة أمه قوية في دينها آمنة في وطنها يسودها الحب ويغمرها التراحم وفي نفس الوقت هي قوية مرهوبة الجانب من قبل اعدائها بعيدة عن البدع والانحلال الخلقي .

أنه رحمه الله قد أولى التربية جلّ اهتمامه فأكثر تصانيفه رحمه الله تدور حول التربية فإذا نظرنا الى كتبه مثل كتاب الفوائد : الذي أودع فيه من كنوز الحكم والمواعظ التربوية ما يَرِقّ له قلب كل عاقل ، أما كتابه الداء والدواء،والمسمى - بالجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي - وهو عبارة عن جواب

---

(١) انظر مدارج السالكين : ٨/١
(٢) القصيده الميميه : ٢٠٢

لسؤال سائل أبتلي ببليه وعلم أنها إن استمرت به أفسدت عليه دنياه وآخرته ولم يوضح السائل بليته ، فأجابه رحمه الله بجواب كاف شاف فكان هذا الكتاب كما عنون له رحمه الله تعالى قد ضمنه من أدوية النفوس ما لا تجده في غيره ، ظهرت فيه براعة المربي العظيم الذي عرف النفوس وأمراضها وكيفية علاجها ، والغريب في الأمر أنه رحمه الله استطاع أن يعرف علة الرجل السائل ووصف له ولغيره العلاج الصحيح الذي لا يبتغى غيره .

أما كتابه " اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان " الذي أطنب فيه بذكر القلوب وقسمها إلى صحيح وسقيم وميت وبين أمراضها وكيفية علاجها .

حيث أنه يرى رحمه الله أن القلب هو المتصرف في عزم الانسان على الاستقامة والزيغ لأنه ملك الجوارح كلها ، وهي المنفذة لما يأمرها به ، القابلة لما يأتيها من هديه ولا يستقيم لها شيء حتى تصدر عن قصده ونيته .

لذلك بين لنا أقسام هذه القلوب ليعرف القارىء قلبه من أي القلوب هو وحذرها من الأعمال السيئه لأن مدارها على فساد قصد القلب وكيف أن فساد العمل يعرّض القلب للقسوة فيزداد مرضاً على مرضه حتى يموت .

ثم بين بعد ذلك مكائد الشيطان التي يكيد بها بني آدم ليحذره منه وهو الباب الذي من أجله ألف الكتاب (١) .

اما كتابه حادي الارواح فقد قصد من تأليفه بشارة أهل السنه لما أعد لهم في الجنه فانهم المستحقون للبشرى في الدنيا والآخره وقد وصف فيه الجنه وأبوابها وسعتها وما أعد الله فيها من ملذات ومطاعم ومشارب وحور عين وغير ذلك مما يحدوا بالمؤمن ويدفعه الى الطمع فيها والرغبة اليها رغبة في لقاء ربه عز وجل ولا يتحقق ذلك الا بأن يكون المؤمن خاضعاً لأوامر ربه تربى عليها ، وتأدب بها .

وهكذا كتابه مدارج السالكين والوابل الصيب وغيرها من كتبه القيمه ولم نقصد من ذلك الحصر وإنما أردنا أن نبين مدى اهتمامه رحمه الله تعالى بهذا الهدف الذي كان يسعى لتحقيقه في دعوته المباركه .

وسوف نتحدث إن شاء الله تعالى عن تربيته ومنهجه في التربية عندما نصل إلى الباب الثاني بالتفصيل في موضعه .

---

(١) انظر اغاثة اللهفان ٥/١ وما بعدها .

الفصـــل الثالـــث

صفـــــات الدعيـــــة

الداعية المسلم هو الوحيد الذى لا يمكنه تحقيق مراده و مبتغاه ممن يدعوهم قبل ان يحقق في ذاته صفاة الكمال النفسيه و التي تكمن في الاخلاق و العبـــــــاد ات و المعاملات التي دعا اليها الاسلام فالاسلام عبارة عن دعوة الى الكمال الانساني فـــي كل شـــــيء.

الا ترى أن الدعوة الى عبادة الله وحده من أعلى مراتب الكمال الانساني ، لانه في تحقيق ذلك يكون حرا طليقا من عبادة الخلق و الذل لهم ويكون بذلك سعيدا مطمئن النفس منشرح الصدر متغلبا على الصعاب لانه سار على وفق فطرته التي جبل عليهـــا و شعوره الكامن في قرارة نفســه .

و كذلك دعوته الى العبادات فيها راحة للنفس الم تسمع قول النبي صلى الله عليه وسلم (يا بلال أرحنا بالصلاة)[1] (وكان اذا حزبه أمر فزع الى الصلاة)[2]، وكذالـك الزكاة وما فيها من مواساة ذوى الحاجات و المسكنة و التآلف و التكامل الاجتماعـــي و الصوم وما فيه من كف للنفس عن شهواتها وكذلك جميع العبادات و المأمورات .

فإن كل مأمور به راجح المصلحة وان كان مكروها للنفوس قال تعالى : ((**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئـــا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**))[3]، فبين أن الجهاد الذى أمر به وان كـــان مكروها للنفوس شاقا عليها فمصلحته راجحة وهو خير و أحمد عاقبة ، فالشر الذى فيـه مغمور بالنسبة إلى ما تضمنه من الخير .

و هكذا كل منهى عنه فهو راجح المفسدة وان كان محبوبا للنفوس موافقـــا للهوى فمضرته و مفسدته أعظم مما فيه من المنفعة ، و اللذة مغمورة مستهلكة بجنـب مضرته كما قال تعالى : ((**و إثمهما أكبر من نفعهما**))[4] .

---

(١) مسند الامام احمد : ٣٦٤/٥، برقم ٢٣١٣٧ وابو داود في الادب ٧٨ .
(٢) رواه الامام احمد في المسند : ٣٠٦/١ بنحوه .
(٣) سورة البقرة الاية : ٢١٦
(٤) " " " : ٢١٩

وكذلك دعوته الى جميع الاخلاق الحميدة فكل خلق حميد عرفه الانسان دعـــا اليه الاسلام و كل خلق ذميم ذمته العقول و الفطر الانسانيه نهى عنه وأمر بأجتنابـــه و لا يجـادل في ذلك الا مكابر عنيد .

فتأمل الحكمة الباهرة في هذا الدين و الشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كما لها و لا يدرك الوصف حسنها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت ، وكانت علـــى أكمل عقل رجل منهم فوقها ، وحسب العقول الكاملة الفاضلة أدركت حسنها و شهـــدت بفضلهـــــا (١) .

و المراد ان الشريعة الاسلامية دعت الناس الى الكمال الانساني و ليس مـــن المعقول ان يحاول أحد من العقلاء أن يجمع الناس على رأى يراه وهو أبعد الناس عنـــه وعن التقيد به و بقوانينه ، وكذا الداعية لا يمكن أن يدعو الناس الى الكمال الـــذى يريده الله سبحانه و تعالى من عباده وهو أبعـــد الناس عنه .

قـــال الشاعـــر :

لا تنـــه عن خلـــق و تأتـــي مثـــله **** عـــار عليـــك اذا فعلت عظيم

لذلك فان الداعيه يجب أن تكون له صفات كمالية نفسيه ، تدعو الناس الـــى طاعة أمره و التخلق بأخلاقة قال تعالى : ((**لقدكان لكم في رسول الله أسوة حسنه لمـــن كان يرجوا الله و اليوم الاخر وذكر الله كثيرا**)) (٢) .

وهذه الصفات و الاخلاق كثيرة جدا لاندعى أن أحدا يستطيع أن يلم بهـــا و يبلغ الكمال وانما ما لا يدرك كله لا يترك جله و نريد أن نجمل هنا أهم الصفـــات التي لا يمكن للداعيه أن ينجح بغيرها .

أولا العلـــم

العلم مفتاح كل شيء كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله لذلك أولاه عنايـــة

---

(١) مفتاح السعاده : ١ : ٣٧٤ .

(٢) الاحـــزاب : ٢١ .

كبيره لان صفات الداعيه تدخل تحت هذا الاساس فلا يمكن أن تتحقق الصفات والاخـــلاق الفاضلة الا من هذا الطريق .

ولذلك عنون في كتابة مفتاح دار السعادة بقوله :

" الاصل الاول في العلم وفضله وشرفه و بيان عموم الحاجة إليه و توقـــف كمال العبد و نجاته في معاشه و معاده عليه "[١].

و ذكر أكثر من مائة و خمسين فائدة على فضل العلم و شرفه ، وذكر مراتب العلم وحكمه ، وغير ذلك مما يحدوا بالداعية الى الحرص على تعلم العلم ، و المقصود بالعلم هنا عند ابن القيم هو :

الموروث عن عبده ورسوله و خليله وحبيبه الذى بعثه لذلك داعيا ، وأقامه على هذا الطريق هاديا و جعله واسطة بينه و بين الانام ، و داعيا لهم بإذنه الى دار السلام و أبى سبحانه أن يفتح لاحد منهم الا على يديه أو يقبل من أحد منهم سعيا الا أن يكون مبتدأً منه و منتهياً إليه .

فالطرق كلها الا طريقه صلى الله عليه وسلم مسدوده فحق على من كان فـــي سعادة نفسه ساعيا وكان قلبه حيا عن اللهواعيا أن يجعل هذين الاصلين مدار اعمالـــه و أقـــوالـــه[٢].

فلا بد ان يكون الداعية عالما بشرع الله ليدع الى الله على بصيرة و برها ن حتى لا يضل أو يضـــل .

و ليكون داخلا في قوله تعالى : ((**قل هذا سبيلي أدعوا الى الله على بصيره انا ومن اتبعني**))[٣] . و ليستطيع أن يدافع عن دعوته و يقنع خصمه وكم من داع كـــان جاهلا فحمل من المضره عليه و على ما يدعو اليه شيء كبير لانه يهزم أمام الباطـــل لقلة ما معه من العلم بالحق و لهذا لا يجوز تمكين مثل هؤلاء الجهال من الدعـــوة

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٦٣/١ ويحسن بطالب العلم أن ينظر في الكتاب وماقالـــه ابن القيم رحمه الله

(٢) انظر مفتاح دار السعادة : ٦١:١

(٣) الايـــه من سورة يوسف : ١٠٨ .

" قال المزني [1] روى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : (أن الشياطين قالوا لابليس يا سيدنا ما لنا نراك تفرح بموت العالم ما لا تفرح بموت العابد والعالم لا نصيب منه قال : انطلقوا ، فانطلقوا الى عابد فأتوه في عبادته فقالوا انا نريد أن نسألك فانحرف ، فقال ابليس : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟ فقال : لا أدرى فقال : أترونه كفر في ساعه ؟ ثم جاوء ا الى عالم في حلقته يضحك أصحابه و يحدثهم فقالوا : انا نريد أن نسألك فقال : سل ، فقال : هل يقدر ربك أن يجعل الدنيا في جوف بيضة ؟ فقال : نعم قالو :كيف ؟ قال : يقول كن فيكون . فقال : أترون ذلك لا يعدو نفسه ، وهذا يفسد على عالما كثيرا [2].

فاحذر ايها الداعيه الجهل فإنك في أشرف مقامات العبد فيجب عليك أن تحمي نفسك بسياج العلم حتى لا تكون هدفا للحاقدين الناقمين وحتى ترتفع عن مصاف الجهال و الجاهلين .

و ابن القيم يرى أن الدعوه لاتوءتي ثمارها المرجوه الا بالعلم كما يقول :

" واذ كانت الدعوة الى الله أشرف مقامات العبد وأجلها و أفضلها ، فهى لا تحصل الا بالعلم الذى يدعو به و إليه ، بل لا بد في كمال الدعوه من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي [3] .

وقد أوضح رحمه الله تعالى أن شرائع الاسلام و اجبه على كل مسلم و لا يمكن أداؤها الا بعدمعرفتها و العلم بها ثم بين أن العلمالمفروض تعلمه ضربان .

احداها فرض عين لا يتسع جهله وهو انواع .

أ - علم أصول الايمان الخمسه [4] الايمان بالله و ملائكته وكتبه ورسله و اليوم الاخر فالايمان بهذه الاصول فرع معرفتها والعلم بها .

---

(١) ابو عبد الله بكر بن عبدالله المزني إمام قدورة و اعظمحجة فقيه حدث عن المغيرة بن شعبة و ابن عباس و ابن عمر وغيرهم وروى عنه آخرون كان من المتعبدين و أهل الفضل في الدين شديد التواضع توفي سنة ١٠٦ هـ .
انظر : طبقات خليفه : ص٢٠٧و مشاهير علماء الامصار ص٩٠ وحليه الأولياء٢/٢٢٤

(٢) مفتاح دار السعادة : ٩٠/١

(٣) نفس المراجع : ١٩٥/١ .

(٤) أصول الايمان ستة ولم أجد تعليلا لذلك ابن القيم الأصل السادس وهو الايمان بالقدر الا أنه يقرن الحديث جبريل الذى في البخارى وهو يا ت سورة البقره رقم (٧٧٧) والنساء (١٧٦) مع أنه بوب في كتابه شفاء العليل ص ٢٦٨ بترتيب : فصل في ستة هي أصول الايمان الايمان بالقدر خيره وشره

ب - علم شرائع الاسلام و اللازم منها علم الوضوء والصلاه و الصيام و الحج و الزكاة و توابعها و شروطها و مبطلاتها .

ج - علم للحرمات الخمسة التي اتفقت عليها الرسل و الشرائع و الكتب الإلهيه وهى المذكورة في قوله تعالى : ((**قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن و الإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**))[١] .

د - علم أحكام المعاشرة و المعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصا و عموما و الواجب في هذا النوع يختلف باختلاف الناس و منازلهم فليس الواجب على الامام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهله و جيرانه وهكذا

ثانيا :فرض الكفاية : فهو كفرض العين في تعلقه بعموم المكلفين وانما يخالفه بسقوطه عن البعض[٢] .

فانظر أيها الداعية ماذا يجب على كل مسلم بعينه معرفته و العلم به اضافه الى ما يتعلق بهذه الفروض من شروط ومبطلا تفما الظن بالداعيه الى الله سبحانه و تعالى وما يجب أن يكون عليه من علم وقد بين رحمه الله تعالى مراتب العلم لطالب العلم و كيف ان تحت هذه المراتب من كنوز العلم و مراعاتها تفتح للعبد ابواب العلم و الهدى وكيف ينغلق باب العلم عنه من اهمالها وعدم مراعتها[٣] .

فقال و للعلم ست مراتب :

اولها : حسن السؤال .

ثانيها : حسن الانصات و السماع .

ثالثها : حسن الفهم .

رابعها : الحفظ

خامسها : التعليم .

سادسها : وهى ثمرته وهى العمل به ومراعات حدوده .

---

(١) سورة الاعراف :٣٣ .

(٢) انظر مفتاح دار السعاده ١/١٩٨، ١٩٩ .

(٣) نفس المرجع : ١/٢١٣، ٢١٤ .

ذكـــر بعـــض فضائـــل العلـــم :

وقد ذكر ابن القيم بعض فوائد العلم يجدر بنا أن نذكر بعضا منها لتكـــون حافزا للداعيه على طلب العلم و التعلم حيث يقـول :

١ - أفضل الخلق عند الله الانبياء و الرسل و أشرف مراتب الناس بعدهم مرتبة خلافتهم في أممهم فان العلماء يخلفونهم على منهاجهم و طريقهم .

٢ - إن كل صفة مدح الله بها العبد في القرآن فهى ثمرة العلم ونتيجـة وكل ذم ذمه فهو ثمرة الجهل و نتيجته .

٣ - إن النفس تزكو و تشرف بجمع العلم و تحصيله .

٤ - إن العلم يثمر اليقين الذى هو أعظم حياة القلب وبه طمأنينته و قوتـــه و نشاطه و سائر لوازم الحياة .

٥ - إن بقاء الدين و الدنيا ببقاء العلم و بذهاب العلم تذهب الدنياو الدين

٦ - إن العلم يرفع صاحبه في الدنيا و الاخرة ما لا يرفعه الملك ولا المـــال ولا غيرهمـــــا .

٧ - إن الله سبحانه وتعالى نفى التسوية بين العالم و غيره كما نفى التسويـه بين الخبيث و الطيب .

٨ - إن العالم مشتغل بالعلم و التعليم لا يزال في عبادة فنفس تعلمه و تعليمه عبـــــاده (١) .

ألى غير ذلك من الفوائد الجليلة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله تعالى ممـــا يثير في نفس الداعية المخلص حب هذه الصفة و التعلق بها و الاستزادة من علـــــم القـــرآن و السنـــــة .

فأن الداعية لا بد أن يُسأَل و قد حرم الله عليه الكذب و لعن الله الكاذبيـن

---

(١) انظر مفتاح دار السعاده : ١:١٠١،١٤٧،١٦٤،١٩٥،٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٨،٢٢٤ .

و خاصة الكذب على الله سبحانه و تعالى و القول عليه بغير علم قال تعالـــــــى :

((ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون ، متاع قليل ولهم عذاب أليم))[١] .

الجـــوانب المهمـــة في بصيرة الداعيـــة :

قال تعالى : ((**قل هذه سبيلي ادعوالى الله على بصيرة أنا ومن أتبعني و سبحان اللـــه وما أنا من المشركين**))[٢] . و البصيره في اللغه عقيدة القلب وقيل البصيرة الفطنـــه تقول العرب : أعمى الله بصائره أى فطنه[٣] .

و البصيرة هي الحجة[٤] ، فان انعدام البصيرة و الفطنه و الحجة هى انعـــدام للعلم لان العلم يجعل الانسان بصيرا فطنا ذا حجه فتفسير ابن القيم السابق يعنـــــي أن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ومن أتبعه من المؤمنين تكون على علم و يقين .

و لكن بماذا يكـون عالما أو بمعنى آخـر بماذا تكون البصيرة : والجـــواب أن تكون البصيرة في أمرين همـــا :

اولا : أن يكون على بصيرة في حال الدعوة و الدعاة السابقين .

ثانيا : أن يكون على بصيرة في حال من يدعوه .

واليك ايضاح هذا الامـــر :

اولا : أن يكون على بصيرة في حال الدعوة أو بمعنى اخر أن يكون علـــــى بصيرة في أمر دينه الذى يدعو اليه فيكون ذا علم و كفاءة و لديه الحجة و البرهـــان لانه يفترض فيه أنه سيجادل و سيحاج و سيبطل دعوى الخصم و سيتحدث إلى أقـــوام مختلفين في ثقافاتهم و نفسياتهم و طبقاتـــهم وما يدينون به وما يعتقدونه .

فلا بد أن يكون على بصيرة من أمره حتى يستطيع أن يعطي كل واحد حقـــه من هؤلاء الاصناف المتباينه من الناس . و يقتضي هذا أن يعرف ما يدعو اليه ؟ ومـــا هدفـــه ؟ وما غايتـــه ؟ وما منهجه ووسائله ؟ اذا عرف كل هذا استطاع أن يدعـــــو

---

(١) الايات من سورة النحل : ١١٦ : ١١٧ .

(٢) الايه من سورة يوسف : ١٠٨ .

(٣) انظر لسان العرب : ٦٥/٤ .

(٤) مختار الصحاح : ٥٤

وهو على بصيره و لذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعد إعداداً عن طريق الوحـــى

و البصيرة في الدين كما يراها الداعيه ابن القيم : نور يقذفـــــــه الله في القلب يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل كأنه يشاهده رأى العين فيتحقق مـــع ذلك انتفاعه بما دعت اليه الرسل و تضرره بمخالفتهم[1] .

ثم بعد ذلك يبين رحمه الله تعالى مراتب البصيرة التي تقوى ايمان الداعيـــه و تجعله على بصيرة في أمر دينه و ربه سبحانه وتعالى فيقول انها ثلاث درجات .

احـــدهـــا : البصيرة في الاسماء و الصفات :

وهى أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله بـــــل تكون الشبه المعارضة لذلك عندك بمنزله الشبه و الشكوك في وجود الله وعقد هـــذا أن يشهد قلبك الرب تبارك و تعالى مستويا على عرشه متكلما بأمره و نهيه ، بصيـــرا بحركات العالم علوية و سفليه سميعا لاصواتهم ، رقيبا على ضمائرهم و أسرارهـــــم عليماً لا يخفى عليه مثقال ذرة في السموات و الاراض بصيرا يرى وبيب النمله الســـوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ..

و تفاوت الناس في هذه البصيره بحسب تفاوتهم في معرفة النصوص النبويـــة و فهمهـــا .

ثـــانيـــا : البصيرة في الامر و النهي :

وهى تجريده عن المعارضة بتأويل ، أو تقليد ، أو هوى ، فلا يقوم بقلبه شبهـــــة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله ، و الاخذ بـــــه ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد في تلقي الاحكام من مشكاة النصوص .

ثـــالثـــا : البصيرة فى الوعد و الوعيـــد :

وهى أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت خيرا و شرا ، عاجلا او آجلا فـــــي دار العمل و دار الجزاء ، وأن ذلك هو موجب الهيته و ربو بيته و عدله و حكمتـــه فان الشك في ذلك شك في الهيته و ربوبيته بل شك في وجوده . فإنه يستحيل عليـــه

---

(١) مدارج السالكيـــن : ١٣٩:١ .

خلاف ذلك ولا يليق أن ينسب اليه تعطيل الخليفة ، و إرسالها هملا ، وتركها سدى.

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية ولهذا كان الصحيح أن الجـــزاء معلوم بالعقل و إنما أهتدى إلى تفاصيله بالوحي [١].

فعلى الداعيه أن يتبحر في أمر دينه و يتقنه حتى يكون على بصيرة ومن ثـــم فإن عليه أن يكون على بصيرة في أحوال الدعاة السابقين فكل رسول زوده الله سبحانـــه بعاقبة السابقين سواء كانوا موءمنين أو مكذبين ، تلك سنه الله فساق لنا القصـــص ممن سبق وما جرى عليهم وما هى عاقبتهم وما سبب ذكر هذا القصص لهم قال تعالى : ((**وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فوءادك وجاءك في هذه الحق وموعظـــة وذكرى للموءمنين**))[٢].

ففي معرفة قصص الدعاة السابقين : تثبيت لفوءاد الداعيه وفيها حـــق و موعظة وذكرى للدعاة فالبصيرة بمآلهم تعطى الداعية دفعة وثقة بالله عز وجـــل و تصور له الحياة التي سيواجهها مع المدعو وما هى ردود فعلهم وكيف يواجه هـــذه الردود وما هى الاساليب التي اتبعها اولئك الدعاة وما هى وسائلهم .

حيث ان المدعو لم يتغير ولم يتبدل طبعه وخلقه .

فيستفيد الداعيه ممن سبقه من الدعاة .

ثـــانيـــا : البصيرة في حال من يدعى :

يقـــال : أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره . فإذا أراد الداعيه أن يدعـو قوما فإنه يجب عليه أن يعرف حالتهم الاعتقادية والمادية و الاقتصادية حتى يستطيـــع أن يستخدم لهم الاسلوب المناسب و يتخذ لهم الوسيله الناجحة .

فإنه ليس من المعقول أن يذهب الداعيه إلى قوم لا يجدون قوت يومهـــــم و يحثهم على الزهد و الانفاق في سبيل الله ، ولا يذهب الداعية الى قوم قد أحـــاط بهم العدو من كل جانب و يحظهم إلى كثرة العبادة والزواج و يترك الجهاد .

---

(١) انظر مدراج السالكين : ١/١٣٩ - ١٤٠ .

(٢) سورة هـود : ١٢٠ .

بل يجب على الداعية أن يتعرّف على علّة القوم وما يحيط بهم ثم يصف لهم العلاج لان الداعية كالطبيب لا بد أن يشخص المرض ثم يصف العلاج الصحيح

فالداعيه ينظر في حال من يدعوهم فإن كانوا اطفالا أستخدم لهم الاسلوب المناسب وان كانوا شيوخا كذلك أو نساء .

كما يجب عليه التعرف على العادات و التقاليد في الناحيه الاجتماعية فإن هذه العادات و التقاليد تعدى بعضها بعضا و تؤثر على الفطرة سلبا و إيجابا ولأعراف و التقاليد انواع منها ما له أصل ديني ومنها ما ليس له أصل الا الوراثة أو يكون دخيلا على المجتمع ، كما يجب أن يعرف الموقع الجغرافي فان له أثراً على سلوك المجتمع فان البلاد الصحراوية وشدة ما يلاقيه ساكنيها من الحر و البرد و ضيق العيش يُكوّن مزاج ساكنها بعكس البلاد ذات المناخ المعتدل فإنه يوفر لهم راحة في المعيشه الذى يكسبه طمأنينة وسكون الى حدما . فمثل هؤلاء يميلون الى النقاش الهادى و النفس الطويل بعكس سابقيهم الذي يتطلب أن يكون الداعيه هادئ البال واسع الصدر .

و هكذا في البلاد الزراعيه غير الدعوة في البلاد التي تعتمد على رعى الاغنام و الآبل و الابقار ، وكذا في البلاد الفقيرة غير البلاد الغنية فيجب على الداعية أن يكون بصيرا في حال من يدعي (١) .

ثانيا : الإخلاص :

الاخلاص قوة إيمانية تنبعث من أعماق المؤمن الذى عرف ربه حقيقة وأدرك معنى صفاته و أفضاله عليه فمن عرف ربه حقا بلغ هذه المنزلة العظمى التى هى لبّ هذا الدين وما يصاحبه و يوجبه من عمل بأن يكون الداعي إلى العمل بالدعوه كما يقول ابن القيم :

" رغبة العبد في الله ، ومحبّته له . وطلبه مرضاته والقرب منه

---

(١) أنظر ذلك في كتاب فن نشر الدعوه مكانا وزمانا للدكتور : محمد زين الهادى العرمابى ، دار العصمة الرياض . وهداية المرشدين :ص١٠٠ .

والتودد إليه و أمتثال أمره بحيث لا يكون الباعث له حظا من حظوظ الدنيا بل يأتي بها ابتغاء وجه ربه الاعلى [١]

لانه سبحانه لا يقبل الا الخالص لوجهه الخالي من جميع شوائب الشرك والنفاق و الرياء والمطامع كما بين ذلك سبحانه وتعالى بقوله : ((**وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**))[٢] .

وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم :((**قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه**))[٣] . وقال له :((**قل إن صلاتي و نسكي ومحياي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**))[٤] ، وقال :((**الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا**))[٥] .

ثم ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى بعد أن ذكر هذه الايات الدالة على وجوب الاخلاص المناقشة التي دارت مع أحد السلف وهو الفضيل بن عياض عندما سئل عن آية الملك قال : هو أخلصه وأصوبه قالوا : يا أبا على ما أخلصه و أصوبه ؟ فقال:

" أن العمل اذ كان خالصا ولم يكن صوابا . لم يقبل واذ كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا " .

و الخالص أن يكون لله . والصواب أن يكون على السنه ثم قرأقوله تعالى ((**فمن كان يرجو القاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا**))[٦][٧]

ثم ذكر رحمه الله الأدلة الواردة في السنة المطهرة .

ففي الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن : أخلاص العمل ، والنصيحة لولاة المسلمين ولزوم جماعتهم ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم)[٨] .

---

(١) رسالة الى كل مسلم لابن القيم: ص٣٥ .
(٢) سورة البينه الايه : ٥ .
(٣) سورة الزمر الايات : ١٤ ـ ١٥ .
(٤) سورة الانعام الايات : ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٥) سورة الملك الايات : ٢ .
(٦) سورة الكهف الايه : ١١٠ .
(٧) مدارج السالكين : ٢/٩٣ .
(٨) سنن ابن ماجه كتاب المناسك الباب ٧٦ ص ١٠١٦ .

و(سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل : يقاتل رياءاً ، ويقاتل شجاعـــــه ، و يقاتل حمية : أى ذلك في سبيل اللـه ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هـــي العليا فهو في سبيل الله)[١].

و في الحديث الصحيح الالهي يقول الله تعالى : ((أنا أغنى الشركاء عـــن الشرك . من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه))[٢][٣].

الى غير ذلك من الادله الصريحة في وجوب الاخلاص مما ذكر رحمه اللـــه

ثم نقل رحمه الله تعالى بعد ذلك عدة تعاريف للاخلاص فقال :

قيل هو إفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعه .

و قيل : تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين .

وقال بعضهم : الاخلاص أن لا تطلب على عملك شاهدا غير الله ، ولا مجازيا ســواه وقال صاحب المنازل[٤] ، الاخلاص : تصفية العمل من كل شوب .

أى لا يمازج عمله ما يشوبه من إرادات النفس : إما طلب التزين في قلـــوب الخلق ،وإما طلب مدحهـم وقضاء حوائجه أو غير ذلك من العلل و الشوائب .

ثم أجمل القول رحمه الله تعالى في قوله وعقد متفرقا تها فقال : إرادة مـــا سوى الله بعمله كائناً من كان[٥]، وبعد أن فرغ رحمه الله تعالى من ذكر التعاريف الوارده في الاخلاص أخذ يبين العوارض و الآفات و العوائق التي تعترض عمل الداعية وقـــد تفسده و تحرمه الاخلاص و تثبطه عن العمل وهى :

١) رؤيته عمله وملاحظته . ٢) طلب العوض عليه . ٣) رضاه به وسكونه اليـه.

ولكنه رحمهالله تعالى لا يغفل عن وضع الحل لتلك العوارض وكيفية الخـــلاص

---

(١) رواه البخارى في كتاب الجهاد الباب الخامس عشر حـ٣ ص٢٠٦ .
(٢) صحيح مسلم كتاب الزهد رقم الحديث ٤٦ باب تحريم الرياء،حـ٤/٢٢٨٩ .
(٣) مدارج السالكين : ٢/٩٤.
(٤) نفس المرجع : ٢:٩٦.
(٥) مدارج السالكين :٢/٦٥ .

منها حتى يكون الداعيه على بينه من أمره فيقول : فالخلاص من رؤية عمله .

أن يشاهد منّة الله عليه ، وفضله وتوفيقه ، وأنه بالله لا بنفسه ، وإنه إنما أوجب عمله ومشيئة الله لا مشيئته هو كما قال تعالى : ((**وما تشاءون الا أن يشاء الله رب العالمين**))[١] .

فالنفس جاهلة ظالمه ، و طبعها الكسل و إيثار الشهوات ، فالخير الذى يصدر منها هو من الله و به ، لا من العبد ولا به كما قال تعالى : ((**ولولا فضل الله عليكم و رحمته ما زكى منكم من أحد أبدا و لكن الله يزكي من يشاء**))[٢] .

فكل خير في العبد فهو فضل الله ومنته ، فرؤية العبد لأعماله في الحقيقه كرؤيته لصفاته الخلقية من سمع و بصر و صحه و سلامة أعضاء فالكل مجرد عطاء الله فالذى يخلص العبد من هذه الآفة معرفة نفسه و معرفة ربه .

أما الآفة الثانية و كيفية الخلاص منها وهى طلب العوض عن عمله .

علم العبد أنه عبد محض ، و العبد لا يستحق على خدمته لسيده عوضا ولا أجرة .اذهو يخدمه بمقتضى عبوديته . فما يناله من سيده من الأجر و الثواب تفضل منه و إحسان إليه ، لا معاوضة .

أما الذى يخلصة من الآفه الثالثة وهى رضاه بعمله و سكونه إليه فهي أمران .

الأول : مطالعة عيوبه و آفاته ، و تقصيره فيه وما فيه من حظ النفس و حظ الشيطان فقل عمل من الاعمال الا وللشيطان فيه نصيب كما قال المصطفى صلى الله عليه وسلم عن التفات الرجل في صلاته : (هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد)[٣] ، وأما حظ النفس فلا يعرفه الا أهل البصائر .

---

(١) سورة التكوير الايه :٢٩ .

(٢) سورة النور الايه : ٢١ .

(٣) صحيح البخارى كتاب الآذان الباب ٩٣ ، جـ١ ص١٨٣ باب الالتفات في الصلاه .

الثاني : علمه بما يستحق الرب جل جلاله : من حقوق العبوديه وآدابها الظاهرة و الباطنه وشروطها وأن العبد أضعف و أعجز وأقل من أن يوفيها حقا ، وأن يرضى بها لربه ، ويستحي من مقابلة الله بعمله [1].

ثالثاً : الصبر :

نظرا لأهمية الصبر في حياة الداعيه ، و الصبر و الدعوه جزآن لا ينفصل احداهما عن الآخر ، فإن الداعية طالب مستدعى ومن كان هذا حاله فلا بد من جهد و كد و تعب و مشقه ، وهذا حال طلاب الدنيا فإنا نرى بعضهم يبذل حياته في سبيل تحقيق رغباته فما بالك بالداعيه الذى يدعو في خط معاكس لرغبات النفس الامارة فهو يدع الى سمو النفس بترك الرذائل و الشهوات و الرغبات ، و العمل على ما هو ضدها ، فالنفس ميّالة للدعة و الشهوة و حب الذات ، فيحدث الصدام بين الداعيه و المدعو مما يؤدي إلى معاداته و محاربته هذا أولا .

ثانيا : أن الله سبحانه و تعالى سن سنه في الدعاة وأنهم سيعادون و يحاربون و يؤذون كما حدث لجميع الدعاة وهذا جانب يجب أن يفطن له الداعيه .

ثالثا : الدعوة عبادة و العبادة قرينة الابتلاء لذلك فان الداعيه سيواجه من اعداء الدعوة والاسلام ما سيواجهه منهم . وعند ذلك تكمن أهمية الصبر .

و عندما أدرك ابن القيم رحمه الله تعالى اهميته بادر إلى الترغيب فيه و توضيح معالمه فذكره في عدد من كتبه بل إنه أفرد له كتابا قيما أسماه (عدة الصابرين و ذخيرة الشاكرين) ، أودعه من كنوز الصبر و أسراره و آفاته وما يتعلق به من الحيثيات ما لا تجده في غيره و نحن هنا سوف نذكر ما يتعلق بالداعيه من أمور الصبر مما يفيد الداعيه و يعينه على السير في دعوته الى الله بدون عائق وذلك حسب المنهج الذى سار عليه ابن القيم الذى قال ـ

" بالصبر و اليقين تنال الامامة في الدين فان الداعي الى الله تعالى لا يتم

---

(١) مدارج السالكين بتصرف : ٢/٩٦ـ٩٨ .

له أمره الا بتعيينه للحق الذى يدعو اليه و بصيرته به وصبره على تنفيذ الدعوة الى الله باحتمال مشاق الدعوة وكف النفس عما يوهن عزمه ويضعف إرادته ، فمن كان بهذه المثابه كان من الائمة الذين يهدون بأمره تعالى [١].

وقد عرّف ابن القيم رحمه الله تعالى الصبر فقال :

" الصبر في اللغة هو الحبس والكف " .

وفي الاصطلاح : هو حبس النفس عن الجزع والتسخط . وحبس اللسان عن الشكوى وحبس الجوارح عن التشويش [٢].

وأما عن حقيقة الصبر : فهو خلق فاضل من أخلاق النفس ، يتمنّع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل ، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها [٣].

الداعية و الصبر :

قال تعالى :((الٓمٓ أحسبالناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا هم لا يفتنون))[٤].

فكل مؤمن مبتلى الا أن الداعية يكون ابتلاؤه من جهتين من جهة ايمانه و من جهة أنه داعية إلى الله تعالى ، وهذا ما نلاحظه في حياة الدعاة وعلى رأسهم أنبياء الله عليهم افضل الصلاة و التسليم . وقد بين ابن القيم رحمه الله أن هذا الابتلاء رحمة بالدّعاة واختبارا ، يحصل لهم به الكمال النفسي والعاقبة الحميده حيث قال :

" اذا تأملت حكمته سبحانه فيما أبتلى به عباده و صفوته ، بما ساقهم به الي أجل الغايات وأكمل النهايات التي لم يكونوا يعبرون اليها الا على جسر من الابتلاء والامتحان وكان ذلك الجسر لكماله كالجسر الذى لا سبيل الى عبورهم إلى الجنة

---

(١) أعلام الموقعين : ١٣٥/٤ .
(٢) مدارج السالكين ١٦٢/٢ .
(٣) عده الصابرين : ٢٩ .
(٤) سورة العنكبوت الايات : ١ ـ ٢ .

الا عليه ، وكان ذلك الابتلاء و الامتحان عين المنهج في حقهم و الكرامه فصورته ابتلاء و امتحان و باطنه فيه الرحمة و النعمه ، فكم لله من نعمة جسيمة ومنة عظيمة تجنى من قطوف الابتلاءو الامتحان .

فاذا تأملت حال ابينا آدم عليه السلام وما آلت إليه محنته من الاصطفاء و الاجتباء و التوبة و الهداية .

وكذلك أبينا الثاني نوح عليه الصلاة و السلام وما آلت إليه محنته و صبره على قومه ، تلك القرون كلها حتى أقر الله عينه و أغرق أهل الارض بدعوته وجعل العالم بعده من ذريته و جعله خامس خمسة وهم أولو العزم الذين هم أفضل الرسل .

ثم تأمل حال ابينا الثالث ابراهيم عليه السلام إمام الحنفاء وشيخ الانبياء تأمل ما آلت إليه محنته وصبره وبذله نفسه لله ونصر دينه إلى أن أخذه الله خليلا لنفسه .

و محنته بذبح ولده فإن الله جازاه بأن بارك في نسله وكثر حتى ملأ السهل و الجبل .

و هكذا يستمر رحمه الله تعالى بذكر كثير من الانبياء عليهم أفضل الصلاة و التسليم وبين الحكمة من وراء ابتلائهم وما ساقه الله لهم من النعم و الفوز في النهاية حتى وصل الى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال وتأمل سيرته مع قومه و صبره في الله واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله و تلون الاحوال عليه من سلم ، وخوف ، و غنى، وفقر ، وأمن ، واقامة في وطنه وظعن عنه و تركه لله . وقتل أحبابه و أوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الاذ ى من القول و الفعل و السحر و الكذب و الافتراء عليهو البهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو الى الله فلم يوءذ نبي ما أوذى ولم يحتمل في الله ما أحتمله .

فلم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه و جعله سيد الناس كلهم فإن الله تعالى لا يتكرم عليه أحد وهو أكرم الاكرمين فمن ترك لوجهه أمرا أو فعله لوجهه بذل الله له أضعاف ما تركه من ذلك الامر أضعافاً مضاعفه .

فله سبحانه الحكم في ابتلاء أنبياءه ورسله و عباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته . وهل وصل من وصل الى المقامات المحمودة و النهايات الفاضله الا على جسر المحنة و الابتلاء [١].

فمما تقدم يتضح لنا من قول ابن القيم رحمه الله تعالى أنه لا يمكن للداعية أن ينال مراده ويكون إماما يقتدى به الا أن يمر بجسر الابتلاء ، فاعلم أيها الداعية أن الابتلاء شرط في دعوتك و حياتك فاحسب لذلك حسابه و اعد له العده .

منهج القرآن الكريم في الصبر

بعد ان اتضح لك الامر وأن الداعيه لا يمكنه الوصول إلى مبتغاه الا أن يمر بجسر الابتلاء فإن هذا الابتلاء يحتاج الى وسيلة يستطع بها أن يذلل هذه العقاب التي لا مفر منها ولا بد أن تقع بأمر الله و فرضه فانه سبحانه قد دلنا على السبيل الا مثل لاجتيازها و تذليلها حتى يصل إلى بر السلامه .

الا وهو الصبر الذى وضح لنا القرآن الكريم عواقبه وفضله بالترغيب فيه و النهي عن ضده وقد ركز ابن القيم على ذلك وذكر بشارات القرآن للصابرين و أنواع الصبر وغير ذلك كما قال : قال الامام أحمد رحمه الله تعالى : ذكر الله سبحانه الصبر في القرآن في تسعين موضعا [٢].

وقد ذكر ابن القيم أكثر من عشرين نوعا من أنواع الصبر التي وردت في القرآن الكريم [٣] ، من حيث الامر به ، و النهي عما يضاده ، وتعليق الفلاح به و مضاعفة أجر الصابرين وغير ذلك من الانواع و ذكر رحمه الله تعالى بشارات القرآن الكريم للصابرين فقال :

" ولقد ضمن الوافي الصادق لاهله في محكم الكتاب أنه يوفيهم أجرهم بغير حساب ، وأخبر أنه معهم بهدايته و نصره العزيز و فتحه المبين فقال تعالى : **((واصبروا ان الله مع الصابرين))** [٤].

---

(١) مفتاح دار السعادة بتصرف : ١/٣٧١ ـ ٣٧٤ .
(٢) عدة الصابرين : ٩٨ .
(٣) نفس المرجع السابق .
(٤) سورة الانفال الايه : ٤٦ .

وأخبر أنه مع الصبر والتقوى لا يضر كيد العدو لو كان ذا تسلط فقال تعالى ((**وان تصبروا و تتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ان الله بما يعملون محيط**))[١].

وأخبر عن نبيه يوسف الصديق أن صبره و تقواه وصّلاه إلى محل العزّ و التمكين فقال تعالى : ((**إنه من يتق و يصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**))[٢].

وأخبر محبته لأهله ، وفي ذلك أعظم ترغيب للراغبين فقال تعالى : ((**والله يحب الصابرين**))[٣]. ولقد بشر الصابرين بثلاث كل منها خير مما عليه أهل الدنيا يتحاسدون فقال تعالى : ((**وبشر الصابرين اللذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وانا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون**))[٤][٥].

ومن هذه البشارات وهذا الاهتمام من الرب تبارك وتعالى بترغيب المؤمن في الصبر تتضح لنا عظمة هذه الصفة المباركة و مكانتها في حياة الداعية وأنها من أجل مقامات الايمان .

بل هي نصف الدين كما يقول ابن القيم رحمه الله تعالى :

" فان الايمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر . قال تعالى : ((**ان في ذلك لآيات لكل صبّار شكور**))[٦].

ثم يوضح رحمه الله الامر فيقول :

" وهو أن العبد لا يخلو قط من أن يكون في نعمة أو بلية فإن كان في نعمة ففرضها الشكر و الصبر ، أما الشكر فهو قيدها و ثباتها و الكفيل بمزيدها ، وأما الصبر فعن مباشرة الاسباب التي تسلبها وعلى القيام بالاسباب التي تحفظها .

وأن كان في بلية ففرضها الصبرو الشكر ايضا أما الصبر فظاهر ، وأما الشكر فللقيام بحق الله عليه في تلك البلية فان لله على العبد عبوديته في البلاء كما له عليه عبودية في النعماء وعليه أن يقوم بعبوديته في هذا وهذا "[٧].

---

(١) سورة آل عمران الايه : ١٢٠ .
(٢) سورة يوسف الايه : ٩٠ .
(٣) سورة آل عمران الايه : ١٤٦ .
(٤) سورة البقره الايه : ١٥٥ .
(٥) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين : ١٨ - ١٩ .
(٦) سورة سبأ الايه : ١٩ .
(٧) انظر طريق الهجرتين وباب السعادتين : ٢٦٥ وعدة الصابرين : ٢٣ .

أقســـــام الصـــــبر

بعد أن عرفنا عظم الصبر و حاجة الداعية إليه بقي أن نعرف أقسامه باعتبـــار متعلقه وبماذا يتعلق الصبروعلى ماذا نصبر .

وقد بين ابن القيم أن الصبر باعتبار متعلقه ثلاثه اقسام فقال :

" ١) صبر على الأوامر و الطاعات حتى يوءديها .

٢) صبر على المناهي و المخالفات حتى لا يقع فيها .

٣) وصبر على الاقدار و الاقضية حتى لا يتسخطها ".

فالاولان : صبر على ما يتعلق بالكسب و للعبد فيها نصيب من نفسه لأنـــــه صبر أختياري . أما الثالث : فهو صبر على ما لاكسب للعبد فيه ولا اختيار فيه .

و الأولان أكمل من الثالث والاول أكمل من الثاني . ولذلك كان صبر يوســـف عليه السلام عن مطاوعة أمرأة العزيز على شأنها : أكمل من صبره على القاء اخوتـــه له في الجبّ لانها أمور جرت عليه بغير اختياره وليس له حيلة فيها غير الصبـــر ، أما صبره الآخر فهو اختياري ، و محاربة للنفس لا سيما وقد توفرت دواعي الموافقه ، من شباب ، وغربة ، وعزوبه ، وعبودية ، والمرأة جميلة وذات منصب و سيدته وغيـــاب الرقيب وهي الداعيه له وقد توعدته بالسجن والصغار ومع هذه الدواعي كلها صبر أختيارا و أيثارا لما عند الله .

و أما أفضلية الأول على الثاني ، فإن الصبر على آداء الطاعات : أكمـــــل من الصبر على اجتناب المحرمات وأفضل فإن مصلحة فعل الطاعة : أحب الى الشـــارع من مصلحة ترك المعصية ، ومفسدة عدم الطاعة : أبغض إليه وأكره من مفسدة وجـــود المعصية [1] .

الأسـباب المعينـة علـى الصـــبر

لا شك أن لابن القيم رحمه الله منهجا خاصا في الدعوة فإنه إذا دعا الـــى

---

(١) أنظر مدارج السالكين : ١٦٣/٢ .

شيء يذكر جميع الجوانب التي تكتنف موضوعه و عندما تحدث عن الصبر وفضله و آفاته فإنه لم ينس أن يذكر الاسباب التي تعين الداعيه على أن يتمسك بهذه الصفة الفاضله بل تدفعه على أن يتصف بهذه الصفه لما ذكره من الاسباب التي تدفعه وفعا أن كان صاحب عقل إلى أن يكون من الصابرين . فقد ذكر رحمه الله تعالى :

" أن الصبر عن المعصية ينشأ من أسباب عديده :

أحدها : علم العبد بقبحها ورذالتها ، وأن الله حرمها ونهى عنها حماية عن الدنايا و الرذائل كما يحمى الوالد الشفيق ولده عما يضره .

والثاني : الحياء من الله سبحانه ، فإن العبد متى علم بنظره إليه وأنه بمرأى منه و مسمع - استحيا من ربه أن يتعرض لمساخطه .

والثالث : مراعاة نعمة عليك و إحسانه إليك فإن الذنوب تزيل النعم ولا بد فما أذنب عبد ذنبا الا زالت عنه نعمة كما قال تعالى : ((إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))[1] .

وفي مثل هذا قيل

اذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

الرابع : خوف الله وخشية عقابه . وهذا انما يثبت بتصديقه في وعده ووعيده .

الخامس : محبة الله . وهى من أقوى الاسباب في الصبر عن مخالفته و معصيته فان المحب لمن يحب مطيع .

السادس : قوة العلم بسوء عاقبة المعصية ، وقبح أثرها و الضرر الناشيء منها : من سواد الوجه و ظلمة القلب ، وضيقه وغمه ، و حسرته وألمه ، والقسوه و الحيرة في أمره ، وتخلى وليه و ناصره عنه ، وتولى عدوه المبين له وغير ذلك من العواقب الوخيمة التي تصيب العاصي .

السابع : وهو الجامع لهذه الاسباب كلها : وهو ثبات شجرة الايمان في قلبه

---

(١) سورة الرعد الايه : ١١ .

فكلما كان ايمانه أقوى كان صبره أتم واذا ضعف الايمان ضعف الصبر .

ثانيا : الصبر على الطاعات

و قد بين رحمه الله أن الصبر على الطاعات ينشأ من معرفة هذه الاسباب السابقة .

وكذلك من معرفة ما تجلبه الطاعات من العواقب الحميدة و الآثار الجميلة ومن أقوى الاسباب التي تعين على الصبر على الطاعه هى الايمان بالله ومحبته سبحانه وتعالى فكلما قوى داعى الايمان و المحبه في القلب كانت استجابته للطاعة بحسبه .

ثالثا : الصبر على البلاء

ثم بين رحمه الله أن الصبر على البلاء ينشأ من أسباب عديده :

أحدها : شهود جزائها وثوابها .

ثانيا : شهود تكفيرها للسيئات و محوها لها .

ثالثا : شهود القدر السابق الجارى بها وأنها مقدورة في أم الكتاب فجزعه لا يزيده الا بلاءاً .

الرابع : شهود ترتبها عليه بذنبه كما قال تعالى : ((**وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم**)) [١] .

قال على بن ابي طالب ما نزل بلاء الا بذنب ولا رفع الا بتوبة .

الخامس : أن يعلم أن هذه المصيبة دواء نافع ساقه اليه الطبيب العليم بمصلحته الرحيم به وأن يعلم عقبى هذا الدواء من الشفاء و العافيه و الصحه وزوال الالم وحسن تأثيره قال تعالى : ((**عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم**)) [٢] .

وذكر غير ذلك من الاسباب التي أنصح كل مسلم بمراجعتها و تفحصها في مرجعها الاصلي [٣] .

---

(١) سورة الشورى الايه / ٣٠ .

(٢) سورة البقره الايه : ٢١٦ .

(٣) انظر طريق الهجرتين من ص ٢٧٠ الى ٢٧٧ .

التواضـــــع

قال الله تعالى : ((وعبادالرحمن الذين يمشون على الارض هونا)) (١) . أى سكينة ووقارا متواضعين غير أشرين ولا مرحين ولا متكبرين .

وفي مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :(أن الله أوحى إلـــــــي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ولايبغي أحد على أحد . (٢) .

و التواضع كما حكاه ابن القيم عن الجنيد : هو خفض الجناح ولين الجانب (٣)

وهو أن يمشي المؤمن بين الناس هونا ، وأن يخفض جناحه لمن يلقاه ، وأن لا يتعالى على الناس بمنصب أو جاه ، وأن يأكل مع الفقير و الغني أى طعام كان الـــــى غير ذلك من أوجه التواضع ولك أيها الداعيه برسول الله أسوة حسنه وهو الذي لو شاء أن تكون له جبال مكه ذهبا لجعلها الله ، وهو الذى دان له جميع العرب ومع ذلك كان: يمر على الصبيان فيسلم عليهم ، ولم ينتقم لنفسه أبدا ، وكان في بيتـــــه في خدمة أهله ، وكان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، و يحلب الشاة لأهله ، ويأكل مـــع الخـــــــادم .

وكان صلى الله عليه وسلم هين المؤمنه لين الخلق ، كريم الطبع جميل المعاشرة طلق الوجه بساما متواضعا من غير ذلة ، جوادا من غير سرف ، رقيق القلب رحيمـــــا بكل مسلم خافظ الجناح للمؤمنين ، لين الجانب لهم (٤) .

من أجل ذلك وصل صلى الله عليه وسلم إلى ما وصل إليه من محبة النـــــاس له ، و الرغبة فيه من الصغير و الكبير حتى أصبح من رآه بديهة هابه ، فإن مـــــن تواضع لله رفعه (٥) ، و صدق من قال :

---

(١) سورة الفرقان الايه : ٦٣ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنه برقم ٢٨٦٥ باب الصفات التي يعرف بها في الدنيـــا أهل الجنه وأهل النار : ٢١٩٨/٤ .

(٣) مدارج السالكين :٣٤٠/٢ .

(٤) انظر مدارج السالكين : ٣٤١/٢ - ٣٤٢ .

(٥) اقتباس من قول النبى صلى الله عليهاسلم من الحديث في مسلم برقم ٢٥٨٨ :٢٠٠١/٤

تواضـــع تكـــن كالنجـــم لاح لناظـــر على صفحـــات المـــاء وهو رفيـــع
ولاتك كالدخـــان يعلـــو بنفســـه الى طبقات الجـو هـو وضيـــع

و اعلم أيها الداعية أنك تعمل لتكسب اولا رضا الله سبحانه في تنفيذ أمـــره و ثانيا عابد الناس لينضموا الى جانب ما تدعو اليه . ولا يمكنك أن تحصّل أحـــد الكسبين إلا بالتواضع .

وكم من داعية لم يقبل من كلامه شيء لما يرى فيه الناس من كبر وأنفه .

وبعد أن ذكر رحمه الله التواضع وما يجلبه هذا الخلق من حب النـــاس و الرفعة و الكرامه ذكر نقيضه وما يجلبه من البغض و الكراهه لصاحبه في الدنيـــا ، و النار و العياذ بالله في الآخره الا وهو خلق الكبر فقال :

" أول ذنب عصي الله به أبوا الثقلين : الكبر و الحرص . فكان الكبـــر ذنب ابليس اللعين فآل أمره إلى ما آل إليه . وذنب آدم على نبينا وعليه السلام كـــان من الحرص و الشهوة فكان عاقبته التوبة و الهدايه .

فأهل الكبر و الاصرار ، و الاحتجاج بالاقدار : مع شيخهم و قائدهم الى النار ابليس . فجعل الله النار دار المتكبرين كما قال تعالى :((**فادخلوا أبواب جهنـــم خالدين فيها فلبئس مثوى المتكبرين**))[١] ، وقال ((**أليس في جهنم مثوى للمتكبرين**))[٢] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لايدخل الجنه من كان في قلبه مثقال ذرة مـــن كبر)[٣][٤] .

درجـــات التواضـــع

ثم ذكر رحمه الله درجات التواضع نقلا عن الهروي فقال وهو على ثلاث درجات

الدرجـــه الأولـــى :

التواضع للدين . وهو أن لايعارض بمعقول منقول ، و يتهم للدين دليل ، ولا يرى

---

(١) سورة النحل : ٢٩ .
(٢) سورة الزمـر : ٦٠ .
(٣) رواه مسلم في الصحيح كتاب الايمان برقم ١٤٧ باب تحريم الكبر وبيانه :٩٣/١ .
(٤) انظر مدارج السالكين : ٣٤٥/٢ .

الى الخلاف سبيـــــلا .

وبعد ذلك أخذ يحلل هذه الدرجة فقال : إن التواضع للدين هو : الانقـياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم و الاستسلام له و الاذعان وذلك بثلاثة أشياء .

الاولـــ : أن لا يعارض شيئا مما جاء به بشيء من المعارضات الاربع السارية في العالم المسماه : بالمعقول ، و القياس ، والذوق ، والسياسه .

الثانـــي : أن لا يتهم دليلا من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة ، او ناقـــص الدلاله ، أو قاصرها ، أو أن غيره كان أولى منه ، ومتى عرض له شيء مـــن ذلك فليتهم فهمه ، وليعلم أن الآفه منه ، و البلية فيه كما قيل .

وكـــم من عائـــب قولا صحيحـــا وآفـــته مـــن الفهـــم السقيـــم

ولكن تأخـــذ الاذهـــان منـــــه علـــى قـــدر القرائـح والفهـــوم

وإذا رأيت من أدلـــة الدين ما يشكل عليك و ينبو فهمك عنه فاعلم أنه لعظمتـــه و شرفه استعصى عليك وأن تحته كنز من كنوز العلم ولم تؤت مفتاحه بعد .

الثالـث : أن لا يجد الى خلاف النص سبيلا البته . لا تقليدا لشيخ ولا لرأى يـراه اذا ما وجد النص الصريح .

الدرجـــه الثانيـــه :

أن ترضى لما رضي الحق به لنفسه عبدا من المسلمين اخا ، وأن لا ترد علـــى عدوك حقا . وأن تقبل من المعتذر معاذيره .

يقول رحمه الله عن هذه الدرجه :

" اذا كان الله قد رضي أخاك المسلم لنفسه عبدا . أفلا ترضى أنت به أخـــا فعدم رضاك به أخا - وقد رضيه سيدك الذى أنت عبده عبدا لنفسه - عين الكبر .

قوله : ((**وأن لا ترد على عدوك حقا**)) ، أى لا تصح لك درجة التواضـــع حتى تقبل الحق ممن تحب وممن تبغض . واذا لم ترد عليه حقه ، فكيف تمنعـــه حقا له قبلك ؟ .

واما " قبولك من المعتذر معاذيره " أن من أساء اليك ثم جاء يعتذر مـــن

اساءته فإن التواضع يوجب عليك قبول معذرته حقا كانت أو باطلا و تكل سريرته الى الله تعالى كما فعل رسول الله مع المنافقين الذين تخلفواعنه في الغزو .

الدرجه الثالثه:

"أن تتواضع للحق . فتنزل عن رأيك و عوائدك في الخدمه وروءية حقك في الصحه ، وعن رسمك في المشاهده "

يقول رحمه الله " التواضع " بأن تخدم الحق سبحانه . و تعبده بما أمرك به ، على مقتضى أمره لك لا على ما تراه من رأيك ولا يكون الباعث لك داعي العادة .

و اما " نزوله عن روءية حقه في الصحبة " فمعناه أن لا يرى لنفسه حقا على الله لأجل عمله فان عبوديته مع الله بالفقر المحض ، و الذل و الانكسار ، وأن عدم روءية العبد لنفسه حقا على الله لا ينافي ما أوجبه الله على نفسه وجعله حقا لعبده[١].

الزهد

قال تعالى : ((ما عندكم ينفد وما عند الله باق))[٢] ، وقال ((اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينه ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الاموال و الاولاد . كمثل غيث أعجب الكفار نباته . ثم يهج فتراه مصفرا . ثم يكون حطاما ، وفي الآخرة عذاب شديد و مغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور))[٣].

وقال : ((قل متاع الدنيا قليل ، والآخره خير لمن اتقى))[٤]. وقال : ((ولا تمد ن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير و أبقى))[٥].

---

(١) مدارج السالكين بتصرف : ٢/٣٤٧- ٣٥٢ .

(٢) سورة النحل الايه : ٩٦ .

(٣) " الحديد " : ٢٠ .

(٤) " النساء " : ٧٧ .

(٥) " طه " : ١٣١ .

يقـول ابن القيـــم :

" القرآن الكريم مملوء من التزهيد في الدنيا ، و الاخبار بخستها وقلتهـــا و انقطاعها ، و سرعة فنائها ، و الترغيب في الاخره ، والاخبار بشرفها ودوامهـــا فإذا أراد الله بعبد خيرا أقام في قبله شاهدا يعاين به حقيقه الدنيا والاخره و يوثـر منها ما هو أولى بالايثار [١] ، ثم يبين رحمه الله تعالى أقوال الناس في الزهد وبيـــن أن كلا أشار الى ذوقه و نطق عن حاله وذكر قول شيخ الاسلام في الزهد بأنه ترك مـــا لا ينفع في الاخره " .

وقال هذه العباره من أحسن ما قيل في الزهد وأجمعها [٢].

وقد قال الامام احمد بن حنبل : الزهد على ثلاثة أوجه . الاول ترك الحـرام وهو زهدالعـوام و الثاني : ترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص .

والثالث : ترك ما يشغل عن الله وهو زهد العارفين .

والذى أجمع عليه العارفون : أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا ، وأخـذه في منازل الآخره ، وعلى هذاصنف المتقدمون كتبهم كالزهد لعبدالله بن المبارك و للامام أحمد و غيرهم ولا يتم اسم الزهد لأحد حتى يزهد في ستة اشياء .

المال ، و الصور ، الرياسه ، والناس ، والنفس ، وكل مادون الله [٣].

وقد بين رحمه الله أن الزهد لا يعني رفضها و تحريمها و انها تنافـــي الزهد ودلل على ذلك بأن داود و سليمان عليهما السلام أزهد أهل زمانهما ولهمـــا من المال و الملك والنساء ما لهما . وكان نبينا صلى الله عليه وسلم من أزهد البشر على الاطلاق ، وله تسع نسوة ، وكان على بن ابي طالب و الزبير وعثمان وعبد الرحمـــن بن عوف رضي الله عنهم من الزهاد مع ما كان لهم من الاموال وذكر غيرهم من سلـــف هذه الامة .

---

(١) مدارج السالكين : ١٠/٢ .
(٢)(٣) نفس المرجع : ١١/٢ .

ثم بين أحسن ما قيل في الزهد من كلام فقال : ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا اضاعة المال ، ولكن أن تكون بما في يد الله أو ثق منك بما في يدك . وأن تكون في ثواب المصيبة اذا أصبت بها - أرغب منك فيها لو لم تصبك [١].

والمراد منك أيها الداعيه :" التجرد عن المطامع ، و الزهد في الدنيا لا أعني به زهداً ، نصرانيا ولا زهدا رهبانيا ، ولا رهبانية في الاسلام ولكن الدعوة تحتاج الى شيء من سمو النفس ، وعلو الهمة والتجرد عن المطامع ،و الزهادة في المناصب و الوظائف الكبيره .

فإن من توجهون إليهم الدعوة اذا علموا أنكم تنافسونهم في ملكهم وفيما وسع الله به عليهم فإنهم يشكون في اخلاصكم ويكونون حربا عليكم [٢]" .

وقد أكثر رحمه الله تعالى من الصفات والاخلاق الحميدة التي يجب توفرها في الداعيه بصفته خليفة رسول الله صلى الله عليهوسلم الذى حمل مشاعل الاخلاق كلها .

فتحدث عن العفه ، التي تحمله على اجتناب الرذائل و القبائح من القول والفعل و تحمله على الحياء وهو رأس كل خير و تمنعه من الفحشاء و البخل و الكذب والنميمه والغيبه وتحدث عن الشجاعة النفسية : التي تحمله على عزة النفس وإيثار معالى الاخلاق ،و الشيم،وعلى البذل،والندى الذى هو شجاعة النفس وقوتها على اخراج المحبوب ومفارقته .

وتحمله على كظم الغيظ والحلم فإنه بقوة شجاعته يمسك عنانها و يكبحها بلجامها عن النزغ والبطش كما قال النبي صلى الله عليه وسلم :(ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد : الذى يملك نفسه عند الغضب)[٣].

إلى غير ذلك من الاخلاق الفاضلة التي تحدث عنها رحمهالله تعالى من العدل و الاناة والرفق والحلم والرحمة [٤].

---

(١) مدارج السالكين : ١٣/٢ .
(٢) حكم الدعوه وصفة الدعاه ابو الحسن الندوى ص ٢٥ .
(٣) رواه البخارى كتاب الادب باب الحذر من الغضب ٩٩/١:٧٦ .
(٤) انظر مدارج السالكين : ٣٢٠/٢ .

الصـــــدق

الصدق منجات للعبد ومنبع الثقة صفـــة لازمة للمؤمن لا تنفك عنه قال النبي صلـــى الله عليه وسلم (يطبع المؤمن على الخلال كلها الاالخيانة و الكذب)[١] . و هـــذا لان الكذب من اسقط الصفات و أقبحها و اتفق عقلاء العالم على قبحها و هبوط صاحبها عن مصاف الرجوله .

ويكفي فيه اهانـــهوخزي أن يشير الناس اليك بالكذب ، وأن يأتـــي مـــــن عرف بهذه الصفة يوما بكلام صدق فيكذبه الناس ، وأنها من صفات المنافقين .

يقول ابن القيم رحمهالله عن الصدق :

" هو الطريق الاقوم الذى من لم يسر عليه فهو من المنقطعين الهالكيـــن وبـه تميز أهل النفاق من أهل الايمان من نطق به علت على الخصوم كلمته فهـــو روح الاعمال و محك الاحوال[٢] .

ومن أعظم صفات النبي صلى الله عليه وسلم التي كانت تقف عثرة في طريـــق أعدائه أنهم لم يجرءوا عليه كذبه رأوه بما جاء به لاتصافه عندهم بهذه الصفه الكريمـــه و معرفته بها ، وهى في نفس الوقت كانت دليلا على صدق ما جاء به و إيمان الكثيـــر من الناس بسببها .

وقد أمر سبحانه أهل الايمان أن يكونوا مع الصادقين فقال : ((**يا ايها الذين أمنوا أتقوا الله وكونوا مع الصادقين**))[٣] ، وقسم الله سبحانه الناس الى صادق ومنافـــق فقال : ((**ليجزى الله الصادقين بصدقهم و يعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم**))[٤] والإيمان أساس الصدق و النفاق أساس الكذب[٥] ، و الصدق مرتبط بالايمان والتقوى كمـــا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلـــــى

---

(١) رواه أحمد في المسند برقم ٢٢٢٢٤ ـ ٢٥٢/٥ .
(٢) مدارج السالكين : ١٧٩/٢ .
(٣) الايه من سورة التوبه : ١١٩ .
(٤) الايه من سورة الاحزاب : ٢٤ .
(٥) انظر مدارج السالكين : ٢٨٠/٢ .

الجنه ، وان الرجل ليصدق حتى يكون صديقا ، وان الكذب يهدى الى الفجـــــــور، وان الفجور يهدى الى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذبا "[١].

وابن القيم رحمه الله بين أن الصدق ليس مقتصرا على الصدق في القـــــول فقط بل ان الصدق يكون فى ثلاثة أمور هى :

صـــــدق في الاقـــوال ، وصـــــدق في الأعمال ، وصـــدق فـــي الأحـــوال

فالصدق في القول هو استواء اللسان على الاقوال وعدم التحريف فيها والزيادة و النقصان مما يصور الكلام بغير ما قصد منه أو يختلق قولا يريد به شرا .

واما الصدق في الاعمال هو استواء الأفعال على الامر و المتابعة ، لما جاء به المصطفى صلى الله عليهوسلم وأما الصدق في الاحوال : هو استواء أعمال القلب و الجوارح على الاخلاص لله و افراغ الوسع وبذل الطاقة . فبذلك يخرج جميع أنواع الكذب ســـــواء كانت قولية أو عمليه من اعمال القلب أو الجوارح [٢].

أخـــــــلاق الداعيـــــــة :

لاشك أن الاخلاق والصفات ، متلازمة ومترابطة ، فان الخلق اذا استحكـــــــم في الشخص أصبح صفة له فمثلا خلق الصدق ، أو الحلم ، أو التواضع اذا كان خلقـــــا ملازما للإنسان فانه يصبح صفه لازمة له فنقول هذا موصوف بالصدق أو الحلم أو التواضـــع

وهذا ما قصدناه في صفات الداعية السابقة ، اما هنا فنريد ان نوضـــــــح أخلاق الداعية عموما التي تمثل الدين وهى حسن الخلق الذى يقول عنه ابن القيم أنـــه " بذل الجميل وكف القبيح . و يذهب الى أن الدين كله خلق فمن زاد عليـــك في الخلق زاد عليك في الدين [٣]".

وسوف نتعرف على هذه الاخلاق من منطلق معيار السلوك الانساني الـــــــذى تمثل في سلوك النبى صلى الله عليه وسلم الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وهذا اقـــرب

---

(١) رواه البخار ى في كتاب الادب رقم الباب ٦٩ حـ ٩٥/٧ .
(٢) انظر مدارج السالكين : ٢٨١:٢ .
(٣) أنظر مدارج السالكين : ٣٢٠/٢ .

الوسائل في ترقية الاخلاق الانسانيه لمن أراد أن يرتفع الى مصاف الاولياء و الصالحين .

التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم :

أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالتأسي بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم بقوله : ((**لقد كان لكم في رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الاخر وذكر الله كثيرا**))[١] . ووصفه سبحانه بقوله : ((**وإنك لعلى خلق عظيم**))[٢]

و الداعيه مأمور بتطبيق منهج القران الكريم و تشريعاته والرسول صلى الله عليه وسلم مثل الصورة الكاملة الشامله الحيه الخالده للقرآن والإسلام وفي الصحيحين أن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقالت : (كان خلقه القرآن فقال : لقد هممت أن أقوم ولا أسأل شيئا)[٣].

« حقا أن النبى صلى الله عليه وسلم كان الترجمان الحي لفضائل القرآن والصورة المتحركة لتوجيهاته الخالده »[٤].

وأيضا فإن الداعية في عمل مجد وفي تعرض للبلاء و المحن لن تجد مثلا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تحمله وصبره و حلمه وجهاده ولن تجد أفضل منه عليه السلام في مواجهة الاعداء و تحمل جميع المشاق حتى وصل إلى ما لم يصل إليه غيره .

والداعية خليفة رسول الله وهو قدوة الداعية الذى يجب أن يتأسى به و يقتبس أخلاقه و شمائله لذلك سوف نتجول في أحدى حدائق ابن القيم الغناء التي تشرح النفوس و تسمو بها علّك أيها الداعية تقطف ثمارها و تستفيد منها .

وذلك عندما يصف رحمه الله ما جبل الله عليه ، رسوله صلى الله عليه وسلم

---

(١) الاية من سورة الاحزاب : ٢١ .

(٢) الايه من سورة القلم : ٤

(٣) رواه مسلم كتاب صلاة المسافرين رقم الحديث ١٣٩ :جـ١ ص٥١٣ .

(٤) القدوة الصالحه : ٣٤ لحسني ادهم جرار طبع دار الضياء عمان الطبعه الاولى ١٤٠٥ هـ .

من مكارم الاخلاق و كرائم الشيم فيقول :

كان أعلم الخلق ، وأعظمهم أمانة ، واصدقهم حديثا وأجودهم وأسخاهم و أشدهم احتمالا وأعظمهم عفوا و مغفرة وكان لا يزيده شدة الجهل عليه الا حلما كما ورت صفته في التوراة ((محمد عبدى ورسولي سميته المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا سخاب بالأسواق ، ولا يجزي بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو و يغفر، ولن أقبضه حتى اقيم به الملة العوجاء ، وافتح به أعيناً عميا ، وآذانا صما وقلوباً غلفاً حتى يقولوا لااله الا الله))[١] ، فهو أرحم الخلق وأرأفهم بهم ، وأعظم الخلق نفعا لهم في دينهم و د نياهم ، وأفصح خلق الله ، وأحسنهم تعبيرا عن المعاني الكثيره بالالفاظ الوجيزه الدالة على المراد ، وأصبرهم في مواطن الصبر واصدقهم في مواطن اللقاء ، واوفاهم بالعهد و الذمة وأشدهم تواضعا و أعظمهم مكافاة على الجميل بأضعافه و أقوم الخلق بما يأمر به ، و أتركهم لما ينهى عنه وأوصل الخلق لرحمه[٢] .

قال علي رضي الله عنه : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس صدرا وأصدقهم لهجه ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله صلى الله عليه وسلم)[٣] .

يقول ابن القيم رحمه الله عن تفسير هذه المعاني العظيمة و الصفات الجليلة أن قوله :

" كان أجود الناس صدرا " أراد به ، بر الصدر وكثرة خيره وأن الخير يتفجر منه تفجرا كما قال بعض أهل العلم : ليس في الدنيا كلها محل كان أكثر خيرا من صدر رسول الله قد جمع الخير بحذافيره وأودع في صدره .

---

(١) رواه البخارى في كتاب البيوع ٥٠ والامام أحمد برقم ٦٦٢٣:حـ٢ ص١٧٤ .
(٢) جلاء الافهام : ١١٦ .
(٣) رواه الترمذى في كتاب الشمائل مطولا رقم : ٦ .

وقوله : ((أصدق الناس لهجة)) ، هذا مما أقر له به اعداؤه المحاربون له ولم يجرب عليه أحد من اعدائه كذبة واحدة قط ، دع شهادة أوليائه كلهم له بذلك ، فقد حاربه أهل الارض بأنواع المحاربات مشركوهم وأهل الكتاب منهم وليس أحد منهم يوما من الدهر طعن فيه بكذبة واحدة صغيرة ولا كبيرة .

قوله : ((ألينهم عريكه)) ، يعني سهل لين قريب من الناس ، مجيب لدعوة من دعاه ، قاض لحاجة من استقضاه ، جابر لقلوب من سأله، لا يحرمه ولا يرده خائبا، إذا أراد أصحابه منه أمرا وافقهم عليه وتابعهم فيه، وإن عزم على أمر لم يستبد دونهم بل يشاورهم، وكان يقبل من محسنهم ويعفو عن مسيئهم وقوله: ((أكرمهم عشره)) ، أي انه يعاشر جليسه أتمها و احسنها وأكرمها فكان لا يعبس في وجهه ولا يغلظ له في مقاله ، ولا يطوى عنه بِشْرَهُ ، ولا يمسك عليه فلتات لسانه ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة ونحوها ، فكانت عشرته لهم احتمال أذاهم و جفوتهم جمله ، لا يعاقب أحدهم ولا يلومه ولا يباديه بما يكره . من خالطه يقول : أنا أحب الناس إليه ، لما يرى من لطفه به ، وقربه منه و اقباله عليه و اهتمامه بأمره ، و تضحيته له ، وبذل إحسانه إليه وا حتمال جفوته فأي عشرة كانت أو تكون أكرم من هذه العشرة .

وقد اتصف بصفتين خص الله بهما أهل الصدق و الاخلاص وهما الاجلال والمحبة فكان قد القى عليه هيبة منه و محبة فكان كل من يراه يهابه و يجله ، ويملأ قلبه تعظيما و اجلالا وان كان عدوا له فاذا خالطه و عاشره كان أحب اليه من كل مخلوق[1] .

وقد وصفه أحد الشعراء بقوله :

دع ما دعته النصارى في نبيهم * واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم
وانسب الى ذاته ما شئت من شرف * وانسب الى قدره ما شئت من عظم
فان فضل رسول الله ليس له * حد فيعرب عنه ناطق بفم
فمبلغ العلم فيه أنه بشر * وأنه خير خلق الله كلهم

---

(١) انظر ذلك في كتاب جلاء الافهام في الصلاة و السلام على خير الانام لأبن القيم : ١٤٢ - ١٤٥ .

وهذا حق فإن وصف رسول الله أو ذكر أخلاقه وما جبل عليه من خلق لايستطيع أحد الاعراب عنه عليه أفضل الصلاة و التسليم ، وانما ذكرنا هذه الاخلاق و الصفـــــات له من أجل توضح الامر للداعيه عساه أن يحاول الاقتداء به ، وان كنا لاندعى أن أحـــدا يستطيع أن يجاريه في صفاته ولكن مالا يدرك كله لا يترك جله والله المستعان و عليـــه التكـــــــلان .

الفصـــل الرابـــــع

أساليـــب الدعـــوة ووسائلهـــا عند ابن القيـم

تمهـــــيد :

قبل أن ابين الاساليب و الوسائل التي استخدمها ابن القيم في الدعوة الـــى الله ، أحب أن أوضح سبب الخلط الذى يجده الناظر في كتب الدعوة التي عنون لهـا بطرق الدعوة ، أو مناهج الدعوة ، أو اساليبها أو وسائلها فإنه يجد أن جميع الكتـاب يتحدثون عن موضوع واحد، ولكن العناصر و الاهداف والوسائل والاساليب قد اختلفـــت و تباينت قربا وبعدا و هذا راجع الى اشتراك هذه المسميات في المدلول اللغـــوي فلو رجعت الى كتب اللغة [1]، لوجدت أن هذه الاسماء تعود في معناها إلـــى ((الطريق)) اما الوسيلة فهى ما يتوصل به الى هذا الطريق .

وعلى هذا يكون مرادهم أن يبينوا الطريق الامثل الذى يمكن الداعيـــة أن يدعو الى الله به سالكا أقرب الطرق إليها وأحسنها .

و المثالية في هذا الطريق و تصور الامثل فيه يختلف من كاتب الى كاتـب متأثرا بالنزعات المذهبية و الاعتقادية و الاجتماعية و الثقافية التي يعيشها الكاتـب أو الجماعة التي ينتسب اليها مما أدى الى أختلاف مناهجهم ووسائلهم وأساليبهم .

و مرادي في هذا التمهيد أن ابين الوسائل و الاساليب المساعده التي تهدف إلى خدمة الدعوه و نجاحها من فنون القول و العرض ، وكيفية توصيل الدعوة ، وهـذه في الغالب ليس عليها كبير معـول لو اختلفت وأدخل بعضها ببعض لإنها تصب فـي بوتقه واحده هى خدمة الدعوة وأهدافها ، ولما بينها من الترابط ودخول بعضهما فـي الاخر وذلك مثل الخطابه فإن جعلتها وسيلة من وسائل الدعوة ، فإن الخطبة تحمل فـي

---

(١) المنهج في كتب اللغه على وزن مذهب و المنهاج :الطريق الواضح و نهج الطريق أبانه و أوضحه و نهجه اى سلكه . انظر لسان العرب ٣٨٣/٢ ومختار الصحاح ٦٨١ والاسلوب الطريق والوجة ، والمذهب ، يقال انتم في أسلوب سوء ، ويجمع أساليب والأسلوب الطريق تأخذ فيه ، والاسلوب بالضم : الفن يقال أخذ فلان في أساليب من القول :أى افانين منه . لسان العرب : ٤٧٣/١ .
وأما الوسيله ما يتقرب به الى الغير ، والجمع الوسل الوسائل وهى في الاصـل ما يتوصل به الى الشيء و يقترب به .نفس المرجع : ٧٢٥/١١ .

طياتها الاساليب من وعظ وارشـــاد و ترغيب و ترهيب و حكمة وغير ذلك .

وكذلك فإن الداعية عندما يجعل من اخلاقه و صفاته و أعماله الخيرة أسلـــوب من أساليب دعوته و جذب المدعو الي الاقتداء به ، فإن القدوة الحسنة تكون فـــــي نفس الوقت وسيله من وسائل دعوته يتوصل بها الى جذب المدعو الى الاقتداء به ومعرفة الاسلام عن طريق هذا العمل ، فأصبحت القدوة في هذا الموضوع اسلوباً ووسيلة في نفـــس الوقت فيتضح من ذلك أن بينهما عموم و خصوص وان أحدهما لوأفرد دخل فيه مســـي الاخر و هكذا .

ومما ينبغي أن يتفطن له الداعية أن الاساليب و الوسائل من أهم مقومـــــات نجاح الدعوة الى الله ويجب عليه أن يهتم بها ، وأن لا يهملها فكم رأينا من دعـــــوة باطلة كانت الاساليب و الوسائل سبباً في انتشارها وذيوعها مع بطلانها و فسادهـــــا وكم رأينا من دعوة صالحة حسنة بقيت عند أهلها و دعاتها ولم تتعداهم ، لعـــــــدم معرفتهم للاساليب و الوسائل الحسنه .

وكذا يجب على الداعية أن يتحرى في الوسائل و يبحث عنها ويرى في الدعوات و الدعاة ووسائلهم فيأخذ كلما رآه حسناً يؤدى الى غرضه من الـــدعوة اذا كانت موافقة لشرع الله ، ولا يقول أن هذه وسيلة فلان أو علان وهوساقط في المنهج أو الاعتقاد فنحن لا نطالبـــك ايها الداعيه بأخذ كل ماجاء عنه بل نطالب بأخذ الوسيلة الفعالة في نجاح الدعـــوه من اى شخص بشرط أن لا تخالف قواعد الاسلام .

فإن المغريات في العصر الحاضر قدكثرت وتفنن العلم في اخراج مسليات ولهـــو قد صرف قلوب الناس عن الحق فلا بد في معرفة الاساليب و الوسائل التي تجارى هـــذا الزحف و تجذب اليها المدعو .

أولا : ألاســاليـــــب وهـــــي

أســــــــــلوب الحكمـــــة :

أســــــــــلوب الموعظـــــة :

أســــــــــلوب الجـــــدل :

أســــــــــلوب الجهـــــاد :

أساليـــب الدعـــوة

يرى ابن القيم رحمه الله أن القرآن الكريم ودعوته جمعت اساليب الدعـــوه و بينتها وهي نوعان قولية و فعلية ، فاما الاساليب القولية فقد جمعتها الايه الكريمة وهى قوله تعالى : ((**أدع الى سبيل ربك بالحكمة و الموعظه الحسنه وجادلهم بالتـــي هى أحسن**)) [(١)] ، واما الفعليه فهى الجهاد في سبيل الله تعالى .

فيقول رحمه الله :

" المنتفع بالايات من الناس نوعان :

أحد همـــا : ذو القلب الواعـــي الذكي الذى يكتفي بهدايته بأدني تنبيه ولا يحتاج بأن يستجلب قلبه و يحضرة و يجمعه من مواضع شتاته ، بل قلبه واع زكي قابـــل للهدى غير معرض عنه فهذا لا يحتاج الا إلى وصول الهدى إليه فقط ، لكمـــال استعداده و صحة فطرته فاذا جاء الهدى سارع قلبه إلى قبوله كأنه كان مكتوبا فيـــه فهو قد أدركه مجملا . ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا .

النـوع الثاني : من ليس له هذا الاستعداد و القبول فاذا وردعليه الهدى أصغى اليـــه بسمعه ، وأحضره قلبه ، وجمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظـــره و أستدلاله وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الامثال ، وإقامة الحجج ، وذكـــر المعارضات والأجوبه عنها . فالا ولون هم الذين يدعـون بالحكمه ، وهوءلاء يدعـــون بالموعظه الحسنه فهوءلاء نوعا المستجيبين .

وأما المعارضون المدعون للحق فنوعان : نوع يدعو ن بالمجادله بالتي هـــي أحسن فان استجابوا والا فالمجالدة فهوءلاء لا بد لهم من جدال أو جلاد .

ومن تأمل دعوة القرآن وجدها شامله لهذه الاقسام متناوله لها كلها كمـــا قال تعالى : ((**أدع الى سبيل ربك**)) ، الايه فهوءلاء المدعوون بالكلام ، واما أهـــل الجلاد فهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله [(٢)] .

---

(١) سورة النحل الايه : ١٢٥ .

(٢) مفتاح دار السعاده : ٢١٧ .

و يقول رحمه الله في موضع آخـــر عن تفسير قوله تعالى :((ادع الـــــى سبيل ربك)) ، أن الله سبحانه جعل مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق .

فالمستجيب القابل الزكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه يدعي بطريق الحكمة والقابل الذى عنده نوع غفلة و تأخر ، يدعي بطريق الموعظة الحسنة وهى الأمر والنهـي المقرون بالرغبة و الرهبة .

و المعاند الجاحد يجادل بالتي هي أحسن .

ثم يبين أن هذا هو المعنى الصحيح لتفسير هذه الآية و ينقد المقلديـــــن الذين حاولوا تفسير هذه الايه على أصول الفلسفه الخارجة عن الاصول الاسلاميه فيقول :

هذا هو الصحيح في معنى الايه لا ما يزعم أسير منطق اليونان : أن الحكمـه قياس البرهان وهى دعوه الخواص ، و الموعظة الحسنة قياس الخطابة وهى دعوة الكـلام والمجادله بالتي هى أحسن القياس الجدالي وهو رد شغب المشاغب بقياس جدلي مسلـم المقدمات وهذا باطل وهو مبني على اصول الفلسفه وهو مخالف لاصول المسلمين وقواعد الدين من وجوه كثيره (١) .

فيتضح مما تقدم أن ابن القيم لا يستخدم في الدعوة من الاساليب الا مـــا استخدمه القرآن الكريم فأساليب القرآن هى .

أسلوب الحكمـــة ، وأسلـوب الموعظة ، وأسلـوب المجادلة ، وأسلوب الجهاد

و سوف نتطرق لشـرح هذه الاساليب ولمن تستخدم كما وضح ذلك ابن القيـم رحمه الله تعالـــى .

---

(١) مفتاح دار السعاده : ١٩٥ .

أســـــلوب الحكمـــــة

ورد ذكر الحكمة في القرآن الكريم بمعاني متعددة فقد أمر بها نبيـــــــه و أمته باستخدامها في دعوتهم لله سبحانه وذكر انبياءه مقرونين بالحكمة و الحكـــم و انه آتاهم الحكمة و الحكم وقرن ايتاءهم الحكمة بالكتاب وقد اختلفت أقوال العلمـاء في ذكر المراد منها . وسأبين معناها في اللغة والاصطلاح حتى نعرف المقصود بهـــذا الاسلوب الربانـــــــي .

و الحكم في اللغه : مصدر قولك حكم بينهم يحكم أى قضي ، و الحكيم العالم المتقن للأمور ، و احكمت الشيء فاستحكم أى صار محكما [(١)].

وفي الاصطلاح

" هى مصدر من الاحكام وهو الاتقان في قول أو فعل ، فكتا ب الله حكمتـــه، و سنة نبيه حكمته ،وكل ما ذكر من التفصيل فهو حكمة ، وأصل الحكمة ما يمتنع بـــهمن السفه فقيل للعلم حكمة لانـه يمتنـع به [(٢)].

قال ابن القيم :

" قال ابن قتيبه [(٣)]، والجمهور : الحكمة إصابة الحق و العمل به وهى العلم النافع و العمل الصالح [(٤)]، "

وقال رحمه الله بعد أن ذكر جملة من أقوال السلف في معنى الحكمة :

وأحسن ما قيل في الحكمة : أنها معرفة الحق والعمل به و الاصابة في القول والعمل [(٥)].

كما أنه بين أن الحكمة في القرآن الكريم تأتي مفردة و مقترنه فالمفـــــردة

---

(١) الصحاح للجوهرى : ١٩٠٢/٥ .

(٢) الجامع الاحكام القرآن : ٣٣٠/٣ .

(٣) هو عبد الله بن مسلم بن قتيبه الدينورى ابو محمد من أئمة الادب ولد ببغداد وسكن الكوفه ولي القضاء وله من المصنفات الكثيره من اشهرها تأويل مختـــلف الحديث ، وادب الكاتب ، والمعارف ، و المعاني وعيون الاخبار والامامة و السياســـــة وغيرها كثير توفي ببغداد سنة ٢٧٦ هـ رحمه الله انظر وفيات الاعيان ٢٥١/١ والاعلام ١٣٧/٤

(٤) انظر لسان العرب مادة حكم : ١٤٠/١٢

(٥) مدارج السالكين : ٤٩٨/٢ .

كقوله تعالى :((يوءتي الحكمة من يشاء ومن يوءت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا))[١] ، والمقرونه كقوله تعالى : ((وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم))[٢] .

فالمفرده فسرت بالنبوة وعلم القرآن ، وفسرت بالقرآن و الفهم فيه وفسرت بالقرآن و العلم و الفقه وقد بينا أن ابن القيم قداختار انها معرفة الحق و العمل به و الاصابه في القول والعمل اما المقرونة بالكتاب فهى السنة[٣] .

وعلى هذا فالحكمة هى وضع الشيء فى موضعه اللائق به سواء كان قولا أو فعلا قال ابن القيم :

" فالحكمة اذا : فعل ما ينبغي ، على الوجه الذى ينبغي في الوقت الذي ينبغي ،والله تعالى أورث الحكمة آدم و بنيه فالرجل الكامل من له إرث كامل من أبيه و نصف الرجل كالمرأه لهانصف ميراث و التفاوت فى ذلك لا يحصيه الا الله "[٤] .

كما أنه يرى أن الرجل لا يكون حكيما الا بفهم القرآن ، و الفقه في شرائع الاسلام و حقائق الايمان[٥] . وذلك لان كتاب الله وسنة نبيه قد جمعت جميع معاني الحكمة فكل عمل يمكن أن يعمله الانسان و يقوله و يوصف بأنه حكيم فان في الكتاب و السنه ، ما يفوق معناه ووصفه . فالله سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين و شريعته أحكم الحكمة على الحقيقه .

و الحكمة تجمع أساليب الدعوه كلها من وعظ و جدل وقوة و حجة وابطال دعوى الخصم واستدلال وغير ذلك لان معناها الشامل اسم لكل العلوم ومن هنا كانت صفة للانبياء عليهم السلام لانهم استخدموا جميع الاساليب الدعوية التي أمرهم الله باستخدامها .

---

(١) الايه من سورة البقره : ٢٦٩.
(٢) الايه من سورة النساء : ١١٣ .
(٣) مدارج السالكين : ٤٩٨ .
(٤) من مدارج السالكين : ٤٩٩:٢ .
(٥) نفس المرجع : ٤٩٨/٢ .

فعلى ذلك تكون الحكمة هى معرفة ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم من الكتاب و السنه و ما يتعلق بهما من علوم شرعية فتكون الدعوة بالحكمة بما ورد فيها من علوم تغني الداعية المتبصر عن أى شيء سواهما لان شريعة الاسلام لم تترك صغيرا ولا كبيرا الا أوضحته كل الايضاح .

وعلى هذا فإن خير ما يستخدمه الداعية من الحكمة هو ما ورد في القرآن الكريم أو في سنة محمد صلى الله عليه وسلم ففيها أرقى أنواع الحكمه ولذلك يقول الله تعالى : ((**وما ينطق عن الهوى إن هو الا وحي يوحى**))[١] ، ويقول عليه الصلاة و السلام : (أوتيت جوامع الكلم)[٢] ، فهما يصلحان أن يدعى بهما جميع الطبقات في المجتمع الانساني كما سنرى ذلك إن شاء الله من عرض لاحق .

لمن يستخدم أسلوب الحكمة :

عرفنا فيما سبق أن ابن القيم يرى أن أسلوب الحكمة يدعي به القابل الذكي الذى لا يعاند الحق ولا يأباه ، وهذا هو صاحب الفطرة السليمة و العقل الرشيد الذى يعرف الاسلام وأنه هو الحق بمجرد اطلاعه على تعاليم الاسلام ومعانيه الباهرة التي تبهر العقول الصحيحه فتخضعها الى سلطانها و الايمان بها لمعرفتها أياها بفطرتها التي أدركت حسنها وكما لها وهذه أعظم أنواع الهدايه بالاسلام، و أكثرها ، وهى درجة هداية الكمل من البشر أصحاب العقول النيره و الفطر المستقيمه فتحكم تلك العقول و تقضي عليها باتباعها فهى حاكمة عليها فاذا ما سيطرت عليها وتغلغلت في أعماقها صبغت هذه العقول فوصفتها بالحكمة . فتلتقي هذه العقول الفطرية مع الاسلام الفطرى .

الاسلام دين الفطرة :

قال تعالى : ((**فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون**))[٣]

وفي الصحيحين من حديث ابي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه

---

(١) سورة النجم الايه : ٣ .

(٢) رواه البخارى ومسلم واللفظ لمسلم في كتاب المساجد رقم الحديث ٥٢٣: حـ١ /٣٧١و البخارى في كتاب التعبير باب ١١ : حـ٨:٧٢ .

(٣) الايه من سورة الروم : ٣٠ .

وسلم انه قال : (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمه تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء)[١] ، و الفطرة هى دين الاسلام كما قرر ذلك ابن القيم في كتابه شفاء العليل وقال :

" قال شيخنا : والدلائل على ذلك كثيرة ولو لم يكن المراد بالفطرة الاسلام لما سألوا عقيب ذلك أرأيت من يموت من أطفال المشركين لانه لم يكن هناك ما يغير الفطرة [٢] . وبعد أن ذكر الادله وأقوال السلف الداله على أن الفطرة المراد بها الاسلام بين أن ذلك لا يعنى أنه خرج من بطن امه يعلم هذا الدين . ولكن فطرته موجبة مقتضية لدين الاسلام،لقربه ومحبته،فنفس الفطرة تستلزم الاقرار بخالقه، و محبته،و أخلاص الدين لهوموجبات الفطرة و مقتضياتها تحصل شيئا،بعد شيء،بحسب كمال الفطره،اذا سلمت من المعارض،فكل مولود فإنه يولد على محبته لفاطره،وإقراره له بربوبيته، و ادعائه له بالعبودية فلو خلي وعدم المعارض لم يعدل عن ذلك الى غيره كما أنه يولد على محبة ما يلائم بدنه من الاغذيةو الاشربة .

و يقول أن كل حركة إراديه فان الموجب لها قوه في المريد فإذا أمكن في الانسان أن يحب الله و يعبده ويخلص له الدين كان فيه قوة تقتضي ذلك اذ الافعال الاراديه لا يكون سببها الامن نفس الحي المريد الفاعل ولا يشترط في ارادته الا مجرد الشعور بالمراد فما في النفوس من قوة المحبة له اذا شعرت به تقتضي حبه اذا لم يحصل معارض [٣] ، و يصدقه قوله تعالى : ((**فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون**))[٤] . وهذه الاية دالة على أن إرادة الكافر من ربه النجاة تدل على قوة في المريد مركوزة في فطرته الا أن المعارض موجود

---

(١) رواه البخارى في كتاب الجنائز : ١٠٤/٢ .
(٢) انظر شفاء العليل : ٢٨٦ .
(٣) نفس المرجع :٢٨٩ .
(٤) الايه من سورة العنكبوت : ٦٥ .

فيها وعند ما ذهب المعارض رجع الى ماهو مركوز في فطرته وهو اللجوء الى الله وحده .

فالفطرة السليمه هى الباقية على ماخلقت عليه غير متأثرة بموثرات خارجية و يبقى الانسان على ما خلق عليه من صفاء الطبع ونقاء السريرة .

و الاسلام دين الفطرة وهو الموافق لها . لذلك سمي الله سبحانه ما كمل به موجبات الفطره بذكرا و ذكرى و جعل رسوله مذكرا فقال : ((فذكر إنما أنت مذكر))[١] . وقال : ((فذكر إن نفعت الذكرى))[٢] ، وقال : ((فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون))[٣] .

وهذا كثير في القرآن يخبر أن كتابه ورسوله مذكر لهم بماهو مركوز في فطرهم من معرفته و محبته و ايثاره على غيره فهى تعرف ذلك وتشعر به مجملا و مفصلا بعض التفصيل فجاءت الرسل تذكرها بذلك و تنبهها عليه و تفصله لها وتبينه و تعرفها الاسباب المعارضه لموجب الفطرة المانعة من اقتفائها أثرها وهكذا شأن الشرائع التي جاء ت بها الرسل فانها أمر بمعروف ونهى عن منكر و اباحة طيب وتحريم خبيث وأمر بعدل ونهى عن ظلم وهذاكله مركوز في الفطرة وكما ل تفصيلة و تبيينه موقوف على الرسل[٤] .

فصاحب هذه الفطرة السليمة التي لم تتأثر بالفلسفات و المذاهب الباطله يدعى بطريقة الحكمة أى بوحي الله وكتابه كما يقرر ذلك ابن القيم رحمه الله تعالى بقوله :

" ذو القلب الواعي الذكي الذى يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه ولا يحتاج الى أن يستجلب قلبه و يحضره من مواضع شتاته ، بل قلبه واع زكي قابل للهدى غير معرض

---

(١) سورة الغاشيه الايه : ٢١ .
(٢) سورة الاعلى : ٩ .
(٣) سورة الدخان : ٥٨ .
(٤) انظر شفاء العليل : ٣٠٢ .

عنه فهذا لا يحتاج الا الى وصول الاسلام اليه فقط ، لكمال استعداده وصحة فطرته فاذا جاء الهدى سارع قلبه الى قبوله كأنه كان مكتوبا فيه فهو قد أدركه مجملا ثم جاء الهدى بتفصيل ما شهد قلبه بصحته مجملا ، وهذا حال أكمل الخلق استجابة لدعوة الرسل ، كما هى حال الصديق الاكبر رضي الله عنه [١].

فالمستجيب القابل الذكي الذى لا يعاند الحق و يأباه يدعي بطريق الحكمة [٢] ، إن من مدلولات الحكمة أنها مواعظ القرآن كما قال تعالى :((**وما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمة يعظكم به**))[٣] ، يعنى ، مواعظ القرآن الكريم [٤].

مما تقدم نستطيع أن نقول أن مراد ابن القيم من الحكمة هنا هو ما أوحاه الله الى رسوله صلى الله عليه وسلم سواء من الكتاب او السنة كما يقول ذلك الطبري[٥] ولان الاسلام هو دين الفطرة و القرآن ملىء بالايات الكريمات التي توقظ الفطرة في الانسان يقول تعالى :((**ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس و القمر ليقولن الله فأني يؤ فكون**))[٦].

العرب قوم فطريون :

وكذلك فان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بعث في العرب والعرب قوم فطريون على فطرتهم التي خلقهم الله عليها واذا نظرنا لهم وللامم التي تحيط بهم لوجدناهم كما هم،لا يسعرفون الفلسفة و لا المذاهب المعتمده على هذه الفلسفات العقلية التي سفهة العقول في مجال السغيب ، بل وصفهم الرب سبحانه بالامية أ ى أمة لا تعرف القراءة و الكتابة فقال عنهم :((**هوالذى بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته و يزكيهم و يعلمهم الكتاب و الحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين**))[٧]

---

(١) مفتاح دار السعاده : ١٩٤/١ .
(٢) نفس المرجع : ١٩٤/١ .
(٣) البقرة : ٢٣١ .
(٤) مصلح بيومي ادع الى سبيل ربك ص : ٥٨ .
(٥) تنفسير الطبرى : ١٩٤/٨ .
(٦) سورة العنكبوت : ٦١ .
(٧) الايه من سورة الجمعة : ٢ .

فهم أميون لا يعرفون من علوم الفلسفه و غيرها شي ء ، وهم في ضلال من الوثنيـــة و عبادة الأصنام والعقائد الفاسدة و لكنهم مع ذلك أقرب الى الاستجابة لدعوة التوحـيد من غيرهم من الامم المجاورة من الروم و الفرس و المصريين والبراهمة وغيرهم ، إذ أنهم لم يكن لهم عقيدة مستقرة كما لم يكن لهم عادات و تقاليد في نظم الحكم لا تتســع للحرية و النظم الاجتماعية التي جاء بها القرآن ، بل كانت عقائدهم في الأوثان غيـــر متغلغله في أعماق نفوسهم ، كعقائد النصارى في الثالوث و عقائد الفرس في النـــار و الصابئه في النجوم [١] . وغيرهم من الأمم تغلغلت وثنيتهم بعقائد وفلسفه يصعـــب إخراجهم منها لأنها أفسدت فطرتهم .

أضافة الى أن القرآن الكريم بين أنهم يؤمنون بالله تعالى خالق كل شـــيء وحده وأنه يفعل ما يريد ولكنهم عبدوا تلك الاصنام لتقربهم الى الله سبحانه وتعالـــى زلفى لذلك فإنا نجد أن منهم قوما موحدين على دين ابيهم إبراهيم عليه السلام وفيهـم ظاهرة التمرد على الاصنـام كما قال قائلهم:أرب يبول الثعلبان برأسه:لقد ذلّ مـــن بالت عليه الثعالب ، والقرآن الكريم دائما يحرك فيهم الفطرة ويذكرهم بما يشعـــرون في كيانهم ، كما قال تعالى : ((أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السمـاء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الإرض كيف سطحت)) [٢] ، وقوله :((وفـــي الارض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، وفي السماء رزقكم وما توعدون ، فـورب السماء والارض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون)) [٣] .

فالقرآن يطالبهم بالنظر في أقرب الأشياء إليهم التي يرونها و يحسونها فـي كل ساعه و ليس لهم غنى عنها ولا تغيب عن حسهم هذه الموجودات .

من أجل ذلك نرى أن ابا بكر الصديق رضي الله عنه و غيره كثير من الصحابه

---

(١) الوحده الاسلاميه ص : ٢٩ للامام ابو زهرة دار الفكر العربي بالقاهره .
(٢) سورة الغاشيه : ١٧ ـ ٢٠ .
(٣) الذاريات : ٢٠ ـ ٢٣ .

آمنوا بمجرد سماع القرآن الكريم لما فيه من صدق وما فيه من علوم توافق ما يشعرون به في قرارة نفوسهم مما غرسه الله سبحانه وتعالى في فطرهم .

و إرسال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم في العرب فيه من الحكمة الالهيه العظيمه لأن العرب أكثرهم ما يزالون على الفطره ، والقرآن الكريم هو الموافق للفطره لاجل ذلك آمنو به وصدقوه و نصروه و نشروا دينه في مشارق الارض و مغاربها .

فعلى الداعية أن يتحرى في المدعو حتى يعرف الاسلوب المناسب الذى يدعو به من يواجهة . فإن وجد صاحب الفطرة السليمة دعاة بأسلوب الحكمة ، وهو أسلوب فيه من البساطة وعدم التعقيد في القول ما فيه .

لأن المدعو الذى أمامه يحتاج فقط الى تحريك ذلك الشعور الكامن في قرارة نفسه لذلك نرى القرآن الكريم يخاطب العرب بأسهل الاساليب و اوضحها وأقربها الى فهم المعنى و المراد ، وأقربها الى حياته اليوميه مثل تحريك الله تعالى فطرتهم بأمره سبحانه لهم بالنظر الى الإبل و الجبال و تذكيرهم بنعمه السابغة عليهم وغير ذلك مما لاغنى لهم عنه ، فجعلهم يقفون عند كلامه سبحانه ينظرون اليه بنظر المتبحر الذى لا ينكر الحق ، لأن الاسلام أمر بمعروف و نهى عن منكر وهو الموافق للفطرة السليمة ، قال ابن القيم :

" عند تفسيره لقوله تعالى : ((يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر))[1] ، دلت الاية على أنه أمرهم بالمعروف الذى تعرفة العقول و تقر بحسنه الفطر فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث إذا عرض على العقول السليمة انكرته أشد الانكار ، كما أن ما أمربه اذا عرض على العقل السليم قبله أعظم قبول و شهد بحسنه .

كما قال بعض الاعراب وقد سئل بما عرفت أنه رسول الله فقال : ما أمر

---

(١) الايه من سورة الاعراف : ١٥٧ .

بشيء فقال العقل ليته ينهي عنه ولا نهى عن شيء فقال ليته أمر به ، فهذا الاعرابي قدأقرّ عقله وفطرته بحسن ما أمر به و قبيح ما نهى عنه حتى كان في حقه من أعلام النبوه (١) .

فيظهر من ذلك أن الحكمة هى شرع الله تعالى المتمثل بالكتاب و السنه وما جاء فيها من تعاليم و معاني تجعل صاحب الفطرة السليمه يؤمن بها .

وهذا لا يعني أن الفطرة السليمة وقفا على العرب فقط بل أنها عامة في العرب و غيرهم ولا يزال كثير من شعوب الارض إلى الان وهى فطرية تحتاج الى سماع أحكام الاسلام النيره كي تقودهم الى الايمان بالله لموافقتها فطرتهم كما هى حال كثير من شعوب افريقيا و بعض شعوب شرق آسيا و غيرهم كثير ولكنها في تلك الازمان كانت أقرب الشعوب الى الفطره .

و الذين وقفوا أمام الدعوة الاسلامية في ذلك العصر فإن معوقات الفطرة وقفت أمامهم والتي ذكرها القرآن الكريم كحب الرياسة و الزعامة ، و الكبر والعظمة و عدم حب مجالسة الفقراء و العبيد من الذين آمنوا ، و اتباع الآباء و الاجداد وغير ذلك .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٣٨٨/٢ .

أسلـــــوب الموعظـــــة
ويمثل منهجه رحمه الله في دعوة العصاة من المسلمين

عرفنا فيما سبق من قول ابن القيم رحمه الله أن المستجيب لدعوة القـــرآن نوعان فالاول الذكي الذى لا يعاند الحق ولا يأباه و قلنا أنه صاحب الفطرة السليمـــة والعقل الرشيد و تحدثنا عنه وبقي أن نعرف النوع الثاني الذى قال عنه ابن القيم:

" من ليس عنده هذا الاستعداد و القبول فإذا ورد عليه الهدى أُصغـــى إليه بسمعه وأحضر قلبه و جمع فكرته عليه ، وعلم صحته وحسنه بنظره و استدلالـــه وهذه طريقة أكثر المستجيبين ولهم نوع ضرب الامثال ، وإقامة الحجج ، وذكر المعارضات والاجوبه عنها ، وهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنه [١] .

ويقول في موضع آخر : والقابل الذى عنده نوع غفلة و تأخر يدعى بطريـــق الموعظة الحسنة وهى الامر والنهى المقرون بالرغبة والرهبة [٢] ، قال في اللسان :الوعظ: النصح والتذكير بالعواقب قال ابن سيده : هو تذكيرك للانسان بما يلين قلبه مـــن ثواب و عقاب [٣] "

مجـــالهـــا :

ومن هذه النصوص يتبين أن من يدعى بطريق الموعظة نوعان :

أحدهمـــا : مستجيب قابل عنده نوع غفلة و تأخر وهو المسلم الذى الهته الدنيـا و زخرفها و الهوى عن محاب الله ومراضيه وهذا الاسلوب يخصهـــم أكثر من غيرهم .

الثانـــي : صاحب العقل السليم المفكر الذى يدله على الحق من عباد الله جميعا لأنهم هم الذين نوع لهم ضرب الامثال و إقامة الحجج ، وذكـــر المعارضات و الاجوبه عنهـــا .

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٢١٧ .

(٢) نفس المرجع : ١٩٤ .

(٣) لسان العرب : ٤٦٦/٧ .

والمراد بالموعظة هي مواعظ القران الكريم التي امتلأ بها القرآن الكريم كقوله تعالى : ((وما أنزل عليكم من الكتاب و الحكمة يعظكم به))[١] ، وقال تعالى : ((إن الله يأمر بالعدل و الاحسان وإيتاء ذى القربى و ينهى عن الفحشاء و المنكر و البغى يعظكم لعلكم تذكرون))[٢] ، وقال : ((أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فاعرض عنهم وعظهم))[٣] ، وقوله : ((ذلكم يوعظ به من كان يوءمن بالله واليوم الآخر))[٤] وقوله : ((هذا بيان للناس وهدى ومو عظة للمتقين))[٥] ، وقوله : ((قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين))[٦] ، وغير ذلك من أيات الوعظ التي خاطب الله سبحانه و تعالى فيها الناس على اختلافهم ، منهم الموءمن ومنهم الكافر والمنافق وغير ذلك مما يدل على أن أسلوب الموعظة ليس خاصا بالموءمنين بل أنه خطاب للموءمنين ومن له عقل مميز يتأثر بالمواعظ المشهورة و المسموعة على السواء .

ولكنها في حق الموءمن أوضح وهي به أخص فالموءمن لا يدعى الا بهذا الاسلوب فإنك لا تدعوه لأن يوءمن بوجود الله أو وحدانيته فهو موءمن بوجوده ووحدانيته ولكنه غفل عن هذا الوجود ونسى عظمة الخالق فعصى فهذا يذكّر بهذا الاسلوب الذى يرده إلى معرفة الخالق باسمائه و صفاته وعظمته و يذكره بها حتى يعود الى رشده .

كما بين رحمه الله انواع الموعظة : وأنها نوعان :

أحدهما : عظة بالمسموع .

وهي الإنتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد و النصائح التي جاءت على لسان الرسل وما أوحى اليهم ، وكذلك الانتفاع بالعظه من كل ناصح ومرشدفي مصالح الدين و الدنيا .

---

(١) سورة البقرة : ٢٣١ .
(٢) سورة النحل الايه : ٩٠ .
(٣) سورة النساء الايه : ٦٣ .
(٤) سورة الطلاق الايه : ٢ .
(٥) سورة آل عمران : ١٣٨ .
(٦) سورة الشعراء الايه : ١٣٦ .

ثانيهـــــا : عظـــة بالمشهـــود

وهى الانتفاع بما يشاهده في العالم من مواقع العبر و أحكام القـــدر ، و مجاريه ، وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله [١].

و المطلع على اسلوب ابن القيم في دعوته بهذا الاسلوب فإنه يجد أنـــه استخدم هذه الانواع في دعوته بالموعظة وقد اهتم بها في خطبه وكتاباته وبين أنواعهـا كما أثر عنه الكثير من المواعظ التي تدل على تمكنه من الوعظ و الارشاد وكما سنرى ذلك في دعوته بهذا الاسلوب إن شاء الله .

أنـــواع الموعظـــة

أولا : العظـــة بالمسمـــوع

وهى ما يلقيه الداعية المتمكن من المواعظ و النصائح المؤثرة التـــي تستميل جمهور المدعوين الى الاستجابة أو تنفرهم و تزجرهم عن ارتكاب المنهيـــات التي تؤدي بهم الى الهلاك وهذه المواعظ اسم يدخل تحته انواع من الاساليب الوعظيـه كالترغيب و الترهيب ، وضرب الامثال والقصة فإن هذه المسميات داخله في مسمـــى الموعظة و جميعها وردت في القرآن الكريم كما أن ابن القيم كداعية بصير قدأولاهـــا أهمية كما سنبينها كلا على حده .

اولا : الترغيب و الترهيب :

هو الاسم الجامع للموعظة كما بينه ابن القيم في تعريفه وهو انواع إمـــا ترغيب في جنس الطاعات كقوله تعالى : ((**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنه ولـــدار الاخرة خير ولنعم دار المتقين**))[٢] ، أو ترغيب في انواع الطاعات :أى انك ترغب فـــي نوع واحد من طاعة الله كقوله تعالى : ((**إن الصلاة تنهـــى عـــن الفحشاء والمنكر**))[٣]

---

(١) مدارج السالكين : ٤٧٨ .
(٢) سورة النحل الايه : ٣٠ .
(٣) سورة العنكبوت الايه : ٤٥ .

وإليك ابن القيم وهو يرغب في نوع من أنواع الطاعات وهو الجهاد وكذلك يبين ترغيب القرآن الكريم فيه فيقول :

" المجاهدون في سبيل الله هم جند الله الذى يقيم بهم دينه و يدفع بهم بأس أعدائه و يحفظ بهم بيظة الاسلام ويحمي بهم حوزة الدين ، قد بذلوا أنفسهم في محبة الله و نصر دينه وهم شركاء لكل من يحمونه بسيوفهم في أعمالهم التي يعملونها ولهم مثل أجور من عبدالله بسبب جهادهم و فتوحهم ، والداعي إلى الهدى والداعي الى الضلال لكل منهما بتسببه مثل أجر من تبعه وقد تظاهرت آيات الكتاب وتواترت نصوص السنه على الترغيب في الجهاد و الحض عليه قال تعالى في سورة الصف: **((يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم))** ، فتشوقت النفوس إلي هذه التجارة الرابحة الدال عليها رب العالمين فقال : **((تؤمنون بالله و رسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم و أنفسكم))** ، فكأن النفوس ظنت بحياتها وبقائها فقال : **((ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون))** ، يعنى أن الجهاد خير لكم من قعودكم للحياة و السلامة، فكأنها قالت : فما لنا في الجهاد من الحظ ؟ فقال **((يغفر لكم ذنوبكم))** ،ومع المغفرة **((يدخلكم جنات تجرى من تحتها الإنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم))** ، فكأنها قالت هذا في الآخره فما لنا في الدنيا ؟ فقال : **((وأخرى تحبونها ، نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين))**[(١)] ، فلله ما أعلى هذه الالفاظ و الصقها بالقلوب وما أعظمها جذبا لها و تيسيرا الى ربها[(٢)] ، ولله ما اجمل كلام ابن القيم و تفقهه لكلام ربه و معرفة لطائفه ومعانيه فهذا فضل الله يؤتي فضله من يشاء .

كما أن الترهيب كذلك يكون ترهيب من جنس المعاصي كقوله تعالى : **((قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون))**[(٣)].

---

(١) سورة الصف الايات : ١٠ ـ ١٣ .

(٢) طريق الهجرتين : ٣٥٥ .

(٣) سورة النحل الايه : ٩٠ .

وقوله تعالى : ((فلما ءاسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين)) [١]، وقوله تعالى : ((ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك))[٢].

وكذلك الترهيب من انواع المعاصي كقوله تعالى : ((ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا))[٣].

كما أنه بين أن طريقة القرآن الكريم في الترغيب و الترهيب أن يذكر العلم والقدره تهديدا أو تخويفا لترتيب الجزاء عليهما كقوله تعالى : ((قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم)) وقوله : ((أرأيت إن كذّبَ و تولى ألم يعلم بأن الله يرى)) ، وليس المراد به مجرد الاخبار بالعلم والقدرة ولكن الاخبار مع ذلك بما يترتب عليهما من الجزاء[٤].

وقد يكون الترغيب و الترهيب في ذكر قصة من قصص القرآن الكريم كما سنبين ذلك ان شاء الله .

ثانياً : ضرب الأمثال :

ضرب المثل داخل في مسمى الموعظة لما فيه من تحريك العواطف وإثارة كوامن النفس"ومن المعارف المتواضع عليها عند علماء البلاغة و النقد أن المعاني المجردة أضعف وسائل التعبير لأنها تؤدى معاني عابرة لا تعلق في النفس كثيرا و لا تثير في الشخص حركة أو إنفعالا ، أما الطرق التي تثير الشخص ، وتثبّت المعنى في النفس ، وتقرره في الذهن فهى التي تحدد المعنى في صورة ، وتقرنه بمثال)[٥].

وقد اعتنى ابن القيم رحمه الله بالامثال في كتاباته و خاصة أمثال القرآن الكريم .

وضمن كتابه الكبير أعلام للوقعين جزءا منه وقدأفرده في كتاب سمي الامثال

---

(١) سورة الزخرف : ٥٥ .
(٢) سورة النساء الايه : ٧٩ .
(٣) " الإسراء " : ٣٢ .
(٤) التبيان في اقسام القران : ٤٠ .
(٥) ابن القيم وحسه البلاغي :١٦٦ عبد الفتاح لاشين ط : دار الرائد العربي بيروت الطبعة الاول : ١٤٠٢هـ

في للقرآن الكريم ، وقد أدرج فيه الامثال الواردة في القرآن الكريم و شرح معانيها ووضح مواقع التشبيه والقياس . وقد اتضح حسه البلاغي فيها ،ومدى تعمقه فيها، فكشف لنا عن بلاغة هذه الامثال،و ماتحمله من معاني و تأثيرات و أحكام وكان القصد من ذكرها بيان صحة القياس وأنه أصل من أُصول الشريعة الإسلامية وقد أُستدل على صحته بقول عمر رضي الله عنه لابى موسى الاشعري رضي الله عنه : (ثم الفهم الفهم فيما أُد لى إليك مما ورد عليك مما ليس في قرآن ولا سنة ، ثم قايس الامور عند ذلك و اعرف الامثال ، ثم اعمد فيما ترى إلي أحبها إلى الله و أُشبهها بالحق)[١]. وبين رحمه الله أن الصحابه متفقون على القول بالقياس ولم ينكروا هذا الخطاب ثم بين أن القرآن الكريم قد ذكر القياس وأرشد الله تعالى عباده إليه في غير موضع من كتابه فقاس النشأة الثانيه على النشأة الأولى في الامكان وقاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الارض بعد موتها بالنبات كما قاس الحياة بعد الموت على اليقظة بعد النوم ، وضرب الامثال ، وصرفها في الانواع المختلفه ، وكلها أقيسه عقلية ينبه بهاعباده على أن حكم الشي ء حكم مثله فإن الامثال قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به ، وقد اشتمل القرآن على بضعة و أُربعين مثلا [٢].

تعريف المثل :

عرف ابن القيم المثل بأنه :

" تشبيه شيء بشيء في حكمه ، وتقريب المعقول من المحسوس أو احد المحسوسين من الآخر [٣]" .

وبين أن ضرب الأمثال من خاصة العقل وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين و إنكار التفريق بينهما ، والفرق بين المختلفين و إنكار الجمع بينهما [٤].

---

(١) أعلام الموقعين : ١/١٣٠ .
(٢) نفس المرجع : ١/١٣٠ .
(٣) امثال القرآن : ١٧٤ وكذا اعلام الموقعين صلى الله عليه وسلم
(٤) أعلام الموقعين : ١/١٣١ .

وبين مقصود الشارع مـــن ضرب الامثال فقال :

" ضَرَبَ الامثال لعبادة في غير موضع من كتابه ، وأمر باستماع أمثاله ، ودعا عباده الى تعقلها ، و التفكير فيها والاعتبار بها هذا هو المقصود بها[١] .

كما رغب رحمه الله في تعلم أمثال القرآن و معرفة مراميها عندما قال :

" وأمثال القرآن لا يعقلها الا العالمون مستندا في ذلك الى قوله تعالـــى: ((**وتلك الامثال نضربها للناس ، وما يعقلها الا العالمون**))[٢] ، وكان بعض السلـــف اذا قرأ مثلا لم يفهمه يشتدّ بكاوءه و يقول لست من العالمين [٣] ، فهو يرغب المومنين في تعلم أمثال القرآن حتى لا يكون من الجاهلين كما أنه قال :

" أن من عقل أمثال القرآن الكريم وعرف مراميها فإنه يكون عالما بعلم تعبير الروءيا لأن أمثال القرآن الكريم كلها أصول وقواعد لعلم التعبير لمن أحسن الاستـــدلال لان أصول التعبير الصحيحة انما أخذت من مشكاة القرآن ثم يوضح الامر بأن مـــــن رأى سفينه في منامه فانها تعبر بالنجاة مستدلا على ذلك بقوله تعالى : ((**فأنجيناه و أصحاب السفينة**))[٤] ، و الخشب بالمنافقين ، و الحجارة بقساوة القلب ، وأكل لحـــم الرجل بغيبته ، والمفاتيح بالكسب [٥] .

فالمثل هو زيادة في الكشف عن المعاني فانت أيها الداعية عندما تشبـــه الشيء المعقول بالمحسوس ، فان ذلك يجعل لهذا المعقول وقعا في القلب و رسوخـــا فان المعنى الثابت في العقل يسانده بعد ذكر المثال الخيال و التصور مما يزيـــد المعنى ثباتا و رسوخا .

قال الزمخشري عند تفسير قوله تعالى :((**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا**))[٦] ، بعد ذكره تعالى حقيقة صفة المنافقين : عقبّها بضرب المثال زيادة فـــي الكشـــف و تتميمـــا للبيـــان ، و لضـــرب العرب الامثال و استحضار العلمـــاء المثـــل

---

(١) اعلام الموقعين : ١٩٥/١ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٣ .
(٣) شرح القصيده النونيه : ١٣/١ .
(٤) سورة العنكبوت الايه : ١٥ .
(٥) أنظر اعلام الموقعين : ١٩٣/١ ، ١٩٤ .
(٦) سورة البقره الايه : ١٧ .

والنظائر ، شأن ليس بالخفي في ابراز خبايا المعاني ، ورفع الاستار عن الحقائق حتى تريك المتخيل في صورة المتحقق ، و المتوهم في معرض المتيقن و الغائب كأنه مشاهد [١].

كما أن ابن القيم رحمه الله تعالى قد ادرك عظيم تأثير المثال ، ومدى تقريبه المعقول من المشهود فأكثر من ذكر الامثلة التي تصور للعقل و تقربه من الحق وقال في مقدمة القصيدة النونية:وهذه أمثال حسان مضروبة للمعطل و المشبه و الموحد ذكرناها قبل الشروع في المقصود فإن ضرب الأمثال مما يأنس به العقل لتقريبها المعقول من المشهود ومن هذه الامثال قوله :

" شجرة للمعطل شجرة الزقوم ، فالحلوق السليمة لا تبلعها و شجرة المشبه شجرة الحنظل ، فالنفوس المستقيمه لا تتبعها وشجرة الموحد طوبي يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها [٢]" .

قال عن الغيرة على دقيق العلم وما لا يدركه فهم السامع إن ذُكِرَ له :

المسأله الدقيقة اللطيفة التي تبذل لغير أهلها كالمرأة الحسناء التي تهدي إلى ضرير مقعد [٣].

• ومثال – غض البصر • وكيف أنه يورث في القلب نور وصحة وفراسة لأنه أمسك بصره عن المحرمات ونفسه عن الهوى فأطلق الله له نور بصيرته .

قال : إن القلب كالمرآة و الهوى كالصدأ فيها فإذا خلصت المرآة من الصدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه [٤].

القصة

القصة من ضروب الموعظة وهي عبارة عن ترغيب و ترهيب ، فالقصة حكاية تَحْكِي ما جرى على فرد أو جماعة وما نالهم في النهاية من حسن الجزاء والنعيم والذكر

---

(١) الكشاف للزفحشرى : ٣٧/١ .
(٢) انظر القصيدة النونيه : ١٣/١ .
(٣) روضة المحبين : ٣١٢ .
(٤) اغاثه اللهفان : ٤٨/١ .

الحسن ، لما قدّم من عمل صالح أُرضى به الخالق و أُصلح به شئون الخلق ، أو تـــروي ما انتهى إليـــه أمر المخالف الذى هَمُهُ إرضاء نفسه و إشباع رغباته و اتباع هـــواه من عقاب مؤلم سواء في الدنيا أوالآخرة .

ولم يكن القصص في القرون الاولي مذموما لانفنونه إنما كانت ترجع الـــى الكتاب و السنة قال ابن الجوزي (١) ، كان الوعاظ في قديم الزمان علمـاء فقهاء ، وقـد حضر مجلس عبيد بن عمير (٢) ، عبد الله بن عمر رضي الله عنه ، وكان عمر بـــن عبد العزيز يحضر مجلس القاص ثم خست هذه الصناعه فتعرض لها الجهال فبعد عـــن الحضور عندهم المميزون من الناس وتعلق بهم العوام و النساء ، فلم يتشاغلوا بالعلـم و أقبلوا على القصص وما يعجب الجهله و تنوعت البدع في هذا الفن (٣) ، وقد كثركـلام العلماء في القصص وبينوا أنه محمود و مذموم فالمحموم ما اشتمل عليه القرآن الحكيم وما صح في الكتب الصحيحه من كتب السنة والتفاسير الموثوق بها .

و المذموم ما عدا ذلك من قصص الامم السابقه التي يتطرق اليها الإختـــلاف من زيادة و نقصان فإن ذلك مما يندر صحته خصوصا ما ينقل عن بني اسرائيل ممـــا لا يقره عقل ولا يؤيده نقل ، فهذا من المذموم لما فيه من الكذب فإن من فتح البـاب على نفسه اختلط عليه الصدق و الكذب . قال الإمام احمد ابن حنبل : ما أحوج النـاس الى قاص صادق فإن كانت القصة من قصص الانبياء والمرسلين عليهم السلام فيما يتعلـق

---

(١) ابو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزى علامة عصرة في التاريـــخ والحديث مولده ووفاته ببغداد له حوالى ثلاثمائة مصنف منها الاذكياء واخبارهم وروح الأرواح - ومناقب عمر بن عبد العزيز،والمدهش،وصولة العقل على الهـــوى و تلبيس ابليس،و المنتظم في تاريخ الملوك و الامم،وغيرها كثير توفي رحمـــه الله سنة ٥٩٧ هـ ، أنظر : وفيات الاعيان ٢٧٩/١ مفتاح السعاده :٢٥٤/١- ٢٥٥. ابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهره في ملوك مصر والقاهـــرة ١٧٤/٦ - ١٧٦ ، ١٣٥٥ هـ دار الكتب المصريه القاهرة .

(٢) عبيدبن عمير بن قتاده بن سعيد متفق على توثيقه أخرج له الجماعة كان قاضـــي أهل مكه في زمانه كان ابن عمر يجلس اليه ويقول :لله درّ، ابي قتاده ، ماذا يأتي به انظر التهذيب ٧١/٧ ، تاريخ الثقات ١٠٨٢ .

(٣) تلبيس ابليس ص ١١٨ تحقيق محمد على أبو العباس مكتبة القرآن بالقاهـــرة عام ١٩٩٠ م .

بأمور دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فلست أرى به بأسا[١].

وقد ذكر الباري تبارك وتعالى القصص في كتابه المبين في كثير من سوره وقد نوع ا ساليب القصه من سورة الى سورة ، وكان مقصوده سبحانه من ذكر هذه القصص العظة و العبرة قال تعالى : ((**لقد كان في قصصهم عبرة لاولي الالباب ما كان حديثا يفترى**))[٢] . وقال : ((**وكلا نقص عليك من انباء الرسل ما نثبت به فوءادك وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للموءمنين**))[٣].

فالرب سبحانه ذكر القصه في كتابه لما فيها من العظة والعبرة وتذكير الخلق لان ما حدث للسابقين حق إضافة لما فيه من تثبيت للنبي والذين آمنو معه فالقصه من أهم ما يجب على الدعاه اليوم أن يسلكوها في مواعظهم لانه أسلوب يعتمد على الخطابه و التصوير و اظهار النتائج وهى غالبا مما يرسخ في ذهن السامع ويجذب قلبه ولنا في كتاب الله ودعوته أسوة حسنه قال تعالى : ((**نحن نقص عليك أحسن القصص**))[٤] . فعليك اخى الداعيه بالقصص القرآني فان له من المميزات عن غيره الكثير فانه حق من عند الله فهو واقعي وكذلك فإن تنوع اسلوبه من سورة الى سورة في القصه الواحدة و الانتقال في خطابه من أسلوب الخبر الى الانشاء الى الاستفهام معجز بليغ لا تجده في غيره ، والله سبحانه هو الذى خلق النفوس ويعلم ما يوءثر فيها وما يوقظها من غفلتها فعليك اخي الداعية به وبكل ما صح عن النبي صلى الله عليهوسلم وما روي في كتب التفاسير الموثوق بها فان فيها ما يغنيك و يشبع رغبة الجمهور و يوقظ في الحي منهم المشاعر النبيلة ويَرسَخ في عُقولِهم .

و اليك ابن القيم رحمه الله وهو يقص علينا قصة اسلام سلمان الفارسي

---

(١) أنظر هداية المرشدين : ٨٧ .
(٢) سورة يوسف الايه : ١١١ .
(٣) " هود " : ١٢٠ .
(٤) سورة يوسف الايه : ٣ .

رضي الله عنه وما فيها من بلاغه و استعارة و رمز الى معاني الاسلام يقول :

" لما قضي في القدم بسابقة سلمان عرج به دليل التوفيق عن طريق آبائه في التمجس فأقبل يناظر أباه في دين الشرك ، فلما علاه بالحق لم يكن له جواب الا القيد . وهذا جواب يتداوله أهل الباطل من يوم حرّفوه ، وبه أجاب فرعون موسى (لئن أتخذت الٰها غيري)[١] ، وبه أجاب الجهيمة الامام أحمد لما عرضوه على السياط وبه أجاب أهل البدع شيخ الاسلام حين استودعوه السجن ، فنزل به ضيف (ولنبلونكم) فنال بإكرامه مرتبة (سلمان منّا أهل البيت) فسمع أن ركبا على نية السفر فسرق نفسه من أبيه ولا قطع فركب راحلة العزم يرجو إد راك مطلب السعادة ، فغاص في بحر البحث ليقع بدرة الوجود ، فوقف نفسه على خدمة الادلا ء،وقوف الأدلاء ، فلماأحس الرهبان بانقراض دولتهم سلموا إليه أعلام الاعلام على نبوّة نبينا وقالوا ، إن زمانه قد أظل فاحذر أن تضل ، فرحل مع رفقة لم يرفقو ا به " و شروه بثمن بخس دراهم معدوده "[٢] " ، فابتاعه يهودى بالمدينه ، فلما رأى الحرة توقد حراً شوقه ، فبينما هو يكابد ساعات الانتظار قدم البشير بقدوم البشير ، وسلمان في رأس نخلة وكاد القلق يلقيه لولا أنالحزم أمسكه كما جرى يوم " ان كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها "[٣] " ، فعجّل النزول لتلقي ركب البشارة ولسان حاله يقول :

خليلي من نجد قفابي على الربا فقد هب من تلك الديارنسيم

فصاح به سيده مالك أنصرف الى شغلك فقال :

كيف أنصرافي ولي في داركم شغل

فلما لقي الرسول عارض نسخة الرهبان بكتاب الاصل فوافقه : وسلمان اذا سئل عن اسمه قال عبد الله ، وعن نسبة قال ابن الاسلام ، وعن ماله قال الفقر وعن حانوته

---

(١) سورة الشعراء الايه / ٢٩ .
(٢) سورة يوسف الايه : ٢٠ .
(٣) سورة القصص الايه : ١٠ .

قال المسجد وعن كسبه قال الصبر وعن لباسة قال التقوى والتواضع وعن فخره قال سلمان منّا ، وعن قصده قال يريدون وجهه وعن دليله في الطريق قال إمام الخلق وهادى الأئمه [١] ، وكذا قصة ذو البجادين رضي الله عنه و اسلامه [٢] ، فابن القيم رحمه الله تميز في قصصه عن الاسفاف وذكر القصص التي فيها مبالغة و تخيل.وأما عن مواعظة رحمه الله تعالى،فهي كثيرة جدا، يكفي العاقل منها كتابه الجواب الكافي،فإنه بمجموع ما زخر به من أدويه هي مواعظ مليئة بالايات و الاحاديث المشتمله على الترغيب و الترهيب و بيان الحكمة من التحريم وغير ذلك و نسوق بعض المواعظ المأثورة عنه مما يدلنا على أن ابن القيم من أعظم الوعاظ و الدعاة الذين عرفوا و تبصروا بأحوال المدعو ين فيقول رحمه الله :

" ولما كانت مفسدة الزنا من أعظم المفاسد وهى منافيه لمصلحة العالم في حفظ الانساب و حماية الفروج ، وصيانة الحرمات و توقّي ما يوقع أعظم العداوه و البغضاء بين الناس من إفساد كل منهم إمرأة صاحبه و ابنته و أخته و أمه، كانت تلى مفسدة القتل في الكبر و لهذا قرنها الله سبحانه في كتابه ، وقد أكد سبحانه حرمته بقوله : ((**والذين لا يدعون مع الله الها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله الا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا الا من تاب**)) [٣] ، فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف ما لم يرفع العبد موجبه بالتوبة و الايمان والعمل الصالح وقال تعالى : ((**ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا**)) [٤] ،فأخبر عن فحشه في نفسه وهو القبيح الذى تناهى قبحه حتى اشتد فحشه في العقول . فانه سبيل هلكة وبوار و افتقار في الدنيا وعذاب و خزى و نكال في الاخره .

---

(١) أنظر الفوائد : ٤٧ ـ ٤٨ .
(٢) نفس المرجع والصفحه .
(٣) سوره الفرقان الايه : ٦٨ .
(٤) سورة الاسراء الايه :٣٢ .

ولما كان ذلك من قبل البصر جعل الامر بغضه مقدما على حفظ الفرج فـــان الحوادث مبدوءها من البصر ،كما أن معظم النار من مستصغر الشرر ، فتكون نظـــرة ثم خطرة ، ثم خطوة ، ثم خطيئة ولهذا قيل من حفظ هذه الاربعة حفظ دينه[١] .

ويقول في موعظه له عنون لها بقوله : الدنيا خداعة قال :

ميزت بين جمالها وفعالهـــا فإذا الملاحة بالقباحـــة لا تفـــي

حلفت لنا أن لا تخون عهودنـــا فكأنها حلفت لنا أن لا نفـــي

السير في طلبها سير في أرض مسبعه ، و السباحه فيها سباحة في غديـــر التمساح ، المَفْرُوحُ بِهِ منها هو عين المحزون عليه . آلآمُها متولدة من لذّاتها ، وأحزانها من أفراحها . تزخرفت الشهوات لاعين الطباع فغضّ عنها الذين يؤمنون بالغيب ووقـــع تابعوها في بيداء الحسرات ، و ((أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون))[٢] . وهؤلاء يقال لهم ((كلوا و تمتعوا قليلا إنكم مجرمون))[٣] .

لما عرف الموفقون قدر الحياة الدنيا وقلة المقام فيها أماتوا فيهـــا الهوى طلبا لحياة الابد ، ولما استيقظوا من نوم الغفلة استرجعوا بالجد ما انتهبـــه العدو منهم في زمن البطالة ، وكلما أمرت لهم الحياة حلي لهم تذكر ((هذا يومكـــم الذى كنتم توعدون))[٤][٥] .

وهذا غيض من فيض من مواعظه رحمه الله تعالى سقناهـــا للأستدلال علـــى طريقته في الوعظ وعلى مصادره التي يعتمد عليها من كتاب و سنة وما أثر عـــن السلف الصالح رضي الله عنهم اجمعين .

كما يتضح من هذه المواعظ حسن استشهاده بالشعر فإن الشعر من أعظـــم

---

(١) الجواب الكافي بتصرف : ١٧٦ .
(٢) سورة البقره الايه : ٥ .
(٣) " المرسلات " : ٤٦ .
(٤) سورة الانبياء الايه : ١٠٣ .
(٥) الفوائد بتصرف : ٥٣ .

ما يؤثر في نفوس الناس فيا حبذا لو يستشهد الداعية بأبيات الشعر الصحيحة المأثورة ، فإن فيها من الحكمة و التأثير الشيء الكثير ، و استخدام ابن القيم للشعر يدل على سعة علمه بهذا الفن وحسن استدلاله به فاذا اطلعت على بعض كتاباته و استشهاداته ظننت أن هذا البيت وضع لخدمة هذا النص لابن القيم فحسب [١].

---

(١) انظر كتابه روضة المحبين وغيره .

النـــوع الثانـــي

العظـــة بالمشهـــــود

تكلمنا فيما سبق عن النوع الأول وهو العظة بالمسموع و بقي أن نبين النوع الثانـــــي وهو العظة بالمشهود فيقول عنها ابنالقيم أنها : الانتفاع بما يشاهده في هذا العالـــم من مواقع العبر و احكام القدر ، و مجاريه وما يشاهده من آيات الله الدالة على صـدق رسلـــــــــه[١] .

و موقع المشاهدة و العبرة إما أن يكون في التفكر و التبصر في خلق اللـــه عزوجل ، واما أن يكون بالاعتبار من مشاهدة آثار الامم السابقة وما حلّ بهم بسبـــب العصيان وعدم قبول الدعوة .

ولا يمكن ذلك الا بالنظر الى آثار افعال الرب سبحانه و تعالى والاستفـــادة لاصحاب العقول الواعية المتفكره التي تغوص في أعماق الاشياء وتستنتج العبر مـــن المشاهدات .

كما بين ذلك ابن القيم عند وصفه المدعو بالموعظه فقال :

" بأنه اذا ورد عليه الهدى أصغي إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليـه وعلم صحته و حسنه بنظره و استدلاله[٢] " .

اذا لابد من التفكر و النظر في آيات الله سبحانه وتعالى كما انه بيـــن ان النظر في الايات نوعان نظر اليها بالبصر الظاهر فيرى مثـلا زرقة السماء و نجومها و علوها و سعتها وهذا النظر يشارك الانسان فيه غيره من الحيوان و ليس هـــو المقصود من الامـــر .

ثانيـــا : أن يتجاوز هذاالى النظر بالبصيرة الباطنة فتفتح له ابواب السمـاء فيتجول في اقطارها و ملكوتها[٣] ، كما يقول رحمه الله :

" فاعلم ان التفكر : طلب القلب ما ليس بحاصل من العلوم من أمر هـــو

---

(١) مدارج السالكين : ٤٧٧ .
(٢) مفتاح دار السعاده : ٢١٧ .
(٣) " " " : ٢٣٦ .

حاصل منها، وهذه حقيقة، فإنه لو لم يكن، ثم أراد أن يكون موردا للفكر استحال الفكر لان الفكر بغيرمتعلق متفكر فيه محال ، وتلك المواد، هي الامور الحاصلة ، فالمتفكـــــــر ينتقل من المقدمات والمبادئ التي عنده الى المطلوب الذي يريده . فإذا ظفر بـــه و تحصل له تذكر به، وابصربه مواقع الفعل، و الترك، وما ينبغي إيثاره، وما ينبغي اجتنابـــه، فأيات الله تعالى تبصره ، وذكرى يتبصر بها من عمي قلبه ، ويتذكر بها من غفلته [١].

وقد أمرنا الله سبحانه وتعالى في كثير من آياته الى النظر و التفكر والتدبر في خلقه و التبصر بما حوله وأمام عينيه ليوقع الانسان على الايمان به وبرسوله كقولـــه تعالى : ((كذلك يبين لكم الآيات لعلكم تتفكرون)) [٢]. وقال : ((كذلك نفصـــــل الايات لقوم يتفكرون)) [٣] ، وقال : ((إن في ذلك لايات لقوم يتفكرون)) [٤]، وقـــــال تعالى : ((وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون)) [٥] ، وغير ذلك من الآيـــات التي تدل وتبين أن الله سبحانه وتعالى يطالب الانسان بالتفكر في آياته وملكوتـــه ، كما حثهم علي عقل آياته والوقوف عند حكمها كقوله : ((كذلك يحي الله الموتـــى و يريكم آياته لعلكم تعقلون)) [٦]. وقال : ((إن في خلق السموات والارض و اختـــلاف الليل و النهار و الفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها و بث فيها من كل دابة و تصريف الرياح والسحـاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون)) [٧].

وعن البصر والبصيره قال تعالى : ((قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهـــار سرمدا الى يوم القيامه من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون)) [٨] ، وقال : ((قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها وما أنا عليكـــم بحفيـــــظ)) [٩] .

---

(١) مفتاح دار السعاده : ٢٦٨ .
(٢) سورة البقرة : ٢١٩ .
(٣) سورة يونس الاية : ٢٤ .
(٤) سورة الرعد الايه : ٣ .
(٥) سورة الحشر الايه : ٢١ .
(٦) سورة البقره الايه : ٧٣ .
(٧) " " " : ١٦٤ .
(٨) سورة القصص الايه : ٧٢ .
(٩) سورة الانعام الايه : ١٠٤ .

وقال سبحانه عن التذكر :((ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون))[١] ، وقوله : ((أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يذكر أولوا الالباب))[٢] ، وغير ذلك من الايات التي ملىء بها القرآن الكريم و كلها تدور حول عمل العقل وما يجب أن يكون عليه من نظر وتبصر و تعقل وتذكر وتفكر مما يوجب للمتأمل والناظر فيما دعا اللهاليه في هذه الايات الوقوع على العلم بالله تعالى و بوحدانيته و بصدق رسوله وكمال حكمته .

أولا : الموعظة بالمشاهد من آيات الخلق :

وابن القيم هذا الداعيه البصير أدرك قيمة هذا الاسلوب و عظمته وأنه من طرق الهدايه الى هذا الدين القويم فأولاه عنايه خاصه فافت الوصف و شغلت حيزا كبيرا من كتبه يحسن بالداعيه أن يرجع اليها[٣] ، فانها تزيد من إيمانه و تطلعه على اسلوب يدعو به طبقات المتميزين من البشر وهم أصحاب العقول الراجحه والعلماء الافزاز سواء كانوا علماء في الفلك او في الطب أو في الفيزياء ، أو في الجيلوجيا أو في علم الطبيعه وفي أى علم من العلوم الأخرى ، وهذا ما يعرف بالاسلوب العلمي أو المنهج العلمي .

فإذا عرف الداعيه ما ورد في القرآن الكريم من الآيات و استخدم هذه الايات مع كل شخص في تخصصه فانه يوءمن بالله بشرط أن يجرد عقله عن الموانع ويطلب الحق لا غير فإن القرآن موافق لكل الاكتشافات الحديثه التي تحدث عنها القرآن قبل اكتشافها بأكثر من عشرة قرون ويزيد بل أنهم لم يكتشفوا الا القدر القليل جدا منها وهذا ما يقرره ابن القيم عند قوله :

" وهذه الجمادات، و الحيوانات، المختلفة الاشكال، و المقادير، والصفات، والمنافع، والقوى والاغذيه، والنباتات التي هى كذلك فيها من الحكم و المنافع ما قد أكثرت الامم في وصفه، وتجربته على ممر الدهور ومع ذلك لم يصلوا منه الا الى ايسر شيء

---

(١) سورة الزمر الايه : ٢٧ .

(٢) " الرعد " : ١٩ .

(٣) انظر في ذلك الموضوع كتاب مفتاح دار السعادة من ص ١٩٤ الى ٣٥٠ وانظر شفاء العليل ص٢٣١ وما بعدها وانظر التبيان في اقسام القرآن :من ١٨٥ لى ٢٦٠

وأقله ثم يقـــول :

" وتنويع مخلوقاته و حدوثها شيئا بعد شيء من أظهر الدلالات على ربوبيتـه وقدرته وحكمته وعلمه فتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع كقوله تعالـــى: ((وفي الارض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقـــى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون))[١]. وقوله : ((هو الذى أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون،ينبت لكـــم به الزرع، و الزيتون،والنخيل و الاعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآيات لقـــوم يتفكرون))[٢]، وقال : ((والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهـم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شـــيء قـــدير))[٣].

فتأمل كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها فـــي المادة على اختلاف فيما وراء ذلك من اعضائها و اشكالها وقواها وأفعالها واغذيتهـا و مساكنها فنبه على الاشتراك والاختلاف[٤]، فنبه سبحانه العقول البصيرة الى مفعولاتـه المختلفة في الصفات و الاشكال والالوان والاذواق و الكبر والصغر وكيف أن جميع هـذه المخلوقات خلقت من ماء وتعيش على الماء وتموت بفقدانه إن ذلك لمن أعظم الادلـة على توحيد الله تعالى كما يقول ابن القيم :

" وذلك أول شيء على قوته القاهرة و حكمته البالغة وعلمه الشامل فيُعْلَـمُ، إحاطة قدرة واحدة، وعلم واحد، وحكمة واحدة، أعني بالتنوع، من قادر واحد، حكميم واحـد بجميع هذه الانواع وأضعافها مما لاتعلمه العقول البشرية كما قال : ((ويخلق مـــا لا تعلمون))[٥]. وقال : ((فلا أقسم بما تبصرون وما لاتبصـرون))[٦]، فيجمع عُمايـات

---

(١) الايه من سورة الرعد : ٤ .
(٢) " " " النحل : ١١ .
(٣) " " " النور : ٤٥ .
(٤) انظر شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ص :٢٣١ .
(٥) الايه من سورة النحل : ٨ .
(٦) " " " الحاقه : ٣٨ .

فعله وحكمة خلقه وأمره إلى غاية واحده هى منتهى الغايات ، وهى الإلهية الحق التي كل الإلهية سواها فهى باطلة ومحال . فهي غاية الغايات ثم ينزل منها إلى غاية أخرى وهى وسائل بالنسبة إليها وغايات بالنسبه إلى ما دونها وان إلى ربك المنتهى و مفعولاته وهى أثار أفعاله ، وأفعاله آثار صفاته ، وصفاته قائمة به ، والمقصود العلم بإحاطة علم واحد من عالم واحد وفعل واحد من فاعل واحد وقدرة واحدة من قادر واحد و حكمة واحدة من حكيم واحد بجميع ما فيه على اختلاف ما فيه واجتمعت غايات فعله و أمره إلى غاية واحدة وذلك على توحيد الالهية والربوبيه النظام الواحد و الحكمة الجامعة للانواع المختلفة مع ضدها وتعذرها ، ودل افتقار بعضها الى بعض و تشبك بعضها ببعض ومعاونة بعضها ببعض وارتباطه على أنها صنع فاعل واحد ورب واحد[1] .

هذا مثال واحد مما ذكره ابن القيم رحمه الله من الامثلة الكثيرة في الدعوة الى الله بالموعظه بالمشهود من خلق الله تعالى وكيف أن هذا الخلق والترابط من اعظم الادله على توحيد الله سبحانه وتعالى في ربوبيته وألوهيته ، و أسمائه و صفاته ، فهذا الخلق يستدل به على جميع انواع التوحيد بل واركان الايمان المذكورة في الحديث : من ايمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر والقدر خيره وشره اذا جرّد العقل من الاهواء والمصالح .

ثانيا : أفعاله سبحانه بالامم السابقة :

اما الموعظة بالمشهود من أفعاله سبحانه بالامم السابقه المكذبه لرسله فقد اكثر سبحانه وتعالى من ذكرها في القرآن الكريم قاصدا منها النظر في فعله وقوته و حكمته في التدمير والهلاك لكل طاغية لا يرضخ الى اوامره ونواهيه ، وأن ذلك جزاء كل مكذب معاند ومن ذلك قوله تعالى : ((**أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ولدار الآخرة خير للذين اتقوا أفلا تعقلون**))[2] ، وقوله تعالى : ((**الم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم**

---

(١) انظر شفاء العليل : ٢٣٢ .

(٢) الاية من سورة يوسف : ١٠٩ .

و أشد قوة وأثارا في الارض فما أغني عنهم ما كانوا يكسبون))[١] . وقوله : ((أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمرالله عليهم وللكافرين أمثالها))[٢] ، وغير ذلك من الآيات التي أمر الله تعالى عباده فيها بالسير في الارض و النظر في آثار وعواقب الامم السالفه ليعتبروا بذلك قبل أن يحل بهم ما حل بغيرهم يقول ابن القيم رحمه الله في ذلك :

" ومن الايات التي أوقعها الله سبحانه وتعالى بالامم المكذبين لرسلهم ، المخالفين لامره وأبقى آثارهم دالة عليهم كما قال تعالى : ((وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم))[٣] . ، وقال في قوم لوط : ((وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون))[٤] ، ((وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين))[٥] ، اى ديارهاتين الامتين لبطريق واضح يمر به السالكون . ثم يقول: فأي دلالة أعظم من رجل يخرج وحده لاعدة له ولاعدد ولا مال فيدعو الأمة العظيمة الى توحيد الله والايمان به وطاعته و يحذرهم من بأسه ونقمته فتتفق كلمتهم ، أو اكثرهم على تكذيبه ومعاداته فيذكرهم أنواع العقوبات الخارجه عن قدرة البشر ، فيغرق المكذبين كلهم تارة ، و يخسف بغيرهم الارض تارة ، ويهلك آخرين بالريح ، و آخرين بالصيحة ، وآخرين بالمسخ وآخرين بالصواعق ، وينجو داعيهم ومن معه والهالكون أضعاف أضعافهم عددا وقوة ومنعة ومالا .

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مريد الحق كن هواديا

ولكن على تلك القلوب أكنة ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا

فهلا امتنعوا - ان كانوا على الحق وهم أكثر عددا و أقوى شوكة[٦] .

---

(١) الايه من سورة غافر : ٨٢ .
(٢) الايه من سورة محمد : ١٠ .
(٣) الايه من سورة العنكبوت : ٣٨ .
(٤) الايات من سورة الصافات : ١٣٧ - ١١٣٨
(٥) الايات من سورة الحجر : ٧٨ - ٧٩ .
(٦) التبيان في اقسام القرآن : ١٨٩ .

ثالثـــا : ما يحدثه الله فيها في كل وقت :

كما أن الموعظة بالمشهود لا تقف عند هذا الحد من الاشياء المبصره مـــن خلق الله السابق و تدمير الله سبحانه وتعالى الامم السابقة المكذّبه بل إن الايـــات الدالة على عظمة الخالق وقدرته ووحدانيته وربوبيته تتجدد كل يوم ، فما نراه مـــن الكوارث التي تسمي بالكوارث الطبيعيه كما يسميهـــا من لا يؤمن بالله وقدرته مـــن زلازل و براكين وأعاصير وأمراض فتاكه تدمر قرى بكاملها و تزيلها عن الوجـــود هى آيات و عقوبات من الله سبحانه ينبه بها عباده المتقين وغيرهم الى قوته وعظمتـــه كي يرجعوا اليه بسبب ما كسبوه من جرائم حيث يقول سبحانه : ((**وما أصابكم مـــن مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفوا عن كثير**))[1].

وقد نبه ابن القيم رحمه الله الى ذلك فقال :

" ومن الايات التي في الارض مما يحدثه الله فيها كل وقت مايصدق به رسله فيما أخبرت به ، فلا تزال آيات الرسل وأعلام صدقهم ، وأدلة نبوّتهم يحدثها اللـــه سبحانه وتعالى في الارض ، إقامة للحجة على من لم يشاهد تلك الايات التي قاربـــت عصر الرسل حتى كأن أهل كل قرية يشاهدون ما يشاهده الاولون أو نظيره كما قـــال : ((**سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق**))[2] ، وهـــذه الإرادة لا تختص بقرن دون قرن بل لابد أن يُرى الله سبحانه أهل كل قريه من الايـــات ما يبين لهم أنه الله الذى لا إله إلا هو ، وأن رسله صادقون ، وآيات الارض أعظـــم مما ذكر وأكثر فنبه باليسير منها على الكثير "[3].

---

(١) الايه من سورة الشورى : ٣٠ .

(٢) الايه من سورة فصلت : ٥٣ .

(٣) التبيان في اقسام القرآن : ١٨٩ - ١٩٠ .

مستدلا بقوله تعالى : ((لا حجة بيننا وبينكم))[1] ، قال :

" وليس المراد نفي الاحتجاج من الطرفين كما يظنه بعض من لايدري ما يقول ، وأن الدين لا احتجاج فيه ، كيف والقرآن من أوله الى آخره حجج وبراهين على أهل الباطل ، قطعية يقينيه ، وأجوبة لمعارضتهم ، وإفسادا لاقوالهم بأنواع الحجج والبراهين و إخباراً عن انبيائه ورسله بإقامة الحجج و البراهين وأمراً لرسوله بمجادلة المخالفين بالتي هي أحسن وهل تكون المجادلة إلا بالاحتجاج و افساد حجج الخصم ؟

وكذلك أمر المسلمين بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن ، وقد ناظر النبي صلى الله عليه وسلم جميع طوائف الكفر أتم مناظرة وأقام عليهم ما أفحمهم به من الحجج ، حتى عدل بعضهم الى محاربته بعدأن عجزوا عن ردّ قوله وكسر حجته ، و اختار بعضهم مسالمته ومتاركته ، وبعضهم بذل الجزية عن يد وهو صاغر ، كل ذلك بعد إقامة الحجج عليهم ، واخذها بكظهم وأسرها لنفوسهم وما استجاب له من استجاب الا بعدأن وضحت له الحجة ولم يجد الى ردها سبيلا ، وما خالفه أعداؤه الا عنادا منهم و ميلا الى المكابرة بعد اعترافهم بصحة حججه وأنها لا تدفع فما قام الدين الا على ساق الحجه .

ثم بعد أن بين رحمه الله تعالى أن الاحتجاج جائز بل أن الدين قائم عليه أخذ في بيان قصد الشارع تبارك وتعالى في قوله :((لا حجة بيننا وبينكم)) ، وأنها تعنى أنه لا خصومة ، فإن الرب واحد ، فلا وجه للخصومة فيه ، و دينه واحد قد قامت الحجة وتحقق البرهان فلم يبق للا حتجاج والمخاصمة فائدة ، فإن فائدة الاحتجاج ظهور الحق ليتبع فإذا ظهر الحق وعانده المخالف وتركه جحودا وعنادا لم يبق للاحتجاج فائدة[2] .

---

(١) الايه سورة الشورى : ١٥ .

(٢) انظر مفتاح دار السعاده : ٤٥٣ .

الجـــدل ممـــدوح ومذمـــوم

فالممـــدوح : ما كان بنيةً خالصة وجرى بطريقـة سليمه وأدى إلى الخير ، أو يقال : هو كل جدال أيّد الحق وأفضى إليه بنية خالصة وطريق صحيح[1] .

قال ابن القيم في قولة تعالى : ((**وجادلهم بالتي هى أحسن**)) :

" يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل و غلظته ولينه، وحدته ورفقه ، فيكـون مأمورا بمجادلتهم بالحال التي هى أحسن .

و يحتمل أن يكون صفة لما يجادل به من الحجج والبراهين و الكلمات التـى هى أحسن شيء و ابينه وأدله على المقصود ، وأوصله الى المطلوب و التحقيق أن الايـه تتناول النوعين[2] ، و دعوة القران الصريحة ترشدنا الى هذا النوع من الجدل وتبيـن أصوله و آدابه فقال تعالى : ((**أدع الى سبيل ربك بالحكمة و الموعظة الحسنه وجادلهم بالتي هى أحسن**))[3] ، وقال تعالى : ((**ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هى أحسـن الا الذين ظلموا منهم**))[4] .

ومن الادلة على صحة هذا الجدل ما كان يحدث بين الصحابه رضوان الله عليهم ورسول الله صلى الله عليه وسلم من الجدل ولم ينكر عليهم ذلك إذكان لطلب المصلحة والحق مثل جدال سعد بن معاذ وسعد بن عبادة رضي الله عنهما مع الرسول صلى اللـه عليه وسلم في غزوة الأحزاب[5] . وكما حدث من جدال الصحابه وعمر لرسول الله صلـى الله عليه وسلم في صلح الحديبية[6] .

كما أن الجدال مع أهل الالحاد و المشركين وأهل البدع لا بد منه قال شيـخ الاسلام ابن تيمية " فكل من لم يناظر أهل الالحاد و البدع مناظرة تقطع دابرهم لم يكـن

---

(١) مناهج الجدل في القرآن الكريم : ٤٥ ، د. خوض زاهر الألمعي ط الثانيه ١٤٠٠هـ مطابع الفرزدق
(٢) مدارج السالكين : ١ / ٤٧٩
(٣) سورة النحل الايه : ١٢٥ .
(٤) سورة العنكبوت الايه : ٤٦ .
(٥) انظر زاد المعاد : ٣/٢٧٣ .
(٦) انظر زاد المعاد : ٧/٢٩٤ .

أعطى الاسلام حقه ولاوفى بموجب العلم والايمان و لا حصل بكلامه شفاء الصدور وطمأنينه النفوس ولا أفاد كلامه العلم واليقين [١].

قال ابن القيم في فقه قصة وفد نجران وهو يستخلص فوائدها :

" ومنها جواز مجادلة أهل الكتاب و مناظرتهم ، بل استحباب ذلك ، بل وجوبه إذا ظهرت مصلحته من اسلام من يرجى إسلامه منهم وإقامة الحجة عليهم ولا يهرب من مجادلتهم الا عاجز عن إقامة الحجه ، فليولِّ ذلك إلى أهله ، وليخلي بين المطي و حاديها ، والقوس و باريها [٢]".

الجدل المذموم

وهو : كل جدال ظاهر الباطل أو أفضي إليه [٣].

قال تعالى : ((**و يجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق**))[٤]. وقال : ((**ومن الناس من يجادل في الله بغير علم و يتبع كل شيطان مريد**))[٥].

وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم)[٦]

وغير ذلك من الادله في الكتاب و السنة و جميعها ظاهرة في دلالتها على الجدال بالباطل وهو ما قرره أكثر علماء هذه الامة .

لأنه لا تعارض بين النصوص التي تأمر بالجدل والتي تنهى عنه فالجدل الذي أمر الله به غير الذى نهى عنه يقينا فتحمل نصوص الامر على الجدال بالحق و نصوص النهى على الجدال بالباطل كما أن ابن القيم يرى أن تقديم العقل على النقل من المجادلة بالباطل كما قال :

---

(١) درء تعارض العقل والنقل لشيخ الاسلام : ٣٥٧/١ .
(٢) زاد المعاد : ٦٣٩/٣ .
(٣) مناهج الجدل في القرآن الكريم : ٥٧ .
(٤) سورة الكهف الايه ٥٦ .
(٥) سورة الحج الايه : ٣ .
(٦) رواه البخارى : ١٠١/٣ .

" ومن أعظم الجدال في آيات الله جدال من يعارض النقل بالعقل ثم يقدمه عليه فإن جداله يتضمن أربع مقامات .

احداهـا : أنه تبين أن الادلة النقليه من الكتاب و السنة لا تفيد علما ولا يقينا .

الثاني : أن ظاهرها يدل على الباطل و التشبيه و التمثيل .

ثالثها : أن صريح العقل يخالفها .

الرابع : أنه يتعين تقديمه عليها ، ولا يصل الى هذه المقامات الا بأعظم الجدال [1] .

كما أنه بين مجمل القول في الجدل الممدوح والمذموم بقوله : فأما المناظرة فتنقسم الى محمودة ومذمومه ، والمحمودة نوعان ، والمذمومه نوعان وبيان ذلك : أن المناظر إما أن يكون عالما بالحق واما أن يكون طالبا له ، وإما أن لا يكون عالما به ولا طالبا له وهذا الثالث هو المذموم ، وأما الاولان فمن كان عالما بالحق فمناظرته التي تحمد أن يبين لغيره الحجة التي تهديه إن كان مسترشدا طالبا للحق أو تقطعه أو تكسره ان كان معاندا غير طالب للحق ولا متبع له أو توقفه و تبعثه على النظر في أدلة الحق .

ثم يبين أن لمناظرة المبطل فائدتان : أحداهما : أن يُرَدّ عن باطله ويرجع الى الحق ، الثانيه : أن ينكفّ شره وعداوته ويتبين للناس أن الذى معه باطل [2] .

جدل القرآن الكريم

يرى ابن القيم أن جدل القرآن الكريم أحسن الحجج وأقوى البراهين لمن أراد مناظرة الطوائف الضاله فيقول وليس :

" أحسن من حجج القرآن و مناظراته للطوائف فإنه كفيل بذلك على أتم الوجوه لمن تأمله و تدبّره ورزق فهما فيه وحججه مع أنها في أعلى مراتب الحجج وهى طريقة

---

(١) الصواعق المرسله : ١١٣٠/٣ .

(٢) نفس المرجع : ١٢٧٥:٤ .

أخرى غير طريقة المتكلمين وأرباب الجدل و المعقولات فهى أقرب شيء تناولا وأوضح دلاله وأوقوى برهانا وأبعد من كل شبة و تشكيك [١] . وسنسوق مثلا من جدال القرآن الكريم لاثبات ما قاله أبن القيم رحمه الله وهو :

" ما سلكه ابراهيم عليه السلام مع قومه وأبيه لابطال معبوداتهم الاصنام و أراد أن يبرهن على ذلك ببرهان عملي جدلي وهو صاحب الحجة القوية كما قال تعالى : ((**وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومة نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم**))[٢] .

وقد حكى الله سبحانه وتعالى الصراع العقدى الذى دار بين إبراهيم و أبيه و قومه وكذا الصراع العملي في سورة الانبياء فقال عز من قائل : ((**ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل و كنّا به عالمين إذ قال لابيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**)) ، الى قوله : ((**قالوا حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا ناركوني بردا و سلاما على ابراهيم**))[٣] . فقد بين لنا البارى سبحانه أنه أعطى ابراهيم رشده وهداه لوجوه الملاح قبل موسى و عيسى وكان موضع رضيٰ الله وهو يناقش قومه و يحاججهم وكان أول سؤ ال منه عن تلك التماثيل التي يعبدوها من دون الله وهذا تجاهل منه لاصنامهم و تغالب ليحقر آلهتهم ، فكان جوابهم عن ذلك أن قالوا : و جدنا آباءنا لها عابدين " ، وهذه شبهة اعداء الرسل جميعا ، ما دام ذلك عمل الاباء و الاجداد فكيف نحيد عنه وهى عادة في التخلص من دعوة الحق ، لقد عمدوا الى العقول فعطلوها والى الاسماع فأصموها قال تعالى : ((**واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون**))[٤] ، فأ جابهم عليه السلام بقوله : " لقدكنتم أنتم وآباؤكم في ضلال

---

(١) الصواعق المرسله :١٢٧٦/٤ .
(٢) سورة الانعام الايه : ٨٣ .
(٣) سورة الانبياء الايه : ٥١ - ٦٨ .
(٤) سورة البقرة الايه :١٧٠ .

مبين " لأنكم لا تعتمدون على دليل ، بل على التقليد و اتباع الهوى فتعجبوا من صنيعه معهم وحسبوا أنه ، قال ما قال على وجه المداعبة والمزاح ، لا على سبيل الجـــــــدّ فقالوا له : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين " فأخبرهم أن ربهم رب السموات و الارض الذى خلقها على غير مثال سابق هو الذى يستحق العباده وأنا شاهدٌ على ذلك بالحجج و البراهين لأني لست مثلكم أقول مالاأقدر على إثباته ، ثم لم يكتف نبي الله ابراهيم بانكاره على قومه ، عبادة الاصنام ، و تضليلهم وسلفهم بل أقسم بتحطيم أصنامهم والكيد لها بعد ذهابهم عنها ووجود الفرصه المناسبه فقال : " والله لأكيدن أصنامكم بعـــد أن تولوا مدبرين " ، وفي عيد من أعيادهم أرسل إليه ملكهم أن غداً عيدنا فاخرج معنا فوجد الفرصه مواتية لتنفيذ ما رآه نافعا في الزامهم الحجه وكانوا يعتقدون في النجوم وأن لها تأثيراً في العوالم الارضيه كما أنهم يتشاءمون من السقيم وهو من به مـــــــرض الطاعون - خوفا من العدوى فبدأبتنفيذ الخطة كما حكي البارى قصته في سورة الصافات قال تعالى : ((**فنظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم فتولوا عنه مدبرين**))[١] . " وكان ذلك منه عليه السلام توربة و تعريضاً كما قال للملك لما سأله عن سارة هى أختـــــــي و يعني أخوة الدين ، وهكذا قوله إني سقيم من معاريض الكلام لأن من كُتِبَ عليه الموت يسقم في الغالب ثم يموت ، كما أن رجلاً مات فَجْأة فالتفّ عليه الناس فقالوا : مـــات وهو صحيح : فقال إعرابي : أصحيح مَنْ الموتَ في عُنُقِهِ ، فابراهيم عليه السلام صادق[٢] "

وبعد أن نفذ خطته ، و استقام له ما أراد ، بدأ العمل كما بينه الرب تبارك و تعالى فقال : ((**فراغ إلى آلهتهم فقال الا تأكلون ما لكم لا تنطقون**))[٣] ، وهـــــذا تهكم و استهزاء منه عليه السلام لانهم أنزلوها منزلة من يعقل وهو يعلم عليه الســـلام أنها لن تأكل من القرابين ولن تنطق فما كان منه عليه السلام الا أن " جعلهم جـذاذا الا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون " أخذ يجذهم صنما بعد صنم حتى صارت قطعا صغيره

---

(١) سورة الصافات الايات :٨٨ ـ ٩٠ .

(٢) انظر الجامع لاحكام القرآن للقرطبي / ١٥ / ٩٢ والكشاف للزمخشرى ٣٠٤/٣ .

(٣) سورة الصافات الايات : ٩١ ـ ٩٢ .

عدا صنمهم الأكبر تركه بدون جذ والحكمة التي أرادها ابراهيم عليه السلام من إبقائه كي يدور الجدال حوله ويجرى الاستجواب له ومعرفة المعتدى على جيرانه و لعلهم يرجعون إليه ليسألونه لماذا تتحمل الإهانة للاصنام وأنت مطرق ساكت ولماذا لا تزود عنهم ذلك الأذى الذى حل بهم ولعل ذلك المنطق يقودهم إلى الإله الحق وكل هذا نكاية من ابراهيم بتلك الاصنام وفضحاًلمعتقدات أبيه و قومه في عبادتهم للجمادات التي لاتنطق ولا تملك أن تد فع عن نفسها الاذى فكيف تدفعة عن غيرها فنفذ إبراهيم عليه السلام حجته العملية ثم جاء أبوه و قومه يهرعون إلى ألهتهم فوجودها على تلك الحال المخزيه فدار بينهم نقاش وحوار كما قال تعالى : ((**قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون**))(١) فلما أتي بابراهيم و أجتمعوا حوله و قلوبهم تكاد تميز من الغيظ بدأوا بتوجيه السؤال إليه فقالوا : ((**أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم**))(٢) ومن طرائف ما ذكره بعض المفسرين واصحاب السير أن ابراهيم عليه السلام لما كسر أصنامهم ووضع الفأس في عنق الصنم الأكبر الذى أبقي عليه زيادة في التنكيل والتسفيه لتلك الآله ولهذا قال في جوابه : ((**بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**))(٣) وهذا المنهج الذى سلكه عليه السلام في عمله هذا هو المنهج الجدلي الحي المتفاعل مع طوايا النفس و كوامن الضمير وهو طريق الإلزام و الافحام فقد ساق الجواب من واقع معتقداتهم ليبرهن لهم أن تلك المعبودات ما تصلح للعباده و اتيان الدليل من واقع ما يعتقده الخصم أبلغ في الإلزام والإفحام وفرق بين سوق الدليل لمن يطلب الرشد ويبحث عن الحقيقه وبين سوقه للمعاند فيساق لقطع حجاجه وإبطال شبهاته . أما الطريق الالزامي الذى يتضمنه جوابه فهو :

١ - نسبه الفعل إلى كبير أصنامهم في قوله : ((بل فعله كبيرهم هذا)) ، ومن المعلوم لديهم أنه جماد لا يتحرك و لايفعل شيئا من العدوان فالإلزام أنه ما دام كذلك فأى مظهر من مظاهر الالوهية في هذا الصنم .

٢ - أمرهم بتوجيه السؤال الى الاصنام المكسره من فعل بها ذلك ومن

(١) الآيات من سورة الأنبياء : ٥٩ - ٦١
(٢) الآية من سورة الأنبياء : ٦٢
(٣) الآية من سورة الأنبياء : ٦٣

المعلوم أنها لاتنطق فهي عاجزة عن الدفاع عن نفسها وبالتالي لا تملك الافصاح فهل بقي لها ميزه من مميزات الالوهيه تستحق بها العباده .

وكان قوله عليه السلام ((فا سألوهم ان كانوا ينطقون)) بمنزلة صيحة عليهم بددت أفكارهم و أربكت لجاجتهم فبقي الحوار دائراً في قرارات أنفسهم فقالوا ((انكم أنتم الظالمون ثم نكسوا على رؤسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون)) ، فألزمهم بالحجة و البرهان ووبخهم على سفاهة أحلامهم و تفاهة معبوداتهم فقال : ((**أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون**))[1] .

وهذه صورة من صور جدل القرآن الكريم بين الرب فيها جدال ابراهيم عليه السلام مع المشركين وكيف فنّد حججهم و ألزمهم الحجة بكلام منطقي وعمل منطقي بعيد عن التعقيد و الإبهام بل في أسلوب مقنع سلس يفهمه الكبير و الصغير ولا تجد أفضل منه في إقناع المشركين أبداً .

---

(١) انظر مناهج الجدل : ١٦٧ - ١٦٨ ، وانظر دعوة الرسل الى الله تعالى لمحمد أحمد العدوى ص ٣د .

نظـــرة ابن القيـم للجـــدل

عرفنا أنابن القيم رحمه الله يرى أن الجدل من الأساليب الدعوية التـــــي لا يمكن للداعية المتمكن العالم بالشرع و طرقه من الاستغناء عنه بل أنه يـرى أنـــه حق من حقوق الله على عبيده كما قال :

" ومن بعض حقوق الله علي عباده رد الطاعين على كتابه و رسوله و دينـــه و مجاهدتهم بالحجة و البيان "[1]، بل إنه يذهب إلى أكثر من ذلك وهو أن عدم مناظرة الملحدين قد تسبب الطعن في الدين بسبب عجز بعض المسلمين من الجام الجاحـــد الحجه و إيضاح المراد فقال رحمه الله :

وقد انتهى الينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلميـــن فلم يصادف عنده ما يشفيه ، ولا وقع دواؤه على الداء الذى فيه ، وظن المسلم أنـــه بضربه يداوية ، فسطا به ضربا وقال هذاهو الجواب : فقال الكافر : صدق أصحابنـــا في قولهم : إن الاسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب "[2]، ومن أجل هذه المسائـــل الف كتابه هداية الحيارى في أجوبة اليهود و النصارى ، فهو يرى أن الجدل الممـدوح يمنع هذه المقاله وغيرها عن دينه ، كما أنه يرد المبطل عن باطله و يرده الى الصواب إضافة إلي أن جداله ينكف شره و عدوانه و يبين للناس أن الذى معه باطل "[3].

من أجل ذلك يرى المطلع على تراثه الذى بين أيدينا قد حشوت بالمناظـــرات مع أهل البدع و الاهواء ونقل بعض المناظرات التي دارت بين أهل السنه و المبتدعه[4] فقال في أحد كتبه • مناظرة جرت بين جبرى وسني جمعها مجلس مذاكره ، وقال فـــي موضع آخر مناظرة بين قدرى وسني "[5]، ثم تراه كيف يسوق شبههم شبهة بعد شبهـــة ثم يفندها واحـده بعد الاخرى معتمدا في تفنيد شبههم على الكتاب و السنه ويذكـــر قواعدهم التي اعتمدوا عليها وكيف أنها تخالف العقل و النقل الصحيح و كثيـرا مـــا

---

(١) (٢) هداية الحيارى : ١٢ •

(٣) الصواعق المرسله : /١٢٧٥ •

(٤) انظر هداية الحيارى : ٩٠ •

(٥) انظر شفاء العليل : ١٣٩ و ١٥٢ •

يضرب أقوال المبتدعه بعضهم ببعض ويبين أن هذا المبتدع قد أفسد حجة هذا . بمقتضى قوله ، إن المطلع على ما كتبه ابن القيم يرى ذلك كثيرا في كتاباته ، ويرى كيف أنه يلزم الخصم الحجه بالبراهين القاطعه التي تضع الحجر في فيه ولا يستطيع بعدها إلا الإذعان أو الاعراض و المكابره والهروب من الواقع كما فعل مع أحد علماء أهل الكتاب بعد أن ناظره ابن القيم و الزمه الحجة فلم يحر جوابا وقال حدثنا في غير هذا [1] ،

وها نحن نسوق لك احدىمناظراته رحمه الله تعالى التي ذكرها في كتابه هداية الحيارى قال :

" وقد جرت لي " مناظرة " بمصر مع أكبر من يشير إليه اليهود بالعلم و الرياسه ، فقلت له في أثناء الكلام : أنتم بتكذيبكم محمد ا صلى الله عليه وسلم قد شتمتم الله أعظم شتيمه . فعجب من ذلك وقال : مثلك يقول هذا الكلام ! فقلت له إسمع الان تقريره ، اذا قلتم أن محمدا ملك ظالم قهر الناس بسيفه وليس برسول من عند الله ، وقد أقام ثلاثا وعشرين سنة يدعي أنه رسول الله أرسله الى الخلق كافة ، ويقول : أنه أباح لي سبي ذراري من كذبني وخالفني و نساءهم و غنيمة أموالهم وقتل رجالهم ، ولم يكن من ذلك شيء ، وهو يدأب في تغيير دين الانبياء و معادات أممهم ونسخ شرائعهم ، فلا يخلوا إما أن تقولوا أن الله سبحانه كان يطلع على ذلك ويشاهده و يعلمه، أو تقولوا أنه خفي عنه ولم يعلم به ، فإن قلتم لم يعلم به نسبتموه الى أقبح الجهل وكان من علم ذلك أعلم منه ، وإن قلتم بل كان ذلك كله بعمله ومشاهدته و أطلاعه عليه فلا يخلوا إما أن يكون قادراً على تغييره والاخذ على يديه و منعه من ذلك ، أولا ، فان لم يكن قادرا فقد نسبتموه الى أقبح العجز المنافي لربوبيّه وإن كان قادرا وهو مع ذلك يعرّه وينصره و يؤيده و يعليه ويعلي كلمته ، و يجيب دعاء ه ويمكنه من أعدائه ويظهر على يديه من أنواع المعجزات و الكرامات ما يزيد على الألف ولايقصده أحد بسوء الا أظفره به ولا يدعوه بدعوه الا استجابها له ، فهذا من أعظمالظلم و السفه الذى لا يليق نسبته الى أحاد العقلاء

---

(١) هداية الحيارى : ٨٩ ، وانظر زاد المعاد : ٦٣٩/٣ وانظر التبيان ص١١٢ تزيد عن هذه .

فضلا عن رب الارض و السماء ، فكيف وهو يشهد له باقراره على دعوته و بتأييـــــده وبكلامه وهذه عندكم شهادة زور وكذب فلما سمع ذلك قال : معاذ الله أن يفعل اللـــه هذا بكذاب مفتر. بل هو نبي صادق من أتبعه أفلح وسعد قلت فما لك لا تدخل فـــي دينه قال : انما بعث الى الاميين الذين لا كتاب لهم أما نحن فعندنا كتاب نتبعه . قلت له : غلبت كلّ الغلب ، فإنه قد علم الخاص والعام أنه أخبر أنه رسول الله الى جميع الخلق وأن من لم يتبعه فهو كافر من أهل الجحيم ، وقاتل اليهود و النصارى وهم أهل كتاب واذا صحت رسالته وجب تصديقه في كل ما أخبر به ، فأمسك ولم يحر جوابا[1]

من أساليـــب الدعـــوة : الجهـــاد في سبيل اللـــه

مكانته وفضلـــه :

الجهاد في سبيل الله ذروة سنام الاسلام وقبته ، وأهله أعلى الناس قدرا فـــي الدنيا و الآخره و رسولنا صلى الله عليه وسلم في الذروة العليا منه ثم أصحابه رضـوان الله عليهم الذين حازوا قصب السبق فيه وجاهدوا في الله حق جهاده بالنفس و المـــال فكانوا المثل الاعلى لنا في الشجاعة و الاقدام وبذل النفس و النفيس لوجه الله ، فلـــم يتم فتح في عصر من العصور بالسرعة والقوة مثل ما تم في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله عليهم ، مع ما في هذه الحروب من المزايا التي لا توجـــد في غيرها من الأمن على الاديان والنساء و الصبيان و الشيوخ و الرهبان والصوامع والبيع و الحرث والنسل والاموال ، ما أمن فيها الناس في تلك العصور المجيده التي لم تشهد الدنيا عدلها و صلاحها ، وأنه لمن أعجب العجب أن يأمن الناس على دينهم وعرضهـــم و مالهم في ظل دولة غازيه تخالفهم في الدين والعقيده أكثر من أمنه في قومه وأهلـــه

وما كان ذلك الا بسبب تعاليم الاسلام السمحة و أحكام الجهاد التي لم تشهد الدول و الشعوب سابقة مثلها .

ومن حكمة الله سبحانه أنه لم يفرض على المسلمين الجهاد أول الامر حتـــى استقر رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينه وأيده الله بنصره و اشتد الجنـــاح

---

(١) هداية الحيارى : ٨٩ ، وانظر زاد المعاد : ٦٣٩/٣ ، وانظر التبيان ص١١٢ تزيد عن هذه

فأذن لهم حينئذ في القتال ولم يفرض عليهم فقال تعالى : ((**أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع و بيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز**))[١] .

ثم فرض عليهم القتال بعد ذلك لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال : ((**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**))[٢] .

ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة[٣] ، فقال تعالى : ((**كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهو شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وانتم لا تعلمون**)) .

قال شيخ الاسلام عن تعظيم الرب لأمر الجهاد :

وأكبر الايجاب وعظم أمر الجهاد في عامة السور المدنية وذم التاركين له ووصفهم بالنفاق ومرض القلوب فقال : ((**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين**))[٤] ، والامر بالجهاد وذكر فضائله في الكتاب أكثر من ان يحصر ، ولهذا كان أفضل ما تطوع به الانسان وكان باتفاق العلماء أفضل من الحج والعمره ومن صلاة التطوع والصوم التطوع كما دل عليه الكتاب والسنه إلى أن قال :

وهذا باب واسع لم يرد في ثواب الاعمال وفضلها مثل ما ورد فيه ، وهو ظاهر عند الاعتبار فإن نفع الجهاد عام لفاعله و لغيره في الدين والدنيا و مشتمل على جميع أنواع العبادات الباطنه و الظاهره فإنه مشتمل على محبة الله تعالى والاخلاص

---

(١) الايات من سورة الحج : ٣٩ ـ ٤٠ .
(٢) الايه من سورة البقرة : ١٩٠ .
(٣) النظر زاد العاد : ٣ /٦٩ ـ ٧١ .
(٤) الايه من سورة التوبه : ٢٤ .

له و التوكل عليه و تسليم النفس والمال له والصبر والزهد وذكر الله وسائر أنـــواع الاعمال على ما لا يشتمل عليه عمـــل آخـــر [١].

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم فضل الجهاد و نقل ابن القيم رحمه اللـه من أحاديثه الدالة على عظم الجهاد وفضله فقال :

" لقد حرك الداعي الى الله ، والى دار السلام النفوس الأبيه ، والهمم العاليه و أسمع منادى الايمان من كانت له أذن واعيه ، وأسمع الله من كان حيا ، فهزه السماع الى منازل الأبرار ، وحدابه في طريق سيره ، فما حطت به رحاله إلا بدار القـــرار فقال : "(انتدب الله لمن خرج في سبيله لا يخرجه الا إيمانا بي ، وتصديق برســـل أن أرجعه بما نال من أجر أو غنيمه أو أدخله الجنة ولولا أن أشق على أمتي ما قعـدت خلف سرية ، ولوددت أني أقتل في سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أقتل ثم أحيا ثم أقتل[٢]) وقال : (لغدوة في سبيل الله أوروحة خير من الدنيا وما فيها [٣]) ، وقال فيمايرويه عن ربه تبارك وتعالى : (أيما عبد من عبادى خرج مجاهدا في سبيلي أبتغاء مرضاتي ، ضمنـت له أن أرجعه إن أرجعته بما أصاب من أجر أو غنيمة ، وإن قبضته أن أغفرله أو أرحمـــه وأدخله الجنه)[٤] . وقال : (جاهدوا في سبيل الله فإن الجهاد في سبيل الله بـــاب من أبواب الجنه ينجي الله به من الهـم و الغم)[٥] ، وقال : (إن في الجنه مائـــة درجه أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين كل درجتين كما بين السماء و الارض فاذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنه وأعلى الجنه ، وفوقه عرش الرحمـــن ومنه تفجر أنهار الجنه)[٦] . وقال : من اغبرت قدماه في سبيل الله حرمه الله على النار[٧]

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الاسلام : ٣٥٢/٢٨ .
(٢) أخرجه البخارى : ١٤/١ باب الجهاد من الايمان .
(٣) اخرجه البخارى : ٢٠٢/٣ كتاب الجهاد باب الغدوة والروحة وأخرجه مسلم برقم ١٨٨٠
(٤) أخرجه النسائي : ١٨/٦ في الجهاد .
(٥) أخرجه الامام أحمد في مسنده : ٣١٤/٥ من حديث عبادة ابن الصامت .
(٦) أخرجه البخـارى : ٢٠١/٣ باب درجات المجاهدين في الجنه .
(٧) بنحوه في الترمذى باب فضائل الجهاد ٨ والامام أحمد في مسنده : ١٥٦/٢ .

وقال : (رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها)[1].

الى غير ذلك من الاحاديث الكثيرة التي ذكرها ابن القيم رحمه الله في فضل الجهاد و مكانته وقد أفرد رحمه الله أبوابا مطوله في أحكام الجهاد ، وهدى النبي صلى الله عليه وسلم في جهادة وغزواته ، وفضل الجهاد وما يترتب على الشهاده في سبيل الله ، وكتب رحمه الله كتابا كبيرا يتألف من جزئين أسماه أحكام أهل الذمه وما يتعلق بهم و بمعاملتهم ، كما ألف كتابا أسماه الفروسيه ، ذكر فيه فنون الحرب، والرمي، و الركوب، وغير ذلك . ننصح المسلم بالرجوع اليها لما فيها من اثارة حماس المسلم للجهاد في سبيل الله لينال الدرجه العاليه وليتمكن من معرفة أحكام الجهاد و فنونه .

كيف يكون الجهاد من طرق الدعوة

لا شك أن فائدة الدعوة من الجهاد ترتكز في جانبين أساسيين الاول وهو الدفاع عن الدعوة من الاعتداء عليها أو على أهلها من أن يقهروا أو يذلوا أو يمنعوا من الدعوة ، الجانب الثاني : هو النشر والذيوع لها في البلاد المفتوحة التي يتسنى لها بعد الفتح الاطلاع عن كثب وبدون عوائق على تعاليم الاسلام ومن ثم الاقتناع والايمان فطرق الدعوة بمجملها تنقسم الى قسيمن:أولا قوليه، ثانيا فعليه .

فالقوليه : هي ذكر الحجج و البراهين والاساليب السالفة الذكر .

والفعليه : والمقصود بها الجهاد في سبيل الله لنشر الدعوة و ترتكز على البدن والمال ، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر كما سنعرفه في الباب الثالث .

كما أن هذه الطرق يجب أن لا يتقدم أحدها على ألاخر فالقول مقدم على الفعل وذلك مقتبس من منهج النبي صلى الله عليه وسلم فإنه بدأ الدعوة بالقول وهو كذلك حتى بعد القو ة والنصر فإنه يبدأ بالدعوة بالقول كما كان منه في مكاتبة

---

(١) رواه البخارى في كتاب الجهاد برقم ٧٣:حـ٣ : ٢٢٤ .

الملوك وارسال الدعاة . فإن أعياه ذلك لجأ الى الجلاد .

و يبين ذلك ابن القيم وأن ذلك هو فعل النبي صلى الله عليه وسلم وهو الدعوه بالهدى الذى جاء به فإذا أعياه ذلك لجأ الى الجلاد . فقال :

" بعث صلى الله عليه وسلم بالكتاب الهادى ، والسيف الناصر بين يدى الساعة حتى يعبد الله سبحانه وحده لا شريك له "[1] ، كما يزيد الامر وضوحا بقوله: (فإن الله أقام هذا الدين بالحجه و البرهان والسيف والسنان فكلاهما في نصرة أخوان شقيقان و كلاهما شجيع لا يتم الا بشجاعة القلب وثبات الجنان "[2].

أما عن ترتيب هذه الاساليب فيقول :

" واما المعارضون فنوعان ، نوع يدعي بالمجادله بالتي هى أحسن فإن استجابوا ولا فالمجالده فهؤلاء لا بدّ لهم من الجدال أو الجلاد ، فهم يدعون بالكلام فإن لم يجد فالجلاد فإنهم الذين أمر الله بقتالهم حتى لا تكون فتنه ويكون الدين كله لله "[3]

بل يرى رحمهالله أن هذه الاساليب من حقوق الله سبحانه و تعالى على عبيده كي يردوا على الطاعنين في كتاب الله و سنة رسوله فيقول :

" ومن حقوق الله على عبده رد الطاعنين على كتاب الله ورسوله و دينه و مجاهدتهم بالحجة و البيان ، والسيف والسنان والقلب والجنان "[4].

كما أن عدم معرفة هذا التسلسل في اساليب الدعوة و ترتيبها على ما يجب أن تكون عليه يسبب الطعن في الإسلام و المسلمين وقد نقد ابن القيم رحمه الله الدعاه الذين لم يتسلسلوا في الاساليب لجهلهم بالدين مما سبب الطعن في الاسلام وانتشار مقالة " الاسلام قام بالسيف " فقال ابن القيم :

" انتهى الينا مسائل أوردها بعض الكفار الملحدين على بعض المسلمين ، فلم يصادف عنده ما يشفيه ولا وقع دواؤه على الداء الذى فيه ، وظن المسلم أنه يضربه يداوية فسطا به ضربا وقال هذا هو الجواب . فقال الكافر : صدق أصحابنا في قولهم

---

(١) الفروسيه لابن القيم : ص ٢ .

(٢) نفس المرجع و الصفحه :

(٣) مفتاح دار السعاده : ٢١٧/١ .

(٤) هداية الحيارى : ٢٢٠ .

ان دين الاسلام إنما قام بالسيف لا بالكتاب فتفرقا وهذا ضارب وهذا مضروب ، و ضاعت الحجة بين الطالب والمطلوب ، فشمر المجيب ساعد العزم وقام لله قيام مستعين به مفوض إليه ، ولم يقل مقالة العجزة الجهال : ان الكفار إنما يعاملون بالجلاد دون الجدال ، وهذا فرار من الزحف ، واخلاد الى العجز والضعف ، وقد أمر الله بمجادلة الكفار بعد دعوتهم إقامة للحجة وازاحة للعذر ((**ليهلك من هلك عن بينه ويحي من حي عن بنيه**))[1] ، والسيف إنما جاء منفذا للحجة ، مقوما للمعاند ، وحدا للجاحد ، قال تعالى : ((**لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وانزلنا معهم الكتاب و الميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب إن الله قوى عزيز**))[2] ، فدين الاسلام قام بالكتاب الهادى ، ونفذه السيف الماضي . شعر .

فما هو الا لوحي أو حدّ مرهف *** يقيم ضباه أخدعي كل مائل

فهذا شفاء الداء من كل عاقل *** وهذا دواء الداء من كل جاهل[3]

ومن هذا النص يتبين توجيه ابن القيم رحمه الله للدعاة وأنه يجب عليهم الدعوة الى الله بدءاً بالحكمة والموعظه الحسنه ثم ينتقلون إلى المجادلة بالتي هى أحسن فإن أعياهم ذلك انتقلوا الى الجهاد بالسيف وذلك دليل على أن الاسلام لم يقم بالسيف بل بالكتاب و الميزان والسيف إنما هو منفذ للحجة ، ومقوم للمعاند وحداً للجاحد وليس ارغاما له علي الاسلام فإن الله سبحانه وتعالى يقول : ((**لا اكراه في الدين**)) .

وليس أدلّ على ذلك من بقاء اليهود والنصارى في البلاد الإسلاميه المفتوحه إلى يومنا هذا بل أن اليهود لم يشهدوا أمنا واستقرارا على أنفسهم وأموالهم الا في ظل الحكومة الاسلاميه فكيف يتجرأ من يقول أن الاسلام قام بالسيف مع النهي عن قتل

---

(١) الايه من سورة الانفال : ٤٢ .

(٢) الايه من سورة الحديد : ٢٥ .

(٣) هداية الحيارى : ١٢ .

الشيوخ والصبيان والنساء والرهبان وكل من لم يقاتل ولم يمنع من نشر الاسلام إذاً فما هي الحكم من شرع الجهاد؟و سوف نذكر بعض الحكم مما اقتبسناه من كلام ابن القيم رحمه الله .

الحكم من شرع الجهاد

أولا : رفع الظلم عن المسلمين :

يقول ابن القيم :

" لما رمت العرب واليهود الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه عن قوس واحدة و شمروا كلهم عن ساق العداوة والمحاربة و ماحوا بهم من كل جانب أذن الله لهم حين ذلك بالقتال فقال : ((**أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير**))[1][2] .

ثانيا : الدفاع عن النفس والمال والعرض :

يقول ابن القيم وكذلك فرض عليهم القتال بعد ذلك دفاعا عن النفس لمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم[3] . فقال : ((**وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم**))[4] .

ثالثا : نشر الاسلام :

لاشك أن هناك بلاد واسعة في أرض الله لم يصلها الاسلام بسبب ما فرضه على أهلها سلاطين القهر و التسلط ، فوجب الجهاد لفك القيود و الحصار عن أهل البلاد المفتوحه كي يتسنى لهم سماع كلام الله ودعوة الاسلام يقول ابن القيم :

" وهو الذى يقصده سادات المؤمنين الذين يقاتلون لتكون كلمة الله هى العليا وكلمة الذين كفروا هى السفلى فيكون الدين كله لله "[5] ، ويقول شيخ الاسلام :

---

(١) الايه من سورة الحج : ٣٩ .

(٢)(٣) انظر زاد المعاد : ٣:٧٠ .

(٤) الايه من سورة البقره : ١٩٠ .

(٥) الفروسيه لابن القيم انظر ص : ٩ ٢

أصل القتال المشروع هوالجهاد ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هي العليا فمن امتنع من هذا قوتل باتفاق المسلمين واما من لم يكن من أهل الممانعه والمقاتله كالنساء و الصبيان والراهب والشيخ الكبير والاعمى فلا يقتل عند جمهور العلماء ، الا أن يقاتل بقوله أو فعله لان القتل هو لمن يقاتلنا إذا أردنا إظهار دين الله كما قال تعالى : ((**و قا تلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ان الله لا يحب المعتدين**))[١] ، وذلك أن الله أباح من قتل النفوس ما يحتاج إليه في صلاح الخلق كما قال تعالى : ((**والفتنه أكبر من القتل**))[٢] ، أي أن القتل وإن كان فيه شر وفساد ففي فتنة الكفّار من الشر والفساد ما هو أكبر منه ، فمن لم يمنع المسلمين من إقامة دين الله لم تكن مخرة **كفره الا** على نفسه[٣] .

رابعا : أن الجهاد في سبيل الله فيه من الخير للاسلام و المسلمين وغيرهم ما لايحصيه إلا الله سبحانه وتعالى ويمثل ذلك ابن القيم رحمه الله بغزوة بدر فيقول :

" ما حصل يوم بدر عند مجيء المشركين بالحد والحديد والشوكة وانتصار المسلمين عليهم وما حصل من الهدى و الايمان والخير للمسلمين وغيرهم فكم من ربع أصبح أهلا بالإيمان وقد فتحت لأولى النهي من باب ، وصلوا منه إلى الهدى والايقان وكم حصل بها من محبوب للرحمن وغيظ الشيطان ، وتلك المفسده التي حصلت في ضمنها للكفار مغمورة جدا بالنسبه الى مصالحها و حكمها هي كمفسدة المطر إذا قطع المسافر وبل الثياب بالنسبه للمصلحة العامة[٤] .

خامسا : إن الله سبحانه وتعالى يحب أن يعبد بأنواع العبودية ، ومن

---

(١) الايه من سورة البقره : ١٩٠ .
(٢) الايه من سورة البقره : ٢١٧ .
(٣) انظر مجموع فتاوى شيخالاسلام : ٣٥٤/٢٨ .
(٤) انظر شفاء العليل : ٢٢٣ .

أعلاها و أجلها عبودية الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه ، والجهاد في سبيله وبذل مهج النفوس في مرضاته ومعارضة أعدائه وهذا النوع هو ذروة سنام العبودية وأعلى مراتبها وهوأحب أنواعها إليه وهو موقوف على ما لايحصل بدونه لتحصل بذلك محابه على أتمّ الوجوه وتقرب أولياءه إليه ، لجهاد اعدائه ومعارضتهم وإذلالهم و كبتهم ومخالفة سبيلهم فتعلو كلمته و دعوته على كلمة الباطل [١].

سادسا : لولا الجهاد ما نال أهله درجة الشهادة والله يريد أن يتخذ من عباده شهداء ولما ظهر من يقدم محبة خالقه و فاطره على نفسه وأهله وولده [٢]، فقدم شرع الله سبحانه الجهاد ليكتشف المحب الحقيقي من غيره قال ابن القيم :

" ولماكثر ، المدّعون للمحبة طولبوا بإقامة البينه على صحة الدّعوى فلو يعطى الناس بدعواهم لادعى الخلي حرفة الشجي ، فتنوع المدعون في الشهود فقيل لاتثبت هذه الدعوى الا ببينه ((**قل إن كنتم تحبون الله فأتبعوني يحببكم الله**))[٣]. فتأخر الخلق كلهم وثبت اتباع الرسول في أفعاله وأقواله وهديه وأخلاقه ، فطولبوا بعدالة البينه وقيل لا تقبل العدالة الا بتزكية ((**يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم**))[٤]، فتأخر أكثر المدّعون للمحبة وقام المجاهدون فقيل لهم ((**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأن لهم الجنة**))[٥].

فإن نفوس المحبين وأموالهم ليست لهم ، فسلموا ما وقع عليه العقد ، وعقد التبايع يوجب التسليم من الجانبين ، فلما رأى التجار عظمة المشتري ، وقدر الثمن وجلالة قدر من جرى عقد التبايع عليه ومقدار الكتاب الذى أثبت فيه العقد عرفوا أنّ للسلعه قدرا وثمنا ليس لغيرها فرأوا أن من الخسران المبين والغبن الفاحش أن يبيعوها بثمن بخس تذهب لذتها وشهوتها [٦].

---

(١) انظر شفاء العليل : ٢٢٣ .
(٢) شفاء العليل : ٢٢٥ .
(٣) الايه من سورة آل عمران : ٣١ .
(٤) الايه من سورة المائده : ٥٤.
(٥) الايه من سورة التوبه : ١١٠ .
(٦) زاد المعاد بتصرف : ٣/٧٢-٧٤

سابعـــا : ذكرنا هذه الحكم القليله لمعرفة عظمة الجهاد وبركتـــه والـذى خفي علينا أكثر وأعظم فقد قال ربنا سبحانه وتعالى : ((**كتب عليكم القتـــال وهو كره لكم وعسي أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكـــم والله يعلم وأنتم لا تعلمون**))[١] .

فبين سبحانه أن ما أمرهم به ، يعلم ما فيه من المصلحة والمنفعه لهـــم والتي أقتضت ان يختاره ويأمرهم به ، وهم قد يكرهونه إما لعدم العلم أو لنفور الطبـــع فهذا علمه بما في عواقب أمره بما لا يعلمونه وذلك علمه بما في اختياره من خلقـــه ما لا يعلمونه [٢] .

حكـــم الجهـــاد

لقد بين ابن القيم رحمه الله أقوال العلماء في حكم الجهاد وهو جهـــاد الكفار وبين أن منهم من يقول أنه فرض عين ومنهم من يقول أنه فرض كفاية على المشهور ثـــم قـــال :

" والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب ، وإما باللسان ، وإمـــا بالمال ، وإما باليد فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الانواع ، أما الجهاد بالنفس ففرض كفايه [٣] ".

وهذا الحكم من ابن القيم في عموم حكم الجهاد و الجنس ، الا أنه لم يقـــف عند هذا الحد فإن حكم الجهاد يختلف باختلاف الاحوال فهناك أحوال يكون فيها المسلم مطلوبا ، أو يستنفر الامام المسلمين أو يتعدى على بلاد المسلمين أو يكون المسلـــم طالبا فالحكم يختلف من حال الى حال يقول ابن القيم :

" فمن المعلوم أن المجاهد قد يقصد دفع العدو إذا كان المجاهد مطلوبـــا والعدو طالبا ، وقد يقصد الظفر بالعدو ابتداء إذا كان طالبا و العدو مطلوبا ، وقـــد

---

(١) الايه من سورة البقره : ٢١٦ .
(٢) شفاء العليل : ٣٣ .
(٣) انظر زادالمعاد : ٣/٧٢ .

يقصد كلا الامرين ، فالاقسام الثلاثة يؤمر المؤمن فيها بالجهاد ، وجهاد الدفع أصعب من جهاد الطلب فإنه يشبه باب دفع الصائل ولهذا أبيح للمظلوم أن يدفع عن نفسه كما قال تعالى : ((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا))[1] ، فقتال الدفع أوسع من قتال الطلب وأعم وجوبا ولهذا يتعين على كل أحد ، فيجاهد فيه العبد بأذن سيده وبدون إذنه والولد بدون إذن أبويه ، والغريم بدون اذن غريمه ، وهذا جهاد المسلمين يوم أحد والخندق ، ولا يشترط في هذا الجهاد أن يكون العدو ضعفي المسلمين فما دون فانهم كانوا يوم أحد والخندق أضعاف المسلمين ، وكان الجهاد واجبا عليهم لانه جهاد وضرورة ودفع ، لا جهاد واختيار ، ومعلوم أن الجهاد الذى يكون فيه الانسان طالبا مطلوبا أوجب من الجهاد الذى هو فيه طالبا لا مطلوبا . أما الجهاد الخالص فهو الواجب وجوبا كفائيا[2] ، ويقول رحمه الله في موضع آخر :

" الامام اذا استنفر الجيش لزمهم النفير ولم يجز لاحد التخلف الا باذنه ولا يشترط في وجوب النفير تعيين كل واحد منهم بعين بل متى استنفر الجيش لزم كل واحد منهم الخروج معه وهذا أحد المواضع الثلاثه التي يصير الجهاد فيها فرض عين ، والثاني اذا حضر العدو البلد ، والثالث اذا حضر بين الصفين ، ومنها وجوب الجهاد بالمال كما يجب بالنفس[3] ".

ثانياً : وسائل الدعوة

عرفنا أن الوسيلة هى ما يتوصل بها إلى الشيء و يتقرب اليه فالوسائل ما يستعين بها الداعية على تبليغ دعوته .

وهى قسمين أحدها وسائل تبليغ وهى ركائز التبليغ التي استخدمها الدعاة الى الله تعالى قديما وحديثا وعلى رأس مستخدميها المصطفى صلى الله عليه وسلم

---

(١) الايه من سورة الحج : ٣٩ .
(٢) انظر الفروسيه :٢٨ .
(٣) زاد المعاد : ٥٥٨/٣ .

وهى التعليم والخطابة ، و الكتابة و القدوة الحسنه وما يدخل تحت ذلك من محاضرات و ندوات و نحوه .

ثانيـــا : الوسائل المساعدة على التبليغ وهذه الوسائل لا تنفك عن سابقتها مثل التلفاز و المذياع والمسرح وغيرذلك ، فان جميع ما يحصل من التبليغ عن طريق هذهالوسائل لا بد أن يكون مندرج تحت تلك الوسائل السابقه .

وابن القيم قد استخدم الاصول الثابته في التبليغ بالنسبة للوسائل حيـــث أن ظروف العصر الذى عاش فيه لا تسمح له بأكثر من ذلك وسوف نتعرف على هـــذه الوسائل التي استخدمها ابن القيم وهى :

أولا : التعليـــــم :

التعليم من أقوى الوسائل الدعوية إيجابية لما فيه من تمكن الداعيه مـــن المدعو و سيطرته عليه بما يتيح للداعيه الفرصه ببث روح الاسلام و أفكاره وتعاليمـــه و خدوده في المتعلم لان التعليم لا يكتفي بنشر الكليات الحقة و المتعارف عليها فقط كأن يقول المعلم إن الاسلام صالح لكل زمان و مكان ، بل لا بدأن يفصل له الاســـلام و تشريعاته ويبين له أنواع الحكم من التشريع ومواقع الخير التي تقتضـــي أوامـــره و تبين له أنواع المعاطب و الادناس و الحيره الحاصله لمن ابتعد عنتعاليمه . وكلما يزيد المدعو اقتناعا بهذا الدين القويم .

ولا يكتفي المعلم الناجح بذلك بل لا بدّ أن يحمل من يعلمهعلى التمسك بهذه المبادىءالحيه وان يصوغ سلوكه على نحوها ، حتى يتربى تربية اسلاميه فيتعلم و يعمل في نفس الوقت كما فعل المربي و الداعيه الاول عليه أفضل الصلاة و التسليم مع أصحابه رضي الله عنهم فكانوا مصابيح يستنار بنورهم و معلمين يسمع لقولهم وهداة يقتفي أثرهم

وهذه الطريقه من أهم المبادىء التي يجب على الداعيه المعلم أن يحتذيهـــا وأن يحاول أن يربط كل ما يعلمه تلاميذه أو سامعيه بشئون الحياة التي يعيشها لكي يرى آثار ما علمه في الناس مباشرة أو بعد حين حتى يكون التعليم نافعا وأقوى رسوخا فـــي الاذهان لان التعليم والتعلم وسيله وليس غاية وإنما غاية التعليم هى الآثار الناتجة فـــي

المتعلم و تأثيرها على سلوكه وأعماله .

فالمعلم النابه هو الذى لا يعتمد في قياس الآثار التعليمية في المتعلم الحفظ وقوة الذاكره فقط بل يجب أن ينظر الى الآثار السلوكية ومدى تطبيقه لما علمه لان الحفظ وقوة الذاكره لا ينفعان بدون الاثار السلوكية التي تطرأ عليه بعد معرفته الحقيقه واقتناعه بها .

وإن كان الحفظ وقوة الذاكره من الأهمية الكبرى في العمل ، فإن العمل يحتاج الى علم يرشده إلى ما فيه الخير الموافق لما رسمته الشريعه والمرضي لله تبارك وتعالى في جميع العبادات كما أن المؤمن مطالب بالدعوة وهي كذلك تحتاج إلى علم .

وهذا ما بينه ابن القيم رحمه الله تعالى فإنه يرى أن غاية كمال الانسان ونهاية كماله في هذه الحياة أربع مراتب اذا استكملها بلغ نهاية الكمال :

أحدها : معرفة الحق ثانيها : عمله به .

ثالثها : تعليمه من لا يحسنه رابعها : صبره على تعلّمه والعمل به وتعليمه

ثم بين رحمه الله تعالى كيف أن الله تعالى جمع هذه المراتب الاربعه في سورة العصر فقال :

" فذكر تعالى المراتب الاربعه في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر ان كل أحد في خسر الا الذين آمنوا و عملوا الصالحات ، وهم الذين عرفوا الحق بالتعلم و صدقوا به فهذه مرتبه وهى مرتبة الحفظ و اليقين ثم تأتي المرتبه الثانيه وهى (وعملوا الصالحات) وهم الذين عملوا بما علموه من الحق ، وهذه مرتبه الاثار السلوكيه التي طرأت عليه بعد معرفة الحق ثم يذكر المرتبة الثالثه وهي (وتواصوا بالحق) وصى بعضهم بعضا تعليما وإرشادا ، ثم تأتي المرتبة الرابعة وهي (وتواصو بالصبر) صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه و الثبات وهذه نهاية الكمال فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره وكماله اصلاح قوتيه العلمية والعملية [1] .

---

(١) مفتاح دار السعادة بتصرف ص ٧٤ .

فبين رحمه الله أن الكمال لايكون للانسان إلامن طريقين الطريق الاول وهو كمال النفس ، و الثاني تكميل الغير ثم بين رحمه الله أن كمال النفس يكون من طريقين اصلاح القو ة العلميه و العمليه .

ثم وضح ذلك بقوله :

" فبالقوة العلميه يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرا فيها و يجتنب أسباب الهلاك ، فقوته العلميه كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمه فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف فيكشف له النور أمرين : أعلام الطريق ومعاطبها .

وبالقو ة العمليه يسر حقيقه بل السير هو حقيقه القوة العمليه فإن السير هو عمل المسافر وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق و أعلامها وأبصر المعاثر والوهاد والطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح [1] ، وهومقصد الاسلام .

أما عن الشطر الاخر فهو تكميل غيره بالتعليم والارشاد والصبر على ذلك كله إذاً فإن الكمال لايحصل الابالتعليم والارشاد اذا أراد أن يصل المسلم الى غاية الكمال .

وقد ذكر ابن القيم قسما كبيراً في كتابه مفتاح دار السعاده بين فيه فضل العلم والتعليم وذكر ما يزيد على مائه وخمسين وجها في فضلهما لان كمال العبد يتوقف عليها كما بينا ذلك سابقا .

وقال رحمهالله :

" ان بركة الرجل تعليمه للخير حيث حل ونصحه لكل من اجتمع به قال تعالى إخبارا عن المسيح عليه السلام : ((وجعلني مباركا أينما كنت)) [2] ، أي معلما للخير داعيا إلى الله مرغبا في طاعته فهذه من بركة الرجل" [3] .

وقد كان رحمه الله مباركا في تعليمه سواء كان ذلك من خلال ما كتبه ووصل

---

(١) طريق الهجرتين : ١٨٣ .
(٢) سورة مريم : ٣١ .
(٣) رسالة الى كل مسلم لابن القيم ص :٥ .

الينا أو من تلاميذه النابغين فإن بركته ما زالت تدرّ على طلاب العلم إلى وقتنا الحاضر ينهلون من علومه العذبه وأفكاره التي تتغلغل في أعماق من يسامر ما كتبه و يقايس بينها وبين الحقائق المحسوسه .

واذا كان هذا حالنا معه بعد مرور ستة قرون ، فما بالنا بمن تلقوا عنه مشافهة وبلاواسطهو سمعوا منه ونظروا الى ملامح وجهه وهو يعلمهم وعرفوا عنه من الزهد وكثرة العبادة ماعرفوا فإن ذلك أرجح في الفائده والتاثير في المتعلم أضف إلى ذلك معالجته لمشاكل عصره والتي يعيشها مجتمعه وقد عرفوا خطرها وأزاها على المجتمع ، إلى جانب علمه الغزير المتنوع و فكره الثاقب .

فالتدريس من ابن القيم نتيجه حتميه لعلمه الجم وبراعته و نبوغه وقد أخذ عنه العلم جمع غفير من كبار الحفاظ ومشاهير العلماء من الحنابله وغيرهم كالحافظ ابن رجب الحنبلي والمحدث البارع الذهبي الشافعي ، وعلامة التفسير والفقه والحديث الحافظ ابن كثير الشافعي وغيرهم [(١)] ، وقد ذكر تلامذته تدريسه بالصدريه [(٢)] ، فقال ابن كثير في ذكر حوادث ثلاث وأربعين و سبعمائة وفي يوم الخميس سادس صفر درس بالصدريه صاحبنا الامام العلامه شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب الزراعي إمام الجوزية [(٣)] .

ثم بين أنه بعد وفاته بشهر تولى التدريس مكانه ابنه عبد الله عوضا عن أبيه رحم الله الجميع [(٤)] ، وهذا يدل على أنه ما زال قائما على التدريس بهذه المدرسة

---

(١) ابن قيم الجوزيه حياته واثاره ص ٣٨ .

(٢) المدرسه الصدريه كانت بدرب يقال له " درب الريحان " بجوار قرية القاضي جمال الدين المصرى ومحلها كان دارا لصدر الدين أسعد بن عثمان القنوضي ت ٦٥٧ هـ فجلعها مدرسة ووقف لها أوقافا واليوم محيت أثارها وصارت دورا من اشهر مدرسيها : ابن القيم رحمه الله ، وفخر الدين البعلبكي ت ٦٦٨هـ ، وشمس الدين بن عبد الهادى ت ٧٤٤هـ ، وبرهان الدين ابن القيم ت ٧٦٧هـ، وغيرهم انظر : عبد القادر بن محمد النعيمي : الدارس في تاريخ المدارس تحقيق جعفر الحسيني ٢/٨٦ - ٩١ ط ١٩٤٨ م مطبعة الترقي دمشق . الشيخ عبد القادر بدران : منادمة الاطلال ومسامرة الخيال - بعناية محمد زهر الشاويش ص ٢٣٩ -٥٤٢ ط الاول ١٣٧٩ هـ على نفقه الشيخ على بن عبد الله ال ثاني منشورات المكتب الاسلامي دمشق .

(٣) البدايه والنهايه لابن كثير : ١٤/٢٠٢ (٤) نفس المرجع : ١٤/٢٣٥ .

حتى وفاته فاذا كانت وفاته في عام ٧٥١ هـ ، فإن مدة تدريسه فيها حوالى ثمـــــان سنـــــــوات .

وقد أفصح عن ذلك رحمه الله في قصيدته الميميه التي أظهر فيها من التواضع والذل والتقصير لله تعالى فقال :

بني ابي بكـــر جهـــول بنفســـــه جهـــول بأمر الله أنى له علـــــم

بني ابن بكـــر غدا متصـــــــدرا يعلم علما وهو ليس له علـــــم[1]

وقال عنه الذهبي :

(و كان من عيون اصحاب ابن تيميه وأفتى ودرس وناظر وصنف وأفاد)[2].

وعبارة الذهبي تفيد ان تعليم ابنالقيم رحمه الله لم يقف عند حد التدريس بل كـــان يعلم عن طريق الفتوى وعن طريق المناظره والتصنيف .

---

(١) التقريب لفقه ابنالقيم : ٤١/١ نقلا عن العلامه الصفدى الوافي بالوفيات ٢٧١/٢ ولم أجد الابيات في القصيده الميمه .

(٢) العبر للذهبي ١٥٥/٤ الطبعه الاولى دار الكتب العلميه .

ثانيـــا : الخطابـــــة

الخطابه من قديم عرفها العرب وغيرهم في جاهليتهم ، وكانت الظروف القائمه في ذلك العصر تحتم عليهم هذه الوسيله فهى السبيل الأكثر انتشارا والأقوى تاثيراً فـى نشر المبادىء والقيم والمذاهب واثارة حماس الجمهور لفكرة أو حرب وغير ذلك .

وأول من كتب في هذا العلم اليونان بل هم مستنبطوا قواعده و مشيدوا أركانـــه وأول من اتجه إلى استنباط تلك القواعد السوفسطائيون ، وذلك في عام ٤٠٠ قبل الميـــلاد ثم جاء من بعدهم أرسطو الذى جمع قواعده وضم شوارده في كتاب أسماه الخطابـــــة فكان أصلا لذلك العلم [(١)] ، مع أن الخطابه اشتهرت عند العرب في الجاهليه وقد ورد الينا بعض الاثار التي تروى عن خطبائهم وهذا لا يعني أن العرب في جاهليتهم لم يعرفـــوا الخطابه الا بعد أن وصلتهم من اليونان وغيرهم فاذا كانوا أول من كتب فيها فيعنـــي أنهم كتبوا أصولها وقواعدها واسسوا اركانها . واما الخطابة بمفهومها العام فـــــلا أعتقد أن مجتمع من المجتمعات الانسانيه يستغني عنها ، لانها تفرض نفسها ، عليهـم لحاجتهم اليها . ولو كان ذلك بدون معرفة أسسها العلميه فإنها تؤدى غرضهـــــا وإن لم تصل إلى درجة الخطابه المبنية على الاسس العلميه « فنجد أن بعض القبائـــل قد تميزت في الخطابة عن غيرها من القبائل العربيه . فإياد وتميم في الخطب خصلـة ليست لاحد من العرب ، لان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى روى كلام قـــس بن ساعدة و موقفه على جمله بعكاظ وموعظته ، وهو الذى رواه لقريش والعرب ، وهـــو الذى عجب من حسنه وأظهر من تصويبه ، لاحتجاجه للتوحيد ، ولإظهاره معنى الاخـــلاص و إيمانه بالبعث »[(٢)] .

الا أن الخطابة بعد الاسلام تغيرت فزادها الاسلام بلاغة وحكمة بما كـــــان يتوخاه الخطباء من محاكاة اسلوب القرآن واقتباس الايات القرآنيه ، وقد كان للقرآن نحـو

---

(١) انظر كتاب الخطابه أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب لمحمد أبو زهره ص ١٢ دار الفكر العربي الطبعه الثانيه .

(٢) البيان والتبين للجاحظ الطبعة الرابعه مكتبة الخانجي بمصر : ٥٢/١ .

هذا التأثير في الشعر أيضا لكن الخطابه أوسع مجالا للاقتباس فأخذ الخطباء يز ينون خطبهم بالايات ، تمثلاً أو إشارة أو تهديداً ، كما أن للحديث النبوى نحو هذا التأثير ، إضافة إلى أن الاسلام قد فتح المجال للخطابة فاوجب عليهم خطبا تقال على المنابر في المناسبات الاسلاميه كالجمع والاعياد ، ولا سيما أن المساجد هى المكان المناسب للخطابه والذى يجتمع فيه المسلمون خمس مرات في اليوم والليلة ولا تجد مكانا أصلح منها للخطابة .

كما أن الخطابة ازدادت قوة ووقعا في النفوس بنهضة المسلمين في الحروب و انتصارهم في أكثر مواقعها فازدادوا أنفة وسمت نفوسهم ، فسما بها ذوقهم في البلاغه وشحذت قرائحهم بما شاهدوه فبلغت الخطابة عندهم مبلغا قلما سبقهم فيه أحد من الامم التي تقدمت بلاغة وايقاعا و تأثيرا [١].

فوائد هذه الوسيلة :

لا شك آن للبلاغه تأثيراً شديداً في المواطن وقد كانت الخطابة من جملة ما ساعد على نشر الاسلام بين الناس و كثيرا ما توقف فتح بلد أو حصن على خطاب يتلوه القائد على رجاله فتثور فيهم النخوه و تسرى في عروقهم الحماسة فيستهلكون في الدفاع أو الهجوم وفي أخبار الفتوح أدلة كثيرة لا يساعد المقام على ايرادها كما أن الذى ساعد الحجاج بن يوسف على القضاء على التمرد في العراق واخضاعهم لحكم عبد الملك هو قوة عارضته وتأثير خطبه في نفوس رجاله والسامعين [٢].

فعندما صعد المنبر وهو متلثم بعمامة خز حمراء فقال : علىّ بالناس فحسبوه وأصحابه خوارج فهموا به حتى إذا اجتمع الناس في المسجد قام فكشف عن وجهه ثم قال:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

أما والله إني لاحتمل الشر بحمله ، وأحذوه بنعله ، وأجزيه بمثله ، واني لأرى رؤسا قد أينعت وحان قطافها ، وأني لصاحبها ، وإني لانظر الى الدماء ترقرق بين

---

(١) انظر تاريخ التمدن الاسلامي لجرجي زيدان مطبعة الهلال بالفجاله بمصر سنة ١٩٠٤ م : ٣/٩٩ .

(٢) المصدر السابق : ٣/١٠٠ .

العمائم واللحى ثم قال :

إن أمير المؤمنين كب كنانتة ثم عجم عيدانها فوجدني أمرها عـــــــــودا واصلبها عمودا فوجهني اليكم ، فإنكم طالما أوضعتم في الفتن واضطجعتم في مراقـــــد الضلال و سننتم سنن الغي . أما والله لألحونكم لحو العصا ، ولاعصبنكم عصب السلمـــه ولاضربنكم ضرب غرائب الإبل [1] ...الخ . فانظر الى هذه الخطبة وكيف أنها جعلـــــت الحمى الذى بأيدى أهل العراق يريدون أن يرجموه به كيف تساقط من أيديهم رعدة وخوفا وكيف أن رجلا جاء باثنى عشر رجلا الى العراق التي عرفت بكثرة الفتن و الشقاق قـــد خضعت له وأذعنت خوفا منه وما ذلـك الا لبلاغته و قوة شكيمته و تأثير خطبه فيهم .

والخطابه أيضا تهدى الثائرين و توقظ الغافلين الذاهلين و تنهي الإضطـــراب وهذا جميعه يتجلى في خطبة قصيرة قالها الصديق رضي الله عنه بعد وفاة النبي صلـــى الله عليه وسلم عندما كان خبر موته كالصاعقه نزلت على رؤس الناس وغشيهـــــــم الذهول و اضطرب أحكم الناس وأعقلهم لما جاء به رسول الله وأعرفهم بكتاب اللـــــه و سنته وهو عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قام خطيبا يهدد و يتوعد كل من قال بموت رسول الله وان النبي سيرجع كما رجع موسى وفي غمرة هذا الذهول والاضطـــــراب وقف الصدّيق يخطب في الناس فقال : أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قـــد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت و تلا قوله تعالى : ((**وما محمـــد الا رسول قد خلقت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل ، انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلـــب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، و سيجزى الله الشاكرين**)) [2] ، فكأن الناس لم يلعموا أن هذه الايه نزلت حتى تلاها الصديق ذلك اليوم وأخذ الناس يرددونها

أما عمر رضي الله عنه فيقول : والله ما هو الا أن سمعت أبا بكر تلاهـــــا فعقرت حتي وقعت على الارض [3] ، وهكذا ينهي الصديق هذا الذهول والاضطراب و المحنـه

---

(١) انظر تاريخ الطبرى : ٢٠٢/٦ والبيان والتبين ٣٠٧/٢ .

(٢) الايه من سورة آل عمران : ١٤٤ .

(٣) انظر سيرة ابن هشام دار الكتب المصريه القسم الثاني ص ٦٥٥ .

التي كادت أن تؤدى بالناس الى الهلاك بدون أى كلفه و بخطبة قصيره أُجلت الامـــور وأُنهت النزاع .

أضف الى ذلك أن الخطابة وسيله تربويه و تعليميه و تثقيفيه وأعلاميـــــه وأمر و نهي تزكي النفوس ، وتغض المنازغات و ترفع الحق و تزهق الباطل .

أبـــن القيـــم و الخطابـــة

لما كانت الخطابة محاكاة لجمهور الناس وهم يميلون الى السماع أكثر مـــن ميلهم الى القراءة وعرفنا ما فيها من الفوائد و عظيم مكانتها في الدعوة وما فرضـــه الله على هذه الامه من الخطابة فان ابن القيم قد اهتم بتوضيح قواعد الخطابه ، وكيفية الخطبه . وآدابها ، وآداب السامع لها ، والحالة التي يجب أن يكون عليها الخطيـــب وكل ما ذكره رحمه الله تعالى عن الخطابه كان يترسم فيه المنهج الذى سار عليـــــه صاحب البلاغه والبيان والحجه المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وقد اتخذ رحمه الله الخطابه وسيله من وسائل دعوته فقد ذكر المترجمون ذلـــك عنه فقال المراغي "هو الاصولي المحدث النحوى الاديب الواعظ الخطيب "[1] ، وقال ابن كثير "أقيمت الجمعه بالجامع الذى انشأه نجم الدين بن خليلخان تجاه باب كيسان من القبلـــه و خطب فيه الشيخ الامام العلامه شمس الدين ابن قم الجوزية "[2] ، وكانت مصادره فـــي وعظه وخطبه أن يعتمد آيات القرآن الكريم والسنه النبويه وما أثر عن السلف الصالـــح من هذه الامه "[3] ، وهذا منهجه رحمه الله في جميع أموره .

ولم يخرج عن هذا المنهج عندما تحدث عن الخطابه فإنه نظر في قدوتـــــه و لمس مواطن فعله في خطبته فجعلها قواعد يسير عليها من أراد أن يسمو بنفســـــه و يجعل من خطبته قولا يحتذى به وأمرا يستجاب و نهيا ينتهي عنه مستندا في ذلـــك

---

(١) ابن قيم الجوزية حياته وآثاره : ٣١ . نقلا عن الفتح المبين للمراغي

(٢) البداية والنهاية : ١٤ / ١٧٤ .

(٣) انظر كتابه الفوائد فانه حافل بالمواعظ و الخطب بهذا المنهج .

على ما ورد وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم .

فبين الهيأه التي يجب أن يكون عليها الخطيب فذكر أن الخطيب لا بد أن يحتفل بهيئته الخارجيه حتى لا يستهجن من قبل الجمهور فإن النفوس جبلت على حب الهيئة الحسنه وحسن المنظر و الهندام حتى أن النعمان بن المنذر عندما دخل عليه ضمره بن ضمره (وهو الشاعر الخطيب الفارس) ورأى من ذمامته ما رأى قال النعمان ((تسمع بالمعيدى لاأن تراه)) [١] .

والنبي صلى الله عليه وسلم أعرف في طباع الناس من أجل ذلك كان يلبس في خطبه الجامعة : أجمل الثياب فكان له حله يلبسها للعيدين و الجمعه ومرة كان يلبس بردين أخضرين ، ومرة بردا أحمر وليس هو أحمر مصمتا كما يظنه بعض الناس [٢] وقال النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأله أصحابه بقولهم إن أحدنا يحب أن يكون ثوبه حسناً و نعله حسنةً فقال " إن الله جميل يحب الجمال " [٣] .

أما عن خروج الخطيب إلى المسجد فإنه يبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن خروجه مثل خروج بعض الخطباء بمراسيم خاصه و لباس خاص مقنن بل كان يخرج: من غير شاويش يصيح بين يديه ، ولالبس طيلسان ولا طرحه ولا سواد [٤] ، وكأنها مراسيم كانت تفعل في زمانه رحمه الله . ثم بين أن الخطبة تكون على الإرض أو على المنبر أو على البعير أو الناقه كماورد عن النبي صلى الله عليه وسلم ومن سنته صلى الله عليه وسلم أن يأخذ الخطيب عصا أو قوسا يتوكأ عليه وهو على المنبر [٥] .

وقد نقد رحمه الله تعالى من يقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم يعتمد على السيف في خطبه فقال: ولم يكن يأخذ بيده سيفا ولا غيره وإنما كان يعتمد على

---

(١) البيان والتبين : ١٧١/١ .
(٢) زاد المعاد : ٤٤١/١ .
(٣) رواه مسلم في كتاب الايمان برقم ١٤٧ حـ ٩٣/١ .
(٤) زاد المعاد : ٤٢٩/١ .
(٥) نفس المرجع : ١٨٦/١ .

قوس أو عصا قبل أن يتخذ المنبر ، وكان في الحرب يعتمد على القوس وفي الجمعه يعتمد على عصا ، ولم يحفظ عنهأنه أعتمد على سيف،وما يظنه بعض الجهال أنه كان يعتمد على السيف دائما ، وإن ذلك إشارة إلى أن الدين قام بالسيف ، فمن فرط جهله فإنهلا يحفظ عنه بعد اتخاذه المنبر أنه كان يرقى بسيف ولا قوس (١).

والمحفوظ أنه توكأ على العصا وعلى القوس ، والدين إنما قام بالوحي وأما السيف فلمحق أهل الضلال والشرك ، و مدينه النبي صلى الله عليه وسلم التي كان يخطب فيها إنما فتحت بالقرآن ولم تفتح بالسيف (٢) ، و أما عن وقتالخطبه فقد بين أنالخطبهالعامة ليس لها وقت معين فإنالنبي صلى الله عليهوسلم كان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجة المخاطبين ومصلحتهم (٣).

أما عن مضمون الخطبه :

فالمعروف أن الخطبه تنقسم الى ثلاثةأجزاء مقدمة ، وعرض ، وخاتمه فأما المقدمه فبين رحمه الله تعالى أنه لم يثبت عنالنبي صلى الله عليهوسلم أنه خطب خطبته،الا افتتحها " بحمد الله " حتى خطبة العيدين،والاستسقاء، فإنه يحمد الله و يثني عليه بما هو أهله ، ثم يقول " من يهد الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادى له وخير الحديث كتاب الله وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

وكان يقول في خطبته بعد التحميد والثناءوالتشهد " أما بعد "(٤).

وثبت عنه أنه قال : كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء (٥).

أما عن العرض فبين أن المصطفى صلى الله عليه وسلم كانت خطبته تزخر بالايات القرآنيه : وكان كثيراً ما يخطب بالقرآن وفي صحيح مسلم عن ام هشام بنت

---

(١) زاد المعاد : ٤٢٩/١ .
(٢) نفس المرجع : ١٩٠/١ .
(٣) نفس المرجع : ١٨٩/١ .
(٤) نفس المرجع : ٤٢٦/١ .
(٥) رواه الترمذى في السنن برقم ١١٠٦ في باب لنكاح .

حارثه قالت : (ما أخذت«ق» والقران المجيد» ، الا عن لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأها كل يوم جمعه على المنبر إذا خطب الناس [١] .

وكان عليه الصلاة والسلام : يعلّم أصحابه في خطبته قواعد الاسلام والشرائع ويأمرهم وينهاهم في خطبته إذا عرض له أمر أو نهي كما أمر الداخل وهو يخطب أن يصلي ركعتين [٢] .

وكان يكثر الذّكر ، ويقصدُ الكلمات الجوامع [٣] ،

ثم بين رحمه الله ما يشتمل عليه العرض من خطب النبي صلى الله عليه وسلم وفقد أساليب الخطباء الذين تركو منهج النبي صلى الله عليه وسلم وبين الفرق بين الفريقين فقال عن خطب النبي : وهى تقرير لاصول الإيمان ، من الايمان بالله ،وملائكته، وكتبه و رسله، و لقائه ،وذكر الجنه والنار، وما أعد الله لاوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لاعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبته إيمانا وتوحيدا ومعرفة بالله وأيامه لا كخطب غيره التي إنما تفيد أمورا مشتركه بين الخلائق ، وهى النوح على الحياة و التخويف بالموت ، فإن هذا الأمر لا يحصل في القلب إيمانا بالله ، ولا توحيدا له ولا معرفة خاصة به ، ولا تذكيرا بأيامه ، ولا بعثا للنفوس على محبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائده ، غير أنهم يموتون ، و تقسم أموالهم و يبلى التراب أجسامهم ، فياليت شعرى أى إيمان حصل بهذا ؟ وأى توحيد ومعرفة وعلم نافع حصل به ؟ !

ومن تأمل خطب النبي صلى الله عليه وسلم ، وخطب أصحابه ، و جدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الايمان الكلية والدعوة الى الله ، وذكر آلائه تعالى التي تحببه إلى خلقه و أيامه التي تخوفهم من بأسه

---

(١) رواه مسلم باب تخفيف الصلاة والخطبه رقم الحديث ٨٧٣ المجلد الثاني ص ٥٩٥

(٢) رواه البخارى في كتاب الجمعه باب من جاء والامام يخطب رقم ٣٣ ج ٢٣٣/١ .

(٣) انظر الزاد : ٤٢٦/١ .

والأمر بذكره وشكره الذى يحببهم إليه فيذكرون من عظمة الله و صفاته واسمائه ، ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره ، وذكره ما يحببهم إليه ، فينصرف السامعون وقد أحبوه و أحبهم . ثم طال العهد وخفي نور النبوه وصارت الشرائع والأوامر ، رسوما تقام من غير مراغاة حقائقها و مقاصدها ، فأعطوها صورها و زينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والاوضاع سننا ، لاينبغي الاخلال بها ، وأخلّوا بالمقاصد التي لا ينبغي الإخلال بها ، فرصعوا الخطب بالتسجيع والفِقَر ، وعلم البديع ، فنقص بل عدم حظ القلوب منها ،وفات المقصود بها[1].

وبعد ان بين رحمه الله تعالى مضمون خطب المصطفى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونقد الخطباء الذين ابتعدوا عن منهج النبي صلى الله عليه وسلم بين مدار خطب النبي بالجمله فقال :

وكان مدار خطبه على حمدالله والثناء عليه بآلائه ، وأوصاف كماله و محامده وتعليم قواعد الإسلام ، وذكر الجنه والنار والمعاد ، والامر بتقوى الله ، وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه فعلى هذاكان مدار خطبه[2].

أما عن الخاتمه فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يختم خطبته بالاستغفار[3] وبين رحمه الله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقصّر الخطبة و يطيل الصلاة ، وكان يقول : (إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته ، مئنة من فقهه)[4][5].

هكذا كانالنبي صلى الله عليهوسلم يفعل في خطبه ولم يكن يطيل الخطبه كما يفعل بعض الخطباء واذا سألته عن سبب إطالته ، قال : إنها فرصة يجتمع هذا العدد من الناس ، وهذا الأمر فيه نظر أولاً لأنه مخالف لفعل المصطفى صلى الله عليه وسلم

وثانا : أن هؤلاء الناس منهم الكبير والضعيف وذا الحاجه ، والخطبة خاصة

---

(١) زاد المعاد : ٤٢٣/١ .
(٢) نفس المرجع : ١٨٨/١ .
(٣) نفس المرجع : ١٨٧/١ .
(٤) رواه مسلم في كتاب الجمعه برقم :٨٦٩ ح ٥٩٤/٢ .
(٥) الزاد : ٤٢٧/١ .

ولا يجوز للسامع أن يخرج من المسجد حتى تنتهي الصلاة فأنت أجبرته على شيء يكرهه لعذر من الاعذار .

فينبغي على الخطيب أن يقتدى بسنة نبيه ، واذ كان يريد أن ينفع الناس فيبين للناس في اثناء الخطبة أن من أراد أن يستزيد مما قلناه فعليه البقاء في المسجد بعد الصلاة حتى يسمع ما أراد أو يسأل عمّا أراد . فإنه بذلك يقتدى بسنة نبيه ، ويريح المسلمين ، وينفع المريدين والله اعلم .

كما يجب على الخطيب أن يحضّر خطبته بنفسه إن استطاع ولا يكتفي بالنقل من غيره ، فإن الضروف وما يحدث في الايام والليالي و المستجدات من الامور والمنكرات تتجدد و تظهر و تغيب و تختلف من حال إلى حال ومن وقت إلى وقت ، كما يجب أن يكون عارفا بفنون الخطابه ، عارفا بسامعيه وما يلائمهم ، مع سعة الاطلاع والثقافه العاليه بالشريعه الاسلاميه .

كما يجب على الخطيب أن يكون مقتنعا بالفكرة التي يقولها صادقا مع ربه قاصدا رضاه وانتفاع الجمهور حتى يكون الكلام مقبولا مسموعا فإن الخطبة إذا خلت من الحماس الداخلي للخطيب بما يقوله و اقتناعه به فإنه لا يفيد غيره .

قال عامر بن قيس [1] ، : الكلمة اذا خرجت من القلب وقعت في القلب واذا خرجت من اللسان لم تتجاوز الاذآن ، وقال الحسن البصرى رحمه الله وسمع رجلا يعض فلم تقع موعظته بموضع من قلبه ولم يرقّ عندها فقال له :" إن بقلبك لشرا أو بقلبي"[2]

من أجل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم موءثرا في الناس قابلين دعوته منصتين لقوله ومقتنعين به راضين، وكل ذلك بسب الايمان العميق، والحماس الصادق،

---

(١) هو ابو عبدالله عامر بن قيس التميمي قدوة زاهد ، من عباد التابعين ، رآه كعب الاحبار فقال هذا راهب هذه الامه كان يقرئ الناس توفي رحمه الله تعالى في زمن معاويه رضي الله عنه انظر : حلية الاولياء : ٨٧/٢ وسير اعلام النبلاء :١٥/٤ ، وطبقات القراء للجزرى : ٣٥٠/١ .

(٢) البيان والتبين : ٨٤/١ .

والاقتناع التام بما يقوله لذلك يظهر ذلك على ملامح وجهه عليه أفضل الصلاة والتسليم وقد بدأ ابن القيم رحمه الله عند ذكره هدى النبي صلى الله عليه وسلم في خطبه بدأ بذكر الحالة النفسيه وما يظهر على جسده الشريف من تغيّر من تأثير هذه الحالة فقال : كان إذا خطب إحمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه حتي كأنه منذر جيش يقول صبّحكم مسّاكم "[1][2].

القلم

هو رأس الوسائل الدعويه وأكثرها نفعا واستمرارية في النفع ، وهو العمل الذى لا ينقطع عن العبد فضله وأجره ان كان في الخير يقول ابن القيم :

و يكفي فيه فضلا امتداح الرب تبارك و تعالى له واقسامه به في كتابه وأن كتب الله لم تكتب الا به و امتن سبحانه على عباده بأنه " علم بالقلم "[3][4] ، وإقسامه سبحانه به في قوله "ن والقلم وما يسطرون "[5] ، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بكتابة الوحي من كتاب الله ، وأباح لهم كتابة حديثه وكان صلى الله عليه وسلم يكاتب الملوك كل ذلك يدل على أنه وسيله دينيه .

قال ابن القيم في ذكر جلالة الكلمة والتي تتركب من حروف يسطرها القلم عند حديثه عن السحروف المقطّعة في أوائل السور :

" ففي هذا تنبيه على شرف هذه الحروف وعظم قدرها وجلالتها اذ هى مباني كلامه وكتبه التي هدى بها عباده وعرفهم بواسطتها نفسه،وأسمائه،وصفاته،وأفعاله و أمره،ونهيه،ووعيده،ووعده،وعرفهم بها الخير،والشر والحسن والقبح[6] ، كما بين

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجمعه برقم ٨٦٧ باب تخفيف الصلاة والخطبه .
(٢) انظر الزاد : ٤٢٦/١ .
(٣) الايه من سورة العلق : ٤ .
(٤) انظر التبيان في اقسام القرآن : ١٣٣ .
(٥) الايه من سورة القلم : ١ .
(٦) التبيان في اقسام القرآن : ١١٧ .

أن مصالح العباد قامت به و بفضله كما قال :

فأقسم الله سبحانه بالكتاب وآلته وهو القلم الذى هو احدى آياته وأول مخلوقاته الذى جرى به قدره وشرعه،وكتب به الوحي،وقيد به الدين،وأثبتت به الشريعه و حفظت به العلوم وقامت به مصالح العباد،في المعاش،و المعاد،فوطدت به المماليك ، وأمنت به السبل والمسالك [(١)].

و يوضح رحمه الله أن الكتابه بالقلم زيادة على ما ذكر منشرفها فإنها أصلح الوسائل للدعاة والوعاظ فإنها خطيب لهم في كل زمان،وهو طبيب للقلوب ، وسلاح بيد الداعيه يستطيع به كسر الجنود العظيمة ويكسر بأس كل شديد فيقول عن القلم :

أقام في الناس أبلغ خطيب و أفصحه ، وأنفعه لهم وأنصحه ، وواعظا تشفي مواعظه القلوب من السقم ، وطبيبا يبرى بإذنه من أنواع الألم : يكسر العساكر العظيمة على أنه الضعيف الوحيد ويخاف سطوته و بأسه ذوالبأس الشديد [(٢)].

وهذه الفضائل لا تحصل الا للداعيةصاحب العقل الحصيف،فالقلم بكاتبه كما أن السيف بضاربه فالقلم،معبّر عما في العقل كما يقول ابن القيم فعلى ما في العقل من فضل يجود به القلم فقال :

" والقلم لسان الضمير يناجيه بما استتر عن الاسماع فينسج حلل المعاني في طرفين فتعود أحسن من الوشي المرقوم [(٣)] ، ويودعها حكمه فتصير بوادالفهوم والاقلام نظام للافهام ، كما أن اللسان بريد القلب ، فالقلم بريد اللسان و بريد القلب و رسوله وترجمانه ولسانه الصامت [(٤)].

أضف الى هذه المزايا الكريمه أن يتميز عن الوسائل الاخرى بان الفكر والدعوة

---

(١) نفس المرجع : ١٢٨ .

(٢) نفس المرجع والصفحه : .

(٣) الوش من الثياب مخلط الالوان والمرقوم أى بينت حروفه بعلاماتها منالترقيم وهذا يعني أنه كتاب متعدد المعاني واضح الحروف والالفاظ :انظر لسان العرب مادة وشي ومادة رقم : ١٢/٤٨٢ .

(٤) التبيان في اقسام القرآن : ١٢٩ .

التي تضمنها القلم لا تقتصر علي أهل الزمان كما في اللسان " فاللسان مقصور على القريب الحاضر ، والعلم مطلق في الشاهد والغائب وهو للغابر الحائن مثله للقائم الراهن ، والكتاب يقرأ بكل مكان و يدرس في كل زمان ، واللسان لا يعدو سامعه ولا يتجاوزه الى غيره "[1] .

وهذا ما يعبر عنه قول الشاعر :

الخط يبقى زمانا بعد كاتبه وكاتب الخط تحت الارض مدفونا

كما أن الكتابة أفضل من التعليم بالمشافهة ، لان المعلم يشافه عددا من المتعلمين بينما القلم يشافه فيه من الخلق مالا يحصيهم الا الله سبحانه وتعالى ما دام الخط باقيا .

والخط يمكّن صاحبه من تلافي الاخطأ، و انتقاء العبارات والافكار والاستعاره ممّا ورد في الكتب حتى يكون في أحسن صورة .

والمراد أن نبين أن للكتابة من الخير للداعيه، والمدعو والكاتب والقارىء، وزادتها في هذا العصر الطباعة وانتشارها ما يزيد من أهميتها بالنسبه للداعية كوسيلة فعّالة له مما يجب على الداعية المشاركة بجميع الوسائل المطبوعة من كتاب و صحيفة و مجله وغيرها فإنها واسعة الانتشار رخيصة الثمن وهى لذلك قابلة للتداول بين جميع الطبقات .

رُتَبُ الأقلام

بين ابن القيم رحمه الله رتب الاقلام وأن بعضها حاكم والبعض محكوم له وان الاقلام التي فيها مصالح العالم أثنا عشر قلما هى :

أولا : وهو أعلا ها و أجلها قَدْراً، قلم القدر السابق الذى كتب الله به مقادير الخلائق .

---

(١) البيان والتبين للجاحظ : ٨٠/١ الطبعه الرابعه مطبعة الخانجي بمصر .

ثانيـــا : قلم الوحي الذى يكتب به وحي الله إلى أنبيائه ورسله وهـــــى الاقلام التي تكتب ما يوحيه الله تبارك وتعالى من الامور التـــي يدبر بها أمر العالم العلوى والسفلي وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والعالم خدم لهم واليهم الحل والعقد .

ثالثـا : قلم التوقيع عن الله ورسوله وهو قلم الفقهاء والمتفقهين وهـــذا القلم ايضا حاكما غير محكوم عليه فإليه التحاكم في الامـــوال والدمـــاء و الفـــروج .

رابعـــا : قلم طب الابدان التي تحفظ بها الصحة الموجوده ويرد إليها صحتها المفقوده . هذا القلم أنفع الاقلام بعد قلم طب الاديان

خامسا : التوقيع عن الملوك و نوابهم وسياسة الملك فإن صلحت اقلامهـــم صلحت المملكة وإن فسدت أقلامهم فسدت المملكة .

سادســا : قلم الحساب وهو التي تضبط به الاموال و مستخرجها و مصروفها فإذا كذب وظلم فسد أمر المملكة .

سابعـا : قلم الحكم الذى تثبت به الحقوق و تنفذ به القضايا و تراق به الدماء و يقطع الخصومات و بينه وبين التوقيع عن الله عمـــوم وخصوص وهو قائـم بالصـــدق و العـــدل .

ثامنـــا : قلم الشهادة الذى تحفظ به الحقوق و تصان به عن الاضاعـــــة و تحول بين الفاجر وإنكاره .

التاسع : قلم التعبير وهو كاتب وحي المنام و تفسيره و تعبيره وما أريـد منه وهو من الاقلام التي تصلح للدنيا والدين و يعتمد طهـــارة صاحبه ونزاهته وأمانته و هو مؤيد بالنور الالهي مع معرفة بأحوال الخلق

العاشـــــر : قلم تواريخ العالم ووقائعه وهو الذى يضبط الحوادث ويتنقل من أمة الى أمه ومن قرن إلى قرن فيحصر ما مضي من العالم و حوادثه في الخيال وينقشه في النفس حتي كأن السامع يرى ذلك و يشاهده يعيد لـــك العالم في صورة الخيال فتراه بقلبك و تشاهده ببصرك .

الحادى عشر : قلم اللغه و تفاصيلها من شرح معاني الالفاظ و تصريفهـــا واسرار تراكيبهـــا .

الثاني عشـر : القلم الجامع وهو قلم الرد على المبطلين ورفع سنـــــة المحققين وكشف أباطيل المبطلين على أختلاف أنواعهـــا وأجناسها ، وبيان تناقضهم ، و تهافتهم و خروجهم عن الحق ودخولهم في الباطـــل وهذا القلم في الاقلام نضير الملوك في الأنام وأصحابه أهل الحجة الناصرون لما جـــاءت به الرسل المحاربون لاعدائهم وهم الداعون الى الله بالحكمة والموعظه الحسنـــــه والمجادلون لمن خرج عن سبيله بأنواع الجدال وأصحاب هذا القلـــم حزب لكل مبطـــل وعدو لكل مخالف للرسل فهم في شأن وغيرهم من أصحاب الاقلام في شأن [1] .

استخدام ابن القيم لهذه الوسيله

أهتم ابن القيم بهذه الوسيلة وكتب وصنف التصانيف المفيده ولولا فضـــل الله ثم هذه الوسيلة الفعالة لما وصل الينا هذا التراث العظيم مما حفلت به المكتبات الإسلاميه من كتب السلف رحمهم الله ، والتي هى الاساس للعلوم الاسلاميه بعد كتـــاب الله وسنة رسوله ، ومن هذه المصنفات ما كتبه ابن القيم رحمه الله خدمه للدعـــوة الاسلاميه .وسيلة باقيه يتعاقبها الاجيال تلو الاجيال،إضافة إلى استخدام الوسائل الاخـــرى ولكن التاليف " موطن الجمال و الجلال والجاذبية الغريبه في حياة ابن القيم العلميـــة

---

(١) التبيان في اقسام القرآن بتصرف : ١٢٩ ـ ١٣٢ .

اللامعه المتألق نجمها على مدى سبعة قرون يتجاذبها الناس بالدرس والفحص والقـــراءة والإقراء ويكفي أنها بالجملة محل أعجاب من أنصاره و خصومه على حدٍّ سواء"[1].

لِمَا رأوا فيها من الحق المعتمد على الكتاب والسنه إضافه الى تلك الـــروح الربانيه في كتاباته التي تتحرى مواقع رضي الرب سبحانه و تعالى و توضيح مقاصد شرعه مما يبعث في النفس القناعه في حسن هذه التشريعات التي تتمشى مع طبيعة الانســـان فلا يجد القارئ لكتبه رحمه الله التعصب لغير أمر الله ورسوله مما يبعث الراحـــة له ولما كتبه .

وقد تتبع أحد الباحثين [2]، ما كتبه ابن القيم وحاول جمعها من واقـــع ما أطلع عليه من مصنفاته أو ذكرها رحمه الله في بعض كتبه وما ذكره بعض أصحاب كتـــب التراجم ونسبوه إليه ، ثم حذف المكرر وما نسب الى ابن القيم عن طريق الخطأ فظهـــر له أنها ست وتسعون مؤلفا هذا من غير ما لم يستطيع الوقوف عليه مما كتبه رحمـــه الله .منها ماهو مجلد ومنها ما هو مجلدان و ثلاثة واربعة و سبعة ومنها ما هو رساله .

وقد تنوعت فنونها فمنها في التفسير والحديث والسيرة واللغه والادب والتربيه والزهد والعقيدة و العلوم الكونية والطبية وغير ذلك من الفنون مما يدل على سعة علمه و اطلاعـــــه .

وهذا ما تحتاج إليه الدعوة الاسلامية تحتاج الى داعية مثل ابن القيم قـــد تبحر في كثير من العلوم لان الدعوة تحتاج الى كل ما يوصل الى المدعو وتقنعـــــه سواء كان ذلك تشريعا أو اعتقادا أو حياة اجتماعية أو تربوية وغيرها فإن الدعـــوة تحتاج الى جميع هذه الامـــور .

---

(١) التقريب لفقه ابن القيم : ٥٩/١ بكر أبو زيد .

(٢) هو بكر بن عبدالله أبو زيد في كتابه ابن القيم الجوزيه حياته و آثـــاره ص١١٤ وما بعدهـــــا .

البـــاب الثـــانـــي

منهجـــه في الأســـس العلميـة فـي مجـال الـدعـــوة

الفصـــل الأول : فـي مجـال الاصـــول الاعتقـاديـــة

الفصـــل الثاني: فـي مجـال الفـــروع الشـــرعيـــة

الفصـــل الثالث: فـي مجـال إصـــلاح المجتمـــع

الفصل الأول : في مجال الأصول الإعتقادية (١)

العقيده في اللغة مأخوذة من (عَقَدَ) يقال عقدت الحبل عقدا فانعقد والعقدة ما يمسكه ويوثقه ومنه قيل عقدت البيع وعقدت اليمين و(اعتقدت) كذا (عقدت) عليه القلب والضمير حتى قيل (العقيدة ما يدين الإنسان به وله عقيدة حسنه سالمة من الشك (٢) .

" والعقيدة أو الإعتقاد عند علماء الإسلام يراد به : الحكم الجازم الذي يعقد الإنسان قلبه عليه بغير تردد أو شك .

وأصطلح كثير من علماء الإسلام على إطلاق اسم (التوحيد) على مجمل الأمور التي يجب أن يعتقدها الإنسان وذلك مأخوذ من أهم أصل في هذه الأصول هو (التوحيد) الذي تضمنتة كلمة (لا إله إلا الله)" (٣) .

والتوحيد أساس هذا الدين فلابد للداعية أن يبتدئ به ، فلا يمكن لداعية أن يدعو أحداً لشيء من التشريع قبل أن تتمكن هذه العقيدة منه وأن يعقد قلبه على أركان الإيمان ويذعن لها وهي الواردة في حديث جبريل عليه السلام لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم فقال :(الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره) (٤) .

فيجب على الإنسان أن يؤمن بهذه الأركان ويعرفها معرفة صحيحه ويعقد قلبه عليها ، ونظراً لأهمية العقيده في ملتنا وما يترتب عليها من نسبة صاحبها نسبة صحيحه إلى هذا الدين وعدم نسبته إليه مكث رسول الله صلوات الله وسلامه عليه في مكة ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى هذه العقيدة الصحيحة ويبطل كل ما يعارضها ، فإذا نظرنا إلى ما نزل عليه من التشريع في مكة فإنه شيء لا يذكر بالنسبة للعدد الهائل من آيات القرآن الكريم التي تقرر العقيدة وتوضح مفهومها .

ومن هنا يجب على دعاة المسلمين أن يعطوا هذا الأمر حقه من العناية فيكون هو أول ما يدعون إليه وأعظم ما يحرصون على تركيزه وتوضيحه وتصحيحه

---

(١) سبق أن بينا في الباب الاول طرفاً من باب الاعتقاد وهو في اثبات وجود الله واثبات وحدانيته واثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وبينا منهج ابن القيم في ذلك راجع ص : ٢٩ وراجع في الباب الثالث محاربته لعواد القبور ص ٤١٤ .

(٢) انظر المصباح المنير : ٤٢١ ، ولسان العرب ٢٩٨/٣

(٣) العقيدة أولاً لو كانوا يعلمون محاضرة للدكتور عبدالعزيز القارىء :ص١٠ الطبعة الاولى ١٤٠٤هـ مكتبة الدار بالمدينه المنوره .

(٤) رواه البخاري في كتاب الايمان ٣٧/١

إقتداءً بنبيهم عليه السلام .. لأن العقيدة الصحيحة تنبثق منها العبادة الصحيحة والسلوك الصحيح،وهي التي تضمن في الوقت نفسه الثبات على الحق ، وتحمل التضحيات في سبيله عندما يطلب من المسلم أن يؤديها وكل ما نراه من التذبذب والتخلى عن طريق الحق مرده ضعف هذه العقيده وعدم تمكنها من قلب المسلم (١) .

وابن القيم رحمه الله لأهمية هذا الموضوع فقد أولاه عناية خاصة إستغرقت كل جهوده وكتاباته ، فلا تجد كتاباً من كتبه إلا وقد تحدث فيه عن العقيدة وما يجب أن تكون عليه ، فهو يرى أن أساس مطالب الرسالة جميعها وزبدة رسالة الرسل معرفة المعبود سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله واثبات محابه من الأفعال والأقوال فقال :

إنه لا حياة للقلوب ولا نعيم ، ولا لذة ، ولا سرور ، ولا أمان ، ولا طمأنينة، الا بأن تعرف ربها ومعبودها وفاطرها بأسمائه وصفاته وأفعاله ويكون أحب اليها مما سواه ، ويكون سعيها فيما يقربها إليه ويدنيها من مرضاته ومن المحال أن تستقل العقول البشرية بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجابهم مبشرين، ومن خالفهم منذرين ، وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعا ، وأن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعة لمعرفة المرجو المخوف المحبوب المطاع .

ولما كان مفتاح الدعوة الإلهية معرفة الرب تعالى ، قال : أفضل الداعين إليه سبحانه لما بعث معاذ بن جبل وقد أرسله إلى اليمن : (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة) (٢) .

فأساس دعوة الرسل " صلوات الله وسلامه عليهم " معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان :

أحدهما : تعريف الطريق الموصلة إليه ، وهي شريعته المتضمنه لأمره ونهيه.

الثاني : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذى لا ينفد ،

---

(١) المنهج الحركي للسيرة النبوية : ٣٠/١ للكاتب منير الغضبان ، الطبعة الثانية مكتبة المنار الاردن .

(٢) صحيح مسلم ٥١/١ كتاب الايمان باب الدعاء الى الشهادتين .

وقـرة العيـن التي لا تنقطـع (١) .

ومن هـذا النـص يبين لنا ابن القيم عظيم شـأن العقيدة وأنها هي الاساس الـذي بعث من أجله الرسـل وهي باب سعادة الإنسانية في الدنيا والآخرة ، ثم أنه يبني مسائل التشريع على أساس العقيدة الصحيحه التي جاء بها المصطفى صلى الله عليه وسلم .

وهو في نفس الوقت يرد على من ينتسب إلى مقام الدعوة ويهون من شأن العقيدة ويزعم أنها تفرق بين المسلمين ويكتفي في باب الدعوة إلى الدعوة إلى التشريع والعبادات فقط .

والمسلم يتعجب من هذا القول لأنه مخالف للواقع والمحسوس ، فأين هو من ترابط الصحابة رضوان الله عليهم وما كان بينهم من الود والتراحم والألفة والمحبة وهل كان ذلك إلا بسبب اتفاقهم على إعتقاد واحد وإيمان برب واحد ، إلا إذا كان المراد من قولهم أنها تفرق بين المؤمن والكافر حتى لو كانت بين الإبن وأبيه ، نقول نعم لأن المؤمن لا يمكن أن يكون بينه وبين كافر مودة أو ألفه وكيف تكون مودة وهذا يؤمن بالله ويحبه ، وهذا ملحد بالله عدو له، إن الإيمان الصحيح يمنع ذلك ، ومثال هذا ، أن الانسان منا إذا اطلع على أحد من الناس وهو يعادي أحد والديه أو ابنه أو من يحب ويخالف أمره وينابذه كل عداء فإن فطرة الإنسان تمنعه من محبة ذلك الشخص وموالاته ، فكيف بمن تعلق قلبه بحب الله ورسوله فإنه يكون أكثر من ذلك ألما وحسرة وعداء للكافر ، ويقابل هذا البغض للكافر حب المؤمنين ومودتهم لبعضهم .

فنص ابن القيم هذا يرد عليهم من الوجهين ، أما الوجه الأول فهو اثباته أن الرسل إنما أرسلوا لبناء العقيدة الصحيحه في نفوس البشر ، والثاني أن ما قمتم بالدعوة إليه وهي الأمور التشريعيه فإنها لا تتم على الوجه المطلوب إلا بالخوف والرجاء والمحبة والطاعة للمعبود فإن هذه الأمور تابعة لمعرفة المعبود الذي يجب أن تصرف له هذه العبادات فإذا كنت لا تعرف المعبود بصفاته وأسمائه وأفعاله الدالة على عظمته وكبريائه فإنك لن تقدره حق قدره ، وبالجملة فإن التشريعات تابعة للعقيده والعقيدة أولا ، والله ولي التوفيق .

موقفه من الفرق

مضى عصر النبوة والصحابة رضي الله عنهم متفقون والرسول صلى الله عليه وسلم

---

(١) الصواعق المرسله ١/١٥٠

المصدر الوحيد الذي يستمد الصحابة منه معرفتهم الإعتقادية وغيرها ومن ثم فلم يكن هناك خلاف في الرأى لأنهم إذا أشكل عليهم أمراً قصدوا رسول الله فأجلا لهم الأمر وأخذوا عنه القول بالقبول المطلق لتمكن الإيمان من قلوبهم وخضوعهم لله ورسوله ، فساد في ذلك العصر وحدة لم تَشُبْها فرقة (١).

وسار الصحابة رضي الله عنهم على تلك السيرة في العقيدة وعقيدتهم الإيمان بكل ما ورد عن الله ورسوله في القرآن الكريم والسنة المطهرة ، وما فيها من بيان وتفصيل في الأمور الإعتقادية وأسماء الله وصفاته لا يتعرضون إليها بتعطيل ولا تأويل ولا تمثيل ولا تشبيه إنما إيمان مطلق وتنزيه خالص للخالق جل وعلا عن المخلوق وكلهم آمنوا بقوله تعالى : ((ليس كمثله شيء وهو السميع البصير))(٢)

---

(١) لم يكن هذا التصديق المطلق في الاعتقاد من الصحابة عن شغل شاغل عن المعرفة والتدبر وترك هذا الباب عن همتهم وعنايتهم باشتغالهم بالعبادة والزهد والجهاد كما يتوهمه من قصر فهمه واجلاله للصحابة وقد رد ابن القيم على من يقول بهذا القول وبين أن ذلك تنقيص من قدر الصحابة فقال في رده على من قال بهذا القول: وهذا من ابين المحال وأبطل الباطل بل كانت عنايتهم في هذا الباب فوق كل عناية وذلك بحسب حياة قلوبهم ومحبتهم لمعبودهم ومنافستهم في القرب منه ، فمن في قلبه أدنى حياة أو محبة لربه وارادة لوجهه فطلبه لهذا الباب وحرصه على معرفته هو اكبر مقاصده ولا فرح للقلوب الصحيحة بشيء أعظم من فرحها بالظفر بمعرفة الحق فيه فكيف يمكن مع قيام هذا المقتضى الذى هو من أعظم المقتضيات أن يتخلف عنه أثره في خيار الأمه وسادات أهل العلم والايمان فكيف يظن بهم الاعراض عن مثل هذا الأمر العظيم والغفلة عنه أو التكلم بخلاف الصواب فيه واعتقاد الباطل ؟ ومن المحال أن يكون تلاميذ المعتزله ، وورثة الصابئين وأفراخ اليونان الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأعرف بها ممن شهد الله ورسوله لهم بالعلم والايمان والفضل وهل يقول هذا الا غبي جاهل لم يقدر قدر السلف ، قال شيخنا (ابن تيمية : وانما أتى هؤلاء المبتدعة الذين فضلوا طريقة الخلف على طريقة السلف من حيث ظنوا ان طريقة السلف هي مجرد الايمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه ولا فهم لمراد الله ورسوله منها واعتقدوا أنهم بمنزلة الاميين الذين قال الله فيهم : ((ومنهم اميون لا يعلمون الكتاب الا أماني)) سورة البقره : ٧٨، وأن طريقة المتأخرين هي استخراج معانى النصوص وصرفها عن حقائقها بأنواع المجازات وغرائب اللغات ومستنكر التأويلات فهذا الظن الفاسد أوجب تلك المقاله التي مضمونها نبذ الكتاب والسنه وأقوال الصحابة والتابعين وراء ظهورهم فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف والكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف.
انظر الصواعق المرسله ١٦١/١ - ١٦٤

(٢) الاية من سورة الشورى : ١١

نشـــأة الفـــرق

ثم نتركك مع ابن القيم وهو يفصل لنا جزءاً من نشأة الفرق وكيف أن قوى الباطل تكالبت على أهل السنة والجماعة مع بيان تثبيت الله تعالى لهم ونصرهم على عدوهم ، ويبين سبب نصرهم ، وسبب ضلال مخالفيهم ، فيقول :

فمضى الرعيل الأول في ضوء نور الرسالة ، لم تطفئه عواصف الأهواء ، ولم تلتبس به ظلم الآراء ، وأوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا النور الذي اقتبسوه منهم وأن لا يخرجوا عن طريقهم ، فلما كان في أواخر عصرهم حدثت الشيعة (١)، والخوارج (٢) ، والقدرية (٣) ، والمرجئة (٤) ، فبعدوا عن النور الذي كان عليه أوائل الأئمة ومع هذا فلم يفارقوه بالكلية ، بل كانوا للنصوص معظمين ، وبها مستدلين ولها على العقول والآراء مقدمين ، ولم يدع أحد منهم أن عنده عقليات تخالف النصوص وإنما أتوا من سوء الفهم فيها ، والإستبداد بما ظهر لهم منها ، دون من قبلهم ، ورأوا أنهم إن اقتفوا أثرهم كانوا مقلدين لهم فصاح بهم من أدركهم من الصحابة وكبار التابعين من كل قطر ورموهم بالعظائم وتبرأوا منهم ، وحذروا من سبيلهم أشد التحذير ، ولا يرون السلام عليهم ولا مجالستهم .

---

(١) الشيعة هم الروافض الذين شايعوا علياً رضي الله عنه وقالوا بامامته وخلافته نصاً ووصية وقدموه على جميع الصحابة ويطعنون في خلافة الخلفاء الثلاثة ويكفرونهم واكثر الصحابة ويعتقدون أن الامامة في أولاد الحسين بن علي بعد الحسن بن علي ويعتقدون بعصمة أئمتهم ولهم أقوال كثيرة منحرفه، انظر مقالات الاسلاميين ٦٥/١، والملل والنحل١٤٦/١

(٢) الخوارج : سموا بهذا الاسم لخروجهم على الامام على رضي الله عنه ونزلوا بارض يقال لها حروراء فسموا بالحرورية وهم الذين يكفرون اصحاب الكبائر ويقولون أنهم مخلدون في النار كما يقولون بالخروج على ائمة الجور وأن الامامة جائزة في غير قريش وهم يكفرون عثمان وعلي رضي الله عنهما وطلحة والزبير وعائشة ويعظمون أبا بكر وعمر ، انظر الفصل في الملل والاهواء والنحل ١١٣/٢، والملل والنحل للشهرستاني ١٥٤/١، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٥٠ ط ١٣٩٨هـ للفخر الرازى شركة الطباعة الفنية المتحده بالعباسيه.

(٣) سموا بذلك لقولهم في القدر وهم يزعمون أن العبد هو الذي يخلق أفعاله استقلالاً فأثبتوا خالقاً مع الله ولذا سماهم النبي صلى الله عليه وسلم مجوس هذه الامه لأن المجوس قالوا باثبات خالقين النور والظلمة وهم يقولون أن الله لا يقدر على مقدورات غيره وهذا هو مذهب المعتزلة في القدر ، انظر الملل والنحل للشهرستاني:٥٤/١

(٤) المرجئة سموا بذلك لقولهم بالارجاء وأصل الارجاء التأخير وذلك لأنهم أخروا الاعمال عن مسمى الايمان وقيل من اعطاء الرجاء حيث قالوا لا يضر مع الايمان ذنب كما لا تنفع مع الكفر طاعة وقيل تأخير حكم صاحب الكبيرة الى الآخره فلا يقضى عليه بحكم ما في الدنيا ، انظر الملل والنحل ١٨٦/١ والفصل في الملل والنحل ١١٣/٢ ، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ١٠٧ - ١٠٨ للفخر الرازى ط١٣٩٨هـ

فلما كثرت الجهمية في آواخر عصر التابعين كانو هم أول من عارض الوحي بالرأي ، ومع هذا كانوا قليلين أولا ، مقموعين مذمومين عند الأئمة فأولهمشيخهم الجعد بن درهم (١)، وإنما نفق عند الناس بعض الشيء لأنه كان معلم مروان بن محمد وشيخه ، وعلى رأسه سلب الله بني أمية الملك والخلافة وشتتهم في البلاد ببركة شيخ المعطلة النفاة ، فلما اشتهر أمره في المسلمين طلبه خالد بن عبدالله القسري (٢) وكان أميراً على العراق حتى ظفر به ، فخطب الناس في يوم عيد الأضحى وكان آخر ما قاله في خطبته : أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم فإني مضحي بالجعد بن درهم فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيرا ، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر ثم طفئت تلك البدعه فكانت كأنها حصاة رمي بها ، والناس إذ ذاك عنق واحد:أن الله فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه موصوف بصفات الكمال ونعوت الجلال وأنه كلم عبده ورسوله موسى تكليما وتجلى للجبل فجعله دكا هشيماً إلى أن جاء أول المائة الثالثه وولي على الناس عبدالله المأمون (٣) وكان يحب أنواع العلوم وكان مجلسه عامراً بأنواع المتكلمين في العلوم ، فغلب عليه حب المعقولات فأمر بتعريب كتب اليونان وأقدم لها المترجمين من البلاد فعربت واشتغل بها الناس والملك سوق ما سوق فيه جلب إليه فغلب على مجلسه جماعة من الجهميه ممن كان أبوه الرشيد قد أقصاهم وتبعهم بالحبس والقتل فحشوا بدعة التجهم في أذنه وقلبه فقبلها ، واستحسنها ودعا الناس إليها ، وعاقبهم عليها فلم تطل مدته ، فصار الأمر بعده للمعتصم وهو الذي ضرب الإمام

---

(١) هو الجعد بن درهم من الموالي مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ ابراهيم خليلا ولم يكن يكلم موسى وقال بخلق القرآن وكان الجعد مؤدب مروان بن محمد قتله خالد بن عبدالله القسرى سنة ١١٨هـ يوم النحر ، انظر : ميزان الاعتدال ٣٩٩/١ ، والاعلام للزركلي : ١٢٠/٢

(٢) هو خالد بن عبدالله بن زيد بن أسد القسري من بجيلة أبو الهيثم ولد سنة ٦٦ يماني الأصل من أهل دمشق قتل في أيام الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ انظر وفيات الاعيان ٢٢٦/٢-٢٣١ الاعلام ٢٩٧/٢

(٣) هو الخليفة العباسي المأمون عبدالله بن هارون الرشيد أبو العباس ولى الخلافة بعد خلع أخيه الامين سنة ١٩٨هـ إهتم بترجمة كتب العلم والفلسفه وحض الناس على قراءتها ، كان مقرباً للعلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفه بالشعر والأنساب كان فصيحاً مفوهاً واسع العلم محباً للعفو وموقفه مع الامام أحمد أشهر من أن يعرف توفى سنة ٢١٨هـ ودفن في طرطوس أنظر : تاريخ بغداد ١٨٣/١٠ أو د. أحمد فريد رفاعى ، عصر المأمون: ٢١٠/١-٢١٦ ط الرابعة ١٣٤٦هـ ، دار الكتب المصريد بالقاهره .

أحمد بن حنبل فقام بالدعوة بعده ، والجهمية تصوب فعله ، وتدعوه إليه وتخبره أن ذلك هو تنزيه الرب عن التشبيه والتمثيل والتجسيم ، وهم الذين غلبوا على قربه ، ومجلسه ، والقضاة والولاة منهم ، فانهم تبع لملوكهم ، ومع هذا فلم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص ، وتقديم الآراء والعقول عليها ، فإن الإسلام كان في ظهور وقوة ، وسوق الحديث نافقة ، ورؤوس السنه على ظهر الأرض ، ولكن كانوا على ذلك يحومون ، وحوله يدندنون ، وأخذوا الناس بالرغبة والرهبة فمن بين أعمى مستجيب ، ومن بين مكره مقيد نفسه منهم باعطاء ما سألوه ، وقلبه مطمئن بالإيمان وثبت الله أقواماً ، جعل قلوبهم في نصرة دينه أقوى من الصخر وجعلهم أئمة يقتدى بهم المؤمنون لما صبروا وكانوا بآياته يوقنون فصبروا من الجهمية على الأذى الشديد ولم يتركوا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أرغبوهم به من الوعد ، وما تهددوهم به من الوعيد ، ثم أطفأ الله برحمته تلك الفتنة ، وأخمد تلك الكلمة ، ونصر السنه نصراً عزيزاً ، وفتح لأهلها فتحاً مبيناً ودعى إليها في كل باد وحاضر ، وصنف في ذلك الزمان في السنه ما لا يحصيه إلا الله .

ثم انقضى ذلك العصر وأهله ، وقام بعدهم ذريتهم يدعون إلى كتاب الله وسنة رسوله على بصيرة إلى أن جاء مالا قبل لأحد به وهم جنود إبليس حقاً المعارضون لما جاءت به بعقولهم وآرائهم من القرامطة (١) والباطنية (٢) والملاحدة (٣) ودعوتهم إلى العقل المجرد ، وأن أمور الرسل تعارض المعقول

---

(١) هم أتباع حمدان القرمطى الذي صار إليه أحد دعاة الباطنية ودعوا الى معتقدهم فقبل الدعوة ثم صار يدعو الناس اليها وضل بسببه خلق كثير وكان ظهورهم سنة ٢٨١ في خلافة المعتضد وغزوا مكة ودخلوها سنة ٣١٧ واقتلعوا الحجر الأسود وقتلوا المسلمين في الحرم وقد اعيد الحجر الأسود الى مكه سنة ٣٣٩ على يد أبى اسحاق ابراهيم بن محمد المزكى النيسابورى رحمه الله أنظر: إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص:١٢٢

(٢) الباطنية سمو بذلك لأنهم يقولون أن للنصوص ظاهراً وباطناً ولكل تنزيل تأويل ويدخل فيهم القرامطة والخرمية والمزوكية والاسماعيلية والنصيرية والدروز وهم يعتقدون أن الاله لا يوصف بوجود ولا عدم ولا معلوم ولا مجهول واتفقوا على انكار القيامة والنقول عنهم الاباحة المطلقه ورفع الحجاب واستباحة المحضورات وانكار الشرائع وهم ينكرون ذلك اذا نسب اليهم ، انظر الملل والنحل للشهرستاني ٢٩/٢، ٣٢ اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص: ١١٩

(٣) الملاحدة جمع ملحد ولحد في الدين العادل عن الحق المدخل فيه ما ليس فيه وحاد عنه ومعنى الالحاد في اللغه الميل عن المقصد ويلحدون يعترضون والالحاد الشك في الله انظر لسان العرب ٣٨٩/٣ مادة لحد .

فهم القائمون بهذه الطريقة حق القيام بالقول والفعل ، فجرى على الإسلام وأهله منهم ما جرى وكسروا عسكر الخليفة مرارا وقتلوا الحاج قتلا ذريعا وانتهكوا حرمة مكة ، وقلعوا الحجر الأسود واستفحل أمرهم وعظمة بهم الرزية واشتدّت بهم البلية وأصل طريقتهم أن الذي أخبرت به الرسل قد عارضه العقل ، وإذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل ، وفي زمانهم استولى الكفار على كثير من بلاد الإسلام في الشرق والغرب وكاد الإسلام أن ينهد ركنه بعد أن استولى أهلها على كثير من البلاد وبناء مدينة القاهره وإقامتهم على هذه الدعوة مصرحين بها هم وولاتهم وقضاتهم وأتباعهم وصنف في زمانهم رسائل أخوان الصفا ، والإرشادات ، والشفا ، وكتب ابن سينا (١) فانه قال : كان أبي من أهل الدعوة الحاكمية .

وعطلت في زمانهم السنه والآثار جملة إلا في الخفية بحيث يكون قارؤها وذاكرها وكاتبها على أعظم خطر ، فأهل السنة فيهم كأهل الذمة بين المسلمين ، بل كان لأهل الذمة من الأمان والجاه والعز عندهم ما لا يصل إليه أحد من أهل السنة ولا يطمع فيه .

حتى استنقذ الله الأمة والملة من أيديهم في أيام نور الدين (٢) وابن أخيه صلاح الدين (٣) فأبل الإسلام من علته بعدما وطن المسلمون أنفسهم على العراء وانتعش بعد طول خمول ، وعلت كلمة الإسلام والسنه وأذن بها على رؤس الأشهاد واستنقذ بيت المقدس من عبدة الصليب ونادى المنادى ياعباد الله لا تنكلوا عن

---

(١) هو علي بن ابي علي بن محمد بن سالم التغلبي الفقيد الاصولي الملقب بسيف الدين الآمدي ولد سنة ٥٥١ ونسبته الى آمد وهي مدينة كبيره في ديار بكر مجاورة لبلاد الروم صنف مصنفات كثيرة منها : ابكار الافكار في علم الكلام ورموز الكنوز ومنتهى السؤال في علم الاصول ، انظر : وفيات الاعيان ٣/٢٩٣،٢٩٤

(٢) نور الدين هو محمد بن زنكي بن اقسنقر ابو القاسم الملقب بالملك العادل ولد سنة ٥١١ في حلب وهو اعدل ملوك زمانه وأجلهم كان مداوما على الجهاد يباشر القتال بنفسه وكان من المماليك جده من موالي السلجوقيين توفي في قلعة دمشق سنة ٥٦٩ رحمه الله ، انظر : البداية والنهاية ١٢/٢٩٤،٢٩٥، الاعلام ٧/١٧٠

(٣) صلاح الدين : هو يوسف بن أيوب بن شادى أبو المظفر صلاح الدين الايوبي الملقب بالملك الناصر من اشهر ملوك الاسلام ولد سنة ٥٣٢ بتكريت كان قائداً مظفراً وملكاً مهيباً اهتم بدفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام حتى اجلاهم من البلاد الاسلامية وتوفي سنة ٥٨٩هـ ، انظر : البداية والنهاية ١٣/٤٠٣ الاعلام ٨/٢٢٠

الجهـاد فإنـه أبلـغ الـزاد ليـوم المعـاد فعـاش النـاس فـي ذلـك النـور مـدة حتـى استـولـت الظلمـة علـى بـلاد المشـرق وطفـئ نـور النبـوة والوحـي وقدمـوا العقـول والآراء والسياسـة والأذواق علـى الوحـي ، فظهـرت فيهـم الفلسفـة والمنطـق وتوابعهـا فبعث اللـه عليهـم عبـادا أُولي بـأس شـديـد فجـاسـو خـلال الديـار وعاثـوا فـي القـرى والأمصـار وكـاد الإسـلام أن يذهـب أسمـه وينمحـي رسمـه ، وعالـم هـذه الفرقـه الـذي يرجعـون إليه وزعيمهـم شيـخ شيـوخ المعارضيـن بيـن الوحـى والعقـل وإمامهـم فـي وقتـه نصـير الكفـر والشـرك الطـوسـي (١) فـرام إبطـال السمـع بالكليـة وإقـامـة الدعـوة الفلسفيـة وجعـل الإشـارات بـدلاً عـن السـور والآيـات ، وقـال هـذه عقليـات قطعيـة برهانيـة قـد عـارضـت تلـك النقليـات الخطـابيـة واستعـرض أهـل القـرآن والسنـة علـى السيـف فلـم يبـق منهـم إلا مـن أعجـزه قصـدا ، لإبطـال الدعـوة الإسـلاميـة ، وجعـل مـدارس المسلمين وأوقافهم للنجسـه السحـرة والمنجميـن والفـلاسفـة والملاحـدة والمنطقييـن ورام أبطـال الآذان وتحويل الصـلاة إلـى القطـب الشمالـي فحـال بينـه وبيـن ذلـك مـن تكفـل بحفظ الإسـلام ونصـره وهـذا كلـه مـن ثمـرة المعارضيـن بيـن الوحـي والعقـل وتقديـم العقـل علـى السمـع ولتكـن قصـة شيـخ هـؤلاء القـديم منـك علـى ذكـر كـل وقـت فـإنـه أول مـن عارض بيـن العقـل والنقـل ، وورّث هـذا الشيـخ تـلامذتـه هـذه المعارضـة فلـم يزل يجـرى علـى الأنبيـاء واتباعهـم منهـا كـل محنـة وبليـة ، وأصـل كـل بليـة فـي العالـم كمـا قـال محمـد الشهـرستانـي - مـن معـارضـة النـص بالرأي وتقديـم الهـوى علـى الشـرع ، ثـم أنـه خـرج مـع هـذا الشيـخ المتأخـر أشياء لم تكن تعرف قبله جست (٢) العميـدى (٣)

---

(١) هو ابو جعفـر محمـد بن محمـد بن الحسين نصـير الدين الطوسي ، فيلسوف كان رأسـا في العلوم العقليـة ، علامـة بالارصـاد والمجسطـى والرياضيات علـت منزلتـه عنـد هولاكو فكان يطيعـه بما يشـير بـه عليـه وهو الـذي حرضـه علـى غـزو بغـداد وقتل الخليفـة العباسي المعتصم باللـه وجميع أفراد اسـرتـه كان عنـده خـزانة كتـب هائلـة صنف فـي علم الكلام وشرح الاشـارات لابـن سينـا توفـى بغـداد سنـة ٦٧٢هـ أنظـر : عماد الدين اسماعيل أبو الفداء المختصر في أخبار البشـر ٢٢٣/٢ ط ١٢٨٥هـ المطبعـة الوهبيـه بالقاهره ، والحافـظ ابن كثير البدايـه والنهايـه ٢٦٧/١٣ والمقريزى السلوك لمعرفـة دول الملـوك نشـر محمـد مصطفـى زيـاده الجزء الأول القسـم الثاني ص ٦١٤ ط ١٩٣٦م دار الكتـب المصريـه .

(٢) جست كلمـة فارسيـة معناها البحث وقـد اصبحـت تطلـق على نـوع مـن أنواع الخـلاف وقـد تظم الجيـم ، انظر : هامش وفيات الاعيان ٢٥٧/٤ تحقيق احسان عبـاس .

(٣) هو محمد بن محمـد بن محمـد العميـدى السمرقندى ابو حامـد كان اماما في فن الخـلاف والجدل وخصوصا الجسـت وهو أول مـن أفـرده بالتصنيـف وصنـف فـي هـذا الفن طريقد مشهورة بايدى الفقهـاء وهي الطريقـة العميديـه ولـه ايضـا النفائـس والارشـاد ، توفـى ببخـارى سنـة ٦١٥ ، انظر : وفيات الاعيان ص ٢٥٧٤ ، الاعلام ٢٨/٧

وحقائق ابن عربي (١) وتشكيكات الرازى (٢) وقام سوق الفلسفة والمنطق وعلوم أعداء الرسل حتى فرحوا وصارت الدولة والدعوة لأرباب العلوم .

ثم نظر الله لعباده وانتصر لكتابه ودينه ، وأقام جنداً تغزوا ملوك هؤلاء بالسيف والسنان وجنوداً تغزوا علماءهم بالحجة والبرهان ، ثم نبغت نابغة منهم في رأس القرن الثامن فأقام الله لدينه شيخ الإسلام أبى العباس أحمد بن تيمية -قدس الله روحه-فأقام على غزوهم مدة حياته باليد والقلب واللسان وكشف للناس باطلهم وبين تلبيسهم وتدليسهم وقابلهم بصريح المعقول وصحيح المنقول وشفى واستشفى وبين مناقضتهم ومفارقتهم لحكم العقل الذي به يدلون وإليه يدعُون وأنهم أترك الناس لأحكامه وقضاياه فلا وحى ولا عقل فأرداهم في حفرهم ورشقهم بسهامهم وبين أن صحيح معقولاتهم خدم لنصوص الأنبياء شاهد لها بالصحة (٣) .

لقد طوى ابن القيم في هذا النص لنا السنين وبين لنا الفرق المنتسبة إلى الإسلام وقسم إفتراقهم إلى مراحل تتابعت كل مرحلة تزيد عن سابقتها جرأة وبعداً عن الحق .

فالمرحلة الأولى : وهي ما حصل من الفرقة في عصر أواخر الصحابة بعد فتنة عبدالله بن سبأ وظهور الشيعة والخوارج والقدرية والمرجئة وهم في نظره -رحمه الله-في تلك المرحلة أقرب إلى الحق ممن يليهم وذلك أن عندهم-مع بعدهم عن الحق-تعظيماً للنصوص وإستدلالاً بها وتقديماً لها على العقول والآراء .

كما أنه يرى أنهم في هذه المرحلة انحرفوا عن الحق بسبب سوء الفهم وخروجاً عن التقليد وفي هذه المرحلة كان الإسلام في منعة وقوة لوجود القرون المفضلة التي إستطاعت بفضل الله محاربتهم بشتى الوسائل حتى انطفأت بدعتهم

---

(١) ابن عربى : هو محمد بن على بن محمد بن عربي أبو بكر الحاتمي، الطائي الأندلسي المعروف بمحي الدين بن عربى ولد سنة ٥٦٠هـ من القائلين بوحدة الوجود له كتب منها الفتوحات المكية وفصوص الحكم والتعريفات وديوان شعر توفى في دمشق سنة ٦٣٨هـ .
انظر : ميزان الاعتدال للذهبي ط دار المعارف بيروت توزيع الرئاسة العامة للافتاء .

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسن الحسين التميمي البكري أبو عبدالله فخر الدين الرازى يقال له ابن خطيب الري ولد في الرى سنة ٥٤٤ من كتبه مفتاح الغيب تفسير القرآن الكريم ٨ مجلدات ومعالم اصول الدين واساس التقديس وغيرها ، توفى في هراه سنة ٦٠٦هـ ، انظر : البداية والنهاية ٥٣/١٣ ، ٥٤ ، الاعلام ٣١٣/٦

(٣) الصواعق المرسله بتصرف قليل : ١٠٦٩/٣ الى ١٠٨٠

وظهر الحق وكان الناس عنقاً واحداً في مسائل العقيدة ، وإن كان ما يزال لهم أثر في نفوس أهل الاهواء .

المرحلة الثانيه :

وهي أوائل المائة الثالثة وذلك في عصر عبدالله المأمون الذي عرّب كتب اليونان ، بعد غلبة جماعة الجهميه عليه وعلى رأسهم بشر المريسي(١) الذين أظلوا المأمون وحشوا بدعتهم في قلبه وعقله حتى دعا الناس إليها وعاقبهم على تركها وحمل الناس على إعتناقها حتى إنتشرت بدعة التجهم في الأمصار.

ولكن الله ثبّت أقواماً من أهل السنة على الإيمان فنافحوا عنها مع شدة البلاء والأذى وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل حتى قمع الله تلك البدعه .

ومع غلبت هؤلاء الجهمية لم يكونوا يتجاسرون على إلغاء النصوص مع دندنتهم حولها لأن الاسلام في ظهور وقوة وسوق الحديث نافقة ورؤس السنة على وجه الأرض.(٢)

المرحلة الثالثه :

وهي أمرٌّ وأنكى من المراحل السابقة وهذه المرحلة تبدأ تقريباً في أوائل القرن الرابع وأواخر الثالث وذلك عندما تمكن القرامطة وأصبحت لهم دولة وأفسدوا في الأرض وانتهكوا حرمات المسلمين وناصروا الدعوات الباطلة كدعوة المهدى الذي ظهر بالمغرب وهو جد الفاطميين الذين نشروا الباطنية والإلحاد والفلسفة وألغوا النصوص فجرى على أهل السنه منهم كل بلاء كما شرح ذلك ابن القيم رحمه الله في النص السابق حتى إستنقذ الله الأمه على يد نور الدين وصلاح الدين ثم إنتعش أهل السنه قليلاً ثم إنتكست الأمور بعد ذلك حتى جاء شيخ الاسلام ابن تيمية الذي اتخذ منهجاً خاصاً في محاربة هؤلاء المبتدعة والإنتصار لأهل السنه .

---

(١) ابو عبدالرحمن بشر بن غياث المريسي ، فقيه معتزلي عارف بالفلسفه يرمى بالزندقة وهو رأس الطائفة المريسيه القائلة بالارجاء كان قصيراً دميم المنظر ، وسخ الثياب ، وافر الشعر كبير الرأس والاذنين توفى سنة ٢١٨هـ .
انظر : ابو منصور عبدالقاهر البغدادي : الفرق بين الفرق بعناية : محمد بدر ص ١٩٢ ، ط ١٩٢٨م مطبعة المعارف القاهره ، وانظر وفيات الأعيان ٩١/١ ، والنجوم الزاهره ٢٢٨/٢ ، الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ٥٦/٧ دار الكتب العلمية بيروت .

(٢) في هذه المرحلة كان رؤس السنه على وجه الارض وهم الامام أحمد بن حنبل والبخارى ومسلم وابى زرعة وابن ماجه وابو داود والترمذي وابن ابى الدنيا وغيرهم من أئمة الحديث أمثال يحيى بن معين ، وعلى بن المديني وغيرهم رحمهم الله جميعاً .

اسبـــاب افـتراق الفـرق كمـا يراهـا ابـن القيـــم :

كمـا أن ابـن القيـم بيـن فـي هـذا النـص أن هـذه الفـرق التي تشكلـت وانحرفـــت عـن الجـادة الصحيحـة كـان لـه أسبـابـه الجـوهـريـة التي فتحـت الطريـق أمـام هـــذه الفـرق فـي الظهـــور علـى السـاحـه وتكـون كيـان لهـاء وهـــذه الأسبـــاب كمـا يراهـــا ابـن القيـــم هـــي :

أولاً : الإبتعـاد عـن الكتـاب والسنـه كمـا ركـز علـى ذلـك ابـن القيـم فكلمـــا كـان هجـر الوحـي أكـثر كـل ما كانـت الفرقـة أبعـد عـن الإسـلام وأهلـه كمـا فعـــل الباطنيـة الملاحـدة فـي دعوتهـم إلـى العقـل المجـرد وأن أمـور الرسـل تعارض المعقـــول وإذا تعارض العقـل والنقـل قـــدم العقـــل .

وكما نقـل قـول الشهرستانـي فـي أن أصـل كـل بليـة فـي العالـم هـي من معارضـة النـص بالرأى وتقـديـم الهـوى علـى الشـرع ، بـل يـرى رحمـه اللـه أن البعـد عن الوحـى واتبـاع علـوم المعطلـة مـن فـلاسفـة وغـيرهـم هـدم الأديـان السابقة كما بين ذلك بقوله:

إستمـر الأمـر علـى عهـد موسـى كليـم الرحمـن علـى التوحيـد وإثبات الصفات وتكليم اللـه لعبـده موسـى إلـى أن توفـى عليـه السـلام ، ودخـل الداخـل علـى بني إسرائيـــل ورفـع التعطيـل رأسـه بينهـم وأقبلـوا علـى علـوم المعطلـة وقدمـوهـا على نصـوص التـوراة فسلـط اللـه عليهـم مـن أزال ملكهـم وشـردهـم مـن أوطـانهـم كمـا هـي سنـة الله فيمـن أعـرض عـن وحيـه وتعوضـه بكـلام الملاحـدة ، كمـا سلـط اللـه النصارى علـى بـــلاد المغـرب لما ظهـرت فيهـا الفلسفـه والمنطـق ، وكذلـك لما ظهـر ذلـك في بـلاد المشـرق وسلـط اللـه عليهـم عسـاكـر التتـار فـأبـادوا أكثـر البـلاد الشرقيـه وكذلـك فـي أواخـر المائـة الثالثـة لمـا أشتغـل أهـل العراق بالفلسفـة وعلـوم أهـل الإلحاد سلـط عليهـــم القـرامطـة الباطنيـــة فكسروا عسكـر الخليفـه عـــدت مـرات (١) .

كمـا بيـن ابـن القيـم أن أصـل الخـلاف بيـن أهـل السنـة وأهـل البدعـة هـــو البعـد عن الوحـى حيـث يقـول فـي قصيدتـه النـونيـه :ـ

ياقـوم تـدرون العداوة بيننـــا	* * * من أجـل ماذا فـي قـديم الزمـان
إنا تحيـزنـا إلـى القرآن والنقـل	* * * الصحيح مفســـــــر القـرآن
وكذا إلى العقـل الصريـح وفطـرة	* * * الرحمـن قبـل تغـير الانســان
واللـه ما اجتمعـت لديكـم هـذه	* * * أبـدا كمـا أقـررتـم بلســان (٢)

---

(١) انظـر اغاثـة اللهفـان : ٢٦٩/٢

(٢) النونيـه : ١٨٣/٢

ثانياً : سوء الفهم للكتاب والسنة ، والإستبداد بالرأى ، وظن الكفاءة في النفس وترك منهج السابقين مما أدى إلى إنحرافهم كما حدث من الخوارج فإن سبب بدعتهم الجهل وسوء الفهم لكتاب الله وسنة رسوله .

ثالثاً : مناصرة الولاة لهذه الفرق وإجبار الرعية على إعتناق ما يرونه فإن ذلك فتح المجال للمغرضين وأصحاب الأهواء بإظهار ما يبطنونه بلا خوف وهذا ما حدث من المأمون والمعتصم والواثق حيث ظهرت المبتدعة وتحكمت في رقاب الناس .

رابعاً : الحقد على الإسلام ومحاولة إبطاله والتشكيك فيه وإفساده بالمكائد والإنتساب إلى الإسلام وهو منهم براء ، فأظهروا الإسلام وأبطنوا الكفر واجتهدوا في هدم الإسلام والفتك بالمسلمين وهذا ما حدث من عبدالله بن سبأ وأمثاله فأكثر هذه الفرق كان لمؤسسيها نصيباً من الحقد على الإسلام وإخراج بدعهم لتضليل العامه ، وإحياءً لما في نفوس البعض من كدر الجاهلية لموافقته ما يخالج نفوسهم .

خامساً : إتباع الهوى والشهوات ولا يمكنهم تنفيذ هذا إلا بإدخال العقائد الفاسده في هذا الدين القويم حتى يتمكنوا من مطلبهم ، وهؤلاء كبعض المتصوفة المتحللين والشعراء الماجنين وأمثالهم كثير .

المنهج الذي ارتضاه ابن القيم وسار عليه :

المطلع على ما كتبه ابن القيم في المسائل الإعتقاديه يجد أن له منهجاً مميزاً في هذا الباب فيجد أنه ناصرَ قوماً وأيدهم ، وذكر أُصول أقوالهم بالدليل العقلي والنقلي وجادل قوما ورد عليهم بعد أن بين أصول أقوالهم وفسادها من وجه الشرع والعقل واللغه وهذا يدلّ على مدى ثقافته وإطلاعه الواسع على تلك المذاهب .

والمهم أن جمع هذا الكم من المعرفة لم يكن لمجرد الثقافة أو لبيان المقدرة على الرد والجدل بل كان بحث مريض يتحرى العلاج في كل ما أصابه فهو باحثاً عن الحق طالباً له ليروى نهم نفسه وحيرتها وهذا ما بينه في قصيدته النونيه وهو ينصح الأمة بقوله :

ياطالب الحق المبين ومؤثراً * * * علم اليقين وحجة الايمان
إسمع مقالة ناصح خبر الذي * * * عند الورى قد شبّ حتى الآن
مازال مذ عقدت يداه إزاره * * * قد شدّ مئزره إلى الرحمن
وتخلل الفترات للعزمات أمر * * * ملازم لطبيعة الإنسان
طاف المذاهب يبتغي نوراً * * * ليهديه وينجيه من النيران

وكأنه قد طاف يبتغي ظلمة * * * الليل البهيم ومذهب الحيران(١)

ويقول في موضع آخر :

ياقوم والله العظيم نصيحة * * * من مشفق وأخ لكم معوان

جربت هذا كله ووقعت في * * * تلك الشباك وكنت ذا طيران

حتى أتاح لي الإله بفضله * * * من ليس تجزية يدى ولساني(٢)

فهذا صوت ابن القيم وهو ينصح القوم الذين لم يهتدوا إلى طريق الرشاد يبين لهم حاله وكيف أنه كان طوافا يسعى بين الناس يبتغي الهداية والنور لينجوا من عذاب الله ولكنه كلما طلب النور من أحد وقع في ظلمة تزيد من حيرته وشقائه فمثله في تنقله بين هذه المذاهب المنحرفه كمثل المستجير من الرمضاء بالنار .

فالفرق التي كانت تهيمن على الناس في عصره سواء كانوا جهمية أو فلاسفة أو متكلمين وغيرهم يتطاحنون فيما بينهم وقد وصفهم ابن القيم بقوله :

وأما إذا نظرت إلى أهل البدع رأيتهم متفرقين مختلفين شيعا وأحزابا، لا تكاد تجد إثنين منهم على طريقة واحدة في الإعتقاد ، يبدع بعضهم بعضا ، بل يرتقون إلى التكفير ، يكفر الإبن أباه ، والأخ أخاه ، والجار جاره وتراهم أبدا في تنازع وتباغض وإختلاف ، تنقض أعمارهم ولم تتفق كلماتهم ((تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون))(٣) أوماسمعت بأن المعتزله مع إجتماعهم في هذا اللون يكفر البغداديون منهم البصريين ، والبصريون البغداديين ، ويكفر أصحاب أبي على الجبائي (٤) وإبنه - أبا هاشم (٥) وأصحابه وكذلك سائر رؤسهم

---

(١) القصيده النونيه : ٢٣٩/٢

(٢) نفس المرجع : ٣٦١/١

(٣) الايه من سورة الحشر : ١٤

(٤) ابو على محمد بن عبدالوهاب بن سلام الجبائى ، من ائمة المعتزله ورئيس علماء الكلام في عصره، واليه نسبة الطائفية الجبائيه، وهو الذى أغوى أهل خوزستان وله من البدع الفاحشة مالا يحصى مات سنة ٣٠٣هـ ومن مصنفاته نحو اربعين الف ورقة في علم الكلام وتفسير في مائة جزء ، أنظر : الفرق بين الفرق : ١٦٧ ، والشهرستاني في الملل والنحل ٧٣/١-٧٨ ، ط ١٣٧٥هـ مكتبة الانجلو المصريه القاهره ، وانظر الامام ابو المظفر الاسفرائيني التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الهالكين ، تحقيق وتخريج الشيخ محمد زاهد بن الحسن الكوثري ص ٥٢ ط الاولى ١٩٤٠م نشر عزت العطار الحسيني مكتبة الثقافه الاسلاميه القاهره ، وانظر زهدى حسن جارالله : المعتزلة ص : ١٤٩ ط١٣٦٦هـ منشورات النادى العربي في يافا مطبعة مصر ، القاهره .

(٥) أبو هاشم عبدالسلام بن محمد بن عبدالوهاب الجبائي ، عالم بالكلام ، له آراء انفرد بها ، وتبعه فرقة سميت " البهشمية " نسبة الى كنيته " ابى هاشم " مات سنة==

وأصحاب المقالات منهم إذا تدبرت أقوالهم وكذلك الخوارج والروافض فيما بينهم وسائر المبتدعه كذلك (١) .

كل ذلك وابن القيم رحمه الله يتجول في هذه المدارس المتحيرة يبتغي إرواء نفسه وإبعاد عللة التي تراكمت عليه من الشك والحيرة وعدم الطمأنينه والراحه .

حتى أراد الباري جل وعلا أن يزيح ما ران على قلبه فأرسل له سبحانه هادى الإرشاد بعد التوفيق وهو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية الذى قدم إلى دمشق عام ٧١٢هـ بعد غياب سبع سنين عنها وابن القيم يتلمس النور في هذه الظلمات ، وما لبث شيخ الاسلام أن إستقر بها حتى أخذ يمارس واجبه الذي فرضه عليه بارؤ ه فاشتغل بسائر العلوم ونشر العلم وصنف الكتب وأفتى الناس بالكلام والكتابة والإجتهاد في الأحكام الشرعيه بما أدى إليه إجتهاده بموافقة الأئمة وبخلافهم تارة اخرى (٢) فملأ الأسماع وصار حديث أهل الإسلام في كل مكان بما آتاه الله من المواهب النادره والتفنن في علوم الإسلام ، فسمع به ابن القيم واتصل به ، وكان شيخ الإسلام قائد المدرسة السلفيه في ذلك العصر ومجدد بنائها ، فسمع منه ابن القيم وعايش هذا الإتجاه الفكرى الإنقلابى على التقليد والطائفيه والمذاهب الكلامية ، والتخبطات العقائديه رجوعاً بالأمة الى ما كان عليه السلف الصالح وردا لكل نزاع في ذلك إلى الله ورسوله .

كل ذلك لابدّ أن يكون له في نفوس المتعلمين الأثر الكبير ، وابن القيم يعيش في مرحلة الطلب ولديه من الهمة والعلم والذكاء والألمعية ما يؤهله لإدراك حسن هذا المنهج وأنه الطريق الوحيد لإزاحة ما ران على قلبه من الحيرة والتخبط وأن ذلك هو الطريق السوى والمشرع الروى ، فما كان لابن القيم أن ينفلت عن هذا الخير المرسل بل تعلق بالشيخ وثنى ركبتيه في حلقات درسه ينهل من معارفه وعلومه ، ودامت هذه الملازمه ستة عشر عاماً وهي مدة حياة الشيخ بعد عودته إلى أن توفى رحمه الله واسكنه فسيح جناته .

فصار لهذه الصحبة والملازمه الأثر البالغ على ابن القيم في تكوين إتجاهه الجديد وتغذية مواهبه وإشباع نهمته بعلوم الكتاب والسنه والرد إلى الله ورسوله .

== ٣٢١هـ من مصنفاته الشامل ، وتذكرة العالم ، انظر التبصره في الدين ص ٥٣ ، الفرق بين الفرق ص ١٦٩ وفيات الأعيان ٢٩٢/١ ، تاريخ بغداد : ٥٥/١١ ، الملل والنحل ٧٣/١-٧٨ .

(١) مختصر الصواعق المرسله : ٥١٨

(٢) انظر البداية والنهايه : ٦٧/١٤

حتى صار أبرز تلاميذ شيخ الإسلام فلا يكاد يذكر إسم الشيخ إلا ويذكر تلميذه وسرى نور هذين المعلمين في المعمورة بسعة العلم وأصالة الفكر والتجديد ودعوة الناس إلى الصراط المستقيم (١) .

لقد أثر شيخ الاسلام بابن القيم فكان سبب هدايته بعد أن كان حائراً فلذلك يقول عنه :

حبر أتى من أرض حران فيا * * * أهلا بمن قد جاء من حران

فالله يجزيه الذى هو أهله * * * من جنة المأوى مع الرضوان

أخذت يداه يدي وسار قلم يرم * * * حتى أرانى مطلع الإيمان (٢)

بل يرى رحمه الله أن شيخه هو الذى نصر الكتاب والسنة ورفع رؤس أهل السنة بعد أن كانوا أذلاء يتوارون عن القوم ، وقد حاربهم بسلاحهم الذى يتطاولون به على أهل السنه وهو سلاح العقل والمنطق فقال :

نصر الإله ودينه وكتابه * * * ورسوله بالسيف والبرهان

أبدى فضائحهم وبين جهلهم * * * وأرى تناقضهم بكل زمان

وأصارهم تحت الحضيض وطالما * * * كانو هم الأعلام للبلدان

ومن العجائب أنه بسلاحهم * * * أرداهم تحت الحضيض الدان

كانت نواصينا بأيديهم فما * * * منّالهم إلا أسير عان

فغدت نواصيهم بأيدينا فما * * * يلقوننا إلا بحبل أمان

وأتت جنودهم التي صالوا بها * * * منقادة لعساكر الإيمان (٣)

وبعد وفاة هذا الشيخ الجليل نذر نفسه أن يسير في الدعوة على منهجه وطريقته ونصره لمذهب السلف الصالح ثم أعلن منهجه في الدعوة إلى الإعتقاد فأعلن العهود والمواثيق بينه وبين ربه على غزو كل ضال مضل بكل ما أوتى من وسائل فقال :

لأ جاهدن عداك ما أبقيتني * * * ولأ جعلن قتالهم ديداني

ولا فضحنهم على رؤس الملا * * * ولأ فرين أديهم بلساني

ولأ كشفن سرائراً خفيت على * * * ضعفاء خلقك منهم ببياني

ولأ حملن عليهم بعساكر * * * ليست تفر إذا التقى الزحفاني

---

(١) انظر ابن قيم الجوزية حياته وآثاره بتصرف : ٧٨

(٢) القصيده النونيه : ١/٣٦١

(٣) نفس المرجع : ١٦٣/٢

بعساكـــر الوحيين والفطـــــرات * * * والمعقـول والمنقـول بالإحســـان

حتى يبين لمن له عقل من الأولـى * * * بحكـم العقـل والـبرهـــــان (١)

لقـد أتـم رحمـه اللـه تعالـى عهـده مـع ربـه فجمـع الجيـوش الإسـلاميـه الممثلـه في كتـاب اللـه وسنـة رسولـه صلـى اللـه عليـه وسلـم وما صـح من أقـوال سلـف هـذه الأمـه وما عقلـه العقـل وما فطـر عليـه الخلـق فغـزا بهـا المعطلـة والجهميـة وغيرهـم من المبتدعـه، فأنزلها صواعـق علـى رؤسهـــم وفضـح سـرائرهـم التي خفيـت علـى ضعفـاء العقول وبيـن مواطـــن الشـك والريـب الـذي مـلأ قلـوبهـم حتـى حكـم أهـل العقـل والبرهـان بهزيمـة المبتدعـة ولإنتصـار جنـد اللـه ، وهـذا التقديـم لحيـاة ابـن القيـم وكيفيـة تنقلـه بيـن حلقـات العلم علـى تنوعهـا حتى وصولـه إلـى حلقـة شيـخ الإسـلام لـه عـلاقـة قويـة بتكويـن منهجـه الـذي سـار عليـه فـي دعـوتـه إلـى الأمـور الإعتقـاديـة بعـد أن عرف خبـايـا الإنحـراف وأسبابهـا وعـرف الحبـل المتيـن الـذي يمكـن للعبـد أن يشتـد بـه فهـو سبيلـه إلى النجاة لا غـير ، فكانـت أصـولـه فـي الدعـوة إلـى التوحيـد ثـلاث أصـول : .

الأصـل الأول : الإعتمـاد علـى أدلـة الكتـاب والسنـــه .

الأصـل الثاني : كشـف الستار عـن مذهـب السلـف وبيـان حسنـه وراحـة النفـس اليـه وقوتـه وبيـان أنـه الأصـوب مـع عـدم الإختـلاف والإضطـراب فيـه والدفـاع عنـد .

الأصـل الثالث : فضـح سـرائـر المبتدعـة والـرد عليهـم وبيـان مذهبهـم بالمنقـول والمعقـول .

وسـوف يكـون الحديـث عـن هـذه الأصـول مـع إيضـاح منهـج ابـن القيـم الذى نهجه من أجـل النهـوض بهـذه الأمـه وتبصـيرهـا فيمـا هـو مـن أهـم مقـومـات حياتهـا في الدنيا والآخـــــــــره .

أولاً : الإعتمـاد علـى الأدلـة مـن الكتـاب والسنـــه (٢)

من أعظـم ما مـيز مدرســة السلـف عـن غيرهـا إعتمادهـم علـى الكتـاب والسنـــــه وعـدم النظـر إلـى غـيرهـا إذا وجـد النـص لأن اللـه سبحانـه بيـن فيهمـا كـل شـــيء تحتـاجـه البشريـة فـي دنيـاهـا وآخرتهـا ووصفهـا بأنهـا روح وشفـاء لمـا فـي الصـدور قـال ابـن القيـم عنـد قولـه تعالى ((فإن تنازعتم في شيء فـردوه إلى اللهوالرسـول))(٣): نكـرة فـي سيـاق الشـرط تعـم كـل ما تنـازع فيـه المؤمنـون من مسـائـل الدين دقـه

---

(١) القصيـده النونيـه : ٤٢٩/١

(٢) راجـع ما سبـق ص : ١٣١ ومايأتي ص ٢٩٨

(٣) الايـة مـن سـورة النسـاء : ٥٩

وجلـــه ، جليلـــه وخفيـــه ولـــو لـــم يكـــن فـــي كتـــاب اللـــه وسنـــة رسـولـــه بيـــان حكـــــم ما تنـــازعـــوا فيـــه ولـــم يكـــن كـــافيـــا لـــم يـــأمـــر بـالـــرد إليـــه إذ مـــن الممتنـــع أن يـــأمـــــر تعالـــى بالـــرد عنـــد النـــزاع إلـــى مـــن لا يـــوجـــد عنـــده فصـــل النـــزاع .

ومنهـا أن النـاس أجمعـوا أن الـرد إلـى اللـه سبحانـه هـو الـرد إلـى كتابـه ، والرد إلـى الرسـول صلـى اللـه عليـه وسلـم هـو الـرد إليـه نفسـه فـي حياتـه وإلى سنتـه بعـد وفـاتـــــــه (١) .

ويقـول عمّـا جاء بـه المصطفـى صلـى اللـه عليـه وسلـم : فـلا روح إلا فيما جـــاء بـه ولا نـــور إلا فـي الإستضـاءة بـه فهـو الحيـاة والنـور والعصمـة والشفـاء والنجاة والأمـن ولا يقبـل اللـه مـن أحـــد دينـا يديـن بـه إلا أن يكـون موافقـا لـدينـــه (٢) .

وقـد بيـن رحمـه اللـه أنـه لا يستقـر للعبـد قـدم فـي الإسـلام حتـى يعقـد قلبـه وسـره ، علـى أن الديـن كلـه للـه لا رب ســواه ، ولا متبـوع غـيره ، وأن كـلام غـــيره يعـرض علـى كـلامـه فـإن وافقـه قبلنـاه لا لأنـه قـالـه بـل لأنـه أخبر بـه عـن اللـــــه ورسـولـه وإن خالفـه رددنـاه وطـرحنـاه ، ولا يعـرض كـلامـه صلـوات اللـه وسـلامـه عليـه علـى آراء القياسيـن ولا عقـول الفـلاسفـة والمتكلميـن ولا علـى سيـاسـة الحاكمين والسلاطين ولا ذواق المتزهـده والمتعبـده بـل تعـرض هـذه كلهـا علـى مـا جـاء بـه عـرض الدراهـــم المجهـول حاملهـا علـى أخـبر الناقـديـن فمـا حكـم بصحتـه منهـا فهـو المقبـول وما حكـم بـرده فهـو المـردود (٣) .

ومـن هـذه النّصـوص يتبيـن لنـا مـدى تعظيـم ابـن القيـم لنصـوص الكتـاب والسنـــه وتمسكـه بهـا وعـدم الميـل عنهـا بـل إنـه شـن حملـة شـديـدة هـو وشيخـه ابن تيميـــــة فـي كتابيهمـا الصـواعـق المرسلـة الـذى إعتمـد فيـه علـى كتـاب شيخـه درء تعارض العقـل والنقـــل ، علـى الذيـن يـدّعـون أن النقـل يخالـف العقـل فـردوا عليهـم من جميـــــع الـوجـوه وكسـروا هـذا الطاغـوت كمـا سمـاه ابـن القيـم رحمـه اللـه وأثبتـوا بـأن العقـــل لا يمكـن أن يخالـف النقـل بحـال مـن الأحـوال فمـن أراد أن يشفـى غليلـه فـي هـــذه المسـألـة فـلـيـرجـع إلـى هذيـن الكتابيـن ، والمراد أنـه لا يرى الحـق فيما خالفهمـــا البتـة فهمـا مقدمـان علـى كـل قـول مـن أى قـائـل،أمـا مـن قـدم قـول غيرهمـا عليهمـا فماذا يقـول عنـه ابـن القيـــم ؟ ، قـــال :

فمـن تعارض عنـده حقائـق ما جاء بـه وآراء الرجال فقـدمها عليـه أو توقـف فيـــــه

---

(١) اعـــلام الموقعيـــن : ٤٩/١

(٢) انظـر الصـواعـق المرسلـــه : ١٥٢/١

(٣) الصـواعـق المرسلـــه : ٣٠٨/١

أو قدحت في كمال معرفته أو إيمانه به لم يكن من الذين شهد الله لهم بالعلم ولا يجوز أن يسمى بأنه من أهل العلم (١) ومن إنتفت عنه هذه الصفه فهو على ضدها أي أنه من أهل الجهل ومن كان بهذه المثابة فلا يجوز لأحد أن يقتدى به أو يأخذ قوله .

وقال عن أهل السنه ومنهجهم في العلم والمعرفة أنهم جعلوا الكتاب والسنه أمامهم وطلبوا الدين من قبلها وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم وآرائهم عرضوه على الكتاب والسنه فإن وجدوه موافقاً لهما قبلوه وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفقهم له وان وجدوه مخالفاً لهما تركوا ما وقع لهم وأقبلوا على الكتاب والسنه ورجعوا بالتهمة على أنفسهم فإن الكتاب والسنه لا يهديان إلا إلى الحق (٢) .

قال ابن القيم رحمه الله :

كن في أمورك كلها متمسكاً * * * بالوحي لا بِزَخَارف الهذيان

وانظر كتاب الله والسنن التي * * * جاءت عن المبعوث بالفرقان

واضرب بسيف الوحي كل معطل * * * ضرب المجاهد فوق كل بنان (٣)

ثانياً : بيان مذهب السلف بطريق العرض :

كثيراً ما نرى ابن القيم رحمه الله تعالى ينقل لنا صوراً من إعتقاد السلف وينسبه إلى إجتماع الأمة قاصداً إطلاع الأمه على نفس إعتقاد السلف فمثلاً يقول :

ما إجتمعت عليه الأمة من أمور الديانة من السنن التي خلافها بدعة وضلالة أن الله سبحانه وتعالى اسمه له الأسماء الحسنى والصفات العلى ، لم يزل بجميع صفاته وهو سبحانه موصوف بأن له علماً وقدرة وإرادة ومشيئة أحاط علماً بجميع مابدا قبل كونه وفطر الأشياء بإرادته ، وقوله : ((إنما أمره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون)) (٤) وأن كلامه صفة من صفاته ليس بمخلوق فيبيد ، ولا صفة لمخلوق فينفد ، وأن الله عز وجل كلم موسى عليه الصلاة والسلام بذاته، وأسمعه كلامه لا كلاماً قام في غيره ، وأنه يسمع ويرى ويقبض ويبسط ، وأن يديه مبسوطتان والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، وأن يديه غير نعمته في ذلك وفي قوله سبحانه :((ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي))(٥)

---

(١) الصواعق المرسله ١٥٥/١

(٢) مختصر الصواعق المرسله : ٥١٧

(٣) القصيدة النونية : ٤٩/١

(٤) سورة يس الاية : ٨٢

(٥) سورة ص الاية : ٧٥

وأنه يجيء يوم القيامة بعد أن لم يكن جائياً والملك صفاً صفاً لعرض الأمم وحسابها وعقابها وثوابها ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، وأنه يرضى ويحب التوابين ، ويسخط على من كفر به ، ويغضب ولا يقوم شيء لغضبه ، وأنه فوق سماواته على عرشه دون أرضه ، وأنه في كل مكان بعلمه ، وأن لله سبحانه كرسياً كما قال تعالى : ((وسع كرسيه السموات والأرض)) (١) وكما جاءت به الأحاديث أن الله سبحانه يضع كرسيه يوم القيامة لفصل القضاء .

وأن الله سبحانه يراه أولياؤه في المعاد بأبصارهم لا يضامون في رؤيته كما قال عز وجل في كتابه ((وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)) (٢)، وأنه يكلم عباده يوم القيامة ليس بينه وبينهم واسطة ولا ترجمان ، وأن الجنة والنار داران قد خلقتا أعدت الجنة للمؤمنين المتقين ، والنار للكافرين الجاحدين ولا يفنيان ، والإيمان بالقدر خيره وشره وكل ذلك قد قدره ربنا سبحانه وتعالى وأحصاه عِلْمَه ، وأن مقادير الأمور بيده،ومصدرها عن قضائه،تفضل على من أطاعه ، فوفقه وحبب الإيمان إليه،وزينه في قلبه،فيسره له،وشرح له صدره،ونور له قلبه، فهداه ((ومن يهدي الله فما له من مضل))(٣) وخذل من عصاه وكذبه،فأسلمه،ويسره فحجبه،وأضله ((ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً)) (٤) وكل ينتهي إلى سابق علمه لا محيص لأحد عنه ، وأن الإيمان قول باللسان وإخلاص بالقلب وعمل بالجوارح، يزيد ذلك بالطاعة،وينقص بالمعصية،نقصاً عن حقائق الكمال لا محبط للإيمان ، ولا قول إلا بعمل ، ولا قول ولا عمل إلا بنية ولا قول ولا عمل ولا نية إلا بموافقة السنه ، وأنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب وإن كان كبيراً ، ولا يحبط الإيمان غير الشرك بالله تعالى كما قال سبحانه: ((لئن أشركت ليحبطن عملك))(٥) .

وأن على العباد حفظة يكتبون أعمالهم ، وأن الخلق ميتون بآجالهم ، فأرواح أهل السعادة باقية منعمة إلى يوم القيامة ، وأرواح أهل الشقاء في سجن معذبين إلى يوم القيامة ، وأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون وأن عذاب القبر حق ، وأن المؤمنين يفتنون في قبورهم ، ويضغطون ويسئلون ، ويثبت الله منطق

---

(١) سورة البقره الاية : ٢٥٥
(٢) سورة القيامه الاية : ٢٢ - ٢٣
(٣) سورة الزمر الاية : ٣٧
(٤) سورة الكهف الاية : ٣٧
(٥) سورة الزمر الاية : ٦٥

من أحب تثبيته ، وأنه ينفخ في الصور فيصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله ، ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون كما بدأهم يعودون حفاة عراة غزلا ، وأن الأجساد التي أطاعت أو عصت هي التي تبعث يوم القيامة لتجازى ، والجلود التي كانت في الدنيا والألسنه والأيدي والأرجل التي تشهد عليهم يوم القيامة على من تشهد عليه منهم ، وتنصب الموازين لوزن أعمال العباد فأفلح من ثقلت موازينه وخاب وخسر من خفت موازينه ، ويؤتون صحائفهم فمن أوتى كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا ومن أوتى كتابه بشماله فأولئك يصلون سعيرا ، وأن الصراط جسر مورود يجوزه العباد بقدر أعمالهم ، فناجون متفاوتون في سرعة النجاة عليه من نار جهنم وقوم أوبقتهم أعمالهم فيها يتساقطون وأنه يخرج من النار من في قلبه شيء من الإيمان ، وأن الشفاعة لأهل الكبائر من المؤمنين ، ويخرج من النار بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قوم من أمته بعد أن يصاروا فيها حمما يطرحون في نهر الحياة ، فينبتون كما تنبت الحبة في خميل السيل .

والإيمان بحوض رسول الله صلى الله عليه وسلم ترده أمته لا يظمأ من شرب منه ، ويُذادُ عنه من غيّر وبدّل ، والإيمان بما جاء من خبر الإسراء بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السموات على ما صحت به الروايات ، وأنه صلى الله عليه وسلم رأى من آيات ربه الكبرى ، وبما ثبت من خروج الدجال ونزول عيسى بن مريم عليه السلام حكما عدلا يقتل الدجال ، وبالآيات التي بين يدى الساعة من طلوع الشمس من المغرب ، وخروج الدابة وغير ذلك مما صحت به الروايات ، ونصدق بما جاءنا عن الله تعالى في كتابه ، وثبت عن رسوله صلى الله عليه وسلم وأخباره ونوجب العمل بمحكمه ، ونؤمن ونقر بمشكله ومتشابهه ونَكِلُ ما غاب عنا من حقيقة تفسيره إلى الله تعالى ، والله يعلم تأويل المتشابه من كتابه ، والراسخون في العلم يقولون : آمنا به،وكل ما غاب عنا من حقيقة تفسيره كل من عند ربنا .

(وأن أفضل القرون قرن الصحابة رضى الله عنهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم) (١) كما قال النبي صلى الله عليه وسلم ، وأن أفضل الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على وقيل عثمان وعلي ويُكَفُّ عن التفضيل بينهما ، ثم بقية العشرة ، ثم أهل بدر من المهاجرين ومن الأنصار ومن جميع الصحابة على قدر الهجرة والسابقة والفضيلة والكف عن ذكر الصحابة إلا بخير وأنهم أحق أن تذكر محاسنهم ، ونلتمس لهم أفضل مخارجهم .

---

(١) وقد رواه الامام البخارى في كتاب فضائل الصحابه باب ١ ج ١٨٩/٤

والسمع والطاعة لأئمة المسلمين وكل من ولي أمر المسلمين عن رضى أو عن غلبة وأشتدت وطأته من برّ أو فاجر ، فلا يخرج عليه جارَ أو عدلَ ، ونغزو معه العدو ونحج معه البيت ودفع الصدقات إليهم مجزية إذا طلبوها ونصلي خلفهم الجمعة والعيدين (١) .

كما أنه في كتابه اجتماع الجيوش الإسلامية نقل قول السلف في العلوّ مع ذكر الأدلة من الآيات والأحاديث وما صح من أقوال سلف هذه الأمة ، وكما في نونيته الكافية الشافية .

وغير ذلك من النصوص التي يقصد من ذكرها إيضاح مذهب السلف كما أنه بين في بعض الأحيان القاعده التي يسير عليها السلف في إعتقادهم ، لأن وضع القاعدة وتأصيلها من الأمور التي تمنع التذبذب والإختلاف من مسألة إلى أخرى ومثل ذلك ما ذكره من القواعد التي بنى عليها أهل السنه أصولهم فيما قابل الوحي من الألفاظ المجمله أو المعاني المتشابهه فقد بين أنهم يجعلون كلام الله ورسوله هو الأصل ويرد ما ينازع الناس فيه إليه فما وافقه كان حقاً وما خالفه كان باطلاً،وإذا ورد عليهم اللفظ المشتبه مما ليس في القرآن ولا السنه لم يتلقوه بالقبول ، ولم يردوه بالإنكار حتى يستفصلوا قائله عن مراده فان كان موافقاً للعقل والنقل قبلوه وإلا ردوه ، فقاعدتهم في هذه المسأله تنبنى على أصول :

أحدها : بيان أن ما جاء به الوحي هو الهدى والحق واليقين .

ثانيها : بيان أنّ ما يقدر من الإحتمالات المعارضة الظاهرة وحقيقته باطل لغة.

ثالثها : بيان أن ما يدعى أنه معارض لذلك من العقل فهو باطل .

رابعها : بيان أن العقل موافق له معاضد ، لا معارض مناقض (٢) .

لقد قصد ابن القيم رحمه الله من هذا العرض وغيره لإعتقاد السلف تثقيف الأمة وتعريفها بما يجب أن تعتقده وتؤمن به مبيناً لهم الأسس والقواعد التي ينبنى عليها إعتقادهم لأن تأصيل القواعد هي الركيزة لعدم الإختلاف والتباين .

وأعتقد أن السبب في إختلاف القول عند البعض من مسأله إلى مسأله في باب الإعتقاد هو عدم معرفة قاعدة يسير عليها في تأصيله للمسائل فتجده يقول بقول ماءثم يخالفه في قول آخر مع أن القول الآخر لازم له فتجده يتخبط مثلاً في إثبات بعض الصفات لله وينفى أخرى .

فلو عرفوا قواعد السلف لما حصل لهم هذا التخبط .

---

(١) اجتماع الجيوش الاسلاميه بتصرف : ٨٣ - ٨٦ وانظر حادى الارواح ٢٩٣

(٢) الصواعق المرسله : ٩٩٢/٣

وهذه النقول من ابن القيم في كتبه هي حقيقة ما يعتقده رحمه الله في جانب التوحيد ويؤمن به وتأسيس المنهج والأصول وهذا الدفاع وما أصابه بسببه هي من أجل الدفاع عن هذه المعتقدات ونشرها بين الأمة ، وعدم إنكار شيء منها أو تأويله عن ظاهره مع الإيمان بأن الله ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

الدفاع عن منهج السلف ورد المطاعن الموجهة إليهم وإلى مصادرهم :

لا شك أن المبتدعه عندما أرادوا نشر بدعتهم أخذوا في الطعن في مصادر السلف التي كانوا يعتمدون عليها إعتماداً كلياً فادعوا أنها لا تقوم بالحاجة في باب الإعتقاد فهي ظواهر تفيد التشبيه وقالوا : أن كلام الله وكلام رسوله أدله لفظية لا تفيد علماً ولا يحصل منها يقين وقالوا : أن آيات الصفات وأحاديث الصفات مجازات لا حقيقة لها ، وقالوا : أن أخبار الرسول " صلى الله عليه وسلم " الصحيحة التي رواها العدول وتلقتها الأمة بالقبول لا تفيد العلم وغايتها أن تفيد الظن ، وقالوا : إذا تعارض العقل ونصوص الوحي ، أخذنا بالعقل ولم نلتفت إلى الوحي (١) .

لقد رأى ابن القيم رحمه الله تعالى أن ذلك من أعظم الطعن في كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وطعن في رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته المطهره وأنها طواغيت عمدت لهدم الإسلام فقال عنها :

فهذه الطواغيت الأربع ، هي التي فعلت بالإسلام ما فعلت وهي التي محت رسومه ، وأزالت معالمه ، وهدمت قواعده ، وأسقطت حرمة النصوص من القلوب ونهجت طريق الطعن فيها لكل زنديق وملحد ، فلا يحتج عليه المحتج بحجه من كتاب الله أو سنة رسوله ، إلا لجأ إلى طاغوت من هذه الطواغيت واعتصم به واتخذه جنة يصد به عن سبيل الله .

والله تعالى بحوله وقوته ومنه وفضله قد كسر هذه الطواغيت طاغوتاً طاغوتاً ، على ألسنه خلفاء رسله وورثة أنبيائه فلم يزل أنصار الله ورسوله يصيحون بأهلها من أقطار الأرض ويرجمونهم بشهب الوحي وأدلة المعقول ، ونحن نفرد الكلام عليها طاغوتاً طاغوتاً (٢) .

لقد قام رحمه الله بكسر هذه الطواغيت ونافح عن كتاب الله وسنة رسوله بالأدلة ورد المطاعن المزعومة حولها بالمعقول والمنقول فلم يدع لهم شبهة إلا وقد فندها ولم يترك طعناً إلا ونزه الكتاب والسنه عنه فمن أراد الاطلاع على

---

(١) الصواعق المرسلة : ٦٣٢/٢

(٢) نفس المرجع والصفحة .

ذلك فليرجع إلى كتابه الكبير الصواعق المرسلة،وقال رحمه الله تعالى رداً عليهم في دعواهم عدم الكفاية وأنها لا تقوم بالحاجة في باب الإعتقاد بقوله :

أن الله سبحانه قد أخبر أنه أكمل له ولأمته به دينهم ، وأتم عليهم به نعمته ومحال مع هذا أن يدع أهم ما خلق له الخلق ، وأرسلت به الرسل وأنزلت به الكتب ونصبت عليه القبلة ، وأسست عليه الملة وهو باب الإيمان به ومعرفته ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله ملتبساً مشتبهاً حقه بباطله ، ولم يتكلم فيه بما هو الحق ، بل تكلم بما ظاهره الباطل ، وكيف يكون أفضل الرسل وأجل الكتب غير واف بتعريف ذلك على أتم الوجوه مبيناً له بأكمل البيان ، مع شدة حاجة النفوس إلى معرفته ، ومع كونه أفضل ما إكتسبته النفوس ، ومن المحال أن يكون أفضل الرسل قد علّم أمته آداب البول قبله ، وبعده ، ومعه ، وآداب الوطء والطعام والشراب ويترك أن يعلمهم ما يقولون بألسنتهم وتعتقده قلوبهم في ربهم ومعبودهم الذي معرفته غاية المعارف وعبادته وحده لا شريك له أقرب الوسائل.

ويحيلهم في فهم ما أخبرهم به على مستكرهات التأويلات، ومستنكرات المجازات ثم يحيلهم في معرفة الحق على ما تحكم به عقولهم وتوجبه آراؤهم .

هذا وهو القائل :(تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك) (١) .

ثم أخذ رحمه الله يذكر الأحاديث الدالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدع شيئاً حتى بينه ووضحه أتم توضيح (٢) ، وقد قسم رحمه الله الناس بالنسبة إلى نصوص الوحي إلى خمسة أصناف وذلك حسب موقفهم من الصفات :

الصنف الأول : أصحاب التأويل وهم أشد الناس إضطراباً إذ لم يثبت لهم قدم في الفرق بين ما يتأول وما لا يتأول ولا ضابط مطرد منعكس تجب مراعاته وتمنع مخالفته بخلاف سائر الفرق ، فإنهم جروا على ضابط واحد وإن كان بينهم من هو أشدّ خطأ من أصحاب التأويل .

الصنف الثاني أصحاب التخييل : وهم الذين إعتقدوا أن الرسل لم تفصح بالحقائق إذ ليس في قواهم إدراكها وإنما خيلت لهم وأبرز المعقول في صورة المحسوس قالوا : ولو دعت الرسل أممهم الى رب لا داخل العالم ولا خارجه ولا محايثاً له ولا مبايناً له ولا متصلاً به ولا منفصلاً عنه ولا فوقه ولا تحته لنفرت عقولهم من ذلك ولم تصدق بإمكان وجوده ، وكذلك كلامه الذي هو فيض فاض

---

(١) مسند الامام أحمد : ١٢٦/٤ ، ابن ماجه باب اتباع السنه

(٢) الصواعق المرسلة بتصرف : ١٥٨/١

من المبدأ الأول وكذلك المعاد الروحاني لم يفهموه فقربوا لهم الحقائق المعقوله في صورة محسوسه وضربوا لهم الامثال بقيام الأجساد من القبور يوم المعاد ومصيرها إلى الجنة فيها أكل وشرب وناروفيها أنواع العذاب وهكذا فعلوا في وجود الرب وأسمائه وصفاته ضربوا لهم الأمثال بوجود رب عظيم أكبر من كل شئ وهذه صفاته مما نطقت به الكتب والرسل وحرموا تأويل ذلك على الجمهور وأما الخاصة فهم يعلمون أن هذه أمثال ضربت لتقريبها للعامه وأنه لا حقيقة له يطابقه ما أخبر به الكتاب والرسول .

الصنف الثالث : أصحاب التجهيل الذين قالوا : نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها ونقرأ ها ألفاظ لا معانى لها ونعلم أن لها تأويل لا يعلمه إلا الله وهي عندنا بمنزل ألم ، حم ، فلو ورد علينا ما ورد لم نعتقد فيه تمثيلاً ولا تشبيها ولم نعرف معناها ونكل علمها إلى الله ، وظن هؤلاء أن هذه طريقة السلف وأنهم لم يكونوا يعرفون حقائق الأسماء والصفات .

الصنف الرابع : أصحاب التشبيه والتمثيل : ففهموا منها مثل ما للمخلوق وظنوا أن لا حقيقة لها سوى ذلك وقالوا محال أن يخاطبنا الله بما لا نعقله وهؤلاء هم المشبهة .

ثم قال عن هذه الفرق أنها : لا تزال تبدع بعضهم بعضاً وتضلله وتجهله وقد تصادمت كما ترى فهم كزمرة من العميان قلاقوا فتصادموا وهذه الفرق الأربع جميعها إبتعدت عن المنهج الصحيح الذي بينه في الصنف الخامس وهو :

الصنف الخامس : أصحاب سواء السبيل : وهم الذين هداهم الله للطريقه المثلى فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات ونفوا عنه مماثلة المخلوقين فكان مذهبهم مذهباً بين مذهبين وهدى بين ضلالتين خرج من بين مذاهب المعطلين والمخيلين والمجهلين والمشبهين كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين (١) .

هكذا بين رحمه الله أصناف الناس بالنسبة لنصوص الوحي ويرد عليهم ثم ينصر مذهب السلف الصالح ويسميهم بأصحاب سواء السبيل ، وهذا يدل على أن جميع هذه الفرق لم تكن على منهج السلف الصالح بل أنهم مبتدعه لم يستفيدوا من النصوص ولم يعضموها حق تعضيمها .

---

(١) انظر الصواعق المرسله : ٤١٨/٢ - ٤٢٦

((رده على الذين زعموا أن الخلف أعلم من السلف في باب الإيمان بالله وتوحيده))

يرى ابن القيم أن مذهب السلف في الإعتقاد هو أفضل مذاهب الناس وأسلمها وأنهم خير الناس طريقة وأهداهم لمعرفة الحق فيها فهم عصابة الإيمان وحماة الدين وخير معتقد في هذا الباب معتقدهم (١) .

لذلك رد على كل من زعم أنهم عن هذا الباب معرضين وبالزهد والعبادة مشتغلين ولم يكن هذا الباب من همتهم ولا من عزيمتهم ، فقال :

وهذا من أبين المحال وأبطل الباطل بل كانت عنايتهم بهذا الباب فوق كل عناية وذلك بحسب حبهم لمعبودهم ومنافستهم في القرب منه وشوقهم إلى لقائه فاستكشافهم هذا الباب أكبر مقاصدهم وأعظم مطالبهم فكيف مع قيام هذا المقتضى أن يتأخر عنه خيار الأمه وسادات أهل العلم الذين همهم أشرف الهمم ومطالبهم أعلى المطالب فكيف يظن بهم الإعراض عن مثل هذا الأمر العظيم والغفلة عنه .

وفي المقابل كيف يكون الخلف من تلاميذ المعتزله وورثة الصابئه وأفراخ اليونان الذين شهدوا على أنفسهم بالحيرة والشك وعدم العلم الذي يطمئن إليه القلب أعلم بالله وأسمائه وصفاته وأعرف بها ممن شهد الله ورسوله لهم بالعلم والإيمان وفضلهم على من سبقهم ويجيء بعدهم ما خلا النبيين والمرسلين ، وإنما أوتي هؤلاء المبتدعه من حيث ظنوا أن طريقة السلف هي الإيمان بألفاظ القرآن والحديث من غير فقه وأن طريقة المتأخرين هي إستخراج المعاني من النصوص مما أوجب نبذ الكتاب والسنه وأقوال الصحابة وراء ظهورهم فجمعوا بين الجهل بطريقة السلف والكذب عليهم وبين الجهل والضلال بتصويب طريقة الخلف (٢) .

فلو تبين لهؤلاء البائسين وأمثالهم أن طريقة السلف إنما هي إثبات ما دلت عليه النصوص من الصفات وفهمها وتدبرها وتعقل معانيها وتنزيه الرب عن تشبيهه فيها بخلقه كما ينزهونه عن العيوب والنقائص وإبطال طريقة النفاة المعطلة وبيان مخالفتها لصريح المعقول كما هي مخالفة لصحيح المنقول علم أن طريقة السلف أعلم وأحكم وأسلم وأهدى (٣) .

كما أنه يدافع عن أفراد من السلف إذا وجد من يطعن فيهم ممن ملأه الحسد

---

(١) انظر الصواعق المرسله : ١٦٠/١

(٢) نفس المرجع من : ١٦١ - ١٦٤ /١

(٣) الصواعق المرسله ١١٣٤/٣ .

ومن أعظم ما ناصر به ابن القيم أهل السنه والجماعه (السلف) هو نونيته المعروفه باسم الكافية الشافية في الانتصار للفرق الناجيه .

عليهم أو قصر فهمه عن إدراك مقاصدهم وفهم معنى كلامهم كما فعل في دفاعه عن البخاري عندما أتهم وامتحن بأنه يقول بخلق القرآن ، قال ابن القيم :

معاذ الله أن يظن بأئمة الإسلام هذا الظن الفاسد فقد صرح البخاري في كتابه (خلق أفعال العباد) وفي آخر الجامع بأن القرآن كلام الله غير مخلوق وقال : حدثنا سفيان بن عيينه قال : أدركت مشيختنا منذ سبعين سنه منهم عمرو بن دينار يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق .

ثم ذكر روايات البخاري في الباب وأن القرآن كلام الله غير مخلوق ثم قال : هذا مذهب البخاري والإمام أحمد وأصحابهما من سائر أهل السنه ، فخفى تفريق البخاري وتمييزه على جماعة من أهل السنه والحديث وتعلقوا بالمنقول عن أحمد أنه قال :" من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي ومن قال غير مخلوق فهو مبتدع (١) .

وساعد ذلك وقوع حسد باطن للبخاري لما كان الله نشر له من الصيت والمحبة في قلوب الخلق وإجتماع الناس عليه حيث حل فوافق الهوى الباطن الشبه الناشئة من القول المجمل فترتب من مجموع هذه الأمور فتنة وقعت بين أهل الحديث (٢) .

وهكذا تجده منافحاً عن السلف رادا المطاعن المزعومه حولهم سواء كان جماعة أو فرداً من السلف كما يلاحظ ذلك في مجمل كتاباته رحمه الله .

ثالثاً : الرد على المخالفين وبيان فساد مذهبهم

إن من أهم المميزات التي ميزت دعوة ابن القيم وجعلت لها هذا الذيوع والتمكن من قلوب الناس هو ما تمتع به ابن القيم رحمه الله من القدرة على نقد مناهج المبتدعه وذكر شبههم والرد عليها فقد فاق رحمه الله كثيراً من أقرانه في هذا المنهج لأن كثيراً ممن سبقه من سلف هذه الأمه كان يعتمد في دعوته على العرض أكثر من الرد ودفع الشبه وهذا وإن كان فيه الخير والبركه لهذا الدين من وجه حفظ السنه ونشرها وإن كان كثيراً منهم قد تصدى للرد على المخالفين ، إلا أن ابن القيم رحمه الله يرى أن ذلك لا يقل عن العرض أهمية إن لم يكن في بعض الأحيان

---

(١) اراد الامام أحمد سد الذريعه حيث منع اطلاق لفظ المخلوق نفياً واثباتاً وسد باب الكلام في ذلك وأما منعه أن يقال لفظي بالقرآن غير مخلوق فانما منع ذلك لأنه عدول عن نفس قول السلف فانهم قالوا القرآن غير مخلوق ، والبخاري اعلم بهذه المسأله وأولى بالصواب فيها من جميع من خالفه وكلامه أوضح وأمتن من غيره ، مختصر الصواعق المرسله ص : ٤٣٨

(٢) انظر مختصر الصواعق المرسله ص : ٤٣٦

أوجب وذلك عندما تتمكن الشبة من القلب الضعيف ولم يكن عنده من الإيمان والمعرفه ما يدفعها به ، لاسيما وأن ابن القيم قد وقع في تلك الشباك وكادت أن تهوى به في ظلمة الآراء لولا أن تداركه الله برحمته .

فكونه رحمه الله قد وقع في تلك الشبه والمتاهات وكونه صادقاً مع ربه طالباً مرضاته أعطاه دفعة قوية لسلوك هذا المنهج بجانب منهج العرض لإنقاذ الأمه من تلك المتاهات وإيضاح الحق لمن أراده ، فهو إذاً على بصيرة بما عند القوم فهو القائل :

اسمع نصيحة من له خبر بما * * * عند الورى من كثرة الجولان (١)

كما أنه على بصيرة بالكتاب والسنه بعد ما حباه الله بصحبة شيخ الإسلام رحمهما الله تعالى ، فمجموع ذلك كله هيأه وأعطاه القدرة الفذه في نقده المبتدعة وإلزامهم الحجه ، كما أن ابن القيم يرى أن الرد على هؤلاء المبتدعة والمخالفين لمنهج السلف الصالح ، من أعظم الجهاد وهو لا يقل أهمية عن جهاد الملحد والمنافق فيقول : فكشف عورات هؤلاء وبيان فضائحهم وفساد قواعدهم من أفضل الجهاد في سبيل الله وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : (إن روح القدس معك ما دمت تنافح عن رسوله) (٢)

وكيف لا يكون بيان ذلك من الجهاد في سبيل الله وأكثر هذه التأويلات المخالفه للسلف الصالح من الصحابة والتابعين وأهل الحديث قاطبة وأئمة الإسلام الذيّن لهم في الأمه لسان صدق .

يتضمن من عبث المتكلمين بالنصوص وسوء الظن بها من جنس ما تضنه طعن الذين يلمزون الرسول ودينه من أهل النفاق والإلحاد لما فيه من دعوى أن ظاهر كلامه إفك ومحال وكفر وضلال (٣) .

وخير ما يعبّر ويصور لنا هذا المنهج القويم الذي سار عليه في دعوته كتابه المسمى الصواعق المرسله على الجهمية والمعطلة وكتابه شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل وغيرهما .

فقد ركز رحمه الله فيهما على كشف عورات المبتدعة بذكره أصولهم التي بنوا عليها بدعتهم وشبههم التي حرفتهم عن المسار الصحيح وأوقعت ضعفاء العقول في ظلماتها .

---

(١) القصيده النونيه سبق تخريجه

(٢) مسلم كتاب الفضائل : ١٩٣٦/٤

(٣) الصواعق المرسله : ٣٠٢/١

فاوردها شبهة شبهة ورد عليها بالنقل والعقل وبين فسادها سواء من جهة الشرع أو العقل أو اللغة والفطره ، فأجاد رحمه الله وأفاد .

وإنني أجزم بأن طالب الحق الذي تخلى عن الأهواء وتجرّد عن التعصب إذا كان بحثه عن الحق والصواب أن يهتدى إلى الصواب الذى تطمئن به نفسه ولا يهون في نفس أحد إلا كان مكابراً معانداً ، وسبب ذلك أن ابن القيم رحمه الله كان ربانياً في كل شيء تشعر بالصدق والإخلاص منه لله تعالى ولكتابه ورسوله وأئمة المسلمين وعامتهم غيوراً على الحق داعياً له مبغضاً للباطل كاسراً له،يضاف إلى ذلك علمه الواسع الذى مكنه من كسر الطواغيت بالحجة البالغة التي توافق أصحاب الفطر السليمه والعقول الصحيحه فعلمه جعله يورد الشبه وكأنه في حوار مع المبتدعه ثم يورد الحجج الدامغه فينظر الحق بعينه كل من أراد له الله الهداية والخير .

وذكر ذلك يطول ولكنا سننقل نموذجين ممّا كتبه رحمه الله كي تتضح لنا طريقته في الدعوة ومنهجه الذي تميز به ، وذلك كما فعل مع أهل التأويل وهم الذين أولو صفات الله سبحانه وتعالى فراراً من تشبيهه بخلقه فوقعوا في شر من ذلك فناقشهم في كتابه الصواعق المرسله في هذه المسأله فبدأ ببيان حقيقة التأويل لغة وشرعاً ، وأقسامه ، وضابط التأويل عند المؤولة والوظائف الواجبة على المتأول الذي لا يقبل منه التأويل إلا بها ، وبين أسباب التأويل وجناياته على الأديان ، وغير ذلك مما يطول عن القصد من إيضاح المنهج ، (مناقشته لمؤولة الصفات حيث يقول) :

لا ريب أن الله سبحانه وصف نفسه بصفات وسمى نفسه بأسماء وأخبر عن نفسه بأفعال فسمى نفسه بالرحمن الرحيم الملك القدوس العزيز إلى سائر ما ذكر من الأسماء الحسنى ووصف نفسه بما ذكره من الصفات كسورة الاخلاص(١)،وأول الحديد(٢)

---

(١) سورة الاخلاص هي قوله تعالى : ((قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)) سورة الاخلاص .

(٢) اوائل سورة الحديد هي : ((سبح لله مافي السموات والأرض وهو العزيز الحكيم له ملك السموات والأرض يحى ويميت وهو على كل شيء قدير ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم ، هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أينما كنتم والله بما تعلمون بصير ، له ملك السموات والأرض وإلى الله ترجع الأمور ، يولج الليل في النار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور)) الآيات : ١ - ٦

وطـه وغـير ذلـك ووصـف نفسـه بـأنـه يحب ويكره ويغضب وينزل الى السماء الدنيا وأنه عالم قدير سميع وغير ذلك (١) .

ووصفه رسوله بأنه يفرح ويضحك وأن قلوب العباد بين أصابعه وغيره ممّا وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم فيقال للمتأول :

هل تتأول ذلك كله على خلاف ظاهره وتمنع حمله أم تقرّ الجميع على حقيقته وظاهره أم تفرق بين بعض ذلك وبعضه ، وهذه الوجوه لايستطيع المتأول أن يخرج عنها .

فإن أجاب بقوله : أتأول الجميع وأحمله على خلاف حقيقته : كان ذلك عناداً ظاهراً وكفراً صراحاً وحينئذ لا تستقر لك قدم على إثبات ذات الرب ولا صفة من صفاته ولا فعل من أفعاله وإلتحقت بأخوانك الدهرية الذين لا يثبتون للعالم خالقاً .

فان قلت : بل أثبت خالقاً ولكن لا أصفه بصفة تقع على خلقه فإذا وصف بما يقع على المخلوق أتأوله .

قيل لك : هذه الأسماء الحسنى والصفات هل تدل على معانى ثابته هي حق في نفسها أم لا .

فإن نفيت دلالتها على المعانى كان ذلك غاية التعطيل ، وإن أثبت لها معاني قيل لك فما الذى سوغ لك تأويل بعضها دون بعض مع أن دلالة النصوص على أنه له سمعاً وبصراً كدلالتها على أن له رحمة ومحبة فلم أولت الرحمة والمحبة بأنها الإرادة ؟ .

فان قلت لأن إثبات الإرادة لا يستلزم تشبيهاً وتجسيماً وإثبات حقائق هذه الصفات يستلزم ذلك وهي لا تعقل إلا في الأجسام ، فإن الرحمة رقة تعترى طبيعة الحيوان والمحبة ميل النفس لجلب ما ينفعها .

قيل لك : وكذلك الإرادة : هي ميل النفس إلى جلب ما ينفعها ودفع مايضرها وكذلك جميع ما أثبته من الصفات إنما هي أعراض قائمة بالأجسام في الشاهد .

فان قلت : لأنى أثبتها على وجه لا يماثل صفاتنا ولا يشبهها .

---

(١) أوائل سورة طه هي : ((طه ، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلى ، الرحمن على العرش استوى له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى)) .
الايات ١ - ٨

قيل لك : فهلا أثبت الجميع على هذا الوجه ، فإن قلت : هذا لا يعقل قيل لك : وكيف عقلت سمعاً وبصراً وإرادة ليست من جنس صفات المخلوقين .

فإن قلت : أنا أفرق بين ما يتأول وما لا يتأول ، فإن ما دل العقل على ثبوته ممتنع تأويله كالعلم والحياة وما لا يدل عليه العقل يجب أو يسوغ تأويله كالوجه والضحك والرضى ، لأن الفعل المحكم دل على قدرة الفاعل ، وإحكامه دل على علمه والتخصيص دل على الإرادة فيمتنع مخالفة ما دل عليه صريح العقل .

والجواب على ذلك من ثلاث وجوه :

يقال لك أولاً : وكذلك الإنعام والإحسان وكشف الضر وتفريج الكربات دل على الرحمة كدلالة التخصيص على الإرادة سواء والتخصيص بالكرامة والإصطفاء دال على المحبه كدلالة ما ذكرت على الإرادة كما أن الإهانه والطرد والحرمان دال على المقت والبغض كدلالة ضده على الحب والرضى وهكذا .

ويقال ثانياً : هب أن العقل لا يدل على إثبات هذه الصفات التي نفيتها فإنه لا ينفيها ، والسمع دليل بنفسه بل الطمأنينة إليه في هذا الباب أعظم من الطمأنينة إلى مجرد العقل فما الذي يسوغ لك نفي مدلولها .

ويقال ثالثاً : إن كان ظاهر النصوص يقتضى تشبيها أو تجسيماً فهو يقتضيه في الجميع فأول الجميع وإن كان لا يقتضيه لم يجز تأويل شيء منه ، وإن زعمت أن بعضها يقتضيه دون البعض طولبت بالفرق بين الأمرين وعادة المطالبه جذعاً (١) .

وهكذا يستمر رحمه الله مع المؤوله وبخاصة الذين أولوا بعض الصفات دون البعض يذكر أصولهم وشبههم ثم يرد عليها كما سبق .

أما عن شبهة الجهمية الذين قالوا : بأن القرآن ذكر الوجه ، وذكر الأعين وذكر العين الواحده وذكر الجنب الواحد والساق الواحد ، وذكر الأيدي فلو أخذنا بالظاهر لزمنا إثبات شخص له وجه وعليه أعين كثيره وله جنب واحد على أيدى كثيره وساق واحد ولا يُرى شخص أقبح من هذه الصورة المتخيله فكيف يصف بها ربه .

وهذا التلبيس منهم يغتر به كثير ممن قصر فهمه من الناس لأنهم ألبسوا هذا التدليس ثوب تنزيه الله سبحانه عن أن يكون بهذه الصوره القبيحة ، وهذا ما يجعل العامة يقبلونه .

ولكن ابن القيم رحمه الله المعظم لحرمات الله أراد أن يوضح لمن قصر فهمه

---

(١) الصواعق المرسله : ٢٢٠/١ وما بعدها .

وتابعهم على باطلهم الحق بكشف باطلهم وبيان خطأهم وفضح سرائرهم فبين أن سبب ضلالهم هذا وهو خطأهم في فهمهم من النصوص المعاني الباطله فجمعوا بين التشبيه والتعطيل وإليك رده عليهم إذ قال :

قد ادعيت أيها الجهمي أن ظاهر القرآن الذي هو حجة الله على عباده وهو خير الكلام وأصدقه وهو الشافي لما في الصدور والهدى والرحمة للمؤمنين ،فانتهكت حرمته ونسبته إلى أقبح النقص والعيب فادعيت أن ظاهره ومدلوله إثبات شخص قبيح الصورة ، فادعيت أن ظاهر ما وصف الله به نفسه في كتابه يدل على هذه الصفه الشنيعه فيكون سبحانه قد وصف نفسه بأشنع الصفات ، فأي طعن في القرآن أعظم من ذلك .

وبعد أن بين كيفية اعتدائهم على كتاب الله وتنقيصهم له أخذ يقارن بين عقول هؤلاء المبتدعه والمشركين في عهد المصطفى ، بقوله :

بل لم يدع أعداء الرسول الذين جاهروه بالمحاربة أن ظاهر القرآن أبطل الباطل وأبين المحال لأن وصف الخالق بأقبح الهيئات ، ولو كان ذلك ظاهره لكان ذلك من أقرب الطرق لهم للطعن فيه فكان هؤلاء الكفرة مع شدة عداوتهم لله ورسوله أصح أفهاما من الجهمية مع شدة حاجتهم وحرصهم على الطعن في الكتاب والرسول .

ثم بعد هذا الإنتقاد اللاذع الصحيح أخذ يرد عليهم ويفند حججهم وشبههم واحدة بعد الأخرى فقال :

ونحن نبين أن هذه الصورة الشنيعة لا تفهم من ظاهر القرآن من وجود :

احداها : أن الله سبحانه إنما قال : ((تجرى بأعيننا)) (١) وقال :((أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما)) (٢) فدعواكم أن ظاهر هذا إثبات أعين كثيرة وايد كثيرة فرية ظاهره فإنه إن دل على ذلك فإنه يدل على خالقين كثيرين فان لفظ الأيدى مضاف إلى ضمير الجمع فادعى أيها الجهمي أن ظاهره إثبات أيد كثيره لآلهة متعدده وإلا فدعواك أن ظاهره أيد كثيرة لذات واحده خلاف الظاهر وكذا الأعين .

الثاني : دعواك أن ظاهر القرآن إثبات أيد كثيرة في جنب واحد وأعين كثيرة في وجه واحد كذب آخر فأين في ظاهر القرآن أن الأيدى في الجنب والأعين في الوجه فكأنك إنما أخذت هذا من القياس على بني آدم فشبهت أولا

---

(١) الاية من سورة القمر : ١٤

(٢) الاية من سورة يس : ٧١

وعطلت ثانياً ولهذا قال بعض أهل العلم : أن كل معطل مشبه ولا يستقيم له التعطيل إلا بعد التشبيه (١) .

وهذا القياس على ابن آدم للرب سبحانه وتعالى هو أول ما يتبادر لذهنه عند سماع صفة من صفات الرب تبارك وتعالى التي وصف بها نفسه أو وصفه بها نبيه صلى الله عليه وسلم وأقول هذا القياس هو الذي أوقعهم في الإنحراف في الأسماء والصفات فإن ضعف عقل الإنسان وعدم تصوره ومعرفته ما غاب عنه جعله يصور الغائب في صورة الحاضر فيلزم من ذلك التشبيه ، وألزمهم ذلك التعطيل خروجاً من هذا التشبيه ، تنزيهاً لله عز وجل عن الشبيه والمثيل ، فوقعوا فيما هو شر منه وهذا ناتج عن استخدام العقل والإعتماد عليه .

والله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه سميع والله لا يخاطبنا إلا بما نعقل والذي نعقله من هذا الخبر هو أن الله سبحانه وتعالى له القدرة على سماع الأصوات وتمييزها ولكن كيف يكون سمعه ، هذا ما لا نستطيع الوصول إليه لأننا لم نطلع على ذاته الجليلة ولم نعرف كنهه فالذي يجب علينا أن نعتقده أنه موصوف بالسمع صفة تليق بجلاله وعظمته وكذا البصر والإستواء والنزول وغيرها من الصفات نؤمن بها بلا تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل ولا تمثيل ولا يلزمنا شيء من ذلك لأنا مخبرون بشيء لا يمكن عقولنا تصوره وهو أجل وأكرم من تصورنا له ، وهو الذي أخبرنا بصفاته وخاطب عقولنا وهو يعلم مدى حاجتها من ذلك وتوضيحه وبالفعل قد إكتملت صورة الرب سبحانه وتعالى في قلوب عباده المؤمنين من خلال هذه الأخبار :

" فشاهدته ببصائر الإيمان مشاهدة نسبتها إلى القلب نسبة المرئيات إلى العين وذلك لإستيلاء اليقين عليها ، وانكشاف حقائق الإيمان لها ، حتى كأنها تنظر إلى عرش الرحمن بارزاً ، وإلى استوائه عليه ، كما أخبر به سبحانه وتعالى في كتابه ، وكما أخبر به رسوله صلى الله عليه وسلم ، يدبر أمر المملك ويأمر وينهى ، ويخلق ، ويرزق ، ويميت ويحيي » (٢) .

وهذا اليقين حصل لهم مما ظهر لهم من الأخبار فلم يحتاجوا إلى غيره. فكان مذهب هؤلاء وهم السلف الصالح الذي قال عنه ابن القيم :

وهدى الله أصحاب سواء السبيل للطريقة المثلى فلم يتلوثوا بشيء من أوضار هذه الفرق وأدناسها وأثبتوا لله حقائق الأسماء والصفات ، ونفوا عنها مماثلة المخلوقات وكان مذهبهم مذهباً بين مذهبين ، وهدى بين ضلالين ، خرج من بين

---

(١) الصواعق المرسلة : ٢٣٨/١ وما بعدها .

(٢) الوابل الصيب : ص ٧٨

مذاهب المعطلين والمخيلين ، والمجهلين ، والمشبهين كما خرج اللبن من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين .

وقالوا نصف الله بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به نبيه من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل بل طريقتنا إثبات حقائق الأسماء والصفات ونفي مشابهة المخلوقات فلا نعطل ولا نؤول ولا نمثل ولا نجهّل ، ولا نقول ليس له يدان،ولا وجه ولا سمع،ولا بصر ، ولا حياة ، ولا قدرة ، ولا إستواء على عرشه ولا نقول له يدان كأيدي المخلوقين ووجه كوجوههم وسمع وبصر وحياة وقدرة واستواء كأسماعهم وأبصارهم وحياتهم وقدرتهم واستوائهم ، بل نقول له ذات حقيقه ليست كالذوات وله صفات حقيقةً لا مجازاً ليست كصفات المخلوقين وكذلك قولنا في وجهه تبارك وتعالى ويديه وسمعه وبصره وكلامه واستوائه (١) .

وعلى هذا المنهج يسير رحمه الله بتفنيد شبههم في الساق والجنب وقد نقلنا ذلك بطوله لأنها تمثل وتوضح منهجه رحمه الله ولأن مسألة الصفات من الأمور التي ركّز عليها ابن القيم رحمه الله في دعوته لأن المؤمن بتصورها ومعرفتها يدرك عظمة الرب تبارك وتعالى ويعرفه حق المعرفه وبادراكها يتمثل سلوك الإنسان مع ربه وعباده .

ونستطيع بعد معرفة منهج ابن القيم هذا أن نقيس عليه جميع مسائل الإعتقاد التي سعى ابن القيم رحمه الله لتثبيتها في قلوب الأمه كمسائل القضاء والقدر الذي هو أحد أركان الإيمان وغير ذلك من المسائل العقدية التي بحثها رحمه الله وأسكنه فسيح جناته .

والمقصود هو إيضاح المنهج ومعرفة كيفية دعوته إلى باب الإعتقاد .

---

(١) الصواعق المرسله : ٢٥٢/١

الفصل الثاني : منهجه في مجال الفروع الشرعية (١)

تمهيد

إن من أولى ما يتنافس به المتنافسون وأحرى ما يتسابق إليه المتسابقون ما كان بسعادة العبد في معاشه ومعاده كفيلا وهو علم أحكام أفعال العبيد المعروف باسم " الفقه الإسلامي " وهو من أشرف العلوم وأعظمها خيرا ونفعا للعباد عامة وللدعاة خاصة ، لأن فضيلة الشئ وشرفه يظهر كما يقول ابن القيم من أمور :

تارة من عموم منفعته وتارة من شدة الحاجة إليه وعدم الإستغناء عنه، وتارة من ظهور النقص والشر بفقده ، وتارة من كمال الثمرة المترتبة عليه وشرف علته الغائية (٢) .

وهذه الإعتبارات التي ذكرها ابن القيم رحمه الله جميعا مجتمعه لا تنفك عن هذا العلم وهو - الفقه الإسلامي - ذلك أنه أحكام تساير المسلم وتلازمه في جميع شئون حياته سواء كانت تتعلق بالرب سبحانه أو عبيده فعلم شرائع الإسلام منها ماهو واجب على كل مسلم كعلم الوضوء والصلاة والصيام والحج والزكاة وتوابعها وشروطها وبطلاتها فهي فرض عين (٣) ومنها ما يتعلق بعبد دون آخر كاحكام البيوع ونحوها فهي فرض كفايه .

والمهم أن معرفة علم أحكام العبيد مما يشد العبد بها حبل الإتصال بعبادة ربه في السر والعلن ، وبعلم الفقه ينشر راية الاسلام وذلك في فقه الجهاد والمغازي والسير والأمان والعهد .

وبها يتطلب الرزق المباح عن مواطن الإثم والجناح وذلك في فقه المعاملات وهكذا في جميع شئون حياته الماليه والإجتماعية وغيرها .

وابن القيم الداعية الملهم مدرك أهمية هذا العلم والإرتباط الوثيق بينه وبين الداعيه فيما يخدم الدعوة الإسلاميه فسخر له قسطا كبيرا من حياته العلمية جهدا يشكر عليه فكان من أجلّة العلماء الذين ألفوا في هذا الباب وإن كان يخالف الكثير منهم في المنهج الذي سلكوه في مؤلفاتهم التي زخرت بها المكتبات الإسلاميه فالعلماء إختلفت مدوناتهم باختلاف مشاربهم فمنهم

---

(١) سبق أن تحدثنا في الباب الاول عن العبادات انظر ص ٨٤ ،والباب الثاني الفصل الثالث ص ٢٥٩و٤٢٧

(٢) مفتاح دار السعاده : ١١٠

(٣) نفس المرجع : ١٩٨

من ألف في المذهب ولم يتعده ومنهم من ألف في المذاهب الفقهيه مبينا أدلة الخلاف ووجوه الإستدلال ، ومنهم من ألف على سبيل الإجتهاد .

وابن القيم من العلماء الذين ألفوا على سبيل الإجتهاد والتحقيق والنظر العميق فحرر الوثائق وبين النوازل وساق لها صنوف الأدلة من مشكاة النبوة سائرا مع السنن حيث سارت ركائبها متجها معها حيث كانت مضاربها فأخرج بذلك للناس علما جما وفكرا خصبا جاريا على أسعد القواعد وأرشدها (١) فألف في كثير من أبواب الفقه (٢) وحقق المسائل ورجح بعضها على بعض كما أنه إنفرد في بعض المسائل وتابع شيخه في بعضها مما خالف فيه ما أتفق عليه أهل زمانه والمذهب كما سيتضح من هذه الدراسه .

مسيرة الفقه وتاريخ حركته

لقد كان النبي المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هو الداعية الأول لهذا العلم وهو الحجة التي أوجب الله علينا طاعته وسد الطرق كلها إلا من طريقه فهو الميزان الراجح الذي على أقواله وأفعاله توزن الأعمال والأقوال وقد صدع بالحق وامتلأت به الأرض نورا وابتهاجا فقد أكمل الله تعالى به الدين وأتم به النعمه وترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك استأثر به ونقله إلى الرفيق الأعلى .

فحمل أصحابه رضوان الله عليهم ما جاء به وأيدوا قواعد الإسلام ولم يدعوا لأحد بعدهم مقالا وفتحوا القلوب بعدلهم بالقرآن والإيمان وألقوا إلى التابعين ما تلقوه من مشكاة النبوة خالصا صافيا وكان سندهم فيه عن نبيهم صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن رب العالمين خالصا صافيا فجرى التابعون لهم باحسان على منهاجهم القويم وأقتفوا على آثارهم صراطهم المستقيم ثم سلك تابعوا التابعين هذا المسلك الرشيد .

ثم جاء الأئمة من القرون المفضله واقتبسوا هذا الأمر عن مشكاتهم إقتباسا وكان دين الله أجل في صدورهم وأعظم في نفوسهم من أن يقدموا عليه رأيا أو معقولا أو تقليدا أو قياسا ثم سار على آثارهم الرعيل الأول من

---

(١) انظر التقريب لفقه ابن القيم لشيخ بكر ابو زيد : ٦/١

(٢) قد جمع فضيلة الشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد شتات ما كتبه ابن القيم في مسائل الفقه من كتبه المطبوعه في كتاب واحد أسماه " التقريب لفقه ابن قيم الجوزيه " في اربع مجلدات وهو عبارة عن معجم للمسائل التي بحثها ابن القيم جزاه الله خيرا ونفع به وبعلمه .

أتباعهم ودرج على منهاجهم الموفقون من أشياعهم زاهدين في التعصب للرجال واقفين مع الحجة والإستدلال يسيرون مع الحق أين سارت ركائبه إذا بدا لهم الدليل طاروا إليه وإذا دعاهم الرسول إلى أمر لا يسألونه عما قال برهانا .

ثم خلف من بعدهم خلوف فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون جعلوا التعصب للمذاهب ديانتهم التي بها يدينون ورؤس أموالهم التي بها يتجرون وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليد وقالوا ((إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون))(١) والفريقان بمعزل عما ينبغي إتباعه من الصواب قال الشافعي : " أجمع المسلمون على أن من بانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس " (٢) هذه هي مسيرة الفقه كما يراها ابن القيم وقد انقسمت إلى قسمين ، القسم الأول وهم المتابعون لما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم والإجتهاد في تطبيقه والبحث عنه والقسم الآخر تركوا ذلك ولم يجتهدوا في تحصيله أو تطبيقه مكتفين بما عرفوه من أقوال من يقلدونهم وغالبهم أخذ ذلك عن الآباء والأجداد تقليداً وعادة بدون معرفة للدليل ، ومن ثم إختلفوا شيعاً وأحزابا .

سبب الإختلاف (٣)

ثم بين رحمه الله سبب الخلاف بين الأئمة بعد إتفاقهم على أصل واحد وتحاكمهم إليه وهو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فنقل عن ابن حزم الظاهري قوله في ذلك [illegible] يقول ابن حزم (٤) : بحثت عن السبب الموجب للخلاف ولترك من ترك كثيراً مما صح من السنن فوضح لها بعد التفتيش والبحث أن كل واحد من العلماء بشر ينسى كما ينسى البشر وقد يحفظ الرجل الحديث فلا يحضره ذكره فيفتي بخلافه ، وقد يعرض هذا في آي القرآن ألا ترى أن عمراً رضي الله عنه أمر على المنبر أن لا يزاد مهور النساء على عدد ذكره (ميلاً إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزد على ذلك العدد في مهور نسائه) حتى ذكرته امرأة من جانب المسجد

---

(١) الاية من سورة الزخرف : ٢٣

(٢) انظر اعلام الموقعين : ١/٥ الى ٧

(٣) انظر في كذلك كلام شيخ الاسلام ابن تيميه في الفتاوي ٢٠/٢٣١ فقد اشبع واشفى في هذا الموضوع وانظر كتابه رفع الملام عن الأئمة الاعلام له .

(٤) انظر كتاب الاحكام في اصول الاحكام : ٢/٣٠١ تحقيق محمد أحمد عبدالعزيز ط الأولى عام ١٤١٨هـ مطبعة الانتباز .

بقوله تعالى : ((وآتيتم احداهن قنطاراً)) (١)، فترك قوله وقال كل أحد أعلم منك حتى النساء " (٢) ، وذكر كثيراً مما نسبه بعض الصحابة مع وجوده في القرآن وعلمه به .

ثم قال : وقد يذكر العالم الآية والسنه ولكن يتأول فيها تأويلاً من خصوص أو نسخ أو معنى ما ، وإن كان كل ذلك يحتاج إلى دليل ولا شك أن الصحابة رضى الله عنهم كانوا بالمدينه حوله صلوات الله وسلامه عليهم مجتمعين ، وكانوا ذوى معايش يطلبونها وفي ضنك من القوت فمن محترف في الأسواق ومن قائم على نخلة ويحضره في كل وقت طائفة منهم إذا وجدوا أدنى فراغ مما هم بسببه وقد نص على ذلك أبو هريرة فقال : إن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالإسواق وإخواني من الأنصار كان يشغلهم القيام على نخلهم ، وكنت امرءاً مسكيناً أصحب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ملء بطني (٣) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسأل عن المسأله ويحكم بالحكم ويأمر بالشيء ويفعل بالشيء فيحضره من يحضره ويغيب عمن غاب عنه ، فلما مات وليَ أبو بكر وكان إذا جاءته القضية ليس عنده فيها نص سأل من بحضرته من الصحابة عنها فإن وجد عندهم نصا رجع إليه وإلا إجتهد في الحكم فيها .

ولما وليَ عمر رضي الله عنه فتحت الأمصار وتفرقت الصحابة في الأقطار، فكانت الحكومة تنزل بالمدينه أو بغيرها فإن كان عند الصحابة الحاضرين لها نص حكم به وإلا إجتهدوا في ذلك وقد يكون في تلك القضية نص موجود عند صحابي آخر في بلد آخر ويحضر هذا ما لا يحضر هذا من الأمصار ، كل هذا موجود في الآثار وتقتضيه الحاله التي ذكرنا ، وقد كان علم التيمم عند عمار وغيره وغاب عن عمر وابن مسعود حتى قالا لا يتيمم الجنب ولو لم يجد الماء شهرين (٤) وكان حكم المسح على الخفين عند على وحذيفة ولم تعلمه عائشه ولا ابن عمر ولا ابو هريرة وذكر عدة مسائل من هذا النوع .

فمضى الصحابة على هذا ثم خلف بعدهم التابعون الآخذون عنهم وكل طبقة من التابعين تفقهوا بمن كان عندهم من الصحابة وكانوا لا يتعدون فتاويهم

---

(١) الايه من سورة النساء : ٢٠

(٢) رواه ابو داود عون المعبود: ١٣٥/٦ كتاب النكاح باب الصداق المكتبه السلفيه بالمدينه ط الثانيه ١٣٨٨هـ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان .

(٣) رواه البخاري في كتاب العلم ٤٢ باب حفظ العلم : ٣٨/١

(٤) رواه البخاري في كتاب التيمم ٧ باب اذا خاف الجنب على نفسه : ٩٠/١

لا تقليداً لهم ولكن لأنهم اخذوا ورووا عنهم إلا اليسير مما بلغهم عن غير من كان في بلادهم من الصحابة رضي الله عنهم .

ثم أتى من بعد التابعين فقهاء الأمصار كأبي حنيفة (١) وسفيان (٢) وابن ابى ليلى (٣) بالكوفه ، وابن جريج (٤) بمكه ومالك وابن الماجشون (٥) بالمدينه ، والأوزاعي بالشام والليث (٦) بمصر فجروا على تلك الطريقه من أخذ

---

(١) ابو حنيفه النعمان بن ثابت امام الحنفيه مجتهد ولد ونشأ بالكوفه كان قوي الحجه من أحسن الناس منطقاً كريماً في اخلاقه جواد حسن المنطق والصوره توفى رحمه الله في سجن ابى جعفر المنصور سنة ١٥٠هـ عندما رفض تولى منصب القضاء . أنظر : تاريخ بغداد ٣٢٣/١٣ - ٤٣٣ ، وفيات الاعيان ٢١٥/٢ - ٢١٩ ، النجوم الزاهرة ١٢/٢ ، البدايه والنهاية ١٠٧/١٠ ، تذكرة الحفاظ ١٦٨/١ ، علاء الدين علي بن عبدالله الغرولى مطالع البدور في منازل السرور : ١٥/١ ط الاولى ١٢٩٩هـ مطبعة الوطن القاهره .

(٢) أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري ، أمير المؤمنين في الحديث ، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى ، ولد ونشأ في الكوفه ، وعندما طلبه الخليفه المنصور للقضاء خرج من الكوفه سنة ١٤٤هـ فسكن مكه والمدينه ثم طلبه المهدي فتوارى وانتقل الى البصره ومات مستخفياً سنة ١٦١هـ رحمه الله تعالى من مصنفاته الجامع الكبير ، الجامع الصغير ، وغيرهما ، أنظر : ابن النديم : الفهرست ص ٤٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، المعرف ص ٢١٧ ، تاريخ بغداد : ١٥١/٩ ، حلية الأولياء ٣٥٦/٦ - ٣٩٣ ، ٣/٧ - ١٤٤ ، تذكرة الحفاظ ٢٠٣/١ ، الجواهر المضيئة ٢٢٧/٢ النجوم الزاهرة ٣٩/٢ ، غاية النهاية في طبقات القراء ٣٠٨/١، طبقات الحفاظ ٨٨ .

(٣) محمد بن عبدالرحمن بن ابى ليلى يسار (وقيل داود) ابن بلال الانصاري الكوفي : قاضي فقيه من اصحاب الرأى ولى القضاء والحكم في الكوفه لبني أميه ثم لبني العباس واستمر ٣٣ سنه له اخبار مع ابى حنيفه وغيره مات بالكوفه سنة ١٤٨ هـ رحمه الله انظر : ميزان الاعتدال ٨٧/٣ ، وفيات الاعيان ٤٥٢/١ ، النجوم الزاهره ٣٥/٢ .

(٤) عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج ابو الوليد وأبو خالد : فقيه الحرم المكي كان إمام أهل الحجاز في عصره وهو أول من صنف التصانيف في العلم بمكه رومي الأصل من موالى قريش مكي المولد والوفاة توفى سنة ١٥٠ هـ رحمه الله ، انظر وفيات الاعيان ٢٨٦/١ وتاريخ بغداد ٤٠٠/١٠ والاعلام ١٦٠/٤ .

(٥) عبدالملك بن عبدالعزيز بن عبدالله التيمي بالولاء أبو مروان ابن الماجشون : فقيه مالكي فصيح دارت عليه الفتيا في زمانه وعلى أبيه قبله أضر في آخر عمره توفى سنة ٢١٢ هـ رحمه الله ، انظر ميزان الاعتدال ١٥٠/٢ وابن خلكان ٢٨٧/١ والاعلام ١٦٠/٤ .

(٦) الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمى أبو الحارث : امام أهل مصر في عصره حديثاً وفقهاً ، قال ابن تغرى بردي : " كان كبير الديار المصريه ورئيسها وأمير من بها في عصره بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته " أصله من خرسان ومولده في قلقشنده ووفاته في القاهره ، وكان من الكرماء الاجواد ولابن حجر العسقلاني كتاب " الرحمة الغيثية في الترجمة الليثيه " مطبوع==

كل واحد منهم عن التابعين وتابعوهم عن الصحابة فيما كان عندهم وفي إجتهادهم فيما ليس عندهم ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها وكل من ذكرنا مأجور فيما أصاب أجرين وفيما خفي عنه أجر واحد .

وقد يبلغ الرجل مما ذكرنا نصان ، ظاهرهما التعارض فيميل إلى أحدهما بضرب من الترجيح ويميل غيره إلى النص الآخر الذي تركه بضرب آخر من الترجيحات كما روى عن عثمان بن عفان في الجمع بين الأختين أحلتهما آية وحرمتهما آيه (١) وكما مال ابن عمر إلى تحريم نساء أهل الكتاب جملة بقوله تعالى : ((ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن)) (٢) وقال لا أعلم شركاً أعظم من قول المرأة أن عيسى ربها وغلب ذلك على الإباحة المنصوصة في الآية الاخرى ومثل هذا كثير (٣) .

وعلى هذه الوجوه ترك بعض العلماء ما تركوا من الحديث ومن الآيات وعلى هذه الوجوه خالفهم نظراؤهم فأخذ هؤلاء ما ترك أولئك لا قصداً الى خلاف النصوص ولا تركاً لطاعتها ولكن لأحد الأعذار التي ذكرناها .

ثم كثرة الرحل إلى الآفاق ، وتداخل الناس وانتدب أقوام لجمع حديث النبي صلى الله عليه وسلم وضه وتقييده ووصل من البلاد البعيده إلى من لم يكن عنده وقامت الحجة على من بلغه شيء منه وجمعت الأحاديث المبينة لصحة أحد التأويلات المتأوله في الحديث وعرف الصحيح من السقيم وزيف الإجتهاد المؤدي إلى خلاف كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى ترك عملٍ وسقط العذر عمن خالف ما بلغه من السنن ببلوغها إليه وقيام الحجة بها عليه ولم يبقى إلا العناد والتقليد ، انتهى كلامه (٤) .

وقصد ابن القيم رحمه الله من سياق هذا النص توضيح أن هؤلاء الأئمة والأعلام ليسوا معصومين من الخطأ وأنه وارد ولا محالة وهم مع ذالك مجتهدون يحاولون إتباع ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ، فلذلك لا يجوز تقليدهم على كل حال وهذا ليس تنقيص من ابن القيم لهؤلاء الأئمة ومعاذ الله

== في سيرته ، توفى سنة ١٧٥هـ رحمه الله ، انظر وفيات الاعيان ٤٣٨/١ والنجوم الزاهرة ٨٢:٢ وحلية الاولياء ٣١٨/٧ وتاريخ بغداد ٣/١٣ والاعلام ٢٤٨/٥ .

(١) رواه الامام مالك في الموطأ : ٥٣٨/٢

(٢) سورة البقره : ٢٢١

(٣) رواه البخاري في كتاب الطلاق ١٨ باب قوله تعالى ((ولا تنكحو المشركات)) : ١٧٢/٦

(٤) انظر الصواعق المرسله : ٥٢٠/٢ وما بعدها .

أن يكون من الذين يزدرون بالأئمة بل إعترف للأئمة بالفضل والسبق فقال :

ولولا أن الحق لله ورسوله وأن كل ما عدا الله ورسوله فمأخوذ من قوله ومتروك وهو عرضة الوهم والخطأ لما إعترضنا على من لا نلحق غبارهم ولا نجرى معهم في مضمارهم ونراهم فوقنا في مقامات الإيمان ومنازل السائرين كالنجوم الدرارى ومن كان عنده علم فليرشدنا إليه ومن رأى في كلامنا زيفاً أو نقصاً أو خطأ فليهدنا الصواب نشكر له سعيه (١) .

ولكن الأسباب السابقه جعلته يتوقف عن أخذ القول حتى يقف على أدلته وصحتها وإلا فالقول مردود على صاحبه ، لأن الحجة ظهرت بمعرفة ما جاء عن الله ورسوله وليس لأحد أن يخالفها ومن خالفها فهو مقلد أعمى أو معاند لم يعرف قدرها .

ولذلك شن ابن القيم رحمه الله حملته الضارية على التقليد وأهله كما سأبين ذلك ان شاء الله .

كسره سلطان التقليد وفتح باب الإجتهاد

عرفنا أن الصحابة رضوان الله عليهم قد تلقوا الأحكام من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة وبدون واسطة وحملوا ما جاءهم عن رسولهم وأيدوه وعملوا بمقتضاه لا يخرجون عن نصوصه أبداً ، مهما كان القائل فإذا ورد إليهم النص وقفوا عنده عاملين به معتقدين له داعين إليه فألقوا ما تلقوه من مشكاة النبوة إلى التابعين وعمل التابعون بمنهجهم دائرين مع النصوص حيث سارت وحيث حلت ثم تبعهم تابعيهم على هذا المنهج القويم والصراط المستقيم ثم الأئمة من القرون المفضله كلهم لا يخرجون عن منهج واحد ثم حل جنود المقلدين والمتعصبين في البلاد وأخذوا يدعون إلى آراء الرجال وترك منهج الرعيل الأول حتى جاء عصر ابن القيم وبلغ التقليد أشده وكثرت الخلافات المذهبيه والتعصب لها ولأراء الرجال والموروث عن الآباء والأجداد فأصبح ذلك ديدن الناس ومبلغ علمهم وسعادتهم .

وقد تحكمت هذه الظاهره في نفوس الناس وعقولهم وقصر العلماء أقوالهم على ترديد ما أفتى به الأئمة السابقون دون النظر في النصوص وأقوال الصحابة ، وغالوا في ذلك حتى منعوا الناس من النظر في نصوص الله

---

(١) مدارج السالكين : ١٣٧/٢ وانظر في هذا اعلام الموقعين ٢٨٣/٣

ورسوله ، فقالت طائفه منهم : ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفه وأبي يوسف (١) وذكروا غيرهم من علماء الحنفيه قولاً ، وقال بكر بن علاء القشيري المالكي (٢): ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة ، وقال آخرون ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي وسفيان الثوري ، وقالت طائفة : ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي (٣) .

بل الأمر أكثر من ذلك فقال الغلاة منهم : إذا نزلت بالمفتي نازله لم يجز أن ينظر فيها بكتاب الله ولا سنة رسوله ولا أقوال الصحابة بل إلى ما قاله مقلده ومتبوعه فما وافق قوله أفتى به وحكم وما خالفه لم يجز له أن يفتي به أو يقضي وإن فعل ذلك تعرض لعزله من منصب الفتوى والحكم (٤) .

ولا شك أن المدرسة السلفية ترفض هذا المسلك الوخيم والمغالاة والتعصب وابن القيم رحمه الله أحد فرسان هذه المدرسه وأحد المدافعين عن منهجها ومبدئها رأى ما في هذه المغالاة من عكس لحقائق الدين المتمثلة في مخالفة أمر الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه ونبذ للكتاب والسنه خلف الظهور، ومخالفة هدى الصحابة رضوان الله عليهم وتابعيهم ، ومخالفتهم كذلك لأحوال الأئمة ممن يقلدونهم وسلوك هؤلاء ضد طريق أهل العلم وسد باب الإجتهاد فلم يطق الصبر على ذلك بل رام أبطال التقليد والتصدى لأهله وساق الأدلة من الكتاب والسنه على إبطاله وذكر أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم والأئمة رضوان الله عليهم جميعاً على بطلانه ومنهجهم ومواقفهم في المسائل التي تعرض لهم ، كما أنه رد على جميع ما استدل به المقلدون على صحة التقليد وبين تناقضهم

---

(١) أبو يوسف يعقوب بن ابراهيم بن حبيب صاحب ابى حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبه كان فقيهاً علامة من حفاظ الحديث وهو أول من تولى منصب قاضي القضاة ولى القضاء أيام المهدي والهادي والرشيد كان واسع العلم بالتفسير والمغازي وايام العرب توفى سنة ١٨٢هـ وله عدة مصنفات منها ، الخراج ، ومسند ابى حنيفة انظر : ابو الفرج محمد بن يعقوب الشهير بابن النديم : الفهرست تحقيق : رضا تجدد ص ٢٥٦ ، ط ، ١٣٩١هـ ، طهران ، المعرف ص ٢١٨ ، وانظر محمد بن خلف بن حيان : اخبار القضاة : ٢٥٤/٣ عالم الكتب بيروت بدون تاريخ ، النجوم الزاهرة: ١٠٧/٢ تاريخ بغداد: ٢٤٢/١٤ المختصر في اخبار البشر : ١٥/٢ .

(٢) أبو الفضل بكر بن محمد بن العلاء القشيرى قاضي من علماء المالكيه من أهل البصرة انتقل الى مصر وتوفى بها بعد أن مكث بها حوالي اربع عشرة سنه وذلك ليلة السبت لسبع بقين من ربيع الأول سنة ٣٤٤هـ من مصنفاته : أحكام القرآن ، الرد على المزنى، الأشربه ، وغيرها انظر : ترتيب المدارك ٢٧٠/٥ - ٢٧٢ .

(٣) اعلام الموقعين ٢٧٦/٢ . (٤) نفس المرجع : ٢٤٩/٢ .

بسبب كل ذلك من أجل إبطال التقليد ودعوة للمقلدين إلى تحرير أفكارهم من ربقة التقليد وفتح لباب الإجتهاد والإعتماد على الأدلة الشرعية كما سنبين ان شاء الله .

موقفه من التقليد

قبل أن نبدأ بذكر الأدلة التي أوردها ابن القيم رحمه الله في دحض التقليد ينبغي أن نعرف التقليد الذي نهى عنه وأبطله فيما يأتي من أدله .

فالتقليد الذي حرمه الله ورسوله : هو أن يتبع غير الرسول فيما خالف فيه الرسول صلى الله عليه وسلم وهذا حرام باتفاق المسلمين على كل أحد (١) ونقل ابن القيم رحمه الله في معرض كلامه عن التقليد قول ابوعبدالله بن خويز منداد البصري المالكي : التقليد في الشرع معناه الرجوع إلى قول لا حجة لقائله عليه وذلك ممنوع منه في الشرع (٢) .

قال تعالى : ((إتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله))(٣) وفي حديث عدي بن حاتم وهو حديث حسن طويل رواه أحمد والترمذي وغيرهما وكان قد قدم على النبي صلى الله عليه وسلم وهو نصراني فسمعه يقرأ هذه الآية فقال : فقلت له لسنا نعبدهم ، قال:(أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه ؟) قال فقلت : بلى قال :(فتلك عبادتهم)(٤).

وقال الربيع بن أنس (٥) قلت لأبي العالية (٦) : كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل ؟ قال : كانت الربوبية أنهم وجدوا في كتاب الله ما أمروا به ونهوا عنه فقالوا : لن نسبق أحبارنا بشيء فما أمرونا به أئتمرنا وما نهونا

---

(١) فتاوي شيخ الاسلام ابن تيميه : ٢٦٠/١٩

(٢) اعلام الموقعين : ١٩٧/٢

(٣) الاية من سورة التوبة : ٣١

(٤) رواه الترمذي في التفسير برقم ٣٠٩٤ حـ ٨ ص ٢٤٨ وابن جرير ٨٠/١٠ وحسنه الألباني في غاية المرام في تخريج احاديث الحلال والحرام ط المكتب الاسلامي رقم الحديث ٦ ص ١٩

(٥) الربيع بن أنس بن زياد البكرى الخرساني، بصرى سكن مرو وهو عالمها في زمانه سجنه ابو مسلم الخرساني تسعة اعوام توفى رحمه الله سنة ١٣٩هـ تقريبا انظر مشاهير علماء الامصار ص ١٢٦ ، الكاشف : ٣٠٣/١

(٦) أبو العاليه رفيع بن مهران الرياحى البصرى ، امام مقرىء حافظ مفسر اسلم في خلافة الصديق رضي الله عنه وحفظ القرآن وذاع صيته في العلم وهو أول من رفع الأذان فيما وراء النهر توفى رحمه الله سنة ٩٠هـ انظر: طبقات خليفه: ٢٠٢ المعارف ص ٢٠٠ حلية الأولياء ٢١٧/٢ سير اعلام النبلاء ٢٠٧/٤ غاية النهاية ٢٨٤/١ طبقات الحفاظ ص ٢٢ .

عنه انتهينا لقولهم : فاستنصحوا الرجال ، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم (١) رأى ابن القيم رحمه الله أن هذا الداخل على بني اسرائيل كان السبب في الغضب عليهم وضلالهم عن الحق الذي بعث الله به رسله فقارن رحمه الله بين ما حدث من بني اسرائيل وما يحدث من بعض هذه الأمة من تقليد للأشخاص وتعصبهم لهم وأخذ أقوالهم على عواهنها .

فخشيَ رحمه الله أن يبتلى دين الله بما ابتلي به من قبل فيهجر وينبذ وخشيَ على أمة الإسلام أن يصيبها الضلال والغضب من الله ، فالمقلد المتعصب قد يجعل المُقلَّد بمنزلة المشرع سبحانه في طاعته فيما يأمر به وينهى عنه مع أن الأمر بطاعة العلماء يتوقف على موافقة هذا العالم ما جاء عن الله ورسوله ، أما إذا خالف ما أنزل الله وعلم المقلد فقد جعل هذا المُقلَّد شريكاً مع الله في طاعته فيما يحل ويحرم .

لذا ثارت ثائرته على التقليد وأبطله ليحمي كتاب الله وسنة رسوله من أن تهجر وتنبذ ويحمي جانب المسلمين من الضلال والغضب ، لاسيما وأنه لاحظ أن أكثر ما دخل على هذه الأمة من البدع والضلال كان بسبب التقليد الأعمى واتباع الرجال وما ورث عن الآباء والأجداد من دون نظر فيه وفي موافقته للكتاب والسنه مع أن بعض هؤلاء المقلدين ينتسبون إلى العلم إذا لم يبلغ أحدهم درجة الإجتهاد .

والآن نسوق بعض ما نقله ابن القيم من الأدلة النقليه والعقليه على تحريم التقليد فقال :

وقد ذمّ الله سبحانه التقليد في غير موضع من كتابه كما في قوله تعالى: ((وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)) (٢) ، وقوله : ((وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا))(٣).

وهذا في القرآن كثير يذم فيه من أعرض عما أنزله وقنع بتقليد الآباء دون ما جاء عن الله وهذا مما إتفق السلف والأئمة الأربعه على ذمه وتحريمه (٤) وهذا الذم والتحريم واقع على جميع ما جاء به الرسول من عباده وإعتقاد

---

(١) فتاوى شيخ الاسلام : ٦٧/٧

(٢) الآيه من سورة البقره : ١٧٠

(٣) الآيه من سورة المائده : ١٠٤

(٤) اعلام الموقعين : ١٨٨/٢

ثم بين رحمه الله كذلك كيف أن المقلد خالف أمر الله ورسوله فقال :

إن الله سبحانه أمر برد ما تنازع فيه المسلمون إليه وإلى الرسول والمقلدون قالوا إنما نرده إلى من قلدناه ، أما عن مخالفتهم لأمر الرسول فانه صلى الله عليه وسلم أمرنا عند الإختلاف بالأخذ بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين وأمر بالتمسك بها والعض عليها بالنواجذ (١) وقال المقلدون بل عند الإختلاف نتمسك بقول من قلدناه (٢) .

وبعد أن ذكر كثيرا من الأدلة من الكتاب والسنه الداله على الأمر بطاعة الله ورسوله والنهي عن التقليد أخذ يبين منهج الصحابة رضوان الله عليهم فيما خفيّ عليهم وأنهم يبحثون فيما بينهم عن الدليل من كتاب الله أو سنة رسوله كسؤال أبي العسيف (٣) الذي زنى بامرأة مستأجره لأهل العلم فإنه لما أخبروه بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في حكم الزاني البكر أقره بذلك ولم ينكره فلم يكن سؤالهم عن رأيهم ومذهبهم .

وبين كثير من خلاف الصحابة بعضهم لبعض كما سنذكره إن شاء الله وإنما يدل ذلك على تمسكهم بالنص لا يدعه أحد منهم لقول أحد من الأصحاب وكان المستفتون منهم لا يعتمدون إلا ما يبلغونهم إياه عن نبيهم فيقولون أمر بكذا وفعل كذا ونهى عن كذا ، وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من أفتى بغير السنه منهم كما أنكر على أبي السنابل وكذّبه وأنكر على من أفتى برجم الزاني البكر وأنكر على من أفتى باغتسال الجرح حتى مات (٤) .

ثم سار التابعون لهم بإحسان على منهجهم وصراطهم المستقيم لا يقلد منهم أحد غيره بل يبحثون عن الدليل فأين ماوجده تعلقوا به والتزموا أمره.

ثم بين رحمه الله أن ذلك منهج الأئمة من بعدهم وينقل بعض أقوالهم في النهي عن تقليدهم فقال :

وقد نهى الأئمة الأربعة عن تقليدهم وذموا من إتخذ أقوالهم بغير حجة (٥)

قال ابو حنيفه : هذا رأيي وهذا أحسن ما رأيت ، فمن جاء برأي خيرا منه قبلناه .

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح وأحمد وابن ماجه تحفة الاحوذي : ٤٤٢/٧

(٢) اعلام الموقعين : ٢٢٧/٢

(٣) رواه البخاري في كتاب الصلح ١٦٧/٣ باب ٥

(٤) اعلام الموقعين : ٢٣٤/٢

(٥) نفس المرجع : ٢٠٠/٢

ولهذا لما أجتمع أفضل أصحابه أبو يوسف بمالك سأله عن مسأله الصاع وصدقة الخضروات ، ومسألة الأجناس ، فأخبره مالك بما تدل عليه السنة في ذلك ، فقال : رجعت الى قولك يا أبا عبدالله ، ولو رأى صاحبي ما رأيت لرجع إلى قولك كما رجعت .

ومالك كان يقول : إنما أنا بشر أصيب وأخطىء ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنه .

والشافعي كان يقول : إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط (١) .

وقال الامام أحمد : لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الثورى ولا الاوزاعي وخذ من حيث أخذوا .

وقال ابو يوسف من الحنفيه : لا يحل لأحد أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا (٢) .

والمقلدون مخالفون لأئمتهم في أخذهم كل ما جاءهم عنهم دون نظر، مع نهيهم عن ذلك فهم إذا مخالفون لمنهج الصحابة والتابعين والأئمة،وطريق أهل العلم : طلب أقوال العلماء وضبطها والنظر فيها وعرضها على القرآن والسنه الثابتة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقوال خلفائه الراشدين فما وافق ذلك منهم قبلوه وما خالف ذلك منها لم يقبلوا إليه ومالم يتبين لهم كان عندهم من مسائل الإجتهاد التي غايتها أن تكون سائغة الإتباع لا واجبة الإتباع (٣) .

وأورد من الحجج العقليه على إبطال التقليد قول أبو عمر (٤) وهو أن يقال لمن قال بالتقليد : لم قلت به وخالفت قول السلف في ذلك فانهم لم يقلدوا ؟ فان قال : " قلدت لأن كتاب الله لا علم لي بتأويله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم لم أحصها والذي قلدته قد علم ذلك فقلدت من هو أعلم مني " قيل له : أما العلماء اذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب أو حكاية عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحق لا شك فيه ، ولكن قد إختلفوا فيما قلدت فيه بعضهم دون بعض ، فما حجتك في تقليد

---

(١) فتاوي شيخ الاسلام : ٢١١/٢٠

(٢) اعلام الموقعين : ٢٠٠/٢

(٣) نفس المرجع : ٢٢٨/٢

(٤) ابو عمر هو : يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النميري القرطبي المالكي وهو من كبار حفاظ الحديث يقال له حافظ المغرب ولد بقرطبة سنة ٤٦٣هـ تذكرة الحفاظ ١١٢٨/٣ وانظر الاعلام للزركلي : ٢٤٠/٨

بعضهم دون بعض وكلهم عالم ؟ ولعل الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه ، فإن قال : " قلدته لأني أعلم أنه على صواب " قيل له : علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سنة أو إجماع ؟ فإن قال : " نعم" أبطل التقليد وطولب بما إدعاه من الدليل ، وإن قال : " قلدته لأنه أعلم مني " قيل له : فقلد كل من هو أعلم منك ، فانك تجد من ذلك خلق كثير ، ولا تخص من قلدته إذ علتك فيه أنه أعلم منك ، فان قال :" قلدته لأنه أعلم الناس " قيل له : فإنه إذاً أعلم من الصحابه ، وكفى بقول مثل هذا قبحاً (١) .

الرد عليهم

أورد المقلدون أدلة كثيرة على صحة تقليدهم للأشخاص وعدم الخروج عن قول هذا المقلد ، نورد بعض ما استدلوا به ورد ابن القيم عليهم ودحض حججهم التي إستدلوا بها (٢) .

قال المقلد : نحن معاشر المقلدين ممتثلون قول الله تعالى : ((فأسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون))(٣) فأمر سبحانه من لا علم له أن يسأل من هو اعلم منه (٤) فالمقلدون يرون أن الآية أمرت بسؤال أهل الذكر وأهل الذكر هم العلماء وسؤالهم تقليدهم فيرد ابن القيم بقوله :

الذكر هو القرآن والحديث الذي أمر الله نساء نبيه أن يذكرنه بقوله: ((واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة)) (٥) فهذا هو الذكر الذي أمرنا الله باتباعه وأمر من لا علم عنده أن يسأل أهله وهذا هو الواجب على كل أحد أن يسأل أهل العلم بالذكر الذي أنزله على رسوله ليخبره به لم يسعه غير إتباعه وهذا كان شأن أئمة العلم لم يكن لهم مقلد معين يتبعونه فيما قال فكان عبدالله بن عباس يسأل الصحابة عما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو فعله أو سنته ، لا يسألهم عن غير ذلك، وكذلك الصحابة كانوا يسألون أمهات المؤمنين خصوصاً عائشة عن فعل رسول الله في بيته وكذلك التابعون كانوا يسألون الصحابة عن فعل نبيهم فقط وكذلك

---

(١) اعلام الموقعين : ١٩٩/٢

(٢) نفس المرجع من ص : ٢٠١ الى ٢٧٩

(٣) الايه من سورة النحل : ٤٣

(٤) اعلام الموقعين : ٢٠١/٢

(٥) الاية من سورة الاحزاب : ٣٤

أئمة الفقه كما قال الشافعي لأحمد : يا أبا عبدالله ، أنت أعلم بالحديث مني فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شاميا كان أو كوفيا أو بصريا ولم يكن أحد من أهل العلم يقلد رجلاً بعينه ويخالف ما سواه (١) .

قال المقلدون : وهذا عالم الأرض عمر قلد أبا بكر ، فروى شعبة عن عاصم الأحول عن الشعبي أن أبا بكر قال في الكلالة : أقضي فيها ، فإن يكن صوابا فمن الله وإن يكن خطأ فمني ومن الشيطان والله منه بريء وهو ما دون الولد والوالد ، فقال عمر بن الخطاب : أني لأستحي من الله أن أخالف أبا بكر وصح عنه أنه قال له : رأينا لرأيك تبع،وهذا تقليد منه له (٢) .

فأجاب عنه ابن القيم من خمسة وجوه نذكرها مختصرة من قوله رحمه الله :

أولا : إستحى عمر من مخالفة ابى بكر في إعترافه بجواز الخطأ عليه ويدل على ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أقرّ عند موته أنه لم يقض في الكلالة بشيء وقد إعترف أنه لم يفهمها .

ثانيا : أن خلاف عمر لابي بكر أشهر من أن يذكر كما خالفه في سبى أهل الردة فساهم أبو بكر وخالفه عمر وبلغ خلافه الى أن ردهن حرائر إلى أهلهن إلا من ولدت لسيدها منهن ، وخالفه في أرض العنوة فقسمها أبو بكر ووقفها عمر وذكر رحمه الله وجوها كثيره في مخالفة عمر لأبي بكر رضي الله عنهما .

ثالثا : أنه لو قدر تقليد عمر لأبي بكر لم يكن في ذلك ستراح لمقلدى من هو بعد الصحابة ممن لا يدانيهم ولا يقاربهم فليكن لكم أسوة بعمر فقلدوا أبا بكر واتركوا غيره .

رابعا : أن المقلدين لأئمتهم لم يستحوا مما استحيا منه عمر لأنهم يخالفون أبا بكر وعمر بل قد صرح بعض غلاتهم في بعض كتبه الأصولية أنه لا يجوز تقليد ابى بكر وعمر ويجب تقليد الشافعي .

خامسا : أن غاية هذا أن يكون عمر قد قلد أبا بكر في مسألة واحدة فهل في ذلك دليل على جواز إتخاذ أقوال رجل بعينه بمنزلة نصوص الشارع ولا يلتفت إلى قول من سواه ؟.

---

(١) اعلام الموقعين : ٢٣٤/٢

(٢) نفس المرجع : ٢٠٢/٢

أما عن قولهم أن عمر قال لأبي بكر : رأينا لرأيك تبع : فالظاهر أن المحتج بهذا سمع الناس يقولون كلمة تكفي العاقل فاقتصر من الحديث على هذه الكلمة ، واكتفى بها ، والحديث من أعظم الأشياء إبطالاً لقوله ، ففي صحيح البخاري عن طارق بن شهاب قال : جاء وفد بزاخة من أسد وغطفان إلى أبي بكر يسألونه الصلح ، فخيرهم بين الحرب المجلية والسلم المخزيه فقالوا : هذه المجلية عرفناها فما المخزية ؟ قال : ننزع منكم الحلقه والكراع ، ونغنم ما أصبنا لكم ، وتردون ما أصبتم منا ، وتدون لنا قتلانا ، وتكون قتلاكم في النار وتتركون أقواماً يتبعون أذناب الإبل حتى يرى الله خليفة رسوله والمهاجرين أمراً يعذرونكم به ، فعرض أبو بكر ما قاله على القوم ، فقام عمر بن الخطاب فقال : قد رأيت رأياً سنشير عليك ، أما ما ذكرت من الحرب المجلية والسلم المخزية ، فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت من أن نغنم ما أصبنا منكم وتردون ما أصبتم منّا فنعم ما ذكرت ، وأما ما ذكرت من أن تدون قتلانا وتكون قتلاكم في النار فإن قتلانا قاتلت فقتلت على أمر الله أجورها على الله ليس لها ديات ، فتتابع القوم على ما قال عمر " (١) فهذا هو الحديث الذي بعض الفاظه " قد رأيت رأياً ورأينا لرأيك تبع " فأي مستراح لفرقة التقليد في هذا؟(٢) .

أما عن قولكم كان الصحابة يفتون ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم وهذا تقليد من المستفتين لهم .

جوابه أن فتواهم إنما كانت تبليغاً عن الله ورسوله وكانوا بمنزلة الدخبرين فقط فهم لم يكونوا يقلدون في فتواهم ولا يفتون بغير النصوص ولم يكن المستفتون لهم يعتمدون إلا ما يبلغونهم إياه عن نبيهم فيقولون أمر بكذا وفعل كذا ونهى عن كذا وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم من أفتى بغير السنه منهم كما أنكر على أبي السنابل وكذبه وأنكر على من أفتى برجم الزاني البكر (٣) وأنكر على من أفتى باغتسال الجريح حتى مات (٤)،(٥) .

---

(١) البخاري كتاب الأحكام ١٢٧/٨ باب ٥١ روى طرفاً منه ، ورواه ابو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي في الاكتفاء في مغازي المصطفى أربع مخطوطات مجتمعه تحقيق د. أحمد غنيم ، الطبعة الثانيه ١٤٠١ ، سماه حروب الرده ، ص : ٩٠ - ٩١

(٢) انظر اعلام الموقعين : ٢٣٧/٢

(٣) رواه البخاري في كتاب الصلح ١٦٧/٣ رقم الباب (٥)

(٤) رواه ابو داود في كتاب الطهاره معالم السنن للخطابي ١٠٤/١

(٥) اعلام الموقعين : ٢٥١/٢

وذكر رحمه الله كثيراً من الأدلة وأقوال الصحابة والتابعين على أن الصحابة رضوان الله عليهم وتابعيهم لم يكونوا يقلدون أحداً ولم يكن أحد يفتي برأيه بل بما جاءه من النصوص عن الله ورسوله بل ذكر رحمه الله كثيراً من أقوال الصحابه في ذم الرأى كقول أبي بكر رضي الله عنه : أى أرض تقلني وأى سماء تظلني إن قلت في آية من كتاب الله برأيي أو بما لا أعلم .

وقول عمر رضي الله عنه وهو على المنبر : ياأيها الناس إن الرأى إنما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم مصيباً إن الله كان يريه وإنما هو منا الظن والتكلف (١) ونقل كثير من أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم في ذم الرأى فكيف يظن المقلد أن الصحابة يقلدون أحداً غير رسول الله أو واحداً لا حجة معه .

والمراد أن التقليد الذي نفاه ابن القيم رحمه اللهوبين حرمته كما بيناه سابقاً ينقسم إلى ثلاثة اقسام :

احدها : الإعراض عما أنزل الله وعدم الإلتفات إليه إكتفاء بتقليد الآباء .

ثانيها : تقليد من لا يعلم المقلد أنه أهل لأن يوخذ بقوله .

ثالثها : التقليد بعد قيام الحجة وظهور الدليل على خلاف قول المقلد .

والفرق بين الأول والثالث أن الأول قلد قبل تمكنه من العلم والحجه، والثالث قلد بعد ظهور الحجة له ، وقد ذم الله تعالى هذه الأنواع الثلاثة في كتابه (٢) .

متى يسوغ التقليد

بعد أن عرفنا رأى ابن القيم في التقليد وأدلة تحريمه وأنواع التقليد المحرم ، فقد يخطر في بال القارىء أنه يحرم التقليد مطلقاً ولكنه رحمه الله يوضح هذا الأمر بقوله :

ولا ندعى أن الله فرض على جميع خلقه معرفة الحق بدليله في كل مسأله من مسائل الدين دقه وجله وإنما أنكرنا ما أنكره الأئمة ومن تقدمهم من الصحابة والتابعين وما حدث في الإسلام بعد إنقضاء القرون الفاضله في القرن الرابع المذموم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من نصب رجل واحد وجعل فتاويه بمنزلة نصوص الشارع بل تقديمها عليه وتقديم قوله على أقوال

---

(١) اعلام الموقعين : ٥٤/١

(٢) نفس المرجع : ١٨٧/٢

من بعد الرسول من جميع علماء أمته والإكتفاء بتقليده عن تلقي الأحكام من كتاب الله وسنة رسوله وأقوال الصحابه (١) .

فهو لا يوجب على كل أحد أن يعرف كل مسأله بدليلها بل على العبد أن يتقي الله بحسب إستطاعته فيقول رحمه الله :

أن الله تعالى أوجب على العباد أن يتقوه بحسب إستطاعتهم ، وأصل التقوى معرفة ما يتقى ثم العمل به فالواجب على كل عبد أن يبذل جهده في معرفة ما يتقيه مما أمره الله به ونهاه عنه ثم يلتزم طاعة الله ورسوله ، وما خفي عليه فهو فيه أسوة بأمثاله ممن عدا الرسول صلى الله عليه وسلم فكل أحد سواه قد خفي عليه بعض ما جاء به ولم يخرجه ذلك عن كونه من أهل العلم ، ولم يكلفه الله مالا يطيق من معرفة الحق واتباعه قال أبو عمر (٢) : فاذا أوجب الله سبحانه على كل أحد ما استطاع وبلغته قواه من معرفة الحق وعذره فيما خفي عليه منه فأخطأ أو قلد فيه غيره كان ذلك هو مقتضى حكمته وعدله ورحمته (٣) .

فالواجب على كل عبد أن يعرف ما يخصه من الأحكام ولا يجب عليه أن يعرف مالا تدعوه الحاجة إلى معرفته (٤) .

وهذه الأحكام التي يجب على العباد معرفتها والعلم بها فرض عين على كل عبد هي أنواع :

والنوع الاول منها : علم أصول الإيمان الخمسة ، الإيمان بالله وملائكه وكتبه ورسله واليوم الآخر .

النوع الثاني : علم شرائع الإسلام واللازم منها علم ما يخص العبد من فعلها كعلم الوضوء والصلاة والصيام والزكاة والحج وتوابعها وشروطها وبطلاتها .

النوع الثالث : علم المحرمات الخمسة التي إتفقت عليها الرسل والشرائع والكتب الإلهيه وهي المذكورة في قوله تعالى : ((قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله مالا تعلمون)) (٥) .

---

(١) اعلام الموقعين : ٢٦٣/٢

(٢) سبق تعريفه في ص: ٢٨٩

(٣) اعلام الموقعين : ٢٦٥/٢

(٤) نفس المرجع : ٢٥٧/٢

(٥) الايه من سورة الاعراف : ٣٣

النوع الرابع : علم أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً والواجب في هذا النوع يختلف بإختلاف أحوال الناس ومنازلهم فليس الواجب على الإمام مع رعيته كالواجب على الرجل مع أهل بيته وجيرانه ، وليس الواجب على التاجر من تعلم أحكام البيعات ، كالواجب على من لا يبيع ويشتري (١) .

هذه الأنواع التي ذكرها ابن القيم رحمه الله يرى أن معرفتها فرض عين أما ما سوى ذلك من الأحكام فعليه إن يبذل جهده في إتباع ما أنزل الله وإن خفي عليه بعض فقلد فيه من هو أعلم منه فهذا تقليد محمود ومأجور غير مأزور (٢).

يقول شيخ الاسلام رحمه الله : " ومتى أمكن في الحوادث المشكلة معرفة ما دل عليه الكتاب والسنه كان هو الواجب وإن لم يمكن ذلك لضيق الوقت أو عجز طالب أو تكافؤ الادلة عنده أو غير ذلك فله أن يقلد من يرتضى علمه ودينه (٣).

وقال : وتقليد العاجز عن الإستدلال للعالم يجوز عند الجمهور بشرط أن لا يعارض قول الله ورسوله كائناً من كان المخالف (٤) .

ومن هذه النقول يتضح لنا رأى ابن القيم رحمه الله في منع التقليد الأعمى الذي يخالف ما جاء به الرسول مع إمكان معرفته للحق وعناده وتمسكه بالباطل .

أما متى يجب التقليد :

فلنعرف أولاً أنه نقل عن غير واحد الإجماع على أنه لا يجوز للعالم أن يقلد غيره إذ كان قد إجتهد واستدل وتبين له الحق الذي جاء به الرسول فهنا لا يجوز له تقليد من قال خلاف ذلك بلا نزاع (٥) .

أما اذا بحث العالم عن النص في المسألة فإن لم يظفر بنص عن الله ورسوله ولم يجد فيها سوى قول من هو أعلم منه وجب تقليده ، وهذا فعل أهل العلم فالتقليد إنما يباح للمضطر وهذا مثل ما صرح به الشافعي في قوله : " قلته تقليداً لعمر وقلته تقليداً لعثمان وقلته تقليداً لعطاء مع كونه من الأئمة المجتهدين (٦) .

---

(١) انظر مفتاح دار السعاده : ١٩٨

(٢) اعلام الموقعين : ١٨٨/٢

(٣) فتاوي شيخ الاسلام : ٣٨٨/٢٨

(٤) نفس المرجع : ٢٦١/١٩

(٥) نفس المرجع : ٢٦١/١٩

(٦) انظر اعلام الموقعين : ٢٦٠/٢

كما أنه يجب أن نبين أنه على الداعية المبتدئ أو المتعلم أن التقليد أمر لا مفر منه في الفقه لأنه لا يتسنى إرتقاء سلمه إلا بالإبتداء بدرجة التقليد إذ لا يتصور عملياً أن يستطيع المتعلم القفز بدون مقدمات إلى مستوى الإجتهاد فيتلقى الفقه من المصادر وإن كان هذا حلم جميل يراود أذهان المبتدئين من الدعاة والمتعلمين .

والبداية الصحيحه : هي أن يختار المتعلم إحدى المدارس الأربعة التي إصطلح على تسميتها (بالمذاهب الأربعة) لأنها أوسع واشمل وأقوى بناء وتأسيساً ولأنها خدمة بجهود مؤسيها من الأئمة المجتهدين ثم بجهود علماء المذهب المنتسبين له ثم بجهود المعارضين الذين خدموا المذهب بمناقشة آرائه وأدلته والبداية المتبعه في دراسته فقه المذهب أن يتلقى المتعلم متناً من متونه المعتبره حيث يستوعب بواسطته رؤس المسائل وضروريات الأحكام ويكون هذا المتن مختصراً ويصحب عادة دراسة متن مختصر في أصول المذهب لما بينهما من إرتباط وثيق لا يخفى على المتفقهين .

ولابد من هذا التأسيس ، قبل إقتحام المرحلة المتقدمه التي ينتقل فيها المتعلم إلى دراسة المذهب مع أدلته ثم إلى المقارنه بالمذاهب الأخرى ، وحينئذ يأتي دور دراسة كتب أحاديث الأحكام ، وتفاسير الأحكام حيث يمكن أن يستفيد من دراستها ، وخوض غمارها ولجاجها لأنه بنى لنفسه أساساً علمياً يؤهله لفهم الإختلاف والاستنباط من الأدلة .

وهذا الأمر لابدّ منه أن أريد للشريعة الإسلامية أن تنبعث من جديد ويمكن الخلاص من ربقة التقليد (١) .

---

(١) انظر مقدمة الشيخ عبدالعزيز القارىء بتحقيق كتاب الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي للشيخ محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي نشر المكتبه العلميه بالمدينه المنوره الطبعه الاولى١٣٩٦هـ.

أصوله التي اعتمدها في الفتوى

مذهبه

المشهور عن ابن القيم ومن خلال ترجمته (١) ومما يتضح من أقواله عند سياق بعض المسائل الفقهيه قوله : قال أصحابنا : أنه حنبلي المذهب كأسلافه.

وإن كان نشأ على المذهب الحنبلي فانه يرى هو وشيخه رحمهما الله أنه أقرب المذاهب لسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم (٢) ومع هذه النظره لما يتمتع به مذهب الإمام أحمد رحمه الله إلا أنه ليس لهما من إتباع المذهب إلا ما أيده الدليل وهو الفاصل عنده (٣) .

فكل مسأله وافقا فيها الإمام أحمد إنما هي موافقه للمذهب عن إجتهاد ومعرفه ، وكونه رحمه الله قد بين أصول الإمام أحمد وحرر فروعه لا يعني ذلك أنه مانعا' له من مخالفة المذهب إذا وجد الدليل مع سواه (٤) وقد خالف المذهب في كثير من المسائل وعلى سبيل المثال عندما ذكر خلاف الفقهاء في شهادة القريب لقريبه قال :

فمنهم من جوز شهادة القريب لقريبه مطلقا' كالأجنبي ولم يجعل القرابه مانعة من الشهاده بحال كما يقوله محمد بن حزم وغيره من أهل الظاهر وهؤلاء يحتجون بالعمومات التي لا تفرق بين أجنبي وقريب ، وهؤلاء أسعد بالعمومات

---

(١) انظر ذيل طبقات الحنابله : ٤٤٧/٢ للامام زين الدين ابى الفرج عبدالرحمن بن شهاب البغدادي تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة السنه المحمديه القاهره عام١٣٧٢هـ

(٢) قال شيخ الاسلام ابن تيمة : " وأحمد كان أعلم من غيره بالكتاب والسنه وأقوال الصحابة والتابعين لهم باحسان : ولهذا لا يكاد يوجد له قول يخالف نصا' كما يوجد لغيره ولا يوجد له قول ضعيف في الغالب إلا وفي مذهبه قول يوافق القول الأقوى وأكثر مفاريده التي لم تختلف فيها مذهبه يكون قوله فيها راجحا' كقوله بفسخ الإفراد والقران الى التمتع " فتاوى شيخ الاسلام ٢٢٩/٢٠

وقال ابن القيم :" إمام أهل السنة على الإطلاق أحمد بن حنبل الذي ملأ الارض علما' وحديثا' وسنه على أن أئمة الحديث والسنه بعده هم أتباعه إلى يوم القيامه ، كتب من كلامه وفتواه أكثر من ثلاثين سفرا' ومن الله علينا بأكثرها فلم يفتنا منها إلا القليل وجمع الخلال نصوصه في الجامع الكبير فبلغ نحو عشرين سفرا' أو اكثر ورويت فتاويه ومسائله وحدث بها قرنا' بعد قرن فصارت إماما' وقدوة لأهل السنه على إختلاف طبقاتهم حتى أن المخالفين لمذهبه بالإجتهاد والمقلدين لغيره ليعظمون نصوصه وفتاويد ويعرفون لها حقها وقربها من النصوص وفتاوى الصحابه" الاعلام ٢٨/١ .

(٣) انظر في ذلك كتابه زاد المعاد : ٣٨٤/١

(٤) وانظر في ذلك كتابه زاد المعاد : ٣١٨/٢

ومنعت طائفة شهادة الأصول للفروع والفروع للأصول خاصة ، وجوزت شهادة سائر الأقارب بعضهم لبعض ، وهذا مذهب الشافعي وأحمد ، وليس مع هؤلاء نص صريح صحيح بالمنع ، وبعد أن ذكر أدلة المذهب الثاني سرد أدلة أهل القول الأول وذكر الردود على القول الثاني ثم رجح القول الأول بقوله : والصحيح أنه تقبل شهادة الإبن لأبيه والاب لبنيه فيما لا تهمة فيه (١) .

فهو رحمه الله كما قال عنه الشوكاني:" متقيداً بالأدلة الصحيحه معجباً بالعمل بها غير معول على الرأى صادعاً بالحق لا يحابي فيه أحداً " (٢) .

وقد حذر رحمه الله المفتين من الإفتاء بالمذهب مع علمهم بأن مذهب غيرهم في تلك المسأله أرجح وأصح دليلاً فيكون خائنا لله ورسوله والسائل ثم يصف حاله فيما يرد عليه من المسائل التي يعتقد فيها خلاف المذهب فيقول :

وكثيرا ما ترد المسأله نعتقد فيها خلاف المذهب فلا يسعنا أن نفتي بخلاف ما نعتقده فنحكي المذهب الراجح ونرجحه ونقول هذا هو الصواب وهو أولى أن يوخذ به (٣) .

وليس أدل على ذلك من محاربته رحمه الله تعالى للتقليد الأعمى والتعصب لأقوال الرجال مما يرجح أنه كان حنبلياً ما قام الدليل .

أولا : النصوص (٤)، (٥)

داعيه مثل ابن القيم تحرى أقوال السلف ودافع عنهم ونصر أقوالهم لا يكون لمثله أصل مقدم على النصوص ـ الكتاب والسنه ـ فهي الأصل الأصيل لفتاويه

---

(١) انظر أعلام الموقعين : ١١١ الى ١١٨ ومخالفته كذلك للامام أحمد في فتواه بجواز السباق بدون محلل ، انظر ذلك في كتاب الفروسيه ص : ٢٠

(٢) البدر الطالع للشوكاني : ١٤٣/٢ ط الأولى ١٣٤٨ هـ مطبعة السعادة بمصر

(٣) أعلام الموقعين : ١٧٧/٤

(٤) انظر ما تقدم ص: ٢٦٠

(٥) ليس هناك خلاف ظاهر بين أصول ابن القيم وأصول مذهبه فأصول أحمد كما نقلها ابن القيم خمس هي :

أولا : النصوص فإذا وجد النص أفتى بموجبه ولم يلتفت إلى من خالفه كائنا من كان .

ثانيا : ما أفتى به الصحابه إن لم يعرف له مخالف منهم .

ثالثا : الإختيار من أقوال الصحابه إن اختلفوا ويختار ما كان أقربها الى الكتاب والسنه فان لم يتبين له موافقة أحد الأقوال حكى الخلاف فيها ولم يجزم بقول .

رابعا : الأخذ بالحديث المرسل والضعيف اذا لم يكن في الباب ما يدفعه وليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر ولا ما في روايته متهم بل هو قسيم الصحيح==

وما يستنبطه من أحكام ولا يمكن أن يحيد عنها أو يتجاوزها إلى ما سواها إذا ما صح النص عنده كما أن الكتاب مقدم على السنه كما قال رحمه الله :

فكانت فتاويه صلى الله عليه وسلم جوامع الأحكام ومشتملة على فصل الخطاب وهي في وجوب إتباعها وتحكيمها والتحاكم إليها ثانية الكتاب وليس لأحد من المسلمين العدول عنها ما وجد إليها سبيلاً وقد أمر الله بالرد إليها (١) حيث قال: ((فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا)) (٢) .

فحق على من كان في سعادة نفسه ساعياً وكان قلبه حياً عن الله واعياً أن يجعل هذين الأصلين مدار أقواله وأعماله وأن يصيرهما أخيته التي إليها مفزعه في حياته (٣) .

وقد ساق الأدلة المتنوعه على تحريم الإفتاء بما يخالف النصوص وأن الإجتهاد والتقليد يسقط عند ظهور النص ، فذكر الأدلة من كتاب الله ومن أقوال رسوله

== ومن أقسام الحسن فان لم يجد في الباب أثراً يدفعه ولا قول صاحب ولا اجماع على خلافه كان العمل به عنده أولى من القياس .
خامساً : القياس للضروره عند فقدان الأصول السابقه ، انظر الاعلام ٣١/١
كما يلاحظ أن هناك بعض الاصول التي اعتمدها الامام أحمد كما اعتمدها شيخ الاسلام ابن تيمية وابن القيم كما سنرى ذلك ان شاء الله لم يعدها ابن القيم في اصول أحمد وهي الاجماع والمصالح المرسله ، والاستصحاب وسد الذرائع.
وتعليل هذا بأن نقول ان هذه الأصول معتمده على الاصول السابقة لا تفتقر عنها فلا اجماع بغير نص وكما أن بقية الاصول هي من باب الرأى المعتمد على القياس على الاصول السابقه ، قال الشاطبى : الادلة الشرعيه ضربان:احدها ما يرجع الى النقل المحض وهو الكتاب والسنه والحق به لاجماع ومذهب الصحابي وشرع من قبلنا .
والثاني:الرأى المحض وهو القياس والاستدلال والحق بهما الاستحسان والمصالح المرسله ان قلنا انها راجعة الى امر نظري ، ثم قال وهذه التسمية بالنسبة الى اصول الادله والا فكل واحد من الضربين مفتقر الى الآخر لأن الاستدلال بالمقولات لابدّ فيه من النظر كما أن الرأى لا يعتبر شرعاً الا اذا استند الى النقل (١) ـــ الموافقات في اصول الاحكام بتصرف ٢١/٣ للحافظ ابى اسحاق بن موسى الخمى الشهير بالشاطبى دار الفكر للطباعه والنشر .
ووجه ابن القيم في عدم ذكر الاجماع أن الاجماع المعترف بوجوده عند الحنابلد إجماع الصحابه وقد أدرج رحمه الله المصالح المرسله والاستصحاب وسد الذرائع في القياس باعتبار أن ذلك من الرأى .

(١) الاعلام : ١١/١ (٢) الاية من سورة النساء : ٥٩
(٣) مفتاح دار السعاده : ٤٧/١

المصطفى وأفعاله وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام (١) على تحريم الإفتاء بما يخالف النصوص وذلك لأن جميع الأحكام المتعلقه بأفعال المكلفين والحوادث النازله بهم موجودة في النصوص الوارده عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم كما يقول ابن القيم :

وقد بين الله على لسان رسوله بكلامه وكلام رسوله جميع ما أمر به وجميع ما أحله وجميع ما حرمه وجميع ما عفا عنه وبهذا يكون دينه كاملا كما قال تعالى:((اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي))(٢) ولكن قد يقصر فهم أكثر الناس عن فهم ما دلت عليه النصوص وعن وجه الدلالة وموقعها وتفاوت الأمه في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يحصيه إلا الله (٣) .

وقد بين رحمه الله أن الأصول التي يعتمد عليها المسلم في جميع أموره أصلين لا ثالث لهما : كلام الله وكلام رسوله وما عداهما فمردود إليهما (٤) .

يعني ذلك أن الأصول الأخرى التي إعتمدها العلماء مثل القياس والإستصحاب والمصالح المرسلة وغيرها فإنها جميعا راجعة إلى الأصلين الأولين ويوضح ذلك بقوله:

النصوص محيطة بأحكام الحوادث ولم يحلنا الله ورسوله على رأى ولا قياس بل قد بين الأحكام كلها والنصوص كافية وافية بها ، والقياس الصحيح حق مطابق للنصوص فهما دليلان للكتاب والميزان ، وقد تخفى دلالة النص أو لا تبلغ العالم فيعدل إلى القياس (٥) وكذا الإجماع فإن الأمة لا تجمع على خطأ أبدا فإذا أجمعت أجمعت على أمر واضح في شرع الله ووحيه من كتاب وسنه . .

وإذا كانت النصوص قسمين كتاب ، وسنه فهل هما في منزلة واحده أم احدهما مقدم على الآخر وهل بينهما علاقة تربط بينهما وهل يمكن أن تتعارض فيما بينها واذ حصل ذلك فما العمل ونريد أن نعرف موقف ابن القيم ازاء هذه الامور؟:

فهو يرى كما يرى علماء السنه أن القرآن الكريم مقدم على السنه وأنه الأصل الأول الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وأن أولى ما يفسر هذا القرآن بعضه ببعض أولى التفاسير ما وجد اليه السبيل (٦) والعلاقة التي تربط بينهما

---

(١) الاعلام : ٢٧٩/٢ وما بعدها .
(٢) الايه من سورة المائده : ٣
(٣) اعلام الموقعين : ٣٣٢/١
(٤) نفس المرجع : ٣٣٠/٢
(٥) نفس المرجع : ٣٣٧/١
(٦) مختصر الصواعق : ١٨٧/٢

أنهما من عند الله وإذا كانا من عند الله فإنه لا يمكن أن يحصل التعارض بينهما بحال من الأحوال فالسنه لا تعارض القرآن كما أنهما على أعلى درجة من الوضوح والبيان وهما متطابقان يعضد بعضهما بعضاً كما يقول :

فهذا كتاب الله ليس فوق بيانه مرتبة في البيان وهذه سنة رسوله صلى الله عليه وسلم مطابقة له أعظم من مطابقة البيان للسان (١) .

ويقول : والذي يجب على كل مسلم إعتقاده أنه ليس في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحه سنه واحده تخالف كتاب الله،بل السنة مع كتاب الله على ثلاث منازل :

المنزلة الاولى : سنة موافقة شاهدة بنفس ما شهد به الكتاب المنزل .

المنزلة الثانيه : سنة تفسر الكتاب وتبين مراد الله منه وتقيد مطلقه .

المنزلة الثالثه : سنة متضمنه لحكم سكت عنه الكتاب فبينته بياناً مبتدأ (٢)

ولا تخرج عن هذه الأقسام فلا تعارض القرآن بوجه ما فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريع مبتدأ من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله بل امتثالاً لما أمر الله به من طاعة الرسول ولو كان الرسول لا يطاع في هذا القسم لم تكن له طاعة خاصة به (٣) .

ثم يوضح الأسباب التي تجعل مخالفة السنة للكتاب من باب المحال وأن من قال بتعارضها فان ذلك يردّ سنن رسول الله ويبطلها بل أن ذلك يؤدي بالانسان إلى الإنحراف عن منهج الإسلام الذي بناه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما حصل من بعض الفرق فيقول :

كيف ورسول الله هو المبين لكتاب الله وعليه أنزل ، وبه هداه الله ، وهو مأمور باتباعه ، وهو أعلم الخلق بتأويل مراده ، ولو ساغ رد سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فهمه الرجل من ظاهر الكتاب ، لردت بتلك أكثر السنن وبطلت بالكلية .

فما من أحد يحتج عليه بسنة صحيحة تخالف مذهبه ونحلته إلا ويمكنه أن يتشبث بعموم آية أو إطلاقها ويقول : هذه السنة مخالفة لهذا العموم والإطلاق

---

(١) مختصر الصواعق المرسله : ١٨٣/١

(٢) الطرق الحكميه لابن القيم : ١٠١

(٣) اعلام الموقعين : ٣٠٧/٢

فـلا تقبـــــل .

حتـى أن الرافضـة - قبحهـم اللـه - سلكـوا هـذا المسلـك بعينـه فـردوا السنـن الثابتـه المتواتـرة ، فـردوا قـولـه صلـى اللـه عليـه وسلـم :(لا نـورث ما تركنـاه صدقـه)(١) وقـالوا هـذا حـديـث يخـالـف كتـاب اللـه ، قـال تعالـى : ((يوصيكـم اللـه في أولادكـم للـذكـر مثـل حـظ الأنثيين)) (٢) .

ورد ت الجهميـة ما شـاء اللـه مـن الأحاديـث الصحيحـة في إثبات الصفـات بظـاهر قولـه تعالـى : ((ليـس كمثلـه شـيء)) (٣)

ورد ت الخـوارج مـن الأحاديـث الـدالـة علـى الشفاعـة وخـروج أهـل الكبـائـر من الموحدين مـن النـار بمـا فهمـوه من ظـاهـر القـرآن (٤) .

وهكـذا كـــل مـن حاول الأخـذ بظـاهـر القـرآن ورد سنـن رسـول اللـه فإن مصيره الإنحـراف عـن منهـج الإسـلام ، كمـا أن القـرآن لا يعـارض السنـة فكذلـك السنـة الصحيحة لا تعارض بعضهـا البعـض فـإذا وجـد ذلـك كـان ذلـك أحـد ثـلاث وجـوه :

أولهـا : يكـون أحـد الحديثيـن ليـس مـن كـلامـه صلـى اللـه عليـه وسلـم وقـد غلـط فيـه بعـض الـرواه مـع كـونـه ثقـه .

ثانيهما : أن يكـون أحـد الحديثيـن نـاسخـاً للآخـر إذا كان مما يقبـل النسـخ .

ثالثهما : لا تعارض فـي الحقيـقـه وإنما التعارض فـي فهـم السامـع لا فـي نفـس كـلامـه صلـى اللـه عليـه وسلـم .

ثـم يقـول : فلابـدّ من وجـه مـن هـذه الوجـوه الثـلاثـة وأما حديثـان صحيحـان صريحـان متناقضـان مـن كـل وجـه ليـس أحدهمـا ناسخـاً للآخـر فهـذا لا يـوجـد أصلاً ومعـاذ اللـه أن يـوجـد فـي كـلام الصادق المصـدوق الـذي لا يخـرج مـن بيـن شفتيـه إلا الحـق ، والآفـة من التقصـير فـي معرفـة المنقـول والتمـييز بيـن صحيحـه ومعلولـه أو مـن القصـور فـي فهـم مـراده صلـى اللـه عليـه وسلـم وحمـل كـلامـه علـى غـير ماعنـاه بـه أو منهمـا معـاً ومـن هـاهنـا وقـع الإختـلاف والفسـاد ، وقـد رد رحمـه اللـه علـى مـن قـال بتضـارب الأحـاديـث فـي مـوضـوع العـدوى وبيـن أن الأحاديـث ليـس فيهـا تضـارب وأن لكـل منهـا معنـى ووقـت ومـوضـع فإذا وضـع موضعـه زال الإختـلاف (٥) .

---

(١) رواه البخاري في باب فـرض الخمـس ١ جـ ٤٢/٤

(٢) سـورة النسـاء : ١١

(٣) سـورة الشـورى : ١١

(٤) الطـرق الحكميـه : ١٠١

(٥) زاد المعـاد : ١٤٩/٤

ومما تقدم يتضح أن ابن القيم لا يقدم على القرآن شيئاً كما أن تفسير القرآن بالقرآن أولى من غيره إن أمكن ذلك كما أن السنه الصحيحة موافقة للقرآن معاضدة له ولا يمكن أن تعارضه بوجه من الوجوه وأن من رد السنه بظاهر القرآن فقد خالف أمر الله تعالى ، كما أن السنة تأتي بحكم زائد عن القرآن الكريم وهو تشريع من النبي صلى الله عليه وسلم تجب طاعته فيه ولا تحل معصيته وكما أن السنة لا تعارض القرآن فإن السنن لا تعارض بعضها البعض ، وهذه الصفة في النصوص مما يدل على نبوة النبي صلى الله عليه وسلم وصحة رسالته .

ثانياً : فتاوى الصحابه

إذا لم يجد النص عن الله ورسوله إنتقل رحمه الله الى فتوى الصحابة رضوان الله عليهم ولا شك أنها أصل من أصول التشريع الإسلامي أخذ بها سلف هذه الأمة لأن الصحابة سادات المفتين والعلماء وهم الذين قاموا بالفتوى بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهم كما يقول ابن القيم :

برك (١) الإسلام وعصابة الإيمان وجند الرحمن أليق الأمه قلوباً ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفا ، وأحسنها بياناً ، وأصدقها إيماناً وأعمقها نصيحة وأقربها إلى الله وسيله (٢) .

وفتوى الصحابي عنده حجة وأصل من أصول فتاويه التي لا يخرج عنها إذا وجدها وصحت الرواية ولم تكن مخالفة لنص صريح وقد قال رحمه الله في معرض الرد على الغلاة ممن منع تقليد الخليفتين ابي بكر وعمر وأوجب تقليد متبوعه:

ونحن نشهد الله علينا شهادة نسأل عنها يوم نلقاه أنه إذا صح عن الخليفتين الراشدين اللذين أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباعهما والإقتداء بهما قول ، وأطبق أهل الأرض على خلافه لم نلتفت إلى أحد منهم (٣)

هذا فيما يتعلق بالخليفتين الراشدين أما عن مجمل الصحابة فقد ساق الأدلة في كتابه أعلام الموقعين وقال :

الأدلة على أن إتباع الصحابة واجب .

أستدل على ذلك بقوله تعالى : ((والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان ، رضى الله عنهم ورضوا عنه))(٤) ووجه الدلاله

---

(١) صدر كل شيء .

(٢) اعلام الموقعين : ١١/١ (٣) نفس المرجع : ٢٣٦/٢

(٤) الايه من سورة التوبه : ١٠٠

أن الله أثنى على من إتبعهم فإذا قالوا قولا فاتبعهم متبع عليه قبل أن يعرف صحته فهو متبع لهم فيجب أن يكون محمودا على ذلك .

وقوله تعالى : ((ويرى الذين أوتو العلم الذي أنزل إليك من ربك هو الحق))(١) ، وقوله : ((حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفا)) (٢) .

وهذه شهادة من الله لهم بأنهم أوتوا العلم .

وقوله تعالى : ((ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين))(٣) قال غير واحد من السلف هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم .

واستدل من سنة المصطفى على وجوب إتباع الصحابة بقوله صلى الله عليه وسلم : (خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) (٤) .

وما رواه مسلم من حديث ابي موسى الأشعري قال : صلينا المغرب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : لو جلسنا حتى نصلي العشاء ، فجلسنا ، فخرج علينا فقال : (مازلتم ههنا ؟) فقلنا : يارسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نصلي معك العشاء ، قال : (أحسنتم وأصبتم) ورفع رأسه إلى السماء وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء فقال : (النجوم أمنة للسماء فاذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد وأنا أمنة لأصحابي ، فاذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون ، وأصحابي أمنة لأمتي فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون) (٥) ووجد الدلالة أنه جعل نسبة أصحابه إلى من بعدهم كنسبته إلى أصحابه (٦) .

وقد ذكر رحمه الله أكثر من خمس وأربعين وجها تدل على وجوب إتباع الصحابة رضوان الله عليهم من القرآن والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين في طياتها الرد على من خالف ذلك .

الأدلة العقلية

كما أنه رحمه الله ذكر الأدلة العقلية التي تجعل من قول الصحابي حجة يجب

---

(١) الاية من سورة سبأ : ٦

(٢) الاية من سورة محمد : ١٦

(٣) الاية من سورة التوبه: ١١٩

(٤) رواه البخاري في فضائل الصحابة باب رقم ١ ح ١٨٩/٤

(٥) رواه مسلم في فضائل الصحابه برقم ٢٠٧ ح ١٩٦١/٤

(٦) انظر اعلام الموقعين: ١٢٣/٤ الى ١٥٦ وانظر كذلك ٢٦١/٢ وما بعدها .

الأخذ بها ونحن نذكرها مختصرة من قوله رحمه الله حيث قال :

لما خصهم الله به من العلم ، والفهم ، والفضل ، والفقه عن رسول الله وشاهدوا الوحي والتلقي عن رسول الله بلا واسطه ، ونزل الوحي بلغتهم وهي غضه محضه لم تُشَبْ ، ومراجعتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أشكل عليهم من القرآن والسنه حتى يجليه لهم من لهم هذه المزيه بعدهم (١).

كما أن فتوى الصحابي التي يفتي بها لا تخرج عن ستة أوجه تجعل فتوى الصحابي حجة يجب اتباعها :

أحدها : أن يكون سمعها من النبي صلى الله عليه وسلم .

الثاني : أن يكون سمعها ممن سمعها منه .

الثالث : أن يكون فهمها من أية من كتاب الله فهما خفي علينا .

الرابع : أن يكون إتفق عليها ولم ينقل إلينا إلاقول المفتي بها وحده .

الخامس : أن يكون لكمال علمه باللغة ودلالة الألفاظ على الوجه الذي إنفرد به عنا أو لقرائن حالية إقترنت بالخطاب أو لمجموع أمور فهموها على طول الزمن من رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ومشاهدة أفعاله وأحواله وسيرته وسماع كلامه والعلم بمقاصده وشهود تنزيل الوحي ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون فهم ما لا نفهمه نحن وعلى هذه التقادير تكون فتواه حجة يجب إتباعها .

السادس : أن يكون فهم مالم يرده الرسول ، وأخطأ في فهمه ، والمراد غير ما فهمه وعلى هذا التقدير لا يكون قوله حجة ومعلوم قطعا أن إحتمال من خمسة أغلب على الظن من وقوع إحتمال واحد معين (٢) .

ما الحكم إذا أختلف الصحابه :

لا شك أن الصحابي إذا قال قولا إما أن يوافقه الصحابة وإما أن يخالفوه فإن قال قولا : لم يخالف الصحابي صحابي آخر فإما أن يشتهر قوله في الصحابه أو لا يشتهر ، فإن اشتهر فالذي عليه جماهير الطوائف من الفقهاء أنه إجماع وحجة .

وإن لم يشتهر قوله أو لم يعلم هل أشتهر أم لا فاختلف الناس هل هو حجة

---

(١) أعلام الموقعين : ٢٦١/٢

(٢) نفس المرجع : ١٤٨/٤

أم لا ؟ فالذي عليه جمهور الأمة أنه حجة قال به جمهور الحنفية وهو مذهب مالك وأصحابه ، وإسحاق بن راهويه ومنصوص الإمام أحمد والشافعي وغيرهم (١) .

هذا إذا لم يوجد للصحابي مخالف أما إذا إختلف الصحابة فإن لابن القيم موقف في ذلك فإنه يقدم قول الأفضل في ذلك فإن منزلة الصحابة رضوان الله عليهم تتفاوت في الفضل والعلم فإن كانا سواء لم يكن قول أحدهما حجة على الآخر بل ينظر في أقربهما إلى الكتاب والسنه والقياس الصحيح وإن خالفه أعلم منه كما إذا خالف الخلفاء الراشدون أو بعضهم غيرهم من الصحابة في حكم فإن الشق الذي فيه الخلفاء أو بعضهم أرجح وأولى أن يؤخذ به من الشق الآخر، فان كان الأربعة في شق فلا شك أنه الصواب ، فإن كان أكثرهم في شق فالصواب فيه أغلب وإن كانوا إثنين وإثنين فشق أبي بكر وعمر أقرب إلى الصواب فإن إختلف ابو بكر وعمر فالصواب مع أبي بكر وهذه الجملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة وإطلاع على ما أختلف فيه الصحابة وعلى الراجح من أقوالهم (٢) .

الإجماع

الإجماع في اللغة : العزم والإتفاق قال تعالى : ((فأجمعوا أمركم))(٣) أي إعزموا ويقال أجمع القوم على كذا أي إتفقوا عليه (٤) .

وفي الاصطلاح : إتفاق جملة أهل الحل والعقد من أمة محمد في عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع (٥) .

والإجماع من الأصول المعتبره عند ابن القيم ويأتي في المرتبة الثالثة بعد الكتاب والسنة فعندما ذكر الأصول المعتبرة عند الأئمة ذكر الإجماع ثالثها فقال :

والأصول كتاب الله وسنة رسوله وإجماع أمته والقياس الصحيح الموافق للكتاب والسنة (٦) .

" والإجماع متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة " (٧) .

---

(١) اعلام الموقعين : ١٢٠/٤ (٢) نفس المرجع : ١١٩/٤

(٣) الآية من سورة يونس : ٧١

(٤)،(٥) انظر الاحكام في أصول الأحكام للآمدى ١٤٧/١-١٤٨ ، وانظر المدخل الى مذهب الامام أحمد بن حنبل للشيخ عبدالقادر بن أحمد بن مصطفى المعروف بابن بدران الدمشقي مؤسسة دار العلوم بيروت ص ١٢٨ وروضة الناضر لابن قدامه ١١٦

(٦) اعلام الموقعين : ٣٣٠/٢

(٧) فتاوي شيخ الاسلام : ٣٤١/١١

وابن القيم رحمه الله من جملة السلف الذين أخذوا بالإجماع على أنه أصل من أصول التشريع فكثيراً ما نراه يذكر الإجماع كدليل يستدل به على إثبات مايرجحه من الأحكام كما نقل قول الشافعي : أجمع المسلمون على أن من إستبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يدعها لقول أحد من الناس .

وقوله قال أبو عمر (١) وغيره من العلماء :

أجمع الناس على أن المقلد ليس معدوداً من أهل العلم (٢) .

كما أنه استدل رحمه الله بإجماع الفقهاء على مسائل في القياس كصيد ما عدا المكلب من الجوارح قياساً على الكلاب من قوله تعالى : ((وما علمتم من الجوارح مكلبين)) (٣) وقوله تعالى : ((والذين يرمون المحصنات)) (٤) فدخل في ذلك المحصنون قياساً والعلماء مجمعون على ذلك (٥) .

وهو كذلك عندما يفند قول من خالفه في مسألة من المسائل يبين أن مخالفه لم يعتمد في قوله على دليل من كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا قياس صحيح.

كل ذلك يبرهن لنا أن ابن القيم رحمه الله يأخذ بالإجماع وأنه أصل من أصوله التي يعتمد عليها في أحكامه الشرعيه .

إلا أنه رحمه الله عندما عدد أصول الإمام أحمد لم يذكر الإجماع منها وقال عنه أنه :

لم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً ولا قول صاحب ولا عدم علمه بالمخالف الذي يسميه كثير من الناس إجماعاً ويقدمونه على الحديث الصحيح ، وقد كذب أحمد من إدعى هذا الإجماع ، ولم يسغ تقديمه على الحديث الثابت ، وكذلك الشافعي أيضاً نص في رسالته الجديده على أن ما لا يعلم فيه بخلاف لا يقال له إجماع ، ولفظه : " ما لا يعلم فيه خلافاً فليس إجماعاً ".

وقال عبدالله بن أحمد بن حنبل : سمعت أبي يقول : ما يدعى فيه الرجل الإجماع فهو كذب ، من إدعى الإجماع فهو كاذب ، لعل الناس إختلفوا ، مايدريه، ولم ينته إليه ؟ فليقل لا نعلم الناس إختلفوا (٦) .

---

(١) سبق تعريفه ص: ٢٨٩

(٢) انظر الاعلام : ٧/١

(٣) الاية من سورة المائده : ٤

(٤) الايه من سورة النور : ٤

(٥) انظر اعلام الموقعين : ٢٠٥/١

(٦) نفس المرجع : ٣٠/١

فهل هذا دليل على أن الامام أحمد لا يحتج بالإجماع ولا يعتدّ به وهل خالفه ابن القيم في هذا الأصل ؟ .

والحق أن الامام أحمد لم ينكر الإجماع بل كان يسميه عدم العلم بالمخالف ولا يسميه إجماعاً لأنه يرى أن معرفة الإجماع متعذرة بعد عصر الصحابة وتفرقهم في البلاد وكثرتهم مما يجعل وقوفنا على معرفة قول كل فرد من العلماء متعذر ولا يمكن الجزم به ، بعد عصر الصحابه .

أما الصحابه رضوان الله عليهم فيمكن معرفة ذلك منهم وذلك كأن يقول الصحابي قولاً ويشتهر بين الصحابة ولا يعرف لقوله مخالف فيكون ذلك منهم إجماعاً (١) ولكن أحمد رحمه الله لا يسمي ذلك إجماعاً تورعاً منه بل يقول : لا أعرف شيئاً يدفعه كما قال في رواية أبي طالب لا أعلم شيئاً يدفع قول ابن عباس وابن عمر واحد عشر من التابعين عطاء ومجاهد وأهل المدينه على تسرى العبد (٢) .

فالإمام أحمد إستبعد الإجماع المتوهم وهو عدم العلم بالمخالف لا ما يظنه بعض الناس أنه استبعاد لوجوده .

كما أن ابن القيم وشيخه شيخ الاسلام يوافقان الإمام أحمد على رأيه في استبعاد معرفته فقال :

فإن علم المجتهد بما دل عليه القرآن والسنة أسهل عليه بكثير من علمه بإتفاق الناس في شرق الأض وغربها على حكم ، وهذا ان لم يكن متعذراً فهو أصعب شيء وأشقه إلا فيما هو من لوازم الإسلام (٣) .

وقال شيخ الإسلام : " لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة وأما بعد ذلك متعذر العلم به غالباً ولهذا إختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابه واختلف في مسائل منه كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابه والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم والإجماع السكوتي وغير ذلك (٤) .

---

(١) ذكر ابن القيم رحمه الله مثالاً على اجماع الصحابه في كتابه الصلاة وعنون الفصل بقوله " دلالة الاجماع على كفر تارك الصلاة " وذكر اجماع الصحابة على ذلك مبيناً أن عمر رضي الله عنه عندما طعن وسأل عن أمر الصلاة وهل صلى الناس قال :لا حظ في اسلام لمن ترك الصلاة " وقال هذا بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه أحد انظر كتاب الصلاة لابن القيم ، ص : ٥٠

(٢) اعلام الموقعين : ٣٠/١ (٣) نفس المرجع : ٣٣٤/٢

(٤) فتاوي شيخ الاسلام ٣٤١/١١٠

ويتضح مما تقدم أن الإجماع الحق هو إتفاق الصحابة على حكم معين لعدم تفرقهم في البلاد وما عدا ذلك من الإجماع فهو متعذر المعرفة لا متبعد الوجود .

ولعل هذه الأسباب هي التي حدت بابن القيم أن لا يذكر الإجماع من أصول الإمام أحمد بن حنبل .

ويتضح مما تقدم أن الإجماع نوعان قطعي وهو الواقع من الصحابة بلا مخالف منهم وأن لا يكون على خلاف نص ، وأما الظني فهو الإجماع الإقراري أو الإستقرائي وذلك بأن يستقري أقوال العلماء فلا يجد في ذلك خلافاً أو يشتهر القول ولا يعلم أحداً أنكره ، فهذا الإجماع وإن جاز الإحتجاج به فلا يجوز أن تدفع النصوص المعلومة به لأنه حجة ظنية لأنه لا يجزم بانتفاء المخالف(١)

وهذا التصور الصحيح فإن الإجماع إتفاق جميع العلماء في عصر من العصور فلو خالف أحدهم بطل الإجماع وجمع العلماء ومعرفة قولهم جميعا في مشارق الأرض ومغاربها من الصعوبة بمكان أما الصحابة رضي الله عنهم فقد كانوا مجتمعين ثم تفرقوا فلو ثبت إجماعهم على شيء ثبت الإجماع لامكان ذلك .

القياس (٢)

لقد أولى ابن القيم القياس في كتابه الكبير أعلام الموقعين عناية خاصة أكمل بها بنيان القياس وبين حدوده وحمى أصوله ووضح فروعه .

مما يثير الدهشة والعجب من حسن ترتيبه وتوضيحه ومما وضحه به من بيان حسن الشريعة وكمالها وعدم تضاربها الأمر الذي يغرس في القلب حب الشريعة وزيادة الإيمان بها .

ولعل هذا المنهج من المزايا التي إختص بها منهج ابن القيم رحمه الله من جعل دراساته وتحقيقاته مجالاً واسعا ومرتعاً خصباً لتربية النفوس وربطها بالله عز وجل .

وبالرغم من أن الامام ابن القيم رحمه الله قد عالج الموضوع معالجة فذة إلا أننا نلمس فيه تواضع العلماء وذلك عندما قال :

---

(١) انظر فتاوى شيخ الاسلام : ٢٦٨/١٩ بتصرف .

(٢) القياس من الاصول الدختلف فيها بين العلماء ، انظر ادلة التشريع المختلف الاحتجاج بها ص ٢٣ وما بعدها د. عبدالعزيز عبدالرحمن الربيعه ط الثانيه ١٤٠١هـ مطابع الرياض .

وهذه الفصول الثلاثة (١) من أهم فصول الكتاب وبها يتبين للعالم المنصف مقدار الشريعة وجلالتها وهيمنتها وسعتها وفضلها وشرفها على جميع الشرائع وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كما هو عامّ الرسالة إلى كل مكلف فرسالته عامة في كل شيء من الدين أصوله وفروعه ودقيقه وجليله، فكما لا يخرج أحد عن رسالته فكذلك لا يخرج حكم تحتاج إليه الأمه عنها وعن بيانها له .

ونحن نعلم أنا لا نوفي هذه حقها ولا نقاربه وأنها أجل من علومنا وفوق إدراكنا ولكن ننبه أدنى تنبيه ونشير أدنى إشاره (٢) .

وأنا بدوري لا أوفي هذا حقه وإنما أشير الى ما يفتح الباب للقاريء ، بمعرفة منهجه رحمه الله ورأيه في هذا الأصل من أصول الشريعة فإليك ما حاولت به أن أفتح الباب وأوضح المراد .

القياس في اللغة : التقدير ومنه قست الثوب بالذراع إذا قدرته به (٣)

وفي الاصطلاح : " حمل فرع على أصل في حكم بجامع بينهما .

وقيل حكمك على الفرع بمثل ما حكمت به في الأصل لإشتراكهما في العلة التي إقتضت ذلك في الأصل " (٤) .

وعرف بأنه " عبارة عن الإستواء بين الفرع والأصل في العلة المستنبطة من حكم الأصل " (٥) .

ومعاني هذه الحدود متقاربه .

ويرى ابن القيم أنه من أصول الشريعة التي لا يمكن أن يستغني عنه فقيه وأن الصحابة رضوان الله عليهم وسلف هذه الأمه متفقون على القول به (٦) .

---

(١) الفصول الثلاثه هي : الفصل الأول : في بيان شمول النصوص للاحكام والاكتفاء بها عن الرأي والقياس .
الفصل الثاني : في سقوط الرأي والقياس والاجتهاد وبطلانها مع وجود النص .
الفصل الثالث : بيان أن احكام الشريعة كلها على وفق القياس الصحيح وليس فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حكم يخالف الميزان والقياس الصحيح
اعلام الموقعين : ٣٥٠/١

(٢) اعلام الموقعين : ٣٥٠/١

(٣) انظر لسان العرب : ١٨٦/٦ ومختار الصحاح : ٥٥٦

(٤) روضة الناظر وجنة المناظر للامام موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي ٢٤٧

(٥) الاحكام في أصول الاحكام للآمدي : ٩/٣ وقد بحث القياس بحثا جيدا .

(٦) انظر اعلام الموقعين ١٣٠/١

ومثال القياس : أن يقاس النبيذ بالخمر في التحريم بجامع الإسكار في الكل ، فالخمر محرمة بالنص وهو قوله تعالى : ((يأأيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه))(١) وعلة التحريم هي الإسكار ، وقد وجدت في الفرع وهو النبيذ ، فيعطى الفرع مثل حكم الأصل وهو التحريم لاشتراكهما في علة واحده (٢) .

فهل الناس متفقون على أن القياس أصل من أصول الشريعه بالصورة التي يراها ابن القيم رحمه الله .

والحق أن الناس فيه ثلاثة أحزاب طرفان يشد كل منهما الآخر ووسط .

فلنتعرف على هذه الأحزاب المتناحره وموقف ابن القيم منها .

الطرف الأول : منعوا التعبد بالقياس

وهو قول الشيعة والنظام وجماعة من معتزلة بغداد وأهل الظاهر ومنشأ الخلاف بين هؤلاء والأحزاب الأخرى هو : هل الشريعة جمعت بين المختلفات وفرقت بين المجتمعات أو لا ؟ وهل يلزم من التعبد بالقياس الإختلاف المنهي عنه أو لا ؟ (٣) .

وهؤلاء ينفون العلل والمعاني والأوصاف المؤثرة ويجوزون ورود الشريعة بالتفريق بين المتساويين والجمع بين المختلفين ولا يثبت أن الله سبحانه شرع الأحكام لعلل ومصالح وربطها بأوصاف مؤثره فيها مقتضية لها طرداً وعكساً ، وأنه قد يوجب الشيء ويحرم نظيره من كل وجه ويحرم الشيء ويبيح نظيره من كل وجه ، وينهى عن الشيء لا لمفسدة فيه ، ويأمر به لا لمصلحه بل لمحض المشيئة المجرده عن الحكمة والمصلحه (٤) .

وسوف نرى رد ابن القيم رحمه الله تعالى على هذه الفرقة وتفنيد قولهم بأن الله سبحانه فرق بين المتساويين وجمع بين المختلفين ، كما واثبت رحمه الله تعالى ذلك بالأدلة القاطعه واثبت أن الله شرع الأحكام لعلل ومصالح وحكم .

كل ذلك سوف نراه في معرض ذكر أدلة المتوسطين في جواز القياس ان شاء الله تعالى .

---

(١) الاية من سورة المائده : ٩٠

(٢) أدلة التشريع المختلف في الاحتجاج بها : ص١٦ د . عبدالعزيز الربيعة

(٣) انظر نفس المرجع : ٢٤ - ٢٥

(٤) اعلام الموقعين : ١/٢٠٠

ولقد ساق رحمه الله أدلتهم مفصله مبينه مثل قوله تعالى :((يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر))(١) .

وأجمع المسلمون على أن الرد إلى الله سبحانه هو الرد إلى كتابه ، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم هو الرد إليه في حضوره وحياته وإلى سنته في غيبته وبعد مماته والقياس ليس بهذا ولا هذا .

ولأن الله سبحانه وتعالى إنما ردنا إلى كتابه وسنة رسوله ولم يردنا إلى قياس عقولنا وآرائنا قط بل قال تعالى لنبيه : ((وأن احكم بينهم بما أنزل الله)) (٢) ولم يقل بما رأيت أنت وقال : ((ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون))(٣) .

وقال نفاة القياس : والإخبار عنه بأنه حرم ما سكت عنه أو أوجبه قياساً على ما تكلم بتحريمه أو إيجابه تقدم بين يديه .

وقالوا : وقد حرم سبحانه أن نقول عليه ما لا نعلم ، فإذا فعلنا ذلك فقد واقعنا هذا المحرم يقيناً ، فإنا غير عالمين بأنه أراد من تحريم الربا في الذهب والفضه تحريمه في القديد من اللحوم ، وهذا قفو منا ما ليس لنا به علم ، وتعد لما حدّ لنا ومن يتعدّ حدود الله فقد ظلم نفسه (٤) .

وقد أطنب ابن القيم رحمه الله في ذكر أدلتهم من النصوص الدالة على منع القياس وذمه وأنه ليس من الدين ، وأدلتهم من تناقض أقيست القياسيين وتضاربها والتمثيل لذلك ، وذكر ما ورد عن الصحابة والتابعين وغيرهم في ذمهم القياس ومنعهم منه (٥) .

ومن خلال هذا السرد لأدلة المانعين تظهر براعة ابن القيم ويتجلى مظهر من مظاهر منهجه رحمه الله المتمثل : في ذكر أدلة الخصوم والإستفادة من ذلك بضرب بعضها ببعض ، وإيراد مناقشة كل طرف للآخر وإسقاط كل خصم لحجة خصمه ، إضافة إلى ما يدلي به هو من بيان ورد .

وبالتالي ينفرد برأيه الوسط الذي سلم من مناقشاتهم وإيراداتهم مما

---

(١) الاية من سورة النساء : ٥٩

(٢) الاية من سورة المائده : ٤٩

(٣) نفس السوره الايه : ٤٤

(٤) اعلام الموقعين بتصرف : ٢٢٧/١

(٥) انظر نفس المرجع ونفس الصفحه .

يوجب الأخذ به واعتباره المذهب الراجح حيث خرج من بين دم وفرث لبنا سائغا للشاربين (١) .

فعندما ذكر أدلة نفاة القياس والتي يعتبرها جزءا من أدلته في الرد على الطرف الآخر قال :

وقد أحسنوا في إعتنائهم بالنصوص ونصرها والمحافظة عليها وعدم تقديم غيرها عليها من رأي أو قياس أو تقليد .

وهذا التحسين من ابن القيم له نتيجتان :

الأولى : إعطاء كل ذى حق حقه والإنصاف والإعتراف بالحق وإن كان من خصمه وإن لم يكن ذلك مقصود منهم .

الثانية : معرفة منهج ابن القيم وموقفه من النصوص حيث أنه وافقهم على هذا المنهج ونصره وهو عين موقفه من النصوص .

ثم قال بعد ذلك : وأحسنوا في رد الأقيسة الباطله وبيانهم تناقض أهلها في نفس القياس وتركهم له ، وأخذهم بقياس وتركهم ما هو أولى منه (٢) .

فانظر إلى هذه الطريقة الحسنة من ابن القيم في نصر مذهبه فقد أجاز الطرف الأول على نصرهم النصوص وأجازهم في ردهم على القياسيين وبيان تناقضهم وهو عين ما يذهب إليه ابن القيم في رده على الطرف الآخر كما سنرى إن شاء الله إلا أن هذه الوجوه من الحق التي ذكرها ابن القيم للخصوم لم تمنع من وقوعهم في الخطأ من أربعة وجوه كما ذكرها رحمه الله .

أحدها : رد القياس الصحيح ، ولاسيما المنصوص على علته التي يجرى النص عليها مجرى التنصيص على التعميم باللفظ ، ولا يتوقف عاقل في أن قول النبي صلى الله عليه وسلم لمّا لعَنَ عبدالله حمارا على كثرة شربه الخمر : (لا تلعنه ، فإنه يحب الله ورسوله) (٣) بمنزلة قوله : (لا تلعنوا كل من يحب الله ورسوله .

الخطأ الثاني : تقصيرهم في فهم النصوص ، فكم من حكم دل عليه النص ولم يفهموا دلالته عليه ، وسبب هذا الخطأ حصرهم الدلالة في مجرد ظاهر اللفظ ، دون إيمائه وتنبيهه وإشارته وعرفه عند المخاطبين فلم يفهموا من قوله

---

(١) انظر في ذلك كتابه شفاء العليل عندما رد على القدريه والجبريه وكيف أنه استفاد من ادلتهم ورد عليهم بدليل آخر ص ٥١ وما بعدها .

(٢) انظر اعلام الموقعين : ٣٣٨/١ (٣) رواه البخاري : ١٤/٨ بطوله .

تعالى:((ولا تقل لهما أفٍ)) ضرباً ولا سباً ولا إهانة غير لفظ أف، فقصروا في فهم الكتاب كما قصروا في إعتبار الميزان (١) .

الخطأ الثالث : تحميل الإستصحاب فوق ما يستحقه وجزمهم بموجبه لعدم علمهم بالناقل وليس عدم العلم علماً بالعدم .

الخطأ الرابع : إعتقادهم أن عقود المسلمين وشروطهم ومعاملاتهم كلها على البطلان حتى يقوم دليل على صحته ، فإذا لم يقم دليل على صحته شرط أو عقد أو معاملة إستصحبوا بطلانه .

فأفسدوا بذلك كثيراً من معاملات الناس وعقودهم وشروطهم بلا برهان من الله بناء على هذا الأصل ، وجمهور الفقهاء على خلافه وأن الأصل في العقود والشروط الصحة إلا ما أبطله الشارع أو نهى عنه وهذا القول هو الصحيح (٢) .

الطرف الثاني :أوجبوا التعبد بالقياس

وهم أصحاب الرأي

فأولئك منعوا التعبد بالقياس فسدّوا على نفسهم باب التمثيل والتعليل واعتبار الحكم والمصالح وهو من الميزان والقسط فاحتاجوا إلى توسعة الظاهر والإستصحاب فحملوهما فوق الحاجة .

"وبإزائهم هؤلاء الذين فرطوا في القياس وتوسعوا فيه جداً حتى أنهم جمعوا بين الشيئين الذين فرق الله بينهما بأدنى جامع من شبه أو طرد أو وصف يتخيلونه علة يمكن أن يكون علة وأن لا يكون فيجعلونه هو السبب الذي علق عليه الله ورسوله الحكم بالخرص والظن ، وهذا هو الذي أجمع السلف على ذمه "(٣) .

وهؤلاء المفرطون الذين حملوامعاني النصوص فوق ما حملها الشارع يرون أن النصوص لا تحيط بأحكام الحوادث بل أن بعضهم غلا وقال ولا بعشر معشارها فمن هنا تكون الحاجة إلى القياس فوق الحاجة إلى النصوص .

وحجتهم أن النصوص متناهيه وحوادث العباد غير متناهية وإحاطة المتناهي بغير المتناهي ممتنع ويرىابن القيم أن هذا الإحتجاج فاسد من وجوه .

أحدها : أن مالا تتناهى أفراده لا يمتنع أن يجعل أنواعاً ، فيحكم لكل نوع

---

(١) يقصد ابن القيم بالميزان القياس الصحيح الذي انزله الله مع كتابه وجعله قرينه ووزيره انظر اعلام الموقعين ١٣٣/١

(٢) نفس المرجع باختصار : ٣٣٨/١ الى ٣٤٤ .

(٣) انظر اعلام الموقعين ٢٠٠/١

منها بحكم واحد فتدخل الأفراد التي لا تتناهى تحت ذلك النوع .

الثاني : أن أنواع الأفعال بل والأعراض كلها متناهية .

الثالث : أنه لو قدر عدم تناهيها فإن أفعال العباد الموجوده إلى يوم القيامه متناهية .

وهذا كما تجعل الأقارب نوعين : نوعاً مباحاً وهو بنات العم والعمة وبنات الخال والخالة وما سوى ذلك محرم .

وكذلك يجعل ما ينقض الوضوء محصوراً وما سوى ذلك لا ينقض وقس على ذلك الصوم والغسل وغير ذلك .

فإذا كان أصحاب المذاهب يحصرونها بجوامع تحيط بما يحل ويحرم مع قصور بيانهم فالله ورسوله المبعوث بجوامع الكلم أقدر على ذلك فالرسول يأتي بالكلمة الجامعة وهي قاعدة عامه وقضية كليّة تجمع أنواعاً وأفراداً وتدل دلالتين : دلالة طرد ودلالة عكس .

وهذا كما سئل عن أنواع من الأشربة كالبتع والمزر ، فقال : " كل مسكر حرام "" وكل عمل ليس عليه أمرنا فهورد "، وغير ذلك من الأدلة التي ذكرها ابن القيم من كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم الجامع لأفراد ما في الحياة (١) مما يدلل به على أن النصوص محيطه بأحكام جميع الحوادث وأن القياس الصحيح حق مطابق للنصوص فهما دليلان للكتاب والميزان وقد تخفى دلالة النص أو لا تبلغ العالم فيعدل إلى القياس ، ثم يظهر أن قياسه موافق للنصوص فيكون قياساً صحيحاً أو قد يكون مخالفاً فيكون قياساً فاسداً (٢) .

كما وأنه رحمه الله قد يبين أخطاءهم وذلك عندما لم يعتنوا بالنصوص ولم يعتقدوها وافيه بالأحكام ولا شاملة لها ، فقالوا بقياس الشبه وعلقوا الأحكام بأوصاف لا يعلم أن الشارع علقها بها واستنبطوا عللاً لا يعلم أن الشارع شرع الأحكام لاجلها .

ثم اضطرهم ذلك إلى أن عارضوا بين كثير من النصوص والقياس ، ثم اضطربوا فتارة يقدمون القياس ، وتارة يقدمون النص وهكذا حتى اضطرهم ذلك إلى إعتقاد أن كثيراً من الأحكام شرعت على خلاف القياس ، فكان خطأوهم من خمسة أوجه

أحدها : ظنهم قصور النصوص عن بيان جميع الحوادث .

الثاني : معارضة كثيراً من النصوص بالرأي والقياس .

الثالث : إعتقادهم في كثير من أحكام الشريعة أنها على خلاف الميزان والقياس .

---

(١) انظر اعلام الموقعين : ٣٣٣/١

(٢) نفس المرجع : ٣٣٣/١

الرابع : إعتبارهم علـلا وأوصافـا لـم يعلـم إعتبـار الشـارع لهـا .

الخامس : تناقضهم في نفس القياس (١) .

ومن خلال هذه الأخطاء والإعتقادات الفاسده من أهل الرأي خص ابن القيم رحمه الله جزءا كبيرا من كتابه اعلام الموقعين رد فيه على مزاعم هذه الطائفه وبين شمول النصوص وإغناؤها عن القياس الفاسد والإكتفاء بها عن الرأي كما بين سقوط الرأى والإجتهاد والقياس وبطلانها مع وجود النص كما أتم القصد ببيان أن أحكام الشرع كلها على وفق القياس الصحيح (٢) .

المتوسطون : وهم القائلون بجواز القياس

وهو قول سلف هذه الأمه من الصحابة والتابعين وقول أئمة الفقه الأربعة وأكثر الفقهاء والمتكلمين وهو إختيار الغزالي والآمدي (٣) كما هو اختيار ابن القيم رحمهم الله جميعا .

والسبب في إجازة هؤلاء القياس والتوسط بين الطرفين هو أنهم لما نظروا إلى القياس ورأوه ينقسم إلى قسمين ممدوح ومذموم فإن وقفوا مع المانعين فقد عارضوا الأدلة التي وردت في القياس وفعل الصحابة وسلف هذه الأمة .

وإن وقفوا مع الموجبين وقعوا فيما نهى عنه الله ورسوله في ذم الرأي والأخذ به مطلقا فحاولوا الجمع بين الأدلة والوقوف في وسط الفريقين ليسلموا من النقد والإعتراض .

يقول ابن القيم : إن القياس ينقسم إلى قسمين حق وباطل وممدوح ومذموم ولهذا لم يجىء في القرآن مدحه ولا ذمه ولا الأمر به ولا النهى عنه فإنه مورد تقسيم إلى صحيح وباطل ولذلك فإن الله سبحانه لما أراد ذكر القياس الصحيح الموافق للعدل سماه الميزان كما قال : ((والسماء رفعها ووضع الميزان)) (٤) فالأولى تسمية القياس الصحيح بالإسم الذى سماه الله به فإنه يدل على العدل وهو الميزان الذي أنزله مع كتابه والفاسد ما يضاده كقياس الذين قاسوا البيع على الربا بجامع ما يشتركان فيه من التراضى بالمعاوضة الماليه وهذا هو القياس الذي ذمه السلف (٥) .

---

(١) اعلام الموقعين بتصرف : ٣٤٩/١ وما بعدها .
(٢) نفس المرجع : ٣٥٠/١
(٣) ادلة التشريع المختلف في الاحتجاج بها : ٢٤
(٤) سورة الرحمن الايه : ٧
(٥) اعلام الموقعين بتصرف : ١٣٣/١

أدلتهم على الجواز

قبل أن نبدأ بعرض أدلة المجيزين للقياس يجدر بنا أن نبين أن هذه الأدلة التي سوف نسوقها على جواز القياس هي في حد ذاتها رد وتفنيد لما زعمه القائلين بمنع القياس وتجويزهم ورود الشريعة بالتفريق بين المتساويين والجمع بين المختلفين وتعريتهم لها عن الحكم والمصالح .

فقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله وذكر الأدلة الدالة على جواز القياس من الكتاب والسنة وأفعال الصحابة وأقوالهم وأقوال السلف رحمهم الله وإليك إختيارات مما ذكره رحمه الله من الأدلة

أولاً : أدلتهم من الكتاب

القرآن الكريم ملىء بالآيات التي أرشد الله سبحانه وتعالى بها عباده إلى معرفته وإلى ما يريد إقناعهم به وبحصوله فيما غاب عنهم مما لا يستطيعون الإطلاع عليه وذلك بضرب من القياس لتقريبه إلى أذهانهم وتقريب المعقول من المحسوس .

فقد قاس سبحانه النشأة الثانية على النشاة الأولى في الإمكان وجعل النشأة الأولى أصلاً والثانية فرعاً عليها ، كما قاس حياة الأموات بعد الموت على حياة الارض بعد موتها بالنبات ، وقاس الخلق الجديد الذي أنكره أعداؤه على خلق السموات والأرض وجعله من قياس الأولى كما جعل قياس النشأة الثانية على الأولى من قياس الأولى .

وضرب الأمثال وصرفها في الأنواع المختلفة كلها أقيسة عقليه ينبه عباده على أن حكم الشيء حكم مثله فإن الأمثال كلها قياسات يعلم منها حكم الممثل من الممثل به ، قال تعالى : ((وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)) (١)،(٢) .

فالقياس في ضرب الأمثال من خاصة العقل وقد ركز الله في فطر الناس وعقولهم التسوية بين المتماثلين وإنكار التفريق بينهما ، والتفريق بين المختلفين وإنكار الجمع بينهما .

ومدار الإستدلال جميعه على التسوية بين المتماثلين والفرق بين المختلفين (٣).

---

(١) الاية من سورة الحشر : ٢١

(٢) راجع ضرب الامثال وما يراد منها في القرآن الكريم لابن القيم في اعلام الموقعين: ١٥٠/١ وكتابه أمثال القرآن .

(٣) انظر اعلام الموقعين : ١٣١/١

التسويه بين المتماثلين والفرق بين المختلفين في القرآن الكريم

لما كان مدار الإستدلال عند القائلين بجواز القياس على التسوية بين المتماثلين والتفريق بين المختلفين بقي أن ندلل على ذلك بما ورد في القرآن الكريم من أوامر عامة واحكام شرعيه .

فالتسويه بين المتماثلين كإستدلال القرآن الكريم بالمعين على العام ، إذ لو جاز الفرق لما كان هذا المعين دليلاً على الأمر العام المشترك بين الأفراد ومن هذا أدلة القران بتعذيب المعينين الذين عذبهم على تكذيب رسله وعصيان أوامره على أن هذا الحكم عام شامل على من سلك سبيلهم واتصف بصفتهم وهو سبحانه قد نبه عباده على نفس هذا الإستدلال وتعدية هذا الخصوص إلى العموم كما قال تعالى - عقيب إخباره عن عقوبات الأمم المكذبه لرسلهم وما حلّ بهم - : ((أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزبر ؟!)) (١) فهذا محض تعدد الحكم إلى من عدا المذكورين بعموم العلة ، ومن ذلك قوله تعالى : ((أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (٢))) فأخبر أن حكم الشي حكم مثله .

وكل موضع أمر الله سبحانه فيه بالسير في الأرض سواء كان السير على الأقدام أو معنوى بالتفكير والإعتبار وغالباً ما يعم اللفظ الجميع على الصواب - فانه يدل على الإعتبار والحذر أن يحل بالمخاطبين ما حل بأولئك ولهذا أمر سبحانه أولي الأبصار بالإعتبار بما حل بالمكذبين ولولا أن حكم النظير حكم نظيره حتى تعبر العقول منه إليه لما حصل الإعتبار .

كما أنه سبحانه قد نفى عن حكمه وحكمته التسوية بين المختلفين في الحكم فقال تعالى :((أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون)) (٣) .

فأخبر أن هذا حكم باطل في الفطر والعقول لا تليق نسبته إليه سبحانه .

وقال تعالى : ((أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ، ساء ما يحكمون)) (٤)

إلى غير ذلك من الآيات التي ذكر الله فيها العقول ونبه الفطر بما أودع فيها من إعطاء النظير حكم نظيره وعدم التسوية بين الشي ومخالفه في الحكم (٥) .

---

(١) الايه من سورة القمر : ٤٣

(٢) الايه من سورة محمد : ١٠

(٣) الايه من سورة القلم : ٣٥

(٤) الايه من سورة الجاثيه : ٢١

(٥) انظر اعلام الموقعين : ١/١٣١ - ١٣٣

التساوى بين المتماثلين في الأحكام الشرعية

كما أن أحكامه سبحانه وتعالى الأمرية الشرعية كلها هكذا ، تجدها مشتملة على التسوية بين المتماثلين وإلحاق النظير بنظيره ، وإعتبار الشيء بمثله، والتفريق بين المختلفين وعدم تسوية أحدهما بالآخر وشريعته سبحانه منزهة أن تنهى عن شيء لمفسدة فيه ثم تبيح ما هو مشتمل على تلك المفسدة أو مثلها أو أزيد منها .

فمن جوز ذلك على الشريعة فما عرفها حق معرفتها ، ولا قدرها حق قدرها وكيف يظن بالشريعة أنها تبيح شيئاً لحاجة المكلف إليه ومصلحته ثم تحرم ما هو أحوج إليه والمصلحة في إباحته أظهر .

ولذلك كان من المستحيل أن يشرع الله ورسوله من الحيل ما يسقط به ما أوجبه أو يبيح به ما حرمه ، ولعن فاعله وآذنه بحربه وحرب رسوله وشدد في الوعيد .

ولذلك كان الجزاء من جنس العمل مماثلاً له في الخير والشر ، فمن ستر مسلماً ستره الله ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخره ، ومن أقال نادماً أقال الله عثرته يوم القيامة ، ومن تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته ، ومن ضارّ مسلماً ضارّ الله به ، والراحمون يرحمهم الله فهذا وغيره شرع الله وقدره ووحيه وثوابه وعقابه كله قائم بهذا الأصل وهو إلحاق النظير بالنظير واعتبار المثل بالمثل (١) .

والقرآن يعلل الأحكام

كما أن الشارع يذكر العلة والأوصاف المؤثره والمعاني المعتبره في الأحكام القدرية والشرعية والجزائية ليدل بذلك على تعلق الحكم بها أين وجدت ، واقتضائها لأحكامها ، وعدم تخلفها عنها إلا لمانع يعارض إقتضاءها ويوجب تخلف أثرها عنها ، كقوله تعالى :((ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله)) (٢) .

وقوله تعالى : ((ذلكم بأنه إذا دعيَ الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا)) (٣) وقوله : ((ذلكم بأنكم أتخذتم آيات الله هزوا)) (٤) وقوله : ((ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم)) (٥) .

---

(١) أعلام الموقعين : ١٩٦/١

(٢) الايه من سورة الانفال : ١٣

(٣) الايه من سورة غافر : ١٢

(٤) الايه من سورة الجاثيه : ٣٥

(٥) الايد من سورة فصلت : ٣٣

وقد جاء التعليل في الكتاب العزيز بالباء تارة ، وباللام تارة أو بأن تارة وبمجموعها تارة وبكي تارة ومن أجل تارة ، وترتيب الجزاء على الشرط تارة وبالفاء المؤذنة بالسببية تارة وترتيب الحكم على الوصف المقتضى له تارة ، وبلما تارة ، وبأن المشددة تارة وبلعل ، وبالمفعول له فالأول كما تقدم واللام كقوله : ((ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض)) (١) وأن كقوله : ((أن تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا)) (٢) .

وقد ذكر رحمه الله تعالى أمثلة لجميع ما ذكره من التعليل وحروفه فمن أراد فليراجع ما كتبه (٣) .

النبي صلى الله عليه وسلم يعلل الأحكام

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم علل الأحكام والأوصاف المؤثرة فيها ، ليدل على ارتباطها بها أو تعديها بتعدى أوصافها وعللها كقوله : (إنما جعل الاستئذان من أجل البصر) (٤) وقوله في الهرة : (ليست بنجس ، إنها من الطوافين عليكم والطوافات) (٥) .

وقد قرب النبي صلى الله عليه وسلم الأحكام لأمته بذكر نظائرها وأسبابها وضرب لها الأمثال فقال له عمر رضي الله عنه : (صنعت اليوم يارسول الله أمراً عظيماً ، قبلت وأنا صائم ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ، فقلت : لابأس بذلك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فصم) (٦) ولولا أن حكم الشيء حكم مثله وأن العلل والمعاني مؤثرة في الأحكام نفياً وإثباتاً لم يكن لذكر هذا التشبيه معنى فذكره ليدل به أن حكم النظير حكم مثله ، وأن نسبة القبلة التي هي وسيلة إلى الوطء كنسبة وضع الماء في الفم الذي هو وسيلة إلى شربه (٧) .

---

(١) الايه من سورة المائده : ٩٧

(٢) الايه من سورة الانعام : ١٥٦

(٣) راجع الاعلام : ١٩٦/١ وما بعدها للفائده .

(٤) رواه البخاري في كتاب الاستئذان : ١٢٩/٧ رقم الباب ١١ والترمذي كتاب الاستئذان رقم ١٧ ومسلم في كتاب الادب رقم ٤١

(٥) رواه أحمد في مسنده : ٢٩٦/٥ رقم الحديث ٢٢٥٨١ والترمذي في كتاب الطهاره رقم الباب ٦٩ ح ١ ص ١٠١

(٦) اخرجه أحمد في المسند برقم ١٣٨ ح ١ ص ٢١

(٧) اعلام الموقعين باختصار : ١٩٩/١

الأقيسة المستعملة للإستدلال في القرآن الكريم ثلاثة

احداها : قياس العلة

وقد جاء في كتاب الله عز وجل في مواضع منها قوله تعالى :((إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون))(١) فأخبر سبحانه وتعالى أن عيسى نظير آدم في التكوين بجامع ما يشتركان فيه من المعنى الذي تعلق به وجود سائر المخلوقات ، وهو مجيئها طوعاً لمشيئته وتكوينه فكيف يستنكر وجود عيسى من غير أب من يقر بوجود آدم من غير أب ولا أم ووجود حواء من غير أم فآدم وعيسى نظيران يجمعهما المعنى الذي يصح تعلق الإيجاد والخلق به .

ومنها قوله تعالى : ((ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم نمكن لكم ، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم ، فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين))(٢) فذكر سبحانه إهلاك من قبلنا من القرون وبين أن ذلك كان لمعنى القياس وهو ذنوبهم فهم الأصل ، ونحن الفرع ، والذنوب العلة الجامعة الحكم الهلاك (٣) .

ثانياً : قياس الدلالة

أما قياس الدلالة فهو الجمع بين الأصل والفرع بدليل العلة وملزومها ومنه قوله تعالى : ((ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحي الموتى ، إنه على كل شيء قدير))(٤) فدل سبحانه عباده بما أراهم من الإحياء الذي تحققوه وشاهدوه على الإحياء الذي استبعدوه وذلك قياس إحياء على إحياء واعتبار الشيء بنظيره والعلة الموجبة هي عموم قدرته سبحانه وكمال حكمته وإحياء الأرض دليل العلة (٥) .

ثالثاً : قياس الشبه

وأما قياس الشبه فلم يحكه الله إلا عن المبطلين كقوله تعالى إخباراً عن الكفار أنهم قالوا : ((ما نراك إلا بشراً مثلنا))(٦) فاعتبروه صورة مجرد الآدمية وشبه المجانسة فيها ، واستدلوا بذلك على أن حكم أحد الشبيهين حكم الآخر ، فكما لا نكون نحن رسلاً فكذلك أنتم،فإذا تساوينا في هذا الشبه فأنتم مثلنا

---

(١) الاية من سورة آل عمران : ٥٩
(٢) الاية من سورة الانعام : ٦
(٣) اعلام الموقعين : ١٣٤/١
(٤) الاية من سورة فصلت : ٣٩
(٥) اعلام الموقعين : ١٣٨/١
(٦) الاية من سورة هود : ٢٧

لا مزيـة لكـم علينـا وهـذا مـن أبطـل القيـاس .

فإن الـواقـع - مـن التخصيـص والتفضيـل وجعـل بعـض هـذا النوع شريفـاً وبعضـه دنيـاً وبعضـه مرؤسـاً وبعضـه رئيسـاً ، وبعضـه ملكـاً وبعضـه سـوقـه - يبطـل القياس كمـا أشـار سبحانـه إلى ذلـك في قـولـه : ((أهـم يقسمـون رحمـة ربـك ؟ نحن قسمنـا بينهـم معيشتهـم فـي الحياة الدنيـا ، ورفعنـا بعضهـم فـوق بعـض درجات ليتخـذ بعضهـم بعضـاً سخـريـا ورحمـة ربـك خـير مما يجمعـون)) (١) .

وأجابـت الرسـل عـن هـذا السـؤال بقولهـم : ((إن نحـن إلا بشـرٌ مثلكـم ولكـن اللـه يمـن علـى مـن يشـاء مـن عباده)) (٢) وأجاب عنـه اللـه بقولـه : ((اللـه أعلـم حيـث يجعـل رسـالتـه)) (٣) .

وبالجملـة لـم يـأتـ هـذا القيـاس فـي القـرآن إلا مـردوداً مذمومـاً (٤) .

الصحـابـة يجتهـدون ويقيسـون

لقـد كـان أصحاب النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم يجتهـدون فـي النوازل ويقيـسـون بعـض الأحكـام علـى بعـض ويعتـبرون النظـير بنظـيره .

وقـد أقـر النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم معـاذاً علـى إجتهاده فيما لـم يجـد فيـه نصـاً عـن رسـول اللـه فعـن معـاذ رضي اللـه عنـه أن رسـول اللـه صلى الله عليـه وسلـم لما بعثـه إلـى اليمـن قـال : كيـف تصنـع إن عـرض لـك قضـاء ؟ قـال : أقضـي بمـا فـي كتـاب اللـه قـال : فإن لـم يكـن في كتـاب اللـه ؟ قـال : فبسنـة رسول اللـه صلـى اللـه عليـه وسلـم ، قال : فإن لـم يكـن فـي سنـة رسـول اللـه صلـى اللـه عليه وسلـم؟ قـال : أجتهـد رأيي ولا آلـو ، قـال : فضـرب رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسلـم صـدري ثـم قـال : الحمدللـه الـذي وفـق رسـول رسـول اللـه لما يرضي رسول اللـه (٥).

وقـد جـوز النبي صلى اللـه عليـه وسلـم للحاكـم أن يجتهـد رأيـه وجعـل له على خطئـه فـي إجتهـاده الـرأى أجـراً واحـداً إذا كان قصـده معرفـة الحـق واتبـاعـه .

وقـد إجتهـد الصحابـة فـي زمـن النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم فـي كثيـر مـن الأحكام ولـم ينعفهـم ، كمـا حصـل يـوم الأحـزاب فـي أمـره بالصـلاة ، ولما كان علي رضـي اللـه عنـه باليمـن أتـاه ثـلاثـة نفـر يختصمـون في غـلام ، فقال كـل منهـم : هـو ابنـي

---

(١) الايـة مـن سـورة الزخـرف : ٣٢

(٢) الايـة مـن سـورة ابراهيـم : ١١

(٣) الايـة من سـورة الانعـام : ١٢٤

(٤) انظـر اعـلام الموقعيـن : ١٤٨/١

(٥) اخرجه الامام أحمـد في مسنده برقـم ٢٢١٥٣ : حـ ٥ ص ٢٤٢

فأقرع علي بينهم ، فجعل الولد للقارع ، وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء علي رضي الله عنه (١)،(٢) .

وقد إتفق الصحابة في قياس حد الشرب على حدّ القذف فقد روى عمر بن الخطاب رضي الله عنه شاور الناس في حد الخمر ، وقال : إن الناس قد شربوها واجترءوا عليها ، فقال له علي رضي الله عنه : إن السكران إذا سكر هذى ، وإذا هذى افترى ، فاجعله حد الفريه فجعله عمر حد الفريه ثمانين (٣) ولم ينفرد علي بهذا القياس ، بل وافقه عليه الصحابة .

كما أن الصحابة يقيسون فرض الجد مع الإخوة (٤) وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أمثلة كثيرة على إستعمال الصحابة للقياس وأنهم : مثلوا الوقائع بنظائرها وشبهوها بأمثالها ، وردوا بعضها إلى بعض في أحكامها وفتحوا للعلماء باب الإجتهاد (٥) .

إجتماع الفقهاء على مسائل في القياس

نقل ابن القيم رحمه الله بعضاً من إجتماع الفقهاء على مسائل في القياس كدليل من الأدلة التي يتقوى بها على جواز القياس وردا على من ينفون القياس فقال :

قال المزني (٦) : الفقهاء من عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومنا و هلم جرا إستعملوا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم قال : وأجمعوا بأن نظير الحق حق ، ونظير الباطل باطل ، فلا يجوز لأحد إنكار القياس ، لأنه التشبيه بالأمور والتمثيل عليها .

قال أبو عمر (٧) بعد حكاية ذلك عنه : ومن القياس المجمع عليه صيد ما عدا المكلب من الجوارح قياساً على الكلاب بقوله:((وما علمتم من الجوارح مكلبين)) (٨) قال عز وجل : ((والذين يرمون المحصنات)) (٩) فدخل في

---

(١) رواه الامام أحمد في مسنده ٣٧٣/٤، وأبو داوود كتاب الطلاق ج ٢ حديث رقم ٢٢٧٠

(٢) انظر الاعلام : ٢٠٢/١ وما بعدها .

(٣) اخرجه الترمذي في ابواب الحدود باب ما جاء في حد السكران ١٣٩/٥ وأخرجه مسلم وأحمد وابو داود .

(٤) انظر الاعلام : ٢١١/١ - ٢١٢

(٥) نفس المرجع : ٢١٧/١

(٦) سبق تخريجه ١٣٨

(٧) سبق ترجمته ٣٨٩

(٨) الاية من سورة المائده : ٤

(٩) الاية من سورة النور : ٤

ذلك المحصنون قياساً ، وكذلك قوله في الإماء : ((فإذا أُحصن فان أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب)) (١) فدخل في ذلك العبد قياساً عند الجمهور إلا من شذ ممن لا يكاد يعد قوله خلافاً ، وأجمعوا على توريث البنتين الثلثين قياساً على الأُختين إلى غير ذلك من إجتماع الفقهاء على القياس مما ذكره رحمه الله (٢) .

ثم قال : وبعض هذه المسائل فيها نزاع ، وبعضها لا يعرف فيها نزاع بين السلف ، وقد رام بعض نفاة القياس إدخال هذه المسائل المجمع عليها في العمومات اللفظية ، فأدخل قذف الرجال في قذف المحصنات ، وجعل المحصنات صفة للفروج لا للنساء .

وهؤلاء وإن أمكنهم ذلك في بعض المسائل كما جزموا بتحريم أجزاء الخنزير لدخوله في قوله ((فإنه رجس)) وأعادوا الضمير إلى المضاف إليه دون المضاف - فلا يمكنهم ذلك في كثير من المواضع وهم مضطرون فيها - ولابد - إلى القياس أو القول بما لم يقل به غيرهم ممن تقدمهم ، فلا يعلم من أئمة الفتوى يقول في قول النبي صلى الله عليه وسلم وقد سئل عن فأره وقعت في سمن : " ألقوها وما حولها وكلوه " أن ذلك مختص بالسمن دون سائر الأدهان والمائعات كما يفرق بين الفأرة والهرة في ذلك (٣) .

الترجيح : وبعد هذا البيان يتضح الأمر لذي البصيرة وأن الحق مع المتوسطين الذين لم ينفوا القياس مطلقاً ولم يقصروا بمعاني النصوص عن مرادها وعمومها التي هي أخية العلم .

ولم يطلقوا الأمر في القياس حتى أُدخلوا ما ليس مراد من المعنى فيه حتى أنهم أدخلوا بعض المحرم في الحلال فانظر إلى هذا المثل الذي ضربه ابن القيم لتناقضهم في وقوع النجاسة في الماء فأصحاب القياس ينجسون الماء الكثير بوقوع قليل من النجاسة فيه مع أنه لم يتغير منه شيء البته بتلك القطرة ، والذين منعوا القياس قالوا : لو بال جرة من بول وصبها في الماء لم ينجسه ولو بال في الماء أدنى شيء نجسه (٤) والمتوسطون وقفوا عند معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله فلم يخرجوا شيئاً من معاني الألفاظ عنها ولم يدخلو فيها ما ليس منها بل أعطوها حقها والمراد منها .

---

(١) الاية من سورة النساء : ٢٥ (٢) الاعلام : ٢٠٥/١

(٣) اعلام الموقعين بتصرف : ٢٠٦/١ (٤) انظر اعلام الموقعين : ٢٢٢/١

الإستصحاب

ومن أصول ابن القيم التي اعتمدها في الفتوى:الإستصحاب،وقد عرفه رحمه الله بأنه :

إستفعال من الصحبه وهي إستدامة إثبات ما كان ثابتا أو نفي ما كان منفيا (١) .

وهو ثلاثة أنواع :

أولا : إستصحاب البراءة الأصلية العقلية .

وذلك بأن تستصحب العدم الأصلي حتى يرد دليلا ناقلا عنه لأن العقل يدل على براءة الذمة حتى يقوم الدليل ، كعدم وجوب صلاة سادسه ، وعدم وجوب صيام صفر لأن الأصل براءة الذمة منه .

وهذا النوع هو الذي ينصرف إليه إسم الإستصحاب ، وقد دل القرآن على إعتبار هذا النوع في آيات كثيرة نذكر منها قوله تعالى :((فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف)) (٢) وقوله : ((وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون)) (٣) .

ووجه الدلالة من الآية الأولى أنه لما نزل تحريم الربا خافوا من الأموال المكتسبة من الربا قبل التحريم فبينت الآية أن ما اكتسبوا من الربا قبل التحريم على البراءة الأصليه حلال لهم ولا حرج عليهم فيه .

ووجه الدلالة من الآية الثانية أنه لما استغفر النبي صلى الله عليه وسلم لعمه أبي طالب واستغفر المسلمون لموتاهم من المشركين وأنزل الله ((ما كان للنبي والذين آمنو أن يستغفروا للمشركين))(٤) ندموا على إستغفارهم فبينت الآيه أن إستغفارهم لهم قبل التحريم على البراءة الأصليه لا أثم عليهم فيه (٥) .

وقد بين رحمه الله أن الناس تنازعوا في بعض مسائل هذا النوع من الإستصحاب وذلك في المفقود مثلا؛فالمفقود له حالتان تتناول حقوقه الأولى وهي ما يعبر عنها بالدفع : وهو دفع من أراد أخذ ماله من الملك إرثا ونحوه على أساس موته، والثانيه ما يعبر عنها بالابقاء : وهو إبقاء حقه في الإرث والوصية له وغير ذلك .

---

(١) اعلام الموقعين : ٣٣٩/١

(٢) الاية من سورة البقرة : ٢٧٥

(٣) الاية من سورة التوبة : ١١٥

(٤) الاية من سورة التوبة : ١١٣

(٥) انظر مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر للشيخ محمد الامين بن المختار الشنقيطي رحمه الله بتصرف دار القلم بيروت : ١٥٩

فالإمام الشافعي وأحمد والأكثر من أصحاب مالك على أنه يصلح للدفع والإبقاء وقالوا : إنه إذا غلب على الظن إنتفاء الناقل غلب على الظن بقاء الأمر على ما هو عليه .

بينما قالت الحنفية أنه يصلح للدفع لا للإبقاء ، لأن بقاء الأمر على ماكان عليه إنما هو مستند إلى موجب الحكم ، لا إلى عدم المغيّر له فإذا لم نجد دليلاً نافيا ولا مثبتاً أمكنا لا نثبت الحكم ولا ننفيه بل ندفع بالإستصحاب دعوى من أثبته (١) .

النوع الثاني : إستصحاب الوصف المثبت للحكم

وهو إستصحاب دليل الشرع للحكم حتى يثبت خلافه وهو حجة كإستصحاب حكم الطهارة وحكم الحدث وإستصحاب بقاء النكاح وبقاء الملك حتى يثبت خلاف ذلك.

وقد دل الشارع على تعلق الحكم به في قوله في الصيد : (وإن وجدته غريقاً فلا تأكله فإنك لا تدري الماء قتله أو سهمك) (٢) فلما كان الأصل في الذبائح التحريم وشك هل وجد الشرط المبيح أم لا ، بقي الصيد على أصله في التحريم ، ولما كان طاهراً فالأصل بقاؤه على طهارته ولم يزلها بالشك ، ولما كان الأصل بقاء المتطهر على طهارته لم يأمره بالوضوء مع الشك في الحدث بل قال : (لا ينصرف حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً) (٣) .

كما بين ابن القيم رحمه الله أن هذا الأصل قد إتفق العلماء على حجيته ولم ينازعوا إلا في بعض أحكامه لتجاذب المسأله أصلين متعارضين (٤) .

النوع الثالث : إستصحاب حكم الإجماع في محل النزاع

وهذا النوع من الإستصحاب الذي وقع فيه الخلاف بين الفقهاء هل هو حجة أم لا وقد خالف فيه ابن القيم رحمه الله كثير من فقهاء الحنابلة وغيرهم .

ومثال ذلك : أن الإجماع إنعقد على صحة الصلاة بالتيمم قبل رؤية الماء فإذ كان في الصلاة ورأى الماء هل يستصحب حكم الإجماع المنعقد قبل الرؤية وتتم الصلاة صحيحة أم أن حكم الإجماع لا يستصحب في هذه الحالة ويمتنع الإجماع؟ وكذا في بيع أم الولد فقد إنعقد الإجماع على جواز بيع هذه الجارية قبل الإستيلاد

---

(١) انظر اعلام الموقعين بتصرف : ٣٣٩/١

(٢) اخرجه الترمذي في ابواب الصيد واللفظ له باب رقم ٥ : ح ٥ ص ١٦٨ ، والبخاري في كتاب الصيد : ٢٢٠/٦ ومسلم في الصيد

(٣) اخرجه البخاري واللفظ له كتاب الطهاره باب ٣٤ : ح ١ ص ٥٢

(٤) انظر اعلام الموقعين : ٣٣٩/١

فهـــل يبقـــى الإجمـــاع بعـد الإستيـــلاد أم لا ؟ .

وابـن القيـــم يقـول بحجـة الإجماع فـي محـل النـزاع وقـد أورد إعتراض القائليـــن بعـدم حجتـــه ورد عليهـم ثـم قـال : ومجـرد النـزاع لا يـوجـب سقـوط حكـم الإجمـــاع فالنزاع فـي رؤيـة المـاء فـي الصـلاة وحـدوث العيـب عنـد المشـتري وإستيـلاد الأَمَـــــة لا يوجـــب رفـع ما كـان ثابتـاً قبـــل ذلـك مـن الأحكـام ، فـلا يقبـل قـول المعـــــترض: أنـه قـد زال حكـم الإستصحـاب بالنزاع الحادث ، فإن النزاع لا يرفـع ما ثبـت من الحكـــم فلا يمكـن المعـترض رفعـه إلا أن يقيـم دليـلاً علـى أن ذلـك الوصـف الحادث جعلـه الشـارع دليـلاً علـى نقـل الحكـم ، وحينئـذ فيكـون معـارضـاً فـي الدليـل لا قـادحـــاً فـــي الإستصحـاب ، فتـأملـه فإنـه التحقيـق فـي هـذه المسـألـــة (١) .

المصـالـــح المرسلـــه :

تابـع ابـن القيـم رحمـه اللـه علماء الأُمـة الاسـلاميـه فـي الأخـذ بالمصالـح المرسلـه لأن الشريعـــة مبنيـــةٌ على مصالـح العبـاد وهـذا ما يقـرره ابن القيـم رحمـه اللـه كمـــا قـدمنـــا ســـابقـــاً .

وقـد كتـب ابـن القيـم كتابـه الطـرق الحكميـة فـي السياسـة الشرعيـة الذي يتضـــح من خـــلال صفحاتـــه أخـذه بالمصـالـح المرسلـــه فقـال فيـــه :

ومن لـه ذوق فـي الشريعـــة وإطـلاع علـى كمالهـا وتظمنهـا مصالـح العبـاد في المعاش والمعـاد ، ومجيئهـا بغايـة العـدل الـذي يسـع الخلائـق تبيـن لـه أن السياسـة العادلـــة جـــزء مـن أجـزائهـا وفـرع مـن فـروعهـــا (٢) .

فإقامـة العـدل بيـن الأُمـة أحـد مقـاصـد الشريعـة فإذا كـان الأمـر مصلحـة للأمـــة وجب الأخـذ بـه كما فعـل الصحابـة رضـى اللـه عنهـم من تحريـق ونفـي وقتـل كما فعـــل أبـو بكـر فـي اللوطيـــة وتحريقهـم ونفـي عمـر نصـــر بـن حجـاج وتحريـق عثمان للمصحـــف وكـل ذلـــك رأيـاً إعتمـدوا فيـه مصلحـة الأُمـة ولـو لـم يـرد فيها نـــص .

ومن هـذا قـولـه بالتسعير كمـا سترى ذلـك في الباب الثالث إن شاء اللـه ووجـــوب قيام الصنـاع فيما لا تستغنـي عنـه الأُمـــه وتـأجـير الدور إذا إحتـاج إليها الناس وغير ذلك .

ســـــد الـذرائـــع

وهـي ســـد الطـرق والأسبـاب والذرائـــع المفضيـة إلى المحـرم فإن وسيلـة المقصـود تابعـة للمقصـــود قـال ابن القيـــم :

فإذا حـرم الـرب شيئـاً ولـه طـرق ووسـائـل تفضـي إليـه فإنـه يحرمهـا ويمنـــع

---

(١) اعـــلام الموقعيـــن : ٣٤٣/١

(٢) الطرق الحكميـــــة : ١٣٥/٣

منها تحقيقاً لتحريمه وتثبيتاً له ومنعاً من أن يقرب حماه ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضاً للتحريم (١) .

وقد ذكر رحمه الله وجوهاً كثيرة من إهتمام الشريعة بسد الذرائع ثم بين بعد ذلك أن باب سد الذرائع ربع التكليف فقال :

وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف ، فإنه أمر ونهي والأمر نوعان أحدهما مقصود لنفسه ، والثاني وسيلة إلى المقصود ، والنهي نوعان أحدهما ما يكون المنهي عنه مفسده في نفسه ، والثاني : ما يكون وسيلة إلى المفسدة ، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين (٢) .

ثم بين رحمه الله حكم الوسائل المؤدية إلى المقاصد فبين أنها اربعة أقسام :

أولها : وسيلة مفضية إلى مفسده ومثلها شرب الخمر المفضي إلى مفسدة السكر ، والزنا المفضي إلى إختلاط المياه وفساد الفراش ونحو ذلك .

وحكم هذه الوسائل وما تؤدي إليه المنع كراهة أو تحريماً بحسب درجاته في المفسدة وذلك مثل النظر إلى المرأة الأجنبية ونحو ذلك من الوسائل .

ثانيها : وسيلة موضوعة للمباح وقد تفضي إلى المفسدة ولكن مصلحتها أرجح من مفسدتها ومثال ذلك النظر إلى المخطوبة وكلمة حق عند سلطان جائر والنظر إلى المشهود عليها ونحو ذلك وهذا النوع من الوسائل مباح وقد يكون مستحباً وقد يرقى إلى درجة الوجوب وذلك بحسب درجات المصلحة .

ثالثها : وسيلة موضوعة لمباح قصد بها التوسل إلى المفسدة ومثال ذلك عقد النكاح من أجل التحليل .

الرابعة : وسيلة موضوعة لمباح لم يقصد بها التوسل إلى المفسدة ولكنها مفضية إليها غالباً ومفسدتها أرجح من مصلحتها كسبة آلهة المشركين .

وهذين القسمين هما المقصود بسد الذرائع المفضية إليها وهي التي إهتمت الشريعة بسد الذرائع من أجل عدم الإفضاء إلى المعاصي كقوله تعالى : ((ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم)) (٣) فحرم الله سب آلهة المشركين مع كون السبّ غيظاً وحمية لله وإهانة لآلهتهم لكونه ذريعة إلى سب الله تعالى وكانت مصلحة ترك مسبته تعالى أرجح من مصلحة

---

(١) اعلام الموقعين : ١٣٥/٣

(٢) نفس المرجع : ١٥٩/٣

(٣) الآية من سورة الانعام : ١٠٨

سبنا آلهتهم وهذا كالتنبيه بل كالتصريح على المنع من الجائز لئلا يكون سبباً في فعل ما لا يجوز .

وقوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون : ((إذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى)) (١) فأمر تعالى أن يلينا القول لأعظم أعدائه وأشدهم كفراً وأعتاهم عليه لئلا يكون إغلاظ القول له مع أنه حقيقي به ذريعة إلى تنفيره وعدم صبره لقيام الحجة فنهاهم عن الجائز لئلا يترتب عليه ما هو أكره منه .

ومنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكف عن قتال المنافقين - مع كونه مصلحة - لئلا يكون ذريعة إلى تنفير الناس عنه ومفسدة التنفير أكبر من مفسدة ترك قتلهم ومصلحة التأليف أعظم من مصلحة القتل ، ومنها أنه صلى الله عليه وسلم حرم الخلوة بالأجنبية ولو في إقراء القرآن والسفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين سداً لذريعة ما يحذر من الفتنه وغلبة الطبع (٢)

وهكذا يسرد ابن القيم رحمه الله الأدلة من الشريعة على سد كل ذريعة يمكن أن يتوسل بها إلى محرم .

---

(١) الآية من سورة طه : ٤٤

(٢) انظر اعلام الموقعين : ١٣٧/٣ - ١٥٩

الفصل الثالث : منهجه في إصلاح المجتمع

تمهيد :

سبق أن بينت عند حديثي عن أهداف الدعوة عند ابن القيم : أن تربية الأمة من الأهداف التي سعى لتحقيقها في المجتمع المسلم ، بل كان موجها للدعاة في التربية كما تراه وهو يوجه أهل العلم في الكيفية التي يجب أن يسيروا عليها في تربية الأمة بقوله :

تنبيه لأهل العلم على تربية الأمه كما يربي الوالد ولده ، فيربونهم بالتدريج والترقي من صغار العلم إلى كباره وتحميلهم منه ما يطيقون كما يفعل الأب لولده الطفل في إيصال الغذاء إليه (١) .

وقد إهتم رحمه الله بتوجيه سلوك المجتمع المسلم وصبغه بمنهج القرآن الكريم والسنه الشريفه والتي تربى رحمه الله وهو ينهل من معينهما والتي تمثلت في تشريعاتهما وتوجيهاتهما للسلوك الإنساني حتى أصبح في مصاف أعلى المربين ، والتي تجلت بالفائده الملموسه فيمن حاول أن ينهل من معينها ، لأنها تعتمد على نظره واقعيه ، تخلو من العاطفة والهوى وتحاكي الطبع والفطره لأنها جاءت من المربي الأول والآخر الذي إقترن إسمه بهذا العلم لأنه أساسه وهو الرب (٢) تبارك وتعالى ، قال ابن القيم :

الرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله ومصالحه التي بهما كماله ويهديه إلى إجتناب المفاسد التي بها فساده وهلاكه(٣).

مفهوم التربية عند ابن القيم

لذلك أطلق على العالم الذي تربى بعلم الرب تبارك وتعالى وربى عليه غيره " بالعالم الرباني " وإليك ابن القيم وهو يعرفه بقوله :

قال ابن عباس رضي الله عنهما :" هو المعلم ، أخذه من التربيه أي يربي الناس بالعلم ويربيهم به كما يربى الطفل أبوه " فالعالم لما نسب إلى علم الرب الذي بعث به رسوله وتخصص به نسب اليه دون سائر من علم علما"،

---

(١) مفتاح دار السعادة : ٨٧/١

(٢) قال في لسان العرب : الرب : هو الله عز وجل رب كل شئ أى مالكه ، ورب ولده، والصبى يُربُّه ربا" ، وربيته تربيبا" بمعنى رباه ، وترباه أحسن القيام عليه ووليه حتى يفارق الطفوله ، لسان العرب بتصرف ٣٩٩/١ والمصباح ٢١٤/١

(٣) طريق الهجرتين ص : ٥٦

قال الواحدي (١) :" منسوب الى الرب على معنى التخصيص بعلم الرب أي بعلم الشريعة وصفات الرب تبارك وتعالى " ثم نقل قول المبرد (٢) :" الرباني الذي يربى العلم ويربى الناس به أي يعلمهم ويصلحهم " وعلى قوله : فالرباني من رب يرب ربا ، أى يربيه فهو منسوب إلى التربيه يربى علمه ليكمل ويتم بقيامه عليه وتعاهده إياه ، كما يربي صاحب المال ماله ، ويربى الناس به كما يربى الأطفال أولياؤهم (٣) .

وهذه الأقوال التي نقلها ابن القيم وعلق عليها هي بنفسها تعريف للتربية فلو رجعت إلى كتب اللغة لما وجدت إختلافا بينهما (٤) .

وهي في مجملها تعني : تعاهد النفس والناس بعلم الله والإهتمام بهما وإصلاحهما شيئا فشيئا حتى يكملا هذا مفهوم التربية عند ابن القيم ، كما سبق من أقواله ، وهو المنهج الذي سار عليه في إصلاحه للمجتمع الذي هو تربية الفرد ، والأمه ، والفرد يعم النفس وأفراد الأمه من حاكم ومحكوم ولم يخرج رحمه الله في تربيته وإصلاحه عن علم الله الذي يجمع الكتاب والسنة .

وهنا لا أريد أن أوضح منهج ابن القيم في التربية وقد سبقت إلى ذلك (٥)

---

(١) أبو الحسن على بن أحمد بن محمد الواحدي مفسر عالم بالادب اماما بالتأويل اصله من ساوه مولده ووفاته بنيسابور توفى رحمه الله سنة ٤٦٨هـ وترك عدة مصنفات منها البسيط والوسيط والوجيز وغيرها ، انظر : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القنطي : انباه الرواة على انباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : ٢٢٣/٢ ط ١٣٧١هـ دار الكتب المصرية ، القاهرة ، وانظر ياقوت الحموي : معجم الأدباء ٢٥٧/١٢ ط ١٣٥٥هـ دار المأمون ، القاهره .

(٢) ابو العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد امام العربية ببغداد في زمنه وأحد أئمة الادب والاخبار مولده بالبصره سنة ٢١٠هـ وتوفى ببغداد سنة ٢٨٦هـ من أشهر كتبه الكامل ، والمقتضب ، واعراب القرآن وغيره ، انظر اشارات التعيين :ص ٣٤٢ ، محمد بن حسن الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ص ١٠١ - ١١٠ ، ط الثانيه ١٩٨٤ دار المعارف القاهرة : تاريخ بغداد :٣٨٠/٣ غاية النهاية ٢٨٠/٢ بغية الوعاة ٢٦٩/١ .

(٣) مفتاح دار السعاده : ١٦٠/١

(٤) انظر لسان العرب : ٣٩٩/١ والمصباح المنير : ٢١٤/١

(٥) سبق أن قدم بحث لقسم التربية بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الامام لنيل درجة الدكتوراه بعنوان " آراء ابن القيم التربويد " مقدم من الطالب علي بن حسين الحجاجي وقد طبع بدار حافظ للنشر والتوزيع عام ١٤٠٨هـ .

وإنما مرادي أن أتحدث عن منهجه في إصلاح المجتمع من وجه لم يتعرض إليه الباحث تكملة لعناصر بحثي هذا ولارتباطه بالدعوة إرتباطاً لا ينفك عنه .

لكل داء دواء

التوجيه الأول لابن القيم في التربيه هو للدعاة والمربين وعامة الناس وهو ما يجب أن يعلموه ويتيقنوه وهو : أن لكل داء دواءً واستدل لذلك فيما ثبت في صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(ماأنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء) (١) وفي مسلم عنه صلى الله عليه وسلم : (لكل داءٍ دواء فإذا أُصيب دواء الداء برأ باذن الله) (٢) وفي المسند عنه صلى الله عليه وسلم : (أن الله لم ينزل داءً إلا أنزل له شفاءً علمه من علمه وجهله من جهله)(٣) ثم يقول بعد ذلك :

وهذا يعم أدواء القلب والروح والبدن وأدويتها (٤) .

فلا يقف المربي أمام معضلة في التربية إلا وجد لها دواءً من كتاب الله تعالى فلا يقول أن ذلك له خلق لا يتغير ولا يتبدل وليس له علاج ، كما يعتقد البعض أنه لا يمكن إكتساب الأخلاق ، وابن القيم رحمه الله يقف غير هذا الموقف عندما ذكر الفرق بين الصبر والتصبر والإصطبار والمصابرة فقال:

والفرق بين هذه الأسماء بحسب حال العبد في نفسه وحاله مع غيره ، فإن حبس النفس ومنعها من إجابة مالا يحسن إن كان خلقاً له وملكة سمي صبراً، وإن كان بتكلف وتمرن وتجرع لمرارته سمي تصبراً ، كما يدل عليه هذا البناء لغة، فإنه موضع التكليف : كالتحلم ، والتشجع ، والتكرم ، والتحمل ، ونحوها .

وإذا تكلفه العبد واستدعاه صار سجية له ، كما في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :(ومن يتصبر يصبره الله)(٥) وكذلك العبد يتكلف التعفف حتى يصير التعفف له سجيه ، وكذلك سائر الأخلاق (٦) .

---

(١) رواه البخاري كتاب الطب جـ ٧ ص ١٢

(٢) رواه مسلم في كتاب السلام برقم ١٩ باب لكل داء دواء : ١٧٢٩/٤

(٣) مسند الامام أحمد قريب من لفظه : ١٥٦/٣

(٤) الجواب الكافي : ص ٣ و ٤

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة باب الاستعفاف عن المسأله ومسلم برقم ١٠٥٣ وغيرهما ،

(٦) عدة الصابرين : ص ٣٦

والأسباب التي تجعل التخلق ممكن الإكتساب كما يقول ابن القيم أن : المزاولات تعطي الملكات ومعنى ذلك أن من زاول شيئاً وإعتاده وتمرن عليه صار ملكة له وسجية وطبيعة .

قالوا: والعوائد تنقل الطبائع ، فلا يزال العبد يتكلف التصبر حتى يصير الصبر له سجية .

قالوا : وقد جعل الله في الإنسان قوة القبول والتعلم ، فنقل الطبائع عن مقتضياتها غير مستحيل (١) .

والذي نقوله أن ذلك ممكناً من واقع ما عرفناه من فعل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم والأخلاق والآداب في أصحابه رضوان الله عليهم وكيف نقلهم من أعراب في الصحراء إلى هداة يقتدى بهم ومصابيح يستنار بأخلاقهم وآدابهم فحازوا مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات بعد أن لم يكونوا كذلك وهو أكبر دليل على إمكان التخلق والتأدب وكما نرى ونشاهد بعض شذاذ هذه الأمة إذا ما أراد الله له الهدايه كيف يتحول من حال إلى حال ، وذالك راجع إلى حسن المنهج التربوى وحكمة المربى ونوع التربية .

ساحة الإصلاح

المطلع على كتب ابن القيم رحمه الله يتضح له بجلاء أن ساحة المعركة في التربية والإصلاح تدور على القلب وأنه هدف التربيه ومجال عملها ، لأن التربية في نظر ابن القيم هي تحقيق عبادة الله تعالى كما قال تعالى: ((وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)) (٢) وجعل الأمة مربوبة لله ، متأدبة ومتخلقة بأمره ، متجملة بالبعد عما نهى عنه ، متبعة في ذلك ما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهذه الطاعة لله والعبادة تحتاج إلى العلم والعمل فأعطاهم سبحانه موادها من القلب ، والسمع ، والبصر ، والجوارح فمن إستعملها في إرادته وشهوته ولم يرعَ حق خالقه يخسر إذا سئل عن ذلك ويحزن حزناً طويلا قال تعالى :((إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)) (٣) .

---

(١) انظر عدة الصابرين : ٣٧

(٢) الاية من سورة الذاريات : ٥٦

(٣) الاية من سورة الاسراء : ٣٦

وهذه الاعضاء والجوارح التي تقوم بالعباده والتي غايتها القيام بمحبوب الله، ومن ثم تربية هذا العبد بهذه التشريعات الإلهيه قابعة تحت إمرة ملك مطاع ألا وهو القلب كما يقول ابن القيم :

ولما كان القلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف في الجنود ، الذي تصدر كلها عن أمره ، ويستعملها فيما شاء ، فكلها تحت عبوديته وقهره ، وتكسب منه الإستقامة والزيغ ، وتتبعه فيما يعقده من العزم ويحله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :(ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب) (١) فهو ملكها ، وهي المنفذة لما يأمر به ، القابلة لما يأتيها من هديه ، ولا يستقيم لها شئ من أعمالها حتى تصدر عن قصده ونيته وهو المسئول عنها كلها ، لأن كل راع مسئول عن رعيته ، كان الإهتمام بتصحيحه ، وتسديده أولى ما أعتمد عليه السالكون، والنظر في أمراضه وعلاجها أهم ما تنسك به الناسكون (٢) .

ويقول عن القلب الذي يسير هذه الحواس والجوارح أنه هو السائر في الطاعة فإذا رأيت الإنسان يسير في الطاعة فاعلم أن قلبه هو المسير له فيقول :

إعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل والدار الآخرة ويكشف عن طريق الحق ونهجه ، وآفات النفس والعمل ، وقطاع الطريق ، بنوره ، وحياته ، وقوته وصحته وعزمه ، وسلامة سمعه وبصره ، وغيبة الشواغل عنه (٣) .

فيظهر منه قول وعمل هو مدار هذا الدين ، فيقول :

فقول القلب : هو إعتقاد ما أخبر الله سبحانه به عن نفسه وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

وعمل القلب : كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، وإخلاص الدين له والصبر على أوامره ، وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضى به وعنه والموالاة فيه ، والمعاداة فيه والذل له والخضوع ، والإخبات إليه، والطمأنينة به وغير ذلك من أعمال القلوب (٤) .

فإذا كانت قواعد العبادة عند ابن القيم منقسمة على القلب ، واللسان ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان الباب ٣٩ باب من استبرأ لدينه : ١٩/١

(٢) اغاثة اللهفان : ٥/١ وانظر مفتاح دار السعاده : ٢٤٣ وما بعدها .

(٣) مدارج السالكين : ٤٨٨/١

(٤) مدارج السالكين : ١١٣/١

والجوارح ولكل منها عبودية تخصه فإنه يرى أن أعمال اللسان والجوارح عديمة المنفعه أو قليلة المنفعه بدون أعمال القلب كما قال :

أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح ، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعه (١).

لأن أعمال اللسان والجوارح خبر عما في القلب وهو رحمه الله عندما يتحدث في كتابه مدارج السالكين عن منازل العباده ينسب هذه المنازل لعمل القلب كما ذكر ذلك في منزلة اليقظة ، والعزم والبصيره ، والقصد ، والإعتصام ، والخوف ، والخشوع ... وغير ذلك من منازل السائرين التي ذكرها ابن القيم وهي من أعمال القلب مما يدل على شرف عمل القلب وقوله وأنه العماد الذي يقوّم السلوك ويصلح به الفرد ومن ثم الجماعة .

ومن منطلق أهمية القلب وشرفه ومكانته سوف ينصب حديثنا على إصلاح هذا القلب بعد تعريفه ومعرفته ،ومعرفة عوآئقه وكيفية إصلاحه وعلاجه فيما يلي من دراسه .

تعريف القلب

القلب في الأصل مصدر قلبت الشيء قلبا إذا رددته على بداءته وقلبت الإناء رددته على وجهه ، ثم نقل هذا اللفظ فسمى به هذا العضو الذي هو أشرف الحيوان لسرعة الخواطر إليه وترددها ، والقلب هو " موضع الفكر " وقد يعبر عنه بالفؤاد والصدر كقوله تعالى : ((كذلك لنثبت به فؤادك)) (٢) وقال : ((ألم نشرح لك صدرك)) (٣) ويعني في الموضعين قلبك .

وقد يعبر به عن العقل كقوله تعالى : ((إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب)) (٤) أي عقل لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين (٥) وإن كان البعض يرى أنه في الدماغ ، وقد نسب الرب تبارك وتعالى العقل والفقه للقلب كما في قوله : ((أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور))(٦)

---

(١) مدارج السالكين : ١١٣/١
(٢) الاية من سورة الفرقان : ٣٢
(٣) الايه من سورة الإنشراح : ١
(٤) الايه من سورة ق : ٣٧
(٥) تفسير القرطبي بتصرف : ١٨٧/١ الى ١٨٩
(٦) الايه من سورة الحج : ٤٦

قال تعالى : ((ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها)) (١) والذي يتضح من أقوال ابن القيم رحمه الله أنه يميل إلى أن القلب هو الذي يعقل ويفهم كما يتضح ذلك من قوله :

إن القلب الحي المستنير هو الذي عقل عن الله وفهم عنه وأذعن وانقاد إلى توحيده ومتابعة ما بعث به رسوله صلى الله عليه وسلم (٢) .

وقد نقل ابن القيم رحمه الله خلاف الناس في الدماغ " أي المخ " والحواس والعقل هل مبدؤها القلب أو الدماغ فقالت طائفة مبدؤها القلب وهي مرتبطة به،وبينها وبين الحواس منافذ وطرق ولا ريب أن مبدأ القوة العاقلة منه وإن كان قد خالف في ذلك آخرون ، وقالوا : بل العقل في الرأس (فالصواب أن مبدأه) ومنشأه من القلب وفروعه وثمرته في الرأس والقرآن دل على هذا ، ولم يرد بالقلب مضغة اللحم المشتركه بين الحيوانات بل المراد ما فيها من العقل واللب (٣) وهذا العقل والذي محله القلب : " غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد ، بعضهم من بعض ولا إطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ، ولا بحس ، ولا ذوق ، ولا طعم ، وإنما عرفهم الله (إياها) بالعقل منه " (٤) .

وهو ما يوافق عليه شيخ الإسلام عندما عرف العقل في لغة المسلمين قال : " هو مصدر عقل يعقل عقلاً ويراد بالعقل الغريزة التي جعلها الله في الإنسان يعقل بها " (٥) .

صراع لابدّ منهُ

يوجه ابن القيم الأمة إلى أن الحياة جهاد وصراع معركة وسلاح وجنود وأعوان فيها الغالب والمغلوب ، والغانم والمغنوم ، قاصداً من ذلك حفز الهمم والإستعداد وهذه المعركه قضتها حكمة الله سبحانه وتعالى من خلق الجنة والنار وجعل لكل منها أهلا ، حكمة منه وعدلا .

---

(١) الاية من سورة الاعراف : ١٧٩

(٢) اجتماع الجيوش الاسلاميه : ص ٧

(٣) انظر مفتاح دار السعاده : ٢٤٣ الى ٢٤٦

(٤) العقل وفهم القرآن للحارث المحاسبي ص:٢٠٢ دار الكندى للطباعة والنشر الطبعة الثانيه عام ١٣٩٨هـ تحقيق حسين القوّتلي .

(٥) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الاسلام ص:٧٩ طبع المكتب الاسلامي الطبعه الرابعه عام ١٣٩٧هـ .

وسوف أصف هذه المعركة كما وصفها ابن القيم مبينا أطراف النزاع والحكمة منه وجند الطرفين وسلاحهما وسير المعركه وصفة المقاتلين وعلاجهم وتربيةّ الجند وغير ذلك من مداخلات هذه المعركة فنقول مستعينين بالله على ذلك.

العدو (١)

يقول ابن القيم أن حكمة الله سبحانه وتعالى إقتضت أن :

إبتلى هذا الإنسان بعدو لا يفارقه طرفة عين ، ولا يغفل عنه يراه هو وقبيله من حيث لا يراه ، يبذل جهده في معاداته في كل حال ، ويستعين عليه من بني جنسه من شياطين الجن وغيرهم من شياطين الإنس ، ونصب له الحبائل ، ومدّ حوله الأشراك ، وقال لأعوانه : دونكم عدوكم وعدو أبيكم لا يفوتكم ، ولا يكون حظه الجنةّ ، وحظكم النار ، وقد علمتم ماجرى علىّ وعليكم من الخزي واللعن بسببه ومن أجله (٢) .

---

(١) هذا العدو هو الشيطان الذي حذرنا الله منه في كتابه المبين ، وبين لنا عداوتّه ، وتسلطه علينا من باب وعوده وأمانيه الباطلةّ .
فقال تعالى : ((ياأيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعو خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين)) البقره : ٢٦١ وقال تعالى : ((إن يدعون من دونه إلا إناثاً وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً ، لعنه الله ـ وقال : لأتخذن من عبادك نصيباً مفروضا ، ولأضلنهم ، ولأمنينهم ، ولآمرنهم ، فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيّرنّ خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خساناً مبينا ، يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصا)) النساء : ١١٧ الى ١٢١ ، ولقد قصّ الله سبحانه في سورة الأعراف قصة عدائه وطرده ثم قال : ((قال : انظرني إلى يوم يبعثون ، قال : إنك من المنظرين ، قال : فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجدُ أكثرهم شاكرين ، قال : أخرج منها مذؤما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأن جهنم منكم أجمعين)) الأعراف ١٣ الى ١٨
وغير ذلك من آيات الله البينات التي ورد فيها ذكر الشيطان وهي سبع وستون مره من غير لفظ الشياطين وشياطينهم وشيطاناً وإبليس التي تصل في مجموعها إلى ثمان وتسعون مره تدل بمجموعها على عداء الشيطان لبني أدم وتحذر منه وتبين كيف النجاة منه ومن مكائده ووسوسته هو وجنده .

(٢) الجواب الكافي : ١١١ بتصرف .

لـــواء الانســـــان

يقـول ابـن القيـم أن اللـه سبحانـه وتعالـى عقـد لواء هـذه الحرب : لخـلاصـــة مخلوقـاتـــه وهـــو القلـــب الـذي هـو محـل معرفتـــه ، ومحبتـــه ، وعبـوديتـه ، والإخـلاص لـه ، والتوكـل عليـه والإنابـة إليـه فـولاه أمـر هـذه الحـرب (١) .

ولمـا علـم عـدو اللـه إبليـس أن المدار علـى القلـب والإعتمـاد عليـه أجلـب عليـه بالوسـواس ، وأقبـل يـوجـه الشهـوات إليـه وزيـن لـه مـن الأحـوال والأعمـال ما يصـــده عـن الطريـق ، وأمـده مـن أسبـاب الغـي بما يقطعـه عـن أسبـاب التوفيـق ونصـب لـــه مـن المصائـد والحبـائـل ما إن سلـم مـن الـوقـوع فيهـا لـم يسلـم مـن أن يحصـــل لـــه بهـــا التعـويـــق (٢) .

الحكمـــة مـن التسليـــط

وبيـن رحمـه اللـه حكمـــة الـرب سبحانـه مـن تسليـــط هـذا العـدو الماكـر على هذا الإنسـان فقـال :

فكـان سبـب التسليـط هـو أن يـر اللـه سبحانـه وتعالـى مـن هـذا الإنسـان أحـب شـيء إليـه وهـو الجهـــاد فيـه سبحانـه وتعالـى الـذي أهلـه أرفـع الخلـق عنـده درجـات وأقـــرب إليهـــم وسيلـــــه (٣) .

والجهـاد الـذي أراده اللـه سبحانـه مـن عبـاده أربـع مراتـب كمـا يقول ابن القيم :

جهـاد النفـــس ، وجهـــاد الشيطـــان، وجهـاد الكفـار ، وجهـاد المنافقيـن ، ولكـل مـن هـذه المراتـب مـراتـب تـدخـل تحتهـا ثـم يقـول وأكمـل الخلـق عنـد اللـه من كمـل مراتـب الجهـاد كلهـــا (٤) .

فهـو رحمـه اللـه يـرى أن الحيـاة كلهـا جهـــاد وهـي بالفعـل جهـاد فمـن جاهـــد فلـه الغنـم والنصـــر والفـوز ، ومـن لـم يجاهـد أخـذ وظلـم وخســر الدنيـا والأخـره .

جنـــود القلـــب

لمـا سلـــط اللـه علـى القلـب هـذا العـدو لـم يتركـه سبحانـه لعـدوه رحمـة منـــه وفضـــلا بـل أمـده بجنـــد وحـرس يدافعـون عنـه ويحفظـونه كمـا يقـــول ابـن القيـــــم :

---

(١) الجـواب الكافـى ص : ١١٢

(٢) اغاثـــة اللهفـان : ٥/١

(٣) الجواب الكافـى : ١١٢

(٤) انظـر ذلـك فـي زاد المعـاد : ٩/٣ الـى ١٢

أيده بجند من الملائكة لا يفارقونه ((له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله))(١) يثبتونه ، ويأمرونه بالخير ، ويحضونه عليه ، ويمدونهم بكرامة الله ، ويصبرونه ، ويقولون : إنما هو صبر ساعة، وقد استرحت راحة الأبد .

ثم أمده سبحانه بجند أُخَر من وحيه وكلامه ، فأرسل اليه رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأنزل إليه كتابه فازداد قوة إلى قوته ، وأيده مع ذلك بالعقل وزيراً له ومدبراً ، وبالمعرفة مشيراً عليه ناصحاً وبالإيمان مثبتاً له ومؤيداً وناصراً .

ثم أمدّ سبحانه القائم بهذه الحرب بالقوى الظاهرة والباطنة فجعل العين طليعته ، والأذن صاحب خبره ، واللسان ترجمانه ، واليدين والرجلين أعوانه .

وعلم سبحانه وتعالى كيفية هذه الحرب والجهاد فجمعها لهم في أربع كلمات فقال : ((يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون)) (٢)،(٣) .

وبهذا أقام الله سبحانه الحجة على عباده فبقي على العبد أن يقوم على حماية ثغوره وأن لا يجعل للعدو مكاناً يدخل منه إليه ، وذلك عمل تلك الإمدادات الإلهيه كل بحسب ما خلق له وعلى منهج الله المتمثل في الأمر والنهي .

خطة مُحكَمَة

في وصف دقيق وقصة ممتعة وأسلوب جذاب يصور ابن القيم رحمه الله سير المعركه بين القلب وجنده والشيطان وجنده .

موضحاً الخطط والأساليب التي رسمها العدو لجنوده وأعوانه من أجل الدخول على القلب والنيل منه إما بقتله أو جرحه ، وفاءً بالعهد الذي قطعه على نفسه وتنكيلا بعدوه .

ومقصده رحمه الله من سرد هذه القصة ، توجيه أفراد الأمة الى معرفة

---

(١) الايه من سورة الرعد : ١١

(٢) الايه من سورة آل عمران : ٢٠٠

(٣) انظر الجواب الكافي : ١١٢ الى ١١٣

الثغـــور التي يمكـــن لهـذا العـدو أن يدخـل منهـا إلـى الملـك ـ أي القلب ـ والأساليـب المستخـدمـــه فـي هـذه المعركـــه للدخـــول إليـــــه .

ومـن ثـــم يتبصـــر هـذا الفـــرد بهـذا العـدو فيحكـــم ســـد هـذه الثغـور وتحصينها بحصـون إلهيـــه لا يقـــوى عليهـــا .

وســـوف أنـقـــل بعض صور هـذه القصة مبينـاً المراد متحاشيـاً الإطالـــة .

يقـــول ابـن القيـــــم :

أقبـــل ملـك الكفـــر وعساكـره ، فـوجـد القلـب فـي حصنـه ، جالسـاً علـى كـرسـي مملكتـــه أمـره نافـذ فـي أعـوانـــه ، وجنـــده قـــد حفـوا بـه ، يقاتلـون عنـه ويدافعـون عـن حـوزتـــه فلـم يمكنـــه الهجـوم عليـه إلا بمخامـرة بعـض جنـده وأمـرائـه ، فـسأل عـن أخـص الجنـد بـه وأقـربهـــم منـه منزلـة ، فقيـل لـــه هـي النفـــس (١) فقال لأعـوانـه:

---

(١) لابـن القيـم مباحـث مفيـده فـي النفـس ذكـرت فـي كتبـه كمـا فـي الـروح ، واغاثـة اللهفـان ولأرتباطهـا بالموضـوع سـوف ننقـل مفـاد هـذه المباحث نقـلاً عن ابن القيـم :
أن النفـس والروح شـئ واحـد فسميـت النفـس روحـاً لحصـول الحياة بها وسميـت نفسـاً امـا لنفـاستهـا وشرفهـا ، واما مـن تنفـس الشـيء اذا خـرج فلكـثرة دخولهـا وخروجها فـي البـدن ، فالفـرق بيـن النفـس والروح فـرق بالصفـات لا فـرق بالذات الروح٢٤٦-٢٤٤
أمـا عـن مـاهيـة النفـس فقـد نقـل آراء الناس فـي ذلـك ثـم رجـح أنـه جسم مخالف بالماهيـة لهـذا الجسـم المحسـوس وهـو جسـم نورانـي علـوي خفيـف متحـرك ، ينفـذ فـي جـوهـر الاعضـاء ويســري فيهـا سريـان الماء في الـورد ، وسريـان الدهـن في الزيتـون ، والنار فـي الفحـم ، فمادامـت هـذه الأعضـاء صالحـه لقبـول الأثـــار الفائضـة عليهـا مـن هـذا الجسـم اللطيـف بقـي هـذا الجسـم اللطيـف شابكـاً لهـذه الأعضـاء وأفـادهـا الحـس والحركـة والارادة واذا فسـدت هـذه الاعضـاء خرجـت عـن قبـول تلـك الآثـار ، فـارقـ الـروح البـدن ، هـذا القـول هـو الصـواب فـي المسألـه وعليـه دل الكتـاب والسنـه واجمـاع الصحابـه .
ثـم نقـل بعـد ذلـك مائـة وخمسـة عشـر وجـهـا علـى تصـويـب هـذا القـــول وردّ كذلـك علـى مـن قـال انهـا جـوهـــر (وهـو ما يقـوم بنفسـه وهو عكـس العـــرض) انظـر الـروح ١٠٢ وما بعـدهـــا .
ورجـح رحمـه اللـه أن النفـس المطمئنـــه واللوامـــه ، والأمـاره : أنهـا نفـس واحـــده لهـا ثـلاث صفـات فتسمى باعتبـار كـل صفـه باسـم فانهـا واحـدة ذاتهـا وثـــلاث باعتبـار طبقتهـا والنفـس قـد تكـون تـاره أمـاره وتـارة لوامـة وتـارة مطمئنـــه بـل فـي اليـوم الواحـد والساعـة الواحـدة يحصـل منهـا هـذا وهـذا والحكـم للغالـب عليهـــا من أحوالهـا . الاغـاثـــه ٧٨/١ .
وابن القيـم يقـرر فـي كتاباتـه أن الشيطـان لا يستطيـع الدخـول علـى قلـب ابـن آدم الا مـن طريـق النفـس وهـي مدخـل الشـرور الـى القلـب كمـا قـال :
فان سـائـر أمراض القلـب انمـا تنشـأ مـن جانـب النفـس فالمـواد الفاسـده كلهـــا اليهـا تنصب ثـم تنبعث منها الى الاعضاء وأول ما تنال القلـب ، اغاثة اللهفان ٧٤/١==

أدخلوا عليها من مرادها وانظروا مواقع محبتها وما هو محبوبها فعدوها بد ، ومنوها إياه وانقشوا صورة المحبوب فيها في يقضتها ومنامها ، فإذا إطمأنت إليه وسكنت عنده فاطرحوا عليها كلاليب الشهوة ثم جروها بها إليكم ، فإذا خامرت القلب وصارت معكم عليه ملكتم ثغور العين واللسان والفم واليد والرجل ، فرابطوا على هذه الثغور كل المرابطة ، فمتى دخلتم منها إلى القلب فهو قتيل أو أسير أو جريح (١) .

هذا هو الثغر الأعظم من ثغور القلب الذي يوصى أعوانه باقتحامه أولا ثم يأتى بعد ذلك وصفه لهم الطريقه في الدخول من الثغور الأخرى إلى الملك.

أساليب الغزو

بعد هذا الفتح العظيم وأسر أعظم أمراء هذا الملك الكريم وإنهزام أكثر جنده فإن الثغور قد فتحت أبوابها لقبول أمر هذا العدو اللعين الذي تمرس مع طول البقاء على معرفة نقاط الضعف والقوة في خصمه أخذ يبين لجنده وأعوانه الأساليب الناجعة في أسر ما بقى من الجنود واستعبادهم من دون خالقهم .

أولا : قال لأعوانه كما يوضح ذلك ابن القيم :

دونكم ثغر العين ، فإن منه تنالون بغيتكم فإني ما أفسدت بني آدم بشيء مثل النظر ، فإني أبذر به في القلب بذر الشهوة ، ثم أسقيه بماء الأمنيه ، ثم ما أزال أعده وأمنيه وأقوى عزيمته ، وأقوده بزمام الشهوة إلى الإنخلاع من العصمة .

فامعنوا ثغر العين أن يكون نظره إعتباراً ، بل إجعلوا نظره تفرجاً واستحساناً وتلهياً ، فإن إسترق نظرة عابره فأفسدوها عليه بنظر الغفلة والإستحسان والشهوة فإنه أقرب إليه ، وأعلق بنفسه وأخف عليه (٢) .

ثانياً : ثم أمعنوا ثغر الأذن أن يدخل منه ما يفسد عليكم الأمر

== ويقول : فان شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته (اى الشيطان) فهي مركبة، وموضع شره ومحل طاعته ، الاغاثه ٩٠/١ ، كما يوضح أن الشيطان قرين النفس فيقول : وأما النفس الاماره فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها وهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ويأمرها بالسوء ، ويزين لها ، ويطيل في الأمل ويريها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها ، انظر الروح ٢٥٨و٢٦٢و٢٦٣ وسوف يكون لنا حديث عن علاج النفس في نظر ابن القيم رحمه الله في هذا الباب .

(١) انظر الجواب الكافى : ١١٣ الى ١١٤ (٢) نفس المرجع بتصرف : ١١٤

فاجتهدوا ألا تدخلوا منه إلا الباطل ، فإنه خفيف على النفس ، تستحليه وتستحسنه تخيروا له أعذب الألفاظ للألباب ، وامزجوه بما تهوى النفس ، فإن رايتم منه إصغاء فزجوه بأخواتها ، وكلما صادفتم منه إستحسان شيء فالهجوا له بذكره .

وإياكم !! أن يدخل من هذا الثغر شيء من كلام الله ، أو كلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو كلام الفصحاء فإن غلبتم على ذلك ودخل من ذلك شيء فحولوا بينه وبين فهمه وتدبره ، والتفكر فيه والعظة به ، إما بادخال ضده عليه ، وإما بتهويل ذلك وتعظيمه وأن هذا الأمر قد حيل بين النفوس وبينه فلا سبيل لها إليه (١) .

ثالثا : ثم يقول : قوموا على ثغر اللسان ، فإنه الثغر الأعظم ، وهو قبالة الملك فأجروا عليه من الكلام ما يضره ولا ينفعه ، فامنعوه من ذكر الله تعالى ، وإستغفاره ، وتلاوة كتابه ، ونصحة عباده ، والتكلم بالعلم النافع ويكون لكم من هذا الثغر أمران عظيمان لا تبالون بأيهما ظفرتم .

احدهما : التكلم بالباطل فبذلك يكون من إخوانكم ومن أكبر جندكم وأعوانكم .

الثاني: السكوت عن الحق فكما أن الأول أخ ناطق ، فربما كان الأخ الثاني أنفع أخويكم لكم أما سمعتم قول الناصح " المتكلم بالباطل شيطان ناطق والساكت عن الحق شيطان أخرس " .

واعلموا يابني أن ثغر اللسان هو الذي أهلك منه بني آدم وأكبهم على مناخرهم في النار (٢) .

رابعا : ثم الزموا ثغر اليدين والرجلين ، فامنعوها أن تبطش بما يضركم وتمشي فيه .

واعلموا أن أكثر أعوانكم على لزوم هذه الثغور مصالحة النفس الأماره فأعينوها واستعينوا بها وكونوا معها على حرب النفس المطمئنه ، فاجتهدوا في كسرها وإبطال قواها ، فإذا إنقطعت موادها وقويت مواد النفس الأمارة ، وانطاعت لكم أعوانها ، فاستنزلوا القلب من حصنه ، واعزلوه عن مملكته وولوا مكانه النفس الأماره فإنها لا تأمر إلا بما تهوون وتحبون مع أنها لا تخالفكم في شئ(٣).

واستعينوا يابني بجندين عظيمين لن تغلبوا معهما :

---

(١) انظر الجواب الكافي بتصرف قليل : ١١٥

(٢) نفس المرجع : ١١٧

(٣) نفس المرجع : ١١٨

احدهما : جند الغفلة فأغفلوا قلوب بنى آدم عن الله والدار الآخره فإن القلب إذا غفل عن الله تمكنتم منه ومن إغوائه .

والثاني : جند الشهوات ، فزينوها في قلوبهم وحسنوها في أعينهم وأنتهزوا فرصكم فيهم عند الشهوة والغضب فلا تصطادون بنى آدم في أعظم من هذين الوطنين فإن من لم يملك نفسه عند الغضب فحري به أن لا يملك نفسه عند الشهوة .

واعلموا أن الغضب جمرة في قلب ابن آدم ، والشهوة نار تثور من قلبه وانما تطفأ النار بالماء والصلاة والذكر والتكبير فاياكم أن تمكنوا بنى آدم عند غضبه وشهوته من قربان الوضوء والصلاة فان ذلك يطفىء عنهم نار الغضب والشهوة (١) .

نتائج هذا الصراع

والآن أيها الأخ المسلم إعرف نفسك وقلبك بعد هذا الصراع والحرب الضروس وما هو مصيرك الذي تعيشه الآن مع هذه الحرب فهل أنت منتصر ظافر قد نلت مغانم الدنيا والآخره ، أم أنك في عداد الأموات الذين أسرهم العدو وأودعهم في غيابات السجون واستعبدهم بالنار والحديد ، أم أنك من أولئك الجرحى الذين لا يعلم هل يمكن شفاؤه ورجوعه إلى صحته وسلامته أم أن هذا الجرح سوف تتضاعف عواقبه حتى يؤدي به إلى الموت فالنتائج إذا ثلاثة :

أولها : القلب السليم

وهو قلب وقف حصناً شامخاً منيعاً أمام الشيطان وأعوانه فلم يستطيعوا الوصول إليه لقوة جنوده وتمسكهم بالأمر والنهى فسلم من الشيطان وأعوانه، وهذا القلب هو الذي ينجي صاحبه يوم القيامة من عذاب الله كما قال تعالى : ((يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم)) (٢) .

وقد ذكر ابن القيم أقوال أهل العلم في معناه ثم قال :

والأمر الجامع في معنى القلب السليم : أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه ، ومن كل شبهة تعارض خبره ، فسلم من عبودية ما سواه ، وسلم من تحكيم غير رسوله فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله في خوفه ، ورجائه ، والتوكل عليه ، والإنابه إليه ، والذل له ، وإيثار مرضاته

---

(١) الجواب الكافي : ١٢٠

(٢) الاية من سورة الشعراء : ٨٩

في كل حال ، والتباعد عن مساخطه بكل طريق ، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده (١) .

والذي يراه ابن القيم رحمه الله أن العبودية الكاملة هي الحصن الحصين من الشيطان ومكايده واستدل لذلك بقوله تعالى : ((إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون))(٢) أي ليس له طريق يتسلط عليهم به : لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة ، والقدرة داخله في مسمى السلطان وإنما سميت الحجة سلطاناً لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده .

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المتوكلين كما في الآية الأولى والمخلصين كما قال : ((قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولاغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين ، قال : هذا صراط على مستقيم إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)) (٣) .

فلما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص إستثنى وقال : ((إلا عبادك منهم المخلصين)) فعلم عدو الله أن من إعتصم بالله وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله (٤) .

وهذا القلب رزقه الله بالنفس المطمئنه ، فحكمها وأصبحت تحت تصرفه وهذه النفس كما يصفها ابن القيم :

إطمأنت إلى ربها بعبوديته ، ومحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه والرضا والسكون إليه .

ثم يأخذ رحمه الله في تعريف الطمأنينة إلى الله سبحانه بقوله هي :

حقيقة تردُ منه سبحانه على قلب عبده تجمعه عليه ، وترد قلبه الشارد إليه حتى كأنه الجالس بين يديه يسمع به ويبصر به ويتحرك ، ويبطش به تلك الطمأنينة في نفسه وقلبه .

ولا يمكن أن تحصل الطمأنينة الحقيقية إلا بالله وبذكره ، وهو كلامه الذي أنزل على رسوله كما قال تعالى : ((الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب))(٥)،(٦) .

---

(١) اغاثة اللهفان : ص ٧

(٢) الايه من سورة النحل : ٩٩

(٣) الايه من سورة الحجر: ٣٩-٤٢

(٤) انظر اغاثة اللهفان بتصرف : ١/٩٨ - ٩٩

(٥) الاية من سورة الرعد: ٢٨

(٦) انظر الروح : ص ٢٤٩

فهل عرفت نفسك ايها العبد هل أنت من هؤلاء الذين سلمت قلوبهم من الشيطان وأعوانه وهل عرفت السبيل إلى ذلك .

الثاني : القلب الميت

هذا القلب نقيض سابقه وهو الذي صدّق الشيطان عليه وعده وأوقعه في حبائله ومصائده ودخل عليه في مملكته وأنزله عن عرشه وولى غيره مكانه فلم يعد له أمر ولا نهى فأصبح في عداد الأموات وهو كما يصفه ابن القيم بقوله :

القلب الميت : الذي لا حياة به ، فهو لا يعرف ربه ، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه بل هو واقف مع شهواته ولذاذاته ، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه ، إن أحب ، أحب لهواه ، وإن أبغض ، أبغض لهواه .

فهو آثر ، وأحب إليه من رضى مولاه ، فالهوى إمامه ، والشهوة قائده والجهل سائقه ، والغفلة مركبه ، فهو في تحصيل أغراضه الدنيوية ، مغمور وبسكرة الهوى وحب العاجلة ، مخمور ، ويتبع كل شيطان مريد (١) .

وهذا القلب المعزول عن مملكته قد ولّى مكانه النفس الأمارة بالسوء فأصبح القلب محكوماً لها بعد أن كان حاكماً عليها فما هو طريق حكمها وأمرها ونهيها وما هي صفتها يقول ابن القيم عن النفس الأمارة هي :

المذمومة تأمر بكل سوء وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له كما قال حاكياً عن امرأة العزيز ((وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي))(٢)،(٣) وهذه النفس كما يرى ابن القيم :

بذاتها أمارة بالسوء لانها خلقت في الأصل جاهلة ظالمة ، إلا من رحمه الله ، والعدل والعلم طاريء عليها بإلهام ربها وفاطرها لها ذلك فإن لم يلهمها رشدها بقيت على ذلك (٤) .

فياويل قلب قد حكمته نفس كهذه فانظر أيها الإنسان لسير حياتك التي تعيش فيها الآن : هل تتبع ما تشتهيه وتلتذ به إذا ما سنحت لك الفرصة،

---

(١) انظر اغاثة اللهفان بتصرف : ٩/١

(٢) الايه من سورة يوسف : ٥٣

(٣) كتاب الروح : ٢٥٦

(٤) اغاثة اللهفان : ٧٧/١

هل حياتك سائرة إلى تنفيذه وجلب ما تحبه نفسك من اللذات والشهوات هل الله سبحانه وتعالى وأوامره ونواهيه وما يحبه ويبغضه شغلك الشاغل أم أنك غافل عن هذا ولاهٍ فيما تحبه وتهواه ويرضي رغبتك ، فإن رأيت من نفسك حب العاجلة والعمل لها وما تجلبه من لذة وشهوة وإعراض عن الله وما جاء به رسوله وجهل به ، فاعلم أن قلبك ميت ، والميت لا يحيا إلا بالله وما أنزله من الروح ، فابحث عن هذه الروح وأسكنها في قلبك فإنها مصدر حياته .

ثالثاً : القلب المريض

هذا القلب لم يسلم من هذه المعركة ولم يمت بل هو جريح قد أصابته بعض سهام العدو ولا يعلم مصيره هل يبرأ أم يموت ، وهو كما يصوره ابن القيم بأنه:

قلب له حياة وبه علة ، فله مادتان ، تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منهما .

ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به والإخلاص له والتوكل عليه : ما هو مادة حياته .

وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها ، والحسد ، والكبر والعجب ، والعلو ، والفساد في الأرض بالرياسة : ما هو مادة هلاكه وعطبه .

وهو ممتحن بين داعيين : داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة ، وداع يدعوه إلى العاجلة ، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً ، وأدناهما إليه جواراً (١).

فهو لم يتمكن منه الإيمان ولم يز هر فيه سراجه حيث لم يتجرد للحق المحض الذي بعث الله به رسوله بل فيه مادة منه ، ومادة من خلافه فتارة يكون للكفر أقرب منه للإيمان ، وتارة يكون للإيمان أقرب منه للكفر (٢) ، والشيطان مع هذا القلب بين أخذ ورد ، والحرب دائرة بينهما ، والخطر عليه عظيم ، حيث أن للشيطان منه نصيب قد يصل إليه في غفلة منه ويكيده حتى يستولي عليه .

والسبب في هذا التردد والتلون هو راجع إلى نوعية النفس التي تعيش تحت أمرته وهي التي أقسم بها الرب تبارك وتعالى في قوله : ((ولا أقسم بالنفس اللوامه))(٣) والتي إختلف السلف في إشتقاقها كما يقول ابن القيم على معنيين: هل هي من التلوم وهو من التلون والتردد ، أو هي من اللوم ؟ والذي يميل إليه ابن القيم رحمه الله أن إشتقاقها من اللوم بمعنى أنها التي تندم على

---

(١) اغاثة اللهفان : ٩/١

(٢) نفس المرجع : ١٣/١

(٣) الاية من سورة القيامة : ٢

ما فات وتلوم عليه فإن كان في معروف لامت نفسها على تقصيرها في فعله وإن كان منكراً لامت نفسها على فعله .

والقول بأنها مشتقة من التلوم وهو التلون والتردد من لوازم هذا القول فإنها لتلونها وعدم ثباتها تفعل الشيء ثم تلوم عليه فالتلوم من لوازم اللوم (١) وهذا القسم عليه أكثر الناس .

العلاج

من المعلوم أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان لعبادته وأودع فيه هذا القلب المتصرف في العبد وأراد منه سبحانه أن يتأتى منه وجوه الخير من محبوباته سبحانه كما يقول ابن القيم :

إن القلب وغيره من الأعضاء يراد منه أن يكون صحيحاً سليماً لا آفة به، ويتأتى منه ما هُيء له وخلق لأجله (٢) .

ولكن قد يطرأ على هذا القلب ما يفسده ، ويخرجه عن فطرته وسلامته وهو ما عبر عنه ابن القيم بمرض القلب وقد شخص مرض القلب بقوله :

هو مرض يحصل له ، يفسد به تصوره للحق ، وإرادته له فلا يرى الحق حقاً ، أو يراه على خلاف ماهو عليه ، أو ينقص إدراكه له ، وتفسد به إرادته له فيبغض الحق النافع ، أو يحب الباطل الضار ، أو يجتمعان له وهو الغالب (٣) .

فالقلب كما يراه ابن القيم : له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن (٤) ، فإذا فسد القلب وتصوره وإرادته وأراد الإنسان أن يعيد عليه صحته وسلامته وأن يأتي بما خلق له فلابدّ له من ثلاثة أمور كما يرى ذلك ابن القيم وهي :

يحتاج إلى ما يحفظ عليه قوته ، ويحتاج إلى حمية عن المؤذى الضار، ويحتاج إلى إستفراغه من كل مادة فاسدة (٥) .

وسوف يكون حديثنا عن العلاج في ذكر هذه الأمور ومتعلقاتها، إن شاء الله.

---

(١) اغاثة اللهفان بتصرف : ١/٧٧ الى ٧٨
(٢) اغاثة اللهفان : ١/١٠
(٣) نفس المرجع : ١/١٧
(٤) نفس المرجع : ١/٢٠
(٥) نفس المرجع : ١/١٧

وهذا التصور من ابن القيم لهذا العلاج في هذه النواحي قياساً على البدن فالبدن لا بد له من قوة وغذاء ، وحمية عن المؤذي الضار من الأطعمة ونحوها ، واستفراغ مافي البدن من المواد المؤذية والفاسدة فكذلك القلب حيث قال رحمه الله :

وكل من القلب والبدن محتاج إلى أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح ، فكما أن البدن محتاج إلى أن يزكوا بالأغذيه المصلحة ، والحمية عما يضره فلا ينمو إلا بإعطائه ما ينفعه ، ومنع ما يضره ، فكذلك القلب .

لا يزكو ولا ينمو ، ولا يتم صلاحه إلا بذلك .

ولا سبيل له إلى الوصول إلى ذلك إلا من القرآن ، وإن وصل إليه شيء منه من غيره فهو نزر يسير لا يحصل له به التمام المقصود (١) .

فابن القيم رحمه الله يرى أن القرآن الكريم : هو المتضمن لأدوية القلب وعلاجه من جميع أمراضه ويستدل لذلك بقوله تعالى :((ياأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور)) (٢) .

وقوله : ((وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين)) (٣) .

وأمراض القلوب شبهات وشهوات ، والقرآن الكريم جمع علاج القلب بنوعيه، إلا أن ذلك مقيد بقيد فقد قال سبحانه وتعالى : ((إن هو إلا ذكر وقرآن مبين، لينذر من كان حياً)) (٤) فأخبر أن الانتفاع بالقرآن والإنذار إنما يحصل لمن هو حي القلب ، وهو فهمه ومعرفة المراد منه فمن رزقه الله ذلك أبصر الحق والباطل عياناً بقلبه كما يرى الليل والنهار (٥) .

بل يرى رحمه الله أن تدبر القرآن أنفع شيء في معاشه ومعاده فيقول :

من تدبر القرآن وأطال التأمل فيه وجمع فيه الفكر على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرها وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما ، وثمراتهما ، ومآل أهلها ونقل في يده مفاتيح السعادة والعلوم النافعه وتثبت قواعد الإيمان في قلبه ... ثم يقول وبالجمله : تعرفه الرب المدعو إليه ، وطريق الوصول إليه ، وماله من الكرامات إذا وصل إليه .

---

(١) اغاثة اللهفان : ٤٦/١

(٢) الاية من سورة يونس : ٥٧

(٣) الاية من سورة الاسراء : ٨٢

(٤) الايات من سورة يس : ٦٩ - ٧٠

(٥) اغاثة اللهفان : ٤٥/١

وتعرفه مقابل ذلك ثلاث أخرى : ما يدع إليه الشيطان ، والطريق الموصل إليه ، وما للمستجيب لدعوته من الإهانه والعذاب بعد الوصول إليه .

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها ، ومشاهدتها ومطالعتها : فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها ، وتميز له بين الحق والباطل في كل ما أختلف فيه العالم ، فتريه الحق حقا والباطل باطلا وتعطيه فرقانا ونورا يفرق به بين الهدى والضلال ، والغى والرشاد ، وتعطيه قوة في قلبه ، وحياة وسعة وإنشراحا وبهجة وسرورا فيصير في شأن والناس في شأن آخر (١) .

وأمراض الشبهات والشكوك التي بلى بها العالم قديما وحديثا من شك في الله ورسوله وشبه في أسمائه وصفاته وغير ذلك من الإيمان بالأقدار والإنحرافات الداخله على المسلمين إنما هى من ترك الناس لهذا الكتاب ونظرهم إلى ماعداه من كتب الناس وآرائهم ومعقولاتهم وهذه الآراء والمعقولات كما يصفها ابن القيم رحمه الله أحد أمور اربعة : إما علوم لا ثقة بها ، وإنما هي آراء وتقليد ، وإما ظنون كاذبة لا تغني عن الحق شيئا ، وإما أمور صحيحة لا منفعة للقلب فيها ، وإما علوم صحيحة قد وعروا الطريق إلى تحصيلها وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها .

فهى " لحم جمل غث على رأس جبل وعر ، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل "(٢).

أما القرآن الكريم فيوصلك إلى نفس اليقين بأقرب الطرق وفي جميع مطالب العباد لذلك فإن أهله لم يجد الشك إلى نفوسهم طريقا فهم يقرؤن في الإثبات ((الرحمن على العرش استوى))،(٣) وفي النفي ((ليس كمثله شيء))(٤)(٥) فعرفوا الحق من خلال ما أخبروا به بأقصر الطرق وأقربها إلى الذهن وأصدقها حديثا من غير شك ولا شبهة حيث يقول ابن القيم عن كتاب الله :

وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات ، وإثبات المعاد والنبوات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة مثل القرآن (٦) .

---

(١) بتصرف من مدارج السالكين : ٤٨٥/١ الى ٤٨٦

(٢) انظر اغاثة اللهفان : ٤٤/١

(٣) الاية من سورة طه : ٥

(٤) الاية من سورة الشورى : ١١

(٥) انظر ذلك في اغاثة اللهفان : ٤٥/١

(٦) نفس المرجع : ٤٤/١

فإذا كان القرآن شفاء للقلب من الشبهات والشكوك فهو أيضاً شفاء من أمراض الأهواء والشهوات كما يوضح ذلك ابن القيم بقوله :

وأما شفاؤه لمرض الشهوات فذلك بما فيه ، من الحكمة ، والموعظة الحسنة بالترغيب والترهيب ، والتزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ، والأمثال والقصص التي فيها أنواع العبر والإستبصار ، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ، ويرهب عما يضره ، فيصير القلب محباً للرشد ، مبغضاً للغي ، فالقرآن مزيل للأمراض الموجبة للإرادات الفاسدة ، فيصلح القلب ، فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها ، فتصلح أفعاله الإختيارية والكسبيه(١).

لمرق العلاج أولا مايحفظ عليه قوته

يرى ابن القيم أن مدار حفظ القلب .. بالإيمان وأوراد الطاعات (٢) .

والإيمان هو الأساس لقوة القلب وصحته وعندما نقول ذلك إنما نعني مانقول وليس أدل على ذلك من الواقع الملموس فلم نر أصح قلوباً ولا أشجع ولا أفهم ولا أقوى ولا أصلب في الحق ، ولا ألين على المؤمنين ، ولا أعطف على المساكين من قلوب من عمرت قلوبهم بالإيمان بالله وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أصحابه ثم تابعيهم ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين فهي أشرف القلوب وأعلاها منزلة عند الله ، فإذا نظرت بعين البصيرة إلى ما كان منهم أوقفك على هذا الحق الذي لا يماري فيه إلا جاهل معاند :

فانظر إليهم في التوحيد والمحبة ، وانظر إليهم في الطاعة والعباده ، وانظر إليهم في المحن والبلايا ، وانظر إليهم عند الأقدار والمصائب ، وانظر إليهم في النطق بالحق والدعوة إليه وإيثاره ، وانظر إليهم في الحرب والقتال ، وانظر إليهم في العفة والشهامة ..... والحق أنهم المثل الأعلى وما ذالك إلا من الإيمان الذي خالج نفوسهم ، وإستقرار اليقين في قلوبهم .

وإليك ابن القيم وهو يعرف هذا الإيمان الذي جعلهم بهذه الصورة الرائعة النادره فيقول عن الإيمان :

هو حقيقة مركبة ، من معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتصديق به عقداً ، والإقرار به نطقاً ، والإنقياد له محبة وخضوعاً ، والعمل به باطناً وظاهراً ، وتنفيذه والدعوة إليه بحسب الإمكان ، وكماله في الحب في الله والبغض

---

(١) انظر ذلك في اغاثة اللهفان : ٤٥/١

(٢) نفس المرجع : ١٧/١

في الله ، والعطاء لله والمنع لله ، وأن يكون الله وحده إلهه ومعبوده .

والطريق إليه تجريد متابعة رسوله ظاهراً وباطناً وتغميض عين القلب عن الإلتفات إلى سوى الله ورسوله (١) .

بهذا التصور وتطبيقه حاز أولئك كمالات القلوب ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها والله المستعان، وهذا الإيمان قول وعمل وتصديق ، والتصديق محله القلب والله أعلم به ، أما القول والعمل فهو أثر التصديق والله سبحانه يجمع بين التصديق والعمل كقوله تعالى : ((الذين آمنوا وعملوا الصالحات))(٢) والأعمال والأقوال هي التي تزيد الإيمان وهذا قول السلف زيادة الإيمان بالطاعة وهي أوراد الطاعات التي فرضها الرب تبارك وتعالى وهي أحب شيء إلى الله تعالى كما في الحديث : (وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما أفترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته : كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصره به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه ...) (٣) .

فإذا اتضح هذا فسوف يكون حديثنا عن مقويات إيمان القلب وهي العبادات والأذكار والأدعية التي تحفظ عليه قوته وصحته التي فطر عليها وخلق من أجلها .

العبادات (٤)

ابن القيم عندما يتحدث عن العبادة يبين أنها هي قوة القلب الحقيقية وهي التي تحفظ عليه هذه القوة وتزيده قوة إلى قوته وأنها لذته ونعيمه وسروره ، وعلى قدر إنعدامها تنعدم اللذة والسرور والنعيم فكل ما كان أقرب وأكثر وأصح عبادة كلما كان النعيم أكثر، وكلما قلت وتشتتت ، وخالفة منهج الإسلام كلما كان النعيم والسرور معدوماً (٥) .

وأعتقد أن هناك الكثير من الناس يخالفونه هذا الرأى : وذلك لأنهم ينظرون إلى العبادة من منظار التكليف والمشقة وأنها على خلاف مقصود القلب ولذته

---

(١) الفوائد : ١٢١

(٢) الاية من سورة مريم : ٩٦

(٣) رواه البخاري كتاب الرقاق باب التواضع : ١٩٠/٧

(٤) تحدثت في الباب الاول عن العبادات عند حديثي عن اركان الاسلام ، وقد بينت الحاجة الى العبادة ، وأن العبادات ليست تكاليف ومشقة لمجرد الابتلاء ، وبينت أن العبادة انما شرعت لمصلحة العباد وقد تحدثت عن اركان الاسلام وهي الصلاة والزكاة والصوم، والحج وبينت الحكمة من تشريعها ، راجع :ص ٨٢، ٢٩٨، ٤٣٢

(٥) انظر في ذلك اغاثة اللهفان : ٢٦/١ وطريق الهجرتين ص ٥٥ وما بعدها .

وهي مجرد إمتحان وإبتلاء .

وابن القيم لا ينكر المشقة والتكليف في بداية الأمر على العابد ولكنه لا ينظر إلى هذه المشقه والتكليف وإنما ينظر إلى الآثار المترتبه على العبادة الصحيحة والكامنه في سعادة الروح والقلب ، التي هي سعادة العبد على الحقيقة ولذته وسروره ونعيمه في الدنيا والآخرة ، وهذه السعادة لا يمكن أن تحصل للعبد إلا بعبادة الله وحدهُ لا شريك له ، ولا يعرف هذه السعادة ولا يتصورها إلا من قام بها على أتم وجه فهو المدرك لها والواجد لآثارها ، في قلبه وروحه وذلك أن المؤمن دائما ما يتطلع إلى اللذة والنعيم الذي هو مقبل إليه وقد وعده به ربه سبحانه وتعالى أصدق من وعد ، من النظر إلى وجهه سبحانه ، ودخول جنته وما فيها من نعيم فهو مشتاق فرح مسرور بذلك اللقاء الذي تيقنه ، ويرتقبه ويعمل من أجل الوصول إليه ولذلك فهو في سعادة في الدنيا بشوقه إلى الله وهو في سعادة في الآخره لما يجده من ملذات أعدت له .

فالمؤمن مسافر إلى الله فرح مشتاق إلى لقائه ، كما أن أي إنسان غاب عن أهله وأحبابه مدة طويلة حتى إشتاق إلى لقائهم فإذا عزم على السفر رأيته سعيدا فرحا مسرورا أخذ يجمع كل ما بوسعه من الهدايا وما يرضي الأحباب عنه ويرتقب الساعات والدقائق وهي تمر كأنها أخذت في التأخر والإبطاء من أجل تأخيره عن محبوبه وهكذا سير المؤمن إلى الله تعالى في هذه الحياة وتقربه لله فتكون بذلك الحياة طيبة هنيئة سعيدة ، كما أخبر الرب سبحانه وتعالى في قوله ((من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة)) (١) .

ليست هذه الحياة هي الحياة المشتركة بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر من طيب المأكل والملبس والمشرب والمنكح ، بل الحياة الطيبة التي وعد الله بها أعظم من ذلك وأشرف وأسعد وهي حياة من إجتمعت جميع همومه وصارت هما واحدا في مرضاة الله ، ولم يتشعب قلبه وإرادته وأفكاره وتنقسم بكل واد منها شعبه بل إقتصر على الله وحده فأصبح تدور عليه همومه وإرادته وقصوده بكل خطرات قلبه .

فإذا وصل العبد إلى هذه الدرجة وأدّى الفرائض والنوافل صار محبوبا لله فإذا صار محبوبا لله أوجبت محبة الله له محبة أخرى منه لله فوق المحبة

---

(١) الاية من سورة النحل : ٩٧

الأولى فشغلت هذه المحبة قلبه عن الفكرة والإهتمام بغير محبوبه ، وملكت عليه روحه ، ولم يبق فيه سعة لغير محبوبه البتة (١) .

هذا هو النعيم الحقيقي الذي يراه ابن القيم رحمه الله ، أما ما يراه المسكين ويظنه نعيماً وسروراً ولذة الذي قل نصيبه من عبادة الله من الكفار والفجار من طيب المأكل والمشرب والملبس والمركب والمنكح والذي يزيد عند اعداء الله أضعافاً مضاعفة عن أولياء الله ، فإن ذلك ليس نعيماً على الحقيقة بل هو إملاء وكيد من الله تعالى لهم كما قال تعالى : ((من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون))،(٢) وهذا من عدل الله سبحانه وأنه لا يضيع عمل عامل فمن عمل للدنيا فانه يوفّ إليه عمله في الدنيا ولكنه في الآخرة من الخاسرين ، فهذا نعيم زائل يعذب الإنسان به وهذا ما شاهدناه وسمعناه في هذه الحياة فكم من منعم مترف في هذه الحياة إنتحر وقتل نفسه ، وكم منهم بئيس محروم من لذته وهي أمامه وبين متناول يديه وكم منهم حائر ضاقت عليه الأرض بما رحبت وكل ذلك من فقدهم الإيمان الذي هو لذة الروح والقلب وسروره .

ولا يتمنى هذا النعيم إلا من قل نصيبه من الإيمان ولم يذق حلاوته كما حكى الله سبحانه ذلك في كتابه حيث قال عن قارون وقومه : ((فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحياة الدنيا : ياليت لنا مثل ما أوتي قارون إنه لذو حظ عظيم ، وقال الذين آوتوا العلم : ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقاها إلا الصابرون ، فخسفنا به وبداره الأرض فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله وما كان من المنتصرين ، وأصبح الذين تمنوا مكانه بالأمس يقولون : ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر لولا أن مَنَّ الله علينا لخسف بنا ويكأنه لا يفلح الكافرون)) (٣) .

وقد مثل ابن القيم رحمه لهذا النعيم الزائل المنقطع الذي يعذب به صاحبه أكثر من نعيمه به على الحقيقة وأن ما يحصل به بملابسة هذا النعيم من جنس ما يحصل للمريض " بالجرب " من لذة الأظفار التي تحكه فهي تدمي

---

(١) انظر ذلك في الجواب الكافي ص : ٢١٨ الى ٢١٩

(٢) الاية من سورة هود : ١٦

(٣) الايات من سورة القصص : ٧٩ الى ٨٢

الجلد وتحرقه وتزيد في ضرره ، وهو يؤثر ذلك لما له في حكمها من لذة وهذا يتعذب به القلب من محبة غير الله : وهو عذاب عليه ومضره ، وألم في الحقيقة لا تزيد على لذة حك الجرب والعاقل يوازن بين الأمرين ويؤثر أرجحهما وأنفعهما (١) .

والمراد : أن عبادة الله وحده ومحبته وإخلاص العمل له وإفراده بالتوكل عليه هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه ، وهي المربية للإنسان التي تصلحه وتجعل منه عضواً صالحاً في الأرض لا يأتي منه إلا الخير ، والبركة لذلك نجد أن القرآن الكريم والسنة المطهرة تبين ذلك وتوضحه وأنها قوة وطهراً للإنسان وزكاة فيقول تعالى : ((إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر))(٢) ويقول عن الزكاة والصدقة : ((خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)) (٣) ويقول سبحانه عن الحج : ((الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج)) (٤) .

ويقول النبي صلى الله عليه وسلم عن الصيام : (فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يسخب ، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم)(٥)

ويقول الرب تبارك وتعالى بعد أن بين جملة من أحكام العبادات : ((ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون)) (٦) .

الذكر

ومن العبادات المقوية للقلب الذكر ، الذي لا ينفك عن حياة المؤمنين وفي كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم في البيت والشارع والمسجد والمجلس وفي كل مكان ما عدا مواضع النجاسات والذكر كما يقول ابن القيم هو :

منشؤ الولاية التي من أعطيه أتصل ، ومن منعه عزل ، وهو قوت القلوب وقوتها ، والتي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً ، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بواراً .

---

(١) انظر طريق الهجرتين : ٥٨

(٢) الاية من سورة العنكبوت : ٤٥

(٣) الاية من سورة التوبة : ١٠٣

(٤) الاية من سورة البقره : ١٩٧

(٥) رواه مسلم في كتاب الصيام برقم ١٦٣ باب فضل الصيام : ٨٠٧/٢

(٦) الاية من سورة المائده : ٦

به يستدفع المؤمنون الآفات ويستكشفون الكربات وتهون عليهم به المصائب يدع القلب الحزين ضاحكاً مسروراً ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكوراً .

وكما أن الجنة قيعان ، وهو غراسها فكذلك القلوب بور خراب ، وهو عمارتها وأساسها .

كما أنه روح الأعمال الصالحة ، فإذا خلا العمل عن الذكر كان كالجسد الذي لا روح فيه (١) .

وقد عرفنا فيما مضى أن مرض القلب وموته وإضعافه سببه دخول الشيطان إليه وتوليه له بالوسوسة والتمني وتطويل الأجل إلى غير ذلك من مداخل الشيطان مما سبب له هذا الضعف والفتور الذي يصل إلى حد الموت .

وليس هناك سبيل إلى حرز نفسه منه وإبعاده عنه إلا بالذكر كما يقول ابن القيم معلقاً على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله في الحديث الطويل (٢) : (وآمركم أن تذكروا الله تعالى : فإن مثلَ ذلك مثلُ رجل خرج العدو في آثره مسرعاً ، حتى إذا أتى إلى حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، وكذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله) فلو لم يكن في الذكر إلا هذه الخصلة الواحدة ، لكان حقيقاً بالعبد أن لا يفتر لسانه من ذكر الله تعالى ، وأنه لا يحرز نفسه من عدوه إلا بالذكر ، ولا يدخل عليه العدو إلا من باب الغفلة فهو يرصده فإذا غفل وثب عليه وافترسه وإذا ذكر الله إنخنس عدو الله وتصاغر ولهذا سمى ((الوسواس الخناس)) (٣) أي يوسوس في الصدور ، فإذا ذكر الله تعالى خنس أي كف وانقبض (٤) .

وقد سرد ابن القيم الأدلة من الكتاب والسنة على فضل الذكر وأنه من المنجيات من عذاب الله تعالى وأن أهله هم السابقون ، وذكر عظيم حاجة العبد إليه وعدم استغنائه عنه طرفة عين ، وأنه جلاء للقلب من صدئه حيث أنه يصدأ كما يصدأ النحاس والحديد وأن الذكر يجلوه حتى يجعله كالمرآة البيضاء لأن القلب يصدأ بالغفلة والذنب وجلاؤه بالإستغفار والذكر (٥) .

---

(١) انظر مدارج السالكين بتصرف : ٢/٤٤٠ - ٤٤١

(٢) رواه الامام أحمد في المسند : ٤/٢٠٢ برقم ١٧٨٣٣ والترمذي برقم ٢٨٦٧ في الامثال .

(٣) الاية من سورة الناس : ٤

(٤) انظر الوابل الصيب بتصرف : ٤٦

(٥) انظر في ذلك الوابل الصيب ص : ٥٠ ومدارج السالكين : ٢/٤٤١

كما يوجه ابن القيم الأمة إلى أن الذكر لا يقف عند هذا الحد من الفائدة بل أن للذكر أكثر من مائة فائده عائدة أكثرها على القلب والروح والبدن مثل :

أنه يطرد الشيطان ، ويرضي الرحمن ، ويزيل الهم والغم عن القلب ، ويجلب له الفرح والسرور والبسط ، وينور الوجه والقلب ، ويقوى به البدن ، ويجلب الرزق ويكسو الذاكر المهابة والحلاوة والنضرة ، ويورث المحبة ، والإنابة والرجوع إلى الله ويورث القرب منه ، والهيبة لربه ، ويورث القلب الحياة ، ويحط الخطايا ، ويزيل الوحشه بين العبد وربه .... وغير ذلك من الفوائد العظيمة التي أخذها من القرآن الكريم أو السنة المطهره ، والتي بينت عظيم فضله ومكانة أهله (١) .

أنواع الذكر :

والذكر الجاري على الألسنه له أنواع ثلاثة هي :

ذكر الثناء على الله سبحانه وتعالى نحو : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر .

أما ذكر الدعاء والسؤال نحو:((ربنا ظلمنا أنفسنا ، وإن لم تغفر لنا ، وترحمنا لنكونن من الخاسرين)) (٢) ، وياحي ياقيوم برحمتك أستغيث ، ونحو ذلك.

وذكر الرعاية نحو قول الذاكر : الله معي ، الله ناظر ، الله شاهدي ونحو ذلك مما يستعمل لتقوية الحضور مع الله ، وفيه رعاية لمصلحة القلب ولحفظ الأدب مع الله ، والتحرز من الغفلة والإعتصام من الشيطان والنفس والأذكار النبوية جملة هذه الأنواع (٣) .

مفاضلة الذكر بغيره

وإذا ثبت لك أيها الأخ المسلم عظيم نفع الذكر وشرفه وأنه حرز وحصن حصين وأنه أفضل من الدعاء ، فاعلم أن قراءة القرآن الكريم أفضل منه وأنفع وأعظم أجراً وفضلها على كل كلام كفضل الله تعالى على خلقه ، والقراءة المطلقة أفضل من الذكر المطلق كأن يترك العبد قراءة القرآن وتدبر معناه والتفكر في كلام الله ، ويشرع في ذكر مطلق .

وقد يعرض للمفضول من هذه الأصناف الثلاثه ، ما يجعله أولى من الفاضل

---

(١) انظر الوابل الصيب : ٥٢

(٢) الاية من سورة الاعراف : ٢٣

(٣) مدارج السالكين بتصرف : ٤٥٢/٢

بل يعينه فلا يجوز أن يعدل عنه إلى الفاضل ، وهذا كالتسبيح في الركوع والسجود فإنه أفضل من القرآن بل القرآن منهى عنه في هذه المواضع وكذا جميع أذكار الصلاة وكذا الذكر عقب الصلاة من التهليل والتسبيح والتحميد والتكبير ، وكذا الدعاء قد يكون في حال من الأحوال أفضل من القراءة والذكر كأن يعرض للعبد حاجة فإذا أقبل على سؤالها ، والدعاء إليها إجتمع قلبه كله على الله وأحدث له تضرعاً وخشوعاً وابتهالاً مما لا يحصل له في القراءه والذكر فيكون إشتغاله بالدعاء أنفع (١) .

وبالجملة فإن القرآن أفضل من الذكر المطلق ، والذكر المشروع في العبادات وفي الأوقات المخصوصة أفضل من القرآن والذكر أفضل من الدعاء وقد يكون الدعاء أفضل من الذكر .

الدعاء

الدعاء هو العبادة وهو من مقويات القلب لأنه دواء للقلب وهو من أنفع الأدوية ، وهو عدو البلاء يدافعه ويعالجه ، ويمنع نزوله ، ويرفعه ، أو يخففه إذا نزل وهو سلاح المؤمن (٢) .

والدعاء من أعظم العبادات التي لا تجوز إلا لله وحده قال تعالى: ((أدعوا ربكم تضرعاً وخفيه إنه لا يحب المعتدين ، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين)) (٣) .

قال ابن القيم : هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العباده ودعاء المسألة،فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة ، وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان :

فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة ، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي ، وطلب كف ما يضره ، أو دفعه، ومن يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقاً والمعبود لابدّ أن يكون مالكاً للنفع والضر فهو يدعى للنفع ودفع الضر ، دعاء المسأله ، ويدعى خوفاً ورجاء، دعاء العباده فعلم أن النوعين متلازمان لذلك فقد أنكر الله تعالى على من عبد

---

(١) انظر الوابل الصيب : ١١٨

(٢) الجواب الكافي ص : ٧

(٣) الايات من سورة الاعراف : ٥٥ - ٥٦

من دونه ما لا يملك ضراً ولا نفعاً وذلك في القرآن كثير .

وأكثر ألفاظ القرآن الدالة على معنيين فصاعداً تتناول نوعي الدعاء كقوله تعالى :((وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان))(١) وقوله : ((قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم)) (٢) وغير ذلك وكذلك كل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأصنامهم ، وآلهتهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة ، وهو في دعاء العبادة أظهر كقوله تعالى : ((يا أيها الناس ضرب مثل ، فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ، ولو اجتمعوا له)) (٣)،(٤) .

وكذا ابن القيم يقرر أن الدعاء والذكر متلازمان لأن الدعاء هو ذكر للمدعو سبحانه متضمن للطلب منه والثناء عليه بأسمائه وصفاته ، فهو ذكر وزيادة، كما أن الذكر سمي دعاء لتضمنه الطلب (٥) .

وعلى هذا يتضح أن الدعاء عبادة يجب أن تكون خالصة لله وحده .

فإذا نزل بالعبد بلاء ، فليس له علاج إلا الدعاء.وللدعاء مع البلاء ثلاث مقامات كما يقول ابن القيم :

الأول : أن يكون الدعاء أقوى من البلاء فيدفعه .

الثاني : أن يكون الدعاء أضعف من البلاء فيقوى عليه البلاء فيصاب به العبد ولكن قد يخففه وإن كان ضعيفاً .

الثالث : أن يتقاوما فيدفع كل واحد صاحبه (٦) .

صفة الدعاء المستجاب

إذا عرف هذا فمتى يكون الدعاء مفيداً نافعاً يقوى على البلاء ويمنعه بمشيئة الله وقدرته ، ولنترك ابن القيم يبين لنا ذلك فيقول :

إذا جمع مع الدعاء حضور القلب ، وجمعيته بكليته على المطلوب ، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة الستة - وهي : الثلث الأخير من الليل ، وعند الأذان، وبين الأذان والإقامة ، وأدبار الصلوات المكتوبة ، وعند صعود الإمام يوم الجمعة على

---

(١) الاية من سورة البقره : ١٨٦
(٢) الاية من سورة الفرقان : ٧٧
(٣) الاية من سورة الحج : ٧٣
(٤) انظر ذلك في التفسير القيم : ٢٤٠ - ٢٤٥
(٥) انظر ذلك في التفسير القيم : ٢٥٠
(٦) الجواب الكافي : ص ٧

المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم ، وآخر ساعة بعد العصر ـ وصادف خشوعاً في القلب ، وانكساراً بين يدى الرب ، وذلا له وتضرعاً ورقة ، واستقبل الداعي القبلة وكان على طهارة ، ورفع يديه إلى الله وبدأ بحمد الله والثناء عليه ، ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم قدم بين يدي حاجته التوبة والإستغفار ، ثم دخل على الله ، والحّ عليه في المسألة ، وتملقه ، ودعاه رغبة ورهبة ، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد ، لاسيما إن صادف الأدعيه التي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها مظنة الإجابة وأنها متضمنة للإسم الاعظم (١) .

كما أن ابن القيم رحمه الله ينبه إلى أن الدعاء قد يتخلف أثره عنه وهذا يعود إلى أمور منها عدم تحري الوقت ، وإما لضعف الدعاء في نفسه بأن يكون دعاء لا يحبه الله لما فيه من العدوان ، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعته عليه وقت الدعاء ، وأما لحصول المانع من الإجابة إما لأكل الحرام وربن الذنوب على القلوب واتباع الهوى والشهوة وغلبتها عليه (٢) .

ثانياً : **حمية القلب عن المؤذى الضار**

حمية القلب عن العطب والفساد باجتناب الآثام والمعاصى وذلك لا يتم إلا بحماية القلب من مسبباتها وهي الشيطان والنفس ، لذلك سوف يكون حديثي عن حمية القلب من الشيطان وعلاجه وحمية القلب من النفس وعلاجها وحميته عن المعاصي وعلاجها .

أ ـ **حميته من الشيطان**

وهذا باب عظيم أولاه ابن القيم عنايته وأفرده في كتاب خاص أسماه " إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان " وبين أن المتأخرين من أرباب السلوك لم يعتنوا به ، مما كان دافعاً على أن يكتب في مكائد الشيطان ومصائده التي يكيد بها ابن أدم وطريقته وأسلوبه في الكيد وتفننه فيه وأن جميع ما يقع الإنسان فيه من البدعة والمعصية راجعة إلى كيده (٣) .

وعلاج القلب من هذا الشيطان بشيئين : **أولاً** : الإستعاذة بالله منه كما أمرنا

---

(١) الجواب الكافي ص : ٩

(٢) نفس المرجع : ٦

(٣) راجع كتاب اغاثة اللهفان ص : ٩١/١ وما بعدها .

الله بذلك في قوله : ((فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم))(١) ومعنى إستعذ بالله : إمتنع به وإعتصم به والجأ إليه ، وقد ذكر رحمه الله بعض الحكم من الإستعاذة بالله عند قراءة القرآن (٢) .

وقوله تعالى : ((وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم)) (٣) .

ونزغ الشيطان وسوسته ومعنى ((ينزغنك)) يصيبنّك ويعرض لك عند الغضب ووسوسة بما لا يحل ((فاستعذ بالله)) : أي أطلب النجاة من ذلك بالله، فأمر سبحانه أن يدفع الوسوسة بالإلتجاء إليه والإستعاذة به .

والنزغ والنغز والهمز والوسوسة سواء (٤) وفي صحيح البخاري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يأتي الشيطان أحدكم فيقول له من خلق كذا وكذا حتى يقول له من خلق ربك فإذا بلغ ذلك فليستعذ بالله ولينته) (٥) .

والمراد أن الإستعاذة بالله من أقوى ما يحمي القلب من الشيطان .

ثانيا : الذكر والمراد ذكر الله سبحانه وتعالى ، ودعائه والذي تكلمنا عنه سابقا وبينا أنه حرز من الشيطان وحصن حصين وقد يصرع صاحب الذكر الشيطان كما يصرع الشيطان بني آدم لما عند صاحبه من الإيمان والقوة .

ب - حمية القلب من إستيلاء النفس عليه وعلاجها

عرفنا أن النفس من معوقات القلب وأن الشر جميعه يدخل على القلب منها فالنفس تدعو إلى الطغيان ، وإيثار الحياة الدنيا والرب يدعو عبده إلى خوفه ونهى النفس عن الهوى والقلب بين الداعيين (٦) لذلك إنقسم الناس إلى قسمين :

قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعا لها تحت أوامرها .

وقسم ظفروا بنفوسهم فقهروها فصارت طوعا لهم منقادة (٧) .

ويرى ابن القيم أن سبب صدور الشر والسوء من النفس لأن طبعها الجهل والظلم وأنه سبب كل قول وعمل قبيح ، وحمية النفس من هذين الدائين

---

(١) الاية من سورة النحل : ٩٨

(٢) انظر اغاثة اللهفان : ٩١/١ الى ٩٤

(٣) الاية من سورة الاعراف : ٢٠٠

(٤) انظر ذلك في تفسير القرطبي : ٣٤٧/٧ - ٣٤٨

(٥) رواه البخاري كتاب بدأ الخلق باب صفة ابليس وجنوده رقم الباب ١١ : حـ ٤ ص : ١٦٥

(٦) اغاثة اللهفان : ٧٢/١ وانظر مدارج السالكين : ٢٤٢/١

(٧) نفس المرجع : ٧٥

بذل الجهد في العلم النافع الذي يخرجها به عن وصف الجهل ، والعمل الصالح الذي يخرجها به عن وصف الظلم (١) .

وأما علاج القلب من إستيلاء النفس الأمارة عليه :

فله علاجان : محاسبتها ، ومخالفتها (٢) .

أولاً : المحاسبة

يرى ابن القيم أن هلاك القلب وفساده من إهمال محاسبة النفس ، وموافقتها وتلبية رغباتها وهواها والمؤمن مطالب بمحاسبة نفسه ومطالعة عيوبها قال تعالى : ((ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد)) (٣).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : (الكيّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله) (٤) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون عليكم في الحساب غداً ، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم ، وتزينوا للعرض الأكبر يومئذ لا تخفى منكم خافية " (٥) .

فعلى العبد أن يحاسب نفسه كما يحاسب الشريك شريكه في المال فإنها لا تتم إلا بالمشارطة على ما يفعل الشريك ثم بمطالعة ما يعمل والإشراف عليه ومراقبته ثم بمحاسبته ثم يمنعه من الخيانة إن أطلع عليه فكذلك النفس يشارطها على حفظ الجوارح السبعة (٦) ثم ينتقل منها إلى مطالعتها والإشراف عليها ومراقبتها ، فلا يهملها ، فمتى أحس بالنقصان إنتقل إلى المحاسبة فحينئذن يتبين له حقيقة الربح من الخسران (٧) .

ثم يذكر رحمه الله جماع المحاسبة التي يجب أن يحاسب العبد نفسه عليها وهي كما يقول ابن القيم :

أن يحاسبها على الفرائض فإذا تذكر فيها نقصاً تداركه إما بقضاء أو اصلاح ثم يحاسبها على المناهي فإذا إرتكب منها شيئاً بادر إلى التوبة والإستغفار والحسنات

---

(١) انظر مدارج السالكين : ٢٤٢/١

(٢) اغاثة اللهفان : ٧٨/١

(٣) الاية من سورة الحشر : ١٨

(٤) رواه أحمد في المسند : ١٢٤/٤ والترمذي في كتاب صفة القيامة برقم ٢٤٦١ باب الكيس من دان نفسه : ١٦٥/٧

(٥) رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة برقم ٢٤٦١ باب الكيس من دان نفسه : ١٦٦/٧

(٦) هي العين واللسان والاذن والفرج واليد والرجل والفم .

(٧) اغاثة اللهفان : ٨٠/١

الماضية ، ثم يحاسب نفسه عن الغفلة فإن كان قد غفل عما خلق له تداركه بالذكر والإقبال على الله ، ثم يحاسبها بما تكلم به ، أو مشت إليه رجلاه، أو بطشت يداه ، أو سمعته أذناه ، ماذا أرادت بهذا ولمن فعلته ؟ وعلى أي وجه فعلته ، ويعلم أنه لابدّ أن ينشر لكل حركة وكلمة منه ديوان لم فعلته ؟ وكيف فعلته ؟ فالأول عن الإخلاص والثاني عن المتابعة (١) .

محل المحاسبة

ويرى رحمه الله أن محل المحاسبة في أمرين : الأول قبل العمل ، والثاني بعد العمل .

فالأول أن يقف عند أول همه وإرادته ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه وهذا يوجب على العبد وقفات قبل العمل وعند تحرك النفس وإرادتها أولها هل هذا العمل مقدور له ، ثم هل فعله خير من تركه ثم هل الباعث عليه إرادة وجه الله ثم هل هو معان عليه ، فإن وجده مقدور خير معان عليه مراد به وجه الله فليقدم ، وإن كان غير ذلك فليحجم وإن كان في ذلك تحقيق مطلوبه لأنه يدخل عليه داخلاً فاسداً (٢) .

والثاني بعد العمل وهو ثلاث أنواع

محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله ، محاسبتها على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله ، أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الأخره فيكون رابحاً أم أراد به الدنيا فيفوته الظفر (٣) .

ثانياً : المخالفة

ثاني علاج القلب من إستيلاء النفس عليه هو مخالفتها ، فإنا قد عرفنا أن النفس متبع كل شر وسوء وفساد وأنها لا تأمر بالخير دائماً تنزع إلى حب الشهوات والملذات والخمول عن العمل الصالح .

لذلك يجب على العبد أن يخالف هواها ورغبتها فإنها لا تميل إلى الخير والفلاح وهي ميالة إلى الشر والفساد فإن أراد القيام إلى العبادة تكاسلت وتباطأت وبدأ الشيطان يوسوس لها بأمور أخر وشغل آخر وقد يعطيه من الأهمية ما يرجح به عن العبادة ، فلابدّ من مخالفتها وعمل مالا تحبه وتهواد لأنه

---

(١) اغاثة اللهفان بتصرف : ٨٣/١

(٢) نفس المرجع بتصرف : ٨١/١

(٣) نفس المرجع بتصرف : ٨٢/١

الخير والفلاح وكذا إذا رأت المعصية مالت إليها ورغبت فيها فعليك مخالفتها بترك المعصية لأنه الخير والفلاح وهكذا .

ج - حمية القلب عن الأثام والمعاصي :

ليس للشيطان طلب غير أن يقع هذا العبد المسكين في المعصية ، فإذا وقعة المعصية نال مبتغاه ، لأن المعصية هي أعظم أسباب موت القلب ومرضه ومن ثم هلاك العبد يقول ابن القيم عن الذنوب والمعاصي :

ينبغي أن يعلم : أن الذنوب والمعاصي تضر ، ولابدّ أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان على إختلاف درجاتها في الضرر وهل في الدنيا والأخرة - شر وداء - إلا سببه الذنوب والمعاصي ؟ .

ثم أخذ رحمه الله يبين الشرور التي وقعت على بني آدم مما ذكر الله سبحانه في كتابه أو رسوله في سنته مثل خروج ابينا أدم وامنا من الجنه بسببها وإغراق أهل الأرض ، والرياح والزلازل والصيحة ورفع قرى اللوطية حتى سمع الملائكة نبيح كلابهم ثم قلبها عليهم ..... وغير ذلك مما وقع على ابن آدم من الكوارث والنكبات التي أوقعها الله سبحانه وتعالى على العصاة من عباده من إستباح الذنوب والمعاصي ولم يرعوي (١) .

وأثار المعاصي عقوبات تقع على العبد أو على الأمة والتي على الأمة هي التي وقعت على الأمم المخالفة لما جاء به الأنبياء كما ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه ، وأما ما يقع على العبد مما ذكر في القرآن الكريم مثل الختم على القلوب والأسماع ، والغشاوة على الأبصار والإقفال على القلوب والرين وغير ذلك (٢).

وابن القيم رحمه الله يؤكد في كتاباته على توجيه القرآن الكريم في الدعوة، فهو عندما يريد تربية الأمة عن المعاصي والآثام فانه يسلك منهج القرآن في ذلك ببيان الآثار المترتبة على المعاصي من العقوبات الدنيويه والأخروية الواقعة على الروح والبدن والقلب كما قال :

إن للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب ، والبدن في الدنيا والآخره (٣) .

ثم بدأ يذكر الآثار المترتبة على المعاصي من العقوبات التي تقع على البدن

---

(١) انظر الجواب الكافي : ٤٦ - ٥٩

(٢) نفس المرجع : ١٣٨

(٣) نفس المرجع : ٦٠

والقلب ، مما هو أحسن علاج ودواء لمن في قلبه مرض المعاصي وأقوى رادع عنها لمن ألقى السمع وهو شهيد حيث أنها معتمدة على الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال فضلاء الأمة ، والحق أن عقوبة واحدة من هذه العقوبات التي ذكرها ابن القيم أعظم دواء لمن كان حياً " وما لجرح بميت إيلام " .

ثم بعد ذكر هذه العقوبات يؤكد على أن هذا هو المنهج السليم في الردع عن المعاصي وإحياء القلوب بالبعد عنها حيث يقول :

فإن لم تَرْعُكَ هذه العقوبات ولم تجد لها تأثيراً في قلبك ، فأحضر العقوبات الشرعية التي شرعها الله ورسوله عن الجرائم (١) .

ثم ذكر الحكمة من الحدود الشرعية وكيف تكون رادعاً عن المعصية مثل عقوبة الزنا والسرقه وغيرها (٢) .

ثالثاً : إستفراغه من كل مادة فاسدة

عرفت أيها الاخ المؤمن ما يحفظ على القلب قوته ، وعرفت كيف تحمي القلب عن المؤذي الضار من الآثام والمعاصي ولكن هذه الآثام والمعاصي قد خالطت القلب وأفسدته ونجسته فهل هناك ما يزيل هذه الأخلاط الرديئة التي تلبس بها القلب فيعود إلى صفائه ونقائه ؟ .

ولنترك ابن القيم رحمه الله يجيب عن هذا السؤال فيقول :

إن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن وبمنزلة الدغل في الزرع وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس .

فكما أن البدن إذا إستفرغ من الأخلاط الرديئة ، تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت فعملت عملها بلا معوق ولا مانع فنما البدن .

فكذا القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة والإستغفار ، فقد استفرغ من تخليطه فتخلصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة :

زكا ونما وقوى واشتدّ وجلس على سرير ملكه ونفذ حكمه في رعيته فسمعت له وأطاعت (٣) .

وهذه التوبة من أعظم ما من الله سبحانه وتعالى به على عباده ، فتصور حال العباد لولا هذه المنّة منه سبحانه فالله سبحانه عندما جعل الدخول عليه

---

(١) انظر الجواب الكافي : ١٢٩

(٢) حبذا لو رجع كل مسلم الى كتابه الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي فان فيه حيية للقلوب من المعاصي وتأثير عجيب

(٣) اغاثة اللهفان : ٤٦/١

موقوفا على طهارة العبد من النجاسات لذلك شرع له كيفية طهارة البدن والقلب فطهارة البدن بالماء وطهارة القلب بالتوبه فإذا أجتمع له الأمران صلح للدخول عليه(١)

قال بن القيم : قال الله تعالى : ((وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون)) (٢) هذه الآية في سورة مدنية خاطب الله تعالى بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم ، ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه وأتى بأداة " لعل " المشعرة بالترجي إيذانا بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح ، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون (٣) .

فهو يوجه الأمة إلى مكانة التوبة وحاجتها إليها أعظم من حاجة أولئك الذين خاطبهم القرآن وهم خير الخلق بل أن الأمر تعداهم إلى من هو أفضل منهم وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم (رب اغفرلي وتب علي إنك أنت التواب الغفور مائة مرة) فكيف بحالنا نحن ، الذين تلبسنا بالذنوب والمعاصي وليس فينا من قام بجزء من عباداتهم وجهادهم وهجرتهم (٤) .

شروط التوبة وحقيقتها :

يقول ابن القيم : فحقيقة التوبة : هي الندم على ما سلف منه في الماضي ، والإقلاع عنه في الحال ، والعزم على أن لا يعاوده في المستقبل .

والثلاثة تجتمع في الوقت الذي تقع فيه التوبة فإنه في ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التي خلق لها وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة ولما كان موقوف على تلك الثلاث جعلت شرائط له (٥) .

وقد أفاظ رحمه الله في ذكر التوبة وذكر أسرارها ولطائفها وأحكامها وملابساتها وغير ذلك مما يتعلق بها يحسن بالمسلم الرجوع اليها في كتابه مدارج السالكين الجزء الاول ، ليعرف عظمة الله وجوده وكرمه وإحسانه للعبد وتشريفه له مما يوجب في قلبه الرغبة إلى التوبة .

---

(١) اغاثة اللهفان : ٥٦/١

(٢) الاية من سورة النور : ٣١

(٣) مدارج السالكين : ١٩٨/١

(٤) انظر نفس المرجع : ١٩٩/١

(٥) نفس المرجع : ٢٠٢/١

الأساس الثاني في إصلاح المجتمع : السياسة الصالحة

عرفنا فيما سبق الأساس الأول لإصلاح الأمة وهو إصلاح الفرد ، وبقي أن نتحدث عن الأساس الثاني في إصلاح الأمة ، وهو السياسة وهي كما عرفها ابن القيم بانها :

فعلاً يكون معه الناس أقرب إلى الصلاح ، وأبعد عن الفساد (١) .

والحق أن السياسة من أعظم المؤثرات على صلاح الأمة وفسادها ، فبصلاح السياسة تصلح الأمة وبفسادها تفسد الامة ، وهذا ما يلمسه العقلاء ، والناظر في حياة الأمم البائدة أو الحاضرة ، وكذا ما حصل في البلاد الإسلامية فكلما كانت السياسة صالحة كان الخير والبركة والرخاء والأمن والأمان أكثر وكلما بعدت عن الصلاح بعدت هذه الميزات عن الأمة .

قوام السياسة الإسلامية

إن صلاح السياسة وأساسها وقوامها هو الدين الذي ساس به المصطفى صلى الله عليه وسلم المجتمع المسلم وسار عليه خلفاؤه الراشدون ومن تبعهم من بعدهم فكان من آثارها أن صنعت أرقى مجتمع عرفه التاريخ قد جمع معايير الرقي التي عرفتها البشرية (فإن الاسلام ليس كما يظن بعض الناس ممن رانت على بصائرهم غشاوات الحس ، وأثرت في نفوسهم ماديات الحياة واستولت على عقولهم وساوس الشيطان - ليس الإسلام كما يتوهم هؤلاء - مجرد طقوس دينية وعبادات يؤديها الإنسان في أوقات معينه فحسب ، وإنما الإسلام إلى جانب هذه العبادات ووجوب التزام المسلم بها هو دين ودنيا عقيدة وشريعة ، سياسة ودولة ، عباده ومعاملة خلق وسلوك دستور قويم يجمع بين طياته نظاماً إنسانيا يختلف عما عداه من النظم الأخرى ، حيث لا يوجد اختلاف في أحكامه ، ولا تناقض في قوانينه كما هو الشأن في النظم والقوانين الوضعية الأخرى) (٢) التي عجزت عن تربية أفرادها وعجزت عن إخضاع أرواحهم لقبولها والرضى بها ، لشعورهم بعدم تلبيتها لرغباتهم الروحيه .

ومن العجب أن تجد من ينتسب إلى الإسلام يحكمها ويدعي أنه مسلم وقد يرقى إلى إعلان أنه مؤمن والله سبحانه وتعالى يقول : ((ومن لم يحكم بما

---

(١) الطرق الحكمية : ص ١٦

(٢) النظم الاسلامية والمذاهب المعاصرة : ص ٤ - ٥ بتصرف قليل تأليف د. حسن عبدالحميد عويضه الطبعه الثانيه عام ١٤٠١هـ دار الرشيد للنشر والتوزيع .

أنـــزل اللـــه فـاؤلئـــك هـم الكافـرون)) (١) وهـم الظالمـون ، وهـم الفاسقـون كلهـــا صفـات وردت فـي القرآن لمـن لـم يحكـم بما أنـــزل اللـه ، ومـن العجـب أن تـرى البعض الآخـر يـدافـع عنهـا ويدعـــو إلـى تطبيقهـــا بفصـل الديـن عـن الدولـة وإحـــــلال هـذه القوانيـن مكـان الديـن ، مدعيـــا وزاعمـــا أن الأحكـام الدينيـة قـديمـة باليـه، وهـي صالحـة لعصـــور قـد مضـت كـانـت تتنـاسـب معهـا ، أمـا الوقـت الحاضـر مـع العلـــم والتطـور فـلا تنـاســب هـذا المقـام وهـذا العصـــــر .

وقـد رد ابـن القيـم علـى أمثـال هـؤلاء المنحرفيـن ممـن عـاصـره أو سبقـه وبيـــن قصور نظـرهـم وقلـة فهمهـم وأن سبـب ذلـك القـول هـو قلـة فهمهـم للديـن ، ومعرفتهم بـه ، ومطابقتـة للفطـرة والـواقـــع ، ونـص قولـه رحمـه اللـه :

وهـذا موضـع مـزلـة أقـدام ، ومضلـة أفهـام ، وهـو مقـام ضنـك ومعـترك صعـب، فـرط فيـه طـائفـة ، فعطلـوا الحـدود ، وضيعـوا الحقـوق ، وجـرءوا أهـل الفجـور علـى الفســاد وجعلـوا الشريعـة قاصـرة لا تقـوم بمصالـح العباد محتاجـة إلـى غـيرهـا .....

ثـم قـال : والـذي أوجـب لهـم ذلـك نـوع تقصـير فـي معـرفـة الشريعـة وتقصـــير فـي معرفـة الواقـع وتنـزيـل أحدهمـا علـى الآخـــر (٢) .

ثـم بيـن رحمـه اللـه أن قصـور إدراك بعـض ولاة المسلميـن وعـدم معرفتهـم بالشريعـة وأنهـا سياسـة عـادلـه قـد جمعـت جميـع طـرق الحكـم والخـير والفـلاح أدى بهـم إلـى ســن قـوانيـن لـم يـأتـ بهـا الشـرع فكانـت وبالا علـى الأمـة فقـال :

فلمـا رأى ولاة الأمـور ذلـك ، وأن النـاس لا يستقيـم لهـم أمرهـم إلا بـأمـر وراء مـا فهمـه هـؤلاء مـن الشريعـة ، أحدثـوا مـن أوضـاع سياسـاتهـم شـرا طـويـلا وفســـادا عريضـا فتفـاقـم الأمـر ، وتعـذر إستـدراكـه ، وعـز علـى العالميـن بحقـائـق الشـرع تخليـص النفـوس مـن ذلـك واستنقـاذهـا مـن تلـك المهـالـك .

وأفرطـت طـائفـة أخـرى قابلـت هـذه الطائفـة ، فسـوغـت مـن ذلـك مـا ينافـي حكـم اللـه ورسـولـه (٣) .

وابـن القيـم رحمـه اللـه يريـد من هـؤلاء أن يحكمـوا عقـولهـم وينظـروا إلـى الشريعـة بعيـن الوعـي وطلـب الحـق فإنهـم سيجـدون أن السياسـة جـزء من أجزاء الشريعه وأنـه لا يمكـن أن يفصـل بيـن الشريعـة والسياسـة فيقـول :

---

(١) الايـة مـن سـورة المائـده : ٤٤

(٢) الطرق الحكيمـه بتصـرف : ص ١٧

(٣) نفـس المرجـع : ص ١٧ - ١٨

ومن له ذوق في الشريعة وإطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ومجيئها بغاية العدل ، الذي يسع الخلائق ، وأن لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح :

تبين له أن السياسة العادلة جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من أحاط علماً بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها : لم يحتج معها الى سياسة غيرها (١) .

وهذا ما يقرره شيخ الاسلام رحمه الله وأنه لا يمكن فصل الدين عن الدولة لأن في ذلك فساد الامة حيث يقول : " ان انفرد السلطان عن الدين أو الدين عن السلطان فسدت أحوال الناس " (٢) لأن الدين يحمي السلطان أو السائس من العبث والانحراف والفساد والظلم والسلطان يحمي الدين بتطبيقه وتنفيذه في الامه فاذا تأخر أحدهما عن الآخر فسدت أحوال الناس .

الإمامة :

الامام أو الخليفة أو السلطان أو الملك أو ولي الأمر كلها تعني من يقوم بسياسة الأمة واصلاحها واصلاح أمورها وهي واجبة من واجبات الدين عند المسلمين (وعقدها لمن يقوم بها واجب بالاجماع) (٣) وذلك لأن الدين لا يقوم الا بها كما قال شيخ الاسلام : " يجب أن يعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين ، بل لا قيام للدين الا بها " (٤) ، فالدين لا يقوم الا بالامامة وهذا هو مقصود الاسلام من ايجابها يقول شيخ الاسلام : " الواجب في الولاية أصلاح دين الخلق التي متى فاتهم خسروا خسرانا مبينا ولم ينفعهم ما نعموا به في الدنيا ، واصلاح ما لا يقوم الدين الا به من أمر دنياهم " (٥) .

فالواجب على المسلمين اتخاذ الامارة ديناً وقربة يتقرب بها الى الله بطاعته وطاعة رسوله وهي من أفضل القربات لما فيها من حماية للدين والدنيا ومصلحة الامة .

فان ما أوجبه الله سبحانه وتعالى من جهاد ، وعدل واقامة حدود وأمر بمعروف ونهي عن منكر ، ونصرة مظلوم وغير ذلك من الواجبات لا يتم الا بالامارة

---

(١) الطرق الحكميه : ص ٥
(٢) السايسة الشرعية لشيخ الاسلام : ١٦٦
(٣) الاحكام السلطانية : ص ٥
(٤) السياسة الشرعية : ١٦١
(٥) نفس المرجع : ٢٤

والقوة ، وذلك يتضح من واجبات الامام التي قررها علماء الإسلام من واقع ماعرف من طريقة النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه وولاة المسلمين وهي :

حفظ الدين على أصوله المستقره وما أجمع عليه سلف الامه .

تنفيذ الاحكام بين المتشاجرين وقطع الخصام بين المتخاصمين حتى تعم النصفه.

حماية البيضة والذب عن الحريم ليتصرف الناس في المعاش وينتشروا في الاسفار آمنين.

اقامة الحدود لتصان محارم الله وتحفظ حقوق العباد .

تحصين الثغور وحمايتها من المعتدين .

جهاد من عاند الاسلام بعد الدعوة حتى يسلم أو يدخل في الذمة .

جباية الفيء والصدقات على ما أوجبه الشرع .

تقدير العطايا ، وما يستحق في بيت المال من غير سرف ولا تقتير .

استكفاء الامناء وتقليد النصحاء فيما يفوض لهم من أعمال .

أن يباشر بنفسه مشارفة الامور وتصفح الأحوال لينهض بسياسة الامة وحراسة الملة.(١)

ومن خلال هذه الواجبات تتضح مكانة ولاية الأمر وانها المحرك لهذا الدين لذلك فان الله سبحانه وتعالى " ندب للأمة زعيماً خلف به النبوة ، وحاط به الملة ، وفوض إليه السياسة ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة على رأى متبوع ، فكانت الامامة أصلاً عليه استقرت قواعد الملة ، وانتظمت به مصالح الامه حتى استثبتت بها الامور العامة وصدرت عنها الولايات الخاصة "(٢) فالقرآن والسنة وفعل النبي صلى الله عليه وسلم وتأميره على الجيش والبعوث والسرايا وأمره بعدم خروج المسلمين في سفر الا بتأمير أمير عليهم واجماع الامة يدل بمجموعة على وجوب الامامة .

فاذا عرف ذلك فمن الذي يختار الخليفة أو الامام ؟ الذي يختار الخليفة هم أهل الحل والعقد عند المسلمين الذين يوثق بهم وبرجاحة عقولهم في اختيار الافضل قال شيخ الاسلام : " ومذهب أهل السنة أن الامامة تنعقد عندهم بموافقة أهل الشوكة الذين يحصل بهم مقصود الامامة ، وهو القدرة والتمكين ولهذا يقولون من صار له قدرة وسلطان يفعل به مقصود الولاية فهو من أولي الامر الأمور بطاعته مالم يأمر بمعصية فالامامة ملك وسلطان برة كانت أو فاجره"(٣)

---

(١) انظر الاحكام السلطانية للماوردي : ١٨

(٢) نفس المرجع : ٣

(٣) مختصر منهاج السنة : ٥٨ اختصره الذهبي تحقيق محب الدين الخطيب مكتبة دار البيان دمشق .

وأهل الشوكة هنا هم الامراء والحكام والعلماء وسائر الرؤساء والزعماء .

واجبات الرعية

فاذا عين الامام للمسلمين وجب عليهم أمورا نحوه أوجبها الشرع على الرعية لتستقيم الامور وهي : أولها الطاعة مالم يأمر بمعصية الله عز وجل والنصح لهم ، ويشاركون فيما يحتاج اليهم فيه من طاعة الله فيصلى معهم وخلفهم ويجاهد معهم الكفار ، ويحج معهم البيت ويستعان بهم في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واقامة الحدود والعدل في الحكم والقسم (١) .

كما يجب على الامة عدم الخروج عليهم لما يسبب ذلك من المفاسد العظيمة يقول ابن القيم :

الانكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فانه اساس كل شر وفتنة الى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الامراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ، وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : (لا ما أقاموا الصلاة) وقال:(من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعة) ومن تأمل ما جرى على الاسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من اضاعة هذا الاصل وعدم الصبر على منكر فطلب ازالته فتولد منه ما هو أكبر (٢).

---

(١) مختصر منهاج السنه لشيخ الاسلام بتصرف : ٢٨٤

(٢) اعلام الموقعين : ٤/٣

الباب الثالث : منهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الفصل الأول : دراسات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الفصل الثاني: أركان الحسبة

الفصل الأول : دراسات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

أولا : مكانته في الاسلام

ثانيا : حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

ثالثا : أدلة مشروعيته

رابعا : علاقته بالدعوة

خامسا : تعريف الحسبة

سادسا : نشأة ولاية الحسبة

الفصل الأول : دراسات في

" الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر "

" مكانته في الاسلام "

لقد بعث الله الرسل وأنزل الكتب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وافشائه بين الناس وبقيامه يقوم الدين وينتشر ، وهو قوام الدين وعماده كما يقرر ذلك ابن القيم بقوله :

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه ووصف به هذه الأمة ، وفضلها على سائر الأمم التي أخرجت للناس (١) .

كما أن للأمر بالمعروف مكانة عظيمة وشأن كبير يعجز الوصف عنه . " فهو القطب الأعظم في الدين ، وهو المهم الذي ابتعث الله النبيين أجمعين ولو طوى بساطه وأهمل عمله وعلمه لتعطلت النبوة واضمحلت الديانة وعمت الفترة وفشت الضلالة وشاعت الجهالة واستشرى الفساد واتسع الخرق ، وخربت البلاد وهلك العباد ، ولم يشعروا بالهلاك الى يوم التناد وقد كان الذي خفنا أن يكون ، فانا لله وانا اليه راجعون ، اذ قد اندرس من هذا القطب عمله وعلمه وانمحق بالكلية حقيقته ورسمه فاستولت على القلوب مداهنة الخلق وانمحت مراقبة الخالق ، واسترسل الناس في اتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم وعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لائم فمن سعى في تلافي هذه الفترة وسد هذه الثلمة اما متكفلا بعملها أو متقلدا لتنفيذها مجددا لهذه السنة الداثرة ناهضا بأعبائها ومتشمرا في احيائها كان مستأثرا من بين الخلق باحياء سنة أفضى الزمان الى اماتتها ، ومستبدا بقربه تتضاءل درجات القرب دون ذروتها (٢) .

فاحرص أيها المؤمن على أحياء شعار نبيك وما أرسل به حتى تكون في صحبته يوم الفلاح وتنجو من اللعنة والكلاح ، وتحيي هذه الشعيرة التي لم تستطع النظم التي ابتكرها الانسان لرعاية القوانين والدساتير وتبصير الناس بها حتى لا يقعوا في المخالفات المتواليه نظاما يصل أو يضاهي شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المبدأ التربوي الجاد ، ومدرسة تعليمية تتيح لأكبر قاعدة في الأمة أن تعرف ما لابدّ أن تعرفه من أصول الاسلام وفروعه ، والحلال ، والحرام ، والمكروه ، والسنة ، والواجب ، والبدعة في وقت قصير ، وبلا نفقات

---

(١) الطرق الحكمية في السياسة الشرعية : ٣١٥

(٢) احياء علوم الدين للغزالي : ٣٠٦/٢ طبع دار الندوة الجديدة بيروت .

وبطريقة مكررة تضمن التذكر الدائم وتشمل كل البيئات في المجتمع .

بل أن منهج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتم على كل مسلم أن يكون رقيباً على ما يجري حوله من أعمال ، ووزنها بموازين الشرع ثم الأمر بما خفي من المعروف والنهي عما ظهر من المنكر على اساس من العلم والمعرفة مما يؤدي الى تكرار الأمر والنهي الذي يوجب تثقيف الأمه ومعرفة الحلال من الحرام وهو المقصود الإسلامي من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(١) .

كما أن هذا النظام الاسلامي والتشريع الإلهي يحمي الشريعة المنزلة على رسوله من الضياع والعبث فيها من جهال المسلمين ومبتدعيهم ، كما يحمي مصالح الناس من الاعتداء عليها ، وتحافظ على حقوق المستضعفين من الظلم والبغي بغير الحق ، فان الانسان مطبوع على الميل الى الشهوات والدعة والظلم ، فهذه المراقبة والسلطة الشرعية تحمي هذه الجوانب من الاعتداء عليها من ضعاف النفوس والايمان .

كما أنه يحمي المجتمع المسلم من المهلكات الاجتماعية بسبب المعاصي سواء كانت صحية أو اقتصادية أو نفسية ولا يخفى على عاقل ما أصاب كثير من المجتمعات الغير مسلمه من الأمراض الجنسية بسبب الزنا والخمور وما شاكلها وأمراض نفسيه بسبب الربا وغير ذلك ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحمي المجتمع من ذلك كله اذا عمل له عملا صحيحاً موافقاً للشريعة الاسلامية ، هذا الى جانب وقاية الانسان ونجاته من مظاهر الانتقام الالهي في الدنيا من الكوارث المتمثلة في الزلازل والبراكين والرياح والأعاصير وغيرها من انتقامه سبحانه وتعالى حيث يقول :((فلما نسوا ما ذكروا به انجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانو يفسقون))(٢) ، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نجاة من الطرد والابعاد عن رحمة الله حيث يقول سبحانه :((لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون))(٣) .

---

(١) انظر دراسة كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابي بكر الخلال دراسة وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع ، مكه المكرمه ص١٧

(٢) سورة الأعراف : ١٦٥

(٣) سورة المائده :٧٩

ومما ينجينا من هذه المهلكات بعدنا عن هذه المعاصي بشقيها والأمر باجتنابها والنهي عن فعلها فان المعصية تمثل وجهين ، الأول ايجابي ويتمثل بفعل المحضور شرعاً .

وسلبي : ويتحقق بترك الفعل المطلوب شرعاً .

واعلم أن المعاصي نوعان بعضها أخف من بعض فهناك معاصي خاصة أي أنها منكرات يفعلها بعض أفراد الأمة وهذه المعاصي لن تنقطع من هذه الأمه وستبقى وان قامت الأمة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهذه سنة وجبلة في البشرية وهي أخف من النوع الثاني وهذه المعصيه المتحققة في الغالب لا تظر الأمة ولا تعاقب الأمه بسببها .

أما النوع الثاني (هو الطامة) : المعصية العامة أو المنكر العام .

وهو الذي تتعارف عليه الأمة ولا تنكره بل يكون هذا المنكر من نظام الأمة ودستورها التي تقر به ، مثل أن يقرّ الربا أو الزنا أو شرب الخمر وغيرها من المنكرات نظاماً للأمة .

فان ذلك يعني الغاء الشريعة وعدم الاعتراف بها فتكون هذه الأمة كافرة بما أنزل الله اذا لم تنكر ورضيت بواقعها لأن الله سبحانه يقول :((ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هم الكافرون))(١) فهذه المعاصي ومثلها أن لا تقام حدود الله آذنة بالعقوبه والطرد من رحمة الله .

فيجب على المسلم أن ينظر الى المنكرات من هذه الزاوية وأن يعطي كل شئ حقه .

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

" اتفقت الأمه الاسلامية كلها على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا خلاف من أحد منهم "(٢) واختلفوا في تعيين الوجوب هل هو فرض عين أم فرض كفاية ، فقال بعضهم : أنه فرض عين مستدلين بقوله تعالى :((ولتكن منكم أمه))(٣) وقوله صلى الله عليه وسلم :(من رأى منكم منكراً فليغيره)(٤) وفسروا قوله تعالى :((ولتكن منكم)) بأن من لبيان الجنس ومعناها : كونوا أمة

---

(١) الأية من سورة المائده :٤٤

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل للامام ابي محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري: ١٧١/٤ الناشر مكتبة الخانجي بمصر .

(٣) الأيه من سورة آل عمران : ١٠٤ (٤) رواه مسلم كتاب الايمان رقم الحديث٧٨:١/٦٩

دعاة الى الخير كقوله تعالى :((واجتنبوا الرجس من الأوثان))(١) .

وقال الآخرون : أن " من "للتبعيض (٢) وهو الذي عليه جمهور العلماء وتابعهم ابن القيم وشيخه شيخ الاسلام ابن تيميه (٣) فيكون الوجوب عندهم على الكفايه ، فيقول ابن القيم :

" وهذا " أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " واجب على كل مسلم قادر ، وهو فرض كفاية : ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولاية والسلطان ، فعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم ، فان مناط الوجوب هو القدرة فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز قال تعالى : ((فاتقوا الله ماستطعتم))(٤) وقال النبي صلى الله عليه وسلم :(فاذا امرتكم بشئ فأتوا منه ماستطعتم)(٥) (٦).

فيتبين مما تقدم أن حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الوجوب وأنه فرض كفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وانه يتعين على المسلم القادر الذي لم يقم به غيره وكان يرى المنكر ولم يره أحدٌ سواه وهو قادر على ازالته فيصبح فرض عين عليه .

كما أن المولى على أمر الحسبة والسلطان واجب عليه وجوب عين لأن القدرة في حقهم على ازالة المنكر ليست عند غيرهم لما لهم من السلطة ونفوذ الأمر .

أدلة مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

الأدلة من الكتاب

لقد أوجب سبحانه على هذه الأمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كتابه العزيز فقال :((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون))(٧) وفيها بيان أن الفلاح منوط به اذ حصّر وقال: ((واولئك هم المفلحون)) كما أنه سبحانه جعل هذه المهمة وصفاً لهذه الأمه ورفعة لشأنها فقال عز من قائل :((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله))(٨) وقال :((والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء

---

(١) الأيه من سورة الحج : ٣٠

(٢) انظر تفسير القرطبي : ١٦٥/٤ وابن كثير : ٣٩٠/١

(٣) انظر الحسبة في الاسلام ص:٧٢ نشر وتوزيع دار الأرقم بالكويت الطبعة الأولى .

(٤) الأية من سورة التغابن : ١٦

(٥) رواه مسلم في كتاب الحج رقم الحديث ٤١٢ باب فرض الحج مره في العمر:٩٧٥/٢ واللفظ له.

(٦) الطرق الحكمية : ٣١٥ (٨) الايه من سورة آل عمران : ١١٠

(٧) الايه من سورة آل عمران :١٠٤

بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) (١) ، كما أنها مشتركة في هذا الوصف مع قائدها وداعيها الأول عليه أفضل الصلاة والتسليم بقوله تعالى : ((الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث)) (٢) ويقول تعالى :((الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور)) (٣) .

ومن السنة :

قوله صلى الله عليه وسلم : (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فان لم يستطع فبلسانه فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الايمان) (٤) وقوله صلى الله عليه وسلم :(مامن نبي بعثه الله في أمة قبلي الا كان له من أمته حواريون واصحاب ، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره ، ثم أنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يؤمرون ، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الايمان حبة خردل) (٥) .

ومنها ما روى عن ابي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبته : أيها الناس انكم تقرؤن هذه الأية ((ياايها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا أهتديتم)) واني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل الا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده) (٦) .

والايات والأحاديث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أكثر مما ذكرنا والمراد الاستدلال على الوجوب وليس الاحصاء .

---

(١) الاية من سورة التوبه : ٧١

(٢) الاية من سورة الاعراف : ١٥٧

(٣) الاية من سورة الحج : ٤١

(٤) رواه مسلم في كتاب الايمان : ٦٩/١ رقم الحديث ٧٨

(٥) رواه مسلم في كتاب الايمان : ٧٠/١ رقم الحديث ٨٠

(٦) الترمذي بنحوه برقم : ٢١٦٩ كتاب الفتن : ٣٣٥/٦

علاقة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالدعوة الى الله

لقد توثقت العلاقة بين الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحيث يصعب على الباحث الفصل بينهما لشدة ترابطهما وتماسكهما من حيث الأمر بهما وموضوعهما ، والهدف منهما ، وحكمهما .

كما أنه سبحانه وتعالى جمع بينهما عند قوله ((ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون)) (١) ولم يفرق كثير من العلماء بينهما عند تفسيرهم لهذه الأية ، بل أن بعض العلماء جمع في تعريفه للدعوة بينهما . (٢) مع أن نص الأية عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الدعوة الى الخير ، والعطف يقتضي المغايرعلى العموم، فهل هناك فرق يذكر بينهما أم أنهما شيء واحد. هذا ما سنعرفه من مدارسة بعض أقوال العلماء في تفاسيرهم فقد جاء فيها :

يقول شيخ الاسلام ابن تيمية :" الدعوة الى الله تتضمن الأمر بكل ما أمر الله به ، والنهي عن كل ما نهى الله عنه ، وهذا هو الأمر بكل معروف والنهي عن كل منكر " (٣) ثم يزيد الأمر وضوحا فيقول :" ان الدعوة نفسها أمر بمعروف ونهي عن منكر ، فان الداعي طالب مستدع مقتضى لما دعا إليه ، وذلك هو الأمر ،اذ الأمر هو طلب الفعل المأمور به ، واستدعاء له ودعاء اليه، فالدعاء الى الله دعاء الى سبيله فهو آمر بسبيله ، وسبيله تصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر " (٤) .

والذي يتبين من أقوال شيخ الاسلام - قدس الله روحه - أنه لا فرق بينهما اذ الدعوة نفسها أمر بمعروف ونهي عن منكر ، واستدعاء وطلب من الآمر الناهي الى المأمور المنهي ، وهذا الترابط والتلاحم صحيح ومنطقي ، فكل دعوة الى الله ، أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، كما أن كل أمر بمعروف ونهي عن

---

(١) الأيه من سورة آل عمران : ١١٠

(٢) عرفها الشيخ على محفوظ في كتابه هداية المرشدين ص :١٧ بأنها " حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليفوزوا بسعادة العاجل والآجل " وكذلك شيخ الاسلام كما سترى .

(٣) مجموع فتاوي شيخ الاسلام : ١٦١/١٥

(٤) نفس المرجع : ١٦٦/١٥

منكـر فهـو دعـوة الـى اللـه تعالـى . ومـع توضيـح التوافـق بينهمـا .

فان شيـخ الاسـلام قـد فـرق بينهمـا وجعـل الدعـوة أعـم مـن الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر مـن حيـث أنـه داخـل فـي مسمـى الدعـوة ومن توابعهـا فقـال : " وكلمـا أحبـه اللـه ورسـوله من واجـب ومستحـب من باطـن وظـاهـر ، فمـن الدعـوة الـى اللـه الأمـر بـه ، وكلمـا أبغـض اللـه ورسـوله مـن باطـن وظـاهـر ، فمـن الدعـوة الـى اللـه النهـي عنـه ، لا تتـم الدعـوة الـى اللـه الا بالدعـوة الـى أن يفعـل ما أحبـه اللـه ، ويتـرك ما أبغضـه اللـه سـواء كـان مـن الأقـوال أو الأعمال الباطنه أو الظاهرة "(١) ويقـول رحمـه اللـه فـي موضـع آخـر :" واذا أخـبر اللـه بوقـوع الأمـر بالمعروف والنهي عـن المنكـر منهـا (أي من الأمـه) لـم يكـن مـن شـرط ذلـك : أن يصـل أمـر الآمـر ونهـي الناهـي منهـا الـى كـل مكلـف فـي العالـم اذ ليـس ذلـك من شـرط تبليـغ الرسـالة، فكيـف يشترط فيمـا هـو من توابعهـا ؟ " (٢)، وقـال فـي موضـع آخـر عن جهـاد بنـي اسرائيل: " وعامـة جهـادهـم كـان لـدفـع عـدوهـم عـن أرضهـم كمـا يقـاتـل الصـائـل الظـالـم، لا لدعـوة المُجَاهَـديـن وأمـرهـم بالمعروف ونهيهـم عـن المنكـر " (٣) فيتضـح مـن أقـوال شيـخ الاسـلام التفريـق بيـن الدعـوة والأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر وجعـل الأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر مـن بـاب الدعـوة وتوابعهـا وأن الدعـوة أعـم مـن الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر .

كمـا تـابعـه علـى ذلـك الشـوكانـي فـي تفسـيره عنـد قـولـه تعالـى : ((ولتكـن منكـم أمـه)) فقـال :" ان الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر فـي الآيـه من بـاب عطـف الخـاص علـى العـام ، إظهـارا لشـرفهمـا وأنهمـا الفـردان الكامـلان مـن الخـير الـذي أمـر اللـه عبـاده بالدعـاء اليـه " (٤) كمـا أن القرطبـي رحمـه اللـه فرق بينهمـا فقـال : " فإن أخـص أوصـاف المؤمنيـن الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر ورأسهمـا الدعـاء الـى الاسـلام والجهـاد " (٥) ، وقـال السّعـدي عنـد تفسـيره للآيـة : " أن الدعـوة الـى الخـير هـي الدعـوة الـى الـديـن أصـولـه وفـروعـه وشـرائعـه أمـا الأمـر

---

(١) مجموع فتاوي شيـخ الاسـلام : ١٦٤/١٥

(٢) الأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر لشيـخ الاسـلام : ١٩

(٣) الحسبـة فـي الاسـلام لشيـخ الاسـلام : ٧١

(٤) فتـح القـديـر للشـوكـانـي : ٣٦٩/١

(٥) جامـع الاحكـام للقرطبـي : ٤٧/٤

بالمعروف فهو ما عرف حسنه شرعاً وعقلاً ، والنهي عن المنكر ما عرف قبحه شرعاً وعقلاً " (١) .

وقد يتضح ذلك بتقرير قاعدة في المسميات اذا وضحت ذهب الاشكال في كثير من المسميات كما يقررها ابن القيم رحمه الله بأن من المسميات ما يكون شاملاً لمسميات متعدده ومن ذلك مسمى : البر والتقوى فيقول :

واذا أفرد كل واحد من الاسمين دخل في مسمى الآخر اما تضمناً واما لزوماً ودخوله فيه تضمنا أظهر لأن البر جزء مسمى التقوى ، وكذلك التقوى فإنه جزء مسمى البر ، وكون أحدهما لا يدخل في الآخر عند الاقتران لا يدل على أنه لا يدخل فيه عند انفراد الآخر ونظير هذا لفظ الايمان والاسلام والمنكر والفاحشه (٢) .

واما عند اقتران أحدهما بالآخر ، كقوله تعالى : ((وتعاونوا على البر والتقوى)) فالفرق بينهما فرق بين السبب المقصود لغيره ، والغاية المقصودة لنفسها ، فإن البر مطلوب لذاته ، اذ هو كمال العبد وصلاحه ، وأما التقوى فهي الطريق الموصل الى البر والوسيلة اليه (٣) .

وهكذا الدعوة والأمر بالمعروف فاذا أفرد أحدهما دخل فيه الآخر فاذا اقرن بينهما دل أحدهما على بعض ما يدل عليه بانفراده ودل الآخر على الباقي (٤).

مما سبق يتضح أن الدعوة أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنه جزء من اجزاء الدعوة كما أن الدعوة داخله في مسمى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، الا أن الدعوة هي دعوة الناس الى دين الله وشريعته والتعريف بما تحمله من خير وبركه وما تأمر به من معروف وتنهى عنه من منكر وقبيح، وتحتاج الى التودد واللين والايضاح لجذب الناس الى الدين ابتداءً ، بينما لفظ الأمر والنهي ينبيء بالسلطة والقهر لأن الأمر والنهي يحتاج الى السلطة والقوة ليطاع وينفذ أمره ونهيه ، كما وضح ذلك شيخ الاسلام ابن تيميه بقوله :

---

(١) انظر تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي : ٤٠٦/١

(٢) الرساله التبوكيه لأبن القيم ص : ١٠

(٣) نفس المرجع ص : ١٤

(٤) انظر كذلك جامع العلوم والحكم : ٢٤ - ٢٥ في تقرير هذه القاعده .

" الأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر لا يتـم الا بالعقـوبـات الشـرعيـه فـإن اللـه يـزع بالسلطـان مالا يـزع بالقـرآن " (١) .

وخـلاصـة القـول أن الدعـوة الـى اللـه بمنظـورهـا العـام تحتـاج الـى ركيـزتيـن مجتمعتيـن لتتحـقـق الـدعـوة علـى وجـه الكمـال ، دعـوة الـى الخـير يعـرف الناس منهـا شـرائـع الاسـلام وأصـولـه وفـروعـه .

وسلطـة تقـوم علـى مراقبـة النـاس مـن أجـل تحقيـق ذلـك ، فإذا أطلقت الدعوة عـرف أن المراد بهـا تحقيـق هاتيـن الركيزتيـن جميعـاً فـان الدعـوة لا تقـوم الا بهمـا ، دعـوة توضـح وتبيـن الحـق مـن الشـر وقـوة تسانـد هـذه الدعـوة ، وهـذه السلطـة قـائمـة علـى أسـس الدعـوة ومـا تـأمـر بـه .

وأحـب هنـا أن أوضـح بعـض اللبـس الـذي يقـع عنـد البعـض وهـو أن الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر خـاص فـي بـلاد المسلميـن وأن الدعـوة عـامـة للنـاس مؤمنهـم وكـافرهـم معتمـديـن علـى أن بعـض مـن كتبـوا فـي الأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر خصصـوا ما كتبـوه فـي كيفيـة إزالـة المنكرات الواقعـة بيـن المسلميـن وشروط الآمـر الناهـي وشـروط تغـيير المنكـر وغـير ذلـك ممـا يتعلـق بـأمـر الحسبـة ، وهذا صحيح فـإن الحسبـة خاصـة فـي بـلاد المسلميـن وهو ما يوضحـه تعريـف الحسبـة وهي:" أمر بمعروف ظهـر تركـه ونهـي عـن منكـر ظهـر فعلـه " (٢)،(٣) وهـذا لا يقـع الا فـي بـلاد المسلميـن فـإن المعـروف لا يظهـر تـركـه الا مـن مسلـم آمـن بـه وعمـل بـه ثـم تـركـه فظهـر تـركـه لـه وكـذا المنكـر .

الا أن هـؤلاء الكتـاب الذيـن كتبـوا عـن الأمـر بالمعروف والنهـي عن المنكـر قصـدوا الحسبـة وهـذا مـن بـاب ذكـر الخـاص تحـت اسـم العـام فـإن الحسبـة جـزء مـن أجـزاء الأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر ، كمـا يوضـح ذلـك ابن القيـم بقولـه :

ان الحكـم فـي النـاس فـي النوع الـذي لا يتوقـف علـى الـدعـوى : هـو المعـروف بولايـة الحسبـة ، وقـاعـدتـه وأصلـه : هـو الأمـر بالمعروف والنهـي عـن المنكـر (٤).

---

(١) الحسبـة فـي الاسـلام : ٥٠

(٢) الأحكـام السلطانيـه للمـاوردي : ٢٩٩ ابـي الحسـن علـي بـن محمـد بـن حبيـب البصـري البغـدادي المـا وردي ت ٤٥٠ دار الكتـب العلميـه ، بيروت .

(٣) لـي ملاحظـة علـى هـذا التعريـف كمـا سيأتـي ان شـاء اللـه .

(٤) الطـرق الحكميـه فـي السياسـة الشـرعيـه لابـن القيـم : ٣٠٥

بل يذهب الى أبعد من ذلك وهو أن جميع الولايات الاسلامية كولاية المظالم وولاية الحرب وولاية المال ، وولاية القضاء والحسبة وغيرها من الولايات الاسلامية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اذ يقول :

وجميع الولايات الاسلامية مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . (١)

فعلى هذا تكون الدعوة أعم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحسبة أخص من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإذا عرفنا ذلك وقد سبق وان بينت دعوة ابن القيم واساليبها واهدافها ووسائلها والأمر بالمعروف جزء منها .

بقي أن أتحدث عن الجزء الآخر وهو الحسبة

---

(١) الطرق الحكميه في السياسه الشرعيه لابن القيم : ٣١٥

تعريف الحِسبة

الحسبة في اللغة : مأخوذه من الحساب وهو العدّ والاحصاء ، وهي مصدر كالقعدة والركعة ، تقول فعلته حسبةً واحتسبتُ فيه احتساباً والاحتساب طلب الأجر، والأسم الحسبة بالكسر .

وتأتي بمعنى الإنكار يقال : احتسب فلان على فلان: أنكر عليه قبيح عمله .

وتأتي بمعنى التدبير يقال : فلان حسن الحسبة في الأمر أي حسن التدبير فيه . (١)

وجه الاستعارة من المعنى اللغوي

فإن كان من المعنى الأول وهو : " العد والاحصاء " فهو يحتسب بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليعطى عند الله أجراً .

وان كان بالمعنى الثاني وهو : " طلب الأجر " فقد وردت كلمة الاحتساب بهذا المعنى في عدة أحاديث منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم :(من صام رمضان ايماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه) (٢) يعني أنه صام طالباً الأجر من الله .

وان كان بالمعنى الثالث وهو : " الانكار " فهو من قبيل تسمية المسبب بالسبب لأن الانكار على الغير سبب الأمر بازالته وهو الاحتساب ، والانكار على الغير قبيح عمله من أجل طلب الأجر من الله .

وان كان بالمعنى الرابع وهو : " التدبير " فهو عام ولكنه أريد به تدبير خاص وهو تدبير اقامة الشرع بين المسلمين وانما سمي به لأنه أحسن وجوه التدبير.(٣)

الحسبة في الاصطلاح :

لعل أقدم التعريفات التي وصلت الينا هو تعريف الامام الماوردي ، والقاضي أبي يعلى الحنبلي ، للحسبه حيث يقولان (٤) " الحسبة : هي أمر بالمعروف اذا ظهر تركه ، ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله " (٥)،(٦) .

---

(١) انظر لسان العرب لابن منظور : ٣١٤/١

(٢) رواه البخاري في كتاب الايمان باب صوم رمضان احتساباً من الايمان رقم الحديث٣٧ح١ص٩٢

(٣) بتصرف من كتاب نصاب الاحتساب ص١٣ وهو لعمر بن محمد بن عوض السنامي طبع دار العلوم ١٤٠٣هـ .

(٤) الحسبة تعريفها ومشروعيتها وحكمها ص:٧ وهو لـ د. فضل الهي الطبعة الاولى ١٤١٠هـ يطلب من مكتبة المعارف بالرياض .

(٥)،(٦) الاحكام السلطانية للماوردي ص:٢٩٩، وتابعهم على هذا التعريف كثير من العلماء كابن==

شـــرح التعريـــــف

لقد اشترط الإمامان رحمهما الله الظهور سواءً من ترك المعروف أو فعل المنكر ، وهذا يدل على أن الحسبة خاصة في بلاد المسلمين ، وهي احترازاً من التجسس المذموم والمنهي عنه شرعاً لذلك يقول الماوردي: وأما مالم يظهر من المحضورات فليس للمحتسب أن يتجسس عنها ، ولا أن يهتك الاستار حذراً من الاستتار بها ، قال النبي صلى الله عليه وسلم :(من أتى من هـــــذه القاذورات شيئاً فليستتر بستر الله ، فانه من يبد لنا صفحته نقم حـد الله تعالى عليه)٠(١)

وحكى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دخل على قوم يتعاقرون(٢) على شراب ويوقـدون في أخماص(٣)، فقال : نهيتكم عن المعاقرة فعاقرتم ونهيتكم عن الايقاد في الأخماص فأوقدتـــم ، فقالوا : ياأمير المؤمنين قد نهاك الله عن التجسس فتجسست ونهاك عن الدخول بغير اذن فدخلـت ، فقال عمر رضي الله عنه : هاتان بهاتين وانصرف ولم يتعرض لهـم . (٤)

وهذا الشرط ليـس على أطلاقـه فانه لو غلب على الظن انتهاك حرمـه يفوت استدراكها مثـل أن يجد المحتسب رجلا خـلا بامرأه ليزني بها أو رجلاً ليقتله فيجوز له في مثل هذه الحالـــه أن يتحســـس .

وكذلك من المعروف أن الواجب على والي الحسبة أن يراقب الاسواق ويتفقـد أحوال المكاييـل والموازين والصناع والمحتالين على الشرع بالحيل الربويـة، وهذه الأمور لا تظهر للمحتسب غالبـــاً الا بفحصها وكشفها والنظر فيها فإذا حصل ذلك وكشف الغش أو الصناعة أو الحيلة الربوية، فيكـون المحتسب كشفه بعد أن لم يكن ظاهراً فشرط الظهور فيه نظـر من حيث العموم .

كما أن التعريف عام في جميع المعروف وجميع المنكر مع أن اختصاصات المحتسب محـــدودة فيما ليس من اختصاصات الولاة والقضاة ونحوهـم وان كان الاصل في الاحتسـاب أن يكون على كـل منكر وكل معروف لكن الدولة المسلمة خصصت بعض الامور من المنكرات وغيرها لبعض الولايات الاسلامية فلا يتعـدى المحتسب المولـى اختصـاصـه .

== الاخوه في كتابـه معالم القربـه في احكام الحسبة ، والسنامي في كتابـه نصاب الاحتســاب والهي ظهير في كتابه الحسبة وغيرهم كثـير .

(١) رواه الماوردي في الأحكام السلطانيه ٣١٤ والقاضي ابو يعلى في المعتمد في اصول الديـــن المحققه ص : ١٩٧ ورواه الامام مالك في الموطأ كتاب الحدود : ٨٢٥/١

(٢) عاقر الشيء معاقرة وعقاراً لزمه والعقار الخمر سميت بذلك لأنها عاقرت العقل والمعاقـــرة ادمان شرب الخمـر . لسـان العرب ٥٩٩/٤

(٣) الخص : البيت الذي يسقـف عليه بخشبـه على هيئـة الأزج والجمع أخماص وحانوت الخمـار يسمى خصاً . لسان العرب مادة خـــصّ .

(٤) الاحكام السلطانيـه بتصرف : ٣١٤ وانظـر الاحياء : ٣٢٥/٢

تعريف الحسبة عند ابن القيم

لقد نهج ابن القيم رحمه الله في تعريفه للحسبة نهجاً آخر هو أقرب الى ايضاح اختصاصات المحتسب من التعريف بالحسبة فقد حاولت جمع ما قاله في تعريفه للحسبة ثم الخروج بتعريف للحسبة يطابق بعض الشيء ما يراه ابن القيم فقد قال بعد أن ذكر ابواباً وفصولاً في طرق السياسة الشرعية :

هذا كله في الحكم بين الناس في الدعاوي واما الحكم بينهم فيما لا يتوقف على الدعوى : فهو المسمى بالحسبة والمتولى له : والي الحسبة .(١)

وقال في موضع آخر بعد أن ذكر جملة من المنكرات في العقود والمعاملات :

" فعلى والي الحسبة انكار ذلك جميعه والنهي عنه وعقوبة فاعله ولا يتوقف ذلك على دعوى ومدعى عليه فان ذلك من المنكرات التي يجب على ولي الأمر انكارها والنهي عنها . (٢)

ويقول في موضع آخر : أما ولاية الحسبة : فخاصتها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما ليس من خصائص الولاة والقضاة وأهل الديوان ونحوهم . (٣)

فلعل ابن القيم رحمه الله لما نظر في المعروف والمنكر ووجد أنهما يتعلقان بحق الله الخالص ، أو حق الأدمي الخالص ، أو اشتراكهما ، أو غلبت أحدهما على الآخر .

ووجد أن حق الآدمي الخالص أو الغالب له من يدافع عنه بالفطرة، وبالحق الشرعي ، فالانسان بفطرته مجبول بحب الدفاع عن حقه والانتصار له والمحافظه عليه ، فان عجز لجأ الى المطالبة بالحق الشرعي ، ورفع الدعوى على المعتدي الى المتخصص من الولاة كالقاضي والوالي وصاحب المظالم ونحوهم .

أما حق الله سبحانه وتعالى الخالص والغالب من العبادات، والمعاملات، والمحظورات وحق عامة المسلمين في اسواقهم وطرقاتهم ، والآداب العامة للاسلام ومنع الفساد عن الأمة والاضرار بها وبمصالحها ، فإن ذلك جميعه ليس خاصاً بأحد بعينه يدافع عنه ويرفع الدعوى ضد مرتكبها فهل تضيع حقوق الله ، وحقوق الأمة

---

(١) الطرق الحكمية : ٣١٤

(٢) نفس المرجع : ٣٢١

(٣) نفس المرجع : ٣١٨

لعدم المدعى والدعوى من أجل ذلك يقول ابن القيم :

والمقصود أن هذه أحكام شرعية : لها طرق شرعيه ، ولا تتم مصلحة الا بها ، ولا تتوقف على مدع ومدعى عليه بل لو توقفت على ذلك ، فسدت مصالح الأمة ، واختل النظام بل يحكم فيها متولى ذلك بالامارات والمعاملات الظاهرة والقرائن البينة .(١)

فتكون الحسبه بذلك دفاع مشروع عن حقوق الله وحقوق الأمة حتى لا تفسد الأرض ويختل نظامها بسبب عدم وجود الدفاع العام عن الشريعة .

وبعد هذا العرض لأقوال ابن القيم نستشف منها تعريفاً للحسبة فنقول :

الحسبة هي :" الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما لا يحتاج الى دعوى بلا تجسس " .

شرح التعريف

المعروف عند ابن القيم هو (٢) :

الذي تعرفه العقول السليمة ، والفطر المستقيمة وتقرّ بحسنه ونفعه (٣)، ويقول عن قوله تعالى :((يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر))(٤) وهل دلت الأية الا على أنه أمرهم بالمعروف الذي تعرفه العقول وتقر بحسنه الفطر فأمرهم بما هو معروف في نفسه عند كل عقل سليم فما أمر به اذا عرض على العقل السليم قبله اعظم قبول وشهد بحسنه كما قال بعض الاعراب وقد سئل بم عرفت أنه رسول الله ؟ فقال : ما أمر بشيء فقال العقل ليته ينهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال : ليته أمر به .(٥)

كما أنه دلل رحمه الله على أن المعروف ما أمر به الشارع وحسنه ، والمنكر ما حرمه الشارع وقبحه قال تعالى :((ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم

---

(١) الطرق الحكميه : ٣٤٩

(٢) وافق تعريف ابن القيم للمعروف ما في كتب اللغة فالمعروف عندهم : ضد المنكر وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن اليه وهو اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب اليه والاحسان الى الناس وكل ما ندب اليه الشرع ونهى عنه من المقبحات والمحسنات وهو من الصفات الغالبه اي أمر معروف بين الناس اذا رأوه لا ينكرونه " لسان العرب ٩:٢٣٩

(٣) زاد المعاد : ١٦٢/٣

(٤) الاية من سورة الاعراف : ١٥٧

(٥) مفتاح دار السعادة بتصرف : ٦/٢

الخبائث))(١) فهذا صريح أن الحلال كان طيباً قبل حله ، وأن الخبث كان خبيثاً قبل تحريمه .(٢)

فنجد أنه رحمه الله تعالى ركز على العقل السليم والفطرة المستقيمة : لأنها سلمت من المعارضات الخارجية التي تفسد عليها معرفة المعروف كاتباع الهوى وتقليد الأباء والاجداد ، والتعلق بالفلسفة العقيمة فاذا سلمت الفطرة من هذه المؤثرات ونحوها كانت سليمه ، فاذا عرض عليها الشرع عرفت حسنه لأنها موافقة لما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم (٣) فالشرع الحنيف في الحقيقة مقياس للعقول ، يستطيع العارف أن يعرف من أمامه ومدى عقله وفطرته من انحرافها فكلما كان العقل موافقاً للشرع راضياً به مرتبطاً به أمراً ونهياً كانت السلامة أقرب اليه من الفساد ، وكلما كان العقل مغايراً للشرع غير مقتنع به كان دليلاً على انحراف العقل عن السلامة وقربه من الفساد .

وبهذا يظهر أن المعروف ليس له حد الا أن نقول : أن كل ما أمر الله به ورسوله صلى الله عليه وسلم من واجب ومسنون ومستحب فهو من المعروف .

واما المنكر (٤) فقد قال رحمه الله تعالى عند قوله تعالى :((يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر))(٥) :

ونهاهم عما هو منكر في الطباع والعقول بحيث اذا عرض على العقول السليمة انكرته أشد الانكار (٦)، وقال والمنكر : هو الذي تستنكره العقول والفطر ونسبته اليها كنسبة الرائحة القبيحة الى حاسة الشم ، والمنظر القبيح الى العين، والطعم المستكره الى الذوق والصوت المستكره الى الاذن فما اشتد انكار العقول والفطر له فهو الفاحشة ، كما فحش انكار الحواس له من هذه المدركات ، فالمنكر لها مالم تعرفه ولم تألفه ، والقبيح المستكره لها الذي تشتد نفرتها عنه وهو الفاحشة (٧) .

---

(١) الاية من سورة الاعراف : ١٥٧

(٢) مفتاح دار السعاده : ٦/٢

(٣) سبق الحديث عن هذا الموضوع في ص : ١٤٧

(٤) المنكر في كتب اللغة : ضد المعروف وكل ما قبحه الشرع وحرمه وكرهه فهو منكر وفي البصائر كل فعل تحكم العقول الصحية بقبحه " .
تاج العروس ٥٨٣/٣ ، وانظر لسان العرب ٧١٥/٣

(٥) الاية من سورة الاعراف : ١٥٧

(٦) مفتاح دار السعاده : ٣٨٨/٢ (٧) مدارج السالكين : ٤٠٢/١

ويظهر من كلامه رحمه الله أن المنكر : عام في جميع المنهيات التي نهى الله عنها ورسوله وحذروا من الوقوع فيها ، فالعقول السليمة موافقة للشرع تستنكر جميع المنهيات وتستقبحها ، كما تستقبح نكاح المحارم ونحوها .

فيما لا يحتاج الى دعوى :

احترزت بذلك مما لا يدخل في اختصاصات المحتسب مما يخص الولاة والقضاة ومن حقوق الأدميين الخاصة التي تحتاج الى دعوى ومدعي ومدعى عليه ، وأدخلت حقوق الله والمصالح العامه للأمة ودرأ المفاسد الضارة بهم التي لا تخص الفرد .

بلا تجسس :

احترازاً عن المنهى عنه شرعاً والنظر في عورات الناس بلا اذن وا لذي استتر بذنبه ولم يجاهر به وأجزت للمحتسب أن يراقب المعروف ، والمنكر اذا ظهرت قرينه أو بينه أو امارة .

نشـــأة ولايـــــة الحسبـــة

لقد قام علماء المسلمين وولاتهم رحمهم الله بجهود بارزة بتأصيل قواعد الاسلام واحداث الولايات الاسلامية وفق قواعد الشريعه الغراء ، " وجميع هذه الولايات الاسلامية ، مقصودها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " (١) لعمومه وشموله جميع ما نزلت به الشريعة لانها اما أمر بمعروف أو نهي عن منكر .

فلذلك قام علماء الاسلام بدراسة الشريعة وافراد كل نوع من أحكامها بولاية خاصة : " كما أفردت ولاية المظالم بولاية خاصة ، والمتولى لها يسمى والي المظالم ، وولاية المال قبضا وصرفا بولاية خاصة ، والمتولى لذلك يسمى وزيرا ، وناظر البلد ، والمتولى لاحصاء المال ووجوهه وضبطه ، وتسمى ولايته ولاية الاستيفاء ، والمتولى لاخراجه وتحصيله ممن هو عليه ، تسمى ولايته ولاية السر ، والمتولى لفصل الخصومات واثبات الحقوق والحكم في الفروج والأنكحه والطلاق والنفقات ، وصحة العقود وبطلانها : هو المخصوص باسم الحاكم والقاضي " (٢) .

كما استحدثت ولايات غيرها تباعا على حسب المستجدات والحاجة لاقامة العدل بين الأمة الاسلامية لأنه مقصود الشريعة الاسلامية " ومن له ذوق في الشريعة ، واطلاع على كمالها وتضمنها لغاية مصالح العباد في المعاش والمعاد ، ومجيئها بغاية العدل ، الذي يسع الخلائق ، وأنه لا عدل فوق عدلها ، ولا مصلحة فوق ما تضمنته من المصالح : تبين له ان السياسة العادله جزء من أجزائها ، وفرع من فروعها ، وأن من أحاط علما بمقاصدها ووضعها موضعها وحسن فهمه فيها : لم يحتج الى سياسة غيرها البته " (٣) .

ويرى ابن القيم رحمه الله أن جميع هذه الولايات ولايات اسلامية فيقول :

وجميع هذه الولايات في الأصل ولايات دينيه ومناصب شرعية (٤) لان الله سبحانه أرسل رسله وأنزل كتبه ، ليقوم الناس بالقسط وهو العدل الذي قامت به السموات والارض ، فاذا ظهرت أمارات العدل وأسفر وجهه بأي طريق كان ، فثم شرع الله ودينه والله سبحانه أعلم وأحكم وأعدل أن يخص طرق العدل وإماراته

---

(١) الطرق الحكمية : ٣١٦

(٢) نفس المرجع : ٣١٤

(٣) نفس المرجع : ٥

(٤) نفس المرجع : ٣١٨

بشيء ، وقد بين سبحانه بما شرعه من الطرق : أن مقصوده اقامة العدل بين عباده ، وقيام الناس بالقسط فاي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين (١) .

اختلاف الاختصاصات باختلاف العصور والحكام

كما أن اختصاصات هذه الولايات قد تختلف من بلد لآخر ومن عصر لآخر ومن حاكم لآخر ، فبما أنها ولايات دينيه لم تكن محددة في الشريعه أصلا ، فلا يلزم أن تبقى هذه الاختصاصات وقفا على ولاية دون الأخرى بل ذلك راجع الى العرف والأحوال كما بين ذلك ابن القيم اذ يقول :

عموم الولايات وخصوصها ، وما يستفيده المتولى بالولايه يتلقى من الألفاظ والأحوال والعرف ، وليس لذلك حد في الشرع ، فقد يدخل في ولاية القضاء ، في بعض الأمكنه والأزمنه ، ما يدخل في ولاية الحرب في زمان ومكان آخر وبالعكس ، فولاية الحرب في هذه الأزمنه في البلاد الشاميه والمصريه وما جاورها : تختص باقامة الحدود : من القتل والقطع والجلد ، ويدخل فيها الحكم في دعاوي التهم التي ليس فيها شهود ولا إقرار ، كما تختص ولاية القضاء مما فيه كتاب وشهود وإقرار ، من الدعاوي التي تتضمن اثبات الحقوق والحكم بايصالها الى أربابها والنظر في الأبضاع والأموال التي ليس لها ولي معين والنظر في حال نظار الوقوف ، وأوصياء اليتامى وغير ذلك .

وفي بلاد آخرى - كبلاد المغرب - ليس لولي الحرب مع القاضي حكم في شيء ، وانما هو منفذ لما يأمر به متولي القضاء (٢) ، كما قد تستحدث ولايات تكون في جانب اختصاص واحد أو أكثر من اختصاصات بعض هذه الولايات .

ونود أن ننبه هنا أن هذه الولايات الاسلامية لم تكن موجودة في الشريعة الاسلامية بمسياتها واختصاصاتها بل أن علماء المسلمين هم الذين استحدثوها وخصوا لها اعمالها ومسياتها .

فان ذلك لا يعني عدم العمل بها وباحكامها واختصاصاتها ، في بداية الاسلام ، بل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم بها جميعا بنفسه ، أو يكلف بها بعض اصحابه رضوان الله عليهم بعد تثقيفهم وتعليمهم الطريق والسبيل

---

(١) انظر الطرق الحكمية : ١٨

(٢) نفس المرجع : ٣١٨

الأمثل لذلك ، يقول ابن القيم عن ذلك :

الولايات العامة والخاصة التي لا تقوم مصلحه الأمة الا بها فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتولى أمر ما يليه بنفسه ويولي فيما بعد عنه ، كما ولى على مكة عتاب بن اسيد وعلى الطائف عثمان بن العاص الثقفي ، وعلى قرى عرينه خالد بن سعيد بن العاص وبعث عليا ومعاذا بن جبل وابا موسى الأشعري الى اليمن ، وكذلك كان يؤمن على السريا ويبعث السعاة على الأموال الزكوية فيأخذونها ممن هي عليه ويدفعونها الى مستحقيها فيرجع الساعي الى المدينه وليس معه الا السوط ولا يأتي بشيء من الأموال اذا وجد لها موضعا يضعها فيه ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستوفي الحساب على عماله.(١)

الحسبة

أما عن نشأة الحسبة فسوف يكون حديثنا عنها من وجهين ، الوجه الأول التشريع والعمل ، والوجه الثاني تأسيس ولاية خاصة للحسبة .

أما عن الوجه الأول :

فان نص القرآن الكريم وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه آمر بالمعروف ناه عن المنكر ، فقال عز وجل : ((الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر))(٢) كما أن آيات السور المكية تحدثت عن الحسبه مما يدل على أنها شرعت في بداية الاسلام كقوله تعالى :((ويل للمطففين الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون))(٣) وقوله تعالى : ((واوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين))(٤) .

وكان عليه الصلاة والسلام كما وصفه ربه سبحانه وتعالى آمرا بالمعروف ناهياً عن المنكر كما أثر عنه صلى الله عليه وسلم في احتسابه العملي الذي لم يكن مقصورا على جانب من جوانب الحياة بل شمل جميع وجوه الحياة كما هي منتشره في كتب الحديث والسير ، ومن أمثلة ذلك :

ما رواه الامام مسلم عن ابي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على صبرة طعام ، فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا ،

---

(١) الطرق الحكمية : ٣٢٨
(٢) الاية من سورة الأعراف : ١٥٧
(٣) الايات من سورة المطففين : ١ - ٢
(٤) الاية من سورة الانعام : ١٥٢

فقال : (ما هذا ياصاحب الطعام ؟) قال : أصابته السماء يارسول الله ! قال : (أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس ! من غش فليس مني) (١) .

وروى الامام أحمد عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلي ازار يتقعقع فقال :(من هذا ؟)، قلت عبدالله بن عمر ، قال : (ان كنت عبدالله فارفع ازارك) فرفعت ازاري الى نصف الساقين ، فلم تزل ازرته حتى مات (٢) .

وروى الامام مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتماً من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه ، وقال :(يعمد أحدكم الى جمرة من نار فيجعلها في يده) فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم خذ خاتمك ، انتفع به ، قال : لا ، والله ! لا آخذه أبدا ، وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) .

ومنها احتسابه على النساء فقد روى الامام ابو داود عن ابي اسيد الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو خارج المسجد ، وقد اختلط الرجال مع النساء في الطريق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للنساء : (استأخرن فانه ليس لكن أن تحققن الطريق عليكن بحافات الطريق) فكانت المرأة تلصق بالجدار حتى أن ثوبها ليلصق بالجدار من لصوقها به (٤) .

والأمثلة على احتسابه صلى الله عليه وسلم أكثر من أن تحصى (٥)، ولم يكتفي عليه أفضل الصلاة والتسليم بمراقبته للاسواق والبيع والشراء وما يقع فيها من غش وكذب واختلاط واحتسابه كلما رأى منكراً باليد واللسان والقلب سواء كان ذلك في عبادة أو معاملة أو عقيدة ، بل أسند أمر الاحتساب إلى بعض اصحابه في مجالات مختلفه فقد استعمل صلى الله عليه وسلم سعيد بن سعيد بن العاص على سوق مكة (٦) وكذلك ما رواه الامام أحمد عن علي رضي الله عنه

---

(١) مسلم كتاب الايمان باب قول النبي صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا رقم الحديث ١٠٢ ، ٩٩/١

(٢) مسند الإمام أحمد رقم الحديث : ٦٢٦٣ ، ١٤١/٢

(٣) مسلم كتاب اللباس والزينه رقم الحديث : ٢٠٩٠ ، ١٦٥٥/٣

(٤) سنن ابى داود كتاب الادب باب ما جاء في مشي النساء رقم الحديث: ٥٢٧٢ رقم الباب ١٨٠ طبعة دار الحديث حمص الطبعة الاولى ١٣٩٤

(٥) راجع كتاب الحسبة في العصر النبوي والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم د. فضل الهي وانظر كتاب معالم القربة في احكام الحسبة لابن الاخوه .

(٦) الاصابه في تميز الصحابه ٩٧/٣

قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة ، فقال : (أيكم ينطلق الى المدينة فلا يدع بها وثناً الا كسره ولا قبراً الا سواه ، ولا صورة الا لطخها ؟) فقال رجل أنا يارسول الله ! ، فانطلق فهاب أهل المدينة ، فرجع ، فقال علي: أنا أنطلق يارسول الله ، قال : (فانطلق) فانطلق ، ثم رجع ، فقال : يارسول الله لم أدع بها وثناً الا كسرته ، ولا قبراً الا سويته ، ولا صورة الا لطختها. ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من عاد لصنعة شيء من هذا فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم) (١)، وقد نقل ابن القيم رحمه الله في كتابه الطرق الحكمية في المسند من رواية عبدالله بن عمر قال: (أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آتيه بمدية فأتيته بها فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها ، وقال : (أغدُ عليّ بها) ففعلت ، فخرج بأصحابه الى أسواق المدينه ، وفيها زقاق خمر ، قد جلبت من الشام ، فأخذ المدية مني ، فشق ما كان من تلك الزقاق بخصرته ثم أعطانيها وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي ، وأن يعاونوني ، وأمرني أن آتي الاسواق كلها ، فلا أجد فيها زق خمر الا شققته ، ففعلت ، فلم أترك في أسواقها زقاً الا شققته)(٢) وغير ذلك من اسناده صلى الله عليه وسلم أمر الحسبة الى بعض اصحابه، ليتعاونوا على البر والتقوى وليكون ذلك تشريعا وتعليما لاصحابه وأمته من بعده فكان ماأراده صلى الله عليه وسلم فقد قام اصحابه بأمر الحسبة خير قيام وعلى رأسهم خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم أجمعين ولا غرابة في ذلك فهي صفة لهم في كتاب الله العزيز حيث قال سبحانه : ((الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن اللهلقوي عزيز ، الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهو عن المنكر ولله عاقبة الامور))(٣) وأمثلة احتساب الصحابة رضي الله عنهم كثيرة(٤)

---

(١) مسند الامام أحمد : رقم الحديث : ٦٥٧ ، ٨٧/١

(٢) المسند الامام أحمد : ١٣٢/٢ رقم الحديث ٦١٦٥

(٣) الايات من سورة الحج : ٤٠ - ٤١

(٤) انظر الحسبة في الاسلام ، وانظر نظام الحسبة في الاسلام دراسة مقارنة لعبدالعزيز مرشد .

نذكر بعض ما نقله الامام ابن القيم عنهم وهو مثال لاجماع الصحابة على الاحتساب فقال :

أن خالد بن الوليد كتب لابي بكر الصديق رضي الله عنهما " أنه وجد في بعض نواحي العرب رجلاً ينكح كما تنكح المرأة " فاستشار الصديق اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم علي بن ابي طالب رضي الله عنه - وكان اشدهم قولاً - فقال : " ان هذا الذنب لم تعص به أمة من الامم الا أمة واحده ، فصنع الله بهم ما صنع كما قد علمتم أرى أن يحرقوا بالنار " فأجمع رأي اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن يحرقوا بالنار فكتب ابو بكر الى خالد " أن يحرقوا " فحرقهم ، ثم حرقهم عبدالله بن الزبير ثم حرقهم هشام بن عبدالملك " (١) ونقل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن منع النساء من المشي في طريق الرجال والاختلاط بهم في الطريق (٢) .

وهكذا استمر الصحابة رضي الله عنهم على هذا الأمر ثم تبعهم التابعون ومن تبعهم إلى يومنا هذا بحمد الله ومنته ، وليس مقصودنا نقل الروايات عن الاحتساب وصوره وانما المراد هو توضيح نشأة الحسبة العملية ونقل بعض الروايات التي تصور واقع سيرها وحركتها في نشأتها الأولى .

ومن الملاحظ في هذه النشأة أن ولاة أمر المسلمين كانوا يقومون بأمر الحسبة بأنفسهم قائدهم في ذلك محمد بن عبدالله عليه أفضل الصلاة والتسليم وتبعه على ذلك خلفاؤه الراشدون رضي الله عنهم ، وكما فعل بعض خلفاء بني أمية وعرف عن الوليد بن عبدالملك عنايته بالاسواق " فكان يمر على البقال سائلاً عن السعر ، ويطلب منه الزيادة في الوزن " (٣) وهو فعل بعض خلفاء بني العباس فقد نقل ابن كثير أن ابا جعفر المنصور كان : " في أول النهار يتصدى الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر " (٤) كما أنهم جميعاً كانوا يولّون من يقوم بأمر السوق (٥) .

---

(١) الطرق الحكمية : ٢٠

(٢) نفس المرجع : ٣٧٠

(٣) تاريخ الامم والملوك : ٤٩٦/٦

(٤) البداية والنهاية : ١٢٥/١٠

(٥) انظر خطة الحسبة للفاسي : ١٠

الوجه الثاني : تأسيس ولاية خاصة بالحسبة

أن الاسلام ليس مقصوراً على التعبد وحده بل هو قيم على شئون الدين والدنيا على العبادات والمعاملات من أجل ذلك نجد أن الحسبة نشأت مبكرة وعلى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم تتابع الأمر على ذلك وبعد اتساع رقعة العالم الاسلامي ، دأب الولاة على تولية من يقوم بأمر الحسبة في الأسواق وبما أن هذه المعاملات اليومية كانت تتم وتتركز في السوق الذي يرتاده العرب لقضاء جميع مآربهم المادية والروحية - بما فيها انشاد الشعر - فقد أطلق على هذا المنصب في بداية الأمر " ولاية السوق " واطلق على المتولي فيه اسم " صاحب السوق " (١) وذلك في صدر الاسلام وعهد الدولة الأموية " وظل هذا الاسم جارياً على لسان فقهاء المغرب والأندلس إلى وقت متأخر ثم اصبح يقال لها " ولاية الحسبه " (٢) بعد أن شاع هذا الاسم عند المشارقة وبدأ التدوين فيه والذي يظهر من كتب التاريخ أن اسم " ولاية الحسبة " استقرت أركانه كولاية خاصة من الولايات الاسلامية في عصر خلافة بني العباس وبعبارة أدق في ولاية ابى جعفر المنصور والتي بدأت بعام ١٣٧هـ وانتهت بعام ١٥٨هـ ، فقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن المنصور ولى " عاصم بن سليمان الأحول " الحسبة في المكاييل والأوزان بالكوفة " (٣) وولى ابا زكريا بن عبدالله حسبة بغداد والأسواق وأنه توفى في سنة ١٥٧هـ (٤) .

كما ذكر ابن كثير أن المنصور ولى رجلاً الحسبة يقصد سيره واختباره ومدى اخلاصه بعد أن قام يحتسب عليه وهو يخطب (٥) وهذا ما اشتهر في كتب التاريخ عن نشأة مسمى هذه الولاية وجعلها ولاية خاصة ، فأستطيع بذلك أن أقول تأسيس ولاية الحسبة كان في القرن الثاني للهجرة النبوية وبالتحديد بعد عام ١٣٧هـ وقبل عام ١٥٨هـ ، واصبح يطلق عليها اسم " ولاية الحسبة " والمتولي لها يسمى " المحتسب " والله أعلم .

---

(١) نفس المرجع : ١٢
(٢) نفس المرجع : ١٧
(٣) طبقات ابن سعد
(٤) تاريخ الامم والملوك للطبري : ٥٢/٨
(٥) انظر البدايه والنهايه : ١٢٣/١٠

الفصل الثاني : أركان الحسبة

أولاً : المحتسب

ثانياً : المحتسب عليه

ثالثاً : المحتسب فيه

رابعاً : الاحتساب

خامساً : ذكر اختصاصات المحتسب وسلطاته عند ابن القيم

اركـــان الحسبـــــة

للحسبـــة اربعـــة اركـان هـي : المحتسـب ، والمحتسـب عليـه ، والمحتسـب فيـــه، ونفـس الاحتســاب ومـا يتعلـق بهـا مـن شـروط وآداب وسـوف يكـون حديثنـا فـي هـذا الفصـل عـن هـذه الاركـان الأربعـة كـل فـي مبحـث مبينـاً رأي ابـن القيـم رحمـــه اللـه فيهـا أن وجـد ذلـك :

أولاً المحتســـب

هـو مـن يقـوم : بالأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر ، قـاصـداً ما عنـد اللـه من أجـر ومثوبـة ، وهـو نـوعـان **أحدهمـا** :" والـي مختـص من قبـل الدولـة يقـوم بمراقبة أفعـال الأفـراد وتصرفاتهـم ، لصبغتهـا بالصبغـة الاسـلاميـة أمـراً بالمعروف ونهيـاً عن المنكر وفقـاً لأحكـام الـشرع وقـواعـده "(١) ويطلـق عليـه " والـي الحسبـة " **والثاني** من يقـــوم بهـا بـدون توليـة من ولـي الأمـر كـأحاد المسلميـن فهـو " المحتسـب المتطـوع " وهو الأصل لأن كـل مسلـم قـادر يجـب عليـه أن يكون محتسبـاً وهـو فـرض علـى الكفايـة إذا قـام بـه البعـض سقـط عـن الباقيـن .

شـــروطـــه

عرفنـا وجوب الحسبـة وانها تجـب علـى جميـع المسلميـن القادريـن الا أن له شـروطاً يجـب أن تتـوفـر فـي المحتسـب كـي يقـوم بأمـر الاحتسـاب والا سقـط عنـه الوجـوب فـي الأمـر والنهـي .

أولاً : الاســـــــلام .

ويتوقـف على شـرطيـة الاسـلام أمـور : **أحدهـا** : أن الحسبـة ولايـة دينيـة قننـت حـدودهـا بشـريعـة الاســلام فلابـدّ أن تتوقـف معرفـة اختصـاصـاتهـا علـى أدلـة الشـرع.

ثـانيهـا : أن ابـن القيـم رحمـه اللـه يمنـع مـن أن يتولـى غـير المسلـم أي ولاية من ولايـات الاسـلام علـى الاطـلاق وهـو أمـر مهـم فـي وقتنـا المعاصـر حيـث بلـى كثـير من البـلاد الاسـلاميـه بتوليـة بعـض الولايـات الاسـلاميـة كالوزارات ونحوها غـير المسلميـن سـواء مـن أهـل الكتـاب أو مـن الملحديـن ، وقـد عقـد رحمـه اللـه فصـولاً مطـولـة فـي كـتابـه أحكـام أهـل الذمـة سمـاه : فصـل في المنـع مـن استعمـال اليهـود والنصارى فـي شـيء مـن ولايـات المسلميـن وأمـورهـم (٢) ، ثـم بـدأ يذكـر الادلـة الدالـة على منعهـم

---

(١) نظـام الحسبـة فـي الاسـلام دراسـة مقارنـه ، لعبدالعزيز بن محمـد مرشـد مطبعـــة المدينـة بالريـاض ص : ١٦٠

(٢) أحكـام أهـل الذمـه لابـن القيـم : ١ : ٢٠٨

من الولاية والاسباب المانعة من توليتهم ونقل بعضاً من مواقف ولاة المسلمين مع أهل الكتاب ، وذكر بعض الأمثله التي تبين بعض مكائدهم للاسلام والمسلمين عندما يتولون أمراً من أمور المسلمين فقال :

سياق الايات الدالة على غش أهل الذمة للمسلمين وعداوتهم وخيانتهم وتمنيهم السوء لهم ، ومعاداة الرب تبارك وتعالى لمن أعزهم وولاهم أمور المسلمين ثم ساق أيات كثيرة ننقل منها قوله تعالى : ((ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم)) (١) وقوله تعالى: ((ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد ايمانكم كفاراً حسداً من عند انفسهم)) (٢) وقوله تعالى : ((ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم)) (٣) وقوله تعالى : ((يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الايات ان كنتم تعقلون)) (٤) .

فقد وضعنا رحمه الله تعالى بين أيات كثيرة من كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهي تبين لنا حالهم معنا بل أنه ليكشف لنا ما تسره صدورهم نحونا فهل يعتبر المعتبرون وينظروا الى كلام ربهم على أنه الحق وأن ما سواه هو الباطل واذ اننا في باب الاحتساب فانني أنصح اخوتي من المسلمين بالرجوع الى هذا الكتاب ومعرفة ما يجب نحو كل كافر لا يؤمن بالله الواحد وخاصة أهل الكتاب فقد كثر اللغط في هذه الازمان حتى اننا نسمع من المسلمين من يتجرأ ويقول اتمنى أن أتعامل مع نصراني ولا أن أتعامل مع مسلم حتى يعرف حقيقتهم ويحسن الظن باخوانه .

كما أنه رحمه الله استدل على عدم تولية الكافر بحديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (فارجع فلن استعين بمشرك) (٥) كما أنه جعل توليتهم نوع من توليهم والركون اليهم ومحبتهم

---

(١) الاية من سورة البقره : ١٠٥
(٢) الاية من سورة البقرة : ١٠٩
(٣) الاية من سورة البقرة : ١٤٠
(٤) الاية من سورة آل عمران : ١٢٨
(٥) رواه مسلم في كتاب الجهاد وبرقم ١٥٠ واللفظ له : ١٤٥٠/٣

واعـزازهـــم وصلتهـــم فقـــال :

ولمـا كانـت التوليـة شقيقـــة الولايـــة كانـت توليتهـم نـوع من توليهـم وقـد حكـم تعالـى بأن من تـولاهـم فـانـه منهـم ولا يتـم الايمـان الا بالبـراءة منهـم ، والولايـــة تنـافـي البـراءة ، فـلا تجتمـع الولايـة والبـراءة ابـــدا ، والولايـة اعـزاز فـلا تجتمـــع واذلال الكفـــر ابـــدا ، والولايـة صلـة فـلا تجامـع معـاداة الكافـر ابـــدا (١) .

ثـالثهـــا : أن الحسبـة شرعـت من أجـل حمايـة الديـن ونصـرتـه فكيـف يكـون مـن أهـل نصـرتـــه ورفعتـــه من هـو عـــدو لـه فـي الاصـــل جـاحـدا بـــه .

ثـانيـــا : التكليـــف

عرفنـا أن الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر واجـب ، ومـن المعلـوم أن الوجـــوب لا يكـــون الا علـى مكلـف والمكلـف هـو البالـغ العاقـل فيخـرج عـن الوجـوب الصغـــــير والمجنـون فـلا يلـزمـه الأمـر والنهـي ولا يـأثـم بتـركـه " وهـذا في الحقيقـة شرط وجـوب الاحتسـاب علـى المسلـم أما امكـان الحسبـة وجـوازهـــا فـلا يشتـدعـى الا العقـــل حتـــى أن الصبـي المميز وان لـم يكـن مكلفـا فلـه انكـار المنكـر وليـس لاحـد منعـه من ذلك "(٢)

ثـالثـا : العـدالـــة (٣)

يرى ابـن القيـــم أن جميـع الولايـات الإسـلاميـة تحتـاج إلـى هـذا الشـرط وأن جميع الولايـات داخلـة تحـت قـولـه تعالـى :((إن اللـه يـأمركـم أن تـؤدوا الأمانـات إلى أهلها واذا حكمتـــم بيـن النـاس أن تحكمـوا بالعـدل)) (٤) ، والحسبـة ولايـة تعتمـــد علـــى العـدل فـلابـدّ مـن عـدل من يتـولاهـا حيـث يقـول وهـو يتحـدث عـن صفـة الولايـــات الاسـلاميـة وما يجـب أن يكـون عليـه متـوليهـــا :

ومنهـم من يكـون بمنـزلـة الآمـــر المطـاع والمطلـوب منـه العدل مثـل الأمـير والحاكـم والمحتســـب (٥) .

ومـع ذلـك فـإنـد يـرى أن هـذا الشـرط ليـس علـى اطـلاقـه بـل يختلـف باختـــلاف

---

(١) انظـر احكـام اهـل الذمـة : ٢٣٨/١ - ٢٤٢

(٢) أصـول الدعـوة عبدالكريـم زيـدان : ١٧١

(٣) أختلفـت أراء العلمـاء فـي اشـتراط العدالـه وقـد وافـق ابـن القيـم شيخـد في اشتراط العدالـه ، انظـر الحسبـة في الإسـلام لشيـخ الإسـلام ابن تيميـة ص:١٤ وقـد تحـــدث الغزالي في كتابـه احياء علوم الدين عن هـذا الشـرط ورد على من يقـول بـد ، انظـــر الاحيـــاء : ٣١٢:٢

(٤) الايـة من سـورة النســاء : ٥٨

(٥) انظـر الطـرق الحكميـة : ٣١٥ - ٣١٦

الازمان والامكنه والعصور والبلدان لذلك يقول أنه :

يجب على كل ولي أمر أن يستعين في ولايته بأهل الصدق والعدل والأمثل فالامثل وان كان فيه كذب وفجور فان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم ، قال عمر رضي الله عنه : " من قلد رجلاً على عصابة وهو يجد في تلك العصابة من هو أرضى لله منه ، فقد خان الله ورسوله وجماعة المؤمنين " .

ثم يقول : والغالب أنه لا يوجد الكامل في ذلك فيجب تحري خير الخيرين ودفع شر الشرين (١) .

فهو رحمه الله بفكره الثاقب ومعرفته بأحوال الأمة وما يطرأ عليها من تغيرات لبعد الأزمان من ضعف وفتور ، يجعل اشتراط العدالة أمر عسير قد يؤدي الى ماهو أسوأ منه لذلك يقول :

الفقيه من يطبق بين الواقع والواجب ، وينفذ الواجب بحسب استطاعته، لا من يلقي العداوة بين الواجب والواقع ، فلكل زمان حكم ، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم ، واذا عم الفسوق وغلب على أهل الأرض ، فلو منعت إمامة الفساق ، وشهاداتهم ، واحكامهم ، وفتاويهم ، وولاياتهم ، لعطلت الاحكام ، وفسد نظام الخلق ، وبطلت أكثر الحقوق ، ومع هذا ، فالواجب اعتبار الاصلح فالأصلح ، وهذا عند القدرة والاختيار ، واما عند الضرورة والغلبة بالباطل فليس إلا الإصطبار والقيام بأضعف مراتب الانكار (٢) .

فيتضح مما تقدم أنه رحمه الله يشترط العدالة عند الاختيار ووجود الاصلح أما إذا عدم الإختيار لتساوي الناس في الفسق وعدم وجود العدل فإن البحث عنه وترك الولاية بدون والي يفوت كثيراً من الخير اذا لم يزد الشر لذلك حدد شرط العدالة بحدود إن أمكن الإتيان بها ، والا فإن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر .

وهذا التصرف من ابن القيم رحمه الله عين الحكمه والعقل والبحث عن مصلحة الأمة غفر الله له وقدس روحه ، وقال النووي : " قال العلماء لا يشترط في الآمر والناهي أن يكون كامل الحال ممتثلاً ما يأمر به مجتنباً ما ينهى عنه بل

---

(١) الطرق الحكمية : ٣١٧

(٢) اعلام الموقعين : ٤/٢٢٠

عليه الأمر وان كان مخلاً بما يأمر به والنهي وان كان متلبساً بما ينهى عنه فانه يجب عليه شيئان أن يأمر نفسه وينهاها ويأمر غيره وينهاه فاذا أخل بأحدهما كيف يباح له الاخلال بالآخر " (١) .

رابعاً : القدرة

يتضح من اشتراط ابن القيم للاحتساب عند ذكره حكم الاحتساب حيث يقول :

وهذا واجب على كل مسلم قادر ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من ذوي الولايات والسلطان ، ثم يقول :

فان مناط الوجوب هو القدرة فيجب على القادر مالا يجب على العاجز (٢) قال تعالى : ((فاتقوا الله ماستطعتم)) (٣) كما أنه بين أن مراتب القدرة في جهاد أهل الظلم والبدع والمنكرات ثلاث مراتب : باليد اذا قدر ، فان عجز ، انتقل الى اللسان فان عجز جاهدهم بقلبه (٤) فهذه مراتب القدرة على تغيير المنكر مع أن الثالثه واجبه على كل مؤمن أما الاولى والثانيه اذا قدر عليها المؤمن ولم يقم بأحدهما فقد وصفه بأنه من امقت الخلق وابغضهم الى الله فقال :

ما أكثر من يعبد الله عز وجل بترك ما أوجب عليه فيتخلى عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع قدرته عليه ويزعم أنه متقرب الى الله بذلك مجتمع على ربه تارك ما لا يعنيه ، فهذا من أمقت الخلق الى الله تعالى وابغضهم اليه (٥) .

لأنه اتبع وسوسة الشيطان وأمره وترك ما أوجب الله عليه مع قدرته عليه .

خامساً : العلم (٦)

يشترط في الداعي عموماً وفي المحتسب خصوصاً أن يكون عالماً بما يأمر به عالماً بما ينهى عنه والا وقع في المحضور بسبب جهله ويرى ابن القيم أن الدعوة لا تحصل بغير علم ولا تؤتي ثمارها بغيره فيقول :

واذا كانت الدعوة أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها ، فهي لا تحصل الا بالعلم الذي يدعو به واليه بل لابدّ في كمال الدعوة من البلوغ في العلم الى

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : ٢٣/٢ دار الفكر .
(٢) الطرق الحكمية : ٣١٥
(٣) الايه من سورة التغابن : ١٦
(٤) زاد المعاد : ١١/٣
(٥) اغاثة اللهفان : ١٨٠/٢
(٦) راجع صفة العلم من صفات الداعية فقد ذكرنا فيه مباحث نافعة من كلام ابن القيم .

حـــديصـــل اليـــه السعـــي (١) .

والمحتسب داعية ينطبق عليه ذلك كما اشترط ذلك شيخ الاسلام حيث قال: " والقيام بالواجبات من الدعوة الواجبة وغيرها يحتاج الى شروط يقام بها كما جاء في الحديث "(٢) ينبغي لمن أمر بالمعروف ونهى عن المنكر أن يكون فقيها فيما يأمر به ، فقيها فيما ينهى عنه رفيقا فيما يأمر به حليما فيما ينهى عنه " فالفقه قبل الامر ليعرف المعروف وينكر المنكر " (٣) فيشترط في المحتسب أن يتعلم " مواقع الحسبة وحدودها ومجاريها وموانعها ليقف عند حدود الشرع "(٤) كما قال شيخ الاسلام : " الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر لا يكون عمله صالحا، ان لم يكن بعلم وفقه كما قال عمر بن عبدالعزيز : " من عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح " وكما في حديث معاذ بن جبل " العلم إمام العمل والعمل تابع له " فلابدّ من العلم بالمعروف والمنكر والتمييز بينهما ولابدّ من العلم بحال المأمور المنهي " (٥) .

أدآب المحتسب وأخلاقه

المحتسب داعية الى الله وهو قبل ذلك مؤمن بالله وينبغي له أن يتأدب بآداب الاسلام جميعا وهذا ما ينبغي أن يكون عليه كل مسلم والمحتسب أولى بذلك من غيره لأنه قدوة يقتدى به في القول والعمل وهو مبلغ عن الله ورسوله آمر بما أمر به ناه عما نهى عنه ويشترط ابن القيم في المبلغ عن الله ورسوله أن يكون : حسن الطريقة مرضي السيرة ، عدلا في أقواله وأفعاله ، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأحواله ، وادا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله ، ولا يجهل قدره ، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسموات ؟ فحقيق بمن اقيم في هذا المنصب

---

(١) مفتاح دار السعاده : ١٩٥/١

(٢) ونسبه شيخ الاسلام في كتابه الحسبة الى القاضي ابي يعلى في المعتمد مرفوعا وقال كما جاء في الأثر عن بعض السلف ، وهو اشبه بكلام العلماء ، وبعد رجوعي الى المعتمد وجدته مرويا عن اسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظه:(لا ينبغي لاحد أن يأمر بالمعروف حتى يكون فيه ثلاث خصال) وذكر الحديث : المعتمد في اصول الدين للقاضي ابي يعلى ص : ١٩٦

(٣) مجموع فتاوي شيخ الاسلام : ١٦٧/١٥

(٤) اصول الدعوة : ١٧٤

(٥) الحسبة في الاسلام بتصرف : ٨٣

أن يعد له عدته ، وأن يتأهب له أهبته ، وان يعلم قدر المقام الذي اقيم فيه، ولا يكون في صدره حرج من قول الحق والصدع به (١) .

كما ينبغي عليه أن يكون رفيقاً ليناً فيما يأمر به كما يقول ابن القيم :

المعروف الذي تعرفه العقول السليمة والفطر المستقيمة وتقرّ بحسنه ونفعه اذا أمر به يأمر بالمعروف أيضاً لا بالعنف والغلظة (٢) .

وسبق أن تحدثنا عن صفات الداعية في الباب الأول وهي بعينها صفات وأخلاق للمحتسب (٣) كالاخلاص ، والصبر ، والحلم ، والصدق ، والرفق في الأمر والنهي مع الصلابة في الدين ، والعفة في النفس وغير ذلك من الاداب الاسلامية ، كما أن هذه الأخلاق الاسلامية اتفق عليها العلماء والعقلاء فقال شيخ الاسلام :

" ومن الصلاح أن يأتي بالأمر والنهي بالصراط المستقيم ، وهو أقرب الطرق الى حصول المقصود ولابدّ في ذلك من الرفق في الأمر كله كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ان الرفق لا يكون في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه) (٤) وقال : (ان الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق مالا يعطي على العنف) (٥) ولابدّ ايضا أن يكون حليما صبوراً على الاذى " (٦) .

وقال النووي :" وينبغي للآمر بالمعروف الناهي عن المنكر أن يرفق ليكون أقرب الى تحصيل المطلوب " (٧) ، وقال الشيزري (٨) :" وأول ما يجب على المحتسب أن يعمل بما يعلم ولا يكون قوله مخالفاً لفعله ، وأن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى وطلب مرضاته ، ويجتنب في رياسته منافسة الخلق ، ومفاخرة ابناء الجنس لينشر الله عليه رداء القبول وعلم التوفيق ويقذف له في القلوب مهابة وجلالاً ، وينبغي أن يكون مواظباً على سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قص شارب ونظافة الثياب وتقصيرها والتعطر بالمسك ونحوه وجميع سنن الشرع ومستحباته هذا مع القيام على الفرائض وان يكون عفيفاً عن أموال الناس ، متورعاً عن قبول الهدية من المتعيشين وارباب الصناعات(٩).

---

(١) اعلام الموقعين : ١٠/١ (٢) زاد المعاد : ١٦٢/٣

(٣) راجع ما سبق ص : ١٣٤

(٤) رواه مسلم في كتاب البر باب الرفق ٢٠٠٤/٤ رقم الحديث ٢٥٩٤

(٥) رواه البخاري في كتاب الاستتابة : ٥١/٨

ومسلم في كتاب البر باب فضل الرفق واللفظ لمسلم :٢٠٠٤/٤ رقم ٢٥٩٣

(٦) راجع الحسبة في الاسلام ص: ٨٣ (٧) صحيح مسلم بشرح النووي: ٢٤/٢

(٨) عبدالرحمن بن نصر الشيزري في كتابه نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، دار الثقافه بيروت الطبعه الثانيه عام ١٤٠١هـ .

(٩) نهاية المرتبة في طلب الحسبة بتصرف : ٦ - ١٠

ثانياً : المحتسب عليه

المحتسب عليه هو : كل انسان فعل منكراً يجب أو يجوز فيه الاحتساب . " وشرطه أن يكون بصنعه يصير الفعل الممنوع منه في حقه منكراً ، وأقل ما يكفي في ذلك أن يكون انسان ولا يشترط كونه مكلفاً " (١)

فعلى ذلك يجوز الاحتساب على الصغير الذي لم يبلغ وعلى المجنون لو أراد شرب الخمر أو الزنى وكذلك على الذمي والمستأمن الذي يعيش في بلاد المسلمين وإن كان فعلهم لا يعتبر معصية يحاسب عليها ديانةً .

وهذا يعود الى مقصود الشريعة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما من أجل تحقيق سيادة شرع الله ونشره بين الأمة ليفوزوا بالسعاده في العاجل والآجل وازالة المنكر الذي هو سبب لهلاك الأمة في العاجل والآجل .

والمقصود أن إزالة المنكر حتى لو وقع ممن ليس في حقه معصية فيه حكم كثيرة منها : أن لا يألفه المسلمون فيهون عليهم هذا المنكر ، ولكي يحصل من الانكار ما يحبه الله ورسوله من الطاعة وكذلك عدم استمراء فاعل المنكر عليه وتعوده لذلك يقول ابن القيم رحمه الله :

النبي صلى الله عليه وسلم شرع لامته انكار المنكر ليحصل بانكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله (٢) .

وعلى هذا فان فئات المحتسب عليهم عام في كل من صدر منه ما يجري فيه أمر الحسبة من طبقات مجتمع الدولة المسلمة سواء كان : مسلماً أو كافراً حاكماً أو محكوماً ، مكلفاً أو غير مكلف ، مستأمناً أو ذمياً ، قريباً أو بعيداً .

فاذا عرف هذا فمن الواجب على المحتسب أن يكون فقيهاً فطناً اذا كياسه مع هؤلاء الطبقات فان الحسبة عليهم تختلف من طبقة الى أخرى ومن شخص الى آخر فان منهم الملوك والامراء والقضاة والأقارب واصحاب الصناعات وأهل البيع والشراء وغيرهم واذا اردنا أن نوضح القول بالامثلة فنقول مثلاً الاحتساب على الملوك والامراء ليس كالاحتساب على غيرهم فقد قال الفقهاء : " يكون الاحتساب عليهم بتعريف الحكم الشرعي والوعظ لابالقوة والقهر " (٣) لأن الاحتساب عليهم بالقوة والقهر

---

(١) معالم القربة في احكام الحسبة ص : ٢٤

(٢) اعلام الموقعين : ٤/٣

(٣) أصول الدعوه : ١٧٨

قد يؤدي الى ما هو انكر منه وهذا ما يوضحه ابن القيم رحمه الله بقوله :

الانكار على الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فانه اساس كل شر وفتنة الى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الامراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : (لا ما أقاموا الصلاة)(١) ومن تأمل ما جرى على الاسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الاصل وعدم الصبر على المنكر فطلب إزالته فتولد عنه ما هو أكبر منه (٢) .

هذا في جانب الولاة ونحوهم اما الاقارب فمنهم الوالدان ، فإن مراتب الانكار عليهما تختلف عن بقية الأقارب فالفقهاء رحمهم الله تعالى قالوا : " احتساب الابن على والديه يكون ببيان الحكم الشرعي والموعظة الحسنة والتخويف من الله تعالى لا يتعدى ذلك الى الوسائل الاخرى كالكلام الغليظ والضرب رعاية لحق الابوة والامومه دون تفريط بواجب الاحتساب " (٣) .

كما أن من الكفار مستأمنين وأهل ذمة فان الإسلام أعطاهم الحرية فيما يعتقدونه وفيما يحلونه ويحرمونه ، وذلك في حدود ما بينهم بدون خرق لنظام الإسلام وإعلان ذلك بين المسلمين في أسواقهم وطرقاتهم فإذا حاولوا ذلك منعوا كما يقول ابن القيم عن اظهارهم الصليب الذي هو شعار من شعارات ديانتهم :

فهم يمنعون من إظهاره في أسواق المسلمين وان لم يرفعوا أصواتهم به ، ولا يمنعون من اخراجه في كنائسهم ومنازلهم بل الممنوع منه فيها رفع أصواتهم ووضع الصليب على ابواب الكنائس (٤) .

كما أنه يبين أن ذلك يتضمن منعهم من إظهار الخمر وشربه في أسواق المسلمين وطرقاتهم وأماكن تجمعاتهم ويتضمن منعهم من بيع الخنزير وإظهار الملاهي أو بيعها أو سب الاسلام أو نبيه أو أي منكر من المنكرات فقال :

وذلك يتضمن إخفاء الخمر والخنزير فيما بينهم ، ولا يظهروا بهما بين المسلمين كما لا يظهرون بسائر المنكرات (٥) .

---

(١) مسند الامام أحمد : ٢٩/٣ برقم ١١٢٤٩ و ٣٠٢/٦ رقم ٢٦٦١٩

(٢) اعلام الموقعين : ٤/٣

(٣) اصول الدعوة : ١٧٧

(٤)(٥) احكام أهل الذمة : ٧٢٠/٢

ثالثاً : المحتسب فيه

المحتسب فيه : هو موضوع الحسبة المتمثل في المعروف المتروك والمنكر المفعول وقد وضح ابن القيم رحمه الله جانب المحتسب فيه عند ذكره أصل ولاية الحسبة وقاعدتها بقوله :

هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسوله وأنزل به كتبه ووصف به هذه الأمة (١) .

اتساع موضوع الحسبة

عرفنا فيما سبق أن المعروف ما أمر به الشارع وحسنه والمنكر ما نهى عنه وقبحه من قول أو فعل أو قصد فكل ما أمرت به الشريعة السمحة فهو معروفاً سواء كان على جهة الوجوب أو السنة أو الإستحباب ، وكل ما نهت عنه الشريعة فهو منكراً بصيغة التحريم أو بدلا له لازم .

فبذلك يكون الشارع هو المحدد للمعروف والمنكر إذاً هو حكم شرعي من الله سبحانه وتعالى جاء لمصلحة العباد ووافقته العقول السليمة والفطر المستقيمة فعرفت المعروف وأنكرت المنكر بمجرد اطلاعها على حكم الله فيه لموافقة الشريعة المنزلة من العليم الخبير بما فطر عليه الانسان (٢) .

فإذا عرف ذلك اتضح مدى إتساع نطاق موضوع الحسبة وأن المحتسب فيه يدور مع المنكر أينما وجد فكل معروف ترك وكل منكر فعل فهو موضوع للحسبة .

لأن المعروف والمنكر يحملان معاني واسعة جداً فيدخل فيهما العقائد والعبادات والمعاملات والآداب والأخلاق بكل ما تحمله هذه المعاني من سعة وشمول لذلك فقد تشعبت إختصاصاتها فشملت كثيراً من أوجه علاقات المجتمع بعضها مع بعض وعلاقة المجتمع مع ربه سبحانه وتعالى فقد كان موضوع الحسبة يقابل في عصرنا الحاضر كثيراً من وظائف الدولة من وزارات وهيئات وجمعيات فكانت الحسبة تمثل ، البلديات ، ووزارة الصناعة ، والتخطيط ، الشرطة ، ورجال الصحة، والمقاييس، والمكاييل ، والمواصفات ، وهيئة الرقابة والتحقيق ، وجمعية الرفق بالحيوان وغيرها من الوظائف السائدة في عصرنا الحاضر .

فالاحتساب مثلاً " في عصر المماليك بمصر من وظائف الإدارة الهامة فكان

---

(١) الطرق الحكمية : ٣١٥

(٢) انظر تعريف القرطبي للمعروف والمنكر في جامع الاحكام : ٤٥/٤

يشرف على الأسواق والطرقات ويحافظ على الآداب العامه ، وتطبيق القوانين المرعية، وكان له نواب يطوفون الشوارع والمساجد والأسواق والمدارس والحمامات لهذا الغرض "(١)

ولم تتوقف إختصاصات المحتسب على ذلك بل هيمن على كثير من أوجه الحياة اليوميه حتى شملت ولايته أن يتردد الى مجالس القضاة والحكام ويمنعهم من الجلوس في الجامع والمسجد للحكم بين الناس لأنه ربما دخل عليه الرجل الجنب والمرأه الحائض وكان يقصد مجالس الأمراء والولاة ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعضهم ويذكرهم ويأمرهم بالشفقة على الرعية (٢) .

وبهذا يتضح إتساع موضوع الحسبة وأنها تدخل في أكثر مجالات الحياة اليوميه .

شروط المنكر الموجب للحسبة

ذكر العلماء بعض الشروط التي يجب توفرها في المحتسب فيه حتى يكون موجباً للحسبه وسوف نتطرق لتلك الشروط ورأي ابن القيم فيها موافقةً ورداً وذكر بعض الشروط التي تطرق إليها ابن القيم دون غيره أو موافقة البعض دون ذكرها في الشروط .

أولاً : كون المحتسب فيه منكراً

ونعني به أن يكون محذور الوقوع في الشرع وعدلنا عن لفظ المعصية الى هذا لأن المنكر أعم من المعصية (٣) ليدخل في ذلك فعل المجنون والصغير والذمي وغيرهم مما لا يُحتسب المنكر في حقهم معصية ديانةً وهو شرط وافق عليه ابن القيم حيث يقول :

أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأمته إيجاب إنكار المنكر ليحصل بإنكاره من المعروف ما يحبه الله ورسوله (٤) .

وقد بين في هذا الفصل الحكمة من الإنكار حتى ولو كان على من لا يعتبر الأمر في حقه معصية وذلك من أجل أن يحصل بدل المنكر معروف يحبه الله ورسوله وهو هنا لم يفرق بين الصغائر والكبائر في المنكر بل يجب الإحتساب في كل منكر يصرف النظر عن كبير جرمه وصغره .

---

(١) معالم القربه : ٢٥ نقلاً عن دائرة المعارف الحديثة ص ١٥٢

(٢) انظر نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزرى : ١١٣ - ١١٥

(٣) احياء علوم الدين للغزالي : ٣٢٤/٢

(٤) اعلام الموقعين : ١٥/٣

ثانيـــاً : أن يكـــون المنكـــر ظـاهـــراً (١)

المراد بظهـــور المنكـــر إنكشـافـــه للمحتسـب وعلمـه بـه بـدون تجســس وقـد شمـل تعريفنـــا للحسبـــة الإحـتراز بعـــدم التجســس وذلـك لعـدم النظـر فـي عـورات النـــاس، وأمـر النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم النـاس بالإستتـــار عنـد الإبتـلاء بشـئ مـــن القـاذورات المنهـى عنهـــا شـرعـاً ، فـإذا أُغلـــق أهـل دار عليهـم بـاب دارهـــم واستتـروا لـم يجـز للمحتســب أن يتسلـق عليهـم جـدار دارهـم أو يكسـر الباب ليطلع إلا فـي حـالـة ظهـور بينـات وعـلامـات وقـرائـن بينـة تـدل علـى إرتكابهـم للمنكـر خاصـة إذ كـان منكـر يصعـب تحـاشيـه كالقتـل أو الزنـا بـإمـرأه فـإن الأمـر عنـد ظهـور العـلامـات والصيـاح وأصـوات المـزامـير لـم يكـن مسـتتراً بـل ظـاهـراً حيـث يقـول ابـن القيـم :

بـل يحكـم فيهـا متـولـى ذلـك بالامـارات والعـلامـات الظـاهـرة والقرائن البينه(٢)

ثـالثـاً : عـدم الخـلاف فيـه

أي المنكـر يكـون العلمـاء قـد اتفقـوا علـى أنـه منكـر فـان خـالـف فيـه البعـض فـلا حسبـة فيـه كمـا قـال الغـزالـي فـي الإحيـاء : " أن يكـون منكـراً معلومـاً بغـير اجتهـاد فكـل ماهـو فـي محـل إجتهـاد فـلا حسبـة ، فليـس للحنفـي أن ينكـر علـى الشافعـي أكلـه الضبّ والضبـع ومـتروك التسميـه ، ولا للشافعـي أن ينكـر على الحنفـي شـربـه النبيـذ الـذي ليـس بمسكـر ، وتناولـه ميرات ذوى الأرحام إلـى غـير ذلـك مـن مجـاري الإجتهـاد " (٣) ، وابـن القيـم رحمـه اللـه يوافـق الغـزالـي فـي رأيـه أن مسـائـل الإجتهـاد ليـس فيهـا إحتسـاب وذلـك فـي قـولـه :

امـا اذا لـم يكـن فـي المسـألـة سنـة ولا إجمـاع وللاجتهـاد فيهـا مسـاغ لـم تنكـر علـى مـن عمـل بهـا مجتهـداً أو مقلـداً (٤) .

ولكـن ما هـى مسـائـل الإجتهـاد والتي لا حسبـة فيهـا كما يـرى ذلـك ابن القيم فيقـول : مسـائـل الاجتهـاد مالـم يكـن فيهـا دليـل يجـب العمـل لـه وجوبـاً ظـاهـراً مثـل حديـث صحيـح لا معـارض لـه مـن جنسـه فيسـوغ فيهـا - إذا عـدم فيهـا الدليـل الظاهـر الـذي يجـب العمـل بـه - الإجتهـاد لتعارض الأدلة أو خفاء الأدلة فيها (٥) .

---

(١) انظـر ذلـك في إحياء علوم الدين : ٣٢٥/٢ وأصول الدعـوة ١٨٠

(٢) الطـرق الحكميـة : ٣٤٩

(٣) احياء علـوم الديـن : ٣٢٥/٢

(٤) اعـلام الموقعيـن : ٢٨٨/٣ . (٥) نفـس المرجـع والصفحـة .

هذه صورة المسائل الإجتهادية التي يجب على المحتسب أن يتوقف عن الإحتساب فيها لاحتمال أن يكون الحق معه بخلاف ما عليه المحتسب ، ولكن كثيراً من الناس لم يعرف هذه الصورة فظن أن كل ماوقع الخلاف فيه بين العلماء فهي مسائل إجتهادية وهذا خطأ كما يقول ابن القيم :

وإنما دخل هذا اللبس من جهة أن القائل يعتقد أن مسائل الخلاف هي مسائل الإجتهاد ، كما إعتقد ذلك طوائف من الناس ممن ليس لهم تحقيق في العلم (١) .

فقالوا أن هذه المسائل الخلافية لا حسبة فيها فردّ عليهم ابن القيم بقوله:

قولهم :" أن مسائل الخلاف لا حسبة فيها " ليس بصحيح فان الإنكار إما أن يتوجه إلى القول والفتوى أو العمل ، أما الأول فإذ كان القول يخالف سنة أو اجماعاً شائعاً وجب إنكاره اتفاقاً ، ان لم يكن كذلك فإن بيان ضعفه ومخالفته للدليل انكار مثله ، وأما العمل فإذا كان على خلاف سنة أو إجماع ، وجب إنكاره بحسب درجات الإنكار (٢) .

والسبب في إيجابه الإحتساب في المسائل الخلافية دون الإجتهادية هو أن مسائل الإجتهاد قد خفي فيها الدليل فلم يعرف الحق مع من ، أما مسائل الخلاف فإن الحق معروف وقد عرفنا كثيراً من المسائل التي إختلف فيها السلف والخلف بالأدلة التي ترجح فيها أحد القولين على الآخر فكيف نعذر عند الله يوم القيامه بعدأن بلغنا ما في المسألة من الأحاديث والآثار التي لا معارض لها ثم نترك هذه الأحاديث الثابتة تقليداً لغيرنا ولا نعدّ هذه المخالفات منكراً ولا ننكره مع أنه خلاف الحق الثابت ونص قوله رحمه الله :

والمسائل التي إختلف فيها السلف والخلف قد تيقنا صحة أحد القولين فيها كثير : مثل كون الحامل تعتدّ بوضع الحمل ، وأن أصابت الزوج الثاني شرط في حلها للأول ، وأن الغسل يجب بمجرد الإيلاج وإن لم ينزل ، وأن ربا الفضل حرام ، وأن المتعة حرام ، وأن النبيذ المسكر حرام ....

ثم يذكر عدداً كبيراً من المسائل التي تيقن صحتها في أحد القولين بعد أن اختلف فيها السلف والخلف ثم يقول :

ولهذا صرّح الأئمة بنقض حكم من حكم بخلاف كثير من هذه

---

(١) اعلام الموقعين : ٢٨٨/٣

(٢) انظر اعلام الموقعين : ٢٨٨/٣، ٢٨٩

المسائل من غير طعن منهم على من قال بها (١) .

ويتضح من أقوال ابن القيم السابقة أن المسائل التي إختلف فيها السلف والخلف نوعان أحدهما معتبر والآخر غير معتبر فالأول ما لم يثبت فيه سنة ولا إجماع أو ثبت فيه حديث ليس بظاهر عارضه حديث من جنسه فهذه مسائل خلافية إجتهادية لا يجب فيها الإنكار .

الثاني وهو الخلاف الذي لم يعتبره : وهي المسائل الخلافية التي ثبت خلافها للنص الصريح وثبت رجحان بعضها على بعض فهنا لا ينظر في الخلاف ولا فيمن خالف ويجب الإحتساب .

رابعاً : أن لا يترتب على الإنكار منكر أكبر منه ومفسدة أعظم (٢)

عرفنا أن الشريعة مبناها على مصالح العباد في المعاش والمعاد وأنها لا تخرج عن العدل أبداً فهي عدل ورحمة ومصلحة فلا يمكن أن تأمر بشيء تكون مفسدته أعظم من منفعته ، فإذا عرض للمحتسب منكر من المنكرات فوجد أن إزالة هذا المنكر تجلب منكراً ومفسدة أعظم كف عن الإحتساب لأن في إحتسابه هذا مخالفة لمقاصد الشريعة السمحة .

ومن العجب أن يغفل عن ذكر هذا الشرط كثيراً من الباحثين في أمر الحسبة وإن ذكروه ضمناً لكنهم لم يفردوه كشرط من شروط المنكر الموجب للحسبة، أما ابن القيم رحمه الله فقد أولاه عناية فائقة وهذا إن دلّ فانما يدل على فقهه ومعرفته لما بنيت عليه مقاصد الشريعة الغراء ، فقد أفاض فيه في كتابه الكبير اعلام الموقعين مدللا على ذلك بفعل النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتركهم كثيراً من المنكرات لما تسببه من مفاسد ومثل لذلك بما لا يدع للمطلع عليه شك في صحة هذا الشرط وعظيم مكانته فمن قوله رحمه الله :

أن النبي صلى الله عليه وسلم شرع لأمته إيجاب انكار المنكر ليحصل - بإنكاره - من المعروف ما يحبه الله ورسوله ، فإذا كان إنكار المنكر يستلزم ما هو أنكر منه وأبغض إلى الله ورسوله فإنه لا يسوغ إنكاره ، وإن كان الله يبغضه ويمقت أهله .

ثم أخذ يوضح ذلك بالمثال الحي الملموس على بعض المنكرات التي إذا أنكر على أهلها جلبت مفسدة ومنكر أنكر منها فقال : وهذا كالإنكار على

---

(١) انظر اعلام الموقعين : ٣/٢٨٨، ٢٨٩

(٢) لقد وافق ابن القيم شيخه شيخ الإسلام في ذلك ، انظر كتاب الحسبة في الإسلام : ص٧٦

الملوك والولاة بالخروج عليهم ، فإنه أساس كل شر وفتنه إلى آخر الدهر ، وقد استأذن الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالو : أفلا نقاتلهم ؟ فقال : (لا ، ما أقاموا الصلاة) (١) وقال : (من رأى من أميره ما يكرهه فليصبر ولا ينزعن يدا من طاعة) (٢) ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر فطلب إزالته فتولد منه ما هو أكبر منه .

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها ، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام عزم على تغيير البيت ورده على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك - مع قدرته عليه - خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم إحتمال قريش لذلك لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر (٣) .

كما أنه مثل لذلك بترك النبي صلى الله عليه وسلم إيقاع بعض الحدود في الغزو كقطع الأيدي خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من لحوق صاحبه بالمشركين حمية وغضبا وكذا الجلد في الغزو كما أمر عمر بن الخطاب وغير ذلك من الأمثلة (٤) التي تدل على تحقيق هذا الشرط وأنه من أعظم الشروط ، والله اعلم .

---

(١) سبق تخريجه قبل ص . ٤٠٢

(٢) رواه البخاري في كتاب الأحكام : ١٠٥/٨ والفتن ٨٧/٨

(٣) اعلام الموقعين : ٤/٣

(٤) انظر نفس المرجع : ٦٠٥/٣ وما بعدها .

رابعـــــاً : الإحتســـــاب

وتعنـــي بـــه فعـــل المحتســـب مـــن أجـــل إزالـــة المنكـــر وفعـــل المحتســـب هـــذا لـــه مراتـــب ودرجـــات يجـــب علـــى المحتســـب أن يراعيهـــا فـــي احتســـابه لأن الإحتســـاب يتـــوجه إلـــى القـــول والفعـــل وهـــذا ما عـــبر عنـــه ابـــن القيـــم بقـــوله :

فـإن الإنكـار إمـا أن يتوجـه إلـى القـول والفتـوى أو العمـل (١) .

ولكـل منهمـا صفـه وطريقـة فـي التغيير تختلـف عـن الأخـرى يجـب مراعاتهـا عنـد الإحتسـاب وهنـا سنبيـن مراتـب الإحتسـاب ودرجاتـه كما يراها ابـن القيـم رحمـه اللـه وسـوف تكـون الدرجات داخلـة فـي المراتـب لتعلـق بعضهـا ببعـض .

مراتـب إنكـار المنكـر

عرفنـا فيما تقدم مدى تمسك ابـن القيـم رحمـه اللـه بالكتـاب والسنـه لذلـك نراه هنا عندمـا أراد ذكـر مراتـب إنكـار المنكـر لـم يخـرج عنهمـا واتبـع فـي ذلـك سنـة المصطفـى صلـى اللـه عليـه وسلـم فـي ترتيـب الإنكـار علـى أهـل الظلـم والبـدع معتـبراً الإنكـار جهـاداً فـي سبيـل اللـه فقـال :

وأمـا جهـاد أربـاب الظلـم والبـدع والمنكـرات فـثلاث مراتـب : الأولـى باليـد إذا قـدر ، فـان عجـز انتقـل إلـى اللسـان ، فـان عجـز جاهد بقلبـه (٢) .

معتمـداً فـي ذلـك قول المصطفـى صلـى اللـه عليـه وسلـم :(من رأى منكـم منكـراً فليغـيره بيـده ، فـإن لـم يستطـع فبلسانـه فـإن لـم يستطـع فبقلبـه وذلك أضعـف الإيمـان) (٣)

فتكـون مراتـب الانكـار علـى ذلـك ثـلاث مراتـب هـي اليـد ، واللسان ، والقلب وسـوف نتحـدث عـن هـذه المراتـب بالتفصيـل مرتبـه بعـد مرتبـه .

أولاً : اليـــد

التغـيير باليـد يـدل علـى أن الإحتسـاب سلطـة شرعيـة تخـول للمحتسب استخدام القـوة من أجـل إزالـة المنكر ومـن المعلـوم أن اللـه سبحانـه وتعالـى يـزع بالسلطـان مـا لا يـزع بالقـرآن كمـا قـال عثمـان رضـي اللـه عنـه لأجـل ذلـك قـدم النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم القـوة فـي إزالـة المنكر علـى غـيرها من المراتـب ، لأنهـا الأسـرع

---

(١) اعـلام الموقعيـن : ٢٨٨/٣

(٢) زاد المعـاد : ١١/٣

(٣) رواه مسلـم كتـاب الإيمـان : ٦٩/١ رقـم ٧٨

في إزالة المنكر ليحصل بذلك المعروف الذي يحبه الله ورسوله بسرعة، وليعلم من في قلبه مرض أن المدافعين عن حق الله تعالى في دينه وشرعه قد أعطوا السلطة الرادعة فيكف عن الباطل والظلم فيقع المحبوب كما أن بعض المنكرات لا يمكن أن تزول عن الوجود إلا باليد .

واستخدام اليد في الإحتساب والإنكار نوعان :

النوع الاول : العقاب بالكسر والإتلاف والإزالة والتغيير وهذا ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

المنكرات من الأعيان والصور ، يجوز إتلاف محلها تبعاً لها ، مثل الأصنام المعبودة من دون الله ، لما كانت صورها منكره : جاز إتلاف مادتها ، فإذا كانت حجراً أو خشباً ونحو ذلك جاز تكسيرها وتحريقها ، وكذلك آلات الملاهي - كالطنبور - يجوز إتلافها عند أكثر الفقهاء .

ثم بعد ذلك نقل عدداً من الروايات عن الإمام أحمد في جواز تغيير المنكر باليد وكسر واتلاف كل منكر وأنه لا يغرم ما أتلفه أو كسره من المنكرات مما يدل على أن ابن القيم يوافق الإمام أحمد في قوله وأنه يجب على المستطيع باليد أن يقوم بالإتلاف والتغيير باليد وليس عليه غرم ما اتلفه أو كسره (١) وذلك عندما قال :

إن هذه الكتب المشتملة على الكذب والبدعة يجب إتلافها وإعدامها، وهي أولى بذلك من إتلاف آلات اللهو والمعازف ، وإتلاف آنية الخمر ، فان ضررها أعظم من ضرر هذه ، ولا ضمان فيها ، كما لا ضمان في كسر أواني الخمر وشق زقاقها (٢) .

النوع الثاني من أنواع التغيير باليد : الضرب والحبس والنفي والقتل .

هذه الأنواع وما قبلها تعتبر من العقوبات التعزيرية يجوز للمحتسب إيقاع بعضها على مرتكب المنكر حيث أن العقوبة من إختصاصه كما يقول ابن القيم بعد ذكر جملة من العقود والمعاملات المحرمة :

فعلى والي الحسبة إنكار ذلك جميعه ، والنهي عنه ، وعقوبة فاعله (٣) .

---

(١) انظر الطرق الحكمية : ٣٥٧ - ٣٥٨

(٢) نفس المرجع : ٣٦٦

(٣) نفس المرجع : ٣٢١

كما أن هذه العقوبات قد يعجز عنها متولى الحسبة فله الإستعانة بالأعوان كما يقول ابن القيم :

ومن خرج عن المشروع : ألزمه به واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والقاضي (١) .

فاذا راى المحتسب المنكر فليحاول أن يتعرف على أى هذه الزواجر أجدر بإزالة المنكر فعله حيث أن هذه العقوبات تتدرج في الهون والقوه وقد ذكر جعله منها ابن القيم رحمه الله فقال :

منه ما يكون بالتوبيخ ، وبالزجر ، وبالكلام ، ومنه ما يكون بالحبس ، ومنه ما يكون بالنفي ومنه ما يكون بالضرب (٢) ويقول : فعلى متولى الحسبة أن يأمر العامه بالصلوات الخمس في مواقيتها ، ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس (٣) .

بل انه رحمه الله يذهب إلى أعظم من ذلك في التعزير وهو القتل حيث يقول :

وأنه يسوغ بالقتل إذا لم تندفع المفسدة إلا به ، مثل قتل المفرق لجماعة المسلمين ، والداعي إلى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (٤).

إلا أن القتل ليس للمحتسب كما سترى ذلك .

ومما تقدم يتضح أن ابن القيم يوجب على المحتسب إزالة ما يستطيع إزالته باليد بأنواعه السابقه مع مراعاته الأمن من الفتنه سواء كانت الفتنه بوقوع منكر أكبر مما نهى عنه ومفسدة أعظم أو وقوع الفتنه على نفس المحتسب لقوله تعالى : ((ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكه))(٥) وقوله : ((ولا تقتلوا أنفسكم)) (٦) .

المرتبه الثانية : اللسان

إذا عجز عن التغيير باليد بسبب خوفه على نفسه أو أهله أو ماله أو خشي وقوع منكر أكبر منه أو نحوه ، انتقل إلى المرتبة الثانية وهي اللسان ويتضمن ذلك تعريف مرتكب المنكر بالمنكر الذي وقع فيه إذ كان جاهلا

---

(١) انظر الطرق الحكمية : ٣١٩

(٢) نفس المرجع : ٣٥٠

(٣) نفس المرجع : ٣١٨

(٤) نفس المرجع : ٣٥٠

(٥) الايه من سورة البقره : ١٩٥

(٦) الايه من سورة النساء : ٢٩

بـــه ، وتحـذيـره ، ونهيـــه ووعظـــه ونصحـــه وإرشـاده وهـو مـا عـــبر عنـه ابـن القيم بقـولـه : إخبـار الرجـــل عـن تفـريطـــه وتقصـــيره فـي طـاعـــة اللـه ورسـولـه وعن سبب ذلـــك ومـا آل إليـه أمـــره ، وفـي ذلـك مـن التحـذيـر والنصيحـــة وبيـان طـرق الخـــير والشـــر ومـا يـترتـــب عليهـا مـاهـو مـن أهـــم الأمـــور (١) .

مـع أن ذلـك النصـح والإيـضـاح يجـب أن يكـون باللين والتودد إذ يقول ابن القيم :

واذا أمـر بـه يـأمـــر بالمعـروف أيضـــاً لا بالعنـــف والغلظـــة (٢) .

فـإذا لـم تجـد تلـك الطريقـــة انتقـــل إلـى التوبيـخ والزجـــر والتعنيـــف كمـا قـال ابن القيـــــم :

والتعزير منـه ما يكـون بالتـوبيخ وبالـزجـــر والكـــــلام (٣) .

ومـا تقـدم يتضـــح أن هـذه المرتبـه لهـا درجـات تقتضيهـــا الحكمـــة والعقـل عند الداعيـة الرشيـــد الـذي يمثلـــه فـي هـذا المقـام المحتسـب فيبـدأ مـع المحتسـب عليـــه أولا بالتعريـف بالمنكـــر وأن مـا وقـع فيـه منكـــراً يغضـب اللـه ويستحـق عليـــه العقـــــاب فقـد يكـون جاهـــلاً بالحكـم ثـم ينهـاه عنـه ويعظـــه وينصحـــه ويخـوفـه باللـه وتورد عليـه الأخبـار الـوارده بالوعيـــد حتـى ينتهـي فـإن عجـز عـن منعـــه مـن ارتكـاب المنكـــــر انتقل الى التعنيـــف والزجـــر والســـب بحيـث لا يصـــل إلـى درجـة النهى عنـــه شرعـــاً كـأن ينسبـــه إلـى الزنـــا ونحـــوه بـــل يقـول لـه يافـاسـق ياأحمـق ياغبـي (٤) .

كمـا يجـب علـى المحتسـب فـي هـاتيـن المرتبتيـن أن يكـون ذا حلـم وصـبر وحكمـه وفقـــه ونظـــر إلـى عـواقـب الأمـور ونتـائجهـا كمـا قـال شيـخ الإسـلام :" من يريـــد أن يـأمـر وينهـى بلسـانـه وأمـا بيـده مطلقـــاً من غـير فقـــه وحلـم وصـبر ونظـــر فيمـا يصلـح مـن ذلـــك وما لا يصلـــح وما يقـدر عليـه وما لا يقـدر عليـد فيـأتـي بالأمـر والنهـي معتقـداً أنـه مطيـع فـي ذلـــك ، للـــه ولرسـولـه وهو مُعتد في حـدوده كمـا فعـل بعـــــض أهـل البـدع والأهـــواء كالخـوارج والروافـض والمعتزلـه وكـان فسـاده اعظـم من صلاحـه (٥).

درجـــات انكـــار المنكـــــر

إن مـن فقـــه المحتســب إذا أراد أن ينكـر علـى أحـد بهاتيـن المرتبتيـن وهمـــــا

---

(١) زاد المعـاد : ٥٧٣/٣

(٢) نفـس المرجـع : ١٦١/٣

(٣) الطـرق الحكميـه : ٣٥٠

(٤) انظـر إحياء علـوم الديـن : ٣٣٠/٢

(٥) انظـر الحسبـة فـي الاســـلام : ٧٥

اليد واللسان أن ينظر في هذه الدرجات التي وضعها ابن القيم رحمه الله حتى يكون احتسابه ذا ثمرة وأن ما ينتج عن إحتسابه يكون مرضياً لله عز وجل وإلا توقف وابن القيم يقسم النظر في النتائج التي يسميها درجات الإنكار أربع درجات :

الأولى : أن يزول ويخلفه ضده .

الثانية : أن يقل وإن لم يزل بجملته .

الثالثة : أن يخلفه ما هو مثله .

الرابعة : أن يخلفه ما هو شر منه .

فالدرجتان الأوليان مشروعتان والثالثة موضع اجتهاد والرابعة محرمة. وبعد أن بين الدرجات أخذ يمثل لها لتقريب الأمر إلى المحتسب ومعرفته لتقدير هذه الدرجات فقال :

فإذا رأيت أهل الفجور والفسوق يلعبون بالشطرنج كان انكارك عليهم من عدم الفقه والبصيرة إلا إذا نقلتهم منه إلى ماهو أحب إلى الله ورسوله كرمي النشاب وسباق الخيل ونحو ذلك .

وإذا رأيت الفساق قد اجتمعوا على لهو ولعب أو سماع مكاء وتصدية، فإن نقلتهم عنه إلى طاعة الله فهو المراد ، وإلا كان تركهم على ذلك خيراً من أن تفرغهم إلى ماهو أعظم من ذلك ، فكان ما هم فيه شاغلاً لهم عن ذلك ، كما إذا كان الرجل مشتغلاً بكتب المجون ونحوها وخفت من نقله عنها إنتقاله إلى كتب البدع والضلال والسحر فدعه وكتبه الأولى وهذا باب واسع.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه ونور ضريحه يقول : مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر ، فأنكر عليهم من كان معي ، فأنكرت عليه ، وقلت له : إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة ، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعهم (١) .

المرتبة الثالثة : التغيير بالقلب

إذا عجز المحتسب عن التغيير باليد واللسان لسبب من الأسباب التي ذكرناها أو لعدم القدرة إلى الوصول إلى مرتكب المنكر ونهيه انتقل إلى القلب

---

(١) انظر اعلام الموقعين : ٥/٣

وهـذه المرتبـه لا يسـع أى مسلـم يـؤمـن باللـه أن ينفـك عنهـا ، ولا يمكـن أن تخرج عـن طـاقتـه ، وذلـك بـأن يبغـض المنكـر وأهلـه ولا يستـأنـس بهـم ، ولا يصاحبهـم فمـن لـم يفعـل ذلـك ويجـده فـي قلبـه فليس فـي قلبـه مـن الإيمـان حبـة خردل كمـا بيـن ذلـك المصطفـى صلـى اللـه عليـه وسلـم (١) ويقـول عـن ذلـك شيـخ الإسـلام رحمه اللـه : " وأمـا حـب القلـب وبغضـه وإرادتـه وكراهيتـه فينبغـي أن تكـون كـاملـة جـازمـه لا يوجـب لنقـص ذلـك إلا نقـص الإيمـان ، وأمـا فعـل البـدن فهو بحسـب قـدرتـه ، ومتـى كانـت إرادة القلـب وكراهتـه كاملـة تـامـة وفعـل العبـد معها بحسـب قـدرتـه فـإنـه يعطـى ثـواب الفاعـل الكـامـل " (٢).

اختصـاصـات المحتسـب وسلطـاتـه عنـد ابـن القيـم

إذ تكلمنـا عـن اختصـاصـات المحتسـب فـإنـا نعنـي بهـا أنـواع المناكـر التي يختص المحتسـب بإزالتهـا وإحـلال الحـق والعـدل مكانهـا وقـد ذكرهـا ابـن القيـم رحمـه اللـه مجملـة ومفصلـه فأجملهـا عنـد قولـه :

وأمـا ولايـة الحسبـة فخاصتهـا الأمـر بالمعروف والنهـى عـن المنكـر فيمـا ليـس مـن خصـائـص الولاة والقضـاة وأهـل الديوان ونحوهـم (٣).

وهـذا يعنـي سعـة اختصـاصـات المحتسـب وأنهـا داخلـه فـي كـل منكـر إلا ما يختـص بـه هـؤلاء النفـر ، وأمـا عـن التفصيـل فـي اختصـاصـات المحتسـب فهـي اختصـاصـات تتعلـق بالإعتقـاد ، والعبـادات ، والمعامـلات واختصـاصـات تتعلق بأصحاب الحرف والصناعات، واختصـاصـات تتعلـق بالأضـرار العامـة والظلـم للنـاس واختصـاصات تتعلـق بالفضيلـه والآداب والأخـلاق وذلـك كلـه مـن الإختصـاصـات لأنهـا متعلقـه جميعهـا بالأمـر بالمعروف كلـه والنهـي عـن المنكـر كلـه وهـو فـي حـد ذاتـه الحسبـة .

وسـوف نتحـدث عـن هـذه الإختصـاصات في نظـر ابن القيـم رحمـه اللـه تعالـى .

أولا : الاختصـاصـات المتعلقـه بالإعتقـاد (٤)

عرفنـا فيمـا تقـدم أهميـة العقيـدة فـي حيـاة المسلـم فيجـب علـى المحتسـب أن يبـدأ احتسـابـه فـي أهـم الأمـور وهـي العقيـدة حيـث أن الحسبـة " تجـرى فـي أمـور العقيـدة فمـن أظهـر عقيـدة باطلـه أو ما ينافـي العقيـدة الإسـلاميـة الصحيحـة ، أو حرف

---

(١) انظـر حديث المصطفى في مسلـم كتاب الإيمان : ٧٠/١ رقـم الحديـث ٨٠

(٢) الحسبـة فـي الاسـلام : ٧٩

(٣) الطـرق الحكميـه : ٣١٨

(٤) انظـر ما تقدم فـي حديثنـا عـن موضـوع الدعـوة ، ٢٩و ٢٤٤ وغيرها .

النصوص أو ابتدع في الدين بدعة لا أصل لها منع من ذلك وجرت الحسبة عليه " (١) وقد أوضح شيخ الإسلام الإختصاصات العقدية التي يجب على المحتسب إنكارها فقال : " وأما الغش والتدليس في الديانات فمثل البدع المخالفة للكتاب والسنه وإجماع سلف الأمة من الأقوال والأفعال ، مثل إظهار المكاء والتصديه في مساجد المسلمين ، ومثل سب جمهور الصحابه وجمهور المسلمين أو سب أئمة المسلمين ومشايخهم وولاة أمورهم المشهورين عند عموم الأمة بالخير ، ومثل التكذيب بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم التي تلقاها أهل العلم بالقبول ، ومثل رواية الأحاديث الموضوعة المفتراه على رسول الله ، ومثل الغلو في الدين بأن ينزل البشر منزلة الإله ، ومثل تجويز الخروج عن شريعة النبي صلى الله عليه وسلم ، ومثل الإلحاد في أسماء الله وآياته وتحريف الكلم عن مواضعه، والتكذيب بقدر الله ، ومثل إظهار الخزعبلات السحرية والشعبذة الطبيعية وغيرها التي يضاهي بها الأنبياء والأولياء من المعجزات والكرامات ليصد بها عن سبيل الله أو يظن به الخير فيمن ليس من أهله وهذا باب واسع يطول وصفه ، فمن ظهر منه شيء من هذه المنكرات وجب منعه وعقوبته عليها بحسب ما جاءت به الشريعة من قتل أو جلد وغير ذلك ، وأما المحتسب فعليه أن يعزر من أظهر ذلك قولاً وفعلاً ويمنع من الإجتماع في مضان التهمة " (٢)

وقد عدد ابن القيم كثيراً من الإعتقادات الباطله والتي يجب محاربتها وعدها في الكبائر فقال :

القول على الله بلا علم في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وحدود ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ، واعتقاد أن كلامه وكلام رسوله لا يستفاد منه يقين أصلا ، وترك ما جاء به لمجرد قول غيره ، وتقديم خوف الخلق على خوف الخالق ، ومحبته على محبة الخالق ، ورجائه .

وغير ذلك من الإعتقادات الباطلة التي يجب على المحتسب محاربتها ودحضها فإنها كبائر قد تخرج من الملة وإذا أردنا الحديث عن ابن القيم ومحاربته للبدع والخرافات الإعتقادية وما بذله من جهد عظيم حسبة لله عز وجل وما أصابه من كيد الحاقدين الضالين بسبب ذلك لطال المقام لكثرة ما كتبه رحمه الله عن ذلك فإنه اساس الملة فلا يقبل عمل مالم يصحح الإنسان اعتقاده

---

(١) اصول الدعوة عبدالكريم زيدان : ١٨٢

(٢) الحسبة في الاسلام : ٤٩

في الله عز وجل ، ولكنا سوف نعرض جانباً من جوانب هذا الموضوع كمثال على حسبة ابن القيم العمليه ومجاهدته في سبيل سلامة العقيده وحمايتها من الشرك وشوائبه .

احتسابه على بدع القبور

إن من أوجب ما يجب على الدعاة والمحتسبين هو محاربة هذه الكارثه التي بلي بها المسلمون قديماً وحديثاً ولم يسلم منها إلا من رحم الله تعالى وهي بدع القبور التي تتدرج في مراحل تصل أعلاها الى درجة الشرك الأكبر أعظم ذنب عصي الله جل جلاله به وقال عنه : ((ان الله لا يغفرُ أن يُشركَ به ويغفرُ ما دون ذلك لمن يشاء)) (١) فحري بالعاقل ممن ينتسب إلى هذه الملة ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ، أن يجعله من أهم ما يدعوإليه ويحتسب عليه لما فيه من رضى الله سبحانه وخير يعم الداعي والمدعو على السواء وفك لرقاب كثير من المسلمين من تولى الشيطان لهم ، ومن ثمّ عذاب الله الذي لا يقوى عليه البشر .

والحق أن هذه البدعه المحرمه مازالت تحيط بأعناق الكثير ممن ينتسب إلى هذا الدين إلا أنها تزيد في بقعة دون أخرى وفي زمن دون آخر وذلك راجع إلى رحمة الله سبحانه أولاً ثم إلى جهود الدعاة والمحتسبين المخلصين لله تعالى العاملين العاملين ، فإن الدين لا يقوم بنفسه ولا تنتشر قوانينه في الأرض بنفسها بل لابدّ من المحرك ، العارض المبين ، لمزاياه حتى يفوق في صورته ونظامه وما يتمتع به من سمو في المبادىء والمعتقدات ، كل الأنظمة الارضية مما يجعل العاقل يتبدل به كل تلك الأنظمة ولا يتعداه ، فإذا تصوره هذا المدعو بالصورة التي أرادها المشّرع كان عضواً آخراً محركاً لهذا الدين فيعم الصلاح المطلوب ، إذاً لابدّ من الدعاة المخلصين العارفين بنور الله .

والناظر في تاريخ هذه الأمه وما جرى عليها من جراء هذه البدعه وكيف أن الله سبحانه وتعالى يقيض لها عبداً من عباده المخلصين فيقمعها بنور الله ، وكيف يعم التوحيد والإيمان هذه البقعة بعد أن كانت تروج بهذه البدعه السوء عرف ما قدمناه سابقاً من أن الدعوة لا بدّ لها من محرك مخلص يرفع أعلامها وشعائرها في الأرض وأن سبب انتشار البدعه عائد إلى خمول الدعاة العارفين المخلصين .

---

(١) الاية من سورة النساء : ٤٨

وابن القيم رحمه الله تعالى هو أحد أعلام هذه الأمه الذين تجردوا لحماية هذا الدين من البدع وقمعها ونشر رآية التوحيد في الأرض مترسما خطى شيخه شيخ الإسلام ابن تيميه الذي كان مثلا رائعا له في حياته العلمية والعملية ، وقد كانت لجهودهما في هذا المجال بركة سارت في الأمة الإسلاميه إلى وقتنا الحاضر .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله بعض الأمثلة لاحتساب شيخه العلمية في البدع التي وصلت إلى درجة الإزالة باليد وهي اعلى مراتب إزالة المنكر فقال رحمه الله بعد أن ذكر أنواعا من البدع من سرج وقباب وعيون وشجر وعُمُد وحجر يتبرك بها ويعظمونها ويرجون الشفاء منها وقضاء الحوائج وغير ذلك من الشركيات وذكر أماكنها فقال :

وقد كان بدمشق كثير من هذه الأنصاب فيسر الله سبحانه كسرها على يد شيخ الإسلام وحزب الله الموحدين ، كالعامود المخلق (١) ، والنصب (٢) الذي كان بمسجد النارنج عند المصلى يعبده الجهال والنصب الذي كان تحت الطاحون ، الذي عند مقابر النصارى ، ينتابه الناس للتبرك به ، وكان صورة صنم في نهر القلوط فينذرون له ويتبركون به ، وقطع الله سبحانه النصب الذي كان عند الرحبة يسرج عنده ويتبرك به المشركون ، وكان عمدا طويلا على رأسه حجر كالكرة ، وعند مسجد درب الحجر نصب قد بني عليه مسجد صغير يعبده المشركون يسّر الله كسره (٣) .

إن هذا العمل من شيخ الإسلام وحزبه وما ذكره ابن القيم رحمه الله غيض من فيض مما كانت تعج به البلاد الإسلاميه ، من البدع المهلكه والاعمال المخزيه التي تعمل عند هذه المبتدعات وقد صور ابن القيم رحمه الله صورا مخزيه يتعجب المؤمن بالله كيف أنها تصدر من إنسان ينتسب إلى الإسلام وهي من واقع ما رآه ابن القيم في عصره تصور لك صورا كأنك تراها من

---

(١) العامود المخلق وهي أعمدة وحيطان يزين الشيطان للعامة تخليقها ووضع الخرق عليها وسرجها إذا حكى لهم حاك أنه رأى في منامه من اشتهر بالصلاح فيحافظون عليه إلى أن يعظم ، الإغاثة ١/٢١١

(٢) الانصاب كما عرفها ابن القيم : كل ما نصب يعبد من دون الله : من حجر أو شجر ، أو وثن ، أو قبر وهي جمع وواحدها نصب ، كطُنُبُ واطناب انظر اغاثة اللهفان : ٢٠٧/١

(٣) اغاثة اللهفان : ٢١٢

حال أولئك الذين تربع الشيطان على أكتافهم وأخذ يسوقهم كما يسوق الراعي نعمه ، ويسلك بهم سبله ، وهم مقبلين على هذه المبتدعات ، يرون فيها الهمهم ومنجيهم ورازقهم ومدخلهم فردوس ربهم الأعلى فيقول عن عُبّاد القبور وعبادها :

فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيدا ، وقد نزلوا عن الأكوار ، والدواب إذا رأوها من مكان بعيد ، فوضعوا لها الجباه ، وقبلوا الأرض وكشفوا الرؤوس ، وارتفعت أصواتهم بالضجيج ، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج ، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج ، فاستغاثوا بمن لا يبدي ولا يعيد ، ونادوا ولكن من مكان بعيد ، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين ، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين ، فتراهم حول القبر ركعا سجدا يبتغون فضلا من الميت ورضوانا ، وقد ملئوا أكفهم خيبة وخسرانا ، فلغير الله ، بل للشيطان ما يراق هناك من العبرات ، ويرتفع من الأصوات ، ويطلب من الميت من الحاجات ويسأل من تفريج الكربات ، واغناء ذوى الفاقات ، ومعافات أولي العاهات والبليات ، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين ، تشبيها له بالبيت الحرام ، الذي جعله الله مباركا وهدى للعالمين ، ثم أخذوا في التقبيل والإستلام ، أرايت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام ، ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود ، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق ، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق ، وقربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقرباتهم لغير الله رب العالمين ، فلو رأيتهم يهنىء بعضهم بعضا ، ويقول : أجزل الله لنا ولكم أجرا وافرا وحظا ، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحج المتخلف إلى البيت الحرام ، فيقول : لا ، ولو بحجك كل عام (١) .

ثم يبدأ ابن القيم بعد ذلك ببيان أن هذه اللوحة الأدبيه وهذا التصوير لحالة أولئك الجهال الضالين ليست من باب التصوير الأدبي والتهويل وذم القوم بتجاوز الحد والكذب ، بل يقول :

هذا ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم ، ولا استقصينا جميع بدعهم وضلالهم : إذ هي فوق ما يخطر بالبال ، أو يدور في الخيال وهذا كان مبدأ عبادة الأصنام

---

(١) اغاثة اللهفان : ١٩٤/١

في قوم نوح (١) .

إن هذه الصورة القاتمة التي كانت تعج بها الحياة في عصر ابن القيم ، لن تدع مثله يقف أمام هذه المنكرات مكتوف الأيدى محبوس اللسان ، وهو تلميذ شيخ الإسلام قامع البدعة ناشر السنة والذي تأثر به أيما تأثر وارتوى من معين علمه المحمدي ، واكتسب منه الشجاعة في الحق بعد أن شاركه في كثير من مهماته في الإحتساب مما أدى إلى سجنه مع شيخه في قلعة دمشق إذ يقول تلميذه ابن كثير : " وفي يوم الأربعاء منتصف شعبان أمر قاضى القضاة الشافعي في حبس جماعة من أصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم ، وعزر جماعة منهم على الدواب ونودي عليهم ثم اطلقوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزية فإنه حبس بالقلعة " (٢) .

ثم قال في حوادث ٧٢٨هـ عن الإفراج عنه " وفي يوم الثلاثاء عشرين ذى الحجة أفرج عن الشيخ الإمام العالم ابي عبدالله شمس الدين ابن قيم الجوزية ، وكان معتقلاً بالقلعة أيضاً من بعد اعتقال الشيخ تقي الدين بأيام من شعبان سنة ست وعشرين إلى هذا الحين " (٣) .

لقد امضى رحمه الله في سجنه مدة سنتين واربعة أشهر وأيام وذلك لأنه ينكر شد الرحال لمجرد زيارة القبور ، ومن الملاحظ أن كل من سجن معه أطلق من سجنه سواه وشيخه رحمهما الله وذلك يدلّ على توليهم زمام الأمور وتحريضهم عليه بلا خوف ولا رهبة ولا خضوع إلا لله وحده فكان ما كان من أمرهما ، ولا اعتقد أن عاقلا يرتاب في مشاركة ابن القيم لشيخه في الحسبة العملية .

منهجه في الإنكار على بدع القبور :

لقد سلك ابن القيم مع هذا المنكر العظيم الذي بعث الله سبحانه الرسل عليهم السلام من أجل إزالته واحلال التوحيد مكانه جميع سبل الإحتساب عليها سواء كان ذلك بأعلى المراتب وهي اليد أو اللسان أو الدفع لهما وهو بالقلب الذي لا نشك في إنكاره لهما بإذن الله .

---

(١) اغاثة اللهفان : ١٩٤/١

(٢) انظر البداية والنهاية : ١٢٣/١٤

(٣) نفس المرجع : ١٤٠/١٤

أما عن المرتبة الأولى وهي اليد :

فقد ذكرنا سابقاً أن ابن القيم قد شارك شيخه في إزالة الكثير من البدع والأنصاب وكان هذا هو نفسه توجيهه رحمه الله للأمة حيث يقول :

فهدم القباب والبناء والمساجد التي بنيت عليها - (١) - أولى وأحرى لأنه - عليه الصلاة والسلام - لعن متخذي المساجد عليها ، ونهى عن البناء عليها ، فيجب المبادرة ، والمساعدة إلى هدم ما لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعله ، ونهى عنه ، والله عز وجل يقيم لدينه وسنة رسوله من ينصرهما ويذب عنهما فهو أشد غيره واسرع تغييراً ، وكذلك يجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر ، وطفيه فإن فاعل ذلك ملعون بلعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يصح هذا الوقف ، ولا يحل اثباته وتنفيذه قال الإمام ابو بكر الطرطوشي : انظرو رحمكم الله اينما وجدتم سدره ، أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ، ويرجون المبرة والشفاء من قبلها ، ويضربون بها المسامير والخرق فهي ذات انواط فاقطعوها (٢) .

هذا توجيه ابن القيم للأمه اذا رأت المنكر وهو الفعل والإحتساب عليه بالإزالة باليد فوراً وأن الله ناصره ورافع شأنه .

كما أننا نقتبس من بعض كلامه أنه يزيل المنكر إذا رآه بيده وحاول أن يستعين بحزب الله على إزالة المنكر بالقوة طاعة لله ولرسوله كما قال :

ومن أعظم المنكرات : تمكينهم من اقامة هذا الشعار الملعون هو وأهله - (٢١) - في المسجد الأقصى ، عشية عرفة ، ويقيمون ايضا في مسجد الخيف أيام منى ، وقد أخرجناهم منه بالضرب والنفي مراراً ، ورأيتهم يقيمونه بالمسجد الحرام نفسه ، والناس في الطواف ، فاستدعيت حزب الله وفرقنا شملهم ثم يقول : فإقرار هذه الطائفة على ذلك فسق يقدح في عدالة من أقرهم ومنصبه الديني (٣) .

اذاً فابن القيم استخدم أعلى مراتب الاحتساب في إزالة المنكر ، كما يفيدنا هذا النص أن للمحتسب المتطوع أن يزيل المنكر باليد إذا استطاع ، وأن له أن يستعين بأهل الخير إن استطاع من أجل إزالة المنكر ، كما أن اقرار عامة الناس على المنكر وعدم إزالته من قبل علماء الدين يعتبر فقداً منهم وتدهوراً في

---

(١) اى المصدر

(٢) اغاثة اللهفان : ٢١٠/١

(٢١) يقصد الغزاة

(٣) نفس المرجع : ٢٣١/١

عدالتهم ومناصبهم الدينية ، وهذا كما علمنا سابقاً مشروط بالاستطاعة وعدم اثارة منكر أكبر منه ، لأن يقول :

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب ، الأولى : باليد اذا قدر ، فان عجز انتقل الى اللسان ، فان عجز ، جاهدهم بقلبه (١) إذاً فابن القيم قام بالاحتساب على مرتكبي المنكر باليد .

ثانياً : اللسان

اذا أردت أن تعرف احتساب ابن القيم على مرتكبي المنكر بلسانه فاعلم أنه كان صارماً مسلولاً على كل مبتدع ومخالف لما جاء عن الرسول ينزل على رؤوسهم كالصواعق ، يلجمهم الحُجة ويبين لهم المحَجّة بقال الله وقال رسوله ، في مجتمع قد تدنى مستواه الفكري ، واستولت عليه الاوهام واحاطت به البدع وهو يحاول أن ينتشلهم من بؤرة الضلال ويردهم الى ما كان عليه السلف الصالح .

فكانت حجةً دامغة لكل حجة ، ومفندة لكل شبهة ، ثم بعد ذلك تأتي سنة الله فيما أسماهم بالملأ الذين وقفوا يجابهون الدعاة بكل ماأوتوا من قوة ليسكتوهم كما ذكر الله ذلك في كتابه العظيم وما فعله الملأ مع رسله عليهم أفضل الصلاة والتسليم من الاتهام بالتهم الباطلة ونسبتهم الى القبيح حتى يقتل أو يسجن أو ينفى من الارض ، وما ذلك الا حيلة عاجز .

واستمرت هذه السنة مع الدعاة الى وقتنا الحاضر ، وابن القيم ، أحد أفراد سلسلة الدعاة الذين جرت عليهم هذه السنة ، مع أنه عارفاً بذلك وهو الذي يوجه الدعاة دائماً في كتاباته بأنهم سيقفون في صف وضلال الأمة في صف ضده ، وقد وصف رحمه الله حال المبتدعة مع الدعاة الذين تمسكوا بالسنة وكيف رموهم بالعظائم والضلال من أجل تمسكهم بما شرع الله سبحانه وتعالى وكل ذلك بأمر عدو الله وعدوهم ، وبين كيف أن الشيطان استطاع أن يتولاهم ويجعلهم عبيداً له من دون الله وكيف حولهم اعداءً لله ولأوليائه فقال :

الشيطان ينصب لأهل الشرك قبراً معظماً يعظمه الناس ، ثم يجعله وثناً يعبد من دون الله ، ثم يوحي الى أوليائه : أن من نهى عن عبادته، واتخاذه عبداً ، وجعله وثناً فقد تنقصه ، وهظم حقه ، فيسعى الجاهلون المشركون

---

(١) زاد المعاد : ١١/٣

في قتله ، وعقوبته ويكفرونه ، وذنبه : أمره بما أمر الله به ونهيه عما نهى الله عنه ورسوله : من جعله وثنا وعيدا وغير ذلك من تقبيل وسرج ودعاء مما قد علم بالاضطرار من دين الاسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله : من تجريد التوحيد ، فاذا نهى الموحد عن ذلك غضب المشركون واشمأزت قلوبهم ، وقالوا قد تنقص أهل الرتب العاليه وسرى ذلك في نفوس الجهال والطغام ، وكثير ممن ينسب الى العلم والدين حتى عادوا أهل التوحيد ورموهم بالعظائم ، ونفروا الناس عنهم (١) .

ثم بعد ذلك يوجه الدعاة والمسلمين عامة أن الشبهة التي تدور في خلد الجاهلين من المبتدعة والتي يعمون فيها على الضعفاء من المسلمين والعامه في أن من نهى عن التقرب لقبور الانبياء والصالحين ، وتعظيمها ، وسؤالها والتبرك بها ، ودعى الى نبذ كل ما يعمل عندها ولها وأمر بتخريبها وتسويتها حسب أوامر الشرع فانه مبغض لأصحابها ، متنقص لها ، فهو عدو لله ولاصحابها ، مما قد يدخل في قلوب البعض فيعتقد أنه حق فلذلك ينبه الأمة بقوله :

فلا تحسب أيها المنعم عليه باتباع صراط الله المستقيم : أن النهي عن اتخاذ القبور انصابا ، وأوثانا ، واعيادا والنهي عن اتخاذها مساجد وايقاد السرج عليها ، والسفر اليها ، والنذر لها وغير ذلك غض من اصحابها ، ولا تنقص كما يدعيه أهل البدع بل النهي عن ذلك من اكرامهم وتعظيمهم ومحبتهم ومتابعتهم فيما يحبونه وهم أعصى الناس لهم وأبعد عن هديهم ، كالنصارى مع المسيح ، والرافضة مع علي ، فاعلم أن القلوب اذا اشتغلت بالبدع أعرضت عن السنن وهم مشتغلين بغيره عما أمر به ودعا إليه ، وتعظيمهم إنما هو باتباع ما دعوا اليه من العلم النافع ، والعمل الصالح ، فان من اقتفى أثرهم كان متسببا لتكثير أجورهم باتباعه لهم ، ودعوة الناس إلى اتباعهم ، فاذا اشتغل بضده حرم نفسه وحرمه ذلك الأجر ، فأينا المعظم لهم ، وإنما اشتغل كثير من الناس بأنواع من العبادات المبتدعة لاعراضهم عن المشروع أو بعضه ، والا فمن اقبل على الصلوات بقلبه ووجهه عارفا ما اشتملت عليه من الكلم الطيب مهتما بها كل الاهتمام ، اغنته عن الشرك ، ومن اصغى إلى كلام الله وتدبره أغناه عن السماع الشيطاني فالمعرض عن التوحيد مشرك شاء أم أبى ، والمعرض عن السنة مبتدع ، والمعرض

---

(١) انظر اغاثة اللهفان : ٢١٣/١

عن محبة الله عبد الصور (١) .

ان هذا التوجيه توجيه عارف مجرب ، فقد نشأ في مجتمع قد ابتعد عن الحق فتمسك بالبدع والاهواء وأغلق الباب امام الحق وفتحه أمام هوى النفس وما وجد عليه الأباء والاجداد ، بل قاموا بشن حملات ضاريه ليسكتوا صوته ودعوته التي أزعجت افئدتهم وأخذت تقلب على البعض الحقائق الراسخة في أذهانهم جهلا وقلّب على أهل الشهوات أطماعهم من حبّ رئاسة ومال وما شابه ذلك من مغريات الدنيا ، فلم يجدوا الى اسكاته سبيلا فانقلبوا الى قوة الباطل والأذى المادىّ والمعنوي وذلك عندما أشهر بعض فتاويه في العقائد والفقه مما كان الناس قد أطبقوا على خلاف ما جاء في فتاويه الا البعض اليسير ومن هذه الفتاوي كمسألة الطلاق الثلاثة بلفظ واحد (٢) وفتواه بجواز المسابقة بغير محلل (٣) ثم جاء انكاره على من جعل شد الرحال الى قبور الانبياء والصالحين قربة يتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى مثل شد الرحال الى قبر الخليل عليه السلام أو قبر المصطفى صلى الله عليه وسلم وغيرهم منكر يجب محاربته فأنكره " ونعى على معاصريه عامتهم وخاصتهم وبين أن شد الرحال لها من الأمور المنكره

---

(١) اغاثة اللهفان بتصرف : ٢١٤/١

(٢) انظر بسط ابن القيم لهذه المسألة في اغاثة اللهفان : ٢٨٣/١ واعلام الموقعين ٣٠/٣ وزاد المعاد : ٢٤١/٥ ، تابع ابن القيم شيخه شيخ الاسلام في فتواه بأن الطلاق الثلاث بلفظ واحد يعتبر واحده وتصدى للفتيا بها وعامة الناس في ذلك الوقت مطبقون على أن الثلاثة طلقات بلفظ واحد يعتبر ثلاثا .

(٣) قال ابن كثير في حوادث ٧٤٦هـ بعد كمال مسجد المزه الذي كان يخطب فيه ابن كثير أنه وقع فيه كلام وبحث في اشتراط المحلل في المسابقه ، وكان سببه أن الشيخ شمس الدين ابن قيم الجوزية صنف فيه مصنفا قبل ذلك ونصر فيه ما ذهب اليه الشيخ تقي الدين بن تيمية في ذلك ، ثم صار يفتي به جماعة من الترك ولا يعزوه الى الشيخ تقي الدين فاعتقد من اعتقد أنه قوله وهو مخالف للأئمة الاربعة فحصل عليه انكار في ذلك، البدايه والنهايه٢١٦/١٤ اتفق العلماء على جواز الرهان في المسابقه على الخيل والسهام واختلفوا : في باذل المال هل يجوز من واحد أو منهما أو من اجنبي ومن يأخذ المال من المتسابقين فذهب الامام أحمد وابو حنيفه والشافعي الى أن الباذل يجوز أن يكون من المتعاقدين أو من أحدهما أو من أجنبي ولكن أن كان الرهن منهما فلابدّ من دخول أجنبي محلل حتى لا يكون ، قمار ولا يدفع الدخل شيء. وللامام مالك رواية يتابعهم فيها وخالفهم في عود السبق فان سبق المخرج وهم اثنان كان السبق طعم لمن حضر وان كانوا ثلاثه فالسبق لمن يليه ، واما ابن القيم فيقول أن هذا مذهب تلقاه الناس عن سعيد بن المسيب ولم يحفظ عن الصحابه مع كثرة تناضلهم ورهانهم ، وان الايات القرآنيه تأمر بالوفاء بالعقود ==

في الدين والبدع المخالفة للصراط المستقيم فأحدث ذلك صراعا عجيبا أوذى وسجن بسببه " (١) هو وشيخه وجماعه من اصحاب تقي الدين بن تيمية كما نقل ابن كثير في حوادث ٧٢٦هـ في شهر شعبان قال :" وفي يوم الجمعة عاشر الشهر المذكور قرئ بجامع دمشق الكتاب السلطاني الوارد باعتقاله (أي شيخ الإسلام) ومنعه من الفتيا ، وهذه الواقعة سببها فتيا وجدت بخطه في السفر وأعمال المطى الى زيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة ، والسلام ، وقبور الصالحين ، قال : وفي يوم الاربعاء منتصف شعبان أمر قاضي القضاة الشافعي في حبس جماعة من اصحاب الشيخ تقي الدين في سجن الحكم ، وذلك بمرسوم نائب السلطنه واذنه فيه ، فيما تقتضيه الشريعة في أمرهم !!! ، وعزر جماعة منهم على الدواب ونودي عليهم ثم اطلقوا سوى شمس الدين محمد بن قيم الجوزيه فانه حبس بالقلعه " (٢) وفي ذلك يقول ابن رجب " وقد حبس مدة لانكساره شد الرحال الى قبر الخليل " (٣) ومن هنا تبين أن ابن القيم لقي العناء والأذى والسجن بسبب إنكاره باللسان على كل مبتدع خالف ما جاء به المصطفى صلى الله عليه وسلم التي كانت تتضح في فتاويه المخالفه لما تعارف عليه الناس واطبقوا على أنه الحق ، وهو يرى أنه مخالف لما جاء عن رسوله صلى الله عليه وسلم صارفا النظر عن إطباقهم على هذا القول أو أنه رأى فلانا من الأئمة أو الأولياء فإن الحق فيما جاء عن الله ورسوله فقط إن كان موجودا ، والا فان أتباع الصحابه أولى بالأخذ كما سبق وأن عرفناه في أصوله التي اعتمدها في الفتيا .

ثالثا : الكتابة

وهي المعبر الوحيد عن آرائه وأفكاره الذي ما زال بايدينا وهي التي تصور لنا انعكاسات نفسه وتفكيره ، فتقع منه في حين تفكر ورويه ، ومراجعة ، وأطلاع فيبلغ عادة الذروة فيصل الينا وقد كمل من جميع جوانبه يتلقفه الاجيال جيلا بعد جيل .

وكتبه زاخرة في انكار المنكرات ، وايضاح شبهها ، وتفنيدها ، وبيان مذهب السلف الذي كان يحاول أن يرد الأمة الى ماكانوا عليه .

== وان النبي صلى الله عليه وسلم اطلق جواز اخذ السبق في الخف والحافر والنصل فلو كان المحلل شرط لذكره ان كان حراما أو قمار ولا ثبت شرط المحلل بنص، ولا ايماء ، ولا تنبيه، ولا بنقل عنه، ولا عن اصحابه ولا في قضية واحدة، فهو يجيز المسابقه بين الاثنين بجعل بينهما بدون محلل، انظر بسط هذه المسأله بادلتها في كتاب الفروسيه ص ٢٠ وما بعدها .

(١) ابن قيم الجوزيه حياته وآثاره ص ٤٣ . (٢) البدايه والنهايه : ١٢٣/١٤

(٣) ذيل طبقات الحنابله : ٤٤٨/٤

الا أننا هنا بصدد منكر من المنكرات التي تصدى لها ابن القيم بالنكير ، وجاهد فيها من أجل توعية الامة وأن ذلك مخالف لما شرعه الله سبحانه وتعالى ، وأنه خطر داهم الامة ان لم يرجعوا فإنه مؤذن بهلاكهم في الدنيا والأخرة كما يقول :

أعظم مكايد الشيطان التي كاد بها الناس وما نجا منها الا من لم يرد الله فتنته : ما أوحاه قديماً وحديثاً الى حزبه وأوليائه من الفتنة بالقبور حتى آل الأمر الى أن عبد أربابها من دون الله (١) .

ويقول رحمه الله : ان في اتخاذ القبور اعياداً من المفاسد العظيمة التي لا يعلمها إلا الله ، ما يغضب لاجله كل من في قلبه وقار لله تعالى ، وغيرة على التوحيد ، وتهجين وتقبيح للشرك - ولكن ما لجرح بميت ايلامُ - (٢) .

ان هذه النصوص تدل على مدى تصور ابن القيم لجسامة الأمر وعظيم بلائه وسعة انتشاره وهذا الاخير مما يجعل الكثير من الدعاة ومن ينتسبون الى الاسلام لا يتصورون الأمر كما تصوره هو فهؤلاء ليس في قلبهم وقار لله تعالى ولا غيرة على التوحيد ولا تهجين للشرك وتقبيح فهو اذاً ميت والميت لا يتصور ما يتصوره الاحياء بنور الله وما جاء عنه وعن رسوله فهو غارق فيما غرقوا فيه .

من أجل ذلك رفع علم الجهاد وليحي تلك القلوب بنور الله فبرزت جهوده في النكير على هذه الضلالة التي اكتنفها من جوانبها وبدأ يرميها بسهام الكتاب والسنة حتى استبان الحق لطالبه .

ولو أردت أن أذكر جميع ما ذكره ابن القيم في كتبه عن جوانب هذا الموضوع لاحتاج الأمر الى كتابة بحث بمفرده

ولكن سوف نتطرق إلى بعض سلسلة الافكار التي عالجها ابن القيم حيال هذا الموضوع.

فقد بين رحمه الله عظمة الرب تبارك وتعالى وأنه المنفرد بالكمال في الصفات والأفعال والأسماء وأنه ليس كمثله شيء ، وأنه أحد في كل شيء ، فكيف يتجرأ هذا المخلوق الضعيف الذي يقع تحت ارادته وتصرفه بالتنقص من عظمته في أبغض شيء اليه وهو الذي لم يبعث رسله الا من أجل تحقيق لا اله الا الله التي تتضمن نفي العبادة عمن سواه ، واثباتها له وحده ، وهي محض حقه على جميع العباد ، وبها ينقسم الناس الى شقي وسعيد ، فهل عرفت معنى تحقيقها يامن تدعي ذلك:إن تحقيقها يكمن في أفراد الرب تبارك وتعالى بالمحبة والاجلال

---

(١) اغاثة اللهفان : ١٨٢/١

(٢) نفس المرجع : ١١٣

والتعظيم ، والخوف والرجاء وتوابع ذلك : من التوكل والانابة ، والرغبة ، والرهبة ، فلا يحب سواه ، ولايخاف سواه ، ولا يرجى سواه ، ولا يتوكل الا عليه ولا يرغب إلا اليه ، ولا يرهب إلا منه ولا يحلف إلا باسمه ، ولا ينذر إلا له ، ولا يتاب الا اليه ، ولا يطاع الا أمره ، ولا يتحسَّبُ الا به ، ولا يستغاث في الشدائد إلا به، ولا يلجأ إلا اليه ، ولا يسجد إلا له ولا يذبح الا له وبأسمه (١) فهل أنتم ياعباد القبور حققتم معنى الشهادة .

وقد بين رحمه الله أن الناس خلقوا حنفاء وهو الراجح من أقوال العلماء والذي رجحه ابن القيم (٢) فهؤلاء القبوريون ولدوا على فطرة الاسلام ولكن الشياطين اجتالتهم بلطف كيدهم كما فعلوا مع قوم نوح (٣) كما يقول ابن القيم :

أن الشيطان بلطف كيده يحسن الدعاء عند القبر ، وأنه أرجح منه في بيته، ومسجده ، وأوقات الاسحار ، فاذا تقرر ذلك عنده انتقل إلى مرحلة أخرى : من الدعاء عنده الى الدعاء به ، والاقسام على الله به ، وهذا أعظم من الذي قبله ، فاذا قرر الشيطان عنده أن الاقسام على الله به ، والدعاء به أبلغ في تعظيمه وأحترامه نقله درجة أخرى الى دعائه نفسه من دون الله ثم ينقله بعد ذلك درجة أخرى الى أن يتخذ قبره وثنا ، يعكف عليه ويوقد عليه القنديل ، ويعلق عليه الستور ، ويبني عليه المسجد ، ويعبده بالسجود له والطواف به وتقبيله واستلامه ، والحج إليه ، والذبح عنده ثم ينقله درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدا ومنسكا وأن ذلك أنفع لهم في دينهم وآخرتهم (٤). حتى يصل في النهاية إلى عبادته من دون الله ، ثم يأتي خلفهم فيفعلون فعلهم ويدعون أنهم متبعون لابائهم يقول ابن القيم :

وأخبر سبحانه عن أولياء الشيطان أنهم اذا فعلوا فاحشة احتجوا بتقليد اسلافهم ، وزعموا أن الله أمر بها ، فاتبعوا الظن الكاذب والهوى الباطل (٥)

---

(١) انظر فيما تقدم ص ٣٢ عند حديثنا عن أركان الاسلام .

(٢) انظر في ذلك اغاثة اللهفان : ١٠٥/١ و ١٥٧/٢ و ١٠٤/٢

(٣) لقد ذكر ابن القيم كيف أن الشيطان استطاع أن يستعبد الانسان بطريقة لطيفه من ندبه الى تصوير الصالحين ثم تعظيم قبورهم وتدرج الامر الى أن عبد اصحابها من دون الله وذلك مبدأه قوم نوح ثم ذكر كيف انتقلت عبادتها وعبادة الاصنام الى العرب وطريقة عبادتهم واصنامهم كما ذكر عباداتالهنود واصنافها وذكر عباد الشمس والقمر والكواكب فوضع الصنم انما كان في الاصل على شكل معبود غائب فجعلوا الصنم على شكله وهيئته وصورته ليكون نائبا منابه وقائما مقامه، انظر اغاثة اللهفان ٢٢٤/٢وانظر ١٨٣/١

(٤) انظر اغاثة اللهفان : ٢١٦/١ ، ٢١٧

(٥) تفسير الرحمن : ١٥٦/٢

وهو يقرر دائما أن الشياطين أول ما يكيدون به بني آدم من جهة تعظيم القبور(١) من أجل ذلك ذكر رحمه الله حماية النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الجانب(٢) فقال : لعن النبي صلى الله عليه وسلم المتخذين على القبور المساجد والسرج، ونهى عن الصلاة الى القبور ، وسأل ربه سبحانه أن لا يجعل قبره وثنا يعبد ، ونهى أمته أن يتخذوا قبره عيدا وقال : (أشتدّ غضب الله على قوم اتخذوا قبور انبيائهم مساجد)(٣) وأمر بتسوية القبور وطمس التماثيل (٤) .

وذكر رحمه الله الأحاديث الواردة في نهيه صلى الله عليه وسلم عن القبور وتعظيمها أو الصلاة عندها واليها ، ثم قال :

فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه ، وفهم عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، مقاصده جزم جزما لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن والنهي بصيغتيه : صيغة (لا تفعلوا) وصيغة (اني أنهاكم) ليست لأجل النجاسة ، بل هي لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه ، وارتكب ما عنه نهاه ، واتبع هواه، وقل نصيبه أو عدم ، في تحقيق شهادة أن لا اله الا الله ، فإن هذا وأمثاله من النبي صلى الله عليه وسلم صيانه لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك أو يغشاه وتجريد له ، وغضب لربه أن يعدل به سواه (٥) .

فاذا كان قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل قبر على وجه الأرض وقد نهى عن اتخاذه عيدا ، فقبر غيره أولى بالنهي كائنا من كان .

وبين رحمه الله أن النهي عن هذه البدع التي تعمل عند القبور من تعظيم وتشريف وتجصيص ، وتسريج ولعن فاعلها والنهي عن اتخاذها أعيادا وعن شدّ الرحال اليها لئلا يكون ذلك ذريعة الى اتخاذها أوثانا والاشراك بها ، وحرم ذلك على من قصد ومن لم يقصده بل قصده خلافه سدا للذرائع (٦) .

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أمثلة كثيرة دالة على أن الله سبحانه وتعالى اغنانا بما شرعه لنا من الحنيفية السمحة عن طريق البدع والمكر والحيل مما لا يحيجنا الى طرق الباطل المحرم فلا تشتد حاجة الأمة الى شيء الا وفيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ما يقتضي اباحته وتوسعته بحيث لا يحوجهم

---

(١) انظر اغاثة اللهفان : ٢٠٥/٢
(٢) انظر بسط ذلك في نفس المرجع : ١٨٥/١ و ١٩١/١
(٣) مسند الامام أحمد : ١٩٥/١
(٤) اغاثة اللهفان : ٢٢٢/٢
(٥) نفس المرجع : ١٨٩/١
(٦) اعلام الموقعين : ١٣٩/٣

الى غيره ولا يلزمهم الاصار والاغلال فأغنانا بأعياد الاسلام عن أعياد الكفار والمشركين من أهل الكتاب والمشركين والمجوس والصابئين وعباد الاصنام .

واغنانا بوجوه التجارة والمكاسب الحلال عن الربا والميسر ، والقمار، واغنانا بالاشربة اللذيذة المفيدة عن الاشربة الخبيثه المسكره .

واغنانا عن الاستقسام بالازلام طلبا لما هو خير وانفع لنا باستخارته التي هي توحيد وتفويض واستعانة وتوكل .

والمقصود أن الله سبحانه وتعالى أكمل لنا ديننا وبينه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبعه على ذلك اصحابه ومن تبعهم باحسان فلا حاجة لنا بتشريعات لم يأذن بها الله ولا رسوله ولا عملها صحابته عليهم رضوان الله وانما هي من اعمال الكفار من أهل الكتاب والمشركين .

ثم بين رحمه الله أن الذي أوقع الناس في هذه البدعة وغيرها من البدع والفتن أمران قد يجتمعان وقد ينفرد العبد بأحدهما وهما الشبهات، والشهوات .

فالأولى أعظم من الثانية وسببها ضعف البصيرة وقلة العلم ولاسيما اذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى فقل ما شئت في ضلاله فهو من اللذين قال الله فيهم : ((ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس)) (١) وهذه الفتنة مآلها الى الكفر والنفاق وهي فتنة أهل البدع على حسب مراتبهم (٢) ولا ينجي من هذه الفتنة الا تجريد اتباع الرسول وتحكيمه في كل شيء فلا يجعله رسولا في شيء دون شيء ، وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد وتارة من نقل كاذب وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد ، وهو متبع ، واما النوع الثاني وهو

---

(١) الايه من سورة النجم : ٢٣

(٢) لقد ذكر ابن القيم أن البدع عند القبور وما يعمله الناس عندها وما يعتقدونه فيها مراتب نقلا عن شيخه تقي الدين فقال : أبعدها عن الشرع : أن يسأل الميت حاجته، ويستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس وهؤلاء من جنس عباد الاصنام ولهاذا قد يتمثل الشيطان في صورة الميت ، أو الغائب ويخاطبهم بالامور المغيبه وقد يأمرهم بالسجود للقبر وتقبيله والتمسح به وهذا يحصل للمشركين وأهل الكتاب .

المرتبه الثانيه : أن يسأل الله عز وجل به وهذا يفعله كثير من المتأخرين وهو بدعه باتفاق المسلمين .

المرتبه الثالثه : ان يسأله نفسه .

المرتبه الرابعة : أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب أو أنه أفضل من المسجد فيقصد زيارته ، أو الصلاة عنده لأجل طلب حوائجه ، وهذا ايضا من المنكرات ==

الشهوات ، وقد جمع سبحانه بين ذكر النوعين في قوله : ((كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلاقكم))(١) أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها والخلاق هو النصيب المقدر ، فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات .

فأشار الله سبحانه الى ما يحصل به فساد القلوب والاديان من الاستمتاع بالخلاق ، والخوض بالباطل لأن فساد الدين اما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به أو العمل بخلاف العلم الصحيح فالأول هو البدع وما والاها وهو فساد من جهة الشبهات .

والثاني فسق الاعمال وهو من جهة الشهوات .

لهذا كان السلف يقولون : " احذروا فتنة العالم الفاجر ، والعابد الجاهل فان فتنتهما فتنة لكل مفتون " (٢)

وقد صدق ابن القيم رحمه الله فإن الفتنة لا تأتي الامن هاتين الجهتين فلو أردنا تطبيق ذلك على عباد القبور الذين يرجون بركتها وشفاعتها وقيل لابن القيم ما هي الاسباب التي أوقعتهم في هذه الفتنة مع علمهم بأنهم أموات لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً قال :

أوقعهم في ذلك عدة أمور ، أولها : الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله بل جميع الرسل من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك فقل نصيبهم من ذلك جداً ودعاهم الشيطان الى الفتنة ولم يكن عندهم من العلم ما يبطل دعوته فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل (٣) وهذه فتنة شبهة تزعمها الفلاسفة وعلى رأسهم الفارابي وابن سينا وأصلها مأخوذ عن عباد الاصنام قالوا : الميت المعظم ، الذي لروحه قرب ومنزلة وقربة عند الله ، لا يزال تأتيه الألطاف من الله تعالى وتفيض على روحه الخيرات فاذا علق الزائر روحه به وادناها منه فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الالطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافيه على الجسم المقابل له ، وتمام الزيارة عندهم أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه الى الميت ويوجه قصده كله واقباله عليه بحيث لا يبقى فيه التفات الى غيره وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها

== المبتدعه باتفاق المسلمين وهي محرمه وما علمت في ذلك نزاع بين ائمة الدين وان كان كثير من المتأخرين يفعل ذلك . انظر اغاثة اللهفان : ٢١٧/١

(١) الاية من سورة التوبه : ٦٩

(٢) انظر اغاثة اللهفان : ١٦٥/٢ - ١٦٧

(٣) اغاثة اللهفان : ٢١٤/١

أعيادا وتعظيمها كما يفعلون وهو الذي قصد الرسول صلى الله عليه وسلم محاربته ومحوه بالكلية فهم يرون أن العبد اذا تعلقت روحه بروح الوجيه كما ذكرنا سابقا صار بينه وبينه اتصال يفيض عليه مما يحصل له من الله وشبهوا ذلك بمن يخدم عند ذى حضوة وسلطان فهو شديد التعلق به فما يحصل لذلك من السلطان من الانعام وهذا هو بعينه ما حاربه رسول الله صلى الله عليه وسلم وباح به دماء المشركين وأموالهم وأوجب لهم النار ، وهم يقصدون من ذلك شفاعتهم التي امتلأ القرآن بالرد عليهم وابطال جميع الشفاعات الا اذا أراد سبحانه رحمة عبده أذن هو لمن يشفع فيه .

فبهذا القياس الفاسد عبدت الأصنام فان الشفعاء عند المخلوقين شركاؤهم وقيام مصالحهم بهم وهم اعوانهم الذين قيام امر الملوك والكبراء بهم وبينهم من المصالح ما يجعل الملوك يحتاجون اليهم ومن ثم يقبلون شفاعتهم فان ردها انتقضت المصالح والطاعه فلابدّ من قبول الشفاعة على الكره والرضى .

أما الله سبحانه وتعالى فهو الغني الذي غناه من لوازم ذاته ، وكل ما سواه فقير اليه بذاته ، وعبيده مقهورون بقهره وتحت مشيئته لو اهلكهم جميعا لم ينقص من عزه وسلطانه شيئا قال تعالى : ((لقد كفر الذين قالوا أن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئا إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعا))(١) وقال ((من ذا الذي يشفع عنده الا بإذنه))(٢) وقال : ((قل لله الشفاعة جميعا له ملك السموات والأرض ثم اليه ترجعون))(٣)، فأخبر أن حال ملكه للسموات والأرض يوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده .

فمتخذ الشفيع مشرك لا تنفعه شفاعته ولا يشفع فيه ، ومتخذ الرب وحده الهه ومعبوده يطلب رضاه ويتباعد عن سخطه هو الذي بأذن الله للشفيع أن يشفع فيه (٤) .

فلو كان عند هؤلاء المفتونين علما بالكتاب والسنة لما استطاع الشيطان وأعوانه أن يشبهوا عليهم الأمرولاحتموا بنور الله من الشبه جميعا .

---

(١) الاية من سورة المائدة : ١٧

(٢) الاية من سورة البقرة : ٢٥٥

(٣) الاية من سورة الزمر: ٤٤

(٤) انظر في ذلك اغاثة اللهفان : ١/٢٢٠ الى ٢٢٢

ثانيها : اي ثاني الاسباب التي جعلتهم يقعون في الفتنة : أحاديث مكذوبة مختلفة ، وضعها أشباه عباد الأصنام من المقابرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تناقض دينه وما جاء به كحديث (اذا اعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور) وحديث (لو أحسن أحدكم ظنه بحجر لنفعه) وأمثال هذه الأحاديث التي هي مناقضة لدين الاسلام وضعها المشركون ، وراجت على اشباههم من الجهال والضلال والله بعث رسوله بقتل من حسن ظنه بالأحجار (١) .

وهذا السبب يتضح فيه نوعي الفتنه فتنة الشهوات من واضعي الاحاديث لتطابق هواهم وجر الناس الى ما يشتهيه وفتنة الشبهه على هؤلاء الجهال الذين قل نصيبهم من العلم بشرع الله فصدقوا هذه الأحاديث .

ثالث الاسباب : حكايات حكيت لهم عن تلك القبور : أن فلان استغاث بالقبر الفلاني في شدة فخلص منها وفلان دعا به في حاجة ، فقضيت له وغير ذلك مما يحكيه السدنه والمقابرية مما يطول ذكره وهم اكذب خلق الله على الأحياء والأموات ، والنفوس مولعه بقضاء حوائجها ، وازالة ضرورتها والشيطان له تلطف في الدعوة فيدعوه الى الدعاء عند القبر فاذا دعى أجاب الله دعوته لما قام بقلبه لا لأجل القبر فيظن الجاهل أن للقبر تأثير في أجابة الدعوة والله سبحانه يجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً وقد قال : ((كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا))(٢) وقال : ((ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره الى عذاب النار وبئس المصير)) (٣) فليس كل من أجاب دعوته فهو راضى عنه بل يجيب البر والفاجر ويكون بمنزلة من أملى له وأمد بالمال والبنين وهو يظن أن الله يسارع له في الخيرات وقد قال : ((فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء)) (٤) والمقصود أن الشيطان يتدرج معهم بعد ذلك كما عرفنا الى أن يعبدوها من دون الله وهذا من أسباب هذه الحكايات الكاذبه(٥).

ويتضح في هذا السبب ايضاً فتنة الشبهات والمتمثله في هذا الضال الذي صدق تلك الحكايات واستزله الشيطان وذلك راجع الى الجهل بعلم الله وهوى النفس في حب قضاء الحاجة وازالة الضرر .

---

(١) اغاثة اللهفان : ٢١٥/١

(٢) الاية من سورة الاسراء : ٢٠

(٣) الاية من سورة البقره : ١٢٦

(٤) الاية من سورة الانعام : ٤٤

(٥) انظر ذلك في اغاثة اللهفان : ٢١٥/١ وما بعدها .

وفتنة الشهود والمتمثلة في السدنة والمقابرية الذين نسجوا تلك الحكايات حبا في اشاعة الفاحشة بين المؤمنين الضعفاء ، ورجاء تعظيمه لتلك القبور لما في نفوسهم من حب الشهوات والتي تحصل لهم من جراء ما يعمل ويهدى لها مما تهواه نفوسهم الدنيئة من ماديات ومعنويات .

ثانيا : اختصاصات تتعلق بالعبادات (١)

وكذلك من اختصاصات المحتسب مراعاة حال الأمة من حيث أداء العبادات واتمام الشرائع لأنها قوام الأمة وبقاءها وهي الشعار الذي يعرف به المسلم من الكافر وهي من الاعمال الصالحة التي فرضها الله على العباد .

لذا فان على المحتسب أن ينظر في كل مسلم تهاون في أمر من أمور العبادات لأنه من الأمر بالمعروف وهو يشمل جميع أفراد الأمة ، حاكما ومحكوما ، ذكرا أو أنثى ، فكل من تهاون في أمر من أمور العبادات وجب الاحتساب عليه، وعلى رأس هذه العبادات الصلاة وشعائرها وهي من أهم ما يعتني به ولاة الأمر والمحتسبين كما يقول ابن القيم :

واعتناء ولاة الأمر بالزام الرعية باقامة الصلاة : أهم من كل شيء ، فانها عماد الدين ، واساسه ، وقاعدته ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يكتب الى عماله : " أن أهم أمركم عندي الصلاة ، فمن حفظها ، وحافظ عليها ، حفظ دينه ، ومن ضيعها كان لما سواها أشد إضاعة " ويأمر والى الحسبة بالجمعة والجماعة فعلى والى الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ويعاقب من لم يصل بالضرب والحبس (٢) .

كما يذكر رحمه الله أن من اختصاصات المحتسب أن : يتعاهد الأئمة والمؤذنين فمن فرط منهم فيما يجب عليه من حقوق الأمة وخرج عن المشروع : الزمه به واستعان فيما يعجز عنه بوالي الحرب والقاضي (٣) .

فعلى المحتسب أن ينظر في المؤذنين من حيث الزامهم بالمشروع من الآذان وعدم النقصان فيه والزيادة وعدم مراقبتهم ونظرهم في عورات الناس من المآذن واسطحة المساجد كما يراقب الأئمة في عدم مخالفتهم السنة في أمور الصلاة كأن يأتي بالجهرية سرية وعكس ذلك والاطالة وغير ذلك .

---

(١) راجع الباب الأول منهجه في الدعوة الى العبادات ص : ٨٢، ٢٧٨، ٣٥١

(٢) انظر الطرق الحكمية : ٣١٨ - ٣١٩

(٣) نفس المرجع : ٣١٩

وهذه الاختصاصات المذكورة في العبادة العظيمة من اختصاصات المحتسب يقاس عليها جميع صور العبادات الاسلامية الآخرى .

ثالثاً : اختصاصات تتعلق بالمعاملات

التعامل بين أفراد الأمة أمر لابدّ منه ، ولا تتم مصلحة العباد الا به ، وقد جبل الانسان على حب الذات والشح مما يدعو البعض إلى سلوك ما يجلب له الخير والرفعة وان كان ذلك على حساب الآخرين لذلك فان الشارع الحكيم قد بين حدود التعامل وصوره مما يكفل للمتعاملين الخير والبركة ويدفع عنهم الضرر والظلم فعوضهم عن الحرام المضر بما هو خير منه حلالاً مباركاً ويسر لهم دينهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم فأغناهم بوجود التجارات ، والمكاسب الحلال عن الربا والميسر والقمار ، فأغناهم بكل ما ينفع القلب والبدن عما يضرهما فكل المعاملات التي حرمها الرب تبارك وتعالى اغنانا عنها من الحلال ما يكفل لنا سعادتنا ورغباتنا ويكفينا عن الحرام اذا ما كان العبد منا سوى الطبع سليم القلب .

وقد أولى ابن القيم هذا الباب عناية فائقة قد يسر الله جمع شتاته على يد صاحب كتاب التقريب لفقه ابن القيم جزاه الله خيراً ونحن هنا سوف نتطرق إلى بعض اختصاصات المحتسب في باب المعاملات حسب ما كتبه ابن القيم رحمه الله .

فأول المعاملات : البيوع

وقد اباح الله سبحانه وتعالى البيع والشراء وهو أحد طرق الكسب المباح التي قال فيها بعض الفقهاء في أنه أطيب المكاسب كما ذكر ذلك ابن القيم فقال :

وأما أطيب المكاسب وأحلها قيل فيه ثلاث أقوال للفقهاء : **أحدها** : أنه كسب التجارة ، **والثاني** : أنه عمل اليد في غير الصنائع الدنيئة ، كالحجامة ونحوها ، **والثالث** : أنه الزراعة ولكل قول من هذا وجه من الترجيح ثم قال : والراجح أن أحلها الكسب الذي جعل منه رزق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو كسب الغنائم وما ابيح لهم على لسان الشرع (١) .

فاذ كان الله سبحانه وتعالى قد أباح للعباد البيع والشراء فان ذلك في حدود وليس الأمر على الاطلاق كما بين ذلك ابن القيم عند ذكره البيوع المحرمة المشتمل عليها حديث جابر بن عبدالله أنه سمع رسول الله صلى الله عليه

---

(١) زاد المعاد : ٥/٧٩٢

وسلم يقول : (ان الله ورسوله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والاصنام)(١)

وكان تعليق ابن القيم عليه هو :

قد : اشتملت هذه الكلمات الجوامع على تحريم ثلاثة اجناس : مشارب تفسد العقول ومطاعم تفسد الطباع وتغذى غذاء خبيثا ، وأعيان تفسد الاديان وتدعو الى الفتنة والشرك ، فصان بالتحريم الأول العقول عما يزيلها ، ويفسدها وبالثاني القلوب وبالثالث الاديان عما وضع لافسادها (٢) .

وهذه الأنواع المحرمة على الاجمال من حيث الجنس يدخل تحتها كل ما يفسد هذه الأمور ، فيدخل كل مسكر في الخمر ، وتدخل كل ميتة بصرف النظر عن كيفية الموت وكذلك أبعاضها الا ما أحل من صوف وجلد مدبوغ ، ويدخل في الخنزير كل ما حرمه الله ورسوله من الجوارح وذا الناب والحافر ، ويدخل في بيع الاصنام كل آلة متخذه للشرك على أي وجه كانت أو للفتنة والصد عن الدين كآلات الملاهي أو للضلال كالكتب المضله .

وأما أنواع البيوع التي حرمها الله سبحانه وتعالى ورسوله فانما نهى عنها لما فيها من الظلم وهي داخلة اما في الربا أو الميسر اللذان حرمهما الله سبحانه ومن ذلك بيع الثمر قبل بدو صلاحه ، وبيع السنين (٣) وبيع حبل الحبلة (٤) وبيع المزابنة (٥) والمحاقلة (٦) وبيع الحصاة(٧)

---

(١) رواه البخاري كتاب البيوع باب الميتة والاصنام رقم الباب ١١٢ ، ٤٣/٣

(٢) انظر زاد المعاد : ٧٤٦/٥ وما بعدها فان فيها بحوث مفيدة في فهم كلامه صلى الله عليه وسلم ومعرفة ما يدخل فيه وما لا يدخل .

(٣) بيع السنين : هي اكتراء الأرض سنين وكذا أن يبيع ثمر النخله لأكثر من سنه في عقد واحد وذلك لأنه بيع غرر وهو نفسه المعروف " بالمعاومة " أي بيع الشجرة اعوام كثيرة : انظر نيل الأوطار : ١٧٦/٥

(٤) فسر ابن القيم حبل الحبلة بما ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عنه وهو نتاج الناتج في أحد الأقوال ، والثاني أنه أجل فكانوا يتبايعون اليه هكذا رواه مسلم في باب البيوع باب تحريم بيع حبل الحبلة ١٥١٤ والبخاري في باب بيع الغرر ٢٤/٣ رقم الباب ٦١ وكلاهما غرر والثالث أنه بيع حمل الكرم قبل أن يبلغ قاله البرد والحبله الكرم بسكون الباء وفتحها أما ابن عمر رضي الله عنه فانه فسره بأنه أجل كانوا يتبايعون اليه ، انظر زاد المعاد : ١١٨/٥

(٥)،(٦) قال في الصحيح : " بيع المزابنة وهي بيع الثمر بالثمر وبيع الزبيب بالكرم قال أنس نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن بيع المزابنة والمحاقلة وقال : (لا تبيعوا الثمر حتى يبدو صلاحه ولا تبيعوا الثمر بالثمر) البخاري ٣١/٣

(٧) فسر ابن القيم بيع الحصاة بقوله : أما بيع الحصاة فهو من باب اضافة المصدر الى نوعه كبيع الخيار وليس من باب اضافة المصدر الى مفعوله كبيع الميته ، كأن يقول : ارم هذه الحصاة فعلي اي ثوب وقعت فهو لك بدرهم او بيع قطعة أرض قدر ما انتهت اليه الحصاة ، وفسر بأن يقبض على كف من الحصا ويقول لي بعدد ما خرج ==

وبيع الملاقيح (١) والمضامين (٢) والملامسة (٣) والمنابذه (٤) والنجش وهو أن يزيد في السلعة من لا يريد شراءها ، وتصريته الدابة اللبون وسائر انواع التدليس وبيوع الغرر ، وقد فسر بيع الغرر بقوله :

فمن اضافة المصدر الى مفعوله والغرر هو البيع نفسه وهو فعل بمعنى مفعول أي مغرور به وهذا كبيع العبد الآبق الذي لا يقدر على تسليمه ، والفرس الشارد ، والطير في الهواء ،وكبيع ضربة الغائص (٥) وما تحمل شجرة أو ناقة وما يرضى له به أو يهبه له ونحو ذلك مما لا يعلم حصوله أو لا يقدر على تسليمه أو لا يعرف حقيقة مقداره (٦) .

وقال ابن القيم بعد ذكر بيوع الغرر أن على والي الحسبة انكار ذلك جميعه والنهي عنه وعقوبة فاعله (٧) لأن هذه المعاملات من البيوع من المنكرات التي يجب النهي عنها (٨) .

كما أن بيوع الغرر لا تتوقف عند ذلك بل لها صور أخرى مثل :

تلقي السلع قبل مجيئها الى السوق : حيث عدها ابن القيم رحمه الله من منكرات البيوع والتي هي من باب بيوع الغرر فقال :

ومن المنكرات تلقي السلع قبل أن تجيء الى السوق فان النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن ذلك لما فيه من تغرير البائع ، فانه لا يعرف السعر

== من الحصا من المبيع ونحو ذلك ، انظر زاد المعاد : ٨١٦/٥

(١)،(٢) قال ابن القيم ومن بيوع الغرر : بيع الملاقيح والمضامين قال أبو عبيد: الملاقيح ما في البطون من الاجنة والمضامين : ما في أصلاب الفحول وكانوا يبيعون الجنين في بطن الناقة وما يضربه الفحل في عام أو اعوام ، انظر زاد المعاد : ٨١٩/٥

(٣)،(٤) فسر ابن القيم الملامسة والمنابذة بما فسرها به الاحاديث التي في الصحيحين عن ابي سعيد قال : (نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لبستين وعن بيعتين الملامسة والمنابذة) البخاري : ٢٥/٣ (والملامسة : لمس الرجل ثوب الآخر بيده بليل أو بالنهار ، ولا يقلبه الا بذلك ، والمنابذه أن ينبذ الرجل الى الرجل ثوبه ،وينبذ الآخر اليه ثوبه ويكون ذلك بيعهما من غير نظر ولا تراض " اخرجه البخاري : ٢٥/٣ باب بيع الملامسة رقم الباب ٦٢ ومسلم برقم (١٥١٢) ، وفسرت الملامسة بأن يقول بعتك ثوبي هذا على أنك متى لمسته فهو عليك بكذا ، والمنابذة بأن يقول : أي ثوب نبذته اليّ فهو عليّ بكذا ، انظر زاد المعاد ٨٢٠/٥

(٥) ضربة الغائص : المراد بذلك أن يقول من يعتاد الغوص في البحر لغيره : ما أخرجته في هذه الغوصة فهو لك بكذا من الثمن فان هذا لا يصح لما فيه من الغرر والجهالة نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار : ١٥٠/٥ ، الشوكاني مكتبة الدعوة الاسلامية .

(٦) انظر زاد المعاد : ٨١٨/٥ (٧) الطرق الحكمية : ٣٢١

(٨) انظر بيوع الغرر والأحاديث المروية فيها وتفسيرها في كتاب نيل الاوطار في كتاب البيوع١٤١/٥

فيشتري منه المشتري بدون القيمة ، ولذلك اثبت له النبي صلى الله عليه وسلم الخيار اذا دخل الى السوق ولا نزاع في ثبوت الخيار له مع الغبن .

ومن صور بيع الغرر بيع المسترسل الذي لا يماكس وهو قادم لا يعرف السعر فيبيعه بسعر ويبيع المماكس بسعر وهذا من الغرر به لذا يقول ابن القيم :

وهذا مما يجب على والي الحسبة انكاره وهذا بمنزلة تلقي السلع فان القادم جاهل بالسعر .

ومن هذه الصور المنكرة في البيع والشراء والتي ذكرها ابن القيم :

تلقي سوق الحجيج الجلب من الطرق ، وسبقهم الى المنازل يشترون الطعام والعلف ثم يبيعونه كما يريدون فيمنعهم والي الحسبة من التقدم لذلك حتى يقدم الركب لما في ذلك من مصلحة الركب ومصلحة الجالب ، ومتى اشتروا شيئاً من ذلك منعهم من بيعه بالغبن الفاحش (١) .

ثاني المعاملات : الربا

الربا من اعظم المعاملات التي يجب على المحتسب أن يحاربه ويقطع دابره من المجتمع المسلم لما في ذلك من الوعيد الشديد فيه وفي كل من تعامل به أو أباحه وعده ابن القيم اعظم المنكرات واكبر الكبائر وعدّ تحريمه احسان وتفضل من الله تعالى ، فقال :

فمن رحمة أرحم الراحمين وحكمته وأحسانه الى خلقه أن حرم الربا ، ولعن آكله ، وموكله ، وكاتبه ، وشاهديه ، وآذن من لم يدعه بحربه وحرب رسوله ، ولم يجيء مثل هذا الوعيد في كبيرة غيره وعدّه من أكبر الكبائر (٢)

فاذا كان الأمر كذلك فلندع ابن القيم رحمه الله تعالى يبين لنا أنواع الربا ويفصله لنا ويبين الحكمة من تحريمه ، فقد بين رحمه الله أن الربا نوعان جلي ، وخفي ، فالجلي حرام لما فيه من الضرر العظيم والخفي حرام لأنه ذريعة للجلي .

ثم أخذ في بيان الربا الجلي وأنه ربا النسيئة الذي فسره بقوله :

وهو الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية مثل أن يؤخر دينه ويزيد في المال وكلما أخره زاد في المال حتى تصير المائة الآفاً مؤلفة .

وهذا النوع من الربا حرم لحكمة عظيمة ذكرها ابن القيم فقال :

وفي الغالب لا يفعل ذلك الا معدوم محتاج ، فاذا رأى أن المستحق يؤخر

---

(١) انظر الطرق الحكمية : ٣٢٢

(٢) اعلام الموقعين : ١٥٤/٢ وانظر في ذلك بدائع الفوائد : ١٤١/٣

مطالبته ويصبر عليه ، بزيادة يبذلها له ، تكلف بذلها ليفتدي أسر المطالبة والحبس فيشتد عليه الأمر وتعظم المصيبة ويعلوه الدين حتى يستغرق جميع موجوده من غير نفع يحصل له ، وكذا المرابي على عكسه يزيد ماله من غير نفع يحصل منه ، فيأكل مال أخيه بالباطل ويضره أعظم الضرر (١) .

وهذا بعينه ما نلاحظه نحن في هذه الأيام وما يظهر لنا من الحكمة في تحريمه ، فكم من حبيس في غيابات السجون عجز عن تسديد دينه الذي عظم عليه ، فكان سببا في ضياعه ، وضياع أهله وماله ودينه ، فلله الحمد أولا وآخرا ما نهى عن شيء الا كان فيه خير العباد في الدنيا والآخرة .

أما النوع الثاني : فهو ربا الفضل

وهو الخفي الذي حرم من أجل سد الذريعة الى الربا كما قال ابن القيم واستدل له بحديث : (لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين فاني أخاف عليكم الرما) (٢) ثم فسر الرما بأنه الربا فمنعهم من ربا الفضل لما يخافه عليهم من ربا النسيئة ، وذلك أنهم اذ باعوا درهما بدرهمين ، ولا يفعل ذلك الا لتفاوت الذي بين النوعين ، إما في الجودة واما في السكة ، واما في الثقل والخفة ، وغير ذلك تدرجوا بالربح المعجل فيها الى الربح المؤخر ، وهو عين ربا النسيئة ، وهذه ذريعة قريبة جدا فمن حكمة الشارع أن سد عليهم هذه الذريعة ليسد عليهم باب المفسدة (٣) .

فاذا عرفت هذين النوعين من عقود الربا المحرمة والتي يسميها ابن القيم عقود الربا الصريحة وهي من اختصاصات المحتسب ، فكذلك يدخل في اختصاصه الاحتساب على الحيل المحرمة على أكل الربا وهي غير صريحة وهي كما يقول : ثلاثة أقسام

أحدها : ما يكون من واحد ، كما اذا باعه سلعة بنسيئة ، ثم اشتراها منه بأقل من ثمنها نقدا حيلة على الربا .

ومنها ما تكون ثنائية : وهي أن تكون من اثنين ، مثل أن يجمع الى القرض : بيعا أو اجارة أو مساقاة أو مزارعة ونحو ذلك (٤) .

---

(١) انظر اعلام الموقعين : ١٥٤/٢

(٢) رواه الامام أحمد في المسند برقم ٥٨٨٥ من رواية ابن عمر : ١٠٩/٢

(٣) انظر في ذلك اعلام الموقعين : ١٥٥/٢ فقد ذكر الخلاف في الانواع التي يحرم فيا ربا الفضل وذكر الحكمة من تحريم هذه الانواع والراجح منها .

(٤) استدل على ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يحل سلف وبيع ، ولا شرطان ولا ربح ما لم يضمن ، ولا بيع ماليس عندك) رواه الترمذي برقم : ١٢٣٤ كتاب ==

ومنها ما تكون ثلاثية : وهي أن يدخلا بينهما محللا للربا فيشتري السلعة من آكل الربا ، ثم يبيعها لمعطى الربا الى أجل ثم يعيدها الى صاحبها بنقص دراهم يستعيدها المحلل .

ثم قال : وهذه المعاملات منها ما هو حرام باتفاق مثل التي يباع فيها المبيع قبل القبض الشرعي ، أو بغير الشرط الشرعي أو يقلب فيها الدين على المعسر فمتى استحل المرابي قلب الدين ، وقال للمدين : اما أن تقضيني واما تزيد في الدين والمده : فهو كافر يجب أن يستتاب ، فان تاب والا قتل .

فعلى والي الحسبة انكار ذلك جميعه ، والنهي عنه ، وعقوبة فاعله ولا يتوقف ذلك على دعوى ومدعي عليه ، فان ذلك من المنكرات التي يجب على والي الأمر انكارها والنهي عنها (١) .

رابعاً : اختصاصات تتعلق باصحاب الحرف والصناعات

لقد قام الفقهاء بجهود عظيمة في توضيح هذا الجانب من جوانب اختصاصات المحتسب وأولوه عنايتهم في كتب الحسبة وشغل حيزاً كبيراً من اختصاصات المحتسب في الاسواق ، وما ذلك الا لكثرة امكان وقوع الغش منهم والتدليس وهذا ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

ومعظم ولايته وقاعدتها - اى المحتسب - الانكار على هؤلاء الزغليد(٢) وأرباب الغش في المطاعم ، والمشارب ، والملابس وغيرها فان هؤلاء يفسدون مصالح الأمة، والضرر بهم عام ، لا يمكن الاحتراز منه ، فعليه أن لا يهمل أمرهم ، وأن ينكل بهم وأمثالهم ولا يرفع عنهم عقوبته (٣) .

هذه نظرة ابن القيم للموضوع من حيث الاهمية وأنه معظم ولاية الحتسب وقاعدته الا أنه اكتفى عن ذكر هذه الاختصاصات التي يطول ذكرها ، بجهود الفقهاء الذين كتبوا في هذا الموضوع وذكر القواعد العامة التي يجب على المحتسب أن يراعيها في أهل الحرف والصناعات وهي :

أولاً : من حيث المقاييس والاوزان ، والمكاييل ، وأن الواجب على المحتسب التأكد من سلامتها وصحتها وأنها ليست قاصرة عن المعهود عند أهل البلد حيث يقول

== البيوع رقم الباب ١٩ ، ٢٣٠/٤ وأخرجه ابو داود في البيوع برقم ٣٥٠٤

(١) الطرق الحكمية بتصرف : ٣٢١

(٢) لعلها كلمة ازدراء أو سب لهم وصفة ذم قال في اللسان : والزغلة الإست عن الهجري وقال : من سبّهم يازغلة الثور ! ٣٠٥/١١ واما أن تكون من الالفاظ العاميد التي كانوا يستخدموها لمسمى معين .

(٣) الطرق الحكمية : ٣١٩

ابن القيم وهو يتحدث عن اختصاصات المحتسب :

ويتفقد أحوال المكاييل والأوزان وهذا من ناحية الآلة أما من ناحية كمال الوزن والكيل الذي يقول عنه وينهى عن تطفيف المكيال ، والميزان (١) .

ثانياً : من حيث المصنوع هل هو من المحرمات أم من المباحات ، وهل فيه غش وتدليس أم أنه خال من ذلك حيث يقول ابن القيم عن اختصاص المحتسب في ذلك : ويتفقد أحوال الصناع الذين يصنعون الأطعمة ، والملابس ، والآلات ، فيمنعهم من صناعة المحرم على الاطلاق ، كآلات الملاهي وثياب الحرير للرجال ،ويمنع من اتخاذ أنواع المسكرات ، ويمنع صاحب كل صناعة من الغش في صناعته ولاسيما هؤلاء الذين يغشون النقود ، والجواهر ، والعطر والطيب وغيرها يضاهئون بزعمهم وغشهم خلق الله (٢) .

ثالثاً : من حيث حاجة الناس للمصنوع والصناعة .

قد يحتاج الناس الى صناعة من الصناعات أو حرفة من الحرف ولا يجدون من يقوم بها لامتناع أهلها عن العمل بها فلولي الأمر أن يأمرهم بها ليسدوا حاجة الناس حيث يقول ابن القيم :

ومن ذلك أن يحتاج الناس الى صناعة طائفة ـ كالفلاحة ، والنساجة، والبناء وغير ذلك ـ فلولي الأمر ـ أن يلزمهم بذلك بأجرة مثلهم فانه لاتتم مصلحة الناس الا بذلك ـ والمحتسب نائب لولي الأمر في السوق فعليه أن يجبرهم على الصناعة أو الحرفة بأجره المثل ولا يمكنهم مطالبة الناس بزيادة عن عوض المثل ولا يمكن الناس من ظلمهم (٣) .

رابعاً : من حيث المكان .

فيجب أن يكون مكان الحرفة أو الصناعة ، لا ضرر فيه على الآخرين ، فلا يكون مكان الخباز في سوق الاقمشة مثلاً ، ولا الحداد في سوق العطارين، ونحوه مما يفسد بعضهم على بعض فان وجدت امكانية الافساد وجب تخصيص كل أهل صنعة أو حرفة في سوق خاص بهم (٤) .

وهذه قواعد عامة يجب أن يراعيها المحتسب في جميع الصناعات والحرف وهي من اختصاصاته .

---

(١) الطرق الحكمية : ٣١٩

(٢) انظر نفس المرجع : ٣١٩ الى ٣٢٠

(٣) نفس المرجع : ٣٢٨ الى ٣٢٩

(٤) انظر اصول الدعوة : ١٨٤

خامساً : اختصاصات تتعلق بالأضرار العامة والظلم للناس

هناك بعض الأعمال يعملها التجار وبعض العامة تؤدي بالاضرار والظلم على الأمة أو على بعض أفرادها مما يضرها في معاشها وفي طرقاتها ، وأسواقها ومنازلها ، والشريعة مبنية على مصالح الامة والأفراد فيجب على المحتسب منع هذه الاسباب المؤدية الى الضرر بالأمة حماية للأمة ولمصالحها وقد ذكر ابن القيم رحمه الله بعض هذه الجوانب والتي يجب على المحتسب أن يجعلها في عين الاعتبار لسعة ضررها على الامة وما تجلبه من فساد نذكر بعضاً منها ، وهذه المنهيات التي تدخل في اختصاصات المحتسب كلها من باب التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الاثم والعدوان كما أمر الله سبحانه بذلك ولأن عدم التعاون على البر واقرار الظلم على ما هو عليه ضرره على الامة من وجهين الأول منها وقوع الظلم على الناس وعدم رفعه الثاني يكون ذلك الظلم والبغي سبباً في منع القطر من السماء والبركة في الرزق والمخرج من ذلك هو اتباع ما شرعه الله سبحانه وهذا ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

لو اعتمد الناس : ما شرعه الله ورسوله وجاءت به السنه وفعله الخلفاء الراشدون ، لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، ولفتح الله عليهم بركات من السماء والأرض ، وكان الذي يحصل لهم من المغل أضعاف ما يحصلونه بالظلم والعدوان ولكن يأبى جهلهم وظلمهم الا أن يرتكبوا الظلم والاثم ، فيمنعون البركة وسعة الرزق فيجتمع لهم عقوبة الآخره ، ونزع البركة في الدنيا (١) .

وإليك الاختصاصات التي تتعلق بالاضرار العامة

أولاً : الاحتكار لما يحتاجه الناس

لقد بدأ حديثه رحمه الله عن الاحتكار بما رواه مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا يحتكر الا خاطيء) (٢) ثم بين سبب المنع من ذلك وهو أن :

المحتكر الذي يعمد الى شراء ما يحتاج الناس اليه من الطعام فيحبسه عنهم ويريد اغلاءه عليهم : هو ظالم لعموم الناس ومن أجل ذلك كان لولي الأمر أن يكره المحتكرين على بيع ما عندهم بقيمة المثل عند ضرورة الناس اليه مثل من عنده طعام لا يحتاج اليه ، والناس في مخمصة ، فان من احتاج الى طعام غيره أخذه منه بغير اختياره بقيمة المثل ولو طلب أكثر من سعره (٣) .

---

(١) الطرق الحكمية : ٣٢٩

(٢) رواه مسلم في كتاب المساقات: ١٢٢٨/٣ رقم الحديث ١٣٠ والترمذي برقم١٢٦٧ كتاب البيوع.

(٣) انظر الطرق الحكمية : ٣٢٣

ثانيا : بيع الحاضر للبادي

قال ابن القيم أن من المنكرات التي يجب النهي عنها بيع الحاضر للبادي واستدل : بنهي النبي صلى الله عليه وسلم :(أن يبيع حاضر لباد) (١) قيل لابن عباس : ما معنى قوله :(لا يبع حاضر لباد) قال : لا يكون له سمسارا)(٢) ثم أخذ رحمه الله يعلل سبب هذا النهي وأنه من أجل حماية مصالح الامة فقال : وهذا النهي لما فيه من ضرر المشتري ، فان المقيم اذا وكله القادم في بيع سلعة يحتاج الناس اليها ، والقادم لا يعرف السعر : أضر ذلك بالمشتري(٣) فنهى الحاضر العالم بالسعر أن يتوكل للبادي الجالب للسلعة ، لأنه اذا توكل له - مع خبرته بحاجة الناس - أغلى الثمن على المشتري فنهاه عن التوكل له ، مع أن جنس الوكالة مباح ، لما في ذلك من زيادة السعر على الناس (٤) .

مما يضر بالامة اذا فعل ذلك فعلى والي الحسبة النهي عن ذلك لأنه من المنكرات

ثالثا : التسعير

يرى ابن القيم رحمه الله أن الشريعة مبناها على العدل ورفع الظلم عن الناس ، فاذا وقع الظلم على الناس وجب رفعه عنهم بالسلطة القائمة على رعايتهم وعلى رأسهم ولي الأمر أو من ينوب منابه كالمحتسب ونحوه وعرفنا أن ذلك من باب التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الاثم والعدوان ، فاذا وقع الضرر على الأمة بسبب زيادة السعر فيما يحتاجه الناس سواء كان ذلك في المواد أو الأعمال فهل للمحتسب الذي ينوب ولي الأمر أن يسعر الاشياء أم يترك الأمر على طبيعته ولا يسعر لهم لخشية وقوع الظلم على البائع .

وقد ذكر ابن القيم خلاف العلماء في التسعير في مسألتين :

احدهما : اذا كان للناس سعر غالب فأراد أحدهم أن يبيع باغلى من ذلك أو أقل منه .

والمسألة الثانية : أن يحدّ لأهل السوق سعرا لا يتجاوزونه مع قيامهم بالواجب (٥) فأما المسألة الاولى فمن أجاز التسعير فقد استدل بحديث عمر بن الخطاب :" وأنه مر بحاطب بن أبي بلتعة ، وهو يبيع زبيبا له بالسوق ، فقال له عمر : اما أن تزيد

---

(١) رواه البخاري باب لا يبيع حاضر لباد بالسمسره:٣/٢٨ والترمذي باب البيوع رقم الحديث١٢٢٧

(٢) رواه البخاري : ٣/٢٧ كتاب البيوع باب هل يبيع حاضر لباد .

(٣) الطرق الحكميه : ٣٢٣

(٤) نفس المرجع : ٣٤٧

(٥) راجع خلاف العلماء وأدلتهم في التسعير ، الطرق الحكميه :٣٣٦

في السعر ، واما أن ترفع من سوقنا " (١) نظرا الى مصلحة الامة ، واما من منع فقد استدل بما رواه انس رضي الله عنه قال :" غلا السعر ، على عهد النبي صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : يارسول الله لو سعرت لنا ؟ فقال :(ان الله هو القابض الرازق ، الباسط المسعر ، واني لأرجو أن القى الله ولا يطلبني أحد بمظلمة ظلمتها اياه في دم ولا مال) (٢) وقالوا أن الناس مسلطون على أموالهم ليس لأحد أن يأخذها أو شيئا منها بغير طيب نفس ، وأما المسألة الثانيه : فمنع منها الجمهور الا اذا سعر عليهم قدر ما يرى من شرائهم .

موقف ابن القيم من التسعير

لقد وقف ابن القيم من مسألة التسعير موقفا وسطا فلم يمنع التسعير مطلقا ولم يوجبه كذلك مطلقا بل نظر الى مصلحة البائع والمشتري فحاول رفع الظلم عنهما بما رآه من ادلة الشرع وأقوال السلف فقسم التسعير الى قسمين :

الأول : حرام وظلم

وهذا القسم راعى فيه مصلحة البائع فاذا وقع عليه الظلم أصبح التسعير في حقه محرم كما يقول :

فاذا تضمن ـ التسعير ـ ظلم الناس واكراههم بغير حق على البيع بثمن لا يرضونه أو منعهم مما اباحه الله لهم فهو حرام واستدل بما رواه أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم (ان الله هو القابض الباسط) المتقدم فاذا كان الناس يبيعون سلعهم على الوجه المعروف من غير ظلم منهم ـ أو قد ارتفع السعر ـ اما لقلة الشئ واما لكثرة الخلق فهذا الى الله ، فالزام الناس أن يبيعوا بقيمة بعينها : اكراه بغير حق (٣) ، ومعلوم أن الشيء ، اذا قل رغب الناس في المزايدة فيه ، فاذا بذله صاحبه ـ كما جرت به العاده ـ ولكن الناس تزايدوا فيه ، فهنا لا يسعر عليهم (٤) .

الثاني : عدل وجائز

وهناك تسعير جائز وهو عدل بل يرتفع الى درجة الوجوب وذلك عندما يمتنع أرباب السلع عن بيعها الا بزيادة عن قيمة المثل والناس في حاجة

---

(١) رواه الامام مالك في الموطأ كتاب البيوع : ٥٧ باب الحكره والتربص ح٦٥١/٢ دار احياء الكتب العربيه فؤاد عبدالباقي .

(٢) رواه الامام أحمد في مسنده: ١٥٦/٣ برقم ١٢٦١٣ والترمذي في كتاب البيوع رقم الباب ٧٣: ٣١٨/٤

(٣) الطرق الحكميه : ٣٢٤

(٤) نفس المرجع : ٣٤١

ماسة اليها فان هؤلاء الباعة يلزمون بالسعر الذي يحده ولي الأمر وهو ما عبر عنه ابن القيم بقوله :

واذا تظمن ـ التسعير ـ العدل بين الناس مثل اكراههم على ما يجب عليهم من المعاوضه بثمن المثل ، ومنعهم مما يحرم عليهم من أخذ الزيادة على عوض المثل فهو جائز بل واجب (١) مثل أن يمتنع ارباب السلع من بيعها مع ضرورة الناس اليها الا بزيادة على القيمة المعروفه فهنا يجب عليهم بيعها بقيمة المثل ولا معنى للتسعير الا الزامهم بقيمة المثل وهو الزام بالعدل الذي الزمهم الله به (٢).

والزامهم بالبيع بقيمة المثل يوجب على المحتسب أن يكون عارفاً بالاسعار أي قيمة الشراء والبيع فيراعي مصلحة البائع والمشتري كما يقول ابن القيم :

فعلى صاحب السوق الموكل بمصلحته أن يعرف ما يشترون به ، فيجعل لهم من الربح ما يشبه ، وينهاهم أن يزيدوا على ذلك ، ويتفقد السوق ابداً ، فيمنعهم من الزيادة على الربح الذي جعل لهم فمن خالف أمره عاقبه وأخرجه من السوق ولا يجوز عند أحد من العلماء أن يقول لهم ، لا تبيعوا الا بكذا وكذا ، ربحتم أو خسرتم ، من غير أن ينظر الى مايشرون به (٣) .

ثم يقول رحمه الله في نهاية الكلام عن التسعير :

وجماع الأمر : أن مصلحة الناس اذا لم تتم الا بالتسعير سعر عليهم ، تسعير عدل ، لا وكس ولا شطط ، واذا اندفعت حاجتهم وقامت مصلحتهم بدونه : لم يفعل (٤) . وهذا التسعير يسميه ابن القيم التسعير في الأموال ومثل له بقوله :

فاذا احتاج الناس الى سلاح للجهاد والآت ، فعلى أربابها أن يبيعوها بعوض المثل ولا يمكنوا من حبسه الا بما يريدونه من الثمن (٥) .

فاذ كان الظلم يقع على الناس في الاعيان من المواد بارتفاع اسعارها مع حاجة الناس اليها ويجب التسعير فيها ، فان هناك تسعير في الأعمال ، فقد يقع الظلم من ارباب الصناعات والحرفيين كالفلاحين ، والبنّائين ونحوهم فما يحتاجه الناس ويرفعون السعر فيضر بالامة فلولي الحسبة أن يسعر عليهم بأجرة المثل ويمنعهم من التواطيء على زيادة الاجرة عن المثل كما يقول ابن القيم :

---

(١) الطرق الحكمية : ٣٢٤

(٢) نفس المرجع : ٣٢٥

(٣) نفس المرجع : ٣٣٧

(٤) نفس المرجع : ٣٤٩

(٥) نفس المرجع : ٣٣٥

ومن ذلك : أن يحتاج الناس الى صناعة طائفة ـ كالفلاحة ، والنساجة، والبناء وغير ذلك ـ فلولي الأمر : أن يلزمهم بذلك بأجره مثلهم فانه لا تتم مصلحة الناس الا بذلك (١) . وقال رحمه الله :

فالمقصود : أن الناس اذا احتاجوا الى ارباب الصناعات ـ كالفلاحين وغيرهم ـ أجبروا على ذلك بأجرة المثل وهذا من التسعير الواجب فهذا تسعير في الأعمال (٢).

وقد ذكر رحمه الله صور أخرى من قبيل هذا التسعير وجعله من اختصاص المحتسب فقال :

وكذلك يجب على والى الحسبة : أن يمنع مغسلي الموتى والحمالين لهم من الاشتراك ، لما في ذلك من اغلاء الاجرة عليهم ، وكذلك اشتراك كل طائفة يحتاج الناس الى منافعهم (٣) .

وقد علل رحمه الله عدم تقيده بحديث النبي صلى الله عليه وسلم : (أن الله هو المسعّر القابض الباسط) بقوله :

ومن احتجّ على منع التسعير مطلقا بقول النبي صلى الله عليه وسلم قيل له : هذه قضية معينة وليست لفظا عاما ، وليس فيها أحد امتنع من بيع ما الناس يحتاجون اليه ، ومعلوم أن الشيء اذا قل رغب الناس في المزايدة فيه فاذا بذله صاحبه كما جرت به العادة ولكن الناس تزايدوا فيه ، فهنا لا يسعر عليهم وقد ثبت في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم منع من الزيادة على ثمن المثل في عتق الحصة من العبد المشترك فقال : ﴿ من أعتق شركا له في عبده ـ وكان له من المال ما يبلغ ثمن العبد ـ قوم عليه قيمة عدل، لا وكس ولا شطط ، فأعطى شركاءه حصصهم ، وعتق عليه العبد ﴾ (٤) .

فلم يمكن المالك أن يساوم المعتق بالذي يريد ، وهذا هو تعليله لحديث النبي صلى الله عليه وسلم وأن الامر فوق الاراده ولم يكن بسبب امتناع التجار ونحوه من الأمور التي توجب التسعير بل ان الشارع يوجب اخراج الشيء عن ملك مالكه بعوض المثل لمصلحة تكميل العتق ولم يمكن المالك من المطالبة بالزيادة على القيمة فكيف اذ كانت الحاجة بالناس الى التملك أعظم ، وهم اليها أضر ؟ مثل حاجة المضطر الى الطعام والشراب وللباس وغيره ، وهذا الذي أمر به النبي

---

(١) الطرق الحكمية : ٣٢٨

(٢) نفس المرجع : ٣٣٥

(٣) نفس المرجع : ٣٣٦

(٤) رواه البخاري في كتاب الشركه رقم الباب ٥ و ١٤ : ج ٣ ص ١١١ ـ ١١٣

صلى الله عليه وسلم من تقويم الجميع قيمة العدل : هو حقيقة التسعير ، وكذلك سلط الشريك على انتزاع الشقص المشفوع فيه من يد المشتري بثمنه الذي ابتاعه به لا بزيادة عليه (١) .

سادساً : اختصاصات تتعلق بالآداب والفضيلة والأخلاق الاسلامية .

لقد اتسعت اختصاصات المحتسب حتى شملت كثيراً من مناحي الحياة اليومية التي تراعي مصالح الأمة وتحافظ على كيانها الاسلامي ومن هذه الاختصاصات الموكلة بالمحتسب مراعات الأداب والفضيلة والاخلاق التي شرعها الله سبحانه وتعالى ، وبثها بين الناس والأمر بها والنهي عن مخالفتها لذلك يقول ابن القيم مبيناً ذلك :

ويأمر والى الحسبة بآداء الامانة ، والصدق ، والنصح في الاقوال والأعمال وينهى عن الخيانه (٢) .

وعلى المحتسب أن يعزر من ترك هذه الآداب والواجبات التي هي من شعائر المسلمين وصفاتهم لذلك يقول ابن القيم : واذ كان على ترك واجب كأداء الديون ، والامانات والصلاة ، والزكاة فانه يضرب مرة بعد مره ويفرق الضرب عليه يوماً بعد يوم حتى يؤدي الواجب (٣) .

كما أن على المحتسب أن يمنع عن كل ما يكون وسيلة الى الاخلال بالآداب العامه وكشف عورات الناس كما قال ابن القيم :

وعليه أن يمنع اللاعبين بالحمام على رؤوس الناس ، فانهم يتوسلون بذلك الى الاشراف عليهم والتطلع على عوراتهم (٤) .

ويقاس على ذلك كل ما كان ذريعة الى الاخلال بالآداب والاخلاق .

ومن أهم ما يجب على المحتسب أن يراعيه ويمنع من وقوعه من هذا الجانب هو الاختلاط - واعني به اختلاط الرجال بالنساء في الأسواق والطرقات والجامع - لما في ذلك من النهي وأنه ذريعة لوقوع الفساد بين الأمة واشاعة الفاحشه ، وذلك من أعظم الأمور التي يجب على المحتسب مراعاتها والحزم في النهي عنها ومنعها من الوقوع وكذا الخلوة بالنساء في الدكان أو السيارة ونحو ذلك وتحريم ذلك من باب سد الذرائع فلما حرم الله سبحانه وتعالى الزنا وقال :((ولا تقربوا الزنا انه كان فاحشة وساء سبيلا)) (٥) وكان للزنا وسائله وذرائعه فقد حرم

---

(١) بتصرف من الطرق الحكمية : ٣٤١ الى ٣٤٣

(٢) الطرق الحكميه : ٣١٩

(٣) نفس المرجع : ٣٥٠

(٤) نفس المرجع : ٣٧١

(٥) الاية من سورة الاسراء : ٣٢

كل وسيلة موصلة إليه ، ولأهمية الموضوع وكثر وقوعه في المجتمعات المسلمه فسوف نتطرق الى توضيحه كما يرى ذلك ابن القيم رحمه الله .

فيقول عند سد الذرائع : لما كانت المقاصد لا يتوصل اليها الا باسباب وطرق تفضى اليها كانت طرقها واسبابها تابعة لها معتبرة بها ، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها ، والمنع منها بحسب افضائها الى غاياتها ، وارتباطاتها بها ، ووسائل الطاعات في محبتها والاذن فيها بحسب افضائها الى غاياتها ، فاذا حرم الرب تعالى شيئاً وله طرق ووسائل تفضي اليه فانه يحرمها ويمنع منها تحقيقاً لتحريمه ومنعا أن يقترب حماه ، فلو أباح الوسائل والذرائع المفضية اليه لكان ذلك نقضاً للتحريم ، واغراء للنفوس به ، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الاباء ، بل سياسة عقلاء الدنيا تمنع ذلك ، فالاطباء إذا أرادوا ، حسم الداء منعوا صاحبه من الطرق والذرائع الموصلة اليه والا فسد عليهم ما يرومون اصلاحه ، فما ظنك بهذه الشريعة الكاملة التي هي في أعلى درجات الحكمة والمصلحة والكمال ؟ ومن تأمل مصادرها ومواردها علم أن الله تعالى ورسوله سد الذرائع المفضية الى المحارم بأن حرمها ونهى عنها ، والذريعة ما كان وسيلة وطريقاً الى الشيء (١) .

ولذلك فان النبي صلى الله عليه وسلم حرم الخلوة بالأجنبية ولو في اقراء القرآن ، والسفر بها ولو في الحج وزيارة الوالدين سداً للذريعة ، ما يحاذر من الفتنة وغلبة الطبع (٢) .

فالذي يجب على المحتسب أن ينظر في أمور الناس وتحركاتهم واجتماعاتهم وأفراحهم واسواقهم فاذا وجد أمراً من أمورهم وسيلة الى الفساد والفحش منع منه وان كان في مباح أو عبادة فسفر المرأة الاجنبيه للحج مثلا بدون محرم لا يجوز ويجب المنع منه وان كان لعبادة لأنه ذريعة الى المحرم .

وبين ابن القيم أن ذلك من اختصاصات المحتسب فيقول :

يجب عليه أن يمنع اختلاط الرجال بالنساء في الاسواق ، والفرج ، ومجامع الرجال ، قال مالك (٣) رحمه الله ورضى عنه : أرى للامام أن يتقدم الى الصياغ في قعود النساء اليهم ، وأرى أن لا تترك المرأة الشابة تجلس الى الصياغ

---

(١) انظر اعلام الموقعين : ١٣٥/٣

(٢) نفس المرجع : ١٣٩/٣

(٣) مالك بن انس بن مالك الاصبحي الحميري امام دار الهجرة وأحد الأئمة الاربعة عند أهل السنة واليه تنسب المالكيه مولده ووفاته بالمدينه : الأعلام : ٢٥٧/٥

فأما المرأة المتجالّة ، والخادم الدون التي لا تتهم على القعود ، ولا يتهم من تقعد عنده فاني لا أرى بذلك بأسا .

فالامام مسئول عن ذلك ؟ والفتنة به عظيمة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) (١) .

وفي حديث آخر أنه قال للنساء : (لكن حافات الطريق) (٢) .

كما بين رحمه الله أنه يجب على والي الحسبة أن يمنع النساء عن كل ما يشغل الرجال بهن ويعين على الاثم والمعصية فقال :

ويجب عليه منع النساء من الخروج متزينات ، متجملات ، ومنعهن من الثياب التي يكنّ بها كاسيات عاريات ، كالثياب الواسعة الرقاق ومنعهن من حديث الرجال في الطرقات ، ومنع الرجال من ذلك (٣) .

ويرى رحمه الله أن لولي الحسبة عقوبة المرأة التي تخرج متجملة مبرزة لمحاسنها ومحاسن ثيابها عقوبة لها وردعا لمن حاول التشبه بها فقال :

وان رأى ولي الأمر أن يفسد على المرأة - اذا تجملت وتزينت وخرجت - ثيابها بحبر ونحوه ، فقد رخص في ذلك بعض الفقهاء وأصاب وهذا من أدنى عقوبتهن الماليّة .

وقد أحسن ابن القيم في ذلك وأرى أن يطبق ذلك في عصرنا الحاضر .

وله كذلك أن يحبس المرأة اذا أكثرت الخروج من منزلها ولاسيما اذا خرجت متجملة بل إقرار النساء على ذلك اعانة لهنّ على الإثم والمعصية .

ولولي الحسبة أن يمنع المرأة اذا أصابت بخورا أن تشهد عشاء الآخرة في المسجد فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (المرأة عورة فاذا خرجت استشرفها الشيطان) (٤) .

فاذا كان ابن القيم يمنع المرأة من الخروج للعبادة وهي واضعة بخورا وهو أقل انتشارا للرائحة فما ظنك بالمرأة التي تخرج للنزة أو للسوق وقد وضعت من الطيب الفواح الذي يشم على بعد ويملا الطريق برائحة الشذى فانه والله من أعظم الوسائل الى جذب الرجال مما يؤدي الى الوقوع في المحرم والله سائلها وسائل ولي

---

(١) رواه مسلم في كتاب الذكر برقم ٩٩ جـ ٢٠٩٨/٤ ، واخرجه الترمذي في كتاب الادب واللفظ له رقم الباب ٣١ جـ ٢٠/٨

(٢) سنن ابى داود كتاب الادب ما جاء في مشى النساء رقم ٥٢٧٢ رقم الباب ١٨٠ .

(٣) انظر الطرق الحكمية : ٣٦٩ وما بعدها .

(٤) تفرد به الترمذي كتاب الرضاع جـ ١٥٣/٤ رقم الحديث ١١٧٣

أمـــرهـــا عـــن ذلـــك .

ثـم يـأخـذ رحمـه اللـه ببيـان العقـوبـات الفـرديـه والعامـة الناتجـه مـن الاختلاط وكـذا الاضـرار المترتبـة علـى ذلـك فيقـول :

لا ريـب أن تمكيـن النسـاء مـن الاختـلاط بالرجـال : أصـل كـل بليـة وشـر، وهـو من أعظم اسبـاب نزول العقوبات العامـه ، كمـا أنـه مـن أسبـاب فسـاد أمـور العامـة والخاصة، واختـلاط الرجـال بالنسـاء سبـب لكـثرة الفواحـش والزنـا ، وهو من اسباب الموت العـام والطـواعيـن المتصلـه (١) .

ولمـا أختلـط البغـايـا بعسكـر مـوسـى ، وفشـت فيهـم الفاحشـة : أرسـل اللـه عليهـم الطـاعـون ، فمـات فـي يـوم واحـد سبعـون الفـا ، والقصـة مشهورة في كتـب التفـاسـير .

فمـن أعظـم أسـباب المـوت العـام : كـثرة الزنـا ، بسبـب تمكيـن النسـاء مـن اختـلاطهـن بالرجـال ، والمشـي بينهـم متبرجـات متجمـلات ، ولـو علـم أوليـاء الأمـر ما فـي ذلـك مـن فسـاد الدنيـا والـرعيـة ـ قبـل الديـن ـ لكـانـوا أشـد شـيء منعـا مـن ذلـك (٢) .

سـلطـات المحتسـب :

عرفنـا أن الحسبـة سلطـة دينيـه ، تخـول للمحتسـب القـدرة علـى تغـيير المنكـر، ونشـر المعـروف بيـن النـاس لذلـك فان مـن أهـم ما يتصـف بـه المحتسب الصرامـة فـي الحـق والشجـاعـة فـي تغـيير المنكـر وأن لا تـأخـذه فـي اللـه لـومـة لائـم فإن أسـاس وقـاعـدة أمـره ونهيـه هـذه السلطـة التـي تجعـل منـه ذا هيبـة وقـدر ويكـون مرهـوب الجانـب لذلـك يقـول ابـن القيـم :

لمـا كـان الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر لا يتـم الا بالعقـوبـات الشـرعيـة فإن اللـه يـزع بالسلطـان ما لا يـزع بالقـرآن (٣) .

وسلطـات المحتسـب مشـروعـة لأنهـا مـن بـاب التعـزيـر اذ يقـول ابـن القيـم :

واتفـق العلمـاء علـى أن التعـزيـر مشـروع فـي كـل معصيـة ليـس فيهـا حـد وهـي نـوعـان تـرك واجـب أو فعـل محـرم .

---

(١) وهـذا هـو الواقـع والمشاهـد الآن من كـثرة الامراض الجنسيـة التـي عجـز الطـب عـن الوصـول الـى عـلاجهـا وهـي مـن الطـواعيـن .

(٢) انظـر الطـرق الحكميـة : ٣٧٠ ـ ٣٧١

(٣) نفـس المرجـع : ٣٥٠

فمن ترك واجباً مع القدرة عليه كقضاء الديون ، وأداء الامانات ورد المغصوب فإنه يعاقب حتى يؤديها .

ومن سرق ما ،لا قطع فيه أو نظر الى الاجنبيه ونحو ذلك فهذا يسوغ فيه التعزير وجوباً عند الاكثريين (١)

وكثيراً ما نجد ابن القيم رحمه الله يذكر أنه يجب على المحتسب أن يباشر سلطاته التعزيرية مع مرتكبي المنكر وأن لا يتعداها الى الحدود لأنها ليست اليه كما قال : فعلى مولى الحسبة أن يأمر العامة بالصلوات الخمس في مواقيتها ، ويعاقب من لم يصلّ بالضرب والحبس ، والقتل : قالى غيره (٢) .

وقال رحمه الله بعد أن ذكر جملة من المنكرات التي يجب على المحتسب انكارها حاثاً له على استخدام سلطاته :

فعليه أن لا يهمل أمرهم وأن ينكل بهم ، ولا يرفع عنهم عقوبته (٣) .

ويتضح مما تقدم أن للمحتسب سلطة محدوده بالتعزير لا تتعداها الى اقامة الحدود .

وسوف نتطرق الى تعريف التعزير ، ومقداره ، وأنواعه ، ذاكرين ما يخص المحتسب من هذه الانواع على حسب ما يراه ابن القيم رحمه الله .

التعزير

تعريفه : عرفه ابن القيم بقوله :

التعزير في كل معصية لا حدّ فيها ولا كفاره (٤) .

وقال صاحب المغني : " هو العقوبة المشروعة على جناية لا حدّ فيها "(٥)

مقداره

هل للتعزير مقدار في أقله وأكثره والذي يراه ابن القيم أنه ليس لأقله حد (٦) .

اما عن أكثره : فقد ذكر رحمه الله خلاف العلماء في ذلك فقال :

أحدها : أنه بحسب المصلحة وعلى قدر الجريمة فيجتهد فيه ولي الأمر .

الثاني : وهو احسنها ـ أنه لا يبلغ بالتعزير في معصية قدر الحد

---

(١) انظر الطرق الحكمية : ١٤٥ وما بعدها .

(٢) نفس المرجع : ٣١٨

(٣) نفس المرجع : ٣١٩

(٤) اعلام الموقعين : ١١٨/٢

(٥) المغني لابن قدامه : ٣٢٤/٨ مكتبة الرياض الحديثه .

(٦) انظر الطرق الحكمية : ٣٥٠

فيهـا ، فـلا يبلـغ بالتعـزيـر علـى النظـر والمباشـرة حـد الزنـا ، ولا علـى السرقـة من غـير حـرز حـد القطـع ، ولا علـى الشتـم بـدون القـذف حـد القـذف وهذا قـول طائفـة من اصحـاب الشـافعي وأحمـد .

الثالـث : أنـه يبلـغ بالتعـزيـر أدنـى الحـدود ، امـا أربعيـن ، واما ثمانيـن ، وهذا قـول كثـير مـن أصحـاب الشـافعي وأحمـد وابـو حنيفـة .

الـرابـع : أنـه لا يـزاد فـي التعـزيـر علـى عشـرة أسـواط ، وهـو أحـد الاقـوال فـي مذهـب أحمـد وغـيره (١) .

الملاحـظ مـن ذكـر ابـن القيـم لهـذه الاقـوال أنـه يميـل الـى القـول الثاني عندما بـدأه بقـولـه ـ وهـو أحسنهـا ـ الا أن ذلـك يخالـف ما عهـدناه مـن منهـج ابـن القيـم رحمـه اللـه والـذي لا يحيـد عـن الدليـل وفعـل السلـف الصالـح اذا ما وجـد اليهمـا سبيـلا ، بـل ان ذلـك يخالـف قـولـه بنفسـه فـي آخـر الموضـوع عندمـا قـال :

والمنقـول عن النبي صلى الله عليـد وسلـم ، وخلفـائـه رضـى اللـه عنهـم يوافـق القول الأول فان النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم :(أمـر بجلـد الـذي وطـىء جـاريـة امرأتـه ـ وقـد أحلتهـا لـه ـ مـائـه) (٢) ، وأبـو بكـر وعمـر رضى اللـه عنهمـا : " أمـرا بجلـد مـن وجـد مـع أمـرأة أجنبيـة فـي فـراش مـائـة جلـده " ، وعمـر بـن الخطـاب رضـي اللـه عنـه : " ضـرب الـذي زوّر عليـه خاتمـه ، فأخـذ مـن بيـت المـال مـائـه " .

وعلـى هـذا يحمـل قـول النبـي صلـى اللـه عليـه وسلـم : (مـن شـرب الخمـر فاجلـدوه ، فان عـاد فاجلـدوه ، فان عـاد فـي الثالثـه ـ أو في الرابعـة ـ فاقتلـوه) (٣) فأمـر بقتلـه اذا أكـثر منـه ، ولـو كـان ذلـك حـدا لأمـر بـه فـي المـره الأولـى .

أن هـذا التعقيـب مـن ابـن القيـم مباشـرة بعـد ذكـر أقـوال العلمـاء علـى القـول الأول فقـط ولـم يعقـب علـى غيرهـا مـن الأقـوال الاخـرى ولـم يـذكـر ادلتهـا يخالـف هـذا الاستحسـان ممـا يـدعـو الـى النظـر .

بـل ان لـه نصـوصاً آخـرى فـي كتـاب آخـر يسانـد فيـه ترجيـح القـول الأول عندمـا

---

(١) الطـرق الحكميـه : ١٤٧

(٢) مسنـد الامـام أحمـد : ٢٧٥/٤ رقـم الحديـث ١٨٤٤٨ و ٥/٦

(٣) أخرجـه الترمذي ابواب الحدود باب رقـم ١٥ جـ ٥ ص ١٣٩ والنسـائـي والدارمي والشـافعي وابن حبان وصححـه قـال الترمذي وانما كان هـذا أول الامر ثـم نسـخ واستدل بفعـل النبـي ، اتـى برجـل شـرب الخمـر فـي الرابعـة فضربـه ولـم يقتلـه وبحديـث : لا يحـل دم أمرء مسلـم الا بثـلاث : النفـس بالنفـس ، والثيـب الزانـي ، والتـارك لدينـه .

قال : ان التعزير لا يقدر بقدر معلوم ، بل هو بحسب الجريمة في جنسها وصفتها وكبرها وصغرها ، وعمر بن الخطاب قد تنوعت تعزيراته في الخمر ، فتارة يحلق الرأس ، وتارة بالنفي ، وتارة بزيادة أربعين سوطا على الحد الذي ضربه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارة بتحريق حانوت الخمار ..... ثم أخذ يعدد ما فعله الصحابة رضوان الله عليهم في تعزيراتهم التي لم تتوقف عند حد بل يراعى فيها المصلحة العامة ودرء الفساد عن الامة ثم أخذ يطرح الافتراضات ويجيب عنها بما يوافق الاختيار والذي يراه وهو أن التعزير ليس له حد في اكثره وانما ذلك لتقدير الامام وما تقتضيه المصلحة (١) .

فهذه النصوص ترجح أن هذا الاستحسان ليس من نص ابن القيم وليس من رأيه وانما هي داخلة على النص الاصلي لامور ، منها مخالفتها لمنهج ابن القيم ومنها مخالفتها باقي النص وترجيح القول الاول وذكر ادلته ، ومنها النص الآخر وفي الموضع الآخر من الكتاب الآخر ، والذي يرجح القول الاول ، ومنها توجيه مراد النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : (لا يجلد فوق عشرة أسواط الا في حد من حدود الله) (٢) ، على أن الحد في لسان الشرع أعم منه في لسان الفقهاء فيراد به مرة عقوبات الجنايات المقدره في الشرع ويراد به تارة نفس الجنايه كقوله تعالى : ((تلك حدود الله فلا تقربوها) (٣) وقوله تعالى: ((تلك حدود الله فلا تعتدوها))(٤) والمراد من حديث رسول الله الجنايات التي هي حق الله فإن قيل : فاين تكون العشرة فما دونها إذ كان المراد بالحد الجناية .

قيل : ضرب الرجل امرأته ، وعبده ، وولده ، وأجيره للتأديب ونحوه فانه لا يجوز أن يزيد على عشرة أسواط (٥) .

أنواع التعزير

اذ عرفنا أن ليس للتعزير حد في أكثره ، فانه كذلك ليس له نوع معين يجب أن لا يتعداها المعزر ، بل ان عقوبة التعزير يسوغ فعلها في كل ما يقع فيه العقوبة والردع سواء كان ذلك مادي أو معنوي وسوف نتطرق الى أنواع العقوبات التعزيرية التي ذكرها ابن القيم .

---

(١) اعلام الموقعين : ٤٨/٢

(٢) رواه الترمذي في كتاب الحدود برقم ١٤٦٣ وأخرجه مسلم في كتاب الحدود : ١٣٣٣/٣

(٣) الاية من سورة البقره : ١٨٧

(٤) الاية من سورة البقره : ٢٢٩

(٥) اعلام الموقعين : ٤٨/٢

أولاً : التعزيرات المعنوية

عرفنا أن التعزير عقوبة والعقوبة تقع على النفس ، والبدن ، والمال ، وهي تختلف باختلاف الاشخاص والمقادير والاجناس والصفات وباختلاف أحوال الجرائم وكبرها وصغرها .

والتعزير المعنوي هو الذي يتعلق بالنفس أكثر منه في البدن وقد يؤدي فيمن كان قلبه حيّاً اكثر من العقوبه البدنية أو المالية .

قال ابن القيم عن التعزير المعنوي :

والتعزير : منه ما يكون بالتوبيخ ، وبالزجر ، وبالكلام ، ومنه ما يكون بالهجر ، والنفي وقد عزر بهما النبي صلى الله عليه وسلم وأخرج المخنثين من المدينه ونفاهم ، وكذلك الصحابة من بعدهم كما فعل عمر رضي الله عنه بالأمر بهجر صبيغ ، ونفى نصر بن حجاج (١) .

وللمحتسب استخدام جميع هذه العقوبات المعنوية وما يدخل في مسمها كالحبس .

ثانياً : التعزيرات البدنية

وهي نوعان : الأول الضرب

وهذا النوع من العقوبة أحد سلطات المحتسب فله أن يضرب على ترك الصلاة والنظر الى النساء وترك الواجبات ونحو ذلك كما قال ابن القيم :

واذ كان على ترك واجب ، كأداء الديون ، والامانات والصلاة ، والزكاه ، فانه يضرب مرة بعد مره ، ويفرق الضرب عليه يوماً بعد يوم حتى يؤدي الواجب (٢).

النوع الثاني : القتل

عرفنا فيما سبق أن ابن القيم يرجح القول بأن التعزير ليس له حد وانما هو بحسب المصلحة التي يراها الامام لذلك فانه يجيز التعزير بالقتل حيث قال :

وانه يسوغ - أي التعزير - بالقتل اذا لم تندفع المفسدة الا بمثل قتل المفرق لجماعة المسلمين ، والداعي الى غير كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم (٣) .

وقال رحمه الله بعد أن ذكر خلاف العلماء في قتل الجاسوس المسلم :

والصحيح أن قتله راجع الى رأي الامام ، فان رأى في قتله مصلحة للمسلمين قتله ، وان كان استبقاؤه أصلح استبقاه (٤) .

---

(١) انظر الطرق الحكمية : ٣٥٠ - ٣٥١

(٢) نفس المرجع : ٣٥٠ وانظر ١٤٦

(٣) نفس المرجع والصفحه .

(٤) زاد المعاد : ٤٢٣/٣

الا أن القتل ليس من سلطات المحتسب وليس له أن يقوم بذلك وانما ذلك راجع للامام حيث يقول ابن القيم : وأما القتل فالى غيره (١) .

التعزيرات المالية

يرى ابن القيم ان التعزيرات المالية مشروعة ولا مجال للقول بخلاف ذلك حيث قال :

وقد جاءت السنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن اصحابه بذلك في مواضع :

منها أمره صلى الله عليه وسلم بكسر دنان الخمر وشق ظروفها ، ومثل أمره لعبدالله بن عمر بحرق الثوبين المعصفرين ، وهدمه مسجد الضرار ، وتحريق متاع الغال .....

وأخذ يعدد رحمه الله الأمثلة التعزيرية المالية من فعل النبي صلى الله عليه وسلم والتي تدل على جوازه وأنه من سنن النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم ذكر فعل الصحابة رضي الله عنهم مثل تحريق عمر وعلي المكان الذي يباع فيه الخمر (٢) بل استدل بما جاء في كتاب الله من فعل الانبياء عليهم أفضل الصلاة والتسليم كقوله :

أخبر الله سبحانه عن كليمه موسى عليه السلام : أنه أحرق العجل الذي عبد من دون الله ، ونسفه في اليم ، وكان من ذهب وفضه وذلك محقاً له بالكليه. وقال عن خليله ابراهيم عليه السلام : ((فجعلهم جذاذا))(٣) وهو الفتات وذلك نص في الاستعمال (٤) .

وبعد أن ذكر هذه الامثال قال :

وهذه قضايا صحيحة معروفة وليس يسهل دعوى نسخها ، ومن قال أن العقوبات المالية منسوخة ، وأطلق ذلك فقد غلط على مذهب الائمة نقلاً واستدلالاً فأكثر هذه المسائل : سائغ في مذهب أحمد وغيره وكثير منها سائغ عند مالك وفعل الخلفاء الراشدين وأكابر الصحابة لها بعد موته صلى الله عليه وسلم مبطل ايضاً لدعوى النسخ ، والمدعون للنسخ ليس معهم كتاب ولا سنة ، ولا اجماع يصحح دعواهم الا أن يقول مذهب أصحابنا عدم جوازها

---

(١) الطرق الحكمية : ٣١٨

(٢) نفس المرجع : ٣٥٢

(٣) الاية من سورة الانبياء : ٥٨

(٤) انظر الطرق الحكمية : ٣٦٠

ويكون مذهب اصحابه عيار على القبول والرد (١) .

فاذا كانت العقوبات الماليه جائزة عند ابن القيم فما هو الحد الذي يجوز للمحتسب أن يستخدمه في ازالة المنكر وله السلطة في ازالته واتلافه :

والحد الذي له هو أنه يجوز له اتلاف المنكرات من الاعيان والصور مثل اتلاف الاصنام المعبودة من دون الله واتلاف مادتها ، وكسر القبور المبني عليها وتسوية مشرفها ، واتلاف آلات الملاهي كالطنبور والشطرنج ، واتلاف الخمر وزقاقها وقتل الخنزير وكسر الصليب وحك الصور وكسر الاواني المحرمة من الذهب والفضه ونزع الخاتم الذهب من يد الرجل واتلافه واحراق الكتب المضله ، وافساد ثوب المرأة اذا خرجت متجملة ونحو ذلك من المنكرات وليس عليه ضمان فيما أتلفه من ذلك (٢) .

---

(١) انظر تفصيل رده على من قال بالنسخ الطرق الحكميد : ٣٥٣ وما بعدها .
(٢) راجع ذلك في الطرق الحكمية ٣٥١ الى ٣٦٨

الخاتمـــــــه

بعد هـذه الجولـه فـي تـراث ابن القيـم رحمـه اللـه ، وضـح منهجـه فـي الدعـوة الـى اللـه تعالـى وفكـره الأصيـل وبانـت معالـم الدعـوة عنـد ابـن القيـم رحمـه اللـه .

اسـأل اللـه جلـت قـدرتـه أن يتجـاوز عن التقصـير ويغفـر الزلـل انـه سميع مجيب .

وقـد اتضـح لـي مـن خـلال هـذه الدراسـة :

أولا : أن التراث الفكرى عنـد ابن القيـم يمثـل منهجـا دعـويـا متكـاملا يمكـن أن يكون رائـد المدارس الدعـويـة فـي هـذا العصـر لمسـايرتـه روح العصـر الـذى نعيـش فيـه .

ويستحـق أن يوفـر لـه أصحـاب الهمـم أوقـاتهـم لدراستـه دراسـة أوسـع مـن هـذه الدراسـه ووضـع موسـوعـة دعويـه تكـون مرجعـا للدعـاة فـي البـلاد الاسـلاميـة .

ثانيا : ان مسـامـرة آثـار هـذا الامـام تثـير فـي النفـس الولـع بحـب اللـه ورسـولـه والايمـان العميـق لمـا يتمتـع بـه هـذا الداعيـة من توضيـح لمقاصـد الشريعة وتفهـم لروحهـا ومعرفـة بأحـوال النـاس والمجتمـع .

ثالثا : ان دعـوة ابن القيـم توقـع فـي النفـس الاطمئنـان بمذهـب السلـف ومعرفـة معرفـة حقيقيـة تدفعـه الى التمسـك بـه وراحـة النفـس اليـه .

يقـول الشيـخ محمـد رشيـد رضـا : " ولا نعـرف في كتـب علماء السنـة أنفع وألجمع بين الأصل والفرع من كتـب شيـخ الاسـلام ابن تيميـة ، وابن القيـم رحمهمـا اللـه تعالى ، وانني أقـول عـن نفسـي : انني لم يطمئـن قلبـي بمذهـب السلـف تفصيـلا الا بممارسة هـذه الكتـب " (١) .

وذلـك لاتخاذهـم منهجـاً جـديـدا فـي نشـر المذهـب والرد علـى المخالفيـن وهـو الجمـع بين العقـل والنقـل فـي دعوتهمـا .

رابعا : قـد يتبـادر الـى ذهـن البعض وهو يتجـول فـي فكـر هـذا الداعيـة وهو يحقـق مسـألـه من المسائـل سـواء كانـت عقديـة أوشـرعيـة أو تربـويـه ، أن ما يكتبـه خيالات وروحانيـات لا يمكـن أن تتحقـق فـي سلـوك البشـر أو أن هـذه صـور خاصـة بالملائكـة والرسـل الاطهـار .

---

(١) تفسـير المنـار : ٢٥٣/١

من حسن ما يراه من تصوير ابن القيم رحمه الله لمثالية الاسلام وواقعيته ومثالية المؤمن وما يجب أن يكون عليه في سلوكه مع ربه سبحانه وتعالى وعباده .

أقول له انها بالفعل مثالية واقعية ، وليست خيالات .

لقد عاشها ابن القيم واقعاً وعاشها غيره ممّن منّ الله عليهم ، بمعرفته سبحانه وتعالى ، بأسمائه ، وصفاته .

وقد قالوا : إن كل إناء بما فيه ينضح ، وما قرأته هو نضح ابن القيم رحمه الله ، وما ذلك الا بسبب صحة اعتقاده بربه .

وهذا يدل على أن صحة اعتقاد العبد في ربه هي الطريق الموصل الى المثالية في كل شيء ولا يمكن أن يصل أحد الى المثالية الا بذلك .

خامساً: أن ابن القيم من أعظم اعلام المدرسة السلفية الذين نذروا أنفسهم للدفاع عنها ونشر منهجها فتحصل له من الخير والبركه والدعاء الشيء الكثير وجزاؤه على الله سبحانه ، فقد حرص رحمه الله على تكوين الدعاة الصالحين المحبين لله الداعين اليه قولاً وعملاً الباذلين في سبيله النفس والنفيس الحريصين على العمل الصالح ، الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر لا تأخذهم في الله لومة لائم متحلياً بالاخلاص والصبر والتقوى يقوده في ذلك كله العلم باصول الشريعة وفروعها على منهج الكتاب والسنه .

كما حرص على تربية الامة تربية اسلامية ،وتكوين المجتمع المسلم ،الذي تسوده المحبة والمودة والأمن والأمان والبرّ والتقوى بعيداً عن البدع والخرافات مبيناً المسلك الصحيح في تربية الامه ومحذراً من المهلكات .

سادساً: تبين أن الدعاة هم نور يمشي على الأرض لا يراهم كثير من الناس مع شدة نفعهم وبركتهم وأن الارض تظلم بفقدهم .

سابعاً : أن المحاربين للدعوة السلفيه ينبعث عداؤهم من أهوائهم ولجاجتهم وتمسكهم بالموروث وأن دعواهم لا تستند الى دليل ولا برهان والحق أبلج ونور الشمس لا يطفأ بالأفواه .

فهـــــرس الآيـــــات

	الآيـــه	الصفحـــه
	البقـــــــره	
قال تعالى :((أولئك علـى هدى من ربهـم))	٥	١٩٣
"" "" ((مثلهم كمثل الذي استوقد نارا))	١٧	١٨٧
"" "" ((الذي جعل لكـم الأرض فراشا))	٢٢	٤٧
"" "" ((وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا))	٢٣	٦٥،١١٢،١١٩
"" "" ((قلنا اهبطـوا منها جميعـا))	٣٨	١١٩
"" "" ((واستعينوا بالصبر والصـلاة))	٤٥	٩٠
"" "" ((لن نؤمن لك حتى نـرى اللـه جهـرة))	٥٥	٦١
"" "" ((كذلـك يحـى اللـه الموتـى))	٧٣	١٩٦
"" "" ((ما يود الذين كفروا من أهل الكتـاب))	١٠٥	٣٩٥
"" "" ((ودّ كـثير من أهـل الكتـاب))	١٠٩	٣٩٥
"" "" ((وقالت اليهود ليسـت النصـارى على شـيء))	١١٣	١٢
"" "" ((ولن ترضى عنـك اليهود ولا النصارى))	١٢٠	٣٩٥
"" "" ((ومن كفـر فأمتعـه قليـلا))	١٢٦	٤٣١
"" "" ((ربنا وجعلنـا مسلميـن لـك))	١٢٨	١٢٠
"" "" ((ما تعبدون مـن بعـدي))	١٣٣	١٢٠
"" "" ((وكذلـك جعلناكـم أمـة وسطـا))	١٤٣	٢٥
"" "" ((الذيـن آتيناهـم الكتاب يعرفونـونـه))	١٤٦	١٩٦
"" "" ((وبشـر الصـابريـن))	١٥٥	١٥٢
"" "" ((ان فـي خلـق السموات والأرض))	١٦٤	٤٤،٤٦
"" "" ((واذا قيـل لهـم اتبعوا ما أنزل اللـه))	١٧٠	٢٠٦،٢٨٧
"" "" ((مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعـق))	١٧١	٥٦
"" "" ((يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام))	١٨٣	١٠٥
"" "" ((واذا سـألك عبادى عنـي))	١٨٦	٣٥٨
"" "" ((تلـك حـدود اللـه فـلا تقربـوهـا))	١٨٧	٤٥١
"" "" ((وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم))	١٩٠	٢١٤،٢٢٠
"" "" ((ولا تلقوا بأيديكـم الـى التهلـكـة))	١٩٥	٤١١
"" "" ((الحج أشهـر معلـومـات))	١٩٧	٣٥٤
"" "" ((يأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلـم))	٢٠٨	٣٠
"" "" ((كتب عليكم القتال وهو كره لكـم))	٢١٦	١٠،١٣٤،١٥٥،٢٢٢
"" "" ((والفتنـة أكـبر من القتـل))	٢١٧	٢٢٠
"" "" ((واثمهمـا أكـبر من نفعهمـا))	٢١٩	١٣٤
"" "" ((ولا تنكحـوا المشركات حتى يؤمن))	٢٢١	٢٨٣
"" "" ((وما أنـزل عليكـم من الكتـاب))	٢٣١	١٧٧،١٨٢
"" "" ((من ذا الذي يشفـع عنـده الا بأذنـه))	٢٥٥	٢٦٣،٤٣٠
"" "" ((فمن يكفـر بالطاغوت ويؤمن باللـه))	٢٥٦	٣٦
"" "" ((ولا تيمـو الخبيـث تنفقـون))	٢٦٧	٨٦
"" "" ((يؤتي الحكمـة من يشـاء))	٢٦٩	١٧٣

	الآيـــه	الصفحـه
قال تعالى :((فمن جاءه موعظـة من ربـه فانتهى))	٢٧٥	٣٢٥
"" "" ((لا يكلـف اللـه نفسـاً الا وسعهـا))	٢٨٦	٨٨،٨٥
آل عمـــران		
قال تعالى :((ان الدين عند اللـه الاسـلام))	١٩	١٢٠،٢٩
"" "" ((قـل ان كنتم تحبون اللـه فاتبعونـي))	٣١	٢٢١،٧٩
"" "" ((واللـه يحـب الصابريـن))	٤٦	١٥٢
"" "" ((ان مثـل عيسى عند اللـه كمثل آدم))	٥٩	٣٢١
"" "" ((ومن يبتغي غير الاسـلام دينـا))	٨٥	١٢٠،٢٩،٣
"" "" ((وللـه على الناس حج البيت من استطـاع اليـه سبيـــلا))	٩٦و٩٧	١٠٧
"" "" ((ولتكن منكم امة يدعون الى الخـير))	١٠٤	٣٧٤،٣٧٣،٢٤،٥،٤
"" "" ((كنتم خير أمة أخرجة للنـاس))	١١٠	٣٧٦،٣٧٤،٢٤،٤
"" "" ((ان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهـم))	١٢٠	١٥٢
"" "" ((ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانـه))	١٢٨	٣٩٥
"" "" ((هذا بيان للناس وهدى وموعظـة))	١٣٨	١٨٢
"" "" ((وما محمد الا رسول قـد خلـت من قبلـه الرســـل))	١٤٤	٢٣١
"" "" ((أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط))	١٦٢و١٦٣	٢٠
"" "" ((لقد من الله على المؤمنين اذ بعث فيهم رسـولا))	١٦٤	١١٦،٧٢
"" "" ((ان في خلق السموات والأرض))	١٩٠	٥٤،٤٦،٤٥
"" "" ((ياأيها الذين آمنوا اصبروا))	٢٠٠	٣٣٩
النســـــــاء		
قال تعالى :((يوصيكم اللـه في أولادكم))	١١	٣٠٢
"" "" ((وآتيتم احداهن قنطـاراً))	٢٠	٢٨١
"" "" ((فاذا أحصن فان أتين بفاحشـة))	٢٥	٣٢٤
"" "" ((ولا تقتلـوا انفسكـــم))	٢٩	٤١١
"" "" ((فكيف اذا جئنا من كل أمة بشهيد))	٤١	٧٩
"" "" ((ان اللـه لا يغفـر أن يشـرك بـه))	٤٨	٤١٦
"" "" ((ان اللـه يأمركم أن تؤدوا الأمانات))	٥٨	٣٩٦
"" "" ((فان تنازعتم في شيء فردوه الى اللـه ورسـولـــد))	٥٩	٣١٢،٢٩٩،٢٦٠
"" "" ((أولئك الذين يعلـم اللـه مافي قلوبهم))	٦٣	١٨٢
"" "" ((قل متاع الدنيا قليل والآخرة خـير))	٧٧	١٥٩
"" "" ((ما أصابك من حسنـة فمـن اللـه))	٧٩	١٨٥

	الآيـــه	الصفحـــه
قال تعالى :((أفـــلا يتدبـرون القـرآن))	٨٢	١٢٣،٤٣
"" "" ((لا يستوى القاعـدون من المؤمنيـن غـــير أولـى الضـــرر))	٩٥	٢٠
"" "" ((وأنزل اللـه عليـك الكتاب والحكمـة))	١١٣	١٧٣
"" "" ((ومن أحسـن دينـا ممن أسلـــم))	١٢٥	١٢٣
"" "" ((لـن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله))	١٧٢	١١٢

المائـــــده

قال تعالى :((اليـوم أكملـت لكـم دينكـم))	٣	٣٠٠،١١٦،١٣
"" "" ((وما علمتـم مـن الجـوارح))	٤	٣٢٣،٣٠٧
"" "" ((ما يريـد الله أن يجعل عليكم من حرج))	٦	٣٥٤،٩٥،٨٦
"" "" ((قـد جاءكـم من الله نور وكتاب مبيـن))	١٥و١٦	٢٩
"" "" ((لقد كفـر الذين قالوا ان الله هو المسيح))	١٧	٤٣٠
"" "" ((ولقد جاءتهـم رسلنا بالبينـات))	٣٢	٦٤
"" "" ((ومن لـم يحكـم بما أنزل اللـه))	٤٤	٣٦٧
"" "" ((وأن احكـم بينهم بما أنزل اللـه))	٤٩	٣١٢
"" "" ((يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون))	٥٤	٢٢١
"" "" ((لعن الذين كفروا من بني اسرائيل))	٧٨و٧٩	١٧٢،٦
"" "" ((ياأيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر))	٩٠	٣١١
"" "" ((ذلك لتعلموا أن اللـه يعلـم))	٩٧	٣٢٠
"" "" ((واذا قيل لهم تعالوا الى ما أنزل الله))	١٠٤	٢٨٧

الأنعـــــام

قال تعالى :((ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن))	٦	٣٢١
"" "" ((فلما نسـوا ما ذكـروا بـه))	٤٤	٤٣١
"" "" ((وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم))	٨٣	٢٠٦
"" "" ((ولتنذر أم القرى ومن حولهـا))	٩٢	١٨
"" "" ((قد جاءكـم بصائـر من ربكـم))	١٠٤	١٩٦
"" "" ((ولا تسبوا الذين يدعون من دون اللـه))	١٠٨	٣٢٨
"" "" ((الله أعلـم حيـث يجعـل رسالتـه))	١٢٤	٣٢٢
"" "" ((وأوفوا الكيل والميزان بالقسـط لا نكلـف نفسـا الا وسعهـــا))	١٥٢	٣٨٩،٨٥
"" "" ((ان تقولوا انما أنزل الكتاب على طائفتين))	١٥٦	٣٢٠
"" "" ((قل ان صلاتـي ونسكـي ومحياي ومماتـي للـــه رب العالميـــن))	١٦٢و١٦٣	١٤٥

الأعـــــراف

قال تعالى :((ربنا ظلمنا انفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا))	٢٣	٣٥٦

	الآيـــه	الصفحـــه
قال تعالى :((واذا فعلو فاحشة قالوا وجدنا عليهـــا آبـاءنـــا))	٢٨و٢٩	١٢٢
" " ((خـذوا زينتكـم عنـد كـل مسجـد))	٣١	٩٥
" " ((قل انما حرم ربـي الفواحـش))	٣٣	٣٩٤،١٣٩،١٢٢
" " ((أدعوا ربكم تضرعـاً وخيفـة))	٥٥و٥٦	٣٥٧
" " ((أعبد الله مالكم من إلـه غـيره))	٥٩	١١١
" " ((واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً))	١٤٨	٥٥
" " ((الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الـذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيـل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكـــر))	١٥٧	٣٨٩،٣٨٥،٣٨٤،٣٧٥،١٧٨،١٢٢،١٢١،٧٠
" " ((فلما نسوا ما ذكروا بـه أنجينـا))	١٦٥	٣٧٢
" " ((واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهـورهـم ذريتهـــم))	١٧٢	٣٨
" " ((ولقـد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس))	١٧٩	٣٣٦
" " ((ولله الاسماء الحسنـى))	١٨٠	٣٥
" " ((واما ينزغنـك من الشيطان نـزغ))	٢٠٠	٣٦٠

الأنفـــال

قال تعالى :((ذلك بأنهم شاقوا اللـه ورسـولـه))	١٣	٣١٩
" " ((ليميز اللـه الخبيث من الطيـب))	٣٧	١١٨
" " ((ليهلـك من هلـك عـن بينـــه))	٤٢	٢١٨
" " ((ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فأثبتوا))	٤٥	٧٨
" " ((واصبروا إن اللـه مع الصابريـن))	٤٦	١٥١
" " ((ذلـك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها))	٥٣	١٤

التـوبـــــه

قال تعالى :((قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكـــم وأزواجكـم وعشيرتكـــم))	٢٤	٢١٤
" " ((اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربـابـاً))	٣١	٢٨٦
" " ((والذين يكنزون الذهب والفضـه ولا ينفقونها في سبيل اللـــه))	٣٤	٨٧
" " ((فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم))	٥٥	٨٧
" " ((كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة))	٦٩	٤٢٩
" " ((والمؤمنون والمؤمنـات بعضهم أولياء بعض))	٦١	٣٧٥
" " ((ياأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين))	٧٣	٢٣
" " ((والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار))	١٠٠	٣٠٣
" " ((خـذ من أموالهـم صـدقـة))	١٠٣	٣٥٤
" " ((ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهـم))	١١١	٢٢١

	الآيـــه	الصفحـــه
قال تعالى :((ما كان للنبي والذين آمنوا معـه أن يستغفروا للمشركيـــن))	١١٣	٣٢٥
" " " ((وما كان اللـه يضل قوما بعد اذ هداهم))	١١٥	٣٢٥
" " " ((ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مـع الصادقيـن))	١١٩	٣٠٤،١٦٢
" " " ((وما كان المؤمنون لينفـروا كافـة))	١٢٢	٥

يـونـــــس

قال تعالى :((قل لو شاء الله ما تلوتـه عليكم ولا أدراكم بـــه))	١٦	٦٨
" " " ((كذلـك نفصـل الآيات لقوم يتفكرون))	٢٤	١٩٦
" " " ((والله يدعـوا إلـى دار السـلام))	٢٥	١
" " " ((أم يقولون أفتراه قل فأتوا بسورة مثله))	٣٨	٦٥
" " " ((ياأيها الناس قد جاءتكم موعظـة من ربكـم وشفـاء))	٥٧و٥٨	٨٤
" " " ((قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا))	٥٨	٣٤٨
" " " ((فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثـم لا يكـن أمركم عليكـم غمّـة))	٧١	٣٠٦
" " " ((فإن توليتم فما سألتكم من أجـر))	٧٢	١٢٠
" " " ((إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلـوا))	٨٤	١٢٠

هـــــــود

قال تعالى :((أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله))	١٣	٦٥
" " " ((من كان يريد الحياة الدنيا وزينتهـا نـوف إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون))	١٦	٣٥٣
" " " ((وما نراك الا بشـرا مثلنـا))	٢٧	٣٢١
" " " ((والى ثمود أخاهم صالحـا))	من ٦١ الى ٨٤	١١١
" " " ((وكلاً نقص عليك من أنباء الرسـل))	١٢٠	١٩٠،١٤٣

يـوســـــف

قال تعالى :((نحن نقص عليك أحسن القصص))	٣	١٩٠
" " " ((وشروه بثمـن بخـس دراهـم))	٢٠	١٩١
" " " ((كذلـك لنصـرف عنه السوء والفحشـاء))	٢٤	٢٨
" " " ((وما أبرئ نفسي إن النفس لأمّارة بالسوء))	٥٣	٣٤٥
" " " ((إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجـر المحسنيـن))	٩٠	١٥٢
" " " ((قل هذه سبيلـي أدع الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنـي))	١٠٨	٤،٥،٦،١٢٥،١٢٧، ١٣٦،١٤١

	الآيـــه	الصفحه
قال تعالى :((أفلم يسيروا في الأرض فينظروا))	١٠٩	١٩٩
"" "" ((لقـد كان في قصصهـم عـبره))	١١١	١٩٠
الـرعـــــــد		
قال تعالى :((ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون))	٣	١٩٦
"" "" ((وفي الأرض قطع متجاورات وجنـات))	٤	١٩٨
"" "" ((ان اللـه لا يغير ما بقوم حتى يغيروا مـا بأنفسهـم))	١١	٣٣٩،١٥٤،١٥
"" "" ((أفمن يعلم انما أنزل اليك من ربك الحـق كمن هو أعمـى))	١٩	١٩٧،١٢٨
"" "" ((الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله))	٢٨	٣٤٤
ابـراهيـــــم		
قال تعالى :((لتخرج الناس من الظلمات الى النـور))	١	١٨
"" "" ((أفـي اللـه شـــك))	١٠	٣٧
"" "" ((ان نحن الا بشـراً مثلكم ولكن الله يمن على من يشـــاء))	١١	٣٢٢
الحـجـــــر		
قال تعالى :((وان كان أصحاب الأيكة لظـالمين))	٧٨و٧٩	٢٠٠
النـحـــــل		
قال تعالى :((ويخلـق مالا تعلمـون))	٨	١٩٨
"" "" ((هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منـه شـــراب))	١١	١٩٨
"" "" ((ليحملـوا أوزارهـم كاملـه))	٢٥	٢٧
"" "" ((فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فلبئس مثـوى المتكبريـن))	٢٩	١٥٧
"" "" ((للذين أحسنوا في هـذه الدنيا حسنـه))	٣٠	١٨٣
"" "" ((ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً ان اعبدوا اللـه))	٣٦	٣٦
"" "" ((قال ربي بما اغويتني لأزينـن لهم فـي الأرض))	٣٩-٤٢	٣٤٤
"" "" ((فاسـألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون))	٤٣	٢٩٠
"" "" ((وما أنزل عليـك الكتـاب الا لتبين لهـم الذي أختلفوا فيـه))	٦٤	١٣
"" "" ((وضرب اللـه مثـلاً رجلين أحدهما أبكم))	٧٦	٥٧
"" "" ((ان اللـه يأمر بالعدل والاحسان))	٩٠	١٨٤،١٨٢

	الآيه	الصفحه
قال تعالى :((ما عندكم ينفد وما عند الله باق))	٩٦	١٥٧
"" "" ((من عمل صالحا من ذكر أو انثى وهو مؤمن))	٩٧	٣٥٢
"" "" ((فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم))	٩٨	٣٦٠
"" "" ((انما سلطانه على الذين يتولونه))	٩٩	٣٤٣
"" "" ((ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنه وجادلهم بالتي هي أحسن))	١٢٥	٤، ١٧٠، ٢٠٤

الاسراء

قال تعالى :((سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى))	١	١١٩
"" "" ((كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك))	٢٠	٤٣١
"" "" ((ولا تقربوا الزنا أنه كان فاحشة وساء سبيع))	٣٢	١٩٢، ٤٤٥
"" "" ((ان السمع والبصر والفؤاد كل اولئك كان عنه مسئولا))	٣٦	٣٣٣
"" "" ((قل لو كان معه آلهة كما يقولون اذا لبتغوا الى ذى العرش سبيلا))	٤٢	٥٣
"" "" ((واذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون الا اياه))	٦٧	٣٨
"" "" ((ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم في البر والبحر))	٧٠	٥٢
"" "" ((وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين))	٨٢	٣٤٨
"" "" ((قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثله))	٨٨	٦٥

الكهف

قال تعالى :((فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا))	١١٠	١٤٥
"" "" ((ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا))	١٧	٢٦٣
"" "" ((ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق))	٥٦	٢٠٥
"" "" ((واما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى))	٨٨	٨٢
"" "" ((قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الي))	١١٠	١١٤

مريم

قال تعالى :((وجعلني مباركا اينما كنت))	٣١	٢٢٦
"" "" ((يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر))	٤٢	٥٥
"" "" ((فخلف من بعدهم خلف اضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات))	٥٩	١٤
"" "" ((واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا))	٨١	٥٦
"" "" ((الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا))	٩٦	٣٥١

	الآيـــه	الصفحـــه
طـــــــه		
قال تعالى :((طـه، ما أنزلنا عليـك القرآن لتشقى))	من ١ الى ٦	٢٧٠
"" "" ((له ما في السموات وما في الارض وما بينهما وما تحـت الثـــرى))	٥	٢٧٣،٣٤٩
"" "" ((اذهبـا الى فرعـون أنـه طغـى))	٤٣	٣٢٩
"" "" ((قال اهبطا منها جميعاً بعضكـم لبعـض عـــدو))	من ١٢٣ الى ١٢٦	١٢٠
"" "" ((ولا تمـدن عينيـك الى ما متعنا بـــه أزواجاً منهـم))	١٣١	١٥٩
الأنـبيـــاء		
قال تعالى :((لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا))	٢٢	٥٣
"" "" ((وما أرسلنا من قبلـك من رسول الا نوحـي اليـــه))	٢٥	٣٣،١١٢
"" "" ((ولقد آتينا ابراهيم رشـده من قبـل))	من ٥١ الى ٦٨	٢٠٦
"" "" ((فجعلناهم جذاذا الا كبيراً لهم))	٥٨	٢٠٦،٤٥٣
"" "" ((هذا يومكـم الذي كنتم توعـدون))	١٠٣	١٩٣
"" "" ((وما ارسلناك الا رحمة للعالمين))	١٠٧	١١٥
الحـــــج		
قال تعالى :((ومن الناس من يجادل في الله بغير علم))	٣	٢٠٥
"" "" ((ياأيها الناس ان كنتم في ريب من البعث))	٥	٤٩
"" "" ((وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود))	٢٦	١٠٨
"" "" ((فاجتنبوا الرجـس من الأوثـان))	٣٠	٣٠،٣٧٤
"" "" ((حنفـاء لله غـير مشركيـن بـــه))	٣١	١٠٨
"" "" ((لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن ينـالـه التقـوى منكـم))	٣٧	٨٦
"" "" ((أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهـم لقـدير))	٣٩و٤٠	٢١٤،٢١٩،٢٢٣
"" "" ((الذين ان مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة))	٤١	٣٧٥،٣٩١
"" "" ((أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلـــوب يعقلـون بهـا))	٤٦	٣٣٥
"" "" ((ياأيها الناس ضـرب مثل فاستمعـوا لـه))	٧٣و٧٤	٥٥،٣٥٨
المـؤمنـــون		
قال تعالى :((أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأتي أباءهم الاولين))	٦٨	٤٣
"" "" ((أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكـرون))	من ٦٨ الى ٧٠	٦٧
"" "" ((ما تخذ الله من ولد وما كان معـه من الـه))	٩١	٥٤

	الآيـــه	الصفحـــه
النـــــور		
قال تعالى :((الذين يرمون المحصنات ثم لم يأتـــوا بأربعـة شهـداء))	٤	٣٠٧،٣٢٣
"" "" ((ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكـم من أحـــد))	٢١	١٤٧
"" "" ((وتوبوا الى الله جميعـاً أيه المؤمنون لعلكـم تفلحـون))	٣١	٣٦٥
"" "" ((والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي علـى بطنـــه))	٤٥	١٩٨
"" "" ((وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهـــم))	٥٥	١٤
الفـــرقـــان		
قال تعالى :((تبارك الذي أنزل الفرقان على عبده))	١	١١٢
"" "" ((وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القـرآن جملة واحده كذلك لنثبت به فؤادك))	٣٢	٣٣٥
"" "" ((انهم الا كالانعام بل هم أضل سبيلا))	٤٤	٢٠
"" "" ((وهو الذي جعل لكم اليل لباسـاً والنـــوم سباتـاً))	٤٧	٥١
"" "" ((ولو شئنا لبعثنا في كل قريـة نذير ، فـلا تطـع الكافريـــن))	٥١،٥٢	٢٢
"" "" ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا))	٦٣	١٥٦
"" "" ((والذين لا يدعون مع الله الهاً آخر ولا يقتلون النفـس التي حـــرم))	٦٨	١٩٢
"" "" ((قل ما يعبـؤا بكم ربي لولا دعاؤكـم))	٧٧	٣٥٨
الشـعـــــراء		
قال تعالى :((قال لإن اتخذت الها غيرى لاجعلنـك مـن المسجونيـــن)	٢٩	١٩١
"" "" ((قالوا بل وجدنا أباءنا كذلك يفعلون))	من ٧٤ الى ٧٧	٧٧
"" "" ((الا من أتى اللـه بقلـب سليـم))	٨٩	٣٤٣
"" "" ((قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون))	١١١	٤٠
"" "" ((قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكـن مـــن الواعـظيـن))	١٣٦	١٨٢
"" "" ((وأنذر عشيرتك الأقربيـــن))	٢١٤	١٨

	الآيـــه	الصفحـــه
النمـــــــل		
قال تعالى :((ولا تقولوا لما تصف السنتكم الكذب هذا حلال وهـذا حـــرام))	١١٦و١١٧	١٤١
القصـــــص		
قال تعالى :((ان كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها))	١٠	١٩١
"" "" ((فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحيـــن))	٦٧	٨٢
"" "" ((قل أرأيتم أن جعل الله عليكم النهار سرمدا))	٧٢	١٩٦
"" "" ((قال انما أوتيتـه على علـم عنـدى))	من ٧٨ الى ٨٢	٣٥٣
"" "" ((ادع الى ربك ولا تكوننن من الممتريـن))	٨٧	٤
العنكبـوت		
قال تعالى :((الم ، أحسب الناس أن يتركوا))	١و٢	١٤٩
"" "" ((فأنجيناه واصحاب السفينة وجعلناهم آيـه))	١٥	١٨٧
"" "" ((وعاد وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزيـن لهم الشيطـان))	٣٨	٢٠٠
"" "" ((مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثـــل العنكبـوت))	٤١	٥٦
"" "" ((وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون))	٤٣	١٨٧
"" "" ((ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكـر))	٤٥	٣٥٤،١٨٣،٩٠
"" "" ((ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن))	٤٦	٢٠٤
"" "" ((ولئن سألتهـم من خلق السموات والأرض وسخـــر الشمـس))	٦١	١٧٧
"" "" ((فاذا ركبوا في الفلك دعوا اللـه مخلصين له الدين))	٦٥	١٧٥
الـــــــــروم		
قال تعالى :((يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا))	٧	١٧
"" "" ((ومن آياتـه أن خلقكـم من تراب ثـم اذا أنتـــم بشـــر تنتشـرون))	من ٢٠ الى ٢٢	٤٥
"" "" ((فأقم وجهك للدين حنيفـا فطرة اللـه))	٣٠	١٧٤
الأحـــــــزاب		
قال تعالى :((النبي أولى بالمؤمنيـن))	٦	٨٠
"" "" ((لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنـه))	٢١	١٦٤،١٣٥
"" "" ((ليجزى اللـه الصادقيـن بصـدقهـم))	٢٤	١٦٢
"" "" ((واذكرن ما يتلـى في بيوتكـن من آيات اللـه))	٣٤	٢٩٠

	الآيـــه	الصفحـــه
ســـــــبأ		
قال تعالى :((ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربـك هـو الحـــق))	٦	٣٠٤،١٢٨
"" "" ((ان في ذلك لآيات لكل صبار شكـور))	١٩	١٥٢
"" "" ((الا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جـــزاء الضعـــف))	٣٧	٨٢
"" "" ((قـل انمـا اعظكـم بواحدة أن تقومـوا للـــه مثنى وفرادى ثم تتفكـروا))	٤٦	٦٨
يـــــــــس		
قال تعالى :((ان هو الا ذكر وقرآن مبين لينذر من كان حيا))	٦٩و٧٠	٣٤٨،٤٢
"" "" ((أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت ايدينـــا انعـامـــا))	٧١	٢٧٣،٥٠
الـصـافـــات		
قال تعالى :((فنظر نظرة في النجوم ، فقال اني سقيم))	من ٨٨ الى ٩٢	٢٠٨
"" "" ((وانكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل افـــلا تعقلـون))	١٣٧و١٣٨	٢٠٠
ص		
قال تعالى :((واذكر عبدنا داود ذا الايدى انه أواب))	١٧	١١٢
"" "" ((كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا آياتـه))	٢٩	٤٣
"" "" ((نعـــم العبـــد انـه أواب))	٣٠	١١٢
"" "" ((واذكر عبدنا أيوب اذ نادى ربـه))	٤١	١١٢
"" "" ((واذكر عبدنا ابراهيم واسحاق ويعقوب أولى الايـدى))	٤٥	٢٦
"" "" ((ما منعـك أن تسجـد لما خلقـت بيـدى))	٧٥	٢٦٢
الـــزمـــــر		
قال تعالى :((قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون))	٩	١٧
"" "" ((قل اللـه أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ماشئتم))	١٤و١٥	١٤٥
"" "" ((ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل))	٢٧	١٩٧
"" "" ((ومن يهدى اللـه فما لـه من مضـل))	٣٧	٢٦٣
"" "" ((قل للـه الشفاعـة جميعـا))	٤٤	٤٣٠
"" "" ((اليـس في جهنـم مثوى للمتكبريـن))	٦٠	١٥٧
"" "" ((لئـن أشركـت ليحبطـن عملـك))	٦٥	٢٦٣
غـافـــــــر		
قال تعالى :((ذلـك بأنـه اذا دعى اللد وحدد كفرتـم))	١٢	٣١٩

	الآيـــه	الصفحـــه
قال تعالى :((يلقي الروح من أمـره على من يشـاء))	١٥	١٢٣
"" "" ((اللـه الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيـه))	٦١	٥١
"" "" ((اللـه الذي جعل لكم الأرض قـراراً والسمـاء بنـاء))	٦٤	٤٧
"" "" ((أفلـم يسـيروا في الأرض فينظـروا كيف كـان عاقبـة الذيـن من قبلهـم))	٨٢	٢٠٠

فصلـــت

قال تعالى :((ومن أحسن قولاً ممن دعـا الى الله وعمـل صالحاً))	٣٣	٣١٩،٢٢
"" "" ((ومن آياتـه الليل والنهار والشمس والقمر))	٣٧	٥١
"" "" ((ومن آياتـه أنـك ترى الأرض خاشعـة فاذا أنزلنا عليها المـاء))	٣٩	٣٢١
"" "" ((سـنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتـى يتبيـن لهم أنـه الحـق))	٥٣	٢٠١

الشـــورى

قال تعالى :((ليـس كمثلـه شيء وهو السميع البصـير))	١١	٣٠٢،٣٤٩،٢٤٧
"" "" ((لا حجة بيننـا وبينكـم اللـه يجمع بيننا واليه المصـير))	١٥	٢٠٣
"" "" ((وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم))	٣٠	٢٠١،١٥٥ ،١٤
"" "" ((وكذلك أوحينا اليك روحاً من أمرنـا))	٥٢	١٢٣،٨٥

الـزخـــــرف

قال تعالى :((وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثا))	١٩	٣٤
"" "" ((انا وجدنا آبائنا على أمه وانا على آثـارهـم مهـتدون))	٢٢	٢٨٠،٣٩
"" "" ((أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنـا بينهـم معيشتهـم))	٣٢	٣٢٢
"" "" ((فلمـا أسفـونـا انتقمنـا منهـم))	٥٥	١٨٥

الـدخـــــان

قال تعالى :((فانما يسرناه بلسانـك لعلهم يذكـرون))	٥٨	١٧٦

الجـاثيـــــه

قال تعالى :((ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين))	من ٣ الى ٥	٤٥
"" "" ((أم حسـب الذين اجترحوا السيئـات أن نجعلهـم كالذيـن آمنـوا))	٢١	٣١٨

	الآيـــه	الصفحـه
قال تعالى :((وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا))	٢٤	٣٧
"" "" ((ذلكم بأنكـم اتخذتم آيات الله هـزوا))	٣٥	٣١٩

محمـــــــد

قال تعالى :((أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيـف كان عاقبة الذين من قبلهـــم))	١٠	٣١٨،٢٠٠
"" "" ((حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين أتـــوا العلـــم))	١٦	٣٠٤

الحجـــــرات

قال تعالى :((ياأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى اللـــه ورسولـــه))	١	٥٩

ق

قال تعالى :((ان في ذلـك لذكرى لمن كان له قلـب))	٣٧	٣٣٥

الذاريـــــات

قال تعالى :((وفي الأرض آيـات للموقنيـن))	من ٢٠ الى ٢٣	١٧٨
"" "" ((وفي انفسكـم أفـلا تبصـرون))	٢١	٤٩
"" "" ((والارض فرشناها فنعم الماهدون))	٤٨	٤٧
"" "" ((وذكر فإن الذكرى تنفـع المؤمنيـن))	٥٥	٤٠
"" "" ((وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون))*	٥٦	٣٣٣،١١٨،١١١،٨٥
"" "" ((ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون))	٥٧	٨٥

الطـــــــور

قال تعالى :((أم يقولون تقـوله بـل لا يؤمنون فليأتـــو بحديـث مثلـــه))	٣٣و٣٤	٦٥

النجـــــــم

قال تعالى :((والنجـم اذا هـــوى))	١	٤٧
"" "" ((وما ينطـــق عـن الهـــوى))	٣	١٧٤
"" "" ((ان يتبعون الا الظن وما تهوى الأنفس))	٢٣	٤٢٨

القمـــــــــر

قال تعالى :((اقتربت الساعـة وانشق القمر ، وان يروا آيـة يعرضـــوا))	١و٢	٦٩
"" "" ((تجـــرى بـأعيننـــا))	١٤	٢٧٣
"" "" ((أكفاركم خـير من أولئك أم لكم براءة))	٤٣	٣١٨

	الآيـــه	الصفحـــه
الـرحـمـــــن		
قال تعالى :((والسماء رفعها ووضع الميزان))	٧	٣١٦
الـواقـعـــــه		
قال تعالى :((فلا أقسم بمواقع النجوم))	٧٥	٤٧
الحـديـــــد		
قال تعالى :((سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم))	من ١ الى ٦	٢٧٢
"" "" ((اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينه))	٢٠	١٥٩
"" "" ((لقد ارسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان))	٢٥	٢١٨
المـجـادلـــــه		
قال تعالى :((لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حادّ الله ورسوله))	٢٢	٧٤
الحـشـــــر		
قال تعالى :((تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى))	١٤	٢٥٧
"" "" ((ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد))	١٨	٣٦١
"" "" ((وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون))	٢١	٣١٧،١٩٦
"" "" ((هو الله الذي لا اله الا هو الملك القدوس السلام المؤمن))	من ٢٣ الى ٢٥	٣٥
الـصـــــف		
قال تعالى :((ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم))	من ١٠ الى ١٣	١٨٤
الـجـمـعـــــه		
قال تعالى :((هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم))	٢	١٧٧،١٣٠
الـتـغـابـــن		
قال تعالى :((فاتقوا الله ما ستطعتم))	١٦	٣٩٨،٣٧٤
الـطـــلاق		
قال تعالى :((ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر))	٢	١٨٢

	الآيـــه	الصفحـــه
التحـــــريـــم		
قال تعالى :((ياأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا))	٦	٨
الملـــــــك		
قال تعالى :((الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عمـــــلا))	٢	١١٤،١٤٥
القلـــــــم		
قال تعالى :((ن ، والقلم وما يسطـــرون))	١	٢٣٨
"" "" ((وانك لعلى خلـــق عظيـــم))	٤	١٦٤
"" "" ((أفنجعل المسلمين كالمجرمين ، مالكم كيـــف تحكمـــون))	٣٥،٣٦	٣١٨
الحـــاقـــه		
قال تعالى :((فلا أقسم بما تبصرون))	٣٨	١٩٨
نـــــــوح		
قال تعالى :((فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا))	من ١ الى ١٢	١١
الجـــــــن		
قال تعالى :((وأنه لما قام عبدالله يدعوه كادوا يكونـــون عليه لبـــدا))	١٩	١١٩
المدثـــــــر		
قال تعالى :((ياأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر))	من ١ الى ٣	١٨
القـــيامـــه		
قال تعالى :((ولا أقسم بالنفس اللوامـــه))	٢	٣٤٦
الانســـــان		
قال تعالى :((فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نظـــرة وســـرورا))	١١	٢٧
"" "" ((وجوه يومئـذ ناضره ، الى ربها ناظـره))	٢٢و٢٣	٢٦٣
المـــرســـلات		
قال تعالى :((كلـوا وتمتعـوا قليـلا أنكم مجرمون))	٤٦	١٩٣

	الآيـــه	الصفحـــه
الـنـازعـــات		
قال تعالى :((أأنتـم أشـد خلقـا أم السماء بناهـــا))	٢٧	٤٦
الـتـكـويـــر		
قال تعالى :((وما تشـاءون إلا أن يشـاء اللـه))	٢٩	١٤٧
الـمـطـفـفـيـــن		
قال تعالى :((ويـل للمطففين ، اللذين اذا اكتالوا على الناس يستوفـون))	١و٢	٣٨٩
الـبـــــروج		
قال تعالى :((والسمـاء ذات الـبروج))	١	٤٦
الـطـــــارق		
قال تعالى :((فلينظـر الانسـان مما خلـــق))	٥	٤٩
"" "" ((والسمـاء ذات الـرجـــع))	١١	٤٦
الأعـلـــــى		
قال تعالى :((فـذكـر ان نفعـت الـذكـــرى))	٩	١٧٦،٤٠
الـغـاشـيـــــه		
قال تعالى :((أفلا ينظرون الى الابـل كيف خلقـــت))	من ١٧ الى ٢٠	١٧٨،٥٠
"" "" ((فـذكـر إنمـا أنـت مـذكـــر))	٢١	١٧٦،٤٠
الـشـمـــــس		
قال تعالى :((الشمـس وضحاهـــا))	١	٤٦
"" "" ((والسمـاء وما بنـاهـــــا))	٥	٤٦
"" "" ((ونفـس وما سواها ، فألهمهـا فجورهـــا وتقـواهـا))	٧و٨	١٩
"" "" ((قـد أفلـح من زكاها ، وقـد خاب من دساها))	٩و١٠	١٣٠
الـشـــــرح		
قال تعالى :((الم نشـرح لـك صدرك ،، ووضعنـا عنـك وزرك))	من ١ الى ٤	٥٨
"" "" ((الم نشـرح لـك صـدرك))	١	٣٣٥
الـعـلـــــق		
قال تعالى :((الـذي علـم بالقلـــم))	٤	٢٣٨

	الآيـــــه	الصفحـه
البـيـنـــــه		
قال تعالى :((وما أمروا الا ليعبدوا الله مخلصين له الدين))	٥	١٤٥
العـصـــــر		
قال تعالى :((والعصـر إن الانسان لفي خسـر إلا الذيـــن آمنوا وعملوا الصالحات))	كامله	٢٣
الاخـــــلاص		
قال تعالى :((قل هو الله أحـد اللـه الصمـد لـم يلـــد ولم يولـد ولم يكن لـه كفوا احـدا))	كامله	٢٧٢،٥٢
النـــــاس		
قال تعالى :((الـوســواس الخنـــــاس))	٤	٣٥٥

فهـــــرس الأحـــاديـــث والآثـــــار

الحديث	الراوي	الصفحة
أ		
آمركم بأربع ثم قال : الايمان بالله	مسلم	٣١
آمركم بالصيام فان مثل ذلك مثل رجل في عصابة	الترمذي	١٠٦
آمركم أن تذكروا الله	أحمد	٣٥٥
الايمان أن تؤمن بالله	البخاري	٣٢،٢٤٤
أبغض الرجال الى الله	البخاري	٢٠٥
أتعجبون من غيرة سعد	الدرامي وأحمد	٧٩
أتى النبي صلى الله عليه وسلم باناء	متفق عليه	٦٩
أختلاس يختلسه الشيطان	البخاري	٩١،١٤٧
اذا أمرتكم بأمر فآتوا منه	متفق عليه	٧،٨٨
اذا أمرتكم بشيء	مسلم	٣٧٤
اذا توضأ العبد المسلم	مسلم	٩٥
اذا حزبه أمر فزع	أحمد	٩٠،١٣٤
اذا قال الله أكبر : شاهد كبرياءه	مسلم	٩٦
اذا قرأ ابن آدم	مسلم	٩٨
أرأيت لو تمضمضت بماء	أحمد	٣٢٠
استأخرن فإنه ليس لكن	ابو داود	٣٩٠
الإسلام أن تشهد أن لا اله الا الله	البخاري	٣٠،٣٢،١١٣،٢٤٤
إشتدّ غضب الله	أحمد	٤٢٧
الصدقة تطفىء غضب الرب	الترمذي	١٠١
الصدق يهدى الى البرّ	البخاري	١٦٢
الصوم جنة	مسلم	١٠٥
العهد الذي بيننا وبينهم	الترمذي	٨٩
أغدو على بها	أحمد	٣٩١
اقرأ على	متفق عليه	٧٩
الكيس من دان نفسه	أحمد والترمذي	٣٦١
الا ان في الجسد مضغة	البخاري	٣٣٤
اليس يحرمون ما أحل الله	الترمذي وابن جرير	٢٨٦
اما الركوع فعظموا فيه الرب	مسلم	٩٧
أمر بجلد الذي وطيء	أحمد	٤٥٠
المرأة عورة فاذا خرجت	الترمذي	٤٤٧
أنا أغنى الشركاء عن الشرك	مسلم	١٤٦
إن الرفق لا يكون في شيء	مسلم	٤٠٠
إن الله أوحى إلى أن تواضعوا	مسلم	١٥٦
إن الله جميل يحب الجمال	مسلم	٢٢٣
إن الله رفيق يحب الرفق	متفق عليه	٤٠٠
إن الله طيباً لا يقبل إلا طيب	مسلم	٩٩

الحديث	الراوي	الصفحة
ان الله لم ينزل داء	أحمد	٣٣٢
ان الله هو القابض الباسط	أحمد	٤٤٢
ان الله ورسوله حرم	البخاري	٤٣٤
ان أهل الجنه ليترا ءون	مسلم	٢١
ان أول ما يسأل عنه العبد	الطبراني في الأوسط والمنذري في الترغيب والترهيب	٩٠
انتدب الله لمن خرج في سبيله	البخاري	٢١٥
ان روح القدس معك	مسلم	٢٧١
انشق القمر على عهد رسول الله	البخاري	٦٩
ان طول صلاة الرجل	مسلم	٢٣٦
ان في الجنة مائة درجه	البخاري	٢١٥
انك ستأتي قوم من أهل الكتاب	مسلم	٨١،١٦
انما جعل الاستئذان من أجل البصر	متفق عليه	٣٢٠
أن يسلم قلبك لله	أحمد	٣١
أوتيت جوامع الكلم	متفق عليه	١٧٤
أيكم ينطلق إلى المدينه	أحمد	٣٩١
أيما عبد من عبادي	النسائي	٢١٥
ب		
بلغوا عني ولو آية	البخاري	٤
بين الرجل وبين الكفر	مسلم	٨٩
ت		
تركتكم على المحجة البيضاء	أحمد وابن ماجه	٢٦٧
ث		
ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن	ابن ماجه	١٤٥
ج		
جاهدوا في سبيل الله	أحمد	٢١٥
جوف الليل وأدبار الصلوات	الترمذي	٩٩
خ		
خير القرون قرني ثم	البخاري	٢٦٤،٣٠٤
ر		
رأس الأمر الاسلام	الترمذي	٨٩

الحديث	الراوي	الصفحة
رب صائم حظه من صيامه	أحمد	١٠٥
رباط يوم في سبيل الله	البخاري	٢١٥
رده صلى الله عليه وسلم عين قتاده	البيهقي	٦٩
س		
سأل أهل مكة أن يريهم آيه	البخاري	٦٩
ط		
طلب العلم فريضه	ابن ماجه	١٧
ع		
عليكم بسنتي	أحمد والترمذي	١٢٧، ٢٨٨
ف		
فإذا كان يوم صوم	مسلم	٣٥٤
فارجع فلن أستعين بمشرك	مسلم	٣٩٥
ق		
قتلوه قتلهم الله	ابو داود	٢٩٢
ك		
كان اذا خطب أحمرت عيناه	مسلم	٢٣٨
كان خلقه القرآن	مسلم	١٦٤
كان رسول الله أجود الناس	الترمذي	١٦٥
كان خطبة ليس فيها	الترمذي	٢٣٤
كل عمل ابن آدم له	مسلم	١٠٦
كلكم راع	البخاري	٨
كل مولود يولد	البخاري	٧٥
كيف تصنع ان عرض	أحمد	٣٢٢
ل		
لأقضين بينكم بكتاب الله	البخاري	٢٨٨، ٢٩٢
لأن يهدى الله بك	البخاري	٢٦
لا تبيعوا التمر حتى يبدوا	البخاري	٤٣٤
لا تبيعوا الدرهم بالدرهمين	أحمد	٤٣٧
لا تلعنه فانه يحب الله	البخاري	٤١٣
لا ، ما أقاموا الصلاة	أحمد	٤٠٢
لا نورث ما تركناه	البخاري	٣٠٢

الحديث	الراوي	الصفحة
لا يبيع حاضر لباد	البخاري	٤٤١
لا يجلد فوق	مسلم	٤٥١
لا يحتكر الا خاطئ	مسلم	٤٤٠
لا يدخل الجنه	مسلم	١٥٧
لا يحل سلف وبيع	الترمذي	٤٣٧
لا ينبغي لاحد يأمر بالمعروف	المعتمد للقاضي ابى يعلى	٣٩٩
لا ينصرف حتى يجد	البخاري	٣٢٦
لتتبعن سنن	البخاري	١٧
لغدوة في سبيل الله	البخاري	٢١٥
لكل داء دواء	مسلم	٣٣٢
لكن حافات الطريق	ابو داود	٤٤٧
ليست بنجس	أحمد	٣٢٠
ليس الشديد بالصرعه	البخاري	١٦١
م		
ما أخذت ((ق))	مسلم	٢٣٥
ما أنزل الله من داء الا	البخاري	٣٣٢
ما تركت بعدي فتنه	مسلم	٤٤٧
ما تقرب الى عبدي	البخاري	٣٥١
ما زلتم ههنا	مسلم	٣٠٤
ما من قوم عملوا	الترمذي	٣٧٥
ما من نبي بعثه الله	مسلم	٣٧٥،٤
ما هذا ياصاحب الطعام	مسلم	٣٩٠
محمد عبدي ورسولي	البخاري	١٦٥
مثل ما بعثني الله به	مسلم	٢٥
مفتاح الصلاة الطهور	ابو داود	٩٤
من أعتق شركا في عبد	البخاري	٤٤٤
من اغبرت قدماه	أحمد والترمذي	٢١٥
من تواضع لله رفعه	مسلم	١٥٦
من دعا الى هدى	مسلم	٢٧٠١
من رأى من أميره	البخاري	٤٠٨
من رأى منكم منكرا	مسلم	٤٠٩،٣٧٥،٣٧٣،٤
من شرب الخمر فاجلدوه	الترمذي	٤٥٠
من صام رمضان ايمانا	البخاري	٣٨١
من قاتل لتكون	البخاري	١٤٦
من كانت الآخره همه	أحمد	٨٧
من لم يدع قول الزور	البخاري	١٠٤
" من هذا " فقلت عبدالله بن عمر	أحمد	٣٩٠

الحديث	الراوي	الصفحة
ن		
نظر الله أمرأ سمع	ابن ماجه	٢٧
نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم	البخاري	٤٣٥
و		
والذي نفسي بيده لا يؤمن	البخاري	٧٨
وان وجدته غريقاً	متفق عليه	٣٢٦
ومن يتبصر يبصره الله	البخاري	٣٣٢
ي		
يابلال أرحنا	أحمد وابو داود	١٣٤
يأتي الشيطان أحدكم فيقول	البخاري	٣٦٠
يارسول الله والله	البخاري	٧٩
يطبع المؤمن على الخلال	أحمد	١٦٢
يعمد الى جمره من نار	مسلم	٣٩٠

الآثار

الأثر	الراوي	الصفحة
أبشر فوالله لن يخزيك	البخاري	٦٧
الجمع بين الاختين أحلتهما	الموطأ	٢٨٣
اما أن تزيد واما	الموطأ	٤٤٢
ان أخواني من المهاجرين	البخاري	٢٨١
ان الناس قد شربوها	مسلم	٣٢٣
ان هذا والذي جاء به موسى	ابن اسحاق والبداية والنهاية	٦٣
حاسبوا أنفسكم قبل	الترمذي	٣٦١
رأينا لرأيك تبع	ابو الربيع سليمان الكلاعي	٢٩٢
كان علم التيمم عند عمار	البخاري	٢٨١
كل أحد أعلم منك	ابو داود	٢٨١
لا أعلم شركا أعظم	البخاري	٢٨٣
هذا هو الناموس	البخاري	٦٣
هل كان من آبائه ملكاً	البخاري	٦٧

فهـــــرس الأعـــــلام المـتـرجـــم لهـــــم

العلم	الصفحة
أ	
أبراهيم بن خالد بن ابى اليمان المشهور بالكلبى	٦
أبراهيم بن سرى بن سهل الزجاج	٣٤
أحمد بن عبدالحليم ابو البركات ابن تيمية	٣، ٣١، ٦٢، ٦٤، ٩٥، ١٦٠، ١٧٥، ٢٠٤، ٢١٤، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٩٧، ٣٠٨، ٣٢٨، ٣٣٦، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٧
الجعد بن درهم مبتدع	٢٤٩
الحسن بن يسار البصرى أبو سعيد	٨٥
الربيع بن أنس بن زياد البكرى	٢٨٦
الفضيل بن عياض بن مسعود	١١٤، ١٤٥
النعمان بن ثابت ابو حنيفه	٢٨٢، ٢٨٥، ٢٨٨
الليث بن سعد بن عبدالرحمن	٢٨٢
ب	
بشر بن غياث المريس معتزلي	٢٥٧
بكر بن عبدالله المزنى	١٣٨، ٣٢٣
بكر بن محمد بن العلاء القشيري	٢٨٥
ح	
حسان بن عطية المحاربى	٩١
خ	
خالد بن عبدالله بن زيد القشرى	٢٤٩
د	
رفيع بن مهران الرياحى البصرى	٢٨٦
س	
سعيد بن مالك ابو سعيد الخدري	٨٤
سفيان بن سعيد الثوري	٢٨٥، ٢٨٩
ع	
عامر بن قيس التميمي	٢٣٧
عبدالرحمن بن زيد بن اسلم	٥٧
عبدالرحمن بن على ابن الجوزى ابو الفرج	١٨٩
عبدالسلام بن محمد الجبائى	٢٥٧
عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب	٥٨، ٨٤، ١٣٨، ٢٩٠، ٣٣٠

العلم	الصفحة
عبدالله بن مسلم بن قتيبة	١٧٢
عبدالله بن هارون الرشيد المأمون	٢٩٤
عبدالملك بن عبدالعزيز بن جريج	٢٨٢
عبدالملك بن عبدالعزيز بن عبدالله ابن الماجشون	٢٨٢
عبيد بن عمير بن قتاده	١٨٩
علي بن ابي علي بن محمد بن سالم المعروف بابن سينا	٢٥١
علي بن أحمد بن محمد الواحدى	٣٣١
عياض بن موسى بن عياض اليحصبي عالم المغرب	١١٣
ق	
قتادة بن دعامه بن قتاده البصرى	٨٥،٥٨
ك	
كارل ماركس	١٦
م	
مالك بن أنس بن مالك امام دار الهجرة	٤٤٦،٢٨٩
مجاهد بن جبير أبو الحجاج شيخ المفسرين	٣٤،٣١
محمد بن زنكي نور الدين الملقب بالملك العادل	٢٥١
محمد بن عبدالرحمن بن ابى ليلى	٢٨٢
محمد بن عبدالوهاب بن سلام الجبائى	٢٥٧
محمد بن علي بن محمد ابن عربى	٢٥٣
محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين فخر الدين الرازي	٢٥٣
محمد بن محمد بن محمد بن الحسين نصير الدين الطوسى	٢٥٢
محمد بن محمد بن محمد العميدى أبو حامد	٢٥٢
محمد بن يزيد المشهور بالمبرد	٣٣١
منصور بن عبدالجبار ابو المظفر السمعانى	١٢٦،١٢٤
هـ	
هلال بن يساف ولعله هلال الرأى	٨٤
ي	
يعقوب بن ابراهيم بن حبيب أبو يوسف صاحب ابى حنيفه	٢٨٩،٢٨٥
يوسف بن أيوب بن شادى صلاح الدين الأيوبي	٢٥١
يوسف بن عبدالله بن محمد ابن عبدالبر أبو عمر	٣٢٣،٣٠٧،٢٩٤،٢٨٩

فهـــــرس المصـــادر والمـراجـــع

أولا : كتب ابن القيم

١ - اجتماع الجيوش الاسلاميه على غزو المعطلة والجهمية ، ط الأولى ١٤٠٤هـ دار الكتب العلميه بيروت .

٢ - احكام أهل الذمه ، حققه د. صبحي الصالح ، ط الثانيه ١٩٨٣م بدار العلم للملايين .

٣ - اعلام الموقعين عن رب العالمين ، راجعه وعلق عليه طه عبدالرؤف سعد ، ط ١٤٠٠هـ مطابع الاسلام الناشر مكتبة الكليات الأزهريه .

٤ - اغاثة اللهفان من مصايد الشيطان ، بتحقيق وتصحيح محمد حامد الفقي دار المعرفه بيروت ، توزيع مكتبة المعارف بالرياض .

٥ - أمثال القرآن ، منتخب من اعلام الموقعين ، تحقيق سعيد محمد نمر ، ط الثانيه ١٤٠٣هـ دار المعرفه بيروت .

٦ - بدائع الفوائد ، بمطابع دار الفكر بدون تاريخ .

٧ - تحفة المورود في أحكام المولود ، تصحيح وتعليق عبدالحليم شرف الدين ط الثانيه مطابع مقهوي الكويت .

٨ - تفسير سورة الفاتحه بتحقيق محمد حامد الفقي مكتبة السنه المحمديه وهو منتخب من مدارج السالكين .

٩ - تهذيب مختصر سنن أبي داود ، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد الفقي الناشر دار المعرفه بيروت .

١٠ - التبيان في اقسام القرآن ، بعناية طه يوسف شاهين دار الكتاب العربي .

١١ - جلاء الافهام في الصلاة والسلام على خير الانام ، حققه محي الدين مستو ط الأولى ١٤٠٨هـ دار ابن كثير دمشق .

١٢ - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ط الأولى ١٤٠٣هـ دار الكتب العلميه بيروت .

١٣ - حادي الارواح الى بلاد الأفراح ، حققه عادل عبدالمنعم ابو العباس مكتبة الساعي الرياض .

١٤ - حكم تارك الصلاة أو الصلاة وحكم تاركها ، بتحقيق تيسير زعيتر ، ط الثانيه ١٤٠٥هـ المكتب الاسلامي دمشق .

١٥ - رساله الى كل مسلم ، راجعها وعلق عليها د. أسامه محمد عبدالمنعم ط الأولى ١٤٠٤هـ مطبعة المدني .

١٦ - الرساله التبوكيه ، حققها طارق السعود ، ط الثالثه ١٤٠٥هـ دار الهجرة بيروت مكتبة المنار الاردن .

١٧ - روضة المحبين ونزهة المشتاقين ، تحقيق د. السيد الجميلي ، ط الأولى ١٤٠٥هـ الناشر دار الكتاب العربي .

١٨ - الروح ، بتحقيق عادل عبدالمنعم ابو العباس مكتبة الساعي الرياض .

١٩ - زاد المعاد في هدى خير العباد ، تحقيق شعيب الأرناؤطي وعبدالقادر ، ط الثامنه ١٤٠٥هـ مؤسسة الرساله .

٢٠ - شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، بعناية السيد محمد بدر الدين أبو الفراس ، ط الأولى على نفقة السادات أحمد ناجي ومحمد أمين الخانجي

سنة ١٣٢٣هـ مكتبة الرياض الحديثه الرياض .
٢١ - أ - الصواعق المرسله على الجهميه والمعطله ، حققه د. علي بن محمد الدخيل الله ، ط الأولى ١٤٠٨هـ دار العاصمه الرياض .
ب - الصواعق المنزله على الطائفه الجهميه والمعطله ، تحقيق د. أحمد عطيه الغامدي د. علي ناصر فقهي ، ط ١٤٠٧هـ مطابع الجامعه الاسلاميه .
٢٢ - طريق الهجرتين وباب السعادتين ، ط الأولى ١٤٠٢هـ دار الكتب العلميه بيروت .
٢٣ - الطرق الحكمية في السياسه الشرعيه ، تحقيق د. محمد جميل غازي مطبعة المدني .
٢٤ - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين ، تحقيق محمد عثمان الخشت ، ط الثانيه ١٤٠٦هـ دار الكتاب العربي .
٢٥ - الفروسيه بعناية السيد عزت العطّار الحسيني دار الكتب العلميه بيروت بدون تاريخ.
٢٦ - الفوائد ، حققها جماعة من العلماء ، ط الأولى ١٤٠٣هـ دار الكتب العلميه بيروت .
٢٧ - الكافيه الشافيه في الانتصار للفرقة الناجيه ، شرحها وحققها د. محمد خليل هراس ، ط الأولى ١٤٠٦هـ دار الكتب العلميه بيروت .
٢٨ - مدارج السالكين بين منازل اياك نعبد واياك نستعين ، راجعها لجنه من العلماء ، ط الأولى بدون تاريخ دار الكتب العلميه بيروت .
٢٩ - مختصر الصواعق المرسله ، أختصر الشيخ محمد بن الموصلي ط ١٤٠٥هـ دار الندوة الجديدة بيروت .
٣٠ - مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والاراده ، ط ١٤٠٢هـ الناشر دار نجد طبع دار الفكر بدمشق .
٣١ - هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى ، دار النور للطباعه والنشر المانيا الغربيه.
٣٢ - الوابل الصيب والكلم الطيب ، تحقيق عبدالقادر الأرنؤطي ، ط دار البيان دمشق .

ثانيا : المصادر والمراجع من غير كتب ابن القيم

أ

٣٣ - القرآن الكريم .
٣٤ - ابن قيم الجوزيه حياته واثاره د. بكر بن عبدالله أبو زيد ، ط الأولى ١٤٠٠هـ مطابع دار الهلال الرياض .
٣٥ - ابن القيم وحسن البلاغي في تفسير القرآن ، د. عبدالفتاح لاشين ، ط الأولى ١٤٠٢هـ دار الرائد العربي بيروت .
٣٦ - البدايه والنهايه ، للحافظ ابن كثير ط الأولى ١٣٥١هـ دار الفكر العربي -
٣٧ - البيان والتبيين ، للجاحظ ، ط الرابعه بمكتب الخانجي بمصر .
٣٨ - التبصير في الدين وتميز الفرقه الناجيه عن الهالكين ، أبو المظفر الاسفرائيني تحقيق وتخريج الشيخ محمد زاهد ، ط الأولى ١٩٤٠ نشر عزت العطار مكتبة الثقافه الاسلاميه القاهره .
٣٩ - التفسير القيم للامام ابن القيم ، جمعه وحققه محمد حامد الفقي ط ١٣٩٨هـ دار الكتب العلميه بيروت .

٤٠ - التقريب لفقه ابن القيم ، د . بكر بن عبدالله ابو زيد ، ط الأولى عام ١٤٠١هـ مطابع دار الهلال للأوفست الرياض .
٤١ - الجامع لاحكام القرآن ، لابي عبدالله محمد الأنصاري القرطبي ، ط الثانيه تصحيح آحمد عبدالعظيم البروني ٣١٧٣هـ مطبعة دار الكتب المصريه .
٤٢ - أحياء علوم الدين الامام ابى حامد الغزالى سنه ٥٠٥هـ طبع دار الندوة الجديده بيروت .
٤٣ - الحروب الصليبيه في المشرق والمغرب ، لمحمد العروسى المطوى ، طبع دار المغرب الاسلامي عام ١٩٨٢م .
٤٤ - الحسبة تعريفها ومشروعيتها وحكمها د. فضل الهى ، ط الأولى ١٤١٠هـ ، مكتبة المعارف الرياض .
٤٥ - الحسبة في الاسلام ، شيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية ٧٢٨هـ تحقيق سيد بن محمد بن ابى سعيده ، ط الأولى ١٤٠٣هـ نشر وتوزيع مكتبة دار الأرقم الكويت .
٤٦ - الحسبة في العصر النبوى والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم ، د. فضل الهي ، ط الأولى ١٤١٠هـ مكتبة المعارف الرياض .
٤٧ - الاحكام السلطانيد ، لابى الحسن علي بن محمد الماوردى ٤٥٠هـ دار الكتب العلميه بيروت بدون تاريخ .
٤٨ - الاحكام في اصول الاحكام ، لابن حزم الظاهرى ، تحقيق محمد بن أحمد بن عبدالعزيز ، ط الاولى عام ١٣٩٨خ مطبعة الامتياز .
٤٩ - الاحكام في أصول الاحكام للأمام سيف الدين علي بن محمد الآمدى ، ط ١٤٠١هـ دار الفكر للنشر والتوزيع .
٥٠ - أخبار القضاه ، لمحمد بن خلف بن حيان عالم الكتب بيروت بدون تاريخ .
٥١ - الخطابه أصولها وتاريخها في أزهر عصورها عند العرب ، لمحمد أبو زهره ط الثانيه دار الفكر العربي بيروت .
٥٢ - ادع الى سبيل ربك ، د. مصلح سيد بيومي ، ط الرابعه ١٤٠٦هـ دار القلم الكويت .
٥٣ - الدارس في تاريخ المدارس ، لعبدالقادر محمد النعيمي ، تحقيق جعفر الحسيني، ط ١٩٤٨م مطبعة الترقى دمشق .
٥٤ - الدعوة الى الله في سورة ابراهيم ، لمحمد بن سيدى بن الحبيب ط الاولى ١٤٠٦هـ دار الوفاء جده .
٥٥ - الدعوة الاسلاميه في عهدها المكي مناهجها وغاياتها ، د. رؤوف شلبي ، ط الثالثه ١٤٠٢هـ دار القلم الكويت .
٥٦ - أدلة التشريع المختلف الاحتجاج بها ، د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الربيعه ط الثانيه ١٤٠١هـ مطابع الرياض .
٥٧ - أزهار الرياض في أخبار عياض ، لشهاب الدين أحمد بن محمد المقرىء التلمساني تحقيق مصطفى السقا وغيره منشور المعهد الخليفي للابحاث المغربيد ط ١٣٥٨هـ لجنة التأليف والترجمه والنشر القاهره .
٥٨ - أسد الغابه في معرفة الصحابه ، للامام عز الدين ابى الحسن على بن ابى الكرم المعروف بابن الاثير ، دار احياء التراث العربي بيروت .

٥٩ - السلوك لمعرفة دول الملوك ، للمقريزى ، نشر محمد مصطفى زياده ط ١٩٣٦م دار الكتب المصريه .
٦٠ - السياسه الشرعيه لشيخ الاسلام ابن تيميه دار المعرفه للطباعة والنشر بيروت .
٦١ - السيره النبويه لابن هشام ، حققها مصطفى السقا وابراهيم الابيارى وعبدالحفيظ شلبي .
٦٢ - الصحاح لاسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق أحمد عبدالغفور عطاء ، ط الثانيه ١٣٩٩هـ دار العلم للملايين بيروت .
٦٣ - اصول التربيه الاسلاميه واساليبها ، لعبدالرحمن التحلاوى ط الاولى ١٣٩٩هـ دار الفكر دمشق .
٦٤ - أصول الدعوة عبدالكريم زيدان ط الثالثه ١٣٩٦هـ دار عمر بن الخطاب للطباعه الاسكندريه.
٦٥ - الطبقات ، لخليفه بن خياط ، تحقيق د. اكرم ضياء العمرى ط الثانيه ١٤٠٢هـ دار طيبة الرياض .
٦٦ - العبر للذهبي الطبعه الاولى دار الكتب العلميه .
٦٧ - اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، للفخر الرازى ، ط ١٣٩٨هـ شركة الطباعه الفنيه المتحدة العباسيه .
٦٨ - العقل وفهم القرآن للحارث المحاسبى ، قدم له وحقق نصوصه حسين القوتلى ط ١٣٩٨هـ دار الكتب للطباعه ودار الفكر .
٦٩ - العقيدة أولا لو كانوا يعلمون محاضرة للدكتور عبدالعزيز القارى ، ط الأولى ١٤٠٤هـ مكتبة الدار بالمدينه .
٧٠ - الاعلام ، لخير الدين الزركلي ، دار العلم للملايين بيروت .
٧١ - الفتح المبين في طبقات الاصوليين ، عبدالله بن مصطفى المراغى ، ط ١٣٩٤هـ، الطبعة الثانيه بطبعة محمد أمين بيروت .
٧٢ - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الاسلام ابن تيمية ،ط الرابعه عام ١٣٩٨هـ دار الكندى للطباعه .
٧٣ - الفرق بين الفرق ، لابى منصور عبدالقاهر البغدادى بعناية محمد بدر،ط ١٩٢٨م
٧٤ - الفصل في الملك والاهواء والنحل للامام محمد بن علي بن حزم الظاهري ٤٠٦هـ مكتبة الخانجي بمصر .
٧٥ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الاسلامي ، للشيخ محمد بن الحسن الثعالبي الفاسي ، تحقيق د. عبدالعزيز القارىء ، ط الاولى عام ١٣٩٦هـ نشر المكتبه العلميه بالمدينه المنوره .
٧٦ - الفهرست لابي الفرج محمد بن يعقوب الشهير بابن النديم ، تحقيق رضى تجدد ، ط ١٣٩١هـ طهران .
٧٧ - القدوة الصالحه ، لحسن أدهم جرار ، ط الاولى ١٤٠٥هـ بمطابع دار الضياء عمان .
٧٨ - الكشاف لابى القاسم جار الله الزمخشري ٥٣٨ دار المعرفه بيروت .
٧٩ - الكتاب المقدس التوراة والانجيل .
٨٠ - الاكتفاء في مغازى المصطفى ، ابو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي اربع مخطوطات مجتمعه ، تحقيق د. أحمد غنيم ، ط الثانيه ١٤٠١هـ بأسم حروب الرده.

٨١ - الملل والنحل للشهر ستاني ، ط ١٣٧٥هـ مكتبة الانجلو المصريه القاهره .
٨٢ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابي بكر الخلال ، دراسه وتحقيق عبدالقادر أحمد عطا ، توزيع دار الباز للنشر والتوزيع مكه المكرمه .
٨٣ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، لشيخ الاسلام ابن تيمية ، تحقيق د. محمد السيد الجليند ، ط الثالثه دار المجتمع للنشر والتوزيع .
٨٤ - المختصر في اخبار البشر ، لعماد الدين اسماعيل أبو الفداء ، ط ١٢٨٥هـ المطبعه الوهبيه بالقاهره .
٨٥ - المدخل الى مذهب الامام أحمد بن حنبل ، للشيخ عبدالقادر بن مصطفى المعروف بابن بدران الدمشقي ، قدم له اسامه عبدالكريم الرفاعي ١٤٠٠هـ مؤسسة دار العلوم بيروت .
٨٦ - المصباح المنير ، لأحمد بن محمد الفيومي ٧٧٠هـ المكتبه العلميه بيروت .
٨٧ - المعتمد في أصول الدين للقاضي ابي يعلى محقق
٨٨ - المعتزله زهدى حسن جار الله ط عام ١٣٦٦هـ منشورات النادي العربي في يافا مطبعة مصر القاهره .
٨٩ - المغنى ابى محمد عبدالله بن أحمد بن قدامه ٦٢٠هـ مكتبة الرياض الحديثه بالرياض.
٩٠ - المنهج الحركي للسيره النبويه ، لمنير الغضبان ، ط الثانيه مكتبة المنار الاردن .
٩١ - الموطأ للأمام مالك بن انس ، دار أحياء الكتب العربيه فؤاد عبدالباقي .
٩٢ - الموافقات في أصول الأحكام للحافظ ابى اسحاق موسى اللخمي الشهير بالشاطبي دار الفكر للطباعة والنشر .
٩٣ - انباه الرواه على انباه النحاه ، لجمال الدين ابو الحسن على بن يوسف القنطى تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط ١٣٧١هـ دار الكتب المصريه .
٩٤ - الانتصاب ، لابي سعيد عبدالكريم بن محمد السمعانى ، طبعة مرغليوت سنه ١٩١٢م ليدن .
٩٥ - النجوم الزاهره في ملوك مصر والقاهره ، لابو المحاسن يوسف بن تغرى بردى ط ١٣٥٥هـ دار الكتب المصريه القاهره .
٩٦ - النظم الاسلاميه والمذاهب المعاصره دراسة مقارنه ، د. حسن عبدالحميد عويظه ط الثانيه ١٤٠١هـ دار الرشيد للنشر والتوزيع الرياض .
٩٧ - الوحدة الاسلاميه للشيخ ابو زهره دار الفكر العربي القاهره بدون تاريخ .
٩٨ - الايمان ، لشيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيميه .

ب

٩٩ - بحوث المؤتمر العالمي لتوجيه الدعوه واعداد الدعاه بتاريخ ١٣٩٧/٢/٢٤هـ طباعة الجامعه الاسلاميه .

ت

١٠٠- تذكرة الحفاظ للامام الذهبي ، دار الباز مكه المكرمه بدون تاريخ .
١٠١- تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادي ، دار الكتب العلميه بيروت .
١٠٢- تاريخ التمدن الاسلامي ، لجرجي زيدان مطبعة الهلال بالفجالة بمصر عام ١٩٠٤م.
١٠٣- تاريخ الامم والملوك المعروف بتاريخ الطبري لابي جعفر محمد بن جرير ٣١٠هـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم دار سويدان بيروت .

١٠٤ - تبليس ابليس ، للامام ابى الفرج عبدالرحمن بن الجوزى ٥٩٧هـ حققه وخرج احاديثه محمد علي ايوب العباس ، مكتبة القران للطباعه .
١٠٥ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدى ، حققه محمد زهير النجار ، ط ١٤٠٤هـ طبع ونشر الرئاسه العامه لادارات البحوث العلميه والافتاء الرياض .

ج

١٠٦ - جامع البيان عن تأويل القرآن ، لابى جعفر بن جرير الطبرى ٣١٠ هـ، ط ١٤٠٥هـ دار الفكر بيروت .
١٠٧ - جامع العلوم والحكم ، للحافظ زين الدين ابى الفرج عبدالرحمن ابن رجب دار الفكر .

ح

١٠٨ - حكمة الدعوة وصفة الدعاة ، رسالة في الدعوة لابى الحسن الندوى الناشر دار عرفات للنشر والترجمه مطبعة ندوة العلماء الهند.
١٠٩ - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، لابو نعيم أحمد بن عبدالله الاصفهاني ط الاولى عام ١٣٥٤هـ مكتبة الخانجى بمصر .

خ

١١٠ - خطة الحسبة في النظر والتطبيق والتدوين ، للفاسى ، ط الاولى طبع دار الثقافه الدار البيضاء المغرب .

د

١١١ - درء تعارض العقل والنقل ، لشيخ الاسلام ابن تيمية تحقيق د. محمد رشاد سالم ط الاولى ١٣٩٩هـ طبع جامعة الامام محمد بن سعود الاسلاميه .
١١٢ - دراسات اسلاميه ، تأليف الشيخ سيد قطب ، ط ١٣٩٣هـ بدار الشروق بيروت .
١١٣ - دعوة الرسل الى الله تعالى ، لمحمد أحمد العدوى ، ط ١٣٩٩هـ دار المعرفه للطباعه والنشر بيروت .
١١٤ - دلائل النبوه للبيهقي ، تحقيق عبدالمعطى القلعجى ، دار الكتب بيروت .

ذ

١١٥ - ذيل طبقات الحنابله للامام زين الدين ابى الفرج عبدالرحمن ابن رجب الحنبلي تحقيق محمد حامد الفقي مطبعة السنه المحمديه القاهره ط عام ١٣٧٢هـ .

ر

١١٦ - رسالة في الدعوة الى الله ، للشيخ محمد بن صالح العثيمين ، من منشورات الجامعه الاسلاميه .
١١٧ - روضة الناظر وجنة المناظر ، للامام مؤمن الدين عبدالله بن أحمد بن قدامه المقدسى .

ز

١١٨ - زاد المسير في علم التفسير ، لابي الفرج عبدالرحمن بن الجوزى ط الاولى ١٣٨٥هـ المكتب الاسلامي للطباعة والنشر .

س

١١٩ - سنن الترمذي لابى عيسى محمد بن عيسى الترمذي ، اشرف على الطبع عزت عبيد طبع المكتبه الاسلاميه ، استانبول تركيا .

١٢٠ - سنن ابو داود لسليمان بن اشعث بن اسحاق ابو داود الأزدى ٢٧٥ ، ط ١٣٩٣هـ دار الحديث بحمص .

١٢١ - سنن ابن ماجه للحافظ ابى عبدالله محمد بن يزيد القزويني ٢٠٧ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ، المكتبه الاسلاميه ، استانبول تركيا .

١٢٢ - سير اعلام النبلاء ، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ٧٤٨هـ ، ط الثانيه عام ١٤٠٥هـ مؤسسة الرساله بيروت .

ش

١٢٣ - شرح القصيد الاصفهانيه ، لشيخ الاسلام تقي الدين أحمد بن تيمية .

١٢٤ - شرح القصيد الميميه لابن القيم ، عرض وتحليل مصطفى عراقي ، الناشر مكتبة ابن تيمية القاهره ، مطبعة التقدم القاهره .

ص

١٢٥ - صحيح البخارى ، ابو عبدالله محمد بن اسماعيل البخارى ٢٥٦هـ طبع المكتب الاسلامي استانبول تركيا ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي .

١٢٦ - صحيح مسلم للامام أبى الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى النيسابورى ٢٦١هـ طبع المكتب الاسلامي تركيا ، تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي .

١٢٧ - صحيح مسلم بشرح النووى للامام الحافظ محي الدين ابو زكريا يحى بن شرف النووى ٦٧٦هـ ، دار الفكر .

ط

١٢٨ - طبقات الاولياء ، لسراج الدين عمر بن علي بن الملقن ، تحقيق نور الدين شريبه ط الاولى ١٣٩٣هـ مكتبة الخانجى القاهره .

١٢٩ - طبقات النحويين واللغويين ، لمحمد بن حسن الزبيدى ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ، ط الثانيه ١٩٨٣م دار المعارف القاهره .

ع

١٣٠ - عصر المأمون ، د. أحمد فريد رفاعي ، ط الرابعه ١٣٤٦هـ دار الكتب المصريه القاهره .

١٣١ - عقيدة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفيه وأثرها في العالم الاسلامي دار الكتب المصريه القاهره .

١٣٢ - عون المعبود شرح سنن ابى داود ، ط الثانيه تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان المكتبه السلفيه

غ

١٣٣ - غاية المرام في تخريج أحاديث الحلال والحرام للألباني طبع المكتب الاسلامي .

ف

١٣٤ - فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، للشيخ محمد بن عبدالوهاب ، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ، تحقيق محمد الفقي ط الرابعه ١٣٦٢هـ .

١٣٥ - فتح القدير ، لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني ١٢٥٠ ، الناشر دار المعرفه للطباعه والنشر بيروت .

١٣٦ - فن نشر الدعوة زمانا ومكانا ، د. محمد زين الهادى العرمابى ، ط دار العصمه الرياض .

ل

١٣٧ - لسان العرب ، للامام العلامه ابى الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور ، دار صادر بيروت .

م

١٣٨ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، للشيخ ابو الحسن الندوى ط السابعه ١٤٠٢هـ دار الكتاب العربي بيروت .

١٣٩ - مجموع فتاوى شيخ الاسلام أحمد بن تيميه ، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم النجدى وابنه محمد ، ط الاولى ١٣٩٨هـ مطابع دار العربيه بيروت توزيع دار الافتاء .

١٤٠ - مختصر منهاج السنه لشيخ الاسلام ابن تيمية اختصره الحافظ الذهبي تحقيق محب الدين الخطيب ، مكتبة دار البيان دمشق .

١٤١ - مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر للشيخ محمد الامين بن المختار الشنقيطي رحمه الله دار القلم بيروت .

١٤٢ - مسند الامام أحمد بن حنبل للامام أحمد بن حنبل مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع .

١٤٣ - مطالع البدور في منازل السرور لعلاء الدين على بن عبدالله العزولي ، ط الاولى ١٢٩٩هـ مطبعة الوطن القاهره .

١٤٤ - معالم القربه في احكام الحسبه لمحمد بن محمد القرشى المعروف بابن الاخوه ٧٢٩هـ تحقيق محمد محمود شعبان وغيره ، ط ١٩٧٦م مطابع الهيئه المصريه العامه للكتاب .

١٤٥ - مع الله دراسات في الدعوة والدعاة ، للشيخ محمد الغزالي ، ط الخامسه ١٤٠١هـ مطبعة حسان الناشر المكتبه الاسلاميه .

١٤٦ - معجم الادباء ، لياقوت الحموى ، ط ١٣٥٥هـ دار المأمون القاهره .

١٤٧ - مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين لابى الحسن الاشعري ت ٣٣٠هـ تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، ط الثانيه ١٣٨٩هـ مكتبة النهضه المصريه .

١٤٨ - منادمة الاطلال ومسامرة الخيال ، للشيخ عبدالقادر بدران ، بعناية محمد زهير الشاويش ، ط الاولى ١٣٧٩هـ منشورات المكتب الاسلامي دمشق على نفقة الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني .

١٤٩ - مناهج الجدل في القرآن الكريم ، د. عوض زاهر الألمعي ط الثانيه ١٤٠٠هـ مطبعة الفرزدق .

١٥٠ - ميزان الاعتدال ، للحافظ الذهبي ، ط دار المعارف بيروت توزيع الرئاسه العامه للافتاء .

ن

١٥١ - نظام الحسبه في الاسلام دراسه مقارنه ، لعبدالعزيز بن محمد مرشد مطبعة المدينه بالرياض .

١٥٢ - نهاية الرتبه في طلب الحسبة ، لعبدالرحمن بن نصر الشيزرى ، ط الثانيه ١٤٠١هـ دار الثقافه بيروت .

١٥٣ - نيل الاوطار شرح منتقى الاخبار للشيخ محمد بن علي الشوكاني ١٢٥٥ هـ الناشر مكتبة الدعوة الاسلاميه شباب الأزهر .

هـ

١٥٤ - هداية المرشدبن الى طريق الوعظ والخطابه ، للشيخ على محفوظ ، دار المعرفه للطباعه والنشر بيروت .

و

١٥٥ - وفيات الاعيان ، لابن خلكان طبع عام ١٢٩٩هـ بمطابع بولاق القاهره .

فهـــرس الـمـوضـوعـــات

الموضوع	الصفحه
المقدمه	
التعريف بان القيم	
الباب الأول : أصول الدعوة عند ابن القيم	
الفصل الأول موضوع الدعوة	١
المبحث الاول تعريف الدعوة وحكمها	١
تعريف الدعوة في اللغه	١
تعريف الدعوة في الاصطلاح	٢
التعريف المختار	٣
حكم الدعوة	٣
الوجوب الكفائي ، والوجوب العيني	٤
رأى ابن القيم	٦
الجمع بين الأقوال	٧
المبحث الثاني الحاجة اليها وفضلها	١٠
لماذا دعوة الرسل	١٠
حاجة الناس الى مبعث النبي صلى الله عليه وسلم	١١
الانحلال وأسبابه	١٤
مجلات الدعوة	١٧
فضل الدعوة والداعيه	١٩
أفضل الدعاة الانبياء	٢١
الدعاة ورثة الانبياء	٢٢
عظيم أجر الداعيه	٢٥
المبحث الثالث موضوع الدعوة : الاسلام	٢٩
تعريف الاسلام	٢٩
الفرق بين الاسلام والايمان	٣١
شرح اركان الاسلام ومنهجه في الدعوة اليها	٣٢
مفتاح الدعوة الى هذه الاركان .	٣٣
معنى شهادة أن لا اله الا الله .	٣٤
"" لا اله الا الله	٣٤
خلقه سبحانه السموات والارض وما بينهما كان بها ولاجلها	٣٦
اثبات وجود الله ومنهجه في دعوة الملحدين	٣٧
الدليل الاول : الفطره	٣٨
ابن القيم والفطره	٣٩
الدليل الثاني : التفكر في آيات الله وتدبرها	٤٠
طرق الاستدلال على وجود الله	٤١
منهج ابن القيم في الاستلال على وجود الله	٤٢
التفكر والتدبر قائد الى العلم بوجود الله	٤٢

الموضوع	الصفحه
الدليل الثالث : النظر في مفعولاته	٤٣
دليل الخلق	٤٥
خلق السماء	٤٦
خلق الارض	٤٧
خلق الانسان	٤٩
خلق الحيوان	٥٠
دليل العنايه	٥٠
اثبات وحدانية الله وهو محل منازعة في دعوة المشركين	٥٢
الاستدلال على وحدانيته بنظام الكون	٥٣
التركيز على ابطال معبودات المشركين	٥٥
الشطر الثاني من الركن الاول شهادة أن محمداً رسول الله	٥٧
لازم النطق بهذه الشهاده	٥٩
اثبات نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ومنهجه في دعوة أهل الكتاب	٥٩
دلائل نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم	٦٢
اولاً : المسلك النوعي	٦٢
ثانياً : المسلك الشخصي	٦٦
ثالثاً : المعجزات الحسيّه	٦٨
رابعاً : المسلك النقلي	٧٠
البشارات في الكتب المقدسه	٧١
الوجه الأول	٧٢
الوجه الثاني	٧٣
الوجه الثالث	٧٣
لازم الشهادتين محبة الله ورسوله	٧٥
انواع المحبة	٧٦
حركة كل متحرك انما وجدت بسبب الحب	٧٦
أصل الاعمال الدينيه حب الله ورسوله	٧٧
علامات هذه المحبة وشواهدها	٧٨
القسم الثاني من اركان الاسلام	٨٢
حاجة العباد الى العبادة	٨٢
الادله على أن العبادة مصلحة العبد وسعادته	٨٥
الركن الثاني : الصلاة	٨٩
منافع الصلاة	٩٠
تحذير الساجد	٩١
مراتب الناس في الصلاة	٩٢
وصف ابن القيم لاحد السابقين اذا قام الى صلاته	٩٣
الركن الثالث : الزكاة	١٠٠
الحكمة في مقادير الزكاة	١٠٢

الموضوع	الصفحه
الركن الرابع : الصيام	١٠٤
حقيقة الصوم	١٠٤
تأثير الصوم	١٠٥
الركن الخامس : الحج	١٠٧
الحكمة من تشريع الحج	١٠٨
الفصل الثاني : أهداف الدعوة عند ابن القيم	
تمهيد	١٠٩
المبحث الأول: سيادة شرع الله	١١٠
مقاصد شرع الله	١١١
أولاً : عبادة الله وحده	١١١
ثانياً : تحقيق مصالح العباد	١١٥
أهباط آدم عليه السلام لتحقيق هذين المقصدين	١١٧
ما هو شرع الله	١٢٠
كيف تعرف محاسن الشرع	١٢١
المبحث الثاني: تقرير مذهب السلف	١٢٤
تعريف السلف	١٢٤
منهم السلف	١٢٥
خير من يمثلهم حفاظ الحديث	١٢٦
لماذا يترجح مذهب السلف	١٢٩
المبحث الثالث: تربية الأمه المسلمه	١٣٠
تمهيد	١٣٠
مصادره في التربيه	١٣١
نظرة ابن القيم للتربيه	١٣٢
الفصل الثالث : صفات الداعيه	١٣٤
تمهيد	١٣٤
أولاً : العلم	١٣٥
العلم المفروض تعلمه	١٣٨
مراتب العلم	١٣٩
فضائل العلم	١٤٠
البصيره	١٤١
ثانياً : الاخلاص	١٤٤
الادلة على وجوبه	١٤٥
تعريف الاخلاص	١٤٦
ثالثاً : الصبر	١٤٨
تعريف الصبر	١٤٩
الداعيه والصبر	١٤٩

الموضوع	الصفحة
منهج القرآن الكريم في الصبر	١٥١
أقسام الصبر	١٥٣
الاسباب المعينه على الصبر	١٥٣
رابعاً : التواضع	١٥٦
تعريف التواضع	١٥٦
درجات التواضع	١٥٧
خامساً : الزهد	١٥٩
تعريف الزهد	١٦٠
سادساً : الصدق	١٦٢
اخلاق الداعيه	١٦٣
التأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم	١٦٤
الفصل الرابع : اساليب الدعوة ووسائلها عند ابن القيم	
تمهيد في الفرق بين الاساليب والوسائل وغيرها وتعريفها	١٦٨
أولاً : الأساليب	١٧٠
أ - اسلوب الحكمه	١٧٢
تعريف الحكمة	١٧٢
لمن يستخدم اسلوب الحكمة	١٧٤
الاسلام دين الفطرة	١٧٤
العرب قوم فطريون	١٧٧
ب - اسلوب الموعظه ومنهجه في دعوة العصاة والمبتدعين	١٨١
تعريف الموعظه	١٨١
مجالها	١٨١
انواع الموعظة	١٨٣
النوع الأول : عظة بالمسموع	١٨٣
أولاً : الترغيب والترهيب	١٨٣
ثانياً : ضرب الامثال	١٨٥
تعريف ابن القيم للمثل	١٨٦
ثالثاً : القصه	١٨٨
قصص ابن القيم ومواعظه	١٩٠
النوع الثاني : العظه بالمشهود	١٩٥
التفكر رائد هذا النوع	١٩٥
أولاً : الموعظه بالمشاهد من آيات الخلق	١٩٧
ثانياً : أفعاله سبحانه وتعالى بالأمم السابقه	١٩٩
ثالثاً : ما يحدثه الله فيها في كل وقت	٢٠١
اسلوب الجدل ومنهجه في دعوة المعاندين ولمبارضيه من المشركين واليهود	٢٠٢
تعريفه وأفضل الكتاب وغيرهم	٢٠٢
لمن يستخدم	٢٠٢

الموضوع	الصفحه
الجدل الممدوح	٢٠٤
الجدل المذموم	٢٠٥
جدل القرآن الكريم	٢٠٧
نظرة ابن القيم للجدل	٢١١
أسلوب الجهاد في سبيل الله	٢١٣
مكانته وفضله	٢١٣
كيف يكون الجهاد من طرق الدعوة	٢١٦
الحكم من شرع الجهاد	٢١٩
حكم الجهاد	٢٢٢
ثانياً : الوسائل	٢٢٣
أولاً : التعليم	٢٢٤
مكانة المعلم والمتعلم	٢٢٤
ثانياً : الخطابه	٢٢٩
فوائد هذه الوسيله	٢٣٠
ابن القيم والخطابه	٢٣٢
أجزاء الخطابه	٢٣٢
واجبات الخطيب	٢٣٤
ثالثاً : القلم	٢٣٨
فضائله	٢٣٨
رتب الاقلام	٢٤٠
استخدام ابن القيم لهذه الوسيله	٢٤٢
الباب الثاني : منهجه في الاسس العلميه في مجال الدعوة	
الفصل الأول : في مجال الأصول الاعتقاديه	٢٤٤
تمهيد	٢٤٤
موقفه من الفرق	٢٤٦
نشأة الفرق	٢٤٨
مراحل الافتراق	٢٥٣
أسباب افتراق الفرق كما يراها ابن القيم	٢٥٥
المنهج الذي ارتضاه ابن القيم وسار عليه	٢٥٦
أولاً الاعتماد على الادله من الكتاب والسنه	٢٦٠
ثانياً : بيان مذهب السلف بطريق العرض	٢٦٢
الدفاع عن مذهب السلف ورد المطاعن الموجهه اليهم والى مصادرهم	٢٦٦
موقف الناس من نصوص الوحي	٢٦٧
ثالثاً : الرد على المخالفين وبيان فساد مذهبهم	٢٧٠
صور من هذا المنهج	٢٧٠

الموضـــوع	الصفحـــه
الفصـــل الثانـي : منهجـه في مجال الفـروع الشرعيـه	٢٧٨
تمهيـــد	٢٧٨
مسيرة الفقـه الاســلامـي وتاريخ حركتـه	٢٧٩
سبـب الاختـــلاف	٢٨٠
كســره سلطان التقليـد وفتـح باب الاجتهـاد	٢٨٤
موقفـه مـن التقليـد	٢٨٦
الـرد علـى المقلـديـن	٢٩٠
متـى يسـوغ التقليـــد	٢٩٣
متـى يجـب التقليـــد	٢٩٥
اصولـه التي اعتمـد عليهـا في الفتـوى	٢٩٧
مذهبـــــه	٢٩٧
أولاً : النصـــوص	٢٩٨
منـــزلة السنـــه مـن الكتـاب	٣٠١
ثانيـاً : فتـاوى الصحابـه	٣٠٣
الادلـه العقليـه والنقليـه على ذلـك	٣٠٣
ما الحكـم اذا اختلـف الصحابـه	٣٠٥
ثالثـاً : الاجمـــاع	٣٠٦
تعريفـــــه	٣٠٦
رابعـاً : القيـــاس	٣٠٩
تعريـــف القيـــاس	٣١٠
الطرف الاول : منعـوا التعبـد بالقيـاس	٣١١
مناقشتهـــم والرد عليهـــم	٣١٢
الطـرف الثانـي : أوجبوا التعبـد بالقيـاس	٣١٤
مناقشتهـــم والـرد عليهـــم	٣١٤
المتوسطون وهم القائلون بجواز القياس	٣١٦
ادلتهـــم علـى الجـــواز	٣١٧
التسويـه بين المتماثلين والفرق بين المختلفين في القـــرآن	٣١٨
التساوى بيـن المتماثليـن في الاحكام الشرعيـــه	٣١٩
القـرآن يعلـــل الاحكـــام	٣١٩
النبي صلى الله عليـه وسلـم يعلل الاحكـام	٣٢٠
الاقيســه المستعمله للأستدلال في القـرآن	٣٢١
الصحابـه يجتهدون ويقيســون	٣٢٢
اجتمـاع الفقهـاء على مسـائـل في القيـــاس	٣٢٣
الترجيـــــح	٣٢٤
خامسـاً : الاستصحـــاب	٣٢٥

الموضـــــوع	الصفحـه
أولا : استصحـاب البراءه الاصليـــه	٣٢٥
ثانيـا : استصحـاب الوصـف المثبـت للحكـم	٣٢٦
ثالثـا استصحـاب حكـم الاجماع فـي محـل النـزاع	٣٢٦
سـادســـا : المصالـح المرسلـــه	٣٢٧
سابعـــا : ســـد الذرائـــع	٣٢٧
الفصـل الثالـث : منهجـــه فـي اصـلاح المجتمـع	٣٣٠
تمهيـــــد .	٣٣٠
مفهـوم التربيـه عنـد ابـن القيـم .	٣٣٠
لكـل داء دواء	٣٣٢
سـاحـة الاصـــلاح	٣٣٣
تعريـف القلـــب	٣٣٥
صـــراع لابـّـــد منـــه	٣٣٦
العـــــدو	٣٣٧
لـواء الانســـان	٣٣٨
الحكمـــة مـن التسليـــط	٣٣٨
جنـود القلـــب	٣٣٨
خطـــة محكمـــه	٣٣٩
أسـاليـب الغـــزو	٣٤١
نتـائـج هـذا الصـراع	٣٤٣
القلـب السليـــم	٣٤٣
القلـب الميـــت	٣٤٥
القلـــب المريـــض	٣٤٦
العـــــــلاج	٣٤٧
أولا : مايحفـــظ عليـه قـوتـــه	٣٥٠
أ ـ العبادات	٣٥١
ب ـ الذكـــر	٣٥٤
انـواع الذكـــــــر	٣٥٦
جـ ـ الدعـــاء	٣٥٧
صفـات الدعـــاء المستجـــاب	٣٥٨
ثانيـا حميـة القلـب عـن المؤذى الضـــار	٣٥٩
أ ـ حميتـــه مـن الشيطـــان	٣٥٩
ب ـ حميتـه مـن استيـلاء النفـس عليـه	٣٦٠
المحاسبـــه ومحلهـــا	٣٦١
المخالفـــــه	٣٦٢
جـ ـ حمـة القلـب عـن الآثـــام والمعاصـى	٣٦٣
ثالثـا : استفراغـه من كـل مـادة فاســده	٣٦٤
التوبـة وشروطهـــا وحقيقتهـــا	٣٦٥

الموضـــــوع	الصفحـه
الاســاس الثانـي فـي اصــلاح المجتمـع الســياسيـه	٣٦٦
قـوام السياســه الاسـلاميـه	٣٦٦
الامـامـــه	٣٦٨
واجبـــات الامـــام	٣٦٩
واجبـــات الـرعيـــه	٣٧٠
البـاب الثالـث : منهجـــه فـي الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـــر	
الفصـــل الأول : دراســات في الأمـر بالمعروف والنهى عـن المنكـــر	٣٧١
مكانتـــه فـي الاســلام	٣٧١
حكـم الأمـر بالمعـروف والنهي عن المنكـــر	٣٧٣
أدلـــت مشـروعيتـــه	٣٧٤
علاقـة الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكـر بالدعـــوة	٣٧٦
تعريـف الحسبـة فـي اللغـــهوالاصطـلاح ووجـه الاستعاره من المعنى اللغوى	٣٨١
شـــرح التعريـــف	٣٨٢
تعريـف الحسبـة عنـد ابـن القيـم	٣٨٣
نشـأة ولايـــة الحسبـــة	٣٨٧
أختـلاف الاختصـاصات باختـلاف العصـور والحكـام	٣٨٨
التشريـع والعمـل وهو الوجـه الأول	٣٨٩
تأسيـــس ولايـة خاصـة بالحسبـة الوجـه الثانـي	٣٩٣
الفصـل الثانـي : اركـــان الحسبـــه	٣٩٤
اولاً : المحتســـب	٣٩٤
شـــروطـــــــه	٣٩٤
آداب المحتسـب وأخـــلاقـــه	٣٩٩
ثانيـــاً : المحتســـب عليـــه	٤٠١
ثالثـاً : المحتســـب فيـــــه	٤٠٣
اتســـاع موضـــوع الحسبـــة	٤٠٣
شـــروط المنكـر الموجـب للحسبـــة	٤٠٤
رابعـــاً : الاحتســـاب	٤٠٩
مراتـب انكـار المنكـــر	٤٠٩
اليـــد	٤٠٩
اللســـان	٤١١
درجـات انكـــار المنكـــر	٤١٢
القلـــب	٤١٣
اختصـاصـات المحتسب وسلطاتـه عنـد ابـن القيـم	٤١٤
أولاً : الاختصـاصـات المتعلقـه بالاعتقـــاد	٤١٤
احتسـابـه علـى بـدع القبـــور	٤١٦
منهجـــه فـي الاحتســـاب علـى بـدع القبـــور ورد نحلهـم	٤١٩
اسبـاب وقـوعهـــم فـي البـــدع	٤٢٩

الموضـــــوع	الصفحـه
ثانيـــا : اختصـاصـات تتعلـق بالعبادات	٤٣٢
ثالثـا : اختصـاصـات تتعلـق بالمعامـلات	٤٣٣
البيـــوع	٤٣٣
الربـــا وانـــواعـــه	٤٣٦
رابعـا : اختصـاصات تتعلـق بأصحـاب الحـرف والصناعـات	٤٣٨
خامسا : اختصـاصات تتعلـق بالأضـرار العامـه والظلـم للناس	٤٤٠
الاحتكـــار	٤٤٠
بيـــع الحاضـــر للبـادى	٤٤١
التسعـــير	٤٤١
موقـف ابـن القيـم مـن التسعـير	٤٤٢
سادسـا : اختصاصات تتعلـق بالآداب والفضيلـة والأخـلاق الاسلاميـه	٤٤٥
سلطـــات المحتســب	٤٤٨
التعـزيـــر	٤٤٩
مقـــداره	٤٤٩
انـــواع التعـــزيـــر	٤٥١
تعـزيـرات معنـويـــه	٤٥٢
تعـزيـرات بـدنيـــه	٤٥٢
تعـزيرات مـاليـــه	٤٥٣
الخاتمـــــــه	٤٥٥
فهـــرس الآيـــات	٤٥٧
فهـــرس الاحـاديـــث	٤٧٤
فهـــرس الاعـــــلام	٤٧٩
فهـــرس المصـادر والمراجـع	٤٨١
فهـــــرس المـوضـــوعـــات	٤٩٠